عبد العزيز عبد الغني إبراهيم



روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية

الجزء الثالث

١٩٠٠ ـ ١٩٥٢

دار الساقي

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم

روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية

الجزء الثالث

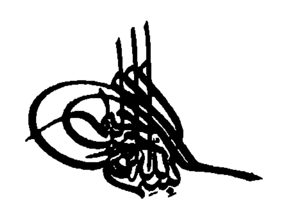
١٩٠٠ - ١٩٥٢





للمؤلف

1. **بريطانيا وإمارات الساحل العماني**، دراسة وثائقية، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1978 م.
2. **التوسع الإقليمي لإيران في إمارات الساحل العماني**، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة 1979 م.
3. **حكومة الهند والإدارة في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض، 1981.
4. **السلام البريطاني في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار المريخ، الرياض، 1981.
5. **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي (1914-1868م)**، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1982.
6. **علاقة ساحل عمان ببريطانيا**، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز الرياض، 1982.
7. **أمراء وغزاة، قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج**، دراسة وثائقية، دار الساقي، لندن، 1988.
8. **صراع الأمراء، علاقة نجد بالقوى السياسية في الخليج العربي**، دراسة وثائقية، دار الساقي، لندن، 1991.
9. **نجديون وراء الحدود (1950-1750)**، دار الساقي، لندن، 1991.
10. **حبال ودمى، بداية العلاقات العربية الأمريكية**، دار الأصالة، الخرطوم، 1992.
11. **أهل بلال، جذور الإسلام التاريخية في الحبشة**، الدار السودانية، الخرطوم، 1995.
12. **محاضرات في تاريخ أوروبا بين النهضة والثورة الفرنسية**، دار ألقا، مالطا، 1997.
13. **محاضرات في تاريخ النهضة الأوروبية**، دار ألقا، مالطا، 1997.
14. **التاريخ، تاريخه وتفسيره وكتابته**، الدار السودانية، الخرطوم، 1999.
15. **من الوثائق العثمانية في تاريخ الخليج والجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000.
16. **من المصادر البريطانية في تاريخ الخليج والجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001.
17. **من وثائق الأرشيف المصري في تاريخ الخليج وشبه الجزيرة العربية**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2001.
18. **تاريخ عمان (ترجمة رحلة ولستد في عمان)**، دار الساقي، بيروت، 2001.
19. **أبو ظبي، توحيد الإمارة وقيام الاتحاد**، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، 2004.



الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-1-85516-960-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

الإهداء

إلى عبد العزيز بن ياسر

قديماً قال شاعر من شعراء الفرنجة)بتصرف)

ادفع عربتك، امض،

أحنِ ظهرك لكن ارفع رأسك، اصعد،

فكلما كانت قمة الجبل أعلى صار المشهد أحلى.

ينطلق هذا الصغير خفّاقاً بجناحيه،

يصعد في الأجواء نحو النجوم، غير عابئ بذلك الفضاء اللانهائي،

ذلك مع أن الصغير يدرك أن رحلة جدّه ستنتهي،

لكنه سيحيا بعده،

ويعيش مثله ربيعاً دائماً.

مع حبي

جدك، عبد العزيز

المحتويات

المقدمة

نعالج في هذا المجلد من الرحالة من زار منهم شبه الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن العشرين، كما نعالج أيضاً متفرقات شتات بدأنا بها هذا السفر ألزمتنا بها وحدة الموضوع، ولربما اضطرنا السياق الموضوعي في هذا المجلد إلى الخروج شيئاً يسيراً عن السياق الزمني الذي التزمناه في المجلدين السابقين. فهناك في هذا المجلد التنصير الأمريكي في شبه الجزيرة العربية الذي كان بعض روّاده لا يؤمن بالمسيح عليه السلام ولا يعترف برسالته، ويقع هذا الموضوع زمنياً في الفترة التي يعالجها هذا المجلد، ولكننا اخترنا أن نقدم لهذا النشاط الأمريكي في الخليج بزيارة قام بها أحد التجار الأمريكان إليه في فترة سابقة تقع زمنياً في دائرة المجلد الثاني ولكنها لا تتصل موضوعياً بما ورد فيه. وهناك موضوع آخر أدرجناه في هذا السفر يعالج رحلات النسوان الغربيات، نوق إبليس الوافدات إلى شبه الجزيرة العربية. ولكن رحلات بعضهن، من أمثال آن بلنت وغيرها، لا تقع زمنياً ضمن الفترة التي نعالجها في هذا الكتاب. ويعود ذلك إلى أنه رغم الأهمية التي تمثلها رحلة آن بلنت إلى حائل والتي تقع زمنياً ضمن دائرة الكتاب الثاني، اضطررنا إلى أن نعالجها موضوعياً بإدراج هذه النوق جميعها في حظيرة واحدة، فجعلنا موضوع بلنت والسابقات لها كالمقدمة لناقة بريطانية أصيلة هي جرترود بل، لورنسة العرب وصانعة بعض ملوكهم، ولأخوات لها تركن آثار خفافهن على وجه تاريخنا العربي. كذلك اضطررنا أحياناً إلى أن نشير عرضاً في سياق حديثنا في هذا المجلد الخاص ببعض رحالة النصف الأول من القرن العشرين إلى بعض مشاهير الرحالة الأوروبيين الأسبقين الذين لم نتمكن من دراستهم ضمن من درسناهم في المجلد الثاني، لكننا لا نزال نعتقد أن الإشارة إلى جهودهم - حيثما سنحت الفرصة - أمر فرض. كذلك قد يلاحظ البعض أننا قد تجاوزنا الإشارة إلى ولستد، أحد أهم الرحالة من الذين جابوا الأرض العمانية، وما ذلك إلا لأننا سبق لنا أن ترجمنا له الجزء الثاني من كتابه الذي قامت دار الساقي، بيروت، بنشره في عام ٢٠٠٠م، تحت عنوان: **تاريخ عمان.**

تميزت بداية القرن العشرين بإحكام القبضة الهندوبريطانية على مخانق الخليج، فتمّت لها الهيمنة الكاملة على خناق مسقط، كما أمسكت أيضاً بخناق الكويت التي برزت في بعض

المخططات الدولية كنهاية للخطوط الحديدية المستحدثة. و لم تكن الإمبراطورية البريطانية لتسمح بوجود دولي مغاير في هذه المنطقة الحيوية لاستراتيجية الهند الدفاعية ما لم يكن زمام السيطرة الكاملة رهناً بيدها من دون سواها من القوى الدولية الأخرى. وكان كيرزن، حاكم عام الهند ونائب الملك فيها في هذه الفترة من بداية القرن، هو عرّاب هذه السياسة والقائم على تنفيذها. ورغم أن هذه السياسة الاحتكارية أو ربما الاستحواذية كانت هي السياسة الإمبراطورية المعتمدة لدى لندن، كانت تلك العاصمة تجنح تحت الضغوط الدولية إلى المناورة أحياناً، وقد تضطر إلى أن تقدم من دون أن تفارق أسس سياستها إلا بنحو هامشي تنازلات قد لا يتعدى مداها التصريحات الدبلوماسية الجوفاء. أما كيرزن، نائب الملك في الهند وحاكمها العام، فقد ظلّ في تشدده لتطبيق هذه السياسة وعدم المساومة على أي قدر منها ولو كان يسيراً، يتهم كل وزير في حكومة لندن بالخيانة إذا عمل ذلك الوزير على أن يساوم أي قوة دولية في أي شأن يمكن أن يقود – ولو شكلياً – إلى أدنى تخفيف لهذ القبضة المحكمة على خناق الخليج.

بدأنا هذا المجلد بالزيارة التي قام بها كيرزن في بداية القرن العشرين للخليج للتأكد من أن أصول السياسة التي يسعى جهده للحفاظ عليها مطبّقة بإحكام لا يتسرب إليه خلل. هدف كيرزن، نائب الملك في الهند، إلى التأكيد للرؤساء والحكام العرب في الخليج أن كل من يزوغ عن هذه السياسة أو يحاول أن يتزحزح عنها بالخروج قيد أنملة فهو لا محالة هالك. وأبلغ كيرزن الحكام العرب في الخليج – بلا مواربة – أن الأمن الذي يعيشونه هو الأمن البريطاني الذي أنقذهم من الهلاك على أيدي أعدائهم، جيرانهم من بني جلدتهم، لا آخر سواه. ولعل من يقرأ خطبة كيرزن التي نقلناها في كتابنا هذا كما وردت في أضابير وثائق مكتب الهند، يلاحظ أن الرجل لم يكن يعرف العربية، فألقى خُطبه بلغته، وتولى بعض العاملين معه من الأعاجم ترجمة تلك الخطب للمستمعين، وقد راجعنا نصوصها في أصولها الإنجليزية فوجدناها سليمة في نقلها للنص الإنجليزي إلى العربية، ذلك رغم أن الترجمة جاءت ركيكة الأسلوب وتطفح بالكلمات العامية. وقد نستطيع القول إن هذه الترجمات – رغم ما هي عليه من قصور – تفضل من الناحية العلمية كثيراً من الترجمات التي قام بها بعض المترجمين العرب لعدد من كتب هؤلاء الرحالة، فهي قد تقيدت بحرفية النص و لم تعمد إلى تحويره لتلطيف المعنى المراد كما يفعل العديد من المترجمين العرب لتسويق كتب الرحلة الغربية للقارئ العربي.

لعلنا نستطيع في هذا الكتاب المتمّم للكتابين السابقين له أن نستنكر ما يقوم به بعض المترجمين العرب من نقل أدب الرحلة الغربية إلى العربية، فقد أبرزنا من خصائص هذا الأدب في "خطبة الكتاب" في المجلد الأول، و"بين يدي هذا الكتاب" في المجلد الثاني، ما يمكن أن يقنعنا بأن هذا النمط من الأدب لا يعني القارئ العربي في قبيل ولا دبير، ولكنه، مع ذلك، يجب أن يظفر – من دون أن تمسّه يد المترجم – باهتمام لا مزيد فوقه من العاملين العرب في مجال الإنسانيات.

تصادف أن راجعنا بعض كتب الرحلة الغربية المترجمة إلى العربية حديثاً، فوجدنا أن العديد من المترجمين قد حرّف الكثير من العبارات التي تسيء إلى العرب أو بدّلها، أو ربما اضطر أحياناً إلى أن يسقط من ترجمته لتلك النصوص بعض الأقوال والأفكار الواردة في النصّ. وقد وصل الأمر ببعضهم إلى حذف فصول كاملة ممّا كتبه أولئك النفر، فجاء الكتاب المترجم أبتر لا يعبّر عن مضمون ما رمى إليه ذلك الرحالة، ولعلنا نجد أننا حين نجدع في صورة كليوباترة أنفها فلا يمكن تلك الصورة بعدئذ أن تدل على تلك الملكة التي أسلمت مصر بتاريخها العريق إلى ذلك القائد الروماني قبل أن تسلم له نفسها.

ربما كانت عدم أمانة هذا المترجم الذي حرّف النصّ الأصلي أو أسقط بعضه وبدّل مغزى الكتاب المُترجم وغيّر فحواه أميز - من الناحية الأخلاقية - من عدد قليل من مترجمين عرب آخرين التزموا - كما فعل الأعاجم الذين ترجموا خطب كيرزن - نقل نصّ رواية الرحالة بكل ما تحمله من سخف إلى العربية فنقلوا - بتحريهم عن أمانة النقل - إلى قومهم جملة إساءات مقذعة هم في غنى عن سماعها. وفي الحقيقة فإننا لا نرى فائدة علمية أو أدبية تُرجى للقارئ العربي من ترجمة أدب الرحلة الغربية إلى العربية، فنحن حين نلتزم أمانة النقل نسيء - في الغالب - إلى قومنا بلا معنى، وإذا لم نلتزم ذلك روّجنا لتلك الكتب التي بدلنا مراميها. وعلى الرغم من أننا نعتقد أن العديد من هذه الكتب المترجمة إلى العربية تبرّأ من بلادة الأسلوب، نجد أن كثيراً من المترجمين لم يبذلوا جهداً حقيقياً في تحقيق المواقع التي تحدث عنها الرحالة أو أسماء الأعلام، ما جعل العديد من هذه الكتب المترجمة من دون تحقيق - مع ما هي عليه من نقص مخل - عديمة الفائدة العلمية تماماً. وقد سبق لنا أن ترجمنا - كما أشرنا سابقاً - كتاباً لأحد هؤلاء الرحالة ونشرناه لاعتقادنا أن كاتبه مختلف هوناً ما عن العديد من الرحالة الغربيين الآخرين. وقد أسقطنا ترجمة ما ورد عند هذا الرحالة من ملاحظات عن الإسلام، خاصة ما ذكره عن الفروقات بين الفرق والمذاهب والجماعات الدينية، وأشرنا في مقدمة الكتاب المترجم إلى الموضوعات التي أهملنا ترجمتها، واعتذرنا للقارئ - بصدق - بأن نقل ما أهملنا نقله إلى العربية لا يفيد القارئ العربي في شيء، فذلك الرحالة لا يعرف ممّا ذكره في هذا المجال شيئاً كثيراً، فهو يهرف فيه بما لا يعرف. ونصحنا من يرغب في دراسة ما يتصل بهذه الفرق الإسلامية أن يراجع ما كتبه فقهاؤها والمناوئون لهم، وهو كثير ومتوافر بالعربية، وعلى القارئ العربي ألا يأخذ ذلك من رحالة غربي جاهل بأصول هذا الدين، ولم يزد ما كتبه في هذا المجال على ما سمعه من أشخاص التقاهم ممن كانوا ينتمون إلى تلك المدارس المتعارضة. ورغم ما حمله اعتذارنا من صدق، وجدنا لاحقاً في النفس شيئاً يتهمنا بأننا باعتذارنا عمّا بترناه قرأنا: ويل للمصلين، وأشرنا إلى أن للآية الكريمة تتمة، ولكننا لم نشر إلى أن تتمّتها تنصّ على أن الويل يلحق بالذين هم عن صلاتهم ساهون، فالكتاب إذا أسقط منه أي جزء، ولو كان يسيراً، لن يستطيع

أنن يعبّر عن فكر كاتبه ولا عن اتجاهاته. ولعلنا بهذا نريد أن نقطع بأن ترجمة أدب الرحلة الغربية بالتزام أو بغيره أمر غير مطلوب، وذلك لأن لهذا الأدب - في أعمّه - جملة أهداف كانت في مجملها استعمارية وتنصيرية تتناقض تماماً مع الفكر التحرري للشعوب في عالمنا الشرقي وتناقض قيم المجتمعات المسلمة. ولا نلوم أولئك الرحالة الغربيين الذين أدّوا بما سطّروا واجباتهم تجاه مجتمعاتهم التي خاطبوها، ولم يطرأ في أذهانهم قط أنهم قد يخاطبون المجتمع العربي في زمانهم أو في ما يليه. وحين دعونا - من جانبنا - الباحثين العرب إلى دراسة هذا الأدب في لغاته الأصلية، قصدنا أن يتوصل الجادون منهم إلى فهم ما وقر في أذهان المجتمعات الغربية من آثاره واستلهام ما غمض من مقاصده وخفي من معانيه، لعلنا نستحدث ترياقاً يخفف عن مجتمعاتنا العربية آثار سمومه التي لا تزال تؤثر على الفكر الغربي إلى حدّ بعيد. صيغ أدب الرحلة الغربية للمجتمعات الغربية، وطُبع في الغرب، وأعيد طبعه مراراً في صور وأنماط مختلفة. ولا يزال هناك في بعض الدوائر الغربية من يؤكد ويعيد تأكيد صور التفرق والتشرذم والتحزّب الذي يتوافر عليه المجتمع العربي البدائي الغريب الذي ابتدعه أولئك الرحالة، ويدعو المجتمع الغربي المستنير إلى القيام بواجب قيادة هؤلاء الهمج الشرقيين وإرشادهم وعولمتهم بعد غربنتهم.

قد ندرك الدوافع التي يمكن أن تحمل البعض على إصدار ترجمة غير صادقة لبعض كتب الرحلة الغربية وتسويق هذا الفن الخبيث للقارئ العربي، ولكننا لا نستطيع البتّة أن نفهم ما يقوم به البعض منا من ترجمة ما يكتبه الباحثون الغربيون عن رحالتهم الذين "استكشفوا" شبه الجزيرة العربية وتقريظهم الجهود التي قام بها أبناء جلدتهم في هذا المجال. وغني عن البيان أن هؤلاء الباحثين الغربيين قضوا حقّاً واجباً تجاه أولئك الرحالة على مجتمعاتهم، فراحوا يتغنّون بمآثرهم ويُحفّزون بها بني جلدتهم للمضي قُدماً في طريق أسلافهم. فقد كان أولئك الرحالة العيون التي استكشفت لبلدانهم السبل لإقامة الإمبراطوريات، وباتوا لها الآذان التي تلتقط همسات السائرين بلا وعي في تلك الدروب، كما كانوا - بعد قيام الإمبراطوريات - اللسان المعبّر عن مصالحها بصرامة تقتضيها الصراحة أو بمعسول من القول تقتضيه الحصافة حيث لا تصلح الصراحة. وحقّ للباحثين الغربيين أن يستبقوا في مؤلفاتهم تلك المآثر حيّة في ضمائر أوطانهم، ولكن هل يحقّ لنا - معشر العرب - ترجمة تلك الشهادات ونشرها والعمل للترويج في أوساط القرّاء العرب للأحابيل التي نصبها الخداع الذي مارسته جرترود بل ورعاه لورنس "العرب" وكيرزن وزويمر وأمثالهم من الغابرين واللاحقين الذين أورثوا مجتمعاتنا الخيبة والهزيمة بالمكر والخداع، وباتت ذكرى أفعالهم الغادرة شأناً لا يخصّ إلا الباحثين منّا في مجالات الاجتماع والدراسات الإنسانية المقارنة لدراستها وبيان مراميها والتصدي لإضعاف تأثيرها السلبي على مجتمعاتنا. ويقع على هذه الشريحة من الباحثين - في ما نعتقد - أن تراجع مثل هذه الكتابات في لغاتها الأصلية ولا تقنع بما يُقدّم لها مترجماً، فلكل لغة ظلالها التي تحمل

مضامين لا تستطيع الترجمة أن تعبّرعنها بالدقّة التي يستدعيها البحث الجاد. ولعل من الطريف أن نشير إلى أننا حين بدأنا هذه الدراسة للرحالة الغربيين اعتمدنا على كتاب جاكلين برين: "اكتشاف جزيرة العرب" المترجم إلى العربية، وذلك قبل أن نصيب اقتناعاً بأهداف مثل هذه الكتب. ومن الطريف أيضاً أن نعترف بأننا قد أفدنا منه – في تلك الفترة – فائدة قصوى، ما يشير إلى أننا حين نطلب إلى الباحث أن يعتمد بالدرجة الأولى على الأصول فذلك لا يتعارض مع مراجعة الفروع، ولا نستثني المترجم منها الذي لا نرى فائدة في نشره للقرّاء العرب من غير الباحثين في هذا المجال، فضرر ذلك المتمثل في الترويج لما تحمله من أفكار أكبر من نفعه المتمثل في مصاحبة الكتاب والاطلاع على فكر الغير.

قد نستغرب أيضاً أن العديد من المترجمين العرب نقلوا إلى العربية كتب رحلات غربية، ثم أعاد آخرون منهم ترجمة ما سبق لزملائهم أن ترجموه. ويزيد من دهشتنا أن بعضهم وقع في الأخطاء ذاتها التي وقع فيها السابقون لهم. ويمكن في هذا الصدد أن نشير إلى أن أحد المهتمين بالتاريخ السعودي استخلص فرضية معينة من قراءته عن منازل الدرعية في ترجمة للكتاب الذي حرره لوريمر وتُرجم إلى العربية عدّة مرات تحت عنوان: **دليل الخليج**. و لم نقرّ الباحث في ما ذهب إليه لعدم دقّة المعلومة التي استند إليها، فجادلنا في صحة مصدرها. وبدورنا لا نماري في أن **دليل الخليج** عمدة في مجال تاريخ المنطقة، فهو عبارة عن مجموعة تقارير وُثّقت بعدد من الرحلات. وندرك أن ما ورد في **دليل الخليج** يختلف عمّا يرد في أدب الرحلة الغربية اختلافاً بيّناً. فعلى الرغم من أن الكتاب قام على الرحلة بنحو كبير، دقّق مُعدّوه في ما لقوه في رحلاتهم، فالكتاب لم يُعدّ للجمهور القرّاء الغربيين ما كان يستلزم تزويده بالبدائي والغريب، فهو يضمّ مجموعة دراسات وتقارير أُعدّت للاستعمال الرسمي فقط، وحُظر نشرها على الجمهور الغربي الذي يستهدفه أدب الرحلة بالخطاب في المكان الأول. وعلى ذلك نصحنا الباحث بالرجوع إلى ترجمة أخرى للكتاب المذكور لتدقيق المعلومة. وعاد الرجل إلينا بعدّة مصوّرات لصفحات من عدّة إصدارات عربية للكتاب المذكور تحمل المعلومة ذاتها، ما اضطرنا إلى الرجوع للأصل الإنجليزي. وتبيّن لنا أن ذلك الخطأ البيّن في الترجمة الذي ساق ذلك الباحث إلى الفرضية الخاطئة قد تكرر في الطبعات جميعها! ونحن إذ لا نتهم دقّة ترجمة هذا الكتاب الضخم الذي لم يسبق لنا أن راجعناه كاملاً في طبعاته العربية المختلفة، وإذ أمكننا أن نعتذر بأن هذا الخطأ المتكرر قد وقع مصادفة، نرى أن إعادة الترجمة لأي كتاب أمر لا يستدعيه إلا عدم الاقتناع بالترجمات السابقة، فلا يعقل – والحالة هذه – أن تتكرر الأخطاء ذاتها في الترجمات اللاحقة.

تشهد خطب كيرزن المترجمة لبريطانيا بالسيطرة الكاملة الشاملة على الساحل العربي للخليج في فترة زيارته. ويمكن القول إن كيرزن كان البعير العبل الذي قاد بعض تلك الإبل التي جاءت بعده، كأنها ربطت في قافلتهم إلى ذنبه في تلك الفترة من بداية القرن العشرين. لم

يكن في ذلك الوقت للإمبراطورية البريطانية من منافس في مياه الخليج وعلى أطرافه العربية التي اتخذت بريطانيا فيها مواقع تهيمن منها على مجريات الأمور في الداخل. وأخذت أعداد أخرى من إبل إبليس، غير بريطانية، تتسلل إلى المنطقة التي بدت كأنها مغلقة تماماً على النفوذ بل والهيمنة البريطانية، تتلمس - بعد فترة ولاية كيرزن - سبل كسر هذه الهيمنة التي - كما يظهر من التقارير التي حملوها إلى بلادهم - باتت غير عصيّة عليهم.

انجلت الحرب العالمية الأولى فبدت بريطانيا كأنها قد أصابت بانتصار الحلفاء ثقلاً جديداً في نفوذها في هذه المنطقة، ولكنها سرعان ما اكتشفت أن الأمور قد تبدّلت وأن قبضتها على شبه الجزيرة العربية باتت واجفة نتيجة للمتغيرات السياسية والاقتصادية في السوح المحلية والإقليمية والدولية. وأطلق الإبليس البريطاني إبله في كل اتجاه اعتباراً من مناطق نفوذه في الخليج، إلى نجد في قلب شبه الجزيرة، وإلى الحجاز وحائل، تحمل الرسائل إلى الشيوخ والحكام، القدامى منهم والطارئين الذين أضحى بعضهم أكثر نفوذاً وأعظم قوّة من الأوائل. وكثيراً ما عادت تلك العير البريطانية من دون البضاعة المزجاة التي كانت تحملها في الفترة التي سبقت الحرب وفي أعقابها.

فقدت شبه الجزيرة العربية في هذه الفترة حصانتها الطبيعية، ولم يعد يمكنها أن تحتمي بإيكولوجيتها الطاردة ولا بفقرها المدقع. تمتعت إبل إبليس من الجنسيات الغربية المختلفة، بفضل تطور علم الميكانيك والتقنيات العلمية الغربية الحديثة التي لم يكن لشبه الجزيرة العربية في صناعتها نصيب، بمميزات جديدة أدّت إلى شلّ مقدرة طبيعة المنطقة على الدفاع عن ذاتها كما كان شأنها سابقاً. تمكنت السيارة من أن تجوب تلالها ووديانها وتجتاز صحاريها، وعرفت سماء شبه الجزيرة العربية الطائرات، فحلّقت في الجوّ كعنس وانكشف ما كان مستوراً عن أعين إبل إبليس التي غدت أكثر جرأة بما أصابته بلادهم في المنطقة من قوّة في الأرض والبحر والهواء. وأسقطت القواعد الجوية الغربية التي أرسيت على الساحل الشمالي والشرقي لشبه الجزيرة العربية ميزة الموقع الجيواستراتيجي الذي كانت تتمتع به كمنطقة وسطى في اتصال الحزام الاستعماري الذي كان يمكنها من عرقلة طرق المواصلات البرية والاتصالات. تمّ لقوى الاستعمار السيطرة على هذا الموقع المهم من هذه القواعد الجوية التي أقيمت على أطراف الخليج في العراق بعد الحرب العالمية الأولى، ثم استقرت على أطرافه الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية. كذلك خفتت في العالم الإسلامي بانحياز الحجاز إلى القومية العربية - التي زينتها إبل إبليس لحكامه - الروح الدينية التي كانت في ما مضى المحرك الأساس لاهتمام إبليس، باختلاف مكوّناته الغربية، بتلك المنطقة. وشُلّت بعدئذ قوّة القومية العربية التي كانت سابقاً من دوافع اهتمام الغرب بشبه الجزيرة العربية، فقد حقق الغرب أغراضه من خلال دعوة الحق تلك التي أعلت راياتها لفترة ما إبل إبليس البريطانية ودجّنتها لتفرخ عن باطل. واستنزف الغرب تلك الدعوة ثم اطّرحها بعد أن قضى منها وطراً، فما عدنا في عالمنا الحديث نجد منها سوى صدى ذكرى تهيج ثم تفتر.

تراجعت في شبه الجزيرة العربية مع الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها الاهتمامات التقليدية التي ظلّ الغرب يوليها لشبه الجزيرة العربية، وبرزت له بها اهتمامات جديدة أصبح أكثر قدرة على رعايتها بما اكتسبه من قوة إضافية بالتقنيات الحديثة التي مكّنت إبل إبليس من التدخل بطريقة فاضحة في شؤون شبه الجزيرة. وراحت تلك الإبل تحمل لحكام المناطق من الرسائل ما كانت تخشى حمله في الفترات السابقة، وتعود منهم محمّلة بتقارير يجري التركيز فيها على شخصيات أولئك الحكام وقياس قوة كل منهم مقارنة بجاره، وتخلص إلى توصيات بالتعاون مع هذا الحاكم أو ذاك. وتراجع في هذه الحقبة اهتمام تلك الإبل التقليدي بطوبوغرافية الأرض، فقد أوكلت تلك المهمة إلى أجهزة المسح الحديثة. وسرعان ما تبدّلت الحال لتصبح تلك الأرض مكان الاهتمام الأول لإبل إبليس الغربية بفضل ما يختزنه باطن الأرض العربية من مواد كاربوهايدريتية، في وقت غدت فيه تلك المادة بعد تلك الحرب العالمية الأولى المصدر الأساس للطاقة، خاصة بعد أن تحوّل الأسطول البريطاني إلى الاعتماد على النفط بدلاً من الطاقة البخارية. وكان من نتائج تلك الحرب أيضاً دخول الولايات الأمريكية المتحدة إلى مجال استثمار النفط في الشرق العربي من خلال سياسة الباب المفتوح التي ابتدعتها للإفادة من نتائج تلك الحرب. واستعر التنافس بين هذه القوّة الفتية الوافدة والأسد البريطاني العجوز – الرابض لاهثاً بعد أن فقد مخالبه – على سواحل الخليج العربي، وكانت الغلبة في هذا المجال بطبيعة الحال لتلك القوّة الوافدة حديثاً. وأخذت إبل إبليس البريطاني تجوب التخوم الشرقية من شبه الجزيرة العربية التي استأثرت بعد الحرب بزيادة الاهتمام الغربي بدلاً من الحجاز الذي أخذت عوامل الاهتمام به تخبو شيئاً فشيئاً. وعمل أولئك المبعوثون البريطانيون على تعويق الامتداد الأمريكي في المناطق الواقعة تحت نفوذهم، وذلك بالحصول على تعهدات من شيوخ الخليج تحظر عليهم منح امتيازات استثمار البترول في بلادهم لأي جهة كانت إلا بموافقة بريطانية، كما عمدت بعد ذلك إلى الحصول منهم على امتيازات استثمار لمصلحة الشركات ذات الجنسية البريطانية، وأعقب ذلك عملهم على ترسيم الحدود بين مناطق الاستثمار الأمريكي والبريطاني. وقد اشتغلت إبل إبليس بهذا العمل في الفترة حتى منتصف القرن الماضي، حين استبانت بريطانيا – بعد فقدانها لامبراطوريتها في الهند – ضعفها وعجزها، خاصة بعد أن تولت الاستثمارات في الخليج الشركات الأمريكية العملاقة التي ابتلعت ما عداها وأصبحت تعرف بالمتعددة الجنسيات. ووجدت إبل إبليس في النفط شفاءً لعُرّها فازدادت قوّة وحصانة وعدّة وعدداً، وتنوعت بين هوية غربية وأخرى، وظلت تلك الإبل تحمل الغواية لتحقيق أهدافها في التلبيس. وعند هذا الحد يتوقف بحثنا، ولا تتوقف بتوقفه قوافل إبل إبليس، فالاستعمار العالمي – وإن غيّر جلده – واستكبار الإنسان على أخيه الإنسان – وإن تغيّرت صُوره – وازدراء ثقافة الآخر – وإن تبدّلت الأقوال – ومفهوم تفوّق عنصر على آخر – وإن اختلفت الأعذار،

كلها شرور باقية إلى يوم الدين بقاء إبليس الذي استهوته عنصريته فأبى أن يصيخ لأمر الله الذي شرّع تكريم بني آدم، مهما كانت هويتهم. استنكر إبليس ذلك وعصى ربه وبات من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ليمنع في العالم قيام الإمبراطورية الفاضلة، وأقسم ﴿بعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (ص: ٨٢-٨٣). ونحن في تطلعنا إلى مستقبل عالم عربي يستظل بالعدل والسلم والتعاون المشترك، ويعمل على نشر قيم الشرق الإنسانية النبيلة فيعصي إبليس ويبرأ من الهيمنة الغربية على مقدراته الروحية والثقافية والمادية، ويلعن بتكاتفه كل الشرور وكافة الموبقات التي تميز إبليس وجنوده أجمعين، نتطلع إلى الخلاص على أيدي عباد الله المخلصين الذين أضحوا في هذا الزمن العربي الرديء أبلغ ندرة من الزئبق الأحمر الذي تسند إليه أساطيرنا تسخير الشياطين. والله نسأل أن يرحم ضعف هذه الأمة التي أنكرت ذاتها وأوكلت إلى عدوّها - بغواية إبليس لها - أمر الدفاع عن بعضها ضدّ بعضها الآخر. اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، والحمد لله وكفى وصلى الله على نبيّه الذي اصطفى.

أ. د عبد العزيز عبد الغني إبراهيم حمدون

سنار - السودان

٢٣ رمضان ١٤٣٢

الفصل الأول

الرحالة الأمريكي الأول في الخليج العربي

يثير كتاب لوشر **مع النجمة والهلال** في ذهن الباحث جملة من المسائل البحثية، وذلك لعدّة اعتبارات، منها ما يخصّ الكاتب الذي هو – في ما نعرف – الأمريكي الأول الذي اجتاز الخليج من أدناه في مسقط إلى أقصاه في البصرة، ثم إلى القسطنطينية، في فترة درجت السلطات البريطانية في الخليج – في ذروة سيطرة حكومة الهند البريطانية في العقد السابع من القرن التاسع عشر – على إغلاق الخليج أمام كل نفوذ دولي مغاير. وإذا كان التجار الأمريكان قد تعاملوا في هذه الفترة مع ميناءي مسقط وزنجبار وتوابع دولة السيد سعيد في الشرق الآسيوي والأفريقي، وإذا كان ذلك العاهل قد أرسل سفينته "السلطانة" في العقد الثالث من ذلك القرن في رحلة تجارية إلى نيويورك، فإن مياه الخليج – خاصة أعاليه – ظلت في هذه الفترة في المجال الدولي مقصورة على الملاحة البريطانية. ولنا أن نحاول معرفة الأسباب التي حملت لوشر على القيام بهذه الرحلة.

يحمل هذا الكتاب اسماً متفرداً: **مع النجمة والهلال**، فهو يحمل دلالات ذات مغزى ديني. ولربما كان هذا الرحالة الأمريكي مُحقّاً في إطلاق هذا الاسم على كتابه؛ ففي الحقبة الأولى من القرن الماضي، كانت الكنائس الأمريكية أكثر انشغالاً بالتعامل مع الشرق الإسلامي من الحكومة الأمريكية. فقد كانت دول المغرب العربي تسيطر على مياه البحر المتوسط، وتعتبره بحراً إسلامياً خاصاً. وكانت تلك الدول في تونس والجزائر والمغرب تقبض على كل سفينة ترفع علماً أجنبياً لا تُؤدّي دولته جزية عبور لتلك الدول، فتأخذها ومن عليها غنيمة وتبيع بحارتها ومن عليها في أسواق النخاسة. وظلت الكنائس الأمريكية تجمع التبرعات وتدفع المال لدول الشمال الأفريقي تشتري به المُسترقّين من أبنائها وتفكّ به الأسرى الأمريكيين. فكثيراً ما كانت حكومة واشنطن تماطل أو تتأخر في أداء تلك الجزية المفروضة عليها. وظلّ الأمر يدور على

هذا المنوال حتى سقطت الجزائر، آخر حكومة ناشطة في طلب الجزية، وذلك بتواطؤ أمريكي مع الفرنسيين في العقد الثالث من القرن التاسع عشر. وتولّت الهيئات الكنسية في الولايات المتحدة بعدئذ بناء الكنائس بفوائض أموال فداء الأسرى. ولعل كنيسة الثالوث التي بُنيت في نيويورك لتذكّر "بطغيان الشرقيين" كانت من أشهر تلك المؤسسات التي رفعت لواء العداء لكل من هو مسلم. وهكذا تولت الكنائس الأمريكية قيادة بداية العلاقة مع العالم العربي الإسلامي في مغربه ومشرقه أيضاً.

أخذت تلك العلاقات الشكل الثقافي، وجعلت التنصير ونشاطاته التعليمية والعلاجية هدفها في هذه الفترة، وغايتها في مصر والشام أولاً، وفي فترة لاحقة في دول الخليج والسودان. وبناءً على ذلك يمكن القول: إن العلاقات بين المنطقة العربية والولايات المتحدة الأمريكية بدأت بالتنصير الأمريكي. وواجهت تلك النشاطات التنصيرية في بداية الأمر صعوبات جمّة من الكنائس في الشرق التي لا تتفق طقوسها واجتهادات كنائس ذلك العالم الجديد، ومن الطريف أنها لم تصادف اعتراضاً من المسلمين. وصادفت العلاقات التجارية بعدئذ انفراجاً في بعض الدول العربية؛ ففي المغرب العربي كانت مراكش أولى دول العالم اعترافاً بالولايات المتحدة الأمريكية، باستثناء فرنسا التي ظلت تدعم حرب التحرير الأمريكية، بينما كانت دولة السيد سعيد التي امتد إليها التنصير الأمريكي لاحقاً أول دولة شرقية مسلمة تهتم بالتبادل التجاري مع تلك الدولة. وبناءً على ذلك، فإن لوشر حين وضع النجمة والهلال عنواناً لكتابه إنما كان يسترجع ماضياً لم يكن قد تقلّص بعد.

تستوقفنا في هذا الكتاب مقدمة ناشره الذي لم يجد مناصاً من الاعتراف بأن الشرق هو مهد الحضارة ومصدر العلم وبؤرة إشعاعه الذي تدفق على الغرب، وأنار له دروب الحضارة ليسير إلى غاياته راشداً، ليرث ذلك التوهج بعد أن تخلّف الشرق وفقد بريقه. يقول هذا الناشر: "عندما تنبثق الشمس من المشرق ترسل دفق أشعتها في الأفق الشرقي فتجعله – كلما ازدادت في كبد السماء علوّاً – أشد عتمة وأكثر ظلاماً. ولعل في ذلك ما يدعو إلى القول: إن التقدم وانتشار ضوء النشاط الفكري يسيران في اتجاه عقارب الساعة. ولن تصل هذه الإشعاعات المباشرة إلى نصف الكرة الأرضية الشرقي إلا بعد أن تكمل دورتها وتتوغل في الغرب وتستوطنه ويصبح أكثر إدراكاً أن الشرق هو مهد الأسرة الإنسانية". ولعل في هذا اعتراف صريح من هذا الكاتب بأننا في الشرق أنتجنا خام الحياة ثقافة وحضارة وعلماً وفناً وقيماً وأخلاقاً، ثم صدّرنا كل ذلك إلى الغرب الذي عالجه، وأعاد صناعته وإنتاجه، وجعله صالحاً لدفع عجلة التقدم إلى الأمام، ثم ما يلبث هذا الغرب أن يجود بعد ذلك على الشرق، الواقف على أطلال البدايات، ببعض ذلك الإنتاج المصقول الذي أخذ مادته الخام منه لتسير عجلة الزمن في الشرق غرباً.

يقول هذا الناشر وهو يُعرَف بصاحب الرحلة: إنه رجل رافق في رحلته أحد موظفي الحكومة

الفرنسية، كما تعرّف إلى عدد من مواطني المناطق التي جال في أرجائها من منطقة إلى أخرى في رحلة بدأت من بومباي وانتهت في القسطنطينية. ويرى الناشر في هذا الكتاب مستودع ممارسات شخصية لصاحبه أودع فيه تجاربه من دون الرجوع إلى ما كتبه رحالة آخرون سابقون له. وفي تقديرنا أن من يراجع هذه الرحلة لن يشاطر ناشرها هذا الرأي؛ فأنفاس الآخرين من الرحالة الغربيين محسوسة تماماً. ويضيف الناشر: إن صاحب هذه الرحلة قد زوّد سفره بعدد من الرسوم التي أعدّها في مكانها وزمانها، ولكننا لم نجد رسوماً عديدة في الكتاب الذي بين أيدينا.

مقدمة الرحلة

تبدأ هذه الرحلة التي سنتابع صاحبها إلى الخليج العربي من بومباي التي كان هذا الرحالة قد عاد إليها في ١٤ شوال ١٢٨٢هـ/الأول من مارس ١٨٦٦م من رحلة صيد في غابات كاندش ونجابور دامت عدّة أسابيع، وكان في رفقته ضابطان من ضباط الجيش الهندي البريطاني. وقد استمتع بتلك الرحلة التي وصفها بأنها للرياضة والترويح، وقال: إنه ظفر فيها بصيد كافة أنواع الطرائد الكبيرة التي اشتهرت بها المناطق الداخلية من الهند.

أخذ صاحبنا يستعد للسفر إلى إستانبول مروراً بالخليج في باخرة غادرت بومباي في ١٦ شوال/٣ مارس. ورافق رحالتنا من أطلق عليه اسم السيد "ب"، وهو إيطالي تعرّف إليه في بومباي، وكان يعمل لحساب نابليون الثالث، إمبراطور فرنسا الذي يقول "ب": إنه أرسله في مهمته هذه إلى بلاد شبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين لشراء عدد من الخيول العربية الأصيلة المستولدة في نجد للإسطبلات الأميرية. وكان "ب" يحمل مجموعة من خطابات تُعرّف بشخصه وبمهمته وتُوصي بتسهيلها. ويشيد لوشر بهذا الرجل الذي لم يفد إلى بومباي إلا أخيراً بالباخرة التي وصلت من السويس. لم يمضِ على الرجل في تلك البلدة إلا عدّة أيام، ورغم ذلك اكتسب ثقة كل من التقاه. ولما عرف "ب" أن زوجة لوشر هي شقيقة زوجة "و" التاجر الأوروبي الذي يعمل في بغداد، والذي كان "ب" يحمل له خطاب تعريف وتوصية، حتى عبّر الأخير "بتلك الرقة البالغة التي تميز الإيطاليين عن سعادته بالتعرف إلى لوشر"، وأبدى رغبة ملحة في أن يصبح رفيق رحلته، خاصة أنه سيغادر مع تلك الرحلة ذاتها في ٣ مارس. ورحّب لوشر بهذا العرض الذي سيتيح له – كما يقول – فرصة صحبة رجل مهذب "عبر أرض بدائية في شبه الجزيرة العربية وأرض ما بين النهرين، وأن ذلك أدعى إلى السعادة من قطع المناطق بلا رفيق". وكان ذلك من دواعي سرور ذلك الإيطالي الذي وجد في زميله الأمريكي الذي ادّعى أنه أكثر منه خبرة بالأسفار خير معين له في تجهيز مستلزمات الرحلة التي تمثلت في شراء خيمة هندية صغيرة، وسرج حصان إنجليزي الصنع، وعدد من الأجمة والأقمشة التي

تستعمل أغطية للخيل، ومعدات أخرى لازمة للخيل، إضافة إلى أنواع من الأسلحة والذخيرة ومواد تموينية وأدوية. وقد استفاد "ب" كثيراً من رفقة لوشر؛ فقد كان الرجل جاهلاً بالإنجليزية جهله بالهندوستانية، غريباً في بومباي، تلك البلدة التي كان لوشر قد سلخ فيها ثلاث سنوات كاملات من عمره.

رافق "ب" في ٣ مارس زميله لوشر إلى مرسى مايزقان Mazegan لتوديع مجموعة الأصحاب الذين بلغ عددهم نحو عشرين رجلاً وامرأة كانوا يزمعون القيام في ذلك اليوم برحلة قنص في مناطق الهند الداخلية. وحين غادرت تلك المجموعة السعيدة المرسى في مركب كان يحمل كافة أصناف المرطبات، اتجه الأمريكي وزميله الإيطالي عبر شارع ميداو Meadow. وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً كانا على متن الباخرة بينانج التي كانت تتهيأ للإبحار إلى الخليج. و لم تمضِ سوى نصف ساعة حتى كانت بينانج تغادر الميناء، تشقّ بحيزومها طريقها عبر غابة من السفن والمراكب من كل صنف ولون كانت في زيارة لذلك الميناء.

بدء الرحلة إلى مسقط

كانت بينانج – وهي مركب حمولته ثمانمئة طن – تحمل جماعة مختلفة من البشر، و لم يكن من بين ركابها سوى ثلاثة من الغربيين، وهم: الأمريكي، والايطالي، وآخر بلجيكي، وهو قسّ كاثوليكي مُنصر "عاش مستمتعاً بالسعادة طوال خمس سنوات في كولومبو"، ذلك الميناء المهم الذي يقع على الساحل الشمالي الغربي لجزيرة سيلان. وكان البلجيكي في طريق عودته إلى بلاده عبر الخليج وبلاد ما بين النهرين. وكان ثلاثتهم يلتقون على مائدة الغداء يومياً. و لم يتردد الأمريكي والإيطالي في قبول اقتراح البلجيكي بأن ينضم إليهما ويصبح رفيقاً لهما في المراحل التالية من الرحلة؛ فقد اكتشفا أن ذلك المنصّر الصغير كان رجلاً ذكيّاً جداً، ذا عقل راجح ويمتاز – فوق ذلك – بأنه رجل مرح، وكان ذلك مدعاة للترحيب به كثيراً.

أما المسافرون الآخرون على بينانج فكانوا في معظمهم من المسلمين، منهم الفرس ومنهم الأفغان، ولكن الغالب منهم كانوا بصفة أساس من مواطني الساحل العربي في الخليج الذين يرتبطون بعلاقات مع شبه القارة الهندية. و لم يكن في هذا الخليج من الشرقيين الآخرين سوى مجموعة صغيرة من الهندوس، وهم من ماراوار Marawarees. ويضيف لوشر: "إن هؤلاء الهندوس هم نسخة طبقة الأصل من اليهود في بلادنا"، فالأخطار مهما تناهت وادلهمّت والصعوبات مهما بلغت، فإنها لن تقعدهم عن تحقيق تطلعاتهم. وبعد أن يشيد لوشر باليهود والهندوس، أشار إلى أن الآخرين يمتازون أيضاً بما يمتاز به الأوائل في الأعمال التجارية. وضرب لذلك مثلاً بالمدعو برام شند، وهو هندوسي ماراواري من بومباي جمع ثروة كبيرة بلغت

سبعين مليون روبية أو ما يعادل خمسة وثلاثين مليون ريال ذهباً في فترة وجيزة لم تتجاوز ثلاث سنوات. ويسترسل ليقول: إن برام شند كان قد بدأ أعماله بمبلغ لا يتجاوز دولارين ونصف دولار، ولكنه ضارب "بجنون" في أسواق أسهم بومباي بين عامي ١٨٦٣-١٨٦٥م، وهو الوقت الذي اهتزت فيه أسواق الهند المالية وتهاوت إلى الحضيض. في هذا الوقت الذي سادت الفوضى المالية التي أدت إلى خراب ودمار، كان هذا الماراواري يكسب ما قيمته اثنين وثلاثين ألف دولار في اليوم الواحد، فاغتنى "بمعدل يشبع نهم أكثر الأمريكيين شغفاً بالربح". ويمكن مقابلة هذه الصورة بأخرى لأفغاني جاد يتحرك بين جموع المسافرين بنزق – كما يقول لوشر – وهو يداعب لحيته الحريرية الفاحمة السواد، ما يجعل مقارنة أدائه العمل مع أداء ذلك الماراواري النشيط مثيراً للانتباه. فهذا الأخير لا يقرّ به قرار ولا تقعده أي مشكلة – مهما كانت – عن مثابرته لبلوغ غايته من تحقيق الربح، تلك الغاية التي جعلها مبلغ علمه وغاية همّه. ويبدو الأفغاني حين يقارن بهذا الرجل غير قلق؛ فهو يتعامل بأنفة بادية مع زبون لم يسعَ إلى جلبه بل انتظره حتى وفد إليه بنفسه؛ فقد كان الأفغاني يعتقد أن قيامه بالخطوة الأولى في سبيل التقارب مع الزبون أمر يحطّ من شأنه وقدره.

كانت الباخرة موسوقة بالسلع كثيراً، وقد تكدّست البضائع فيها حتى ازدحمت بها الممرات. ولم يجد المسافرون أماكن للنوم أو الهجوع لاستراق قسط من الراحة إلا فوق تلك الأكداس، فتراهم يتخيّرون الألين ظهراً من تلك السلع المحزومة بالأحزمة الحديدية ومن البراميل ليتمدّدوا فوقها، متخذين من "جوالات" السكر وسائد لهم تعينهم على الراحة. لقد أهمل ربان الباخرة – وهو رجل اسكتلندي – حقوق أصحاب "الكبائن" في الحصول على ممرّات خالية، وقد يرجع ذلك إلى مراعاته مشاعر المسافرين على باخرته من المسلمين دونما اعتبار للغربيين الذين لم يكونوا إلا أقلية صغيرة. عمل الاسكتلندي – كما يرى لوشر – على تأليف جماعة المسلمين، واضعاً في اعتباره ما يمكن أن يجنيه من ذلك في رحلاته المقبلة؛ ولذلك خصّص ذلك الجزء العالي في المنطقة الخلفية من سطح الباخرة ليؤدي فيه المسلمون شعائرهم الدينية "وهي شعائر يؤدونها بوقار يسترعي الانتباه خمس مرّات في اليوم". ويعود لوشر ليذكر أن صعوبات هذه الرحلة كانت على وجه العموم محتملة. ويسترسل ليصف لنا المراكب و"البغلات" العربية التي تجري بالتجارة بين موانئ الخليج وموانئ الهند البريطانية. والبغلة كما وصفها: مركب شراعي مصنوع من الخشب صناعة غير صقيلة، وتتراوح حمولته بين خمسين طناً ومئتي طن، ويستخدم بنحو أساسي في نقل التمور والصوف والبن والقمح وغير ذلك. أما بحارته فيرتدون "ملابس جنة عدن" التي لا تستر الكثير، وقد لا يرتدون شيئاً أحياناً! ولربما كانت هذه العبارة الأخيرة – في تقديرنا – من اختلاق هذا الرحالة، فستر العورة فريضة مُسلّم بها. أما التخفيف من الملابس لظروف الحرّ والرطوبة وغير هذه وتلك من الظروف البيئية – وربما

للظروف المادية أيضاً – فهو التي يرغم مثل هؤلاء البحارة على الاكتفاء بلفّ خرقة من القماش حول أوساطهم، وهذه هي الصورة التي وصلتنا من الشواهد المختلفة. ويصف لوشر "نوخذة" البغلة أو الربان أو كابتن البغلة فيقول إنه غالباً ما يكون من الزنوج المفتولي العضلات، المتمتّعين بجسد متكامل البنية تكاملاً ملحوظاً، وهم يعودون عادة إلى تلك الفئة التي جلبها النخّاسون العرب إلى شبه الجزيرة العربية.

يلاحظ لوشر عند اقتراب الباخرة من المياه العربية، وحين أصبحت على بعد نحو مئة ميل من الساحل العربي، زيادة أعداد الأسماك زيادة كبيرة؛ فقد كانت المياه تتدفق أسماكاً حتى بدت الباخرة كأنها تشقّ طريقها من خلال تلك الحيوانات التي تسكن الأعماق. ويضيف هذا الأمريكي أنه لم يشاهد في حياته ازدحام أي بحر آخر بمثل هذه الأسماك التي تكدّست عند السواحل الشرقية لشبه الجزيرة.

على مشارف مسقط

عندما أشرقت شمس اليوم الثامن من مارس، بدا للمسافرين على بينانج رأس الحدّ، وكان مظهره – كما رأى لوشر – لا يبعث على البهجة؛ فالأرض على جانبيه عجفاء مجدبة، بينما تطلّ من وراء ذلك الرأس سلسلة من تلال متشققة كئيبة المنظر، تعكس لوناً أصفر مشوباً بحمرة، ولا تدلّ على أي أثر – مهما كان طفيفاً – لزرع أو ضرع. واستبان لكل رجل على الباخرة بنحو قاطع أن ذلك الساحل برمّته لم يكن مأهولاً ولا مسكوناً.

أبحرت بينانج بعد ذلك ساعتين أو ثلاثاً فتبدّى لهم رأس حيران Hairan، وهو رأس حجري بالغ العلوّ يقف شامخاً مُطلّاً من عليائه على البحر، ويؤلّف الكتف الحجرية التي تطوّق المدخل الجنوبي لميناء مسقط. وما إن اجتازت الباخرة تلك الكتف حتى وقعت أعينهم على مدينة مسقط اللاهبة ذات الجوّ القائظ، "تلك البلدة المغروسة في أحشاء الصخور المتعددة التي تحتضن هذا الميناء الضيق العميق الملتحف سوراً طبيعياً من الصخور الضخمة المهولة يبلغ ارتفاعه مئتين وخمسين قدماً". وبدا هذا المنظر للناظرين مثيراً جداً، خاصة أنهم حين نظروا من خلال فرجة الميناء إلى مسقط لم يروا سوى صفّ واحد من البيوت الحجرية الضخمة التي سدّت أفق نهايات الصخور المحيطة بالميناء. واسترعى الانتباه منها ثلاثة أو أربعة مبان أبلغ ضخامة من الأخريات، ترتفع إلى ثلاثة أو أربعة طوابق تبيّن لهم بعدئذ أنها مساكن "الإمام أو السلطان". ويقع مبنى آخر متسع من طبقتين على يمين هذه المباني يضمّ فناؤه حديقة مشذّبة، ويمثل مبنى القنصل الإنجليزي أو المقيم السياسي لبريطانيا، وهو الأوروبي الوحيد الذي يسكن في مسقط. وفي الحقيقة فإن ترادف الألفاظ الذي أورده لوشر "الإمام أو السلطان" "القنصل أو المقيم" يكشف عن التحول

التاريخي العميق الذي أحاط بالدولة العمانية في هذا الوقت الذي فقدت شقّها التاريخي في زنجبار بتدخل بريطاني في عام ١٨٥٦م. فالحاكم العماني في دولة اليعاربة وفي بدايات دولة البوسعيد كان إماماً يصل إلى الحكم وفق تقاليد دينية معينة، ولكنه حين شخص إلى الساحل وغدت مسقط رسمياً عاصمة لعمان لم يعد من الناحية الشرعية إماماً بل أصبح سلطاناً. وهكذا كان الحاكم يُعرف في هذه الفترة بوظيفته القديمة حين يشار إليه بالإمام وكذلك بالجديدة حينما يقال السلطان، كما كان السلطان يُعرف في هذه الفترة بلفظ ثالث وهو السيد. وقد يعود ذلك إلى أن أول حكام البوسعيد كان "سيداً" أي مُقدّماً في قومه؛ فهو تاجر حاز السيادة في عمان بجهوده في إرساء الأمن وطرد المعتدين. وعلى الرغم من أن لقب السيد كان الأكثر استعمالاً في هذه الفترة، لم يدّعِ أي من الحكام العمانيين "السيادة" بالنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ويرتبط بهذه التَحولات السياسية أيضاً مهمة القنصل "المقيم" الإنجليزي؛ فقد بدأ قنصلاً مقيماً يمثل سلطة الراج (الهند البريطانية) في مسقط، ثم ما لبث مع الضعف الطارئ على السلطة الوطنية في عمان أن أصبح مقيماً يتدخل في سياسات البلاد تدخلاً سافراً. أما ما ذكره من أن "المقيم البريطاني" هو الأوروبي الوحيد الذي يسكن مسقط، فالسبب في هذا يعود إلى السياسة البريطانية التي عملت بكافة الوسائل والأساليب على حجب هذه المنطقة المتحكمة في مدخل الخليج عن كل أثر أجنبي آخر، وهذا أمر يطول شرحه، ولكن يستطيع كل من يقرأ أي كتاب عن تاريخ الخليج أن يتبيّنه من دون كبير عناء.

أخذت بينانج تتهادى وهي تقترب رويداً رويداً من المرسى. واسترعى انتباه المسافرين عليها منظر تلك القلاع الصغيرة التي شيّدت فوق كل هضبة مرتفعة ناتئة وعند مدخل كل شرم بحري، وذلك بهدف حماية المدينة. لقد حاول سكان هذه البلدة – كما يقول لوشر – أن يدعموا حصانة موقع بلدهم المُحصّن أصلاً بما هيّأته له الطبيعة، فلم يبخلوا عليها بجهود تشييد هذه القلاع الصغيرة التي لا حصر لها فوق القمم الشواهق التي تجلّ عن الحصر، والتي تسيطر تماماً على الميناء وعلى المدينة كلها. ويرى لوشر أن جهد تشييد البناء الذي ناء بثقله الرجال يصبح بلا معنى؛ فهو لن يستطيع أن يصمد أمام المدفعية الحديثة. فطلقة واحدة من هذه المدفعية تسدد بإحكام، كافية لتدمير أكيد لهذه الحصون المهترئة التي لا يحقّ لها أن تفاخر أيضاً بأي ضرب من ضروب الفن المعماري. وفي تقديرنا أن هناك أمراً غاب عن ذلك الرحالة؛ فحصون الميناء المتمثلة في قلعة الميراني والجلالي كانت قوية وكافية لمقابلة أيّ مدافع محمولة بحراً، أما القلاع التي تعلو المرتفعات المحيطة بمسقط فكانت لحمايتها من عوادي البر الذي لا يملك بدوه مدافع حديثة لدكّ تلك القلاع، والتي كانت بدورها لا تحتاج إلى مدافع ولا إلى طلقات نارية، إذ يكفيها أن ترسل على المهاجمين جلاميد الحجارة من علٍ فتصدّهم، وتسدّ عليهم الطريق فيتراجعون. ويستطرد لوشر في وصف تلك القلاع التي "تآكلت بالزمن فلفّها البلى، وباتت تُوظّف – كما

هو واضح – لإخافة الغزاة فقط من دون أن يكون في مقدورها أن تسبّب لهم خطراً حقيقياً".

حين أصبحت بينانج في منتصف ذلك الميناء "الصغير الحالم"، أطلقت مدفعيتها القذائف المعتادة التي تطلق تحية لسفينة البريد. "ورددت تلك الصخور المهولة المتشققة صدى تلك الاثنتي عشرة طلقة بصوت كأنه الرعد حقيقة لا مجازاً". وما إن ألقى ربان الباخرة "الهلب" ليستقرّ في ذلك البحر العميق، حتى تحلّقت حول الباخرة في دوامات متصلة زوارق طويلة صغيرة حادة النهايات من نوع "الكانو" يبلغ طول الواحد منها عشرين قدماً ولا يتجاوز عرضه قدمين، وقد نُحتت هذه القوارب من جذوع الأشجار. وكان على كل قارب رجلان من العرب أو الزنوج يحاولان أن يبيعا المسافرين الفاكهة والأسماك، أو يعرضا خدماتهما لنقل المسافرين إلى الساحل لقاء أجر معين. ولما كان لوشر وزميلاه غير جاهزين حين وصل إلى الباخرة المركب الكبير الذي يرسَل عادة لاستقبال سفينة البريد، لم يكن أمامهم – لحرصهم على زيارة الميناء – إلا أن يواجهوا الخيار الآخر، رغم أنه غير مريح، "ويجازفوا بحياتهم" ليستقلوا أحد تلك القوارب التي بدت لهم غير آمنة أبداً؛ فحوافها واطئة تكاد تلامس سطح الماء، وهي مسطحة القعر، ما يجعل أدنى تغيير في التوازن كافياً ليقلبها رأساً على عقب. ولمّا كان البحر في تلك المنطقة يموج بالحيتان، فقد بات على أولئك الغربيين أن يجلسوا على القارب هامدين من دون أدنى حراك، وبذلك "بلغنا الساحل سالمين لم يمسسنا سوء".

حصل هؤلاء الغربيون على أول انطباع عن مسقط بأنوفهم – كما يقول لوشر – فقد نفذت إلى خياشيمهم بعنف وضراوة بالغة روائح غير طيبة

> لا تماثل بالطبع تلك الروائح التي سمعنا عن نفح شذاها في قصص الجنّيات في ألف ليلة وليلة. وكشفت لنا تلك الروائح فوراً عن مصادرها التي تمثلت في أعداد لا تُحصى من رؤوس الأسماك التي تراوحت أحجامها بين حبة الفراولة في أصغرها إلى حجم رأس العجل في أكبرها.

ويضيف:

> إن تلك الكميات الهائلة من رؤوس الأسماك تحللت فانبعثت منها تلك الروائح المنتنة. ويرى هذا الرحالة أن المواطنين قد ألفوا تلك الروائح فما عادت أنوفهم تنكرها، بل بدوا له كأنهم يستعذبونها، أو على الأقل كان في مقدورهم التحدث ساعات طويلة والتحاور معاً في ما يخصّهم من دون أن يجدوا من تلك النتانة ريحها.

في تقديرنا أن هذا الرحالة قد كشف لنا أحد مصادره في معرفة الشرق الذي جاء زائراً له؛ فقد ذكر كتاب ألف ليلة وليلة، وهو كتاب أدب أساطير، يقوم على الخيال الذي استهوى في وقت ما بعض أنصاف المثقفين من العرب الذين تُرجم هذا الكتاب إلى لغتهم فأضافوا إليه من خرافاتهم أيضاً. ثم تُرجم هذا الكتاب بعدئذ إلى الإنجليزية ليعتمده الغرب عامداً أو غافلاً صورة نمطية لأهل الشرق الذين صوّرهم الكتاب غارقين في الخيال، انصرف همّ ملوكهم - بحسب أساطير هذا الكتاب - إلى الزواج كل ليلة بغانية يقع عليها نسج قصص الخرافة والخيال، لتستبقي عليها حياتها حتى لا يقتلها الملك الذي شُغف بحكاياتها. وما زالت قصص علي بابا وأساطير ألف ليلة وليلة تقرأ في الغرب وتأخذ حيّزاً في فكر كل من يردنا من قبلهم، سياسياً كان أو جندياً أو مستثمراً.

يقول هذا الرحالة: إنهم فيما كانوا لا يزالون يعانون تلك الصدمة التي أزكمت أنوفهم، وجدوا أنفسهم وسط جماعة من المسقطيين ألجمهم الدهش حين رأوا تلك المجموعة تسير عزلاء من السلاح. فالأوروبيون - كما يقول لوشر - لا يأتون إلى مسقط إلا مضطرين، وإذا اضطروا فهم في الغالب لا يختلطون بمن في الساحل، ويفضّلون - بدلاً من ذلك - أن يتعرّفوا إلى عادات المواطنين وأخلاقهم من مصادر أخرى موثوقة، وذلك تجنّباً لمخالطة أولئك الناس (!).

شقّ هذا الرحالة ورفاقه طريقهم وسط الزحام في اتجاه المنازل التي لاحت لهم عندما قاربت باخرتهم الميناء، وقال: إنها تمثل الجزء الرئيس من تلك المدينة؛ فهي منازل متسعة وعالية شيّدت بالحجارة على النمط العربي، وتمتاز بسُقُف مسطحة، ولكن لا يوجد فيها سوى عدد قليل من النوافذ. وكان أكبر تلك المباني هو السكن الخاص بالإمام الذي كان في ذلك الوقت غائباً عن المدينة "يحارب عرب الأحساء أو هجر في الحدود الشمالية الغربية، الذين كانوا يشنّون الغارات على بلاده".

يقع على يسار هذا المبنى مبنى آخر يضاهيه حجماً، وهو مخصص لحريم الإمام. ويلاحظ لوشر أن فتحات نوافذ هذا المبنى الأخير قد زوّدت بقضبان حديدية مع شبكة وضعت بطريقة فنية لكي يمنع المارة من استراق النظر إلى النزيلات فيه. وأفاد لوشر بأن المبنيين المذكورين يظفران بحراسة بعض الجنود الذين كانوا يجلسون على السلالم الخارجية وعند أركان المنزل. ويعود ليقول: إن لفظ جندي هو لفظ محترم لا يمكن أن يطلق إلا جزافاً على أولئك الصعاليك ذوي الثياب الرثة والأجساد الأكثر قذارة، الذين لا يحدّث منظرهم إلا عن الخسة والنذالة. ومن جانبنا لا ندري سبباً لهذا الرحالة يجعله يحمل على هذه الجماعة ويصفها بأقذع الألفاظ إلا بقايا حقد قديم لجنود إمبراطورية عربية كانت الأكبر والأقوى و الأبلغ ثراءً في الشرق حين وفد الاستعمار الأوروبي البرتغالي. وتمكن هؤلاء الجند بعدئذ من دحر هذا الاستعمار الغربي وردّه

عن سواحل الشرق. ولكن تلكالدولة لم تقْوَ بعدئذ على الثبات ضد الموجات الغربية المتلاحقة من المستعمرين الهولنديين والإنجليز والفرنسيين ومن جاء في ركابهم أو لحق بهم. ولذلك لم يبقَ لهؤلاء الرحالة إلا التعبير بطريقة أو بأخرى عن الحقد على هذا المجد القديم الذي حمل الجندي العماني ثقله، وإلا فما بال هذا الرجل الذي لم يأتِ إلى مسقط إلا زائراً فترة من نهار يحمل على البلدة وينال من جنودها؟! ولا نجد سبباً لذلكَ إلا هذا التاريخ الذي وصفه بعض فلاسفة الغرب "بالطريق المرسوم بقيم محطمة". فالتاريخ في تقدير أولئك البعض يُحرّك الأحقاد حين ينبش في الماضي، ويحثّ على الثأر. وعموماً لم يجد هذا الرحالة إلا ألفاظ سباب أراد أن ينال بها من مجد آل إلى اندثار.

كان أولئك الجنود – كما يقول لوشر – مسلحين بأشكال وأصناف من الأسلحة، كل منهم يحمل منها شكلاً أو صنفاً؛ فهذا يحمل بندقية، والآخر يحمل مسدساً، والثالث يحمل سيفاً، أما الخناجر فما أكثرها! وحين مرّ هؤلاء الغربيون بالجنود الذين كانوا يتسلّون باللهو ببعض الألعاب التافهة، رمقوهم بأعين فاترة، وحدّقوا إليهم في غير اكتراث.

مخزن السلاح

اجتازت جماعة الرحالة هذه المنطقة التي كان يحرسها هؤلاء الجنود وهم في زيّهم العربي غير مروّعين؛ فلم يسألهم أحد عن هويتهم ولا عن وجهتهم. واسترعى انتباههم مسكن القنصل البريطاني الذي "يقال إنه على علاقة حميمة مع الإمام". وأشاد هذا الرحالة بذلك المنزل، وعدّه الأوفر نظافة في مسقط كلها. وتجاوزت المجموعة هذه المنطقة إلى تلك المنطقة التي فيها مخزن سلاح الإمام، وهي منطقة لا تبعد سوى بضع ياردات خلف بيت الإمام. وهنا يحدثنا عن روائح نفاذة أخرى تملأ الجوّ صادرة من جيفتي حمارين قد "فرغا من عملهما في هذه الدنيا قبل أسابيع مضت، ومثل هذه الحيوانات يفترض في المأثور الشعبي أنها لا تموت (؟!)". ونجد حديث الرجل هنا غير مفهوم، ولا ندري من أين له بمعرفة المأثورات الشعبية في بلدة لم ينقض على وصوله إليها سوى ساعة من زمان!

يحدثنا هذا الرحالة بعدئذ عن مخزن سلاح الإمام، وهو مبنى كان في سابق عهده نزلاً تأوي إليه القوافل الوافدة إلى مسقط. ويتكوّن من فناء مربع كبير ذي أسوار عالية لا شية فيها، وتصل مساحة هذا المبنى الذي لا يحدّث مظهره المؤسف عن وظيفته كمخزن للسلاح إلى ٢٠٠ قدم[٢]. وقف عند مدخل هذا المبنى جنديان من شاكلة الذين صادفوهم عند قصر الإمام، "ينبئ مظهرهما عن الوحشة!"، وقد راعهما منظر هؤلاء "الفرنجة" الذين وفدوا على غير انتظار. ويفيدنا هذا الرحالة بأن كلمة الفرنجة هي الكلمة المستعملة في مسقط للدلالة على الأوروبيين

الذين يعدّهم أهل مسقط - بلا شك - من ذوي الأهمية القصوى. وقد تأكدت تلك الأهمية للجنديين بمظهر "ب" المسترعي للانتباه بطوله الفارع وطلعته المهيبة، وقسماته النبيلة وشعره الأبيض كالجليد، وشكل شاربه ولحيته، ما جعله يستوجب احترام العرب. وأفادنا لوشر بأن العرب يوقّرون الشيب، ثم يعود ليضيف: "ليس العرب وحدهم الذين يفعلون ذلك؛ إنما هو المألوف بين كافة المسلمين". وكان "ب" يضع على رأسه طربوشاً تركياً أنيقاً "من نوع فاس" أحمر اللون مخروطي الشكل، وتحته طاقية زرقاء طويلة من النوع الذي يلبسه جنود بعض الفرق، ما أدى بالجنديين إلى اعتباره ضابطاً تركياً رفيع الرتبة والمقام. ولهذا لم يمنعا تلك المجموعة من الدخول إلى المخزن. ليس ذلك فحسب، ولكنهما تبرّعا بعرض المخزون أيضاً.

ضمّ هذا المخزن عدداً كبيراً من المدافع الحديدية والنحاسية القديمة من صناعات مختلفة، منها: البرتغالية، والتركية، والهندية، والعربية. تكدست تلك الآلات في تلك الساحة وقد علاها التراب حتى غطى بعضها. كذلك كان بعض تلك المدافع على عربات تفتقر مثل المدافع إلى الصيانة، فلا دهان ولا شحوم للمزاليج الحديدية، فقد تأكّلت بالصدأ، وبليت بمرور الزمن.

أثار مظهر تلك العربات البدائية انتباه الرحالة، "فهي صناعة متخلّفة". وكان أكثرها تخلفاً تلك التي على عجلات صنعت من كتل خشبية هي في الأصل محيط جذع شجرة أحدثوا في منتصفه ثقباً جعلوه محوراً مرروا فيه قضيباً غليظاً من الحديد. ويضيف لوشر: إن كل بطارية الإمام - ما عدا ثلاثة أو أربعة مدافع مهداة إليه من الحكومة البريطانية قبل عدّة سنوات - كانت عتيقة، و لم تشهد أي تحديث. فالمدافع التي في المخزن في أعمّها مدافع قديمة من الأنواع التي توضع على السفن، وهي - كما تدل أشكالها - بدائية. "وأعتقد أني سأكون شخصاً غير مسؤول البتة إذا فكرت أن أجري تجربة تثوير أي منها على أي نحو كان، ولن تراودني حتى فكرة الوقوف بقرب أي منها إذا جرى تشغيله".

تفحّص لوشر ورفاقه منطقة الأسلحة الصغيرة التي كانت هي الأخرى في حالة رديئة يرثى لها. لم يجدوا إلا مجاميع من براميل البارود التي كانت لا تحوي بارودا، وبعض كومات من الذخيرة لا براميل لها تختلط هنا وهناك بسيوف لا مقابض لها أو بمقابض لا سيوف بها، وأكوام من الحديد عند أركان المبنى أصبحت منازل للنمل وملاجئ للفئران والضِّباب والثعابين.

لقد رأينا هنا من صنوف النمل وجماعات الضِّباب عدداً كبيراً يتنقل بين البراميل، ثم ينبري زاحفاً من خلال فوهات المدافع، مستعرضاً على نحو مشترك مع ذلك الحديد القديم في حالات كرّ وفرّ وهدوء وسكون، راسماً لوحة تعبّر عن الحرب والسلام.

وقد أفاد الحراس بأن المخزن في حالته الراهنة كان خالياً من آلات الحرب التي حشدت كلها وأرسلت إلى الميدان؛ فقد استنفد الإمام مخزن سلاحه وسار به ليحارب بدو الحدود المزعجين.

البازار

انتهت جولة هذا الرحالة ورفاقه في مخزن السلاح بعد أن تحرّوا عن المعدات الحربية لحكومة مسقط، واتجهوا من ثم إلى السوق "البازار" حيث مجالات التجار والمتعاملين في بيع وشراء ضرورات الحياة والجواهرية والصاغة والطحانين والبزازين، "أو قل المنطقة التي تجري فيها المعاملات كلها بنحو شامل". ويفيدنا هذا الرحالة بأن السوق بطبيعة الحال هو الأكثر ازدحاماً بالناس في كل مدينة شرقية، ولذا فهو الأكثر إثارة لجذب انتباه الأجنبي. ويستطرد قائلاً: إن كل مدينة غرب آسيوية لها في الغالب بازارها الخاص بها. ويبدأ لوشر بمنطقة الجواهرية الذين تقوم محالهم في صف واحد أحدها إلى جانب الآخر، فترى العمال منهمكين في أشغال الزينة، يصنعون الخواتم والأساور والعقود والحلقات والأزمّة، إضافة إلى أساور الرسغ. ويسترعي انتباه لوشر عربيان في أسمال بالية قذرة "تدل على أنهما من قاطعي الرقاب وفدا من الصحراء لشراء شيء ما، أو ربما لسرقته إذا أمكنهما ذلك". أطال الرجلان النظر إلى قطع الزينة الغالية المحلاة بالجواهر الثمينة. ويلاحظ لوشر الذي رسم هذه الصورة الوقحة لرجال البادية أن هذين الرجلين لم يتمكنا من شراء أي من هذه القطع أو سرقتها والهروب بها، بل إنهما لم يستطيعا مسّها بأيديهما. فقد وضع الجواهرية هذه المشغولات للعرض في خزائن من الرقائق المعدنية في شكل أقفاص الطيور أو أشراك الفئران وثبتت بالمسامير، ولن تستطيع أي يد سوى يد الجواهري الوصول إليها، فهو وحده الذي يملك مفتاح هذا القفص. ويحدثنا هذا الرحالة عن ثلاث نسوة يافعات جميلات جئن للشراء، ولكنه يستدرك قائلاً: إنه يفترض أنهن جميلات تخميناً. فقد كن منقبّات غطت كل واحدة منهن ملامح وجهها بنوع من القناع المصنوع من الحرير الأحمر أو الأسود، "وهو شديد الشبه بذلك القناع الذي ترتديه نساؤنا في الحفلات التنكرية في بلادنا". ولكن حكماً بقوامهن الفارع وخطوهن الانزلاقي وهيئات وجهوهن المستديرة فإن جمالهن لا يحتاج إلى دليل. ورغم أنهن تدثرن بالعباءات (إثيار؟ إسار؟ ربما الساري؟) الحريرية المبهرجة التي تغطّين بها من أعالي رؤوسهن إلى أخماص أقدامهن، كانت عيونهن السوداء النواعس ترسل سهاماً نارية من خلال أهدابهن الطويلة. وبعد أن يسترسل لوشر في وصف ذقون هؤلاء النسوة المنتظمة السمت وشفاههن المكتنزة التي تكشف حين يتبسمن عن أسنان لؤلؤية دقيقة متراصة في انتظام يقول:

> وهذا ما جعلني أفترض أن هؤلاء النسوة الثلاث كن صغيرات وجميلات. ليس ذلك فقط، ولكني افترض كذلك أنهن من بنات أحد الأثرياء وذلك حكماً بأيديهن المتناسقة وأذرعهن الملتفة بشكل جميل، وهي تلمع بالأساور وحلي الجواهر والخواتم.

> بالطبع لن يستوقفنا من الرجل هذا الوصف، فقد اعتدنا من كل هؤلاء الرحالة الأجانب ادّعاء مغازلة نساء عربيات مليحات، كما اعتدنا قولهم إنهم ظفروا منهن بنظرة، أو ربما ادّعى آخرون أنهم رجعوا منهن بما يزيد على ذلك. ولا يخفى علينا أن هذا كله يعود إلى إعمال الخيال؛ فلن تجد امرأة – في مسقط أو غيرها من بلاد الله الواسعة – تألف شخصاً من غير بني جلدتها أو خارج مفاهيم تراثها بنظرة واحدة أو بلقاء عابر في شارع أو سوق. ولا نريد أن نتبع هذا الرحالة في غيّه، فقد استغرق منه وصف هؤلاء النسوة ورفيقاتهن من الحبشيات ما لم يستغرقه وصف مخزن السلاح في مسقط. وصف كل ما يتصل بهن رغم أنه كان يشكو من أنه لم يرَ منهن شيئاً! حكى لنا لوشر عن أجسادهن الحنطاوية اللون، السمراء سمرة أهل صقلية، وقد مسحْنَها مسحاً خفيفاً بزيت الزيتون فأصبحت لامعة. أما الإماء الحبشيات المرافقات اليافعات، فقد كنّ يجدن من سيداتهن معاملة الصديقات، لا معاملة الخادمات. ونجد موضوع معاملة الرقيق أيضاً من الموضوعات التي ترد كثيراً عند معظم الرحالة الغربيين، وكلهم يكرر ما قاله سابقه من حسن المعاملة للرقيق في بلاد العرب. وتنتهي هذه القصة غير جيدة السبك بأن تقوم إحدى النساء الثلاث بتجربة قرط من هذه الحلى، فتميط النقاب عن صفحة خدها الصقيل. "كأنها أرادت أن تبرهن لنا بشكل غير واع أنها جميلة حقاً." وحين التفتت إلى إحدى صديقاتها تستطلع رأيها في الحلقة، لاحظت أول مرة أننا نراقبها فصرخت بغنج صرخة مكبوتة، وردت عليها بسرعة البرق نقابها، وانفجرت تقهقه بضحكة صادرة من القلب، فبدت كأنها تعزف لحناً شجيّاً رخيماً.

تأتي هذه القصة مقدمة لما يريد لوشر أن يقوله لقارئه، فادّعى أنه لم يسترسل في الغزل، لأن امتداد الألفة بين مسلمة ونصراني ينتهي بالأخير في البلاد الإسلامية إلى الموت اغتيالاً، ويضيف: أما إذا كان الرجل مسلماً فيعاقب على ذلك بالجلد عقاباً قاسياً! ويتحدث بعد ذلك عن هندوسي تجرّأ وأشار بمنشة من ذيل الحصان كانت في يده لامرأة مسلمة من ذوات السلوك المريب، فدفع الرجل حياته ثمناً لذلك. ولحبك هذه القصة الخيالية التي يريد مثله – كالرحالة الآخرين – من قارئه أن يصدقها رغم غرابتها يقول:

> إن الرجل الذي يقوم بمثل هذا العمل لن ينجو من التبعة التي تحيق به لا محالة، حتى إنني إذا أبصرت امرأة مسلمة تسقط في نهر وهي تصارع الغرق، فمن المؤكد تماماً أنني لن أقفز في النهر لإنقاذها إذا كان هناك شهود من الرجال المسلمين، بل إني لن أقدم يدي لأي مسلمة تتعثر في الطريق؛ فأنا أدرك أن حياتي ستكون ثمناً لشهامتي (!).

نترك منطقة "الجواهرجية" في السوق لنصحب هذا الرحالة ورفاقه عبر صف طويل من أكشاك بيع الحرير والصوف والمنسوجات التي تفد إلى مسقط من كافة أرجاء المعمورة، وأكشاك بيع القطن ومنسوجاته كذلك. في هذه الأكشاك يجلس الفارسي أو الأفغاني "المزهوّ بنفسه، الجاد" وسط هذا النتاج الثري لنسيج شمال غرب آسيا بجسمه الضخم، متربّعاً تربّعاً غير مريح وسط سجادة من صنع أصفهان غالية الثمن جداً، أو ربما كانت السجادة من صناعة مازندران، تعلو رأسه قبعة مخروطية صوفية يصل ارتفاعها إلى نحو قدمين. وقد صنعت هذه القبعة من صوف مجموعة من الحملان الحديثة الولادة، ويصبغ الصوف بعدئذ بالأسود، وتبدو هذه القبعة على رأس صاحبها كأن قرناً عظيماً قد نبت من خلفه. وعادة ما تكون حوافّ هذه القبعة التي تحيط بإحكام بالرأس من اللون الأحمر. ترى هذا التاجر يمتص في تؤدة ووقار أنبوب نارجيلته الطويل المرن، ينفث في صمت دخان تبغ أصفهان ذي الرائحة العطرية الزكية، وهو يداعب في هدوء لحيته الفاحمة السواد واللامعة الممتدة إلى صدره، ويُمرّر أصابعه على شاربه، ينظر في غير اكتراث إلى المارة أمامه، أو يتأمل في رضى أظافره المصبوغة باللون القرمزي، ولكنه لا ينظر إلا قليلاً إلى الزبائن الذين تراهم كأنهم يعرضون أنفسهم أمام محله. ويجلس في المحل التالي له تركي "أخرق مضجر نزق ضخم مكتنز بدين لا يظهر جسمه المتغضن أي علامة من علامات الهزال، وقد تكوّم في إزار (عباءة) ذي أكمام واسعة عادة ما يكون لونها أزرق لامع أو أخضر أو بُنيّ أو أرجواني أو في لون "الكوبيا". يضع مثل هذا الرجل على رأسه طاقية ثقيلة هي الفاس (الطربوش) أو طاقية تركية أحياناً، تُلفّ حولها عمامة من قماش أبيض أو أخضر محلّاة بتطريز من فتلات الذهب. وهذا النوع من غطاء الرأس ثقيل، ما يجعله لباساً غير محتمل في منطقة مثل شبه الجزيرة العربية ذات الحرّ الخانق ما لم يقم لابسها بحلق رأسه كاملاً حتى يبدو كأنه مسلوخ. يجلس هذا التركي جلسة شرقية غير مريحة، جاعلاً رجليه تحت جسده، وهو منهمك في تدخين "الشبوك" في هدوء. ويشرح لوشر معنى الشبوك فيقول: إنه غليون طويل يصل طول أنبوبه إلى ما بين أربع أقدام وست. يعرض هذا الرجل سلعه من الكتان والقطن والصوف الخالص والحرير والمخمل، ويبدو ظاهرياً غير مبالٍ بالزبائن، إضافة إلى أنه يجد صعوبة في أن يُبقي عينيه مفتوحتين طوال اليوم، ولكن اللغة المهذّبة التي يخاطب بها زبائنه وإشادته بسلعته تؤكدان "أنه واعٍ تماماً لمصالحه".

يسترسل هذا الرحالةُ فيقول: إن الكشك التالي يشغله هندي مسلم ويقول: إن هؤلاء الهنود المسلمين يعرفون بالبهرة Borah ، ويلاحظ أنهم يلبسون زياً أبيضَ من الرأس حتى القدم. فهم يجعلون على رؤوسهم عمائم صغيرة ويلبسون أُزُراً ضيقة قليلاً وسراويل واسعة تضيق عند الكعبين. يأتي هؤلاء التجار من هندوسستان محمّلين بالمنتجات الثرية من تلك الأرض العجيبة التي تنتج الكثير من الملبوسات المطرّزة بكل صنف من الأحجار الكريمة الثمينة، مُصنّعة كانت أو

غير مُصنّعة. وتمتاز الأقمشة المطرّزة بالأحجار المصنعة بتلك الزركشة التي يرسمونها بالتخريم، تلك النقوش الرائعة التي اشتهرت بها الهند، أو في الحقيقة التي اشتهرت بها سيلان خاصة. وتفيض أكشاك هؤلاء التجار بكل أنواع الأقمشة المطرّزة تطريزاً جميلاً، والمزيّنةا بأساليب رائعة تنمّ عن ذوق سليم، ذات الألوان المختلفة التي جُلبت من البنجاب، تلك المنطقة التي تحيط بضفتي نهر السند. ويبيع هؤلاء – إضافة إلى تلك السلع – العلب التي توضع فيها الجواهر، والصناديق والسكاكين التي أعدّت لتقطيع الورق، بعضها منحوت وبعضها مطعّم بالأبنوس، كما يبيعون أيضاً خشب الصندل ذي الرائحة المميزة. ويذكر لوشر أن خشب الصندل يجد في مسقط رواجاً، لأن رائحته النفاذة تروق إناث شبه الجزيرة العربية، ويكشف عن أن التجارة في مسقط غير مقصورة على التجار المسلمين، "فقد تشاهد هنا وهناك يهودياً على أطراف هذه الصحراء يتحدّى العالم". وبعد أن يحدثنا عن أساليب اليهود في إجراء المعاملات التي تحتمل كل شيء إلا الخسارة، يخرج بنا من الحي التجاري في السوق إلى حارات الحرفيين فيه، التي يقول عنها: إنها كانت حافلة بالعمال الذين يصنعون أو يتعاملون ببيع وشراء كل صناعة يحتاج إليها العرب وبدوهم. فهناك السروج العربية المزينة الرخيصة، ومقابض المسدسات المزينة، وأكياس البارود المصنوعة من الجلد، والأحزمة التي تضمّ الطلقات، والألجمة المزينة، وكذلك أصداف البحر الصغيرة ذات اللون الأبيض التي تستعمل كعملة في بعض مناطق آسيا وأفريقيا، كما يعمر هذه المنطقة الحدادون الذين يصنعون البنادق، وفيها ما يمكن أن يُمثّل مخزناً كبيراً للأسلحة النارية يضمّ كافة أنواعها، اعتباراً من أدناها البدائية الرديئة الصناعة، إلى أعلاها التي تضمّ الأحدث طرازاً والأصقل صناعة. ويعدد أشكال وأنواع البنادق والمدافع والمسدسات التي شاهدها هناك، ومنها بندقية الفتيل ذات الماسورة الطويلة الشبيهة بالبرميل، ومدفع برتغالي عتيق كان يستعمل في السفن البرتغالية، وبعض البنادق الإسبانية التي تتسع ماسورتها عند النهاية حتى يمكن المرء أن يشبّه فوهتها بالطبل، كما يحدثنا عن المسدس الفارسي المُطعّم بالفضة بنحو فني، ويحدثنا أيضاً عن وجود بنادق إنجليزية حديثة الصناعة. ويسترسل في ذكر الأسلحة النارية وفي أوصافها، ثم يتناول بعدئذ الأسلحة البيضاء التي تشمل السيف الفارسي المستقيم ذا الحدّين، وخناجر دمشق وسيوفها التي تحمل نقوشاً مثل: فليحفظ الله يد المؤمن الذي ينتضي هذا السيف، أو دامت الذراع التي تضرب بهذا السيف منتصرة إلى الأبد.

يحدثنا لوشر عمّا يمكن أن يُسمّى طريقاً عبر هذا السوق فيقول: للمرء أن يتخيّل صفين متقابلين من الأكشاك لا يفصل بينهما سوى فرجة تتراوح بين ثلاث أقدام إلى ست يمكن أن تُسمّى – تأدّباً – شارعاً "رغم أنه إذا تقابل فيه حصانان فإنه لن يتّسع لمرور كليهما". يزدحم هذا الممر بالمارة منذ شروق الشمس حتى غروبها، تراهم يثرثرون ويضحكون، ويزاحم بعضهم بعضاً، ويحدثون جلبة تضاف إليها تلك الضوضاء الصادرة من "رنين الجهود المشتركة

لمطارق النحاسين" الذين يصنعون بعض المعدات النحاسية، ومطارق الحدادين على سنادينهم حين تتبادل الضربات على نحو متكرر في تناغم، "وشواكيش" الإسكافية وهي تضرب الجلد الذي يصنعون منه الأحذية. وحين يضاف إلى كل هذا زعيق الباعة المتجولين وهم ينادون على سلعهم، فإن ذلك يصيب المرء بالصمم. ويستطرد هذا الرحالة فيعدد صنوف الفوضى الضاربة بأطنابها في هذه المنطقة التي ترى فيها العتّال يجري هنا وهناك ليظفر بما يكفل له رزقه، والكلاب الضالة التي تجوب المكان وتسدّ الطريق أحياناً وترفض أن تنزاح عن طريق المارة، إضافة إلى الصرخات واللعنات والسباب والزعيق الذي يتدفق من أفواه المكاريّين وأصحاب الإبل التي تختلط مع الأصوات العالية والخفيضة للمتعاملين بالبيع والشراء. وباختصار يمكن القول: إن هذا المكان هو المكان الذي يبدو كل فرد فيه كأنه يبدو عازماً تماماً ومصمّماً تصميماً لا هوادة فيه على أن يضيف مزيداً من الفوضى إلى الفوضى التي لا تفتقر إلى مزيد. "وللمرء أن يتخيل المظاهر التي سردناها ليكوّن فكرة غامضة عن البازار الآسيوي". يقول لوشر: إن الجوّ في البازار ليس بأفضل من الجوّ في سواه من أحياء المدينة رغم أن طرقاته مفروشة بحصائر من الجريد تظلل الرؤوس وتحجبها عن أشعة الشمس المباشرة، ومع ذلك يظل الجوّ في هذه الطرقات المزدحمة قائظاً. فالعرائش لا تسبّب إلا زيادة في عتمة المكان، وهو أمر غير مستحب للأجانب، ولكن الطبيعة لها القدرة على التعويض وتهيئة البدائل؛ فهذه المضايقات تخفف منها في السوق العطور الطيبة التي تنبعث من محال المتعاملين في بيع صنوف العطور من روح الورد ودهن الورد وغير ذلك من العطور الشرقية.

يشقّ لوشر ورفاقه أزقة البازار الضيقة وهم يزاحمون التجار المهندمين بكل هندام يعرفه الشرق، والبدو الذين يكتفون بما يناسبهم من اللباس، والشحاذين أنصاف العراة، والنساء المنقبات بحرص شديد وهن يتمايسْنَ ميساً في حركات انزلاقية. فتراهنّ وهنّ ينتعلْنَ تلك الشباشب المراكشية الحمراء التي تنتهي المنطقة الأمامية منها بجزء معقوف ناتئ يشير إلى الداخل، ويرتدين سراويلهن الفضفاضة ذات الألوان المزركشة التي تكاد نهاياتها تلامس الأرض لولا أن تلك النهايات تضيق كثيراً عند الكعبين وتربط في تلك المنطقة بإحكام. ويصل هذا الرحالة ومن معه إلى منطقة أخرى من البازار حيث المطاعم والطهاة والجزارون والسماكون وبائعو الخضر والفاكهة. وتلقى هذه الأنواع من التجارة رواجاً كبيراً، إذ نجد أمام كل محل كتلاً من اللحم تتدلى أمامه. وتمتلئ هذه المنطقة بالجوعى، كما تزدحم بالشحاذين القذرين والصعاليك في أسمالهم البالية، فتراهم ينازعون الكلاب الضالة التي تلوث هذه المنطقة أيّ عظمة تلقى على قارعة الطريق. وتصنع في هذه المنطقة الحلوى المسقطية التي تمثّل تجارة رائجة. وتوجد عدّة أنواع وأشكال من الحلوى، منها تلك الحلوى الجافة الجيلاتينية التي تعدّ من حليب النوق، والعسل البري، والزبدة التي تُلتّ وتُعجن مع الدقيق. ويطلق المواطنون على هذا النوع من الحلوى لفظ

حلوى مجرداً. ويرى لوشر أن لهذه الحلوى مذاقاً طيباً ورائحة منعشة، ويعتقد أنها – بصفة عامة – صحية. ويحدثنا بأن هناك أنواعاً من هذه الحلوى تُباع في شكل مكعبات يبلغ طول ضلع القطعة حوالى بوصة، وأن هذه الحلوى تُصدّر إلى مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، وإلى مناطق أخرى في فارس وشبه جزيرة الهند.

ترى الجزارين وهم يبيعون لحوم المعز ولحوم الإبل، وأما لحوم الخراف والعجول فنادرة، إذ ليس هناك من يطلبها. ولا يعتقد لوشر أن الندرة تعلّل عدم الطلب، ولكن المعز والإبل من الحيوانات التي تُربّى في المنطقة الصحراوية والجبلية وتستجيب لتلك البيئة، أما الخراف والعجول فهي من حيوانات الأراضي الزراعية الطينية، ولذا فوجودها في مسقط كان نادراً. ويسترسل هذا الرحالة ليحدثنا عن عدم وجود لحم الخنزير عند القصابين، فالقرآن الكريم يعدّه طعاماً نجساً. ولذلك فإن مجرد ذكر اسمه كاف لأن يسبّب الرعب لدى المسلمين!! "وإنك إذا نعتَّ مسلماً بالخنزير فإن تلك جريرة عظيمة وإساءة لا تغتفر". وفي الغالب كم أعرّض حياتي للخطر كثيراً لأني أستعمل هذا اللفظ كلما غضبت على أحد لأسبّه به. ويضيف أنه لن يتجرّأ أن يرعى خنزيراً في أرض مسلمة مهما أعطي من أموال، ولن يفعل ذلك ما لم يكن زاهداً في البقاء في هذه الدنيا والتخلي عن الحياة من فوره. ويسترسل لوشر فيذكر أن لحوم الإبل هي التي تظفر بالقبول الشديد في كافة مناطق شرق شبه الجزيرة العربية. ويعدّ عرب الصحراء إكرام الضيف بنحر جمل صغير غاية الترحيب ومنتهى التكريم والتشريف. وفي الحقيقة – كما يقول لوشر – إن لحم الجمل الذي يتراوح عمره بين شهرين وأربعة شهور طيب المذاق، خاصة عندما يُشوى، إذ يبدو لونه أكثر بياضاً من لحم العجول، إضافة إلى أنه أسهل مضغاً. ويذكر لوشر أن السواد الأعظم من سكان مسقط، خاصة الشريحة الفقيرة منهم، يعتمدون في طعامهم على الأسماك من دون سواها. فالأسماك موجودة بكثرة وأثمانها زهيدة. ويجنح لوشر إلى تحليل غريب لتعليل وجود عدد كبير من المصابين.بمرض البرص في مناطق واسعة من شرق شبه الجزيرة العربية – وتزايد هذا العدد باستمرار – بأنهم يعيشون على الأسماك التي يستهلكونها بوفرة ولا يتناولون طعاماً آخر من خبز أو خضر أو فاكهة إلا قليلاً. ويذكر هذا الرحالة أن حوالى نصف السكان يعملون دائماً في صيد السمك أو مهمات أخرى تتصل بهذا النشاط، من تنظيف وتمليح وتجفيف وتصنيع. ويفيد بأن كميات كبيرة من الأسماك المملحة والمدخنة تُصدّر من هنا إلى فارس والهند وجزر الملايو وإلى زنجبار والموريشيوس والبربون عموماً، كما تُصدّر أنواع كثيرة من الأسماك إلى العمال والمزارعين. ويستهلك بحارة السفن الآسيوية كميات كبيرة من هذه الأسماك التي يزهد في تناولها الضباط والمهندسون، أما الجنود والبحارة الهنود ورفاقهم من زنوج الشرق الأفريقي فإنهم يعيشون بنحو يكاد يكون تاماً على الأسماك الطازجة أو المدخنة التي تُطيّب بتابل الكاري، كذلك يتناول هؤلاء أحياناً البيض والفراخ والأرز. ويلاحظ لوشر

أن سوق الفاكهة في مسقط غير عامرة؛ فأرض هذه المدينة وما يحيط بها حجرية تماماً، وهي غير صالحة للزراعة، إضافة إلى أن مناخ المنطقة حار جداً، ما يتعذر معه نمو أشجار الفاكهة التي يمكن أن تثمر، ما لم تستحدث لها وسائل ريّ دائمة. ويستعرض لوشر الخضراوات الموجودة في السوق من بامية وبصل وثوم، وكذلك الفاكهة من: الموز والليمون والرمان والتوت والبرتقال والليمون الحلو والتمور، إضافة إلى البطيخ، "الموجود في غير موسمه".

خرج لوشر مع رفاقه من البازار ليعبر شوارع مسقط التي يقول عنها: إنها ضيقة قذرة، ويتحدث عن المنازل التي يسكنها الأثرياء ويقول: إنها لا ترتفع أكثر من طبقتين، وإن سطوحها مستوية، وهي مبنية من اللبن. ويصف نوافذها الصغيرة ذات القضبان الحديدية المتعامدة والتي يعكس مظهرها منظر السجن. أما السكان الأقل ثراءً فإنهم يعيشون في أكواخ طينية ذات سقوف مستوية يأوي إليها المواطنون ليلاً للنوم. والنوم داخل هذه المنازل يكاد يكون مستحيلاً، لأن الجوّ فيها شديد الحرارة، إضافة إلى وجود عدد كبير من الهوام والعقارب والجرذان والفئران والديدان التي ما إن يحلّ الظلام حتى تسيطر على غرف المنازل سيطرة تامة، و"ربما يبدو غريباً أن أياً منها لن يجرؤ على الظهور على السطح!".

يصف لوشر المنازل في ما وراء سور المدينة فيقول: إنها ليست إلا أكواخاً صغيرة تقوم على عدد من العصي التي لا يزيد ارتفاعها على سبع أقدام، وتسقف بنسيج من السعف أو الأعشاب. وينام المرء فيها على حصير من سجاد خشن يُمدّ على أرض الكوخ التي يتقاسمها معه جماعات الحمير والأغنام والكلاب والدواجن، إضافة إلى هوام الأرض. ويحدثنا هذا الرحالة عن المساجد في مسقط، فإذا هي متينة البناء فسيحة مربعة شيّدت بالحجر، ولكنها غير مزخرفة، ولولا قبابها ومآذنها "ما كان لي أن أميّز بينها وبين المباني الأخرى المبنية من الحجر". ويفيدنا بأن عددها يصل إلى أربعة أو خمسة مساجد.

يعود هذا الرحالة ليحدثنا عن مسقط حديثاً شاملاً فيقول: إنها محاطة من جوانبها الثلاثة بسور دفاعي لكنه مهترئ جداً، ويجري الدخول إلى البلدة عبر السور من خلال ثلاث أو أربع بوابات تعكس منظراً كئيباً، ويذكر أن هذه الأبواب مصنوعة من الخشب المقوّى بحزمة من الحديد. ويستطرد ليذكر أن هذه الوسيلة الدفاعية بالكاد تقوى على صدّ أي هجوم على هذه المدينة التي تضمّ سكاناً يتراوح عددهم بين ستين وسبعين ألفاً، تسعة أعشارهم من المسلمين، أما العشر الباقي فهو من الهندوس وغيرهم من السكان غير الدائمين.

مسقط – كما يقول هذا الرحالة وكما هي عند العديد من الرحالة الغربيين – أكثر المناطق حرارة على وجه البسيطة، إذ يصل مقياس الحرارة إلى ٣٠–٤٤° س (١١٠–١٣٠° ف) في موسم الحر الذي يستمر تسعة شهور متصلة. ويذكر أن الأمطار لا تسقط في مسقط ولا في شمالها في المنطقة الواقعة حتى خط عرض ٢٨° شمالاً إلا نادراً، أو قد لا تسقط في هذه المنطقة

أبداً، ولكن الأرض تكون مبللة بالرطوبة في شهور الشتاء الممتدة من ديسمبر إلى فبراير، ويغطي الندى الكثيف هذه المنطقة. ويعود ليذكر أن المرء لن يجد أثراً لأي نوع من النبات أو الأشجار في مسقط، ولا حتى حزمة حشائش واحدة ما لم تُروَ صناعياً. ويستطرد فيقول: إن المدينة تشرب من الآبار، والمياه تُرفع من الآبار بوعاء من جلد الماعز مربوط بحبل يحمل الماء من البئر، ويضيف: إن عمق الآبار يتراوح بين خمسين ومئة قدم. وتُثبّت بكرة عند فوهة البئر يمرّ خلالها الحبل الذي يُربط عادة إلى جمل أو حصان أو حمار يتولّى جرّه، ولهذا إذا وجدت تربة خفيفة فوق تلك الصخور فإن الماء كفيل بإنتاج الخضر والعشب والغلال من دون جهد كبير.

العودة إلى الباخرة

"لقد تقصّينا ما يمكن تقصّيه في هذه البلدة المثيرة للانتباه". وكان عليهم أن يعودوا إلى الباخرة، فاستقلّوا ذلك النوع من المراكب الواهية الذي كان قد أقلّهم إلى الساحل، وصادفوا في عودتهم حطاماً لسفينة شحن أوروبية كانت موسوقة، فاحترقت في الليلة السابقة، وأتت النيران عليها تماماً. وقبل أن تغادر الباخرة مسقط سرت شائعة تفيد بأن الإمام قد لقي حتفه قتيلاً في الميدان، وأن أحد إخوته الصغار قد تولى قيادة الجيش بدلاً منه، وأنه راح يبذل كل ما في وسعه لمنع وصول أخبار مقتل الإمام وتفشّيها في العاصمة، ويبدو أنه لم يفلح في ذلك. فقد بلغ الخبر بومباي، ولمّا يمضِ أسبوع من وقوع هذا الحادث. تقول الأخبار: إن السلطان اغتيل في خيمته بطلقة أرسلها إليه أحد إخوته ثم تولى القيادة بدلاً منه، وأصبح وارثاً للعرش. ويستطرد فيقول: إن حادث الاغتيال مرّ من دون أن يحرّك أحد ساكناً، وأصبح القاتل سلطاناً، ولكن أمر هذا السلطان – كما تشير الاحتمالات – سينتهي إلى ما انتهى إليه أمر السلطان السابق على يد أحد إخوته الأصغرين، عاجلاً أو آجلاً.

أشار هذا الرحالة – بما سمّاه شائعة – إلى حادثة خطيرة في التاريخ العماني هي حادثة اغتيال السيد ثويني في فبراير عام ١٨٦٦م الذي اتهم به ابنه السيد سالم الذي خلفه على العرش، وتولى القيادة في الميدان بدلاً من أبيه الذي كان في ذلك الميدان محارباً السعوديين الذين صالحهم سالم فور وقوع الحادث. والحقيقة أن السلطات البريطانية في الخليج هي التي تولت الترويج لهذا الخبر، إذ لم يكونوا في بداية الأمر راضين عن سالم الذي اتهموه بميول وهابية، خاصة حين أصدر قوانين اعتبرها "بيلي" مقيم الخليج تحضّ على التعصّب، غير أن هذا الأمر نفسه لم يكن عائقاً أمام حكومة الهند البريطانية للاعتراف بحكومة السيد سالم في سبتمبر ١٨٦٦م؛ فقد قالت السلطات ذاتها بعدم وجود دليل ثابت يؤكد قتل سالم أباه، "وحتى في حالة وجود دليل فإن قتل الابن أباه عادة تميز بها المجتمع العربي في هذه المناطق!"، ولا يهمنا هنا بطبيعة الحال التحقق

من تلك الحادثة التي تراوحت آراء المؤرخين فيها بين اتهام الابن بقتل أبيه لاتهام الأول للأخير بأنه يشايع الإنجليز بحربه للوهابيين، وبين الذين ينفون عن الابن تلك الجريمة جملة وتفصيلاً:

ما عقّ والده ولا صدق الذي   نسب العقوق إليه وهو جحود
هذا قضاء الله جلّ جلاله   لا والد يبقى ولا مولود

وقد اتخذ آخرون موقفاً وسطاً، فاتهموا الابن بالتستّر على الجريمة والتغاضي عن مرتكبيها. وعلى كل حال، فإن القبائل الهناوية لم ترضَ من السيد سالم ميوله الغافرية الوهابية، فاجتمعت عليه القبائل الإباضية، ففرّ إلى قشم أمام ضغط هذا الحزب الديني، ثم ذهب إلى الرياض يستنجد بحاكمها عبد الله بن فيصل، ولكن العاصمة السعودية كانت في هذا الوقت تعاني انقساماً بين عبد الله وسعود ابني فيصل. وفي عمان عُقدت البيعة لعزان بن قيس الذي استولى على مسقط في ٢٠ جمادى الآخرة ١٢٨٥/٧ أكتوبر ١٨٦٨م وأصبح أول إمام تُعقد له البيعة في تلك البلدة. وكانت البيعة تُعقد قبل ذلك في المدن الداخلية من عمان، في نزوى أو بهلا أو الرستاق. ولجأ السيد سالم حين خرج من مسقط إلى السفينة البريطانية برنس أوف ويلز، ولم تنجح رحلاته للحصول على الدعم ولا محاولاته المتكررة في عام ١٨٦٩ م لاستعادة كرسي سلطنته الذي آل بعد انهيار الإمامة في ١٨٧١م إلى عمّه تركي بن سعيد الذي كانت حكومة الهند البريطانية تفضّل التعامل معه من دون سالم.

لم يكن لوشر أول الأمريكان الذين زاروا مسقط، فالتجارة الأمريكية مع شقّي مملكة السيد سعيد بدأت منذ ١٢ مارس ١٨٢٦ حين ولجت السفينة الأمريكية آن سواحل السيد سعيد الأفريقية. واحتجّ الكابتن الأمريكي إدموند روبرتس رسمياً لدى السيد سعيد في ١٠ يونيو ١٨٢٧ على التفرقة في المعاملة التجارية في موانئ السيد سعيد بين التجار الأمريكان وأمثالهم من الإنجليز. ففيما يسمح للإنجليز بأن يبيعوا بضائعهم بحرية لمن يرغب في الشراء، يحظر على التجار الأمريكان البيع إلا لوكلاء السلطان في تلك الموانئ التي يؤدي الأمريكان فيها رسوماً كانت في مجملها أعلى مما تؤديه سفن الدول الأخرى. وهدد روبرتس بمقاطعة موانئ السيد سعيد. وكانت التجارة الأمريكية رائجة، فقد بلغ عدد سفنها التجارية التي دخلت إلى موانئ عمان في شرق أفريقيا، في الفترة بين مارس ١٨٢٠ إلى يونيو ١٨٢٧، أكثر من ست وعشرين سفينة، وهو عدد قصرت دونه أعداد السفن الهندوبريطانية.

سارع السيد سعيد، نتيجة لذلك، إلى دعوة روبرتس لعقد اتفاق عماني أمريكي يكون للتجار الأمريكان بموجبه حقوق مساوية للإنجليز. كذلك بعث السيد سعيد في عام ١٨٣١م خطاباً مع قبطان سفينة أمريكية يدعو فيها الشعب الأمريكي إلى الاتجار مع موانئه، إلا أن أولئك التجار استصوبوا عدم نشر رسالة السلطان حرصاً منهم على حماية تجارتهم في تلك المناطق من المنافسة. ولم تلبث الحكومة الأمريكية أن أرسلت في ٢٧ يناير ١٨٣٢ إدموند روبرتس إلى

السلطان للنظر في الوسائل التي يمكن الولايات المتحدة الأمريكية أن تزيد بها حجم تجارتها في البحار الهندية. وقد عملت الحكومة الأمريكية على أن تكون تلك البعثة سرية، حتى لا يعرقل الإنجليز مهمتها. وأفلح روبرتس الذي تنكر بوظيفة كاتب لقبطان السفينة التجارية الأمريكية بياكوك التي وصلت إلى مسقط في ٤ جمادى الأولى ١٢٤٩/١٨ سبتمبر ١٨٣٣ في عقد اتفاق عماني أمريكي من تسعة بنود للتجارة والصداقة بين البلدين بتاريخ ٢١ سبتمبر، وجرى توثيق الاتفاق وتبادله في مسقط في ٣٠ سبتمبر ١٨٣٥، وجرى أيضاً في ٣٠ ذي القعدة ١٢٥١/١٨ مارس ١٨٣٦ احتفال رسمي بتعيين المدعو وترز أول قنصل أمريكي في مسقط. وجاء في أول تقرير لهذا القنصل من زنجبار أن السيد سعيد مسلم ملتزم، لكنه غير متعصّب. ووزّع القنصل وترز الإنجيل على المواطنين، وكتب إلى بلاده يدعو إلى العمل التنصيري في مملكة عمان. وازدهرت التجارة الأمريكية، وأرسل السيد سعيد سفينته السلطانة التي ألقت مراسيها في نيويورك في ٢٩ صفر ١٢٥٦/٢ مايو ١٨٤٠، "وتجمهر حول بحارتها" رعاع الأمريكيين لينظروا إلى العرب ويشبعوا غريزة حب الاستطلاع منهم، وصاروا يعتدون عليهم في خلواتهم ويجرّونهم من لحاهم. وليس ثمة مجال للاستطراد في تطور العلاقات الأمريكية العمانية، ولن يمكننا أن ننظر في بعض حكايات إدموند روبرتس عن البدو والبادية. قال روبرتس، وأسند قوله إلى السيد سعيد، إن البدوي حين يحارب يدفن نفسه حتى خاصرته في الرمل فيما يتلألأ سيفه الذي يلوّح به عالياً فوق رأسه. وبالطبع لا يمكننا أن نصدق صدور مثل هذا القول من السيد سعيد، بل نراه فرية اتسع لها خيال روبرتس الذي اتسعت له ولرفاقه موائد السيد سعيد الفارهة التي نهلوا منها ثم أشاعوا في كتاباتهم أن إعداد الطعام في مسقط لا يعتمد الأساليب الصحية، وأن الحلوى المسقطية تُلّت بأقدام الزنوج الحافية. وعلى العموم، فقد مثّلت مسقط حتى زيارة لوشر لها في عام ١٨٦٨ الحد النهائي لرحلات الأمريكان إلى مدخل الخليج التي امتدت مع هذا الرحالة إلى أعالي الخليج.

الإبحار إلى أعالي الخليج

أخذت الباخرة بينانج بعد خروجها من ميناء مسقط تشقّ طريقها شمالاً نحو بندر عباس الذي هو ميناء صغير على الساحل الفارسي عند مدخل الخليج بالقرب من مضيق هرمز. ويحكي لنا لوشر عن ميناء جبرة Gobra؟، ولعله يقصد "مطرح" الذي يصفه بالميناء الصغير الجميل الذي يقع على مسافة أربعة إلى خمسة أميال إلى الشمال الغربي من مسقط، والذي هو – مثل ميناء مسقط – محاط بالصخور العالية، ولا يفصله عنه إلا سلسلة من الجبال التي تشكل الحدود الغربية لميناء مسقط. ويقول: إنه أبصر في ذلك الميناء الصغير القوّة البحرية للإمام التي تتكوّن

من طرّادين صغيرين وخمس أو ست سفن كانت جاثمة في مراسيها. ويحدثنا بعدئذ عن جزيرة الغنم فيقول: إنهم أبصروا على بعد حوالى عشرة أميال من مسقط في اتجاه هبوب الريح جزيرة صخرية صغيرة لا يزيد محيطها على ثلاثة أميال تسكنها الأغنام البرية. ولا يكاد نظر المرء يقع على أي نوع من النبات في تلك الجزيرة، وإنه لأمر مذهل حين يتدبّر المرء كيف يمكن هذه الأغنام أن تعيش هناك؟! وفي الحقيقة إن هذه الأغنام التي ردّد هذا الرحالة وغيره أنها برية تعود إلى بعض أهالي مسقط، يبحرون إلى الجزيرة ويرعونها ويستفيدون منها ثم يرسلونها طليقة هناك، وقد أشارت رسائل بعض سلاطين مسقط لإدارة الخليج البريطانية إلى هذا الأمر.

يصف لوشر مضيق هرمز الذي استبان له في صباحٍ اليوم التالي لمفارقته ميناء مسقط فيقول: إن عرضه يبلغ عند أضيق منطقة فيه حوالى عشرين ميلاً، وهو المخرج الملاحي للخليج المفتوح على المحيط الهندي. كذلك يحدثنا عن جزيرة مسندم، أو في الحقيقة إحدى الصخور التي تمثّل قسماً من رأس مسندم الذي يضم محطة البرق الهندوأوروبية، إضافة إلى بيت حجري ضخم يأوي إليه أربعة من الموظفين الإنجليز الذين يعملون في تلك المحطة. ويستطرد فيقول: إن مساحة جزيرة مسندم لا تزيد على مئتي ياردة مربعة من الصخور الجرداء، وإن الموظفين الذين يسكنونها يعتمدون اعتماداً كاملاً في كل ما يحتاجون إليه من ضرورات الحياة، بما في ذلك الماء، على بندر عباس. "ولن يحسد المرء هؤلاء الفرسان العاملين في محطة البرق على هذه الصخرة الموحشة التي لا تقدم شيئاً من مباهج الحياة".

بندر عباس

باتت الباخرة على مرأى من بندر عباس، واضطرت إلى الرسوّ على بعد حوالى ميل ونصف من الساحل. فالمياه ضحلة جداً عند مدخل الميناء ولا تستوعب غاطس الباخرة. وجاء القارب المخصص لحمل البريد، فأقلّ هذا الرحالةَ إلى الساحل، وهناك جرى تسليم البريد إلى رجل من المواطنين عجوز مكفهّر الوجه، جمع في شخصه وظيفة: الحاكم، والقاضي، وقائد الشرطة، وضابط الجمارك، ومدير البريد في هذا الميناء الصغير. لم يعجب هذا الرحالة بمدينة بندر عباس التي وصفها "بالموقع الأكثر بؤساً"، وقال: إنها تضم حوالى مئتي بيت من الطين على أرض رملية، وإنها تبدو قذرة ممقوتة، وإن مسقط إذا قورنت بهذه المدينة تبدو غاية في الفخامة والبهاء. وأضاف أن الأرض المحيطة بهذه البلدة موحشة جرداء، وإن عينيه لم تقع على أثر لخضرة باستثناء عدد قليل من أشجار النخيل نصف اليابسة التي تتناثر هنا وهناك يرمق - بحزن - بعضها بعضاً. وتبرز خلف هذا الميناء الصغير سلسلة جبلية ضخمة يصل ارتفاعها إلى تسعة آلاف قدم فوق مستوى البحر، ويمثّل منظرها وهي تطلّ على البحر مفارقة جديرة بالتأمل. ويستطرد فيذكر أن

هذه السلسلة من الجبال تكوّن الحدود الطبيعية للولايات الثلاث الجنوبية القصوى من فارس، وهي: مقاطعة بلوشستان، ثم مقاطعة كوشستان التي تحدّ الأولى شمالاً، ثم مقاطعة كرمان التي تضمّ بندر عباس، والتي تقع إلى الغرب من الثانية.

هرمز وقشم

عاد مركب البريد بمن عليه إلى الباخرة التي شقّت طريقها إلى لنجه أو كنجون، بعد أن صفا الجوّ بعد عاصفة استمر هبوبها اليوم كله. وأمسى البحر المائج مع غروب الشمس هادئاً تماماً وشفافاً يعكس جمالاً ونضارة. وفي صباح اليوم التالي اجتازت الباخرة جزيرتين صخريتين تمثّلان الممر الذي يربط الخليج العربي بخليج عمان، وهما: قشم، وهرمز. وعلى الرغم من أن الجزيرة الأخيرة أصغر حجماً من الأولى، فإن شهرتها التاريخية كبيرة جداً؛ فقد كانت - كما يقول - الموئل الأساس للحكم البرتغالي في الخليج. ويضيف أن خرائب القلعة الكبيرة التي بناها البرتغاليون على الساحل الشرقي للجزيرة لا تزال بادية للعيان. ويروي عن وجود تحصينات في الفترة البرتغالية على السواحل الشمالية والجنوبية من جزيرة قشم، وأن البرتغاليين استخدموا هذه المواقع الحصينة للسيطرة بقوة على مضيق هرمز الذي حكموه أكثر من قرن من الزمان قبل أن يطردهم الشاه عباس بمساندة إنجليزية في عام ١٦٢٢م. ولا ندري أكان هذا الرحالة جاهلاً أم متحيّزاً أم جمع بين الأسوأين حين حدثنا عن شهرة هرمز التاريخية، وبدأ بالبرتغاليين وهم الذين أنهوا رواج هرمز الاقتصادي وأخرجوها من دائرة التاريخ باستعمارهم لها؟! كانت هرمز - قبل أن تفد السفن الأوروبية إلى بحار الشرق وتستعمر أرضه - تدير ساحل خليج عمان، وامتدت سلطتها إلى عدّة جزر بما فيها البحرين. أما مسقط فقد كانت المخزن الرئيس لتجارتها التي كان حجمها يساوي حجم تجارة لندن وأمستردام معاً. وقد تغنّى بثرائها شعراء الغرب أنفسهم، فشبّه أحدهم العالم بالخاتم في استدارته، وجعل هرمز جوهرته. ماتت هرمز حين احتلها البرتغاليون الذين كانوا طرف السكين الأوروبي الحاد الذي شق الجلد الأفريقي والآسيوي، وأدخل فيه جرثومة الاستعمار الغربي التي اكتسبت في عالمنا حصانة لمقدرتها على تبديل شكلها وهيئتها بما يناسب كل عصر!

لنجه

يقول لوشر: إن جزيرتي قشم وهرمز اللتين تقعان تحت السيادة المسقطية لا يسكنهما في هذا

الوقت سوى بعض الأُسَر التي تعمل في صيد السمك. وتستمر بينانغ في إبحارها فتسلك طريق الساحل الفارسي. يقول لوشر إن هذا الساحل جبلي، وإن قمم جباله تغطى بالثلوج فترة طويلة من العام. وفي ظهيرة اليوم التالي وصلت الباخرة إلى لنجه الواقعة عند نهر كانجون الذي يفصل بين مقاطعتي لارستان في الشرق وفارستان في الغرب. وأشار إلى أن البلدة تابعة لفارس، ولكنها بُنيت على النمط العربي ويسكنها العرب من مواطني الساحل الجنوبي للخليج بصفة شاملة. ويقارن لوشر بين نمط منازلها العربية ذات السُقُف الخشبية المستوية التي تغطى بطبقة طينية من الأغصان والحشائش المختلطة بطبقة غليظة من الطين المملط لتحصينها ضد الماء، ونمط البناء الفارسي بمنازله ذات السقف المائلة الجانبين التي تتخذ من الحصير الخشن. ويقول: إن قرية لنجه مؤجرة من شاه فارس إلى شيخ البحرين مدة مئة عام بمبلغ كبير. ولا نعرف لهذه المعلومات الخاطئة أصلاً، فالرجل لم يخبرنا شيئاً عن مصادره، ونجد الحديث عن العلاقة بين لنجه والقواسم حديثاً طويلاً يحتاج كل ضرب فيه إلى أكثر من كتاب، ويكفي أن نشير إلى أن قضية الجزر الثلاث المعلقة بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة ترجع بعض جذورها إلى هذه العلاقة بين لنجه والقواسم.

يذكر لوشر أن لنجه قرية صغيرة تحتل قلب منطقة خصبة جميلة مبهجة ذات ميزة لا تقدر بثمن، ذلك أن مياهها جارية طوال العام، لا مقطوعة ولا ممنوعة، فهي لا تنضب أبداً. يقابل هذا الرحالة بين بندر عباس التي يصفها بالبائسة ولنجه التي يصفها بالمبهجة فيقول: إن الأخيرة محاطة بأشجار النخيل، وإن منازلها المبنية من اللبِن وشوارعها النظيفة تبدو كأنها صور أزهار على خلفية خضراء. ويقارن بين سكان لنجه العرب الخلّص الذين يحرصون على الحفاظ على عاداتهم وأخلاقهم وأعرافهم، وبين المزارعين الفرس الذين يسكنون بعض موانئ الخليج، ويحسم هذه المقارنة العنصرية البغيضة لمصلحة العرب. ويفسر الرجل اعتزاز العرب بعروبتهم في تلك المنطقة من الساحل الفارسي وتمسكهم الشديد بشخصيتهم القومية فيردها إلى أنهم يخشون من الذوبان في المحيط الفارسي العريض. ويتحفنا بحقيقة فحواها أن السلطات الفارسية ما كانت تسمح لعرب لنجه أن يتوغلوا في الداخل الإيراني أكثر من مئة ميل، وأن عرب لنجه أنفسهم لم يكونوا ينازعون السلطات هذا القرار، لأنهم في ذاتهم ما كانوا يرغبون في التوغل في إيران؛ فهم قانعون بالبقاء في ما يمكن أن يسمى جنة عدن الخليج. والرجل هنا قد يكون صادقاً في ملاحظته التي يمكن نقدها والتدقيق فيها، ولكنه حين صدق في إثبات الواقع فإنه أساء في تفسيره. فأهل لنجه قواسم، وارتباطاتهم كلها كانت عبر الخليج حيث أهلهم في رأس الخيمة والشارقة، كذلك فإن أعمالهم كلها كانت قد ارتبطت بالبحر وجزره، ولم يكونوا يجدون مصلحة في منافسة التجار والعمال الفرس في الداخل ولا المقدرة على ذلك. إن الحقيقة التاريخية التي لا تمارى تنبثق من واقع جغرافي، وهي أن الجبال العالية قد أغلقت

الساحل الفارسي عن الداخل، وأن تجارات فارس الغنية ودروب الحرير وغيرها في المنطقة من أقاصي آسيا كانت تمر عبر دروب داخلية، ما عزل الفرس عن سواحلهم التي عمرها العرب من أهل البحر الذين كانوا ينتقلون بين عمان والعراق على قواربهم. وقد استقر العديد منهم في مناطق السواحل الفارسية وأنشأوا حكوماتهم وإداراتهم التي لم تلتفت إليها السلطات الفارسية، و لم تنازعها حتى عهد نادر شاه في منتصف القرن الثامن عشر، الذي كان أول ملوك فارس اهتماماً بالبحر لأسباب لم يكن العنصر من ضمنها ولا القومية من دوافعها. فقد أقام نادر شاه أسطولاً عيّن لقيادته ضابطاً فارسياً لم يكن قد رأى البحر في حياته، أما العاملون في ذلك الأسطول فكانوا من عرب السواحل. وفي الاضطرابات التي أعقبت موت نادر شاه، آل الكثير من سفن هذا الأسطول إلى الجنود العرب الذين اتجهوا بها – بطبيعة الحال – لخدمة الأهداف المشتركة لأهلهم في السواحل، بينما زهد الحكام الفرس بدورهم في البحر الذي لم يكن يخدم لهم هدفاً اقتصادياً ولا استراتيجياً في ذلك الوقت.

يحدثنا هذا الرحالة عن لباس أهل لنجه الذي هو مثل لباس عرب مسقط. ولكنه يلاحظ أن أشكال الرجال هنا تعكس وسامة بادية في نظراتهم وأجسادهم "وما ذلك إلا من أثر هذا الموقع الذي يسكنونه"، فهو صحي عموماً. كذلك فإن سكان لنجة لا يعتمدون اعتماداً كاملاً على الأسماك في معيشتهم، فهم ينوّعون مصادر غذائهم. أما النساء العربيات من أهل لنجه فهن – عنده – أكثر رقيّاً من نساء مسقط في كل شيء، رغم أنهن منقبات، شأنهن في هذا شأن الجنس اللطيف في مسقط، إلا أنهن "يبدين حبّاً زائداً للاستطلاع". وحب الاستطلاع – كما يقول – شأن أنثوي موروث يميز هذا الجنس عن الآخر في كل أرجاء المعمورة. وعلى الرغم من أنهم كن يتجنّبن إثارة انتباه الأجانب، كان يدفعهن الفضول إلى التحديق إليهم من خلال ثقوب النقاب التي تمثل الأبواب الفريدة لدواخلهن. ويدّعي هذا الرحالة أنه لم تمرّ مجموعة من هؤلاء النسوة إلا كانت أصواتهن تتعالى تعليقاً على هؤلاء الأجانب ثم يمضين ضاحكات. ويستطرد في وصف نساء لنجه اللائي يعتقد أن لهن غراماً خاصاً وارتباطاً عاطفياً باللونين الأحمر والأصفر، "فمزاجهن أن تكون ملابسهن على أحد هذين اللونين، وهو مزاج لطيف يزيد كثيراً في بهجة المنظر الكلي لهذه القرية التي تبدو كأنها واحة في قلب الصحراء". ويسترسل في وصف تلك الأزياء النسائية التي تخطف الأبصار برونقها، كما يتحدث عن زينتهن التي اتخذنها من أصناف مختلفة من الخرز والأصداف المشغولة وغير ذلك من الزينة غير المكلفة مادياً.

> ليت موريلو Murillo أو سيلفاتور روزا يرى هؤلاء النسوة وهنّ يتهادين في دلال بقوامهن المنتصب، تبدو أجسامهن وهنّ يخطرن في مشيهن ليوازنّ جرار الماء التي تتخذ نهاياتها أشكالاً مستديرة محدودبة يضعنها على رؤوسهن وهنّ

عائدات من تلك الغدائر التي تحيط بحدائق النخيل الغنّاء أو من الآبار التي خلف القرية – كأنها قد صيغت بريشة فنان – إذاً لكان ذلك موضوعاً جديراً بأن يخطّه قلماهما.

يغذي هذه القرية الصغيرة عدد من الأنهار والعيون لا يقل عن الاثني عشر، تجوس خلال أشجار النخيل العديدة على بعد حوالى نصف ميل من الساحل. وتتبدّى للمرء هذه المنطقة بعرائشها المستديرة التي اتخذت من الطوب المجفف بالشمس، والتي يبلغ محيطها حوالى عشرين قدماً، وشيّدت على الآبار لتسترها عن حرارة الشمس وتقيها التلوث بالغبار، وعلى هذا النحو تأتي مياهها بالغة الصفاء تسرّ الناظرين، إذ تبدو كأنها البلّور صفاءً ورقة ونقاءً.

البحرين

وصلت الباخرة إلى البحرين التي يقول لوشر: إن حاكمها شيخ عربي مستقل، ويشير إلى أن أهل جزر البحرين اشتهروا بأنهم كانوا حتى ١٨٥٠م يعيشون حياة فوضى لا يحكمهم قانون، فهم – كما يدّعي – يمارسون حياة القرصنة، ويعملون في تجارة الرقيق، وأنهم – لولا وجود السفن الحربية البريطانية – كان يمكن أن يسبّبوا مشكلات كبيرة للتجارة. وفي الحقيقة لا نستغرب مثل هذا الهراء الصادر من مسافر عابر عن طريق البحرين، لؤلؤة الخليج حقيقة لا مجازاً، التي لم يؤثَر عن إنسانها نزوع إلى العنف، ولا عن حكامها رغبة في الامتداد خارج أراضيها، ومع ذلك فإن الوقائع لا تُكذّب وقوع اضطرابات في تلك الفترة، بدأت بالتنافس على الحكم في أسرة آل خليفة. وقع نزاع على الحكم في ١٨٤٨م بين عبد الله بن خليفة ومحمد حفيد أخيه الذي كان يشاركه في الحكم، فتدخل المقيم البريطاني كما تدخلت الحكومة السعودية أيضاً لمصلحة الأخير، فهرب الجد إلى فارس ينشد عونها، ولكن وفاة هذا الرجل المسن في العام ذاته حسم النزاع لمصلحة محمد. وكانت بريطانيا في وسط هذه الاضطرابات قد عقدت في ١٨٤٧م معاهدة مع البحرين لحظر تجارة الرقيق، استغلتها زيادة في التدخل في شؤون الأرخبيل. وتمكنت بعدئذ من عقد اتفاق مع الشيخ محمد في ١٨ فبراير ١٨٦١م، نصّت بنوده على أن البحرين تقع تحت حكم حاكم مستقل، لكن هذه الاتفاقية نزلت بالبحرين إلى مرتبة المحمية. وفي خضم الاضطرابات التي وقعت في البحرين وقطر، والتي شاركت فيها أبو ظبي، تمكن المقيم البريطاني في ٣١ مايو ١٨٦١م من أن يرغم محمد بن خليفة على أن يعقد معاهدة صداقة وسلام دائم مع "الحكومة البريطانية التي تستهدف تقدم التجارة وأمن جميع الشعوب التي تستخدم هذا البحر لملاحتها". وفي هذه الاتفاقية يتعهّد شيخ البحرين بعدم ممارسة الأعمال العدوانية، وعدم

القيام بأعمال القرصنة أو ممارسة النخاسة، أو تجهيز سفن بحرية بمعدات حربية، أو تجهيز قوات إلا بموافقة الحكومة البريطانية، إضافة إلى شروط أخرى استغلها المقيم البريطاني في الخليج بعدئذ لعزل الشيخ محمد وتنصيب الشيخ علي حاكماً للبحرين. ثم ما كان بعدئذ من عقد معاهدة ٦ سبتمبر ١٨٦٨ بين الشيخ علي والمقيم، وأصبحت البحرين بعد هذه الاتفاقية نقطة ارتكاز في الاستراتيجية الهندوبريطانية في الخليج، ودخلت إلى دائرة الهيمنة البريطانية التامة، ما أبعد عنها الادّعاءات الفارسية والعثمانية، لتبقى خالصة للنفوذ البريطاني.

الغوص

لم يتحدث أيّ من الرحالة الأجانب عن البحرين إلا ذكر الغوص على اللؤلؤ. يقول لوشر إن في الخليج مغاصات شهيرة للؤلؤ تضم في المواسم أعداداً كبيرة من "بغلات" العرب والفرس والهنود في سعيهم لصيد اللآلئ "العظيمة القيمة" التي كانت في فترة ما توجد بوفرة في مغاصات تتراوح أعماقها بين عشرين وستين قدماً. وتجري عملية الغوص – كما يفيد لوشر – على النحو الآتي:

ينزل الغوّاص إلى الماء وهو عارٍ تماماً من كل شيء إلا من حقيبة صغيرة مربوطة حول وسطه ليودع فيها الأصداف التي يجمعها، وسكين حادة طويلة داخل جراب جلدي يربط بالجزء الأعلى من عضد الذراع الأيسر. يقبض الغوّاص بشدة على ثقل من حجر أو حديد أو رصاص مربوط بإحكام إلى حبل ربط طرفه الآخر بحافة المركب. يقفز البحار إلى الماء وهو يحمل هذا الثقل فيغطس مباشرة إلى قاع البحر، ويأخذ في التحرك في القاع وهو مفتوح العينين تماماً، ويلتقط ما يجد من المحار ليضعه بسرعة في الحقيبة المربوطة إلى وسطه. ويظل الغوّاص في الماء بقدر ما يستطيع الامتناع عن التنفس، فإذا ما غلبه ذلك تخلى عن الثقل الذي يحمله، فلا يلبث عندها أن يطفو كالفلين فوق سطح الماء. ويبقى الغوّاص حين يخرج إلى السطح ممسكاً بحافة القارب حتى يفرغ ما في الحقيبة من أصداف يتولى فتحها أحد البحارة. ولكن عادة ما يلجأ الغوّاص إلى فتح الصدفة بنفسه تجنّباً للوقوع في الغش، فليس من المؤكد أن تحمل كل الأصداف لؤلؤاً. فمن بين كل عشر أصداف تستخرج من البحر، قد لا تجد إلا واحدة فقط تحوي لؤلؤة، أما البقية فقد يكون حيوانها قد نفق قبل أسابيع أو شهور أو سنوات، و لم يترك أثراً داخل الصدفة إلا مادة سائلة أو جافة ذات لون أصفر أو بني خفيف أو ربما أسود فاتح، وكلها تقريباً لا قيمة لها. وعلى أي حال، فمن المستحيل على الغوّاص وهو يلتقط الأصداف من القاع أن يميّز الأصداف ذات الحيوان الميت والأخرى التي لا يزال حيوانها حياً.

يذكر هذا الرحالة أن الغوّاص يبقى قابضاً على حافة المركب ريثما يلتقط أنفاسه ويستجمع

قوته، ثم يبدأ رحلته إلى الأعماق، فيغطس مرة أخرى. وعادة ما يكون في المركب غوّاصان يتبادلان القفز في الماء بالتناوب، بحيث يكون أحدهما في المركب والآخر متجوّلاً في أعماق البحر. يقول لوشر: إن الغوّاص عادة يستطيع البقاء في قاع البحر دقيقتين أو ثلاثاً، والقليل منهم يستطيع البقاء خمس دقائق، ويرى أن الغوص شأن صعب جداً، فهو خطر تماماً، ويؤثر في الرئة تأثيراً مخيفاً، ولا يكتب للكثير من هؤلاء الغاصة أن يعمّروا، أو يمكن القول: إن المرء لا يمكنه أن يصادف غوّاصاً عجوزاً. ويستطرد فيقول: إن الغوّاصين جميعهم نحاف الأجسام جداً، وتبدو نظراتهم ساهمة واجمة تفصح عن التبعات الخطرة التي يلاقونها، فعيونهم مجهدة أبداً من أثر التحديق في القاع. ويسترسل ليعدد المشكلات التي يصادفها هؤلاء الغاصة فيقول: إنهم يتمتعون بقدر غير يسير من الشجاعة وحضور الذهن. فالأعماق تمتلئ بعدد لا يحصى من الحيتان التي تهاجمهم، ولكنها لا تنال إلا من بعضهم. "فهؤلاء الأشخاص الجريئون لديهم من النباهة والإدراك ما يجعلهم دائماً يقظين متنبّهين لمداعبة وحوش الأعماق"، ولا تعوزهم الجرأة لمصارعتها والخروج من الحلبة منتصرين، على الرغم من أن العديد منهم يدفعون حياتهم ثمناً لشجاعتهم. ويرى هذا الرحالة أن هؤلاء الغاصة يحصلون على عوائد مادية مجزية، خاصة المدربين منهم، فهم نادرون؛ فالعديد من هذه الجماعة كان قد وجد في غياهب الأعماق دربه إلى معدة أحد هذه الوحوش التي تسكن البحر. وينتهي لوشر إلى القول: إن النساء اللائي يتزيّنّ بهذه اللآلئ الغالية الأثمان لا يخطر في بالهن أبداً كم من المخاطر حاقت بمن جمعها، ولا يلقين بالاً للصعوبات المخيفة التي واجهتهم! وعلى العموم، فقد ذكر هذا الرحالة العديد من الحقائق التي يمكن أن تستجلى بالنقد الحصيف وبالمقارنة، مما يؤكد الكثير ممّا ذكره، ويستنكر الكثير منه أيضاً ممّا داخل روايته عن الغوص من الخيال أو الروايات غير الدقيقة.

بوشهر

وصلت بينانج إلى بوشهر (أو بوشير، أو بندر بوشهر) بعد فترة أبحرت فيها على طول الساحل الفارسي الجبلي الموحش، وألقت مراسيها على بعد حوالى ميلين من المدينة تقريباً. فالشعاب المرجانية الناتئة الممتدة الخطرة تنشر مباشرة عند مدخل الميناء على حوالى ميلين من النهاية القصوى للسان الرملي الممتد، ما يمنع تقدم أيّ سفينة نحو الساحل. ورست في دروب الميناء خمس أو ست سفن أوروبية، إضافة إلى عدد غفير من "البغلات" العربية والفارسية كانت كلها مشغولة بالشحن أو التفريغ. وظلت بينانج في بوشهر يوماً كاملاً وهي تفرغ قسماً من شحنتها. وذهب لوشر إلى الساحل برفقة أحد الأصدقاء، وسجل لنا انطباعه عن تلك البلدة فقال: هي في مقاطعة فارستان، وهي الميناء الرئيس لفارس على الخليج. ويصل تعداد نفوس أهلها إلى ما بين

خمسة عشر ألفاً وعشرين ألفاً، كلهم ربما كانوا من الفرس والأفغان. وتقوم المدينة على النهاية القصوى من رأس رملي منخفض انخفاضاً تبدو معه في فترة المد كأنها جزيرة. ولا تبدو منازل المدينة ذات الأسقف المستوية، التي شيّدت من الطين عموماً، "سيئة الشكل، على اعتبار أنها بيوت للفرس". ويضيف أن بعض هذه البيوت حجرية جيدة البناء، لها نوافذ صغيرة، شأن سائر المنازل المبنية على النمط الإسلامي. أما الشوارع فضيقة جداً، حتى لكأن المرء إذا مدّ يديه غاية امتدادهما في الشارع يلامس أسوار المنازل على الجانبين. ويصف لوشر الشوارع على ضيقها بأنها قذرة جداً تثير الاشمئزاز، تجوبها الكلاب الضالة التي تزاحم الناس، وتزيد بعوائها من الضجة المقيمة. تراها تجري يحارب بعضها بعضاً نهارها كله، فإذا أمست تراها هادئة "تنبح القمر بكسل ملحوظ".

يلاحظ هذا الرحالة أن حاكم البلدة يقطن مبنىً حجرياً مربع الشكل، متهدماً، يضم عدداً من الملحقات التي يبدو أنها بيوت للخدم. ويقف في منتصف المبنى عمود جيد الصقل يرجّح لوشر أنه من صناعة أيدي بعض البحارة الأوروبيين، يحمل علم فارس ذا الألوان: الأخضر، والأسود، والأصفر، وأسده الرابض في منتصفه، أو في الحقيقة الذي يمثّل خلفية الشمس المشرقة التي تبرز اللون الأصفر. أما بيت المقيم البريطاني فيقع في واجهة المدينة، ويرفرف عليه علم القنصلية البريطانية. وقد كان هذا القنصل هو الأوروبي الوحيد الذي يسكن هذا المكان، ولكن مع إقامة منشأة التلغراف الهندوأوروبي في قلب هذه المدينة، وفد إليها أربعة من الموظفين الإنجليز العاملين في البرق.

يحدثنا عن أزياء الرجال في بوشهر، فإذا هي ذاتها التي قدم لها وصفاً في مسقط عندما تحدث عن التجار الفرس؛ فكل هؤلاء الرجال تقريباً يضعون على رؤوسهم تلك الطاقية الطويلة التي صنعوها من جلود الحملان التي صبغت بالأزرق أو البني. وبعد أن يصف لباسهم يقول: إنهم عادة ما يضعون حول خصورهم خنجراً معقوفاً مقبضه من الفضة، أو زوجاً من المسدسات الطويلة من ذوات الماسورة الواحدة، بينما يستبدل البعض بذلك سيفاً قصيراً رفيعاً ذا حدين بمقدمة حادة، وهو شبيه بتلك السيوف التي كان يستعملها مصارعو الرومان، يتدلى من حزام جلدي يجعله المرء في وسطه. كذلك يحدثنا عن أن الشيب والشباب يلوّنون أظافر أصابعهم بلون قرمزي، أما أيديهم فيخضّبونها بالحنّاء التي يعرّفها بأنها نوع من المسحوق ذو لون بني يضرب إلى الحمرة يخلط مع الدهن، ويوضع على الجلد فيصبغه صبغة لا تزول بالغسل، ولا ينتهي أثره لعدّة شهور. ويضيف: إن الحنّاء منتشرة كثيراً في أوساط الفرس والعرب والأتراك، ويستعملها الجميع، بمن فيهم المواطنون النصارى. ويفيد بأن الرجال يصبغون شعر رؤوسهم ولحاهم بهذه الحنّاء، فتكسبها لوناً أحمر ضارباً إلى البني، وهو لون له جاذبيته، خاصة لدى المسلمين (؟).

يذكر لوشر أن المرأة الفارسية ترتدي جلباباً شبيهاً بما ترتديه أختها العربية والتركية، ولكنّ قناع الوجه مختلف. فهو عند النساء في شرق الجزيرة العربية صغير لا يغطي الفم أو الذقن أو العيون، إنما يخفي المنطقة الفاصلة بين أهداب العين السفلى إلى الفم، وعادة ما يكون ذا لون أحمر قانٍ، أما القناع الذي تستعمله الفارسية فهو قطعة من الحرير الأبيض يبلغ عرضها عشر بوصات وطولها ثلاث أقدام، يُربط بحبل حول الرأس، ويُرخى على الوجه فيغطيه كله، ويتدلى حتى يصل إلى الأقدام تقريباً. وتُشقّ منطقة العيون من هذا القناع، ويحدثون فيها نوعاً من الشغل بالإبرة تستطيع المرأة أن تنظر من خلاله بسهولة ويسر. ويذكر أن العديد من الفارسيات يصبغن أظافرهن ويخضبن أيديهن بالحنّاء، كما يخضبن أيدي الأطفال بالحنّاء أيضاً. ويشير إلى أن البنات دون الثامنة لا يرتدين القناع. وينتقد لوشر عادات الزواج فيقول: إن الفارسيات مثل أخواتهن العربيات والتركيات ومثل الهنديات يتزوجن في وقت مبكر. وليس من غير المألوف أن ترى فتاة آسيوية لا يتجاوز عمرها العاشرة أو الثانية عشرة زوجة وأماً، "متزوجة برجل في عمر جدّ أبيها".

يصف لوشر الرجال الفرس فيقول: إنهم يمتازون بقامات رياضية ويمشون منتصبين، أما النساء فهن في الغالب أقصر قامة من الرجال. تعكس المرأة الفارسية صحّة في الجسد، واليافعات منهن صبيحات جميلات، قسمات وجوههن دقيقة ومحدودة المعالم، وأفواههن صغيرة حسنة السمات ذوات أسنان جميلة. أما عيونهن الواسعة، السود الأحداق، فترنو بتعابير ناعمة تحت تلك الحواجب المقوسة بشكل مستحب. غير أن هذا الجمال - كما يذكر لوشر - لا يلبث أن يذوي بسرعة ويذبل، وربما كان نتيجة للزواج المبكر، فالمرأة في سن الثلاثين ربما اعتبرت في تقديرهم عجوزاً.

يقول هذا الرحالة: إن الفرس الذين يعيشون على السواحل أغمق ألواناً من مواطنيهم الذين يعيشون في الداخل. فالأخيرون مثل الأوروبيين في بياض سحناتهم. ويرى أنه يمكن تطبيق هذه النظرية على مواطني شبه الجزيرة العربية، وعلى سكان الهند وأفريقيا، أو في الحقيقة في كل العالم المعمور. ويستطرد ليدلل على صحّة نظريته فيقول إن الفارسي الذي يعيش في بوشهر أكثر سمرة من مواطنه الذي يعيش في أصفهان أو طهران، والعربي الذي يعيش في مسقط يعكس أدمة ملحوظة حين يقارن بالعربي من بغداد أو دمشق، ولون الهندي في ساحل ملبار أغمق من الذي يعيش في الساحل، ويمكن أن يوصف بأنه أسود، بينما نجد الجالا في الداخل في لون المهوجني، أما الزولو فيمكن أن نطلق عليهم لفظ زنجي إذا قورنوا بالمكولولو والمتبابيت في داخل القارة. ويخرج لوشر بنظرية فريدة هي أن الحرارة وحدها لا تؤثر كثيراً في لون الجسم، ولكن حين تختلط الحرارة مع الرطوبة فإن ذلك يغيّر في لون الإهاب.

على ساحل الكويت

في العاشرة صباحاً أبحرت بينانج جنوبي جزيرة فيلكا، تلك الجزيرة الرملية الصغيرة المنخفضة التي لا تكاد تميّز ساحلها فوق خط البحر، وهي تتبع الشيخ الحاكم في الكويت، واجتازتها إلى ميناء الكويت الذي بلغته بعد حوالى ساعة، واضطرت إلى أن ترسو خارج الميناء بمقدار كيلومتر ونصف من الساحل. ويفيدنا لوشر – هذا الرحالة الأمريكي – بأن تلك الرحلة كانت أولى رحلات سفينة البريد إلى ذلك الميناء، التي لم يكن لربّانها – بالطبع – خبرة سابقة للإبحار فيه.

حملت بينانج إلى هذا الميناء عدّة مئات من حزم (طرود) السلع، جلبها من بومباي تاجر عربي ثري جداً كان ضمن المسافرين على الباخرة، وكان لهذا التاجر وشيجة قربى لصيقة جداً بشيخ الكويت، ما جعله صاحب نفوذ قوي في تلك البلدة. وكان هذا الثري قد وعد هذه الشركة الناقلة بأن يقدم لها كافة التسهيلات إذا قررت أن تزور الباخرة ميناء الكويت مرّة كل شهر، ووعد بأن يسبغ عليها الرعاية اللازمة.

ما إن دخلت الباخرة ميناء الكويت أو ذلك الخليج الصغير الذي تحيط به رمال الصحراء من الشمال والغرب والجنوب حتى أطلقت مدافعها ثلاث قذائف أحدثت دويّاً هائلاً عكّر ذلك الهدوء الذي ران على سطح ذلك الخليج الصافية مياهه، حتى كأنها سطح المرآة. وسرعان ما جذب دويّ تلك الطلقات انتباه سكان تلك المدينة الصغيرة، فهرعوا جميعهم إلى الساحل، زرافات ووحداناً، محدثين جلبة وضوضاء. أخذوا يلوّحون بأيديهم في اتجاه الباخرة، ولكن رغم ذلك ساد البحر هدوء مقيت، فلم يتحرك على سطحه أي قارب في اتجاه الباخرة! هذا رغم وجود مجموعة من القوارب التي سحب بعضها ليستقر على مسافة ما على رمال الساحل، وقد وضع بعضها في جوار بعض حتى ليخيّل إلى الناظر إليها من على البعد أنها تماسيح مسترخية تحت أشعة الشمس اللافحة. و لم يحاول أيّ من السكان إنزال أيّ من تلك القوارب إلى الماء لاستقبال الباخرة.

تدفقت في تلك اللحظات مجموعة من الرجال أنصاف عراة من مبنى كبير حسن المنظر عند سيف البحر، عُرف بعدئذ أنه مسكن الشيخ. وأبصرت المجموعة تلك الجماعة مستغرقة في رفع شيء ثقيل ومعالجته، ثم سمعوا دمدمة طلقتين خافتتين أعقبت أخراها أولاها في سرعة خاطفة. واستتبع ذلك مباشرة دويّ مرّ كالصاعقة فوق سطح الماء، أعقبه صوت ارتطام مروّع أحدث اضطراباً في أوساط الجماهير المزدحمة على الساحل، ما جعل المسافرين على بينانج يعتقدون أن حدثاً ما قد وقع في البر، ثم لم يعودوا يسمعون دويّ القذائف. وشاهد المسافرون بعدئذ قارباً كبيراً يبحر في الماء، وقد فرشت المقصورة الخشبية التي تعلو سطحه بسجادة كبيرة خضراء اللون.

انطلق القارب تجاه الباخرة يتولى التجديف فيه بهمة ونشاط مجموعة من العرب الأقوياء

نصف العراة، يتراوح عددهم بين عشرة واثني عشر رجلاً، بينما كان زنجي قوي البنية ممسكاً بدفة القارب وهو يردد في صوت جهوري عميق مقاطع أغنية بطيئة الإيقاع. وراح أفراد المجموعة يرددون أواخر مقاطعها وهم عاكفون على المجاديف، يربطون إيقاع النغم بحركة المجاديف. وكان على ذلك القارب أيضاً رجال آخرون من ذوي المظهر الحسن، وقد ارتدوا أزياء بدوية ذات ألوان زاهية، حملوا بندقيات كبيرة وطويلة ومسدسات ذات مغاليق مستوية، وسيوفاً محدودبة، وتقلدوا عصائب حول أوساطهم ثبت فيها الرصاص والخناجر. وقد كانت هذه المجموعة المسلحة الحرس الشخصي للشيخ.

وصل ذلك القارب إلى جوار الباخرة حتى لاصقها، وخرج الشيخ من المقصورة، وبادر إلى الباخرة فاعتلى سطحها حيث تلقّاه قريبه، ذلك التاجر الثري، بالعناق وفق التقاليد العربية التي تقتضي أن يقبّل كل منهما كتفي الآخر. وقدم هذا التاجر بعدئذ قبطان بينانج إلى الشيخ، وتولّى بنفسه ترجمة الحديث إلى اللغة الهندية التي كانت اللغة الثانية التي يعرفها القبطان.

هيئة الشيخ

كان شيخ الكويت الذي بلغ أكثر من ثمانين عاماً طويلاً قوي البنية، دقيق الملامح، ذا لحية طويلة، تلوح على وجهه مخايل الذكاء ويتّسم حديثه بالرقة المفرطة. وكان – وفق تقاليده العربية – في غاية اللطف. وارتدى الشيخ جلباباً حريرياً فاخراً، فوقه عباءة أرجوانية اللون موشّاة بخيوط الذهب تتدلى من كتفيه، أما يداه فكانتا تشعّان بالجواهر. غرس الشيخ في الحزام الذي تمنطق به خنجراً صغيراً ذا مقبض من الذهب الخالص، طُعّم باللؤلؤ والفيروز والياقوت والزمرد، ما يدل على أن مثل هذا السلاح قد صُمّم للزينة و لم يصنع للمهمات القتالية.

أحاط بذلك الشيخ جمع من أتباعه في بزاتهم الفاخرة، وكانت الجواهر التي تحلّيها تبهر الناظرين. وكان من بين هؤلاء الأتباع عدد من الزنوج الصغار السن، حمل أحدهم للشيخ سيفه المعقوف الرائع الصنع، المطعّم بالعديد من الجواهر، كما حمل زنجي آخر نارجيلة الشيخ الفارسية الصنع، التي وصفها لوشر بأنها أثمن ما وقعت عليه عيناه. وحمل زنجيان آخران الشطاب Shattabsأو الشبوك Chibooks، وهي الغلايين التركية الطويلة، وكانت مثلها مثل المعدات الأخرى مزخرفة بشكل أنيق، فبات واضحاً أن الشيخ قد استعدّ سلفاً، واستكمل زينته لاستقبال الكابتن.

استكشف الشيخ الباخرة، فأُخذ إلى غرفة الكابتن وإلى الصالون ومقصورات "كابينات" الركاب، وكذلك إلى غرف الماكينات التي استرعت انتباهه، خاصة حين جرى تشغيلها له ودارت إلى الأمام وإلى الخلف. وبدا واضحاً أن الشيخ لم يرَ منظراً مماثلاً لهذا من قبل. يورد

لوشر، من دون دليل، أن الشيخ سبق له أن رأى مراكب بخارية من قبل، فالسفن البريطانية الحربية التي توجد في مياه الخليج - كما يقول - واحدة منها أو اثنتين بصفة دائمة لمحاربة القرصنة والنخاسة، هي سفن بخارية، ولكن لم يسبق للشيخ أن اعتلى أياً منها.

راح الشيخ يتجوّل في الباخرة، ولقي من المسافرين الوطنيين احتراماً كبيراً، وكانوا يحيّونه على الطريقة الشرقية كما يقول لوشر. فالعرب ومواطنو الهند كانوا يحيّونه بانحناءة خفيفة مع لمس وسط الجبهة بطرف أصابع الأيدي، بينما يكون باطن اليد في مواجهة الوجه. ويكتفي الأتراك والفرس بتلك الانحناءة الخفيفة، جاعلين أيديهم على صدورهم. ويشير إلى أنه قد جرت العادة عند العرب والهنود والفرس والأتراك على أن يحيّي من هو أقل شأناً الأرفع منه أحياناً بلمس الطرف الأسفل من عباءة الأخير أو جلبابه وتقبيله، "وهي تحية تعني الانكسار والذل الذي لا يليق إلا بالكلاب، وهو أمر غير محتمل لدى الذين ألفوا الحياة المتحضّرة". وفي تقديرنا أن هذا الأمر من الإضافات التقليدية للرحالة الذين قد يرون ممارسة عند جماعة ما، فيَصمون بها الجميع. فكل المسلمين من الأجناس الأربعة التي ذكرها يدركون بنصّ الكتاب أن ابن آدم مُكرَّم مهما كان جنسه أو ملّته، ولا يجوز الانكسار لمخلوق مهما علا شأنه، فالعبودية لله وحده غير مشارَك له فيها بحال، والعزة شيمة المؤمن. وقد وضع الإسلام للسلام قواعد ما زالت تقيد أهله، ولربما كانت الممارسات التي انتقدها لوشر تخص بعض غُلاة المتصوفة أو سواهم من أهل الثقافات المارقة، أو ربما التقطها من راوٍ أراد أن يمتعه بها.

إلى منزل الشيخ

دعا الشيخ الكابتن والغربيين الذين معه لتناول طعام الغداء معه وقضاء الليل في الساحل، فرحّب بذلك. فقد رأى فيها فرصة لكسب رضا الشيخ تسهّل له إنجاز المهمات المستقبلية. ورغم أن هذه الدعوة قد كانت مفاجئة لهؤلاء الأوروبيين، وكان عليهم الاستعداد بسرعة لمغادرة الباخرة إلى البر، فقد رأوا أن يلبّوها، فاستجابوا للشيخ وصحبوه في قاربه إلى الساحل. وحدّثهم الشيخ في الطريق أن أحد مدافعه قد انفجر حينما كانوا يعدّونه لإطلاق قذائف التحية للباخرة. وقتل الانفجار اثنين من الرجال، وأصاب أربع إصابات بالغة الخطر، واعتذر بأنه كان ينوي أن يزيد في قذائف التحية لولا هذا الحادث الذي نال من همّة رجال مدفعيّته وثبّطها.

وصل القارب إلى الساحل الذي كان يعجّ بالمستقبلين من الرجال والنساء، يتحرّق كل منهم شوقاً إلى رؤية "النوخذة" الذي يقود "السفينة النارية"، وهذا هو الاسم الذي يطلقونه على الباخرات التي تشقّ عباب الأمواج من دون أشرعة، ومن دون أن تكون هناك نسمة هواء تحرك الأشرعة، بل من دون مجاديف. وبدا الكابتن الاسكتلندي الصغير تيّاهاً في بزّته الجديدة

وسيفه الصغير المستقيم المتدلي من حزام حول خاصرته، وهو مثل خنجر الشيخ أعدّ للزينة لا للاستعمال. كان الجمهور يتطلع إلى رؤية هؤلاء "الفرنجة" وهو الاسم الذي يطلق على الأوروبيين. وكان الكثير من المواطنين - خاصة الإناث - حريصين على ذلك، "إذ لم يسبق لهم أن رأوا مخلوقات مثل هؤلاء من قبل"، كما يقول لوشر، وهو في ذلك واهم، فقد حدث أن زار الكويت قبله عدد من الغربيين. ويدّعي لوشر أن ذلك الجمهور الكبير كان يمكن أن يدعسهم لولا وجود الشيخ بينهم، وأن حرس الشيخ تولّوا إفساح الطريق لهم بما لا يخلو من خطأ، حتى وصلوا بسلام إلى منزل الشيخ.

منزل الشيخ

دلف القوم في أمان إلى ذلك المقرّ الحصين، منزل الشيخ، المبني من الطابوق، والذي يقول لوشر: إنهم طالعوا في وسطه فناءً واسعاً جرت فيه محاولة إقامة حديقة، حيث لمحوا عدداً من الأشجار الهزيلة التي كانت تكافح من أجل البقاء، وبعض شجيرات الورد التي نُسّقت لإنشاء ما يمكن "أن يسمّى حديقة".

قاد الشيخ هذه الجماعة إلى قاعة الاستقبال، وهي غرفة عالية واسعة يدخلها الضوء والهواء النقي من نافذتين، إضافة إلى الباب الذي يُفتح في ذلك الفناء. وقد طُليت هذه الغرفة الكبيرة باللون الأبيض، وزُيّن سقفها بنقوش صغيرة زرقاء على غرار تلك المناظر التي ترسم على جدران سائر منازل المسلمين، فالقرآن ينهى نهياً باتاً - كما يقول لوشر - عن رسم المخلوقات الحيّة. ويذكر أن أرض الغرفة كُسيت بسجاد فارسي ثمين، وكان من أثاثها أرائك منخفضة ذات لون أرجواني.

خلعت الجماعة عند مدخل القاعة أحذيتها وأبقت على قبعاتها على رؤوسها. وسرعان ما هرع إليهم أربعة من صغار الزنوج يرتدون ملابس زاهية وقدموا إلى كل منهم زوجين جديدين من النعال المغربية صفراوين ذوات حواف أمامية معقوفة إلى الداخل، فانتعل كل منهم زوجاً ثم تقدموا في تؤدة إلى مجالسهم في الديوان. وحين دعاهم الشيخ للجلوس، خلعوا نعالهم المغربية وجلسوا على الأرائك متربعين على نحو جلوس الشرقيين. ويقول لوشر: إن هذه الجلسة التي يجلّها كل الشرقيين من أتراك وفرس وعرب، نساءً ورجالاً، تشابه جلسة حلاّقي البوادي الأمريكية حينما ينهمكون في العمل. فعلى الرغم من أنها جلسة متعبة، لا يلبث المرء أن يعتادها، فتغدو طبيعية كما هي الحال عند أغلب مواطني آسيا الذين يمكنهم الجلوس على هذه الهيئة ساعات وساعات، وربما أياماً (؟) من دون إرهاق. أما خلع الأحذية والشباشب، فتلك عادة إسلامية (؟). فما إن يدخل إنسان - رجلاً كان أو امرأة - منزل آخر حتى يخلع حذاءه خارج

باب المنزل أو على أحسن تقدير عليه أن يخلعه قبل جلوسه في الديوان على الهيئة المشار إليها. وقد توافق على هذه العادة جميع المسلمين ما عدا الجنود (؟). ويحدثنا بعدئذ عن أن المجتمعات الراقية – يقصد بذلك بلاد الغرب – تعدّ ارتداء الرجل قبعته عند دخوله إلى الغرفة خطأً لا يغتفر، ولكنه في البلاد الإسلامية هو الأمر الصحيح. إنهم لا يخلعون أبداً أغطية رؤوسهم، سواء كانت عمامة أو قبعة فارسية أو طربوش فاس، إلا عندما يأوون إلى فراشهم ليلاً. ولذلك فإن الأوروبي العارف بهذه التقاليد الإسلامية لن يخلع قبعته في وجودهم إلا إذا قصد الإساءة إليهم. وأخذ الشيخ يتحدث إلى ضيفه بينما تولى ذلك التاجر العربي دور المترجم. وما إن اطمأن بهم المجلس حتى دخل عليهم أربعة من صغار الزنوج بالنارجيلات والقارورات المترعة بالتبغ المعطر. وأخذت المجموعة تدخن "بنهم غير مألوف". ودخل بعد ذلك زنجي يحمل مبخرة فضية كبيرة كأنه الشمعدان شكلاً يتضوّع عطره الأخّاذ النفيس، ووضعه في صحن الغرفة، بينما أخذ عدد من الزنوج أماكنهم، كل واحد منهم بالقرب من أحد الغربيين، وآخر بالقرب من الشيخ، وآخر بالقرب من ذلك التاجر المترجم، وأخذوا يحركون مراوح كبيرة من ريش النعام، فتشبعت الغرفة برائحة العطر العبق، وطرد الهواء جماعات الذباب التي كانت تحلّ عن الحصر.

دخل القاعة زنوج آخرون يحمل كل منهم صينية فضية صغيرة تسع نحو خمسة أو ستة فناجين من الذهب مملوءة بالقهوة المركزة الممتازة، وما إن فرغوا من تقديمها حتى خرجوا ليعودوا مرة أخرى بصوان عليها أقداح وردية اللون ملئت بشراب بلون الورد، وهو شراب فارسي ممتاز يحاكي طعمه طعم شراب الليمون اللذيذ. وقدّمت بعد ذلك الحلوى المسقطية التي سبق لهذا الرحالة أن أشار إليها في سوق مسقط. ويذكر لوشر لقرّائه أن الخمور وسائر الكحوليات محرّمة بنصّ القرآن الكريم "على المؤمنين الصادقي الإيمان".

مدينة الكويت

لم تهيّئ تلك الجلسة الشرقية الراحة لأي من ضيوف الشيخ الغربيين، و لم يحتمل وطأتها سوى "ب" الذي قضى أكثر من عشرين عاماً من عمره في مصر وبعض أرجاء شبه الجزيرة العربية. وكانت قسمات الوجوه والنظرات القلقة التي تبادلها الضيوف تبحث عن مخرج من ذلك الوضع غير المحتمل، فطلبوا أن تتاح لهم الفرصة للتجوال في المدينة. ورحّب الشيخ بذلك، وأمر ثمانية من الحراس بمرافقتهم. وحاول الكابتن بأدب جمّ أن يرفض هذه الحاشية ويعتذر، إلا أنه لم يفلح، فقد أصرّ الشيخ. ويقول لوشر إن تلك الحاشية قد برهنت على جدواها، فقد صدّت عنهم الجموع المتطفّلة وجماعات الشحاذين الذين ينتهزون كل فرصة سانحة لمدّ أيديهم لتلقي الصدقات .

يقول لوشر: تقع الكويت (أو القرين) على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً إلى الجنوب من مصبّ شط العرب الذي تلتقي فيه مياه دجلة بمياه الفرات، وإنها تعدّ أقصى ميناء بحري شمالي منطقة الأحساء أو هجر أو المنطقة المعروفة بالعربية الصحراوية (؟) Arabia Deserta. ويذكر لوشر أن هذه المدينة يتراوح عدد سكانها بين خمسة عشر ألفاً وعشرين ألفاً جلّهم من العرب. "والكويت، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنها مدينة عربية، يمكن أن يسترعي نظامها الانتباه، رغم أنه لم يزرها قبلنا من الأوروبيين أحد إلا نادراً، فهي بقعة لا تستهوي الزوار ولو كانوا عرباً!".

إن جو المدينة حار إلى درجة مرعبة، فهي محاطة من شمالها وجنوبها وغربها "بصحراء الدهناء اليباب حتى صدق عليها القول: إنها تجاور الحرارة والقفر". فما عدا حديقة الشيخ الصغيرة في فناء منزله، لن يجد المرء في هذه المدينة ولا في جوارها ظلاً لشجرة أو أثراً لنبتة ولا لعشب، ولن تقع عيناه - على امتداد البصر - على بقعة صالحة للزراعة. فلن ترى العين غير الرمال المائجة المتوهجة الزاحفة من الصحراء المتاخمة التي تنهمل على المنازل، خاصة تلك الأكثر بعداً عن الساحل، فتغطيها حتى سقوفها في الغالب.

يعود لوشر ليقول إنه: قد سمع عن وجود بعض واحات صغيرة مبعثرة هنا وهناك كأنها جزر في المحيط في الصحراء المتاخمة للمدينة، على بعد حوالى ثلاثين كيلومتراً في اتجاه البصرة، ويضيف: إن الواحة هي منطقة خضراء تنمو فيها الأشجار لتوافر الماء لسبب أو آخر. ويذكر أن الكويتيين يجلبون من هذه الواحات جزئياً ما يعينهم ويعين حيواناتهم على البقاء، كما يجلبون من البصرة عند مدخل شط العرب تمويناً جزئياً، من أرز وتمر وقهوة وشعير وقمح وقصب وغير ذلك، ينقلونها على "بغلاتهم" الشراعية.

وصف البغلة

يبدو أن البغلة كانت هي المركب الوطني الأكثر شيوعاً في الخليج، إذ لا يني هذا الرحالة يذكرها بين الحين والآخر، ويقدم لها الوصف بعد الوصف. يقول لوشر: إن حمولة البغلة تتراوح بين خمسين طناً ومئتين، وهي مركب شراعي كبير، بدائي الصنع، له هيكل ضخم جداً، أحكم إدماج ألواحه بعضها في بعض، ويقوم على قاعدة حادة. ويرى هذا الرحالة أن الدفة بدائية غير متقنة الصنع، وتبدو كبيرة في تناسق "يثير الضحك". ويستطرد في وصف البغلة فيقول: في مؤخرة كل بغلة مقصورة للتشغيل يجلس فيها النوخذة الذي يدير تلك الدفة الصعبة المراس بقضيب طويل ينتهي طرفه عند قمة الدفة، وفي البغلة صار واحد فقط لا يثبت عمودياً ولا يميل إلى الخلف قليلاً كما هي الحال في مركبنا؛ بل هو طويل، يربط في أعلاه شراع طويل من قطعة واحدة يُدار بالبكرة.

يرى لوشر أن ما تنفرد به البغلة هو أنها حين توسق وتغدو جاهزة للإقلاع تبقى حوافها مرتفعة عن سطح البحر بمقدار لا يتجاوز قدمين إلى ست أقدام، بينما لا يكون مقعد العامل الذي يدير الدفة على ارتفاع أكثر من عشر إلى عشرين قدماً بحسب حجم المركب. ويستطرد فيقول: على الرغم من الشكل الكئيب لهذا المركب، فإن العرب يتولّون قيادته بمهارة فائقة مهما اعتكر الجوّ، لا يأبهون للأخطار، ولا يتورّعون عن أن يصارعوا بها الأنواء، وما تلبث بغلاتهم أن تأخذهم إلى سواحل الهند وإلى مدغشقر وموريشيوس والساحل الشرقي لأفريقيا.

نساء الكويت

يقول لوشر إن نساء الكويت يتميزن بالنشاط الجمّ ويمارسن عدداً من الحرف اليدوية، ولهن دربة في صناعة المشغولات المختلفة من حياكة وغزل ونسيج، يؤدين ذلك بإتقان ومهارة. وهن – فوق ذلك – يمتزن بجمالهن الأخّاذ، ويعتبرن حتى في عيون الأتراك أملح النسوان في هذا الساحل لا يشاركهن في هذا فارسيات ولا عربيات.

نشاط سكان الكويت

يعمل كافة رجال الكويت تقريباً في التجارة وفي الملاحة، ويجرون تجارتهم مع البصرة والساحل الفارسي، وكذلك مع القبائل البدوية في الصحراء. وهم يتعاملون بتجارة اللؤلؤ وبخور العود والأسلحة النارية والذخيرة والملابس والسروج والسجاد، كما يتعاملون أيضاً بتجارة الجلود والصوف والوبر والبن والتمر وغيرها من سلع التبادل.

يرعى العديد من سكان الكويت قطعاناً من الخراف والمعز والخيل والإبل التي يستبقونها في الواحات التي أشير إليها سابقاً، ولإبل الكويت في طول الجزيرة العربية وعرضها شهرة بسرعة العَدْو وقوة الاحتمال، أما حميرهم البيضاء الناصعة البياض فلها أيضاً شهرة لا تقل عن شهرة إبلهم في هذا المجال.

مائدة الشيخ

يقول لوشر إنهم حين عادوا من جولتهم في المدينة إلى منزل الشيخ، وجدوه لا يزال متربّعاً في المكان الذي تركوه فيه، مشغولاً بتوجيه خدمه الذين كانوا يجهّزون العشاء في تلك القاعة التي

كُسيت بالسجاد الأنيق الذي مُدّت فوقه مائدة – إن جاز لي أن أسمّيها كذلك – من حصير ناعم من القنّب الهندي مربعة الشكل، تصل مساحتها إلى حوالى عشر أقدام مربعة. ووضعت على أبعاد متساوية حول الحصير على شكل دائري ستّ وسائد لينة مكسوّة بقماش أزرق زُيِّنت أطرافها بخيوط مجدولة مرسلة هُيِّئت كالمقاعد ليجلس عليها الضيوف. ووضع أمام كل من هذه المساند حصير صغير مستدير تماماً يصل قطره إلى حوالى قدمين، أُحسن نسيجه فبدا كأنه قبعات أهل بنما. ووضع فوق كل واحدة من هذه الحصائر طاس فضيّ كبير فاخر، وعلى جانبيه كاسات إحداها مملوءة ماءً والأخرى لبناً حامضاً. ويستطرد هذا الرحالة فيقول: رحت أتساءل في صمت من أي الحيوانات يا تُرى أتى الشيخ بهذا اللبن، ومن أي منطقة جلبه. فنحن لم نلحظ في تجوالنا في المدينة أثراً لبقرة أو نعجة ولا فرساً ولا ناقة، ولم نلمح ولو ذكراً من ذكور هذه الحيوانات المذكورة؟ وأخيراً عرف هذا الرحالة أن لبن مائدتهم لبن نوق، جُلب من الواحات المذكورة آنفاً، وأن الكويتيين يأتون به في أوعية صنعت من جلد الماعز، وهذه هي طريقة العرب في نقل الماء والحليب والزبد والسمن. ويضيف هذا الرحالة أن أكثر ما استرعى انتباهه وجود "طقم" أدوات سفرة فضية جميلة، أوروبية الصنع، جديد تماماً. وقد علم لوشر لاحقاً أن التاجر المرافق لهم في السفينة جلبه توّاً من بومباي. وراع لوشر أن يرى الشيخ وابن أخيه "وهما يتعاملان أول مرّة مع هذه الأدوات المتحضّرة". ولا نعرف من جانبنا مدى صدق هذا الرجل، وهل كان ملازماً للرجلين قبل هذا ليصدر هذا الحكم أم هما أعلماه بذلك؟ ولكننا نعلم تماماً أن أمثال هؤلاء متحيّزون تحيّزاً قد يمتد لينتقد أشياء تافهة، مثل استعمال العربي الشوكة والسكين لإرضاء القارئ الغربي الذي يبحث عن البدائي والغريب حين يتصل الأمر بالعربي وأرضه!

جاء الزنوج بأطباق متنوعة فيها لحم المعز المسلوق وكتل من لحم الخروف المحمر، ولحم الإبل المحمر كذلك، ولحم الدجاج، وثلاثة أنواع مختلفة من الأسماك. وجاؤوا أيضاً بالبلاو، وهو طبق من الأرز المطبوخ بالزبد والبصل المبشور، ويوضع فوقه اللوز والكشمش والدجاج المحمر. ويرى لوشر أن هذا الطبق يعدّ الأكلة الشعبية في شبه الجزيرة العربية (!)، وأنه شبيه بأكلة شعبية أخرى في شمال أفريقيا وهي الكسكسي. ولعلنا نجد في هذه الإضافة لزوم ما لا يلزم، ولكن الرحالة – أياً كان – يسعى أبداً لعرض معلوماته، لكي يؤكد لنفسه ولقارئه الغربي سعة علمه، خاصة في غياب من يمكن أن يجادله أو يعمل على تصويبه. ويضيف لوشر: إن كميات وافرة من الخضر والفاكهة التي جلبت من البصرة وضعت إلى جانب الأطباق المذكورة آنفاً.

حين فرغ الزنوج من صفّ هذه الأطباق وتنظيمها، تقدم المضيف وجلس متربعاً على الطريقة الشرقية، ثم أومأ إلى ضيوفه ليحذوا حذوه ويتحلّقوا حول تلك المائدة. وشرع الشيخ في تذوّق الأطباق الموضوعة واحداً تلو آخر. ولم يكن في ذلك – كما يقول لوشر – خروجاً

على اللباقة أو مجافاة لآداب السلوك، ولكنها عادة عربية مرعية لبيان أن الطعام غير فاسد ولا مسموم ولم تعبث به يد. وحالما انتهى المضيف من تلك الاختبارات الشكلية، انقضّ الجميع على المائدة انقضاض الحصيف الذي لا يعوزه أن يدخل يديه في كل طبق من هذه الأطباق لا يعفي أياً منها، وتوقفت لغة الكلام وران على المكان مؤقتاً صمت مطبق. وكان لوشر يسلّي نفسه في هذه الأثناء باستراق النظر إلى الشيخ وقريبه "ومراقبة سلوكهما المتخلّف" حينما يستعملان الشوك والملاعق، ما لا يدع مجالاً للشك في أنهما معتادان الأكل بأصابعهما، فالشوك والملاعق لا تستعمل لدى الشرقيين، وذلك كراهة منهم للتخلي عن سلوك أسلافهم وطبائعهم. "ورحت أتساءل هل يستعمل هذا الشيخ هذه الأدوات حينما لا يكون في حضرة الضيوف؟". فأي صلف هذا وغطرسة وسخف يمكن أن يصدر من ضيف على مائدة مضيفه؟

يقول هذا الرحالة: إن الخبز المقدم كان مستدير الشكل مثل قطع الكعك، طيب المذاق، مصنوعاً من دقيق القمح، ويضيف: إن القمح وغيره من البقول يطحن في الشرق بواسطة الرحى المؤلف من حجرين مستديرين مسطحين تماماً كحجري الطاحونة، يوضع أحدهما فوق الآخر ويثبت بقضيب يمر من منتصفهما ثم يدار الحجر الأعلى على قاعدته بواسطة عمود ثبت عند حافته، بينما يصبّ القمح من خلال فرجة في الحجر الأعلى ليصل إلى موقعه بين الحجرين فيطحن بالاحتكاك الناشئ عن دوران الحجر الأعلى. ويضيف لوشر: إن هذه الرحى البدائية تعدّ أقدم طاحونة عرفها الإنسان على وجه البسيطة. فقد استعملت منذ عصر إبراهيم عليه السلام (!).

يعود هذا الرحالة ليحكي لنا عن تلك المائدة العامرة ويقول: إن فيها جبناً وزبداً، وإن الأخير مستخلص من حليب النعاج، وإن طعمه كان لاذعاً غير مستساغ. أما الجبن الذي كان لونه أبيض مشوباً بخضرة وهو من لبن النعاج والمعز كذلك فقد كان مذاقه طيباً. ويسترسل فيقول:

> كم خشيت أن تفضحنا شهيتنا الشرهة أمام مضيفنا وقريبه. فقد كانا على النقيض منا يأكلان بتؤدة وعلى مهل، ويعمدان إلى تناول الخضر. والملاحظ أن الشعب العربي – فيما يبدو – غير شره، ويفضّل الخضر على اللحوم.

رُفعت المائدة فعاودت المجموعة إشعال غلايينها، ثم قدمت لهم القهوة بعد ذلك، ثم "الشربات" على النمط السابق، وراح نهار ذلك اليوم يتقلص، وأذنت شمسه بالمغيب، ما اضطر المضيف إلى الاستئذان للذهاب للوضوء وأداء الصلاة، وانتهزوا فرصة غيابه للحديث عمّا وجدوه في يومهم، ولدى عودته صحبهم إلى سطح المنزل لقضاء الليل.

ليل الكويت

السطح هو مكان الترويح في كافة المنازل العربية، وهو المكان الأميز للاستمتاع بعليل أنسام الليل، ويستعمل عادة مكاناً لنوم جميع أهل المنزل؛ فهو المكان الذي يمكن المرء أن يستشرف عنده الهواء النقي، كما يعدّ – تقريباً – خلواً من الغبار والحشرات.

تطوى الفرش – عادة – صباحاً وتحمل إلى داخل المنزل، ثم تعاد قبيل المغيب إلى مكانها في السطح. ويذكر لوشر أنهم تمكنوا من أن يلقوا من مكانهم نظرة شاملة على ذلك الخليج الهادئ الذي ضم ثلاثة آلاف وأربعاً وعشرين جزيرة صخرية (؟) ووقعت أعينهم على باخرتهم القابعة في مكانها بهدوء. ويستطرد هذا الرحالة فيعبّر عن اعتقاده أن جميع سكان الكويت ألجأتهم وطأة حرارة الجوّ القاسية إلى أسطح منازلهم، يستنشقون عندها أنسام المساء التي تمر عليهم بليلة بعد أن تعبر الخليج. "إنه لمنظر رائع ذلك الذي يكشف عنه هذا السطح!".

تستطيع أن تلمح أحد المسلمين الأتقياء وقد انصرف إلى صلاته واستغرق فيها بجد واجتهاد، كما يمكن أن تسمع همسات صغيرين يوشوش أحدهما الآخر بأساطير الحب الحالمة. وفي مكان آخر نرى أماً تناغي صغارها، ونسمع أصوات فتيات يغنين أغاني شعبية بأصوات عذبة شجية، أما في الأفق البعيد

> فكأني بقطع الليل وقد تشكلت أشباحاً من المسافرين الراجلين أو الراكبين على صهوات جيادهم وأكوار إبلهم، تجول في أفق الصحراء الذهبي فتحدث تبايناً تصويرياً غريباً. يخيم الليل في المناطق الجنوبية حالما تغرب الشمس، ونادراً ما ترى بعد المغيب بصيصاً من ضوء في شبه الجزيرة العربية. ولهذا فعلى المسافر الحصيف المرهق بوعثاء السفر أن يهرع قبل حلول الظلام إلى أي قرية تؤويه وتقيه شر الوقوع في أيدي قطاع الطرق، وتجنّبه لقاء الوحوش الكواسر، فأخطار الصحراء لا بد محدقة بالشخص الذي يضل طريقه فيها، خاصة ذلك الذي يسري في الليل حين يلفّه الظلام ويعرّض بذلك حياته للتلف.

ورغم هذه الصورة البلاغية الأنيقة التي رسمها قلم الكاتب، لا يصوّر هذا الرحالة الواقع؛ فالقوافل في الصحراء تتحرك في العادة ليلاً تجنّباً للهجير، والمسافرون في الصحراء – ليلاً أو نهاراً – عادة ما يأخذون معهم رفيقاً يعبر بهم ديار قبيلتهم من دون أن يخاف سطواً أو يحسّ خوفاً.

يرى لوشر أن الأمريكي حين ينام أول مرة فوق سطح منزل عربي يجد نفسه في وضع صعب

تماماً، لأنه يفقد تلك الخصوصية التي تهيّئها له غرفة نومه، وينتابه شعور بغيض بأنه أصبح عرضة لفضول عيون الجيران الذين يعتقد أنهم يُحصون عليه سكناته وحركاته. ولكن لمّا كان هؤلاء قد أظهروا عدم اكتراث بسلوك غيرهم من الجيران، فسرعان ما كان لذلك وقع طيب عليه، لم يأبه بعدها أبداً. ويسترسل ليقول: إنه حين يلف الليل بعتمته المساء، ويطويه رويداً، تخفت أصوات الناس شيئاً فشيئاً، فلا يقطع سكون الليل الرهيب الذي أناخ بكلكله على المكان سوى نباح الكلاب السائبة الذي يتعالى حيناً بعد حين. ويعتقد لوشر أن نباح الكلاب سمة إزعاج عامة تعكّر ليل جميع المدن الشرقية. فالليل بهوائه المنعش يثير الشهية في الكلاب التي ظلت سحابة نهارها الحار غافية بين الخرائب والأطلال تترقب حلول الظلام، ولكن ما إن ينتصف الليل حتى تحسّ تلك الكلاب البائسة بالكلال، ويلفها الإرهاق جرّاء ما بذلته من نباح فتسترخي. وهنا تلتقط الأذن عواء ثعلب من مكان بعيد، ما يلبث أن ينضم إليه ثان وثالث ورابع و... يعمّ العواء، وتتعالى حدّته حتى ليبدو كأنه صادر من ألوف من تلك المخلوقات المتوجسة الجبانة، ثم ما تلبث حدّة العواء أن تفتر ثم تهمد، "ولكن ما هذا الصوت الذي يدق طبلة أذني ويهزّها هزّاً؟! ولماذا تلاشى عواء الثعالب فلم نعد نسمعه؟!". لقد عاد هذا الصوت الأخير يتعالى مرة أخرى. إنه صوت مرعب كأنه ضحكة مبحوحة صادرة عن جوف مخبول، لا إنها ليست من أصوات الإنسان بحال. لقد خافت تلك الكلاب الجبانة، وتسللت عبر الشوارع الخالية إلى الأماكن المهجورة، وقد التصقت ذيولها حتى غابت بين أرجلها تماماً، وهي تبحث عن ملاجئ تؤويها بعد أن أرعبها عواء الضبع الذي وفد إلى المكان من مسافة عشرين ميلاً، وقد قادته إليه رائحة جيفة ملقاة في بعض الأماكن في العراء.

ويغط لوشر بعدئذ في نوم عميق. فقد جهّز لهم مضيفهم أرائك عليها وسائد من حرير، وظلت أنسام الليل المشبعة بنسيم البحر العليل تهب عليهم، فلم يستفيقوا إلا حين أيقظهم الشيخ، خشية من أن تسقط عليهم بواكير أشعة الشمس التي تبدأ متوهّجة، وتسبّب من دون شك للنائم القليل الخبرة بتلك المناطق وشمسها صداعاً عنيفاً.

لعلنا نلاحظ هنا جنوح العديد من الرحالة إلى استعمال الصور البلاغية وتصوير المحسوسات بغير ما هي عليه، حين يضيف إليها العديد من أساليب البديع، ولمثل هذا الرحالة الحقّ في كل ذلك. فمن أهداف أدب الرحلة إمتاع القارئ، ومن أهداف الرحالة إثبات علوّ كعب الرحالة في اللغة وتطويعها لتصوّر الغريب، ولكن مثل هذا الأدب يعقّد مهمة المؤرخ الذي يعمد إلى وضع أدب الرحلة في مصادره حين يأخذ عن الأصول، أما المؤرخ الذي يعتمد أدب الرحلة المترجم مصدراً فهو - مهما بلغت ملَكته النقدية - كالمنبتّ بل أضل سبيلاً. لقد درج العديد من مترجمي هذا الأدب من غير المؤرخين على انتقاء ما يوافق قواعد النشر في بلادهم، وتجاوزوا عمّا فوق ذلك. وبهذا حملت أغلب كتب الرحلات الغربية المترجمة صوراً زاهية عن الحياة

العربية التي اضطر المترجمون إلى حذف ما لا يوافق الهوى فيها، وسار على هواهم المؤرخون الناقلون عن الترجمات، فرسموا حين اعتمدوا هذه الترجمات صورة لا تنمّ عن الواقع ولا تعتمده بحال. وللأسف، فقليل هم المؤرخون الذين يكدّون للوصول إلى الأصول.

يقول لوشر: إنهم هرعوا من فورهم إلى الساحل حيث وجدوا مركباً أرسل من الباخرة في انتظارهم، فركبوه بعد أن شكروا مضيفهم بحرارة على حسن الضيافة، ما أطلق في وجهه شعاعاً من الرضى أنار وجهه "الجاد المكفهر" وأضاف الكابتن أنه سيبذل كل ما في وسعه لإدراج الكويت ضمن الموانئ التي تزورها الباخرة مستقبلاً بانتظام. وبهذا الوعد انفرجت أسارير مضيفهم بأكثر ممّا انفرجت بشكره على الكرم، فالكرم - كما يقول لوشر - سمة عربية يمتاز بها كل عربي مهما بلغ فقره. وكانت آخر كلمات المضيف حينما غادره ضيوفه من الأوروبيين الإعراب عن أسفه لعدم تمكّنه من إطلاق المدافع عند المغادرة، وذلك خشية تكرار ما جرى عند تحيّتهم في الاستقبال، وإنه إذا حاول ذلك فقد يلقى مدفعيّوه الباقون المصير نفسه. وأضاف لوشر: إنه أحسّ بأن فقدان الشيخ أرواح رجاله كان أمراً ثانوياً بالنسبة إليه. وهكذا فقد أطلقت الباخرة ثلاث قذائف تحية الوداع، وأخذت تمخر خارجة من الميناء، بينما كان الشيخ يقف مجاملاً على الساحل، محاطاً بأفراد شعبه، وظلّ على حاله تلك حتى اختفى عن أنظارهم.

الإبحار إلى البصرة

وصلت الباخرة إلى مدخل شط العرب بعد حوالى ساعة من صباح اليوم التالي من إبحارها من الكويت، واجتازت الفاو التي كانت إحدى محطات البرق الهندوأوروبي، وقدم لها لوشر وصفاً تفصيلياً. ومن أطرف ما قاله: إن المستنقعات في هذه المنطقة مليئة بقطعان الأبقار وجاموس الماء (؟) الذي وصفه شكلاً ومنظراً وطبيعة وإنتاجاً. وكان أغرب ما قاله في هذا الصدد إن هذا الجاموس المائي يظل داخل الماء اليوم كله، ولا تبدو منه فوق الماء إلا فُتحتَي منخره. أما إذا لم يجد الماء الكافي لذلك، فإنه يتمرّغ في الطين حتى يغطي جلده كله، ويضيف: إن العرب على سواحل دجلة والفرات يستعملون هذا الحيوان "عبّارات" تربط بين الساحلَيْن. وبلغت الباخرة المحمّرة بعد الفاو، ومنها إلى البصرة حيث ترك هذا الرحالة ومن معه الباخرة بينانغ ليسافروا على باخرة أخرى هي "دجلة" إلى بغداد.

الفصل الثاني

من أدب رحلات المنصّرين الأمريكان في الخليج

يكتب أحد المنصّرين فيقول:

لطالما تطلعت إلى زيارة ساحل عمان، ولكن ذلك كان متعذراً حيث لم تكن زيارة مدن المناطق الغربية من عمان من البحرين ممكنة إلا بالقوارب المحلية. ولهذا فقد قد كانت الفرص دائماً غير مواتية. وحدث أن بدأت القيام بهذه الرحلة مرتين في ما مضى، ولكنني اضطررت في كل مرة إلى أن أعود أدراجي جرّاء الجوّ الرديء والرياح المعاكسة.

غادرت في هذه المرّة في الساعة الرابعة من يوم ١٠ المحرم ١٣١٨/٩ مايو ١٩٠٠ الميناء في سنبوك صغير يرافقني بائع كتب التنصير، وأخذنا معنا صندوقين من الكتب والأدوية. وكانت الرياح مواتية فأبحرنا في اتجاه الشرق لنتجنّب الصخور عند الساحل العربي والدخول في ضحضاحاته. وكان ربان المركب وبحارته كلهم من الوهابيين الملتزمين، و لم يحاول أي منهم إنكار أنهم كانوا في السابق يتعاملون بتجارة الرقيق، فاللحم الإنساني يمكنه حتى الآن أن يثري التاجر العماني إذا وجد الفرصة للتعامل به.

وفي اعتقادنا أن من الغريب حقاً أن يتحدث أمريكي في بداية القرن العشرين عن اللحم الإنساني الذي يثري العماني لولا أنه مُنع بالجهود الغربية من ذلك، فالثراء الذي جناه التجار الأمريكان من تجارة اللحم الإنساني لا يدانيه ثراء لتجار أيّ أمّة أخرى.

كنا في يوم ١١ من هذا الشهرعلى مقربة من جزيرة هندرابي عند الساحل

الفارسي نطل على سيراف، تلك المدينة العتيقة الشهيرة. وأبحرنا من هناك إلى ميناء قلعة العبد لنفلت من مواجهة عاصفة شمالية قوية. وفي ذلك الساحل تحدثنا إلى الأهالي بالعربية، فكل الفرس الذين يسكنون هذا الساحل يعرفون هذه اللغة. وتوجهنا من هناك إلى الشارقة عبر عرض الخليج مباشرة.

ترقد في منتصف هذا الطريق البحري جزيرة بو موسى، وهي جزيرة صغيرة يسكنها عدد قليل من العرب الذين هم تحت حكم الشيخ سالم. وعلى الرغم من أن هذه الجزيرة الصغيرة صخرية، فهي ممرعة وذات مياه طيبة، إضافة إلى أنها تتمتع بميناء جيد يقع على الجانب الشرقي منها. ويمتاز هذا المرسى بأنه قريب جداً من الساحل. ويتمثل المصدر الأساس لهذه الجزيرة في الأوكسيد الأحمر الذي يُعدّ مادة التصدير الوحيدة. ويمكن مشاهدة تلّين بارزين يحويان كميات لا حصر لها من هذا المعدن الرخيص ذي الأسواق الرائجة. وعادة ما تفد البواخر إلى هذه الجزيرة وتوسق بهذه المادة. وفي هذه البقعة النائية وجدنا الإنجيل يُتلى بالعربية، لسان هؤلاء القوم.

وصلنا في يوم الاثنين ١٤ منه إلى الشارقة التي هي المدينة الرئيسة في "ساحل القراصنة". ولقينا في منزل عبد اللطيف، الوكيل البريطاني، كرماً وحفاوة. وعلى مدى ثمانية أيام قضيناها هناك، كنا نستقبل المرضى في كوخ من القصب نعالجهم ونتحفهم بالدواء. فما إن ينادي المؤذن لصلاة الفجر، حتى يبدأ الزوار بالتوافد إلينا ولا ينقطع سيلهم إلا بعد الغروب، فنعرف من ثمّ طعم الراحة. وفي فترة وجودنا في الشارقة قصدنا عدد غفير من العرب من دون أدنى عوائق طلباً للعلاج والدواء، وكذلك لشراء الكتب ومناقشة المهمات التي دفعت بنا إليهم. وقد عمرت تلك الأيام بالكثير من الحديث المتصل معهم وبالعمل الجاد وقراءة نصوص الإنجيل والتعامل مع مجموعة من الناس، على اختلاف طبقاتهم، والرد على اعتراضاتهم.

يتهم هذا المنصّر عرب الشارقة وأهل مدن هذا الساحل الأخرى "بعدم الإنسانية" لأنهم كانوا سابقاً يشتغلون بالقرصنة، "ولم يحدث أن وجدت في أيّ منطقة من المناطق التي سبق لي أن زرتها من الموبقات ما يمكنها أن تنافس الموبقات التي تسود هذا الساحل، وهي المتمثلة في غلظة مخاطبة أهله للآخرين وفي سوء أخلاقهم".

ويضيف أن نصف سكان الشارقة تقريباً من الزنوج أو من ذوي الأصول الزنجية. ويذهب إلى القول إن أهل البلدة ينكرون أنهم يتعاملون بالنخاسة، لكنهم يمارسونها سرّاً. ويرى هذا المنصّر في معظم السكان التزاماً بالوهابية، لكنه يلاحظ أن تدخين التبغ مسموح به في أوساطهم عموماً.

يسترسل فيقول: "... وفد إلينا ذات يوم شيخ البريمي التي تقع على مسافة أربعة أيام في اتجاه الداخل"، ويصفه بالعربي الذكي. وادّعى المنصّر أن الشيخ تحدث معهم عن النصرانية ورغب في أن يستمع إلى صلاتهم، فأنشد له المنصّر الجزءين الخامس عشر والسادس عشر، ويقول إنّ ذلك الشيخ سُرّ بما سمع، وعاد إلى البريمي حاملاً معه إنجيلاً عربياً ضخماً. وقدّم الشيخ للمنصّر الدعوة لزيارته هناك.

يعود هذا المنصّر ليقول إن أهل الشارقة الذين وصفهم في فقرة سابقة بأنهم جفاة غلاظ، أبدوا تجاهه روح الصداقة وقدّموا إليه دعوة ليستأجر حانوتاً في المدينة لكي يقيم المنصّرون بين ظهرانيهم دائماً. ويوصي المنصّر بالاستجابة لهذا العرض، لأنه يرى في الشارقة حقلاً ممتازاً للعمل التنصيري. فالتنصير العلاجي في هذه البلدة زهيد التكاليف، وخاصة أن أهل البلدة أبدوا استعداداً كي يدفعوا مقابلاً لتلقّيهم العلاج. ويلاحظ هذا المنصّر أن في بعض مواطني الشارقة من يتمتّع بالثراء.

يتركز النشاط الرئيس في هذا الإقليم على العمل في صيد اللؤلؤ، وقد ورث بعض المواطنين ثراءً عن أسلافهم الذين كانوا قد أثروا في فترات سابقة من تجارة الرقيق التي كانت ناشطة مع زنجبار. ويفيد هذا المنصّر بأنه فيما كان مشغولاً بممارسة المهمات العلاجية في الشارقة، كان إلياس، بائع الكتب، يجوب المدينة والقرى المجاورة لها يبيع الأناجيل حتى وصل إلى دبي الواقعة على بعد اثني عشر ميلاً من الشارقة، ويرى أنهم قد أخطأوا حيث لم يجلبوا معهم سوى عدد محدود من النسخ بيعت في وقت وجيز.

يقول هذا المنصّر إن استكشاف فرص العمل التنصيري في الأصقاع الواقعة بين البحرين ومسقط وتقدير ما يمكن القيام به في منطقة شمال الباطنة قد مثّل لديه اهتماماً خاصاً دفعه كي يجوب هذه المنطقة على أكوار الإبل، ويدّعي أنه وجد صعوبة بالغة في مساومة أصحاب الإبل، لكنه تمكن أخيراً من أن يستأجر اثنين من الأدلّاء ومعهم خمسة من إبلهم ليأخذوهم من الشارقة إلى صحار بمبلغ عشرين ريالاً عربياً، أي ما يعادل عشرة ريالات أمريكية.

بدأت الرحلة البرية من الشارقة في اتجاه مسقط في الساعة التاسعة مساء يوم ٢٠ مايو، وتوقفت في منتصف الليل عند إحدى الآبار لفترة وجيزة لينالوا قسطاً من الراحة ولسقي الإبل، وواصلوا المسير مرة أخرى، و لم يتوقف الركب إلا في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. ويضيف أنهم كانوا يحاولون دائماً أن يسيروا ليلاً ويستريحوا نهاراً، حيث يمكنهم أن يأووا إلى ظل شجرة سدر أويتفيّأوا ظل قلعة من قلاع البدو نهاراً ليتّقوا حرارة الشمس. وعلى هذا المنوال تمكن ركبهم من قطع هذه المسافة التي تقدر بتسعين ميلاً في أربعة أيام وبضع ساعات. ويصف المنصّر ذلك بالإنجاز الشاق الذي اضطروا إليه لحرصهم على أن يصلوا إلى مسقط في وقت يمكّنهم من اللحاق بسفينة البريد المبحرة إلى البحرين.

يقول إن معظم الطريق التي قطعوها كانت عبارة عن صحراء جرداء خالية من القرى ومضارب البدو، فلا منازل فيها ولا خيام. سار ركبهم في بداية الرحلة من الشارقة نحو الشرق بنحو ما ثم انثنى في اتجاه الجنوب الشرقي ليصل إلى ممر وادي حتا. ويضيف أن الطريق المطروق عادة هو ذلك الذي ينفذ عبر سلسلة جبال الساحل إلى وادي حم، لكنّهم تجنّبوا سلوكه لأنه كان غير آمن في ذلك الوقت.

اجتاز الركب في الطريق التي اختارها عدداً من القرى والمزارع في بداية الرحلة. وفي اليوم التالي اجتازوا فليج ثم مروا بالهان. وقضوا ليلهم في بطن الوادي تحيط بهم آلاف الخراف والأغنام التي كانت ترعاها بدويات يافعات تنتشر قطعانهن على المراعي الوفيرة على منحدرات الجبال. ويدّعي أنه وجد قُرّاءً للإنجيل حتى في أوساط البدو، فقد تمكن إلياس من أن يبيع نسخاً منه في كافة المواقع التي أناخوا فيها إبلهم.

دلف الركب في وقت متأخر من ليل الأربعاء ٢٤ المحرم/٢٣ مايو إلى الممر الضيق لوادي حتا يتقدمه الدليلان البدويان، كل منهما فوق ظهر بعيره، وبندقيّتاهما عامرتان بالبارود وجاهزتان للإطلاق. وسار في إثرهما الجمل الذي يحمل المتاع يليه الجمل الذي امتطاه المنصّر، والذي ربط إلى ذيل سابقه، وكذلك كانت الحال مع الناقة الحلوب التي كان يمتطيها إلياس ويسير في إثرها حواراها. ويقول المنصّر إنهم ما كانوا يحسّون رهق الحرارة ليلاً، فقد كان هواء الجبال يهبّ عليهم بارداً إلى درجة أحوجته إلى اتقائه بدثار. أما النهار فقد كان شديد الحرارة، ولكن الهواء كان جافاً فراحوا يتّقون وطأة الحر بمناشف مبللة يضعونها تحت قبعاتهم. في هذا اليوم هبّت ريح السموم على تلك الواحة الواقعة في منتصف ممر صخري صحراوي فأنعشتها. ويضيف أنهم وجدوا في الواحة ينبوعاً كبيراً ثرّ المياه وأشجاراً وزهوراً ازدهت خصباً وأينعت نماءً.

تقع أعلى هذا الممر قرية عجيب الكبيرة حيث مزارع التبغ وبساتين التمور. أما منظر الباطنة الخصبة الراقدة على سفوح الجبال التي تتمدد على طول الطريق إلى مسقط وتطل على الخليج الهندي فقد كان رائعاً. وتابع الركب مسيره عبر وادي حتا حتى انتهى إلى البحر. وكانت مجاري الأنهار فوق الجبال تسيل بالماء العذب وتجري وتتلوى في مجاريها قبل أن تنحسر عن أعينهم بعيداً في اتجاه المحيط. ويضيف أن هذه المجاري الموسمية هي التي يمكنها أن تبوح بسرّ خصوبة الساحل الممتد من وادي حم حتى بركا.

قضت هذه المجموعة في شيناص عند ساحل البحر يوماً قائظاً. وآوى المنصّر ورفاقه إلى مسجد تلك البلدة لينالوا قسطاً من الراحة، ثم ذهبوا بعد ذلك إلى سوقها الصغير. وفي كلا المكانين، المسجد والسوق، تمكن المنصّر - في ما يقول - من بيع الأناجيل. واستضاف أحد مواطني البلدة المنصّر وركبه فنهلوا من كرمه. وجرى الحديث في تلك الجلسة عن الرحلة التي كان المنصّر زويمر قد قام بها قبل ثلاث سنوات مضت.

على أكوار الإبل أيضاً واصل الركب رحلته من شيناص إلى صحار. ولم يتمكن من الوقوف في قرية اللواء الكبيرة التي يشار إليها في الخرائط باسم لاوا، فقد خشي المرافقان العربيان من أن يصابا بالجدري الذي كان يضرب تلك المنطقة. ولقي المنصّر ورفاقه من والي صحار الذي يحكم باسم سلطان مسقط استقبالاً طيباً وترحاباً وكرماً. واستأجرت المجموعة من صحار قارباً لقطع ما بقي من الطريق إلى مسقط التي كانوا يتوقعون الوصول إليها في خلال يومين، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل كبرى – كما يقول – فقد تلكأ البحارة وتأخّروا في شعم يوماً كاملاً. ثم ما إن بدأت الرحلة البحرية حتى سكنت الريح بعد ذلك، ثم ماتت تماماً لثلاثة أيام متصلة، ولم يكن الإبحار مواتياً أبداً، فحتى التجديف لم يكن ممكناً في وجه التيار المعاكس. وتمكن الركب من أن يصل بعد لأي إلى خضراء على مقربة من السويق، وعملوا على استكمال ما بقي من الرحلة إلى مسقط على أكوار الإبل. وساوم المنصّر بعض العرب في الأجر الذي يطلبونه لنقلهم إلى مسقط، لكنهم تلكّأوا في الاستجابة له وطلبوا مبلغاً عدّه المنصّر باهظاً. وعبثاً حاول المنصّر أن يقنعهم بأن يستجيبوا له و يلتزموا السرعة، وذلك لأنه كان يسعى للحاق في الأربعاء بباخرة البريد التي كانت لا تفد إلى مسقط إلا مرة كل أسبوعين، ولكنهم راحوا يجادلونه بأن القبطان سيتأخر "إن شاء الله"، أو قد يعرف بخبر التأخير الطارئ عليهم فيعمد إلى انتظارهم!

لم يجد هذا المنصّر – إزاء تعنّت أصحاب الإبل – إلا أن يواصل رحلته بحراً، وأسعفه الحظّ حيث هبّت في يوم الثلاثاء رياح مواتية فنشر مركبهم قلاعه، وجرى بهم القارب حتى بلغ جزيرة فال الواقعة على بعد عشرة أميال من مسقط. وسكنت الريح بعد ذلك تماماً، وتوقف المركب هامداً جامداً بلا حراك. وعندها أبصر المنصّر ورفاقة باخرة البريد تبحر إلى داخل ميناء مسقط. ووافق بحارة القارب على أن يقطعوا المسافة التي تفصلهم عن الميناء تجديفاً مقابل أجر قدره أربع ربيات. وفيما كان البحارة يقومون بذلك العمل المضني الذي أورثهم الكلال والمشقة، راح المنصّر وجوقته يغنّون لهم حتى لا يملّوا أو يكلّوا. وتمكنت المجموعة التنصيرية بالمجهود الشاق الذي بذله أولئك البحارة من إدراك الباخرة. وفيما كان العمال يرفعون صندوق متاع المنصّر إلى الباخرة، تمكن المنصّر من قضاء نصف ساعة مع كانتين، المنصّر المسؤول عن إرسالية مسقط. وهكذا قفل هذا المنصّر عائداً إلى البحرين على مركب شركة الهند البريطانية التي يقول إنّ ظهرها بدا له ناعماً وثيراً بعد هذه الأسابيع الثلاثة التي قضاها في نصب وعناء وهو يجوب أرجاء عمان.

ينتهي هذا المنصّر إلى القول إن الفرص المواتية التي تنتظر المنصّرين في عمان ظلت الأمر الوحيد الذي شغل باله طوال هذه الرحلة الاستكشافية التي جاب فيها أرجاء ذلك الإقليم. فهو لم يصادف خلال هذه الرحلة أياً من "المتعصّبين"، بل على العكس من ذلك وجد في كل منطقة مرّ بها طلباً لكتب التنصير. فحتى النساء كنّ يخرجن من أكواخهن مهرولات يتسابقن

للحصول على الكتب العربية، وكنّ يساومن بائعها لشراء الإنجيل منه بمبلغ سنتين اثنين. ويخلص إلى القول إن طرق القوافل في الظاهرة قد غدت في الفترة التي تلت رحلتهم آمنة مطروقة وكذلك حال طرق الباطنة وفجاجها. فإذا كان الأمر كذلك، فإن هناك حوالى خمسين قرية يمكن أن يُحمل إليها الإنجيل في المناطق الممتدة من البريمي إلى عبري ومسكين، ويفيد بأن كل هذه المنطقة أراض بكر لم يطمسها أولئك المنصّرون الذين اخترقوا الجبل الأخضر من مسقط من قبل. كذلك يمكن حمل الإنجيل أيضاً إلى وادي الجزي الذي يقع إلى الغرب من صحار والمشهور بخصوبة أرضه وبكثافته السكانية. ويعتقد كاتب التقرير أنه يمكن الإنجيل أن يجد من هذه المنطقة طريقاً ممهداً إلى عمان. ويرى المنصّر أن هذا هو الوقت الذي يستدعي تكثيف جهود المنصّرين كي يهتبلوا هذه الفرصة الذهبية التي قد لا تتاح لهم لفترة طويلة. "لتكن صلواتكم مبذولة لهذا الحقل الذي هو أكثر قداسة من غيره لما وجد فيه المنصّرون من متاعب، ومن أجل آخرين من المنصّرين الذين ضحّوا بحياتهم من أجل فتح عمان للمسيح".

يكتب منصر آخر في عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م:

> قمت برحلة علاجية يصحبني فيها بائع الكتب التنصيرية ومعه بضع مئات من الأناجيل إلى ساحل قراصنة عمان لعلكم تهتمون بوقائعها. وكان في جعبتنا أدوية ولاصقات وضمادات وبعض المعدات الأخرى. أخذنا الباخرة إلى لنجة وكنا نأمل أن نجد هنالك مركباً من مراكب الأهالي ليعبر بنا إلى الشارقة التي هي أحد الموانئ الرئيسة في الساحل العربي للخليج. وقد وجدنا منذ الليلة الأولى مركباً كان على أهبة الرحيل، إلا أن تلكّؤ الأهالي والروح المعتادة التراخي لدى العرب والأعذار التي يتذرعون بها حالت دون إبحارنا لمدة خمسة أيام تالية. تألّفت شحنة مركبنا من التمور والأخشاب والسلال، إضافة إلى المسافرين من مواطني المنطقة. وقد جرى اعتبارنا مسافرين على الدرجة الأولى، فخصّصوا لنا حيّزاً ضيّقاً على السطح وضعنا فيه أسرّتنا وتكوّمنا فيه. وفيما يدفع المسافر من المواطنين ربية واحدة فقط إيجاراً لنقله، ولا يدفع المعوزون منهم شيئاً أبداً بل ينقلون بالمجان، إضافة إلى أن المفلسين عادة ما يقاسمون رئيس المركب وبحارته طعامهم، فقد وقع علينا أن ندفع عشرين ربية إيجار نقل لثلاثتنا، وأن نتدبر، فوق هذا أمر، طعامنا وشرابنا.

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن هذا المنصّر، بدلاً من أن يشكر للعرب تكافلهم وإحسانهم إلى

الفقير والمسكين، راح يشكو من أنهم لم يلقوا من العرب المعاملة ذاتها. وفي تقديرنا أن أولئك المنصّرين كان يمكنهم أن يلقوا من أولئك العرب المعاملة ذاتها لو عرف العرب أنهم فقراء، ولكنّ المنصّرين الذين طلبوا أن يُخصص لهم على سطح المركب مكان لا يشاركهم فيه أحد كشفوا عن أنهم يملكون من المال ما يضمنون به خصوصيتهم. ويستطرد هذا المنصّر فيقول:

> وضعنا الماء الذي نحتاج إليه خلال الرحلة في إناء من الصفيح من تلك الآنية التي كانت معبّأة بالكيروسين، وكنا قد غليناه فيها واحتفظنا به لشرابنا. أما طعامنا خلال الرحلة فقد تألّف من البيض المسلوق والخبز والحليب المغلي، إضافة إلى الفاكهة والخضر وما إلى ذلك من مأكولات كنا نتناولها حينما لا نكون واقعين بنحو كبير تحت تأثير دوار ذلك البحر.

كعادة كل الرحالة من كل ملّة غربية، ومهما كانت المهمات التي يضطلعون بها، يكشف هذا المنصّر عن التعب الذي وجدوه وهم في طريقهم إلى شبه الجزيرة العربية أو خلال تجوالهم في دروبها:

> صادفنا خلال الرحلة جوّاً عاصفاً جداً. ففي الليلة الأولى تغيّر اتجاه الرياح فأصبح معاكساً لما كان عليه عند بداية الرحلة. قضينا هذه الليلة كلها ونحن نعتقد أننا قد اجتزنا نصف المسافة إلى مقصدنا، ولكننا فوجئنا في الصباح التالي بأننا لم نبرح مكاننا الذي أبحرنا منه في الليلة السابقة. واستؤنفت الرحلة مرّة أخرى في المساء التالي. واستطعنا في هذه الليلة والنهار اللاحق لها أن نقطع من وجهتنا شوطاً كبيراً. وفي الليلة التالية هطل المطر مدراراً، ولما كنا لا نملك أغطية نتقّي بها البلل، فقد أصبحنا في حال يُرثي لها، وأخذ منّا الضيق كل مأخذ. وتسرّبت مياه المطر إلى صناديق متاعنا، وابتلّ ما تحويه من ملابس، فلم نستطع استبدال تلك التي كنا نرتديها بأخرى، فبقيت على تلك الحال حتى جفّت على أجسادنا في اليوم التالي.
>
> رسا مركبنا في الشارقة عصر اليوم التالي، وفي الصباح بدأنا بتفحّص المرضى الذين توافدوا إلينا من كل حدب وصوب. و لم ينقضِ الأسبوع إلا وقد تفحّصنا نحو خمسمئة مريض، وبعنا مئة نسخة من الإنجيل. وما زلنا في كل مرة نزور فيه هذا الساحل نلمس إنجازاً أكبر ممّا سبق لنا تحقيقه في المرة السابقة، ونجد أن العمل العلاجي يُسهّل علينا بيع الأناجيل، ونأمل أن تزداد وتيرة كليهما. ويمكن أن نلاحظ أن الناس هنا قد أصبحوا أكثر ألفة وأبلغ تسامحاً. وحين عدت إلى

المركز تركت خلفي بائع الكتب الذي أقام هناك لأسبوعين آخرين. وعلى الرغم من أن ذلك البائع كان رجلاً يتّسم بالحكمة، وجد من المواطنين تبدلاً كبيراً في المعاملة بعد أن رحل الطبيب.

يرى هذا المنصّر أن ما قاموا به في هذا الإقليم من مجهودات منذ أن زاره زويمر للمرة الأولى في عام ١٨٩٨م قد أثار في الناس اهتماماً حقيقياً ومتزايداً بالإنجيل. ففي الشارقة – على سبيل المثال – وجد عدداً من نسخ الإنجيل في مدرسة ما، وعند ما عرف الأطفال أنه يعرض عدداً آخر منها للبيع، اشترت مدرستهم حوالى عشرين نسخة إضافية. كذلك صادف المنصّر في إحدى القرى النائية، وهي من أكثرها فقراً، عدداً من الأطفال يضعون حول رقابهم حقائب جلدية صغيرة وقد خيطت بداخلها حكم سليمان لتحجب عنهم الحسد، وفي منطقة أخرى ألفى رجالاً جلوساً اجتمعوا لتدارس الإنجيل. ويخلص المنصّر إلى أن هذه الظاهرة والظواهر الأخرى المماثلة لها تدلّ على أن البذرة التي غُرست في هذا الساحل غدت واعدة تبشّر بأُكل قريب. "فهل لنا أن نخاطبكم في الوطن، وأنتم تدعموننا بكل الوسائل التي تمكننا من القيام بهذا العمل".

أراد هذا المنصّر أن يبشّر رئاسته بنجاح مهماته التنصيرية بدليل شراء مدرسة ما نسخاً من الإنجيل بأسعار زهيدة، ولم يدرِ أن المدارس لا تجافي تدارس كتب الأديان السماوية. أما ما ذكره من "حجابات" إنجيلية تدرأ عن الأطفال السحر، فيقيناً أنه لو عرف أن تلك التعاويذ كانت تضمّ أيضاً طلاسم سحرية قديمة وأرقاماً وحروفاً لا معنى لها لأدرك أنه اتخذ من صورة تدل على الجهل والتخلف الاجتماعي دليلاً على نجاح مهماته. ويختتم هذا المنصّر تقريره بسبّ من جاء لتنصيرهم: ونسألكم بذل جهدكم في الدعاء لنا لتؤيّدوا به معنا إدخال ساحل القراصنة "اللعين بدرجة تفوق التصوّر" وكافة شبه الجزيرة العربية إلى حوزة المسيح ومملكته.

يقول المنصّر صموئيل زويمر إنه وصل إلى أبو ظبي في ١٨ المحرم ١٣١٩/٢ مايو ١٩٠١ ولقي ترحيباً من الشيخ زايد بن خليفة الذي كان قد رفض في فبراير الماضي السماح له بعبور أبو ظبي إلى ظهيرها بحجة أنه لا يحمل خطاب عدم اعتراض من القنصل البريطاني على رحلته المزمعة تلك. وتمكن المنصّر في هذه المرة من أن يحصل على التصريح اللازم من المقيمية البريطانية، ووفد إلى أبو ظبي يحمله إلى زايد. وتوافد القوم على المنصّر، كان بعضهم يطلب العلاج، وآخرون – كما يقول – لشراء الأناجيل. ويذكر زويمر أنه باع عشرين نسخة دفعة واحدة من هذا الكتاب لأحد التجار، مفارقاً بهذا ما درج عليه المنصّرون من عدم بيع تلك الكتب بالجملة. وبرّر ذلك بأنه يثق بذلك التاجر الذي سيبيع الكتب بالمفرّق، وفي ذلك ما يؤدي إلى النتيجة التي يتوخّونها. وبعد أن يذكر أن الكرم الذي قوبلوا به في أبو ظبي كان غامراً، يعود ليقول إنه أخذ يساوم البدو "الجشعين" على الأجر الذي يطلبونه لأخذه ورفاقه بالإبل عبر

الصحراء إلى البريمي، ويذكر أنه تمكن من ذلك بأجر يراه معقولاً.

يصف المنصّر أبو ظبي التي يقول إنّها جزيرة تفصلها عن اليابسة قناة عرضها حوالى مئتي ياردة، ويصل عمق الماء فيها في حالة الجزر إلى نحو خمس أقدام. وتقف في منتصف هذا الحاجز الطبيعي قلعة الشيخ زايد تراقب من يخوضون الوشل، ولا تستطيع الإبل ومن يمتطونها تفادي خطر الغرق في عبورهم من أبو ظبي وإليها. وراحت إبل المنصّرين وهي تقطع هذا الحاجز المائي تغوص فيه حتى صدورها، وراح المنصّر يحبس أنفاسه حين فكر في ما يمكن أن يلاقيه إذا تعثّر به البعير. وخاضت المجموعة إلى البر الذي بدا لهم مسطحاً منبسطاً كأنه ظهر مائدة حتى وصلوا إلى منطقة تبرز فيها عدّة صخور تعرف بحصن إبليس. وأخذ الركب يشق طريقه ليومين متصلين من هناك عبر صحراء رملية يباب لا تقع العين فيها على أثر لخضرة إلا نادراً، وراحوا يقضون استراحة الظهيرة حين يشتد الهجير في ذلك الجوّ القائظ تحت ظل "بطانية" يربطون أطرافها بحبال إلى صناديقهم يستظلون بها . وتغيّر طعم الماء الذي يحملونه في "القرب" جرّاء اهتزازه من أثر السير.

تألّف غذاء المنصّرين خلال الرحلة من التمر والحساء الذي كانوا يعدّونه من الخضر المجففة. أما طعام البدو المرافقين لهم فقد اعتمد على الضباب التي يصيدونها خلال الرحلة، فيعدّون منها خليطاً مع الأرز مستساغاً عندهم، ولكنه ما كان يروق المنصرين الذين رفضوا أن يشاركوا البدو في الطعام ما سبّب للآخرين الاستياء. ويقول المنصّر إن القرية الوحيدة في الطريق إلى البريمي كانت نيشيشلا، وهي مستوطنة نصف خربة تقوم عندها بعض أشجار النخيل. واستراح الركب في يوم ٥ مايو في مضارب للمزاريع، رغم أن اليوم كان قائظاً جداً وكانت الخيام السود التي لجأوا إليها تزيد من حرارة الجوّ. واستأنس المنصّرون بما وجدوه من حليب طازج خلال النهار، أما في المساء فقد ذبح القوم لهم جدياً سميناً وأعدّوا خبزهم على الجمر، وكان الماء وفيراً رغم المذاق المر هوناً ما الذي خالطه. وقد تفحّص المنصّر نحو عشرة من الرجال في ذلك المخيم لعلاجهم، كما أهدى ثلاثة أناجيل لمن كان يعرف القراءة منهم. ويضيف المنصّر أنه كتب بعض حروف الهجاء العربية لفتيان "واعدين" أبدوا رغبة في تعلّم اللغة العربية. ويلاحظ المنصّر أن هؤلاء البدو "مخلوقات من الجهلاء المساكين نصف الجياع" ورأى أنهم أقل "تعصّباً" من عرب السواحل، وحين يتسنى لهم أن يُعبّروا عن امتنانهم لما يقدّمه المنصّرون، فإنهم لن يكونوا بمنأى عن "مملكة الرب".

فارق المنصّر ورفاقه مخيم المزاريع وضربوا في اتجاه الشرق. واستمرت الرحلة حتى انقضى من الليل نصفه، وبرد الجوّ إلى درجة لم تكن متوقعة في هذا الوقت من السنة. وقضت المجموعة ما بقي من الليل في العراء، وواصلت طريقها حين أصبحت. وعثروا في الطريق على بنت مجهدة ضلت طريقها حين خرجت وراء بعير لها كان قد فُقد. فأعطى الدليل البنت ماءً فشربت، وتمراً

فأكلت، وأرشدها إلى الطريق الذي يفضي بها إلى قومها. وكانت تلك المنطقة عبارة عن متاهة من الرمال الممتدة على مرمى البصر، أكواماً فوق أكوام، وطبقات من الرمل تعتلي أخرى ترتفع إلى نحو مئة قدم، ويتبدّل مظهرها كلما عصفت بها الريح. وما زالوا يجتازون لجّة تلك الرمال حتى وصلوا في يوم الثلاثاء إلى واحة البريمي في رحلة استغرقت منهم أربعة أيام.

يصف المنصّر البريمي فيقول إنها واحة تمور خصبة تقع تحت ظل جبل حفيت الجميل الذي يشكل بداية بروز سلسلة العقدة. وتتكون الواحة من سبع قرى تفصل بعضها عن بعض مجاري المياه ومزارع النخيل التي تتناثر على أرضها أشجار المانجو بجذوعها الفارهة ما يضفي عليها منظراً فريداً. وتمتاز أطراف هذه القرى بوجود حقول عشب ريان تكثر فيه الشجيرات، ما يمثّل مرعى ممرعاً لقطعان المعز والإبل التي "تمثّل ثروة العربي". ويلاحظ المنصّر أن عرب المنطقة وهابيّون، لكنهم لا يلزمون أنفسهم بالتقيّد بما يمليه عليهم ذلك الفكر.

يقول هذا المنصّر إن الطريق الذي يقود من البريمي إلى عبري وضنك يمر عبر طريق جبلي يحفّه عدد من القرى المأهولة، وينتهي هذا الطريق بعد أن يقطع الجبل الأخضر إلى مسقط. و لم يسلك المنصّر هذا الطريق لأن ما بحوزته من أناجيل كان في طريقه إلى النفاد، فاختار بدلاً من ذلك أن يجتاز الطريق الأقصر الذي يمرّ من خلال وادي الجزي ويقود إلى صحار مباشرة، حيث يمكنه أن يجد في صحار قارباً يأخذه من هناك إلى مسقط. ويورد المنصّر أسماء القرى بين البريمي وصحار على النحو الآتي: مهاشم، الحايل، الربيع، الحويلي، واسط، الخان، السهيلة، سهبان، الملينة، عوابي، ثم الفلي. أما القبائل التي تسكن هذه المنطقة فيقول إنهم من الكنود والمقابيل والشوامس وبني هيث، ويضيف أنهم في حالة نزاع دائم أبداً، "فلن تجد في هذه الأرض فرداً يسير إلا وبندقيته معه، أو ينام إلا وهي إلى جواره". ويقول إنهم على الإباضية، ويهرف بما لا يعرف عن الإباضية، ويقارن بينها وبين الوهابية، فيرتاد بذلك منطقة هو فيها أجهل من ذبابة تغرق في طبق من الحلوى فتفسده. ويتحدث المنصّر بعد ذلك عن الزراعة في تلك المنطقة وأساليب الري فيها.

استراح الركب في واسط فترة الظهيرة، وعالج المنصّر في هذه الفترة أسنان خمسة من المرضى بخلعها، وتفحّص عدداً مماثلاً من المرضى، فيما تمكّن إلياس من بيع عدد من الأناجيل. وقضى المنصّر فترة المساء في مسجد في الخان يتحدث مع المواطنين ويقدم "المواعظ، وكنا نأكل وننام فيما يحيط بنا نصف أهل تلك القرية". وواصل المنصّر مسيره ليلاً في اتجاه صحار وقد "اكتسبنا خبرات مثيرة، وقمنا بمغامرات في أوساط القرويين ومع الأبالة لا يتيسّر لي في هذه العجالة أن أحكي لكم ولا حتى قسماً يسيراً منها". واجتمع للمنصر تحت ظل شجرة مانجو في عوابي جمع غفير، "ووجدت أناجيلنا باللغة العربية هنا من يشتريها".

وصل الركب إلى صحار و لم يجد قارباً يوصله إلى مسقط، فقد كانت الريح ساكنة ما لا

يُمكّن الشراعيات من الإبحار، "فاضطررنا إلى أن نتشبّث بسروج إبلنا القاسية لمدة أربعة أيام أخرى. "وقطع الركب المسافة بين صحار وشعم البالغ قدرها حوالى مئة وخمسين ميلاً على ظهر سفينة الصحراء الصعبة المراس. و"توقف الركب في بركا حيث هرع المنصّر ليزور المكان الذي هلك فيه زميله جورج ستون الذي كان يرأس إرسالية مسقط. وحين وصل المنصّر إلى مسقط عرف من زميله كانتين في تلك الإرسالية أنه قد أرسل بائعاً للكتب إلى مناطق في الباطنة. وأبدى هذا المنصّر دهشته من أنه لم يصادفه في الطريق، لكن - على أيّ حال - يمكن القول إن رحلاتنا في عمان أصبحت تتلاقى وتتقاطع، فإذا ازداد عدد المنصّرين خاصة من الذين لديهم الاستعداد للتجوال والترحال، يمكن أن تغطي رحلاتنا عمان بأكملها لتبليغ رسالة الإنجيل، وبدلاً من أن نجوب هذه المناطق مرّة واحدة في السنة، سنتمكن من زيارتها مرّة في كل شهر. ومع ذلك ستظل هناك مناطق شاسعة خارج نطاق أيدينا.

لم تقتصر زيارات المنصّرين الأمريكان على مشيخات الساحل العماني وعمان، حيث أمكنهم أن يجدوا حماية معنوية من المقيمية البريطانية مع قدر من الحذر الذي استوجبته خشية الإداريين البريطانيين من أن يكسب المنصّرون من خلال التنصير العلاجي نفوذاً يزاحم ما للبريطانيين في تلك المناطق من نفوذ، بل إن تلك الرحلات امتدت لتشمل أيضاً مناطق الوجود العثماني في الأحساء.

يكتب صموئيل زويمر، شيخ المنصّرين الأمريكان، في: نشرة العربية المهملة، رقم ٥٣، يناير - مارس ١٩٠٥، أنه وزميل له آخر وبائع الكتب الدينية تمكنوا في ٢١ رمضان ١٣٢٢/٢٨ نوفمبر ١٩٠٤ من الوصول إلى العقير بقارب محلي. وأفاد المنصّر بأن العقير ظلت على مدى السنوات العشر الأخيرة على حالها التي وجدها عليها حين زارها في تلك الفترة. لم تمسّ يد التغيير تلك البلدة، فهناك القلعة المبنية من اللبن وجنودها الشعث غير المهندمين، ومركز الجمارك المتهدم، والعلم الذي يحمل النجمة والهلال يرفرف من على ساريته المعقوفة، وحتى "جماعات العرب المتجمهرة والكلاب السائبة كلها ظلت كما كانت عليه في سابق عهدها". وكان من حسن حظ المنصّرين أنهم وجدوا قافلة على وشك الرحيل إلى المناطق الداخلية، ضمّت تلك القافلة أكثر من ألفي بعير حُمّلت بالبضائع التي أتت بها الثلاثون مركباً التي لا تزال راسية في الساحل. و لم يصادف المنصّرون عقبات في ما يتصل بالجوازات وتصاريح السفر، فقد وجدوا في العقير من أصدقائهم القدامى من ذلّلها لهم، كما تمكّنوا بعد مساومة الأبالة من الحصول على حيوانات النقل. وخرج المنصّرون مع القافلة إلى أول منازلها التي تقع على مرمى حجر من العقير لقضاء الليل استعداداً للانطلاق إلى الداخل في صباح اليوم التالي. وفي هذا المنزل تلقّى المنصّرون دعوة من قائد القوات التركية في الأحساء فلبّوها، وجرى تكريمهم والترحيب بهم في الأرض العثمانية.

يقول هذا المنصّر إن طرق الأحساء كانت غير آمنة ولا يجرؤ أحد أن يسلكها ما لم يكن ضمن قافلة، كما لا تجرؤ أيّ قافلة على قطعها ما لم تكن في حراسة سلاح الفرسان. وقد رافق هذه القافلة مئتا جندي من هذا السلاح، ومع ذلك فقد تمكن البدو في الليلة الأولى من سرقة اثني عشر جملاً بأحمالها من وراء ظهور العسكر وهربوا بغنائمهم. ويستطرد المنصّر فيقول إن السلع التي حملتها القافلة كانت في معظمها في طريقها إلى نجد، وتحتوي على متفرقات تضم رزماً مختومة بخاتم شركة سميث هوج، نيويورك وبوسطن. كذلك تضم هذه السلع أيضاً الزيت الروسي المستورد من باطوم، والأرز من رانجون، والأخشاب من زنجبار، والفحم من كراتشي. وأفاد بأن القافلة تتحرك عادة من العقير مرة كل أسبوعين إذا تيسّر لها ذلك.

يستطرد المنصّر فيقول إن قائد الجند كان كردياً من أرمينيا، وإنه كان خير عون لهم. فقد يسّر لهم الأمر في الهفوف كي يرحلوا منها بالسرعة اللازمة للحاق بالقافلة، وأتاح لهم حرية اللقاء بالناس وبيع الأناجيل لهم من دون أدنى معوقات.

تحركت القافلة مع انبثاق ضوء الفجر وواصلت المسير في يومها الأول حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. ويلاحظ هذا المنصّر أن الأرض التي قطعوها حتى الجشة كانت صحراوية جرداء لا نبات فيها إلا ما كان من بعض أشجار الطرفاء النحيلة الأغصان وبعض الشجيرات الشوكية. وتوقفت القافلة في الثقبة حيث المياه المستساغة نسبياً وحيث توافر حطب الحريق. وقضت القافلة الليل في ذلك الموقع، وكان الجوّ بارداً إلى درجة لم يكن المنصّرون يتوقعونها، فاستعملوا كل ما كان معهم من أغطية. ويشير المنصّر إلى أن تاجراً عربياً ثرياً من مرافقي القافلة أصابته الدوسنتاريا ودُعي المنصّر لعلاجه، ولكنه حين تيقن أن الرجل يحتضر ولن يفيده تناول العلاج عمل على "الدعاء له". وشكر المريض المنصّر حين قدّم له جرعات من حليب النوق الدافئ و"قصّ عليه قصة الصليب". وردّد الرجل الدعوات التي لقنتها له، ويعتقد زويمر أن المريض كان قد استمع إلى الإنجيل سابقاً. "وهلك الرجل بعد ذلك، ثم وُوري جسده في قبر في الصحراء.

يقول المنصّر إنهم غادروا الثقبة فجراً وتبدّت لهم عند التاسعة صباحاً حدائق نخيل عند الجشة التي هي قرية مسوّرة تضم حوالى مئتي منزل. وقد ارتاب مواطنو الجشة في ما حاول المنصّرون القيام به، وقد نجح بائع الكتب في أن يهدي "الملا" نسخة من الإنجيل قبل أن تتحرك القافلة إلى الجفرة. يقول إنّ الجفرة قرية أكبر من سابقتها وتعقد فيها سوق أسبوعية، أما الطريق التي تقود منها إلى الأحساء فعامرة بحدائق النخيل التي تحفّها المياه الوفيرة.

وصلت القافلة إلى الهفوف في ٢٥ رمضان/٢ ديسمبر ١٩٠٤، ولقي المنصّرون الترحيب من "الكولونيل"، ولكن بما أنهم وصلوا نهاراً في رمضان، وقت صيام، "فقد بات علينا أن نؤجل وجبتنا الرئيسة إلى المغرب، أما في النهار فقد حتّمت الضرورة علينا الصيام مثلنا مثل المسلمين الأتقياء".

يوجد في الهفوف نحو ألف وخمسمئة جندي تركي وفد أكثرهم من بغداد أو من الشام، وقضى بعضهم في الهفوف أكثر من ثلاث سنوات، عايشوا خلالها حياة بائسة وكانوا يحسون أنهم قد نُفوا بهذه الخدمة عن أوطانهم، وكانوا لا يتلقّون إلا أجراً زهيداً يصلهم في أوقات غير محددة، كما كانوا يجبرون على القيام بالأعمال الوضيعة في الفترات التي لا تشغلهم فيها الأعمال العسكرية. ويصف المنصّر الجنود بالجهلاء الأميين، ويضيف أن ليس لديهم ما يمكن أن يرفّهوا به عن أنفسهم ويملأ الفراغ سوى تدخين التبغ ولعب القمار، هذا إضافة إلى أنهم يكرهون المواطنين من حولهم ويبادلهم الأخيرون الكراهية. ويخلص المنصّر إلى القول إن حياة أولئك الجند هي بلا شك بائسة، ولهذا تراهم كثيراً ما يحاولون الفرار من الخدمة العسكرية.

قدّم المنصّرون في أول يوم أحد من حضورهم إلى الهفوف خدمة كنسية في منزل طبيب الجيش، الأرمني الجنسية. وقد حضر القداس ثمانية أفراد كانوا يمثّلون العدد الكلّي للنصارى في الهيئة العسكرية. وكانت الرسالة من ماثيو ٥: ١٣. ١٤. وفي اليوم التالي مباشرة جرى استدعاء المنصّرين إلى بيت الحاكم لتوضيح نوع مهمتهم، وقد جرى الإفصاح عنها من دون مواربة، ما استدعى تقدير الحاكم الذي لم يُبدِ أي اعتراض عليها. وظلّ المنصّرون يقومون بمهماتهم في سوق البلدة، فباعوا ثلاثة وتسعين إنجيلاً وكتاباً تعليمياً هي كل ما كان في جعبتهم، ولم يبقَ لديهم سوى مصوَّر خرائط وجدوا صعوبة في تسويقه، لأن البعض كان يرى أنه محظور بموجب أمر من السلطان نفسه، وقد اضطر المنصّرون إلى التخلص من هذه النسخة أخيراً بإهدائها إلى الحاكم.

ابتهج المنصّرون بما وجدوه في فترة إقامتهم في الهفوف، فقد كانوا يسعدون بسماع الموسيقى النحاسية التي تعزفها فرقة من الجيش صباح مساء، كذلك قابلوا فيها أحد الأشخاص القادمين من البصرة، وكان قد تلقّى من المنصّرين هناك علاجاً في فترة من الفترات، فأصبح عوناً للمنصّرين الذين قابلهم في الهفوف. أما كرم أهل الأحساء فيصفه المنصّر بأنه كان غامراً فيّاضاً "فوق العادة"، فقد كان المضيف يقوم بكل ما يمكنه القيام به لإرضاء مضيفه، "حتى إن الإنسان ليخجل أنه خُلق غربياً". وتلك شهادة طيبة للعربي ولتراثه الذي يحضّ على إكرام الضيف، أياً كانت هويته أو ملته، ولكننا لا نصادف مثل هذه الإشادة من الرحالة الآخرين إلا في ما ندر.

يقول منصّر آخر إنه وصل العقير في ١٥ شوال ١٣٢٩/٨ أكتوبر ١٩١١ مع مساعد الطبيب في البحرين بقصد التوجه إلى الأحساء ولكنهما – كما يفيد – مُنعا من اللحاق بالقافلة التي كانت تستعد للقيام برحلتها إلى المناطق الداخلية. فقد وصلت إلى سلطات العديد أخبار عن الحرب في طرابلس (ليبيا) ومعها أوامر تحظر على الأجانب الدخول إلى الظهير. واكتفى المنصّر في هذه المرة بالحديث عن العقير، الميناء الذي يستقبل المراكب الآتية من البحرين لا يشاركه في ذلك إلا ميناء القطيف. يقول إن المسافة بين البحرين والقطيف تُقدّر بعشرين ساعة، ولكنها قد تختزل أحياناً فتصل إلى اثنتي عشرة ساعة فقط. ويضيف أنه سبق له أن زار هذا الميناء ثلاث

مرات في مدى العشرين عاماً المنصرمة، و لم يلحظ أي تقدم في نظم المعاملات ولا أي تطور في أساليب الشحن والتفريغ.

بُني حاجز الماء على بعد حوالى خمسين قدماً إلى الجنوب الشرقي من مدخل الميناء، ويمكن القوارب المحلية أن تبحر إليه بمحاذاة رصيف تحميل السفن الذي بُني من الحجر مع رديم من تراب. ولن تجد مبنى يستلفت النظر سوى مخزن الجمارك المستطيل الشكل الذي يبلغ طوله مئتي ياردة وعرضه مئة، أكثر من نصفه متهدم في حاجة إلى الترميم. ويقف المبنى الذي يشغله المدير عند منتصف السور الجنوبي الغربي لمبنى الجمارك المكوّن من طبقتين. تضم الطبقة الأرضية أربع غرف، بينما تقوم غرفتان علويتان في الطبقة العليا، وكل هذه الغرف متهدمة غير صالحة للسكنى. وعلى بعد حوالى ستمئة ياردة من مبنى الجمارك المذكور الذي يمكن الوصول إليه فوق أرض متموّجة هبوطاً وصعوداً لم يحدث أن جرى استصلاحها أبداً، تقف قلعة راكا التي تقع إلى جنوبيها الغربي قلعة أبو الزمول. والقلعتان كلتاهما مستديرة الشكل وذات متاريس، لكنهما تفتقران إلى المدافع وتحتاجان إلى ترميم. وتقع في منطقة بين القلعتين أقرب إلى راكا من أبو الزمول البئر التي ترفد المدينة بالماء، وهو مستساغ الطعم لولا ما يشوبه من طعم مُرّ هوناً ما. وينحدر السهل الصحراوي الذي تقف عليه القلعتان في اتجاه البحر. ولن ترى في هذه المنطقة أثراً لخضرة إلا ما كان من بعض أشجار نخيل لا تجد الرعاية، في المنطقة الواقعة خلف قلعة راكا، حيث تظهر خرائب المدينة القديمة. ولا يزال اسم تلك المدينة باقياً، فقد حملته قلعة راكا، وكان قاضي مدينة راكا لا يزال مسؤولاً عن التوقيع على مستندات بيع وشراء كافة الممتلكات في الأحساء واعتمادها.

للعقير مدير اسمه عبد الودود، ولها أيضاً ضابط جمارك ومحصّل ضرائب. ويعمل تحت إمرة هذا الثلاثي عدد من العمال يصل إلى نحو ستين شخصاً، يعمل عشرة جنود منهم في كل قلعة من القلعتين المذكورتين، ويشتغل الباقون في مبنى الجمارك. ويقول المنصّر إنه عرف من بعض المصادر أن ميناء العقير يستقبل حوالى ٢٥٠٠٠ جوال من الأرز في العام، وأن قوافل أسبوعية تربط العقير إلى ظهيره، وتضم تلك القوافل عادة عدداً من الإبل يتراوح بين مئتين وستمئة. وتعد الجشة أو الجفير، على بعد حوالى أربع ساعات من العقير، المنزل الأول الذي تنزله القوافل في طريقها إلى الداخل. ويختتم المنصّر بقوله إنه قضى مع المدير والعاملين معه وقتاً طيباً، وكان كل منهم مشغوفاً بأن تُلتقط له صورة فوتوغرافية، "كما تطلّع بعضهم إلى دراسة صورة المسيح التي أبرزناها لهم من خلال الإنجيل".

اهتم المنصّرون الأمريكان اهتماماً كبيراً بالحياة الاجتماعية لأهل الخليج، وتتبّعوا نشاطاتهم في البر والبحر لينفذوا من خلالها إلى تحقيق تطلعاتهم. وقد يثير هذا الاهتمام شهية المؤرخ للأخذ عنهم مع توخّي الحذر. فالمنصّرون قد اعتمدوا في هذا المجال على ما تراه عيونهم من

مظاهر الحياة الاجتماعية في المنطقة، والعين عادة لا ترى إلا ما درجت عليه ولا تستحسن إلا ما ألفته. ولا نجد في منشورات هؤلاء المنصّرين الكثيرة المتعددة أي دراسات متخصصة تسعى لاستكشاف ما انطوت عليه الظواهر. فما كتبوه في هذه الجوانب لا يزيد على كونه سرداً تخالطه آراء شخصية كارهة في الغالب للمنطقة وتراث إنسانها. ونعتقد أننا نخطئ خطأً فادحاً إذا استشهدنا بما أورده المنصّرون في ما يتصل بالإسلام ومذاهبه وطوائفه ومِلله، وفيما كتبوه عن المرأة وعن الرقيق أيضاً. رغم أن ما كتبه المنصّرون والرحالة عموماً في هذه المجالات الثلاثة يُمثّل المحرّضات الأساسية ضد معتقداتنا وتراثنا في الذهن الغربي، حين ننظر في قائمة منصّري الخليج الأمريكان لن نجد فيهم من درس فرعاً من فروع الفكر الإسلامي أو تخصّص في أي من مجالاته ليقدم نقداً عقلانياً يمكن أهل الاختصاص منّا من الرد عليه. يضاف إلى ذلك أنهم حين كتبوا تلك التقارير لم يقصدوا أن يخاطبوا بها المجتمعات الإسلامية ولا العقل العربي عموماً، بل كانت تخرّصاتهم تخاطب رؤساءهم ومن يدعمهم في بلادهم، ما يؤدي بهم إلى تشويه صورة الإسلام الذي تقضي مهماتهم نقض عراه في المنطقة. ظلّ حديثهم عن المرأة العربية حديثاً مكروراً تناولته أقلام سائر الرحالة الغربيين، من دون دراية منهم أن قضايا المرأة في عالمنا تختلف عن قضاياها في عالمهم. عانت المرأة الغربية قديماً من ظلم تراثها الذي عدّها نجسة، فكافحت لتساوي الرجل طهارة، ثم حين تمرّد الغرب بالثورة الصناعية على موروثات عصوره الوسطى وما عادت مسألة الطهارة تمثّل هاجساً كبيراً في تلك المجتمعات بعد أن ألهتها عنها المؤثرات الرأسمالية الطارئة، أخذت المرأة التي خرجت لتعمل مع الآلة تكافح كي تتساوى في الأجر مع الرجل. وهكذا كانت المساواة مطلباً للمرأة الغربية في تاريخها القديم والحديث. أما المرأة الشرقية التي لم تمر بتلك المراحل التي مرت بها الغربية، فهي صنو الرجل، وكانت العلاقة بين الجنسين - كما هي الآن -علاقة تكامل جسدين من نفس واحدة، لا يتطلّع أيّ من الجنسين إلى مساواة الآخر ولا أن يكونه. ولا ينفي ذلك وقوع حيف في بعض مجتمعاتنا على حقوق المرأة، ما يستوجب الإصلاح، ولكن ليس على الطريقة الأوروبية، فالداء مختلف، ولكل داء دواء يستطبّ به. أما ثالثة الأثافي التي يجب علينا عدم الالتفات إليها فهي ما اعتاد الغرب أن ينشره في بلادنا من مقولات لا تنمّ إلا عن نفاق حضاري لا يستوجب منّا إلا الازدراء. فنحن لا نستطيع أن نتخيّل أمريكياً، أبيض كان أو أسود، منصّراً كان أو مفكراً، يمكنه أن يتحدث عن سوء معاملة الرقيق، خاصة في الفترة التي كتب فيها هؤلاء المنصّرون قبل قرن من الزمان أو يزيد،. ففي ذلك الوقت كان عرق العبيد لا يزال يبلّل ثرى الأرض الأمريكية التي ارتوت به كما لم ترتوِ به أيّ بقعة أخرى في المعمورة كلها. أما رائحة التمييز العنصري عندهم ضد أبناء الرقيق فكانت، وربما لم تزل، تنتة تزكم أنوف العالم بأسره.

كتب المنصّر بول هاريسون في نشرة العربية المهملة، ٨٤، يناير - مارس ١٩١٣، في الغوص

عن اللؤلؤ في الخليج. وتحدث عن الأريج الذي ينتشر فوّاحاً من عبق قصص ألف ليلة وليلة حين تمر بالذاكرة خاطرة اللؤلؤ، مضيفاً أننا حين ننزل إلى أرض الواقع بعد التحليق مع تلك الهواجس الرومانسية، فلن يبقى من عبق ذلك الأريج ما يستثير الأنف. فهذا النشاط مثله مثل أنشطة عديدة في هذا العالم "البائس" لا يحدّث مظهره عن مخبره، وما كان يمكن الشعراء، إذا وقفوا على حقيقة أمره، أن يتغنّوا به. "إنه لمن المثير أن يستشعر هؤلاء المبدعون كم يشقى هؤلاء البشر الذين يشاطروننا الإنسانية وهم يحصلون على أرزاقهم بنصب وكدّ وإرهاق، ثم يصبّ جهدهم في النهاية في خدمة إخوانهم في الإنسانية الأوفر منهم حظاً". وبعد هذه المقدمة الطريفة يبدأ المنصّر بالحديث عن الكويت التي تضم نحو خمسين ألف نسمة تقريباً يعيشون على الغوص والنشاطات المتصلة به. ويضيف أنه لا يملك إحصاءً دقيقاً للأعداد التي تخرج من الكويت للعمل في مناطق صيد اللؤلؤ، ولكن القنصل البريطاني يقدّرهم بنحو عشرين ألف فرد. أما البحرين فإنها تستضيف في مواسم الغوص ما يزيد على ضعف هذا العدد في كل سنة، بينما ترسل السواحل الفارسية إلى مواقع الغوص في الخليج أعداداً غفيرة من البشر لم يسبق لأحد أن عمل على إحصائها. ويسترسل هذا المنصّر فيقول:

> فإذا أضيف إلى هذا الجمع الوفير الذي يعمل في المناطق الشمالية من الخليج من يعملون بهذا النشاط ذاته إلى الجنوب من قطر وحول دبي، لهالنا حجم العاملين في هذه الصناعة التي تمثّل – في ما يبدو – النشاط الاقتصادي الرئيس الذي يعتمد على ريعه أهل الخليج كافة.

يحدثنا هذا المنصّر عن تقسيم الأرباح بين المتعاملين في هذا النشاط فيقول إن مالك قارب الصيد يتقاضى ٢٠% من صافي الإنتاج قبل حسم أيّ نفقات. وتحسب النفقات بعد ذلك وكافة التكاليف التي تشمل كل ما جرى إنفاقه من تجهيزات ضرورية للخروج إلى الغوص، بما في ذلك نفقات الطعام وما إليها، وتُحسم مما بقي بعد أن يستوفي مالك القارب حصّته. وتوزع الأنصبة بعد ذلك بواقع سهم لكل غوّاص، بمن فيهم الرئيس المسؤول الذي قد لا يكون مشاركاً في العمل بالغوص الفعلي إلا نادراً، أما السيوب الذين تقتصر مهمتهم على شد الحبل لجر الغواصين خارج الماء بعد كل عملية غوص، فيتلقى الفرد منهم نصف النصيب الذي يتقاضاه الغواص، وقد يزيد على ذلك أحياناً فيصل إلى ثلثي نصيب الغواص، كذلك يتقاضى شيخ البلدة من كل قارب نصيباً يماثل نصيب الغواص، وذلك نظير ما يقدّمه من حماية وتنظيم يجعله – من الناحية القانونية – شريكاً فعلياً في عمليات الغوص، ويضمن بذلك لخزينته دخلاً وفيراً. ويرى هذا المنصّر أن هذا التقسيم المتعارف عليه يُعدّ من الناحية النظرية عادلاً، "ولكننا نجد أن الرئيس في القارب هو الذي يتولى شراء المستلزمات قبل الخروج للغوص، وهو الذي

يشرف على عمليات البيع في نهاية الموسم، ما يتيح له فرصاً لكسب إضافي".

يسترسل هذا المنصّر فيقول إن ما يحصل عليه العاملون في هذا النشاط من مال في نهاية كل موسم يعتمد على الحظ. فهنالك قوارب يحصل كل من بحارتها على ألف ربية نتيجة صيدها الوفير الذي تعود به فيصيب ثراءً وسعة، وهنالك قوارب يعود البحار فيها إلى أهله خالي الوفاض، خلو محار قاربه من اللؤلؤ. "فإلى أي حدّ يمكن أن يكون مثل هذا النشاط مُرحّباً به؟ إن الغريزة الإنسانية التي تدفع الناس إلى المقامرة هي التي تؤدي دوراً كبيراً في حبهم للعمل في الغوص". فما إن يبدأ الموسم حتى يترك كل فرد منهم العمل بأي شيء آخر وينصرف إلى الغوص، حتى إن الإنسان لن يجد منهم من يمكنه أن يستخدمه في القيام بقضاء مهمة أخرى. "ففي السنة الماضية اضطر القنصل البريطاني إلى أن يتولى التجديف بنفسه، لأنه لم يجد من يستخدمه حين خرج إلى البحر". وبعد أن يخلص هذا المنصّر إلى هذا التبسيط المخلّ بهذا العمل الذي مثّل في ذلك الوقت عصب اقتصاد أهل الخليج كافتهم، يفيد بأن عامل النظافة وطباخ المستشفى في البحرين قد هجرا المستشفى في ذلك الموسم لينخرطا في هذا النشاط الذي يراه المنصّرعلى قدر كبير من المشقة والخطورة. فالغواص يقضي سحابة يومه كلها في الماء، وما إن يخرج منه إلى السطح حتى يعود إلى البحر مرة أخرى ليغوص إلى أعماق تصل إلى خمسة وسبعين قدماً. ولا يتناول العامل في القوارب طيلة يومه من الزاد سوى تمرتين أو ثلاث مع بعض القهوة المرّة. أما إذا أقبل عليه الليل، يمكنه أن يتناول قدراً زهيداً من الطعام أكثر مما سبق له أن تناوله في يومه، ثم يخلد بعد عناء النهار إلى النوم وهو يزاحم أخيه في حيّز ضيق غير مريح، ليصحو في اليوم التالي على مواجهة مشاق ذلك العمل المضني. ويضيف هاريسون: "إن الأمراض التي تصيب الغواص جرّاء عمله متعددة"، ويمكن أن نرى في شبه الجزيرة العربية بعد انقضاء موسم الغوص – كما يقول هذا المنصّر – مرضى يحملون أمراضاً باتت منقرضة في العالم. ونجد أيضاً عدداً من الغواصين من الذين نالت منهم أسنان سمكة القرش، إضافة إلى آخرين منهم هلكوا اختناقاً. ويضيف هذا المنصّر أنه سمع أن أربعة من الغاصة لقوا حتفهم في ذلك الموسم اختناقاً، لأن السيوب لم يتمكنوا من أن يجرّوهم إلى سطح الماء بالسرعة اللازمة. ومع كل تلك المخاطر، إلا أن الغوص – كما يقول – يكتسب في كل سنة معجبين جدداً، ويزداد عدد الغوّاصين سنة بعد أخرى.

يروي هذا المنصّر أنه حاول القيام بعمله التنصيري في أوساط الغاصة خلال الموسم، فاصطحب بائع الكتب وخرج في قارب كبير إلى الهيرات، إلا أنه مُني بخيبة أمل كبرى في ما يخصّ العمل الطبي والعمل التنصيري كليهما. فقد كان الجميع مشغولين "بالجوهرة العربية دون الجوهرة ذات القيمة العالية. حتى العلاج والدواء لم يجد من اهتمام أولئك العاملين إلا دقائق معدودات". ويضيف المنصّر أنهم قضوا تسعة أيام في البحر كان إصرارهم على العمل فيها

صادقاً، فزاروا حوالى مئة قارب خلعوا فيها أسنان البعض من العاملين وعالجوا بعضهم فارتاحوا "جسدياً". ويقول إنه توجه بعد ذلك إلى دارين، وهي مركز تجارة اللؤلؤ الرئيس في المنطقة الواقعة إلى الشمال من قطر، وذلك بعد أن تبيّن له أن "أفضل الطرق للوصول إلى الغوّاصين لا تكمن في زيارتهم في قواربهم، بل حين يعودون إلى المراسي". ويتحدث بعد ذلك عمّا قام به الصيدلاني المرافق له في دارين التي كانت تحت الإدارة العثمانية.

يمكننا أن نضيف إلى الموضوع السابق الذي نشره المنصّر بول هاريسون في الدورية التنصيرية الموسومة "شبه الجزيرة العربية المهملة"، في عددها الصادر في مارس ١٩١٣ الذي يحوي تقارير عن نشاطات البعثة التنصيرية في الفترة من يناير إلى مارس، ما نشرته المنصّرة فاني لوتون في جمادى الآخرة ١٣٣٢/مايو ١٩١٤ في الدورية رقم ٨٩ عن نشاطات المنصّرين عن الفترة إبريل – مايو ١٩١٤. كتبت تلك المنصّرة في موضوع بعنوان: "مسقط تذرف الدموع"، تناولت فيه جانباً يتصل بالحياة الاجتماعية في مسقط التي كانت في وداع سلطانها الذي توفي بينما كانت البلدة تواجه مخاطر كبيرة تهبّ عليها من ظهيرها العماني. تبدأ لوتون بالقول إن مسقط تكاد تغوص في دموعها لوفاة سلطانها الذي لم تذكر اسمه، ولكن الملابسات تشير إلى أنها كانت تعني السلطان فيصل بن تركي المتوفى في الرابع من ذي القعدة ١٣٣١/٤ أكتوبر ١٩١٣. وتعرض المنصّرة الحالة السياسية المضطربة التي كانت تعيشها البلدة في الأيام التي سبقت وفاة السلطان والشائعات الخطيرة التي راجت من أن القبائل العمانية التي تعمر الداخل قد اتخذت قرارها بعزل السلطان، وأنهم قد استولوا على عدد من المراكز المهمة بعد أن سلّمت لهم في الظهير العماني مدينة بعد أخرى، وأن الثوار باتوا يشقون طريقهم بنجاح تجاه قلعة مسقط بعد أن خسر السلطان أرضه في عمان الداخل وفقد دعم رجاله. وتضيف أن أهل مسقط قد غدوا في أمر مريج وسادهم الذعر، بعد أن تناهت إليهم الأخبار أن الثوار أوشكوا على اجتياح مسقط. فقد نزح المواطنون الذين كانوا يقيمون على تخوم مسقط من تلك المناطق حاملين أمتعتهم معهم واجتازوا بوابات المدينة لاجئين إلى مسقط طلباً للنجاة. وتوقفت الحياة في المدينة توقفاً تاماً، وأغلقت الحوانيت أبوابها. وتحكي المنصّرة عن تدخل الحكومة البريطانية لحماية السلطان، وتفيد بأن تلك الحكومة أرسلت له كتيبة من قواتها لترابط في مطرح "المدينة التي تقع عند الأبواب الطبيعية للجبال الواقعة بين مسقط والمنطقة الداخلية من عمان".

تستطرد المنصّرة فتقول إن السلطان بات تحت وطأة الزخم الذي حملته تلك الأخطار التي فاقت قدرته على الاحتمال ملازماً سرير المرض، أما الناس فقد باتت تساورهم الشكوك في أنه يمكن أن يتعافى ويتمكن من مقابلة تلك الأخطار الطارئة. قالت المنصّرة إنها بينما كانت في منزلها في صحبة بعض النساء العربيات، سمعت صراخاً عالياً، فخرجت تهرول مع صويحباتها يستطلعن الخبر، فقيل لهن إن السلطان قد تُوفي. وتعالى الصراخ من كل جانب في البلدة، واشتد

النحيب وعمّ العويل الأفق، "ولن أنسى ما حييت أصوات تلك الصرخات" التي اجتاحت المدينة بأسرها، و لم يبقَ في مسقط كبير ولا صغير في أي مسكن يقطنه غنيٍ ولا فقير إلا كان يضجّ بالنواح والعويل، وبات الصراخ المنبعث من كل فجّ في المدينة متصلاً بعضه ببعض قوياً يصمّ الآذان.

تقول المنصّرة إن الغربيين ليست لديهم فكرة عن أساليب الحداد عند الشرقيين، ولذلك فقد تولّت تصوير تلك الممارسة للذهن الغربي. فالناس في الشرق يولولون وينتحبون في الطرقات والساحات العامة ويضربون على صدورهم، ولن تجد فيهم من ينتحي بنفسه جانباً ليذرف الدمع في صمت ويتألم في عزلته لما أصابه من فقد. هجر الناس في هذه المناسبة الصاخبة أعمالهم وتجمهروا في الطرقات التي ازدادت ازدحاماً حين غصّت بالأطفال، وترى الجموع المضطربة تجري هنا وهناك وهي تحار إلى أي اتجاه تذهب.

جاءت الأخبار بعدئذ أن السلطان لا يزال حيّاً يرزق، وحين استبانت الجموع صحّة الخبر هدأت وخمدت أصوات النحيب والنواح. وتروي المنصّرة أنها عرفت لاحقاً من بعض النساء اللائي كنّ في القصر أن شائعة وفاة السلطان قد ترامت إلى الجمهور من القصر. فقدْ فقَدَ السلطان الوعي لعدّة ساعات في ليل السبت، فظن من كان بقرب سريره أنه قد فارق الحياة، فنعوه في الساعات الأولى من الصباح، وأخذوا في البكاء، وساد النحيب القصر. وطار الخبر من ثمّ إلى الباز ثم انتشر ليعمّ المدينة بأسرها، وسرعان ما غاصت مسقط كلها في الدموع "حقيقة لا مجازاً. لقد جال في خاطري في تلك اللحظة أن هذا العويل والنواح والصراخ ينبع من حب الجمهور للسلطان، ولكن – في حقيقة الأمر– فإن نواحهم مصطنع تماماً، مثل دينهم الذي يتلاشى ويسقط بالتقادم".

تشبّث السلطان بالحياة طوال ذلك اليوم، ولكنه فارقها في منتصف الليلة التالية.

وأخبرتني زوجته بعد ذلك أنهم قضوا ما بقي من الليل حول الجثمان المسجّى، و لم يعلنوا خبر نعيه أو يبدأوا بالصراخ والعويل إلا في الساعة السادسة وخمس دقائق. وقد استعصى عليّ أن أفهم كيف أن الساعة وتوقيتها تتحكم في نعي السلطان.

وتضيف المنصّرة أن الجنائز في البلاد الحارة تتحلل بسرعة، ما يجعل الناس يسرعون بها إلى المقابر. وهكذا فقد راح موكب جنازة السلطان يشقّ طريقه في الساعة التاسعة صباحاً عبر بوابة المدينة إلى المقبرة الملكية. وظلّ النعش الذي تبعه عدد غفير من المشيعين يتعثر في طريقه، فقد أخذ يُنقل من كتف إلى آخر من أكتاف الرجال الذين كانوا يتوخّون الثواب من وراء تزاحمهم على حمله. وتعالت أصوات النواحِ والعويل والأنين من ذلك الموكب، فملأت أفق المدينه ضجيجاً، وراح البعض يصرخ ناعياً: يا أبا اليتامى، يا أبا الفقراء والمساكين، يا أيها السيد. و لم يهدأ الصراخ أبداً ولا لثانية واحدة إلا ريثما يستجمع الناس أنفاسهم ليبدأ الصراخ من جديد،

حتى بُحّت الأصوات. "لقد قابلت إحدى الخادمات بعد عدّة أيام من هذا الحدث، و لم تكن قد استرجعت صوتها بعد".

بعد أن وُوري الجثمان في الثرى، فتح قصر السلطان أبوابه لكل من هبّ ودبّ، و لم يبقَ في البلد غني أو فقير إلا قصد القصر لتقديم واجب العزاء. وظلت أبواب القصر مشرعة لاستقبال المعزين لثلاثة أيام متتالية. وتضيف المنصّرة أنها قصدت القصر في هذه المناسبة عدّة مرات، وكان دخولها إليه يسبّب في كل مرة استئناف زخّات من العويل والنحيب والصراخ. وتقول إنها جلست في إحدى المرات بقرب خادمة كانت تنتحب وتبكي وتلطم وتضرب رأسها بكلتا يديها وهي تندب السلطان وتولول وهي تصرخ: يا سيدي، يا حبيبي، يا أبا ولدي، يا من مات بالفُواق! وما زالت تلك الخادمة تكرر هذه العبارة الأخيرة، ما أثار دهشة المنصّرة التي سألت ابنة السلطان عمّا تعنيه الخادمة بذلك، وعرفت منها أن أباها قد ظلّ خلال اليومين الأخيرين من حياته يعاني من الفواق. وتتحدث المنصّرة عن ازدحام القصر بالنائحات اللائي تجمهرن فيه للعزاء، حتى خيّل إليها أن كافة نساء مسقط كُنّ هناك، وما عاد الإنسان في بعض الأحيان يجد مكاناً في باحة القصر يسعه للوقوف فيه. وحين انقضت الأيام الثلاثة المخصصة للعزاء، ختمت بتقديم وليمة كبرى للمعزين كافتهم، وكانت الوليمة بمثابة التعبير الأخير عن التقدير والثناء للسلطان المتوفى.

نعتقد – بدورنا – أن ما قدّمته هذه المنصّرة لا يزيد على صورة كاريكاتورية لمشهد حزين لا يمكن أن يعبّر عن واقع الحال. فالظروف الأمنية التي ودّعت فيها مسقط سلطاناً أحبّته إلى مثواه الأخير كانت قاسية، ما زاد في هلع أهل المدينة وجزعهم. ومع ذلك، فمن المؤكد أن هذه المرأة قد ضخّمت الحدث وبالغت في تصويره، إضافة إلى أنها عمدت إلى التعميم حين قالت إن الصورة التي قدّمتها قصدت بها تصوير الحداد عند الشرقيين، وما ندري عن أي شرقيين تتحدث، أعرب شرقيّو هذه المرأة أم هنود؟ وإذا توهمنا أنها تتحدث عن عرب شبه الجزيرة العربية لأنها تنقل هذه الصورة الدرامية عن المساقطة، فهل يعقل أن عرب شبه الجزيرة العربية كلهم يجزعون عند موت سلاطينهم أو أي عزيز لديهم ويضربون صدورهم ويعذبون موتاهم بصراخهم ونحيبهم؟ وفي اعتقادنا أن هذه المنصّرة بالغت لتلصق البدائي والغريب بالشرقيين، وتعزف على الوتر الذي عزف عليه كافة الرحالة قبلها، لتدهش القارئ الغربي وهي تحدثه عن عالم آخر غريب عنه لا يشبه عالمه، عالم غير صادق حتى في حزنه ومشاعره الإنسانية، يعبد ما لا يعبدون، ويقتات تراثاً مزيفاً! وفي الحقيقة، عادة ما يكسر المنصّرون رتابة سردهم بذكر بعض الطرائف والمفارقات عن هذا العالم البدائي الذي يعملون في خدمة القضاء على دينه الذي ينعتونه بالفج الآيل إلى الزوال.

كتب الطبيب بول هاريسون أنه في فترة وجوده مسؤولاً عن الإرسالية في عمان، كان قد

نصح أحد الشيوخ بإجراء عملية في بعض أسنانه، فما كان من ذلك الشيخ إلا أن طلب أن تُجرى العملية أولاً لأحد عبيده ليطمئن إلى نجاعتها أولاً قبل أن تُجرى له. ولعلّ في ذكر المنصّر لهذه القصة التي ربما كانت طريفة، من اللمز ما لا يفوت على فطنة القارئ. ولهذا الطبيب أيضاً أكثر من قصة مع الحمير، فحماره الذي كان يمتطيه عبر ممرات جبال عمان كان - كما يصفه - ثابت الخطى كأنه العنز حين يسير، وهو يشمّ مواقع أرجله كأنه الكلب. ويحكي هاريسون عن حمار آخر كان مصاباً بالهزال قدّمه صاحبه إلى الإرسالية نظير أجرة علاج حصل عليه. ومضت عدّة أسابيع تعهدت فيها الإرسالية ذلك الحمار وأفاضت عليه من العلف ما جعله أكثر قوة وأغلى ثمناً، قبل أن يأتي "ذلك العربي" ليسرقه ويعود به إلى داره مرّة أخرى. وفي الحقيقة فإن سر اهتمام هاريسون بالحمير يصعب على الفهم، إلا إذا كانت هناك - ربما - صلة ما قد يدركها المتابع لمقالاته الفجّة عن الإسلام وأهله، وطرائفه الممجوجة عن العرب الذين يقول إنّه قدم لمعالجة أوجاعهم الجسدية والروحية.

لم تكن تقارير المنصّرين إلى رؤسائهم في الوطن أو كتاباتهم في نشراتهم إلى مواطنيهم مقصورة على أخبار جولاتهم للقيام بمهماتهم التنصيرية وبيع الأناجيل وعلاج ما يتمكنون من علاجه من المرضى. فقد شملت بعض تلك التقارير صوراً من الحياة الاجتماعية يمكننا اعتمادها بعد تجريدها من الزيف والمبالغة والتهجّم على الإسلام وأهله، كما شملت تقاريرهم أيضاً جوانب من الحياة السياسية في الخليج الذي كانت حكومة الهند البريطانية القوّة الفاعلة فيه تلك الأيام. ولعلنا ذكرنا في هذا المجال المنصّر صموئيل زويمر الذي كان يهتم اهتماماً خاصاً بالحياة الاجتماعية في المناطق التي يزورها، ويعمل على نشر ملاحظاته عنها في المجلات العلمية في الغرب، ولا يقصر نشرها على المجلات التنصيرية كما فعل كافة المنصّرين من زملائه في المنطقة. ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى ما كتبه هذا المنصّر في المجلة الجغرافية، المجلد التاسع عشر، لعام ١٩٥٢م بعنوان "ثلاث رحلات في عمان الشمالية"، وقد تثير انتباهنا في هذا المقال صورة أبو ظبي التي زارها المنصّر - كما أسلفنا القول - في عام ١٩٠١م وقال إنها تضم نحو عشرة آلاف نسمة كلهم من العرب والزنوج، مع وجود عدد من بنيان السند لا يتجاوز اثني عشر رجلاً. وأضاف أن المدينة تضم قلعة الشيخ وجملة من المنازل لا يزيد عددها على أصابع اليد الواحدة، أما ما بقي من المدينة التي تمتد على حوالى ميلين على الساحل، فهو عبارة عن أكواخ من حصائر مجدولة. وحدثنا زويمر عن زايد بن خليفة، شيخ هذه المدينة المسن، وزوجاته الأربع وأولاده الاثني عشر. وروى زويمر أيضاً عن العرب الذين رافقوه في رحلته إلى البريمي والذين كانوا يعافون تناول الطعام المحفوظ في العلب ويفضّلون عليه لحم السحالي الطازج حين يجدونه ويطبخونه مع الأرز. وفي معرض حديثه عن التسامح الديني في منطقة البريمي، يذكر أن أهل المنطقة لم يترددوا في فتح مسجدهم له لتقديم موعظته فيه. كان زويمر المولود في

٧ ذي الحجة ١٢٨٣/١٢ إبريل ١٨٦٧ في مريلاند – ميشيغان والمتخرج في بعض الكليات التنصيرية بالدرجة الجامعية ثم بدرجة الماجستير بعد ذلك، غزير الإنتاج في ما يخصّ الكتابة عن التنصير في أوساط المسلمين، مع اهتمام خاص بالخليج العربي والبحرين حيث عمل في هذه المنطقة بنحو مباشر في الفترة ١٨٩١-١٨٩٥م. وقد انتخب عضواً في الجمعية الجغرافية الملكية بلندن للترابط العضوي بين ما تهتم به هذه الجمعية من حركة الاستعمار العالمي والتنصير في مناطق الاستعمار والهيمنة والنفوذ البريطانية. أسّس زويمر دورية العالم الإسلامي التي كانت تصدر كل ثلاثة شهور، وتولى بنفسه تحريرها لمدة خمسة وثلاثين عاماً متصلة، وكان أحياناً ينفق على إصدارها من حرّ ماله، فقد كان يؤمن بالحرف وسيلة مثلى لنشر التنصير في أوساط المسلمين. ومن أجل ذلك نراه يستقر في عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م لسنة كاملة في القاهرة للعمل مع مطبعة النيل للتنصير، وأسس أيضاً الجمعية الأمريكية للأدب النصراني الموجّه للمسلمين، وأشرف على جمع التبرعات لها. وعُيّن زويمر في عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م أستاذاً لعلوم التنصير وتاريخ الأديان في كلية برنستون النصرانية. وقد أصدر زويمر ما يقرب من خمسين كتاباً في علوم التنصير في البلاد العربية ومناهجها وفلسفة التنصير وقواعده. وظلّ زويمر نشطاً في مجال الكتابة حتى هلك في ٧ رجب ١٣٧١/٢ إبريل ١٩٥٢ في نيويورك عن أربعة وثمانين عاماً.

لا تتّسم كتب زويمر في نقد الإسلام، التي وقفنا عليها، بالموضوعية التي يعمل المستشرقون – ما وسعهم – للالتزام بها، ولا تتميز بالعقلانية حين تتناول أي قدر من المسائل المتصلة بهذا الموضوع، فهي مزيج سخيف من السباب للمسلمين والإساءة إلى أسس الدين الإسلامي. ولا ينفي ذلك أنه حين يكتب في الجوانب الاجتماعية كان يعمل – ما أمكنه ذلك – على التزام الموضوعية، لا يحيد عنها غالباً إلا حين يذكر أيّ مسألة لها ارتباط قريب أو بعيد بالإسلام. ونجد له في كتابه الموسوم بـ **شبه الجزيرة العربية – حاضنة الإسلام، دراسة في الجغرافية والناس والسياسات في شبه الجزيرة مع رصد للإسلام والعمل التنصيري**، بعض الدراسات المهمة في الحياة الفطرية والنباتية والحيوانية في الخليج وبعض الدراسات الجادة في العمران والمسالك والدروب، حين لا يتصل الأمر بمكة المكرمة أو المدينة المنورة. ويمكن النظر في بعض الموضوعات الواردة في الكتاب المذكور، ومنها ما كتبه عن الإبل العربية، وهو يتحدث عن المسالك والدروب في البلاد العمانية. يحدثنا عن شهرة الإبل العمانية، وأن موطنها عمان، حتى إن الأرض العمانية باتت تعرف بأم الإبل. ويستشهد زويمر ببالجريف وداوتي وغيرهما من رحالة الغرب الذين قطعوا بأن إبل عمان هي خير الإبل، وينقل عن داوتي أن إبل عمان تجد في مكة تقديراً خاصاً يرفع أثمانها إلى ثلاثة أضعاف أثمان الإبل التي تنشأ في غير عمان. ويعتقد زويمر أن المرء لا يستطيع أن يفهم العربي ولا لغته من دون أن يعرف الجمل الذي تغدو الحياة في شبه الجزيرة العربية مستحيلة من دون وجوده. ويذكر صموئيل أن هامر بيرجستول (يشير إلى مستشرق

نمساوي ١٧٧٤ - ١٨٥٦م) تمكن من أن يحشد في قاموسه ٥٧٤٤ اسماً مختلفاً للإبل، ويرى زويمر في ذلك دلالة على أن اللغة العربية كانت ستكون مختلفة من دون ذكر الإبل، "فلن تجد في القاموس العربي صفحة واحدة تخلو من إشارة إلى ذكر الإبل". ونحن قد لا نناقش هذا الأرعن في صحة استنتاجه بالنسبة إلى ما يخصّ اللغة، ولكننا نرى أن القاعدة التي بنى عليها كانت كاذبة. فعلى الرغم من أننا لم نستطع الوصول إلى القاموس المذكور، فإننا لا نستطيع أن نحصر للجمل في العربية كل تلك المفردات، ونظنّ أن هذا الرجل، أو الآخر الذي نقل عنه، قد كذب وبالغ، ففي المبالغة ما يثير الدهشة والاستغراب. ويذهب زويمر إلى القول إن العرب يكنّون تقديراً كبيراً للإبل، ولكنهم لا يعجبون بشكلها ولا بطبيعة تكوينها. وينقل صموئيل زويمر في هذا الصدد عن بيرتون، ما يقول إنّ الأخير قد اقتبسه من المتواترات العربية، أن "الله" تعالى جل شأنه حين أراد أن يخلق الحصان نادى على ريح الجنوب قائلاً أريد أن أخلق منك كائناً جديداً فتخلّي عن مرونتك وكثفي سيولتك. وحين استجابت الريح للأمر، أخذ الإله قبضة من هذا العنصر المتحوّل ونفخ فيه نفس الحياة فظهر إلى الوجود هذا الكائن ذو الأربع قوائم. و"احتج الحصان على صانعه" بأن رقبته قصيرة لا يُمكنها أن تمتد بعيداً لتطال أوراق النبات البعيدة لترعاها وهي سائرة في طريقها، كما احتجّ أيضاً أن ظهره بغير سنام يمكن أن يثبّت عليه رباط السرج، وشكا من أن حافريه حادّان ينغرسان في الرمال ولا يصلحان لقطعها. وظلّ الحصان يشكو لخالقه من أشياء عديدة انتابت خلقه، ويحتج بأنه غير راضٍ عنها. وخلق "الإله" الجمل ليثبت للحصان أنه كان غبياً حينما اشتكى من خلقته ومظهره. فحين أبصر الحصان الجمل ارتعد وراح يجفل عندما لمح هذا الشكل الكاريكاتوري الذي جسّده الجمل. ومرة أخرى نعتقد أن الرجل كاذب، لأنه ربما نقل قصة عن غربي من أمثاله من الرحالة وغيرهم ونسبها إلى القصص الشعبي في الجزيرة العربية، الذي نقطع بدورنا أن فكرة احتجاج مخلوق على الخالق لا يمكن أن ترد فيه أبداً، ولكن صياغة قصة طريفة على هذا النمط تداعب الخيال الغربي وتتحف المنصّر بالغريب وتنال - في الوقت نفسه - من صورة الإسلام والمسلمين. ويعود زويمر إلى القول إن في لفظ الجمل ما يفيد الاشتقاق في اللغة العربية من الجمال، ولكنه يصرّ مع ذلك على قبح هذا الحيوان "المفيد بصورة مدهشة". ويضيف أن هذا الحيوان يوجد في مناطق متفرقة من العالم، في آسيا الصغرى وأفغانستان وبلوشستان ومنغوليا وغرب الصين وشمال الهند وسوريا وتركيا وشمال أفريقيا، كما يوجد أيضاً في بعض مناطق إسبانيا، ولكنه لا يلقى في أي من هذه المناطق ما يلقاه من عناية في شبه الجزيرة العربية. ويستطرد فيحدثنا عن الإبل ذات السنام الواحد والأخرى ذات السنامين، ويرى أن كلاً منها مؤهّلة للعيش والاستجابة لبيئة منطقتها. فالوبر الكثيف الطويل في الجمل ذي السنامين يجعله يتحمل شدة البرد، "ويقال عنه إنه يلتهم الجليد حينما يكون عطشاناً"، أما الجمل العربي ذو السنام الواحد الذي لا يحتمل البرد، فهو المؤهل

لاحتمال العطش وشدة القيظ، فوبره قصير، و"لا يحتاج العربي إلى أن يكون لجمله سنامان". ويرى زويمر أن التمايز بين الإبل في شبه الجزيرة العربية إنما يكون بالدم وجودة السلالة. وأخبر أن هناك نوعين من الإبل في شبه الجزيرة العربية، تلك التي تصلح للسباق والأخرى التي تتخذ لحمل الأثقال، والأخيرة ثقيلة الخطو خرقاء صعبة المراس، وهي عماد القوافل العربية، أما الذلولات فهي لتحقيق عنصر السرعة في قطع المسافات. فبينما تقطع إبل القافلة ثلاثة أميال في الساعة ولا تواصل سفرها لأكثر من ست ساعات في اليوم، فإن الذلول الجيدة تقطع سبعين ميلاً في اليوم الواحد في مرحلة واحدة. وينقل عن داوتي قوله إن تاجراً روى له أنه ركب من القصيم إلى الطائف وعاد من هناك في حوالى أسبوعين، أي إنه قطع مسافة حوالى سبعمئة ميل في خمسة عشر يوماً. كذلك روى بعضهم أن الساعي يمكنه نقل رسالة من معان عبر طريق الحج إلى دمشق، وهي مسافة تبلغ حوالى مئتي ميل، في ثلاثة أيام فقط.

الجمل لدى البدوي - كما يقول زويمر - أعظم نعمة أنعمها الله عليه، فكل ما فيه يدل على عظمة الخالق. فرقبته الطويلة تتيح له مدى رؤية بعيدة تُمكّنه من النظر إلى مسافة بعيدة عبر المتاهات الرملية، كما تمكّنه هذه الرقبة الطويلة من التقاط عشب الصحراء الشحيح على جانبي الطريق وهو سائر في طريقه من دون توقف. ويُمكنه نسيج فمه الغضروفي من أن يرعى نباتات الصحراء الشوكية القاسية. أذناه صغيرتان جداً، أما فتحتا منخرية فكبيرتان لتُمكّناه من التنفّس بسهولة بعد تكييفهما الهواء وهما مزوّدتان بطبقات شبيهة بالصمام تجعلهما مهيّأتين للإغلاق خصوصاً ضد رياح السموم في الصحراء. عيناه ناتئتان بشكل بارز، لكنهما محميتان بجفنين علويين يقللان مدى النظر إلى الأعلى، فيمكنه أن يتّقي بذلك الشعاع المباشر الذي ترسله شمس الظهيرة، خفّاه مزوّدان بواقيات ارتجاج بما يشبه "المرتبة"، ما يهيّئ للحيوان وراكبه الراحة. وله ثفن عبارة عن وسائد عظمية رقيقة يتّكئ عليها حين يبرك إن أراد أن يستريح أو حين يُراد وضع الأحمال عليه. أما سنامه فلم يُخلق سدى، فهو خزان حقيقي معروف للغذاء، وهو بعد مكان تثبيت السرج لحمل التجارة والتجار عبر الزمن، وما معدة هذا الحيوان إلا خزان يُمكّنه في ظروف الجوّ البارد من أن يسافر لمدة خمسة أيام من دون أن يحتاج إلى ورود الماء. يضاف إلى كل هذا - في ما يقول زويمر - أن الجمل هو الحيوان المجتر الوحيد الذي له قواطع في فكه الأعلى، وهي من خلال توافقها بشكل خاص مع أسنانه الأخرى تمكنه من العضّ حين يريد أن يدافع عن نفسه، ويلاحظ أن عضّته خطرة جداً. وينتهي زويمر إلى القول إن في الهيكل العظمي لهذا الحيوان دلالات كثيرة تدل على دقّة صنعة الخالق، وكأني بهذا المنصّر يستعير معنى ما ورد في الآية الكريمة: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت". ويأخذ زويمر في النظر إلى العمود الفقري المتقوّس في الجمل الذي يجعل من السهل وضع دعامتين عليه يُمكنان الحيوان من أن يحمل ثقلاً يتناسب مع جسمه. ويخبر زويمر أن الجمل القوي يستطيع أن يحمل ألف رطل،

ولكنه - في عمان - لا يُحمّل بأكثر من ستمئة رطل، ويرى أن الجمل حيوان مدجّن أليف يخدم العربي ويقوم له بكافة احتياجاته، فكل ما في هذا الحيوان يُعدّ ذا قيمة كبيرة للبدوي، فهو يرتوي من لبنه، فلبن النوق هو الغذاء الرئيس لآلاف البدو في شبه الجزيرة العربية، رغم أنه قد يكون مرّ المذاق أحياناً إذا رعت النوق نباتات لها هذا الطعم. وينسج البدوي خيمته من وبر الإبل، ويتخذ من وبرها أيضاً حباله وطنب خيمته، ومنه أيضاً ينسج ملابسه و"شلاته"، ويهيّئ بعر هذا الحيوان للبدوي ناراً تتّقد. وعندما لا يتوافر الماء للبدوي "البائس" فإنه يغسل يديه بأبوال هذا الحيوان الذي يستحم أطفال البدوي منه أيضاً. ولا يقتصر ما ذكر على كل ما يمكن هذا الحيوان الحي أن يقدّمه لصاحبه، فحتى أثر خُفّه المعرّض للطمس سريعاً في الصحراء له قيمة حقيقية في حياة البدوي، فكراع أخف من كراع الجمل لا تستطيع أن تترك في الرمل ذلك الأثر العميق الذي يحدثه خف الجمل، فيهيّئ المعلومة لقاص الأثر لتتبع سير سفينة الصحراء ومعرفة دروبها. ولا مناص من القول - كما يقول زويمر - إن الأثر يمثّل لدى بدو القوافل الحديث الدائم، والقيل والقال، والعلم والتاريخ والفلسفة. أما إذا نحر البدوي جمله، فإنه يستفيد من لحمه في غذائه، ومن جلده في خبائه، ومن عظمه وكافة ما ينتج عن الذبيح من مخلفات في تدبير احتياجات البادية.

يدخل صموئيل في سفسطة حين يتساءل عن هذا الحيوان. هل هو طيّب أم شرير؟ وفي هذا الصدد نراه يعرض آراء بعض الرحالة الغربيين الذين سبقوه في الرحلة على أكوار الإبل، ولكنه لا يذكر شيئاً من آراء البدو الأوجب ذكراً في هذا المجال. يقول إنّ الآراء فيه تشتجر، ويذكر أن آن بلنت ترى أن هذا الحيوان مظلوم لم يُوفَّ حقّه من التقريظ، فهو الحيوان الأوفر صبراً من بين هذه المخلوقات. أما بالجريف فيراه حيواناً أخرق بليداً سيّئ السلوك، ويذكر أنه كان قد سمع في بريطانيا قبل أن يأتي الجزيرة العربية أن الجمل حيوان أليف، فإذا دلّ لفظ أليف على معنى بليد فهذا قول صائب، إذ يمكن أن يُقال إن الجمل يُمثّل النموذج الأقصى للألفة لفرط بلادته. ولكن إن كان المقصود من اللفظ أليف الذي وصف به هذا الحيوان أنه مدجّن توافر على الاهتمام براحة راكبه كما يجب أن يكون حيوان الركوب الطيّع مثل الحصان أو الفيل، فذلك لا ينطبق على الجمل، فما طاعته لراكبه إلا استسلاماً منه له أو تقاسماً لغرض نفعي معه. فالجمل، على أيّ من هاتين الحالتين، لا يمكن اعتباره حيواناً أليفاً، بل عكس ذلك تماماً. فهو لن يحاول أن يجدعك من على ظهره لأن الاحتيال لفعل ذلك يفوق إدراكه المحدود، أما إذا حدث أن سقطت عن ظهره فإنه لن يعبأ بك ولن يفكر للحظة في أن يتوقف. وإذا وجد الجمل خطامه قد فُكّ عنه فإن إدراكه لن يسعفه ليجد بنفسه طريقه مرة أخرى إلى موطنه أو مرعاه. ويضيف زويمر على لسان بالجريف أن هناك علامة بارزة واحدة تشير إلى أن الجمل يحسّ براكبه، وذلك أنه حين يهمّ بامتطائه تراه يرخي عنقه الطويل تجاه سيده ويفتح فمه الضخم

ليعضّه إذا استطاع، وتراه وهو على هذه الحال يرغي كأنه يضجّ من الألم ويشكو ظلماً وشيكاً غير مسبوق يوشك أن يلحق به. وينقل زويمر عن بالجريف أيضاً قوله إنه يمكن القول "في كلمة واحدة إن الجمل حيوان متوحش غير أليف، ولا يُعدّ حيواناً خدوماً إلا لفرط بلادته فقط. فهو حيوان لا تؤثر فيه صحبة سيده ولا يألف عاداته، وأن تكون بلادة هذا الحيوان هي فقط السمة التي لم تجعله أكثر توحّشاً مما هو عليه". ويخلص زويمر إلى القول إنه يشهد أن الإبل التي اعتلى أكوارها في الأحساء أو اليمن كانت بصفة عامة أكثر "تعاطفاً" معه من حيوان بالجريف القبيح.

أما في مجال وصف المدن وتاريخها، فيمكن أن ننقل عن زويمر بعض حديثه عن جزر البحرين "التي تقع عند منتصف الخليج وأنت تبحر صاعداً قبالة المنطقة الواقعة بين شبه جزيرة قطر وساحل مقاطعة الأحساء التركية". ويشير إلى أن لفظ البحرين كان يطلق في ما مضى على كافة الأراضي التي تشكل المثلث الممتد على الساحل العربي لمياه الخليج المالحة التي تُحدّ بالمياه العذبة، ومن هنا – كما يعتقد – نشأ لفظ البحرين، المالح والعذب. ومع ذلك فإن لفظ البحرين ظلّ منذ فترة طويلة يدل على أرخبيل هذه الجزر وعلماً عليها. ويلاحظ زويمر أن بوركهاردت حين رسم خارطته قصر اللفظ على أرخبيل هذه الجزر فقط. واستقرّ اللفظ بعد ذلك علماً على أكبر جزر هذا الأرخبيل مساحة، أما الجزيرة الأخرى التي تلي الجزيرة التي عرفت بالبحرين مساحة فهي المحرق. ويروي العرب أن هذه الجزيرة الأخيرة عرفت بهذا الاسم لأن التجار الهنود اعتادوا حرق جثث موتاهم في تلك المنطقة. ويفيد زويمر أن طول الجزيرة الرئيسة في هذا الأرخبيل يصل إلى سبعة وعشرين ميلاً أما عرضها فعشرة أميال. وتتميز جزيرة البحرين بوجود هضبة في منتصفها طفيفة الارتفاع. ويرى أن الجزيرة مجدبة عموماً إلا في القسم الشمالي منها الذي هو وافر الري لتوافر الينابيع العذبة ذات المياه الفاترة في هذه المنطقة، ويمكن أن تشاهَد هنا حدائق النخيل والرمان وأصناف أخرى من الأشجار المثمرة. وتتميز المنطقة التي تقع على بعد اثني عشر ميلاً إلى الجنوب من بداية الساحل الشمالي لهذه الجزيرة بوجود كتلة بركانية سوداء يبلغ ارتفاعها حوالى أربعمئة قدم تسمّى جبل الدخان. أما الساحل فيتميّز بأنه منخفض، وتمتد المياه الضحلة إلى مسافة بعيدة منه، ما يجبر المركبات البحرية على أن تضع مراسيها في فترة الجزر على بعد حوالى ربع ميل من الساحل. ومع ذلك، لا نجد في هذا الساحل على امتداده رصيفاً لاستقبال المراكب ولا "أسكلة = فرضة". يقدّر هذا المنصّر سكان البحرين في زمانه بنحو ستمئة ألف نسمة كلهم من المسلمين، مع وجود بعض التجار البانيان الذين وفدوا إلى الجزيرة من السند لا يتجاوز عددهم مئة فرد. وتضم المنامة التي تقع في المنطقة الشمالية الشرقية من الجزيرة وتشغل مبانيها حيّزاً من الساحل يمتد طوله إلى حوالى ميل نحو عشرة آلاف نسمة من المذكورين. ولا تنمّ منازل المنامة عن ثراء كبير، فكثير منها أكواخ من حصير، وذلك رغم أن هذه البلدة تُعدّ المركز التجاري والسوق الرئيس لمجموعة جزر الأرخبيل مجتمعة. ففي هذه

المدينة التي تضم مكتباً للبريد ومكتب جمارك أيضاً تجري أغلب المعاملات التجارية الخاصة بهذه الجزر. ويلاحظ صموئيل زويمر وجود خرائب بالقرب من المنامة تعرف ببلاد الخادم، تدل بقاياها على أنها كانت ذات يوم أكثر عمراناً من المنامة، وتُظهر آثارها وجود جامع جميل ذي مئذنتين يعود تاريخ بنائه إلى زمن بعيد حكماً بالنقوش التي رسمت بالخط الكوفي، ويلاحظ أيضاً في بعض جدران المسجد وجود نقوش عربية تالية زمنياً لتلك التي كتبت بالخط الكوفي تغطّي النقوش الأقدم عهداً.

تُعدّ العذراى أكبر عيون الجزيرة، وهي تفيض من نبع يبلغ قطاع خزانه ثلاثين ياردة، أما عمقه فيبلغ ثلاثين قدماً على أقل تقدير. وتجري مياه هذه العين في نهر يتراوح عرضه بين ست وثماني أقدام ولا يزيد عمقه على قدمين. ويثير وجود مثل هذه العين الانتباه، لأن فيه دلالة على حجم الإمدادات المتوافرة من المياه إلى حدّ ما في هذه المناطق. أما في المحرق فتوجد تحت السطح عيون مياه عذبة تغطيها حوالى قامة من المياه المالحة. يضع المواطنون على فوهات هذه العيون عدداً من قصب الخيزران المفرّغ فتجد المياه العذبة طريقها عبر تجويفاتها وتفيض إلى ارتفاع يصل إلى عدّة بوصات فوق مستوى البحر. ويلاحظ أيضاً أن هذه الظاهرة تتكرر في ساحل جزيرة البحرين المواجه لشبه الجزيرة العربية حيث توجد هذه العيون التي تتدفق بالمياه الحلوة. ويعتقد صموئيل زويمر أن نهر أفتان، ذلك النهر الرسوبي الذي عرفه الجغرافيون القدامى والذي رسموه في مصوّراتهم الجغرافية وهو يتدفق بالمياه تجاه ساحل الخليج ليفرغها في البحرين هو ترجمة لهذه الظاهرة. ويرى زويمر أن مناخ البحرين ليس بذلك السوء الذي يصوّره به الشخص العابر لهذه الجزيرة، مع الاعتراف بأن مناخ الخليج الفارسي برمّته وخيم غير صحي، ولكن لا يمكن القول إن مناخ البحرين غير صحّي على امتداد السنة كلها. ففي مارس وإبريل، وكذلك في أكتوبر ونوفمبر وديسمبر، يغدو جو البحرين منعشاً، إذ لا ترتفع درجة الحرارة في اليابسة في هذه الفترات عن ٨٥ فهرنهايت إلا في ما ندر، ولا تتدنى عن ٦٥ ف. ومع ذلك، فإن نار الموقد يمكن أن تكسر حدّة درجة البرودة التي تسود شهري يناير وفبراير نتيجة لرياح الشمال التي تضرب الجزيرة في هذه الفترة. ويعتقد هذا المنصّر أن الشهور التي تهطل فيها الأمطار في البحرين هي التي تتلف الصحة، خاصة في أوساط المواطنين الذين يسكنون أكواخاً بائسة التشييد. ويضيف أن فترة موسم الحر في البحرين التي تمتد بين شهري مايو وسبتمبر تتميز بليل رطب، ويلطّف هبوب رياح "الباريح" من درجة شدة القيظ في الفترة الممتدة حتى منتصف يونيو. ويتساقط الندى ليلاً فيجعل الجوّ خانقاً بصفة قاسية حتى في اللحظات التي تهبّ فيها نسائم البحر بنحو متقطّع من اتجاهي الغرب طوال فترة الصيف. أما في اللحظات التي تركد فيها تلك النسمات، فسرعان ما تشير آلة قياس الحرارة إلى المئة درجة وتظل ثابتة على ذلك ليلاً ونهاراً لا تتراجع عنه، لتنفرج المعاناة التي يسبّبها الصهد الذي يهبّ من البحر إلا حين تعلن

الدوائر التي تتكوّن فوق سطحه بدء هبوب النسيم. ويخبر زويمر عن أحد تقارير الأرصاد الجوية لعام ١٨٩٣م أن درجة الحرارة قد بلغت في الظل ١٠٧ ف في أقصاها و٨٥ ف في أدناها. ويذهب إلى القول إن رياح الشمال (الشمالية الغربية) التي يتغيّر اتجاه هبوبها بنحو طفيف وفق اتجاهات سيف الساحل تسود البحرين، أو في الحقيقة تسود سواحل الخليج كلها. في هذه الفترة التي تهبّ فيها رياح الشمال يكون الهواء عموماً جافاً جداً ولا تبدي السماء أثراً للسحاب. وتتبدّل الحال عندما تهبّ هذه الرياح شتاءً، لأنها عادة ما تكون مصحوبة بزخّات عاتية من الأمطار، ما يسبّب خطراً على الملاحة. كذلك تهبّ على البحرين أيضاً في الفترة من ديسمبر حتى إبريل رياح جنوبية شرقية شديدة تسمّى كايوس. ويوافق فترة هبوب هذه الرياح عادة طقس كئيب فاسد الهواء ثقيله، تتخلله زوابع شديدة مفاجئة تجعل مؤشر الباروميتر يتراجع بسرعة كبيرة. وينقل زويمر عن بحارة الخليج قولهم إن الرياح في هذا الموسم إما أن تكون نشطة جداً أو راكدة البتة، "ويصدق هذا في الخليج على البحرين بصفة خاصة".

ينتقل صموئيل إلى الحديث عن صيد اللؤلؤ الذي اشتهرت به البحرين فيقول إذا كانت مصر هي هبة النيل، فإن البحرين هي هبة اللؤلؤ. فاللؤلؤ، وليس غيره شيء، هو الذي صاغ التاريخ القديم لهذه الجزيرة، وهو الذي يسبغ عليها الأهمية "في حاضرها". يمثّل صيد اللؤلؤ الحرفة الرئيسة لسكان البحرين الذين ينخرطون في العمل به في الفترة من يونيو إلى أكتوبر، بل قد تمتد هذه الفترة لأكثر من ذلك إذا امتدت فترة الحر والقيظ. ولن تجد في هذه الفترة في هذه الجزر إلا موضوعاً واحداً يُشغل به المواطنون كلهم ويدور على ألسنتهم في المقاهي وفي المجالس المختلفة حيث كانت، ألا وهو اللؤلؤ، هذه المادة التي لا تحتاج إلى لمسة الإنسان لتشعّ بهاءً وتتلألأ جمالاً. ويعرض صموئيل آراء العلماء في طريقة تكوين اللؤلؤ. فهم يرون أنه يتكوّن نتيجة لإفرازات غير عادية تتبلور داخل المحارة نتيجة لتهيّج الحيوان الرخو حين تداخله مادة غريبة عنه.

أما الخرافات العربية العجيبة التي حيكت حول هذا الموضوع والتي رددها شعراؤهم والتي لا يدهش المرء لسماعها فتقول إن الأمطار الموسمية التي تسقط على سواحل البحرين، ومثلها تلك التي تسقط في سيلان، ترسل قطراتها لتستقر في أفواه محار اللؤلؤ العطشى، فما تلبث كل قطرة تدخل إلى المحارة أن تستحيل لؤلؤة. ويقدّر العرب أن حجم ذرة القطرة التي تدخل إلى جوف المحارة هي التي تحدد حظ ذلك الصياد الذي يحصل في تلك المحارة على لؤلؤة كبيرة أو صغيرة. وبما أن اللؤلؤ في عرفهم هو نبت السماء الذي اتخذ أعماق زرقة البحر مهداً له، فإن تلك المادة تعدّ عندهم أنقى الأحجار الكريمة وأغلاها.

ويسترسل صموئيل ليقول إنه لا يشك في أن اللؤلؤ – في نشأته وتكوينه – حصيلة عناء يمتد إلى أسلوب تحريره من سجنه من المحارة التي ترقد على سطح يبعد غوره نحو عشر قامات تحت مستوى البحر.

يذكر صموئيل أن حساب هذا الدر الذي تعود به حوالى تسعمئة مركب تعمل بهذا النشاط في البحرين "بلغة الجنيه والشلن والبنس" يغدو يسيراً هيّناً. فالقيمة الكلية للؤلؤ الصادر من البحرين في عام ١٨٩٨ بلغت ٣٠٣٩٤١ إسترلينياً (١٥٠٠٠٠٠ ريال أمريكي). ويتطلب تجهيز المركب الذي يخرج لصيد للؤلؤ ٤٨٤٠ ربية (١٦٠٠ ريال أمريكي) وذلك على النحو الآتي:

حصة قارب الصيد : ٤٠٠ ربية

أجرة ١٠ غطّاسين : ٢٠٠٠ ربية

أجرة ١٢ عاملاً لجر الحبال : ٢٤٠٠ ربية

مستلزمات أخرى للمعدات : ٤٠ ربية

يلاحظ زويمر أن العاملين في الغوص لا يحصلون على قيمة تكافئ جهودهم، فهم – في تقديره – الضحية الأولى "أو ما يمكن تسميته سقط المتاع في أبشع صوره". يقع على هؤلاء العمال أن يشتروا كل المؤن التي يحتاجون إليها من سادتهم، فيقعون في الدين، وكم أذلّ الدين أعناق الرجال. فالرجل من هؤلاء العاملين يغدو كأنه العبد للسيد التاجر المدين. فمراكب الصيد هي في العموم ملك للتجار ولا يصيب البحارة العاملون عليها من جهدهم في الغوص إلا نسبة ضئيلة من المال، ولا يحصلون فوق ذلك على أي بدلات إضافية إلا حين يتمكن أحدهم من العثور على لؤلؤة ذات حجم مميّز أو بريق خاص. ويضاف إلى هذا أن هؤلاء العاملين يتعطّلون في موسم الشتاء، فيضطرون إلى الاستدانة مجدداً لسدّ حاجاتهم في هذه الفترة، فتثقل كواهلهم الديون الباهظة التي تتراكم عليهم، وتُقيّد حسماً على حسابهم للموسم التالي. وبناءً على ذلك، فإن الثلاثين ألف عامل الذين يعملون على أكثر من خمسة آلاف مركب لا يصيبون من عملهم إلا الكفاف، أما الربح الوفير فيصبّ في جيوب أولئك الجالسين في السواحل من السماسرة العاملين لحساب بومباي والمتعاملين مع أسواق برلين ولندن وباريس. وترتفع قيمة اللؤلؤ المادية إلى ثلاثة أضعافها حين تتبادلها هذه الأيدي حتى وصولها إلى أسواق بومباي.

يفيد زويمر بأن الغواصين يؤدّون عملهم بأساليب موغلة في البدائية، فمراكبهم لا تزال على شاكلة تلك التي استخدمها أسلافهم في الفترة التي تعود إلى ما قبل طرد البرتغاليين من البحرين في عام ١٦٢٢م. ويذهب إلى القول إن السندباد ذاته قد يكون ألف كل حبل من الحبال الموجودة على هذه المراكب، وخبر مجاديفها الغريبة الشكل حتى لكأنها الملاعق. ويذهب إلى القول إن الأنواع الثلاثة من المراكب التي تستخدم في الغوص، وهي البقرة والشوعي والبتيل، يشابه بعضها بعضاً، ولا تختلف إلا في أحجامها، ويأخذ المركب اسمه تبعاً لحجمه. وتبنى هذه المراكب ذات السمت الجيد والصناعة المتقنة من أخشاب الهند، ويصنع أهل البحرين عدداً من هذه المراكب على نحو كامل في بلادهم، لا يستوردون إلا البكرات التي تأتيهم من بومباي. ففي المنامة تنسج أقمشة الأشرعة كما تُفتل فيها الحبال التي يتخذونها من شجر النخيل في مصانع

بدائية لا تعرف من الآلات الحديثة ما يستحق التنبيه. كذلك صاغت مطرقة حداد البحرين وسندانه المسامير الحديدية الطويلة اللينة التي تستخدم في ربط ألواح المركب بعضها ببعض. ويشير زويمر إلى الصورة المجسمة التي تزيّن مقدمة كل مركب وتسمّى القبيت. وتكسى كل قبيت في العادة بجلد الماعز أو الخروف الذي ضُحّي به ساعة ملامسة جسم ذلك المركب الماء للمرة الأولى. ويستطرد فيقول إن عادة التضحية بالدم ممارسة سامية قديمة تعبّر عن نفسها في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها بأشكال شتى. وأضاف أن الإسلام لم يعمد إلى إلغاء هذه الممارسة، "ولذلك نجد البحارة يفضّلون العمل على مركب من تلك المراكب التي قطعت عهداً مع إله البحر وثّقته بالدم".

يفيد صموئيل بأن مركب الغوص يحمل عادة عدداً من الرجال يتراوح بين عشرين وأربعين رجلاً يمثّل الغواصون أقل من نصفهم عدداً. أما الآخرون فمنهم العاملون على جرّ الحبال لإخراج الغواصين من الماء، والعاملون على المجاديف. ويوجد على ظهر كل مركب عادة من يعرف بالمُصلي، وهو الرجل الذي ينوب في العمل عن كل عامل يترك موقعه لأداء الصلاة، وحين لا يكون المصلي مشغولاً بفترة مناوبة، تراه يعمل في رتق الأشرعة وإصلاح الحبال أو جالساً أمام جذوة نار خامدة تقريباً تحت الرماد يطبخ الأرز مع السمك، فلا ريب أن أطلقوا على مثل هذا العامل أحياناً لفظ الجلاس، وهو لفظ يفيد معنى الوظيفة التي يؤدّيها.

ينتقل صموئيل إلى الحديث عن الغواصين الذي لا يرتدون زياً مميزاً للغوص، فهم ينزلون إلى الماء وليس لهم من وسائله سوى الفطام والخابات. يعرف الفطام بأنه عبارة عن آلة من شريحتين رقيقتين من قرن حيوان شُبكت إحداهما إلى الأخرى بمسمار (برشمة)، وقد يصنع الفطام أحياناً من قطعة قرن واحدة تقطع في أحد أطرافها على شكل ربع دائرة لتتناسب مع مهمة ضغط الجزء الأسفل من المنخرين، فمهمة الفطام ضمّ فتحتي المنخار لمنع دخول الماء إلى الخياشيم. ويجعلون في أعلى الفطام ثقباً يمرّ من خلاله خيط فيصبح كالعقد يُمكّن الغواص حينما لا يكون في الأعماق من تعليقه على رقبته. أما الخابات فهي لباس للأصابع يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أمثال طول قمع الخياط (الكشتبان) لحماية اليد وهي تلتقط الأصداف من القاع. ويستهلك الغواص في الموسم عادة طاقمين من هذه الخابات، أي عشرين واحدة. ويمكن أن ترى في موسم الغوص سلالاً كبيرة مليئة بهذه الخابات معروضة للبيع في البازارات. وتكتمل عدّة الغواص بسلة تسمى واجين وثقل من الحجر. يربط هذا الحجر إلى قدمي الغواص بخيط يمر من خلال أصابعه، ويساعده هذا الثقل حين ينزل إلى القاع على أن يستوي قائماً على قدميه. ويكون الغواص – في هذه الحالة – مربوطاً مع سلته بحبل ينتهي إلى حافة المركب. وحين يشد الغواص ذلك الحبل، يرسل الإشارة إلى زميله في المركب ليرفعه إلى خارج الماء. ولن يستطيع أي غوّاص – مهما تناهت براعته – أن يظلّ في القاع لأكثر من دقيقتين أو ربما ثلاث، أما إذا تجاوز

الغواص هذه الفترة فإنه يدخل في اختناق شبه كامل، بل قد يفقد أغلبهم الوعي، ولن تكتب له الحياة بعد ذلك أبداً. ويعرض زويمر الأمراض التي تصيب الغوّاصين، ومنها الصمم الذي ينتج عادة من إهمال معالجة الثقب الذي يحدث في طبلة الأذن جرّاء ضغط مياه الأعماق. ويذكر أيضاً أمراض الروماتيزم والأمراض الأخرى التي تصيب الأعصاب، ويذكر أن أسنان الغواصين قبيحة، "شأنها في ذلك شأن أسنان العرب جميعاً". ويعدّد الأخطار التي يصادفها الغواصون جرّاء الوجود الكثيف للحيتان في هذه المنطقة، والتي كثيراً ما تنبري لمهاجمة الغواص. ويخشى الغواصون من سمكة خبيثة يمكنها أن تعلق بسرعة خاطفة بأي جزء من الجسم وتمتص الدم، ويروي الغواصون الكثير مما يلاقونه من هذه السمكة القاتلة من فظائع وأهوال كثيرة.

يظلّ الغواصون على متون مراكبهم لفترة طويلة لا يغادرونها ما دام لديهم زاد كاف من الماء العذب الذي عادة ما يحمل المركب منه ما يكفيه لمدة ثلاثة أسابيع أو ربما أكثر من ذلك. وينشد زويمر شعراً يصفه بالرائع للسير آرنولد إلدوين جاء منه:

> عزيز كما الغواص المبلل في عين زوجته الشاحبة التي تنتظره على رمال ساحل البحرين في الخليج الفارسي وهو يقضي سحابة يومه غائصاً في لجّة الأمواج الزرقاء، وحين يفرغ من نسج أسطورته باللآليء الغالية يعود ليلاً إلى زوجته يقاسمها العشق فوق رمال ذلك الساحل.

تصل المراكب إلى الساحل بالمحار مساءً فيتركونه في المركب إلى الصباح التالي، حيث يبدأون بفتحه بواسطة مدية محدودبة يبلغ طولها ست بوصات يسمّونها مغلفة. ويفيد بأن العرب كانوا قبل أن تنشط التجارة البريطانية في الخليج لا يفيدون من الأصداف شيئاً، ولكنها غدت ذات قيمة كبيرة بعد ذلك، فهذه الأصداف تُنظف من العوالق وتوضع في أقفاص خشبية وتُصدّر بكميات كبيرة. وقد وصلت القيمة الكلية لهذه الأصداف في عام ١٨٩٧ إلى ٥٦٩٤ إسترلينياً (٢٨٠٠ ريال أمريكي)، "وقد سألني بعض العرب بدهشة: ماذا بربك يصنع الفرنجة بالمحار الفارغ؟". ويروي زويمر بعض أساطير العرب في هذا الشأن التي لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، منها أن هذه الأصداف تُسحن ثم تُضغط فتصبح لؤلؤاً صناعيّاً، كما روّج البعض منهم أنها تستعمل في زخرفة الواجهات الخارجية لبعض المنازل المبنية من الطوب.

يصنّف التجار اللؤلؤ وفقاً لوزنه وحجمه وشكله ودرجة توهّج ألوانه. هناك بعض لآلئ مستديرة مبطّطة كأنها أزرار القميص، كما توجد أخرى غير متساوية الأطراف، فيما يظهر بعضها استدارة كاملة، ويأخذ بعضها الشكل البيضاوي السليم، وهناك إلى جانب هذا كله لآلئ صحيحة الشكل متناسقة تماماً. وتعكس اللآلئ عدّة ألوان منها الأبيض والأصفر والذهبي والزهري والأزرق و اللازوردي والأخضر والرمادي والأسود، وتعكس لآلئ أخرى لوناً داكناً

إلى حدّ ما. أما من حيث الحجم فهناك منها ما لا يزيد حجمه على ذرّة الرمل، وأخرى كبيرة يروي عنها العرب أنها ضخمة ويقسمون على صحّة ما يقولونه، "أما أنا فقد شاهدت لؤلؤة في حجم حبة البندق يساوي ثمنها بضع آلاف من الربيات، ولكن بعض العرب أقسم لي أنه حصل في يوم من الأيام على لؤلؤة بحجم بيضة الحمامة".

يشتري السماسرة اللؤلؤ ويحزمونه في حقائب خيطت من خام قماش الشيت الأحمر اللون. ولتحديد القيمة المادية للؤلؤ يزنونه بموازين نحاسية صغيرة، أما حجم اللؤلؤ فيجري تحديده على قواعد محلية بحتة، وذلك باستخدام عدد من الغرابيل النحاسية الصغيرة تسمى "التو". وتتباين أقطار فتحات كل تو عن الآخر تبايناً طفيفاً. توضع اللآلئ في الغرابيل ذات الفتحات الأكبر فتتساقط اللآلئ الأصغر حجماً وتبقى ذات الحجم الأكبر في مكانها في الغربال، وهذه تُسمى "رأس" وهي في حجم حبة البازلاء، وتُعدّ الرأس ذات قيمة مادية عالية. ويوضع اللؤلؤ الذي سقط من فتحات الغربال الأول في غربال ثان قطر فتحاته أصغر من سابقه فيسقط البعض ويبقى الآخر في الغربال، ويُسمّى اللؤلؤ المتحصّل "بطن"، وهكذا دواليك حيث تسمى التي تلي البطن "ذيل". وعلى الرغم من أن تحديد القيمة الفعلية للؤلؤ يعتمد أساساً على حجمه ووزنه وتناسق شكله، إلا أن للون أيضاً ما يؤثر في ذلك بحسب "الموضة السائدة". يفضّل الأوروبيون اللون الأبيض بينما يفضّل الشرقيون اللون الأصفر الذهبي، فيما لا تجد اللآلئ السوداء من الشرقيين تقديراً كبيراً. تنظف اللآلئ الكبيرة بنوع من مسحوق الصابون المحلي يسمى "ريتا"، أما الأصغر حجماً فتُنظّف بدعكها بالسُكر البني الناعم، ويوضع كل نوع على حدة في لفائف قماش "الشيت" وتباع بالجملة وزناً. ويفترض أن تتساوى قيمة كل من اللفائف التي تضم لؤلؤاً متشابها.

ويبقى السؤال الذي يستعصي على الإجابة: كيف يمكن أن تحتسب قيمة الجمارك لقوم تنافس ذممهم جيوبهم الواسعة المتخمة؟ ولكن الأمر ما يلبث أن يُعالج، فملتزم الجمارك لا ينفك يزداد ثراءً، وذلك لأن إحصاء قيمة الصادرات لا يعدو أن يكون من قبيل التخمين.

يضيف زويمر أن صادرات البحرين تشمل إلى جانب اللؤلؤ نوعاً من الحمير من سلالة جيدة أصابت شهرة بذلك في طول الخليج وعرضه. فحمار البحرين الجيد الطيّع يمكن أن يؤدي المهمات التي يؤديها الحصان غير الأصيل. كذلك تمتاز البحرين أيضاً بصناعة نسيج يستخدم في صناعة أشرعة السفن ونسيج آخر خشن يستعمل للملابس، وهناك أيضاً نسيج جميل من السعف الناعم المجدول للاستخدامات المنزلية. أما واردات البحرين فتشمل الأرز والأخشاب والخردوات المختلفة، وتعدّ البحرين مخزناً لتجارة كل الساحل الشرقي للجزيرة العربية.

يتناول صموئيل طرفاً من تاريخ البحرين وهو يعالج اتصالاتها الخارجية فيقول إن هناك قولاً يبدو صادقاً حين ننظر إليه في ضوء تاريخ الخليج الفارسي، وهو أن البحرين ظلت أبداً

مكان صراع، كأنها العظمة على موائد حكام المناطق المجاورة لها يتجاذبونها فتنتقل من يد واحد منهم إلى يد آخر وذلك لتوافر اللؤلؤ فيها. ويبدأ بذكر "المعركة الأسطولية التي خاضها المسلمون الأوائل ضد الرومان"، وكأني به يريد أن يقول لمن يتابع سرده إن البحرين كانت موطن الرومان فاحتلها منهم المسلمون. وينتقل من هناك مباشرة إلى اجتياح القرامطة للبحرين "بعد عهد الرسول" صلى الله عليه وسلم. ويأتي بعد ذلك على فترة حكم البرتغاليين للبحرين وتناوب عرب عمان والفرس والأتراك على دست السيطرة عليها حتى انتهت إلى الإنجليز، ويذكر أن كل هذه القوى كانت تدّعي حكم البحرين والوصاية عليها. وبعد هذه الإطلالة السريعة على تاريخ البحرين ينتهي إلى القول إن البحرين تقع في الفترة التي يكتب فيها "تحت حكم شيخ عربي صميم يقضي وقته في الطراد والقنص بالطيور"، وهو "عيسى بن علي الذي تم تعيينه في عام ١٨٦٧م بواسطة البريطانيين حاكماً بدلاً من والده حمد بن خليفة (؟) لقيامه بالقرصنة (؟)". وينتقد زويمر كيرزن الذي سجّل في كتاباته هذا الحاكم تحت اسم عيسو، وهذا اللفظ – كما يذكر زويمر – يدل تاريخياً على أخي يعقوب، ويشير إلى أن الاسم الصحيح لهذا الحاكم الذي يعرفه به العرب هو عيسى، وهو الاسم الذي يدل عندهم على المسيح بن مريم. ويستطرد زويمر فيحدثنا عن نظام "الحكم الديني في البلاد الإسلامية" فيقول إنه يعنى بالجانبين القضائي والتنفيذي، وكلاهما يقوم به القاضي، أما الجانب التشريعي فغير معتمد لديهم، فالقرآن الكريم تفي أحكامه بهذا الجانب تماماً. ويرى زويمر أن إجراء العدل في البحرين كان أمراً نادراً، فالطغيان والابتزاز والرشوة هي المظاهر التي ظلت تسود البلاد على أيامه، وشهد بأن الحماية البريطانية المفروضة على البحرين لم تحدث أثراً في معالجة هذه الممارسات، ولم تؤدِّ إلى أي إصلاحات إلا ما كان منها في مجالي بعض المعاملات التجارية عموماً ومحاربة النخاسة. ويقدم زويمر نقداً "للحماية البريطانية" على جزر البحرين، ويرى أنهم يفسرون الحماية بالحياد التام وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، مع الإمساك التام بكل شأن في المشيخة له اتصال بالحكومات الأخرى. ويعتذر عن ذلك بأن حماية البريطانيين تعني أن تظلّ الأمور في البلد على ما هي عليه حتى يتم الضم بطريقة تدريجية شبيهة بعملية النمو الذي خبرته الإمبراطورية البريطانية التي أخذت في النمو والتمدد شيئاً فشيئاً. "فحين اتصلت البحرين بالحضارة الغربية تنامى في أهلها التعصّب الأعمى وزادت حدّة ذلك التعصّب وتعالى مدّه في الفترة الأولى، ولكنه ما لبث أن انحسر وتراجع بعد أن أيقظت هذه الحضارة "العقل العربي الخامل" من سباته، فبدأ ينظر إلى ما وراء شبه الجزيرة العربية. وينقل زويمر عن بالجريف الذي يستشهد به دائماً في هذا الكتاب فيقول إنه كتب في عام ١٨٦٨م: "إن وضع البحرين وموقعها الوسطي ربما ساق بعض القراء إلى الاعتقاد بأن الجهل العميق المتفشّي في نجد بالأوروبيين وبأجناسهم يتبدل في هذه المنطقة"، ولكننا لا نلمس ذلك إلا جزئياً. فلفظ إنجليزي كلفظ فرنسي مألوف في المنامة، أما

كلمات من مثل ألمان وإيطاليين من الذين لم تلجْ سفنهم هذه البحار إلا نادراً، ولعلها لم تلجْها أبداً، فلا وجود لها في المفردات اللغوية عند أهل البحرين، كما يبدو أن النسيان قد طوى تماماً ذكرى الهولنديين والبرتغاليين فانقطع ذكرهم. ومع ذلك نجد أن أهل البحرين يعرفون الروس أو الموسكوف ويخشون بأسهم. "ويعود فضل هذه الخشية إلى اختلاط مواطني البحرين بالفرس و"إلى غريزة الشعوب التي لا تكذب". أما سياسات إستانبول وبغداد فيتناولها بالحديث رواد المقاهي في البحرين بحرية تامة، وأحياناً يتناقشون فيها بعقلانية، ولا تراهم يفعلون ذلك حين يتصل الأمر بدبلوماسية نجد الصاخبة وتدخلاتها "الخطيرة". ويذكر زويمر أن أهل البحرين يعدّون بومباي مركز العالم المتحضّر ويشهدون لكل من زارها بأنه خبر أساليب الأجانب وتمرّس فيها، فلا مشاحة إذاً أن يتطلع كافة صبية البحرين إلى الرحيل على بخاريات شركة الهند البريطانية إلى تلك "الألدورادو" التي تضم العلم وتحتوي على الأسرار. وقد يهرب إليها بعض الشباب، ومنهم المعدمون الذين يستجدون من ربابنة البواخر نقلهم من موطنهم إلى هناك. ويعتقد صموئيل أن هذا الاتصال العميق بالهند ترك أثره على اللغة المتحدثة في البحرين، التي داخلتها العديد من المفردات الهندوستانية. أما اللغة الفارسية فقد غدت اللغة الثانية المتحدثة في البحرين بعد العربية، وذلك لموجات الهجرات الفارسية المكثفة المتتالية من الساحل الفارسي في المنطقة الواقعة بين لنجة وبوشهر التي وفدت إلى البحرين في السنوات الأخيرة.

ينتقل هذا المنصّر إلى الحديث عن المناطق التي يمكن أن تستهوي السائح في البحرين، فيحددها بمصائد اللؤلؤ وعيون المياه العذبة والخرائب القديمة التي تُحدث عن حضارات غابرة والتي يطلق عليها العرب اسم بيوت الأوّلين، ويعتقدون أن الله قد دمرّها لأن أهلها كانوا يرتكبون الخبائث. يصل السائح إلى تلك الخرائب بعد أن يجتاز قرية علي التي تبعد عن المنامة بمقدار ساعة واحدة فقط يمرّ فيها المرء عبر حدائق التمور.

فعندما تجتاز موقع المسجد تكون قد وصلت إلى قرية علي، وتستطيع أن تشاهد هذا الموقع من مسافة بعيدة قبل أن تبلغه. فمن تلك المنطقة يتصاعد دخان كثيف من الأفران الكبيرة التي تقوم على صناعة الفخار. وهناك يمكن أن يشاهد المرء الخزّاف يحرك عجلة الفخار بيده الحاذقة ليصنع جرار الماء غير عابئ بالرديم الذي يلقي بظلاله تحت أقدامه.

ويضيف زويمر أن هذه الخرائب التي تبدو للناظر على شكل كومات يبلغ عددها حوالى ثلاثمئة ويصل ارتفاع أعلاها إلى حوالى أربعين قدماً تنتشر على امتداد السهل الواقع إلى غرب تلك القرية. ويفيد بأنه لم يجرِ استكشاف سوى كومتين أو ثلاث بواسطة تيودودر بنت وزوجته في عام ١٨٨٩م، ولم تسفر جهودهما إلا عن نتائج ضبابية، كما لم تجرِ أي محاولات أخرى لإجراء دراسات قد تفضي في تقدير زويمر إلى نتائج مهمة. فعالم الآثار الفرنسي جوليوس أوبرت وآخرون معه يعتقدون أن هذه الجزر تمثل مركزاً من أقدم المراكز الحضارية القديمة،

ويضيف أنه لمن المعلوم أن بذرة حضارة بابل القديمة قد احتضنتها أرض الخليج الفارسي قبل أن تمتد شمالاً إلى مغير قرب سوق الشيوخ، كما يسود الاعتقاد أيضاً أن المستوطنين الأوائل في بابل ربما نزحوا عبر البحرين إلى السواحل الأفريقية وممالك جنوب شبه الجزيرة العربية، وأن البحرين كانت نقطة الاتصال بين جميع هذه المراكز المختلفة، ولا بد من أنها كانت تقوم في تلك الفترة بدورها كمخزن كبير للملاحة وتجارة العبور، ففي البحرين كانت توجد المياه العذبة التي يتعذر وجودها عموماً في مناطق أخرى مماثلة في هذه المنطقة. ويرجّح زويمر أن هذه البقايا الأثرية الراقدة تحت هذه الكومات التي تقادم بها العهد تعود إلى تلك الفترة الباكرة، رغم غياب شواهد أو نقوش تفيد بذلك. ويعود هذا المنصّر إلى الحديث عن حفريات بنت وزوجته فقال إن أكبر كومة من الكومات التي عمل عليها في ذلك الموقع أظهرت وجود غرفتين شيدتا بحجارة مربعة الشكل. يبلغ طول الغرفة السفلية ثمان وعشرين قدماً وعرضها خمس أقدام، أما ارتفاعها فثماني أقدام. وتوجد في هذه الغرفة أربعة محاريب أو كُوّات غير نافذة تصل أبعادها إلى ثلاث أقدام، ويقع محرابان من هذه المحاريب في بداية الممر، أما الآخران ففي نهايته. تماثل الغرفة العلوية في طولها الغرفة السفلية إلا أن عرضها أقل من عرض الأخرى بمقدار ست بوصات، بينما لا يزيد ارتفاعها على أربع أقدام وثماني بوصات. ويلاحظ زويمر أن الممر إلى الغرفة الأدنى قد مُلّط باليد حيث لا تزال آثار أصابع العمال بارزة تُحدث عن ذلك، ولا يظهر البناء وجود أثر لقوس أو عمود أو أي أشكال أسطوانية. وينتهي صموئيل بالتعبير عن رأيه في أن أيّ حفريات لاحقة قد تكشف عن وجود الأشكال الأسطوانية المميزة أو بعض النقوش والمخربشات التي تقود إلى كشوفات علمية مؤثرة. ويخبر أن بعض المواطنين قد عثروا بالقرب من ركام منطقة قرية علي على جرّة تحوي عدداً كبيراً من العملات الذهبية وتحمل نقوشاً كتبت بالخط الكوفي، ويعبّر عن رأيه أن تلك العملات تعود إلى فترة متأخرة قياساً إلى عمر الآثار الراقدة تحت الركام. ويخبر زويمر عن وجود خرائب أخرى لمواقع أثرية بالقرب من ياو وذي لاق على الجانب الآخر من الجزيرة، وكانت تلك المواقع تشرب من آبار عميقة جرى حفرها في الصخر الأصم، ولا تزال آثار الحبال التي جرّت الدلاء حزوزاً عميقة بارزة على جوانب تلك الآبار، ويرجّح أن هذه الآثار تعود إلى عصور قديمة كذلك. ويذكر لوريمر الدير من آثار المحرق، وهو موقع الخرائب الذي يعرفه العرب باسم الكنيسة، ويتساءل عمّا إذا كانت هذه الكنيسة تعود إلى فترة الحكم البرتغالي أم تضرب بجذورها إلى عهود ما قبل الإسلام.

نلاحظ أيضاً أن المنصّرين الأمريكان في الخليج كانوا جميعهم على اختلاف ثقافتهم حريصين تماماً على التعاون مع سلطات الخليج البريطانية. فالسيطرة الاستعمارية لتلك الدولة البروتستانتية في الخليج تلتقي مع أهداف المنصّرين الأمريكان، ولكنها – في الوقت ذاته – تتعارض مع أسس السياسة البريطانية في المنطقة التي كانت تنظر بعين الريبة إلى أي تأثير دولي مغاير في الخليج.

لم تكن السلطات الإدارية البريطانية في الخليج تطمئن إلى الزيارات التي يقوم بها المنصّرون إلى السواحل العربية لما قد ينجم عن ذلك من قيام قاعدة نفوذ للولايات المتحدة الأمريكية يحتمل أن تفضي إلى محاولة اقتسام النفوذ في هذه المنطقة التي كانت في هذا الوقت من بداية القرن العشرين المتراس الذي يجب أن يحجب كل ما من شأنه المساس بأمن الإمبراطورية في شبه القارة الهندية. وفي هذا الصدد يمكننا أن ننقل عن المنصّر ماليريا ما كتبه عن زيارة اللورد هاردنج أوف بانهيرست، نائب الملك والحاكم العام للهند، إلى الكويت، تلك الرحلة التي رأى فيها هذا المنصّر فرصة لزيادة النفوذ النصراني في المنطقة وتوكيد ازدهاره فيها وتوثيق عراه، بعد أن بدأ "الهلال" فيها ينازع المحاق... يبدأ المنصّر تقريره المنشور في: العربية المهملة، رقم ٩٤، يوليو - سبتمبر ١٩١٥، بعبارات لطيفة رقيقة وهي التي درج على استخدامها العديد من المنصّرين المتفائلين حين يحسبون أنهم حققوا من مهماتهم المستعصية شيئاً ذا بال أو أنهم باتوا قريبين من تحقيقه.

"في ذات صباح شتوي وشهر يناير يودع آخر أيامه، سطعت الشمس في أكثر السماوات الدنا زرقة لتعكس أشعتها فوق مياه الخليج اللازوردية التي راحت دوائرها تنداح برفق حين داعب سطحها النسّام. اجتمعت الكويت كلها في ذلك الساحل الذي ازدحم بالرجال والنساء والولدان من كافة طبقات المجتمع وكلهم يتطلع مشغوفاً ينتظر وصول تلك الباخرة الضخمة التي تفد إلى الكويت للمرة الأولى، وعلى متنها نائب الملك في الهند، الرجل الذي يمثل في هذه الأرجاء جلالة الملك جورج الخامس، إمبراطور الهند. وفي الساعة العاشرة من هذا الصباح تبدّت نورثبروك، سفينة جلالته، وهي تتهادى تياهة فوق سطح الماء. وما إن لامست السفينة الميناء حتى راحت دالهوزي، سفينة جلالته، التي وصلت إلى الكويت في اليوم السابق لتكون في شرف استقبال الحاكم العام، تطلق التحية الملكية، إحدى وثلاثين طلقة. وبالتزامن مع ذلك قامت مدفعية الشيخ بإطلاق ثلاث قذائف غير متتابعة ثم صمتت لفترة ريثما جرى شحنها بالبارود مرّة أخرى لترسل ثلاث قذائف متفرقة أخرى. وحكماً بما كان يؤديه طاقم ذلك المدفع المؤلّف من رجل وصبي يافع صغير، وهما يزودان المدفع بالبارود، يمكن أن نستنتج أنهما كانا يعتبران المهمة التي يقومان بها تنطوي على خطورة بالغة. وفي الحقيقة، إن مثل هذه المدافع حين تُطلق في مثل هذه المناسبات كثيراً ما تنفجر وتودي بحياة الناس من حولها، ولكن من دواعي سعادتي أن مدافع التحية قد انطلقت من مدفع الشيخ في هذه المناسبة ولم يُصب أحد بسوء. وكانت باخرة الهند البريطانية "كسارة" قد وصلت وعلى متنها السير بيرسي كوكس، المقيم السياسي الرئيس في الخليج، قبل فترة وجيزة من وصول دالهوزي. كذلك كان يخت الشيخ يقف على مرمى حجر من هذه السفن في الميناء أيضاً. وراحت باخرة جلالته، ماشونا، وهي مركب اتصالات صغير تحوم هنا وهناك وهي تبحر مزهوّة بطريقة استعراضية.

اتّشح قصر الشيخ بأكبر عدد من الأعلام يمكنه أن يستعرضها، كما زُيّنت بعض المواقع المهمة

في البلدة بأقواس النصر. وكان وصول النائب الأحد (١٦ ربيع الأول ١٣٣٣) فلم يقم سعادته في هذا اليوم بأي نشاط سوى ما كان من استقباله الشيخ جابر، الابن البكر للشيخ مبارك، الذي جاء للترحيب به، والكولونيل جراي الضابط السياسي في الكويت. وقام النائب عصراً بجولة قصيرة قصد فيها الناحية الشرقية من المدينة. وبدأ في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين أول الاحتفالات الرسمية بزيارة إلى نورثبروك قام بها الشيخ مبارك برفقة الشيخ عبد الله، ابن الشيخ عيسى شيخ البحرين، الذي أوفد ممثلاً لأبيه للترحيب بنائب الملك، وهناك التقاهما اللورد هاردنج الذي كان في انتظارهما. وجرى خلال هذه الزيارة منح الشيخ مبارك الصباح وسام نجمة الهند بدرجة رئيس فرسان. وألقى الحاكم العام في هذه المناسبة كلمة قصيرة جاء فيها أن هذا الوسام يدل على تقدير الملك الإمبراطور للشيخ لتعاونه المخلص وولائه الصادق وجهوده في الحفاظ على الأمن في المنطقة. كذلك منح الحاكم العام الشيخ عبد الله وسام الإمبراطورية الهندية بدرجة نصير، وألحق ذلك بكلمة قصيرة تعبيراً عن الشكر. ويلاحظ هذا المنصّر أن الوسام الممنوح للشيخ عبد الله كان قد منح أيضاً في تلك السنة في الهند للقس جيمس كراوثر رهيا أونج، عميد كلية الطلائع النصرانية في لاهور، وأن اسم الشيخ عبد الله قد نشر بعد ذلك في جريدة لندن تايمز الرسمية إلى جانب اسم الدكتور أونج. و لم يحضر هذه المناسبة سوى الضباط السياسيين العاملين في الخليج وهيئة مكتب نائب الملك المرافقين له. وبعد أن فرغ النائب من تقديم الوسامين للشيخين المذكورين، التقى في حجرته في الباخرة كلاً منهما على انفراد.

توجه النائب في الساعة الثانية والنصف مساءً إلى قصر الشيخ لرد الزيارة. واستقبله الشيخ عند عتبة مدخل القصر ورافقه إلى غرفة "الدربار"، وسارت خلفهما مجموعة من العرب التابعين للشيخ. ودامت الزيارة نحو نصف ساعة جرى خلالها تقديم القهوة "الشعار" الذي يستدل به على الكرم العربي. واستبدلت المجموعة المرافقة للحاكم العام ثيابها بالبزّات الرسمية وخرجت الجوقة كلها من القصر لجولة في البازار، في مشهد استعراضي مهيب. وما إن فرغوا من جولتهم حتى توجهوا إلى مبنى الوكالة البريطانية لتناول الشاي. وكانت سيارة الشيخ تسير في البازار خلف تلك المجموعة حتى يتمكن النائب من أن يستقلها إذا عنّ له ذلك. والتقى اللورد هاردنج في مبنى الوكالة، في مكتب جراي وبحضوره، المنصّر ماليريا وزوجته العاملة في التنصير أيضاً، بينما كانت بقية الجوقة في غرفة الطعام. ويشيد ماليريا باللورد هاردنج الذي يقول إنّه رجل نبيل لطيف هادئ الطبع، ينحدر من طبقة أرستقراطية ألفت الرقي وعاشته بلا ترفّع ولا غرور. يحادث اللورد مخاطبه في ما يتصل بالموضوعات التي تثير اهتمامه بتواضع جمّ كأنه ندّ له. سأل النائب المنصّر عن "الشيخ والآخرين" وتدرج الحديث إلى ما يتصل بالعمل العلاجي في الشرق. وأخبر الحاكم العام المنصّر أن زوجته المتوفاة كانت تهتم بهذا النوع من العمل، ما دعاها إلى تأسيس كلية طبية لخدمة المواطنات الهنديات، وأن مشروعها أخذ يستقطب زخماً يبشر بإنجاز

مثير. ووعد هاردنج ماليريا بزيارة مستشفى المنصّرين في اليوم التالي. يقول ماليريا إنه كان قد التقى دوبولاي، السكرتير الخاص للنائب، في غرفة الطعام قبل أن يلتقي النائب، وأن دوبولاي قد عبّر له عن دهشته حين عرف منه ما تتمتع به الكنيسة الهولندية من قوة في الولايات المتحدة الأمريكية. كذلك التقى المنصّر في تلك الزيارة السير فالنتاين شيرول، وهو من الشخصيات اللامعة – يقول المنصّر – وكان قد عمل لفترة مراسلاً لصحيفة تايمز في لندن.

استقلّ النائب في يوم الثلاثاء سيارة أقلّته إلى منطقة الساحل الغربي من الكويت حيث زار محطة الفحم التي أنشأها الشيخ مبارك، وعاد من هناك ليزور المستشفى التنصيري في رفقة طبيبه الخاص. وأبدى النائب إعجابه بغرفة العمليات التي كانت بسيطة جداً ولكنها كانت – كما قال – تفي بالغرض، وأشاد بما يقوم به المنصّرون قائلاً إنهم "يفعلون العجائب"، وكتب النائب كلمة في دفتر الزيارات. وزار النائب بعد ذلك بيت المنصّرين في زيارة خاطفة توجه بعدها إلى نورثبروك التي فارقت الميناء في اتجاه البصرة في الساعة الثانية والنصف مساءً وعلى متنها "حاكم الهند العام وتوابعها اللورد هاردنج أوف بنهيرست".

ينهي المنصّر تقريره بالتعليق على هذه الزيارة إلى الكويت: "التي هي الآن محمية بريطانية وتتمتع بامتيازات الحماية"، ويمكنها أن تتمتع بمراسلات بريدية زهيدة التكلفة مع كافة المناطق الواقعة تحت إدارة الهند البريطانية. ويرى هذا المنصّر في الزيارة معلماً بارزاً في الطريق الذي سيقود حتماً إلى

> تحضّر العرب وتنصيرهم. ولقد بات محتملاً تماماً أن الأتراك سوف لن يكون لهم بعد الآن أي سيادة في هذا القسم الخاص بنا (الذي هو حق لنا) من شبه الجزيرة العربية، وعندها ستزول إحدى العقبات من أمام العمل التنصيري. لم تعد الكويت ترفع علم الهلال والنجمة التركي، فقد استبدلته بعلم أحمر مع كلمة الكويت التي كتبت بأحرف عربية بيضاء اللون. إن ضوء الإسلام الآخذ في الانحسار لم يعد له غير أثر من بصيص خافت في هذه الأرض التي يلفّها الظلام الفادح العتمة. أدعو أن ترتفع سريعاً شمس الحق عالياً تحمل في ثناياها الشفاء راجياً ألا تغيب بعد ذلك أبداً.

لقد كان الوجود العثماني في المنطقة، على ما صار عليه أخيراً من فساد إداري ومالي، أحد المعوقات التي عرقلت العمل التنصيري للأمريكان، إلا أنه لم يكن المعوق الوحيد، فهناك معوقات من إدارات أخرى استظلت بالعثمانيين من أمثال الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني الذي حال دون دخول هؤلاء المنصّرين إلى قطر، فلم يطأوا أرضها إلا بعد وفاته. ولعل من الطريف

أن نذكر هناك أيضاً المعوقات التي وضعتها في فترة الحرب العالمية الأولى إدارة الخليج البريطانية أمام المنصّرين الأمريكان، إضافة إلى معوقات أقامها شيوخ آخرون تطلعوا إلى علاج مواطنيهم فاستعانوا بالمنصّرين ولكنهم قيدوا نشاطهم التنصيري بطريقة مباشرة وغير مباشرة. أما المعوق الأكبر أمام أولئك المنصّرين فكان إيمان أهل المنطقة بدينهم الذي وقر في نفوسهم فما عادوا يرومون عنه بديلاً ولا تبديلاً. ومن سوء حظ المنصّرين أنهم أساؤوا فهم التسامح الإسلامي في المناطق التي زاروها، وعدّوه تفريطاً من المواطنين في دينهم وخطوة في درب التحوّل، وما كان هؤلاء يدركون أن تسامح المسلمين مع أهل كافة الديانات السماوية أصل من أصول دينهم، وأن عيسى عليه السلام، شأنه شأن كافة من سبقه من الرسل، يجب توقيره وتبجيله كما جاء في الكتاب وقضت به السُنّة. كان هذا التسامح هو المعوق الأساس في العمل التنصيري لعدم إدراك المنصّرين أنهم يحرثون في البحر حين يحدثون المواطنين عن توقير عيسى عليه السلام، وهو أمر كان عالمهم وجاهلهم أكثر تمسّكاً به منهم. وقد ورد في هذه النشرة من العربية المهملة، العدد ٩٤ المذكور أعلاه، للقس إلدوين كالفيرلي، موضوع طريف عن مناظرة من ضمن المناظرات التي أجراها مع بعض المسلمين حين وفد إلى الكويت. بدأت المناظرة "تحت نجوم السماء الخافتة في السماء العربية الصافية". ويروي أن مناظراتهم السابقة مع مسلمي الكويت تركزت كلها على الاختلافات بين النصرانية والإسلام،

> لكننا في هذه الليلة رمينا إلى مناقشة الأساسيات. سألونا ما هي معتقدات النصارى، وماهي القواعد التي بُنيت عليها النصرانية؟ قلنا لهم إن أبانا هو الذي في السماوات، وبيّنا لهم أننا لا نقصد ما تفيده حرفية ظاهر النصّ عن الأبوة بمعناها الوظيفي. و لم يجد هذا القول قبولاً لديهم البتة، فالله تعالى أجلّ من أن يكون والداً أو أن تكون له صفة بشرية. وجادل القوم بأن في هذا المفهوم النصراني عدم تقدير لمنزلة الإله. قلنا لهم إن عيسى المسيح هو ابن الله، فاشتدّ زعيقهم لهذا القول الذي استهجنوه، فالله ليس له صاحبة ولا ولد.

ويضيف هذا المنصّر، وربما كان - في تقديرنا - كاذباً في ما يقول، أن مناظريه احتجّوا عليه بقولهم: إننا نكره النساء فكيف لله أن يفكر في أن تكون له امرأة؟ ويبدو الكذب واضحاً في اتهامه القوم بالتشبّه بالذات الإلهية في حبّ رجال الكويت وبغضهم للمرأة، وهو الذي ذكر في فقرة سابقة أن مناظريه لا يجدون وجهاً للشبه في هذا الصدد ويستنكرون ذلك تماماً. يضاف إلى هذا أن فكرة كراهية الإله للمرأة التي ترد في أدبيات بعض الأديان هي فكرة غير موجودة في أي فرع من أدبيات الإسلام البتة. وأضاف كارفيرلي أن محاوريه "استهجنوا فكرة أن يكون الله

أبا للميسح عيسى بن مريم وعدّوها طعناً في الذات الإلهية، "فالإله – في تقديرهم – لا يمكن أن تلده امرأة". وأظهر هؤلاء العرب كراهية لهذه الفكرة لا مزيد فوقها، رغم أنها – كما يقول – "الفكرة الأكثر قداسة عند النصارى، والتي برز لنا جلياً أن المسلمين يمقتون القول بها". أما فكرة أن المسيح كان يجب أن يموت "ليحمل خطايانا" فقد عدّوها فكرة غير منطقية أبداً، لأن فيها ما يحدّ من قدرة الإله الجبارة. "لقد أصابنا الإحباط وشعرنا بإساءة بالغة حين وجدنا أنهم لا يفهمون فكرة المخلص. لقد بذلنا كل جهدنا لإقناعهم المرة تلو المرة، ولكن لا من مجيب". وينتهي هذا المنصّر إلى القول إن مفهوم حب الإله لا يمثّل جزءاً من مفاهيم المسلمين. ويشكو هذا المنصّر من الإحباط في هذه البيئة المسلمة ومن المصاعب التي تصادفه في هذه المنطقة، فلا أصدقاء ولا أحبّاء ولا نوادٍ نصرانية تبشيرية يمكن المرء أن يغشاها، ولا مؤتمرات تبشيرية تُعقد لتبادل الآراء إلا مرة واحدةً في السنة يلتقي فيها المرء مع رفاقه المنصّرين، ولا مؤسسات كنسية في هذا الوسط الإسلامي "الذي تلفّه الخطيئة". "فالأصدقاء المسلمون وثنيون، كارهون للمرأة، ولا يمكن أن تركن إليهم.... إن المسلم لا يعارض النصرانية بفكره فقط، ولكن بقلبه كذلك...". ويستطرد هذا المنصّر في الاعتذار بهذه الأكاذيب ليخلص إلى أن المنصّر يجد معارضة شديدة في هذا المجتمع بصفة عامة، وأنه لن يجني من جهده إلا الإحباط.

ورد في تقرير للقس بنجز أنه قام مع الطبيب هاريسون بأول زيارة تنصيرية لقطر في شعبان ١٣٣٥/الأيام الأولى من صيف عام ١٩١٧. ويستذكر بنجز ذكرى رحلة تنصيرية فاشلة قام بها هاريسون قبل حوالى ثلاث سنوات إلى الدوحة، حين كان الأتراك يسيطرون على ذلك المكان، فما إن وطئت قدماه الأرض حتى أعادوه بأسلوب فظ إلى القارب الذي أتى به وطلبوا إلى البحار أن يعود به فوراً إلى البحرين. ويذهب التقرير إلى أن الظروف قد تبدّلت منذ ذلك الحين جذرياً. فنجاعة العلاج الذي يقوم به المنصّرون قد طارت شهرتها حتى بلغت هذا المكان الذي كان عصيّاً عليهم، ولكن الرفض قد تراجع وانحسر إلى درجة أن الشيخ عبد الله بن جاسم أرسل دعوة خاصة إلى هاريسون يستدعيه لزيارة الدوحة. ويفصّل هذا المنصّر في موقع قطر الذي يمتد لساناً طوله حوالى سبعين ميلاً في اتجاه شمالي في مياه الخليج، ويقول إن أقصى موقع في شمال البحرين يقع على بعد حوالى خمسة وعشرين ميلاً عن رأس ركن، أقصى موقع في شمال قطر. ويحدثنا بعد ذلك عن مرافقهم القطري الذي بعد أن تحدد موعد إبحاره معهم من البحرين، شُغل عنهم ببعض أعماله فيها، وسبّب ذلك أن يقضي المنصّران الليل في القارب. وجاء الرجل صباحاً فاعتذر لهم وقبلوا منه ذلك، لأن "شأنه شأن جميع الشرقيين قد يكذب فيقول لمن يستمع إليه ما يودّ سماعه".

أبحرت المجموعة في الصباح وكانت الرياح مواتية فوصلوا الدوحة في أربع وعشرين ساعة، قطعوا فيها من البحرين حوالى مئة ميل. ويردد المنصّر ما سبق أن سمعناه من بالجريف في عام

١٨٦٣م من دون أن يشير إليه:

> لقد هالنا الامتداد الكبير لمدينة الدوحة في وسط هذه الصحراء المجدبة حيث لا شجر ولا شجيرات ولا أثر لنبتة خضراء. تمتد هذه المدينة التي تضم نحو عشرة الآف نسمة أو أكثر حوالى ميل على رقعة شبه دائرية من ساحل الخليج، تقوم فيها منازل متجاورة رمادية اللون شبيهة بمنازل الكويت، بنيت من التراب المحلي. وعلى تل صغير شرق المدينة تظهر خرائب قلعة تركية متآكلة كانت تضم حامية تركية صغيرة كانت تحافظ من خلال القلعة على "وجودها البائس" في تلك المدينة.

يشير المنصّر إلى أنهم وصلوا في وقت مبكر من الصباح، فآثروا الانتظار في المركب لفترة قبل أن يذهبوا إلى قلعة الشيخ في الطرف الآخر من المدينة اعتباراً من المكان الذي رسى عنده مركبهم. وحين ذهب المنصّران إلى بيت ذلك الشيخ الذي وصفه المنصّر بأنه شخص مهيب الطلعة في منتصف العمر، تلقّاهم بالترحاب المعتاد لدى العرب، وألحّ عليهم في البقاء لتناول الطعام معه. وقد حوت مائدة الشيخ كمية كبيرة من الأرز ولحم الضأن، وهذا ما اعتاد مطبخ الشيخ تقديمه لضيوفه. وخصّص الشيخ للمنصرين مكاناً لسكناهم في منزل الشخص الذي كان يرافقهم من البحرين، "والذي سبّب لنا سابقاً ضيقاً شديداً، ولكننا الآن سعداء لأننا كتمنا غيظنا حينها وقبلنا ما تعلل به من أعذار، رغم أن دواخلنا كانت تغلي من الغضب. وبرهن الرجل على أنه مضيف كريم، فقد قدّم لنا في فترة وجودنا في منزله ما أنسانا ما بدر منه سابقاً".

يلاحظ بنجز أن سكان الدوحة، مثل سكان موانئ الخليج الأخرى في شبه الجزيرة العربية، يتألفون من خليط يمثّل العرب فيه الشريحة الكبرى إضافة إلى البحارنة العرب الشيعة، ويُضاف إليهم الفرس الذين قدموا في فترات متفاوتة عبر الخليج واستقروا في الدوحة التي تضمّ أيضاً الزنوج، العبيد منهم والمحررين. ويردد المنصّر قول بالجريف بنصّه: "كم كانت دهشتنا بالغة ونحن نتساءل من أين يكسب هذا الجمع الكبير رزقه؟ وكانت الإجابة: اللؤلؤ". ترسل هذه المدينة حوالى مئتي قارب إلى سواحل الغوص في كل سنة، يعمل عليها آلاف الرجال، وتعود عليهم بمحصول من اللؤلؤ وفير يمثّل عصب الاقتصاد لهذا البلد. وتقع تجارة اللؤلؤ في أغلبها في أيدي العرب، أما أصناف التجارات الأخرى فهي في أيدى الفرس والبحارنة. ويضيف أن للدوحة سوقاً عامرة بالنشاط التجاري تضمّ حوالى مئتي حانوت تمد السكان بكافة احتياجاتهم، كما يقصد هذه السوق أهل القرى المجاورة للحصول على ما يحتاجون إليه منه، ويغشاه أيضاً بدو الصحراء المجاورة ويرجعون منه بمخزونهم السنوي من المؤن.

يلاحظ المنصّر أن الجوّ الديني في هذه المدينة "معتكر" مقارنة بالبحرين التي اعتاد أهلها وجود المنصّرين لفترة طويلة بين ظهرانيهم ولعلاقاتها الأوثق من قطر بالهند. أما الدوحة فهي مغلقة بنحو أو بآخر أمام بقية العالم، وأهلها قانعون بهذا الانغلاق عن كل ما حولهم، وبالانغلاق أيضاً داخل حدود ديانتهم، "ما يبقي أرواحهم جافة جفاف الصحراء التي بنيت فوقها مدينتهم"، ولكن بما أنهم لا يحسّون هذا الانغلاق، فإنهم بالتالي لا يشعرون بفوائد الانفتاح "على العالم أو على النصرانية". يشعر المرء في هذه المدينة بقوة نفوذ الوهابية التي عليها سكان وسط شبه الجزيرة العربية، والتي هي أكثر تشدداً مقارنة بالطوائف الإسلامية الأخرى. فالعديد من أهل المدينة وزوارها ثابتون على الوهابية، كما يبدي أهل السنّة الآخرون من السكان ميولاً وهابية بنحو واضح تماماً. ولدى أهل الدوحة اعتداد بأنفسهم واقتناع ثابت بأن الحكمة لا مكان لها إذا أخطأتهم، ويعتقدون أن كافة أهل الأديان الأخرى بمن فيهم من يعتنق مبادئ إسلامية مغايرة لمعتقدهم مآلهم إلى النار. كما يبدي أهل الدوحة ثباتاً تاماً على التمسك بظاهر النصّ القرآني.

ويلوم المنصّر الشيخ لتقديمه الدعوة إلى الطبيب هاريسون لزيارة الدوحة، لكنه لم يشمل القسّ بدعوته أيضاً.

> لكن على الرغم من أنهم لم يبدوا الحفاوة تجاهي، قبلوا جرياً على العادة الإسلامية بوجودي الذي لم يكن البعض منهم سعيداً به، ولكنه لم يُبدِ اعتراضاً عليه. فهم يدركون أن الدواء مرّ غير مستساغ الطعم، ولكنهم يتناولونه، فما ضرّ أن يعالجهم طبيب يصحبه قسيس.

يفيد هذا المنصّر أن العمل العلاجي لاقى في الدوحة ترحيباً كبيراً منذ البداية، "فقد أبدى القوم نفوراً من العقيدة النصرانية، ولكنهم لم يكونوا كارهين "للدواء النصراني". ويعبّر بنجز عن أمله بأن يُعبّد الأول الطريق أمام الثاني. "تجمهر الناس أمام المستوصف الذي أخذ يستقبل نحو مئة زائر في اليوم، كان جلّهم في الفترة الأولى من النساء، فقد كان الرجال يعملون في هذا الوقت في الغوص. وبعد عشرة أيام من العمل العلاجي، بدأ الرجال يعودون إلى المدينة مع اقتراب بداية شهر رمضان، ما زاد في أعداد المراجعين للطبيب. ولكن اقتراب حلول شهر الصيام مثّل "إشارة لنا أيضاً إلى ضرورة الإسراع بالعودة من حيث أتينا. فتقديم الدواء لمرضانا والتوصية بتناوله نهاراً سيكون مدعاة لإفطارهم، وذلك يؤذيهم روحياً، ويسبّب في ما هو أكبر مما يمكن أن تعالج به أدويتنا أجسادهم".

طلب المنصّران الإذن للمغادرة، وقدّر الشيخ السبب الذي اعتذرا به فلم يمانع. وبدأت رحلة العودة إلى البحرين، ولكنها استغرقت منهم ثمانية أيام بلياليها بدلاً من يوم واحد استغرقته رحلة القدوم. صادف مركبهم رياحاً معاكسة، فقد هبّت الرياح الشمالية الغربية التي يدوم

هبوبها عادة عدّة أيام في هذه المناطق، و لم يتمكن قاربهم في اليوم الأول من أن يجتاز رأس ركن. وحاول البحار المرة تلو الأخرى أن يجتاز موقعه مُبحراً إلى سواه، لكنه كان يجد نفسه بعد كل محاولة في الموقع الذي غادره قبل عدّة ساعات. وأرخى البحّار شراعه ليعود أدراجه إلى اليابسة، فألفى نفسه عند قرية الغارية. وشاركت المجموعة شيخ تلك القرية طعام إفطاره في ذلك اليوم الأول من رمضان. ودخل المنصّران في ضيافة أحد أعيان القرية الذي – كما يقول المنصّر – أظهر تجاههم الكثير من العطف وحسن الضيافة المعتاد لدى العرب، "إلا أن الاضطراب الناجم عن الصيام تملّكه في نهار اليوم التالي "الذي قضاه المنصّران في ضيافته أيضاً. قضى المنصّران ليلتهما التالية في القارب ليبحروا ما إن أطلّ الفجر من جديد مع عدم اقتناع البحار ببدء الرحلة. وانتهت الرحلة التي تحركت من الغارية في الرويس على الجانب الغربي من شبه جزيرة قطر، وهي قرية تضم حوالى عشرين بيتاً تلقّاهم شيخها بترحاب. وعند مغيب الشمس شارك المنصّران ذلك الشيخ إفطاره. ويعتقد بنجز، كاتب هذا التقرير، أن هذا التأخير قد سبّب لهم الكثير من الضيق، ولكنه عاد عليهم بفائدة، فقد أتاح لهم الفرصة للنظر في الحياة "الداخلية" للعرب ومراقبة سلوكياتهم في شهر رمضان.

> فهم لا يرجعون من الصيام بأي فائدة روحية، بل يلتزمون به إظهاراً لبطولاتهم ورضوخاً لما قد فرضه الله عليهم. وعلى الرغم من اعترافهم بأن الصيام يمثّل عبئاً ثقيلاً عليهم، لا يسألون عن الحكمة من وراء ذلك، ولا يعرفون إلا أن الله قد فرض عليهم صيامه، وأنه (جلّ شأنه) سيثيب من أطاعه ويعاقب من يعصي أمره.

ويضيف المنصّر أن العديد من المسلمين يظهرون في رمضان نوبات من اضطراب السلوك، ويقولون إن ذلك ناجم عن أثر الصيام وشدة وطأته عليهم.

عاد المنصّران إلى رئاستهما في البحرين بعد هذه الرحلة التي يقولان إنها كانت مضنية، ولكنهما "مثلهما مثل السندباد البحري" نسيا كل ما صادفاه من صعوبات، "وبتنا وقد تملكتنا الرغبة كلما أبصرنا شراعاً أبيض في أن نستقله إلى وجهته في ما وراء الأفق".

كان المنصّرون يتطلعون إلى التعاون مع إدارة الخليج البريطانية التي ما كانت تتطلع إلى دعمهم. فالسياسة البريطانية في الخليج في ذلك الوقت كانت تقوم على أساس إغلاق شبه الجزيرة العربية تماماً ومنع وصول أي تأثير دولي مغاير في هذه المنطقة الحساسة من جسد أمن الهند البريطانية. عمل المنصّرون الأمريكان على تقديم تقاريرهم للمقيمية البريطانية في الخليج عن الشيوخ الذين يزورون بلادهم في جولاتهم التنصيرية، كذلك درجوا في تقريرهم على التعبير عن آرائهم عن أمثل السبل للحفاظ على الهيمنة البريطانية في المنطقة، ولكن ذلك لم يكن يظفر بثقة المقيم الذي كان يرسل بتلك التقارير إلى الهند مع التعليق بأن ما ورد فيها يستلزم الحذر.

نجد تقريراً لأحد هؤلاء المنصّرين بتاريخ ٢٧ إبريل ١٩١٨ يقول فيه إنه قضى شهراً مع حمدان بن زايد، شيخ أبو ظبي، يعالجه من علة مزمنة لم تستجب للعلاج، كذلك زار أم القيوين استجابة لدعوة تلقّاها من شيخها راشد وقضى فيها عشرة أيام، أجرى خلالها عملية صغيرة لذلك الشيخ، وقضى يومين في رأس الخيمة كطلب من سلطان، الابن الأصغر للشيخ سالم المشلول جرّاء جلطة دماغية لا يرجى شفاؤه منها. كذلك قضى أسبوعاً في دبي بدعوة من الشيخ سعيد بن مكتوم الذي أعطى له العلاج اللازم. وأبدى المنصّر رأيه في كل من هؤلاء الشيوخ؛ فهذا قوي ثابت الولاء للبريطانيين ويوصي بمنحه وساماً تقديراً لموقفه، والآخر صاحب همّة قوية ولكنه "أقل إثارة للإعجاب من سابقه، وذلك الآخر صاحب ثروة وهمّه مقصور على تنميتها وزيادة "النفوذ عليه يكمن في هذا الاتجاه"، وفلان منهم ليّن الجانب لطيف المعشر لكنه ضعيف وأقل ذكاءً من الآخرين، يتوجس من العالم الخارجي ويخشى من ازدياد النفوذ البريطاني في المنطقة. ويستطرد تقرير المنصّر فيُقوّم الوضع السياسي في المنطقة فيقول إن المظهر غير المخبر. فالأول يحدّث عن ولاء للبريطانيين، أما حقيقة التيارات التحتية في مجتمعات هذه المشيخات فهي حبلى بالتوجس والخشية من أن تؤدي الأحداث إلى زيادة الهيمنة البريطانية. ويعلل المنصّر ذلك بأن الطبقة العليا من المجتمع لا تريد طغيان هذه الهيمنة لما لها من مردود على حظر تجارة الرقيق.

> وعلى الرغم من أن هذه المجموعة لا تمثّل قوة عددية كبيرة، هي على قلة أعداد رجالها، قوّة قادرة على إحداث الشغب وإثارة المواطنين ضد البريطانيين. أما سواد الشعب فيخشى بدوره تلك الهيمنة لما تحمله من دعوة إلى حرية المرأة والتحرر من سلطة الرجل!

وينتهي التقرير بأن مواطني المنطقة متعاطفون مع الألمان تعاطفاً مكبوتاً، "لأنهم يدركون كم هم معتمدون على أرز كراتشي". ويقترح المنصّر منح فلان من الشيوخ وساماً، "فهو ذو ولاء قوي ثابت للحكومة البريطانية".

لم تكن المقيمية في بوشهر، كما لم تكن حكومتا الهند وبريطانيا من حيث المبدأ، معترضة على هذا التنصير البروتستانتي، ولا على ما يسعى إليه من محاولات إرساء بعض القيم الغربية في مكان القيم العربية بهدف زيادة ولاء المنطقة للغرب. ولكن الغرب الذي يعمل له المنصّرون الأمريكان غير الغرب الذي تقصره بريطانيا عليها وحدها في هذه المنطقة الحيوية لأمن الهند. ومن هنا كان تعاون المقيمية البريطانية مع إرسالية المنصّرين الأمريكان متعثراً منذ البداية. ولما كانت الهيئات القائمة على رعاية هذا التنصير هيئات أهلية وكنسية وتجارية لا تتدخل فيه الحكومة الأمريكية مباشرة، فقد قبلت به حكومة الهند البريطانية على مضض، وتعاونت معه

تعاون المضطر. ولكن مع بداية الحرب العالمية الأولى وتخلّي الولايات المتحدة الأمريكية عن سياسة العزلة المجيدة بنحو تام ودخولها معترك السياسة العالمية تريد أن تظفر لنفسها بقسمة من غنائم الاستعمار، بسياسة الباب المفتوح أو من دونها – اختلف نمط تعامل السلطات البريطانية في الخليج مع المنصّرين. ضبطت تلك السلطات تحرك المنصّرين في "المناطق النائية" وقيّدت حركتهم وألزمتهم بعدم السفر إلى تلك المناطق إلا بإذن من المقيم. كتب المقيم بالإنابة في الخليج إلى حكومته في ١٠ جمادى الأولى ١٣٣٦/٢٠ فبراير ١٩١٨: "إننا لا نستطيع منع المنصّرين من زيارة الساحل العربي منعاً باتاً، ولكننا نستطيع أن نقيم سوابق تقضي بوجوب أن يراجعنا المنصّرون قبل سفرهم إلى تلك المناطق". وأفاد المقيم البريطاني بالإنابة أنه قد توصل إلى تفاهم غير مكتوب مع المنصّر هاريسون يقضي بأن يعلمه بالزيارة التي يزمع أن يقوم بها قبل موعد سفره، وأنه وعده – نظير ذلك – بألا يمانع من إتمامها إلا إذا كانت هنالك أسباب موضوعية تستدعي الحظر. ويشير المقيم بالإنابة إلى أن هؤلاء المنصّرين قد يسبّبون حدوث فتنة كبرى من خلال نفوذهم الذي يمارسونه من خلال المستشفى والمدرسة، ومن خلال الزيارات التي تقوم بها المنصّرات إلى الحريم... ويعتقد المقيم بالإنابة أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قد أبلغت البعثة التنصيرية في الخليج ما أبلغته كافة بعثات التنصير الأمريكية في العالم، أنه إذا سبّب أي من أعضائها حدوث أيّ متاعب في المنطقة التي يعمل فيها، فعلى البعثة المعنية أن توقف نشاطها وترحل. وينتهي خطاب المقيم بالإنابة إلى أن الوكيل السياسي البريطاني أصبح ملزماً بأن يزور المناطق التي يزورها المنصّرون الأمريكيون إثر كل زيارة لهؤلاء، يذهب في إثرهم يتعقبهم كي يخفف من أثر أي نفوذ يكسبونه في تلك المناطق، ويعمل – خاصة – على دحض ما يتصل بأيّ مشاعر معادية للحكومة البريطانية قد تحدثها تلك الزيارات.

أعقب ذلك أن كتبت المقيمية إلى جميع الرؤساء العرب في المنطقة تحظر عليهم الاتصال مباشرة بالمنصّرين الأمريكان، وطلبت إليهم عدم مخاطبتهم إلا من خلال السلطات البريطانية، واشترطت ألا يستدعى أيّ منهم إلا لضرورة قصوى. و لم ينته هذا الحظر على رحلات المنصّرين الأمريكان إلا بعد الحرب وتسوياتها، فرفعت الرقابة – ظاهرياً على الأقل – واستأنف المنصّرون نشاطهم من جديد، وبذروا بتلك النشاطات بذرة المصالح الأمريكية في الخليج.

جاء في تقرير لبول هاريسون، أحد المنصّرين الأمريكان، في نشرة العربية المهملة، ١٠٩، عن الفترة إبريل – يونيو ١٩١٩، أن ساحل عمان "الذي يقع في مجاورة دبي"، كان قبل عشر سنوات من أكثر المناطق التي أظهرت صداقتها للمنصّرين في شبه الجزيرة العربية، لكنها أغلقت تماماً في السنوات الخمس الماضية. ويعتذر بأن هذا الإغلاق لم يكن بسبب عجز المنصّرين عن القيام بجولات في هذا الإقليم، فالمنصّرون برئيون من هذا العمل الذي يقع وزره على "اللعبة الإمبراطورية"، فهي التي أوصدته وأحكمت إغلاقه أمام رحلاتهم. لقد ظلّ هذا الساحل مغلقاً

إغلاقاً كاملاً، حتى إنه بات لا يعرف حتى وقع أقدام موظفي حكومة الهند البريطانية التي لم تكن تغشاه إلا لماماً. و"كاد صدر المنصّر أن يضيق وينفطر وهو يتنهّد أسفاً حين تمرّ في خاطره ذكرى جولاته المظفرة فوق تلك الأرض التي أوصدوها أمامه بالمزاليج، وما عاد يمكنه تخطّي تلك الحواجز". وبعد أن يشكو المنصّر من هذه العراقيل التي وضعتها الإمبراطورية في فترة الحرب، حين منعت المنصّرين من العمل في ساحل الجزيرة العربية خشية من عقابيل هذا العمل الذي قد يتمخّض عن نتائج تسعى إدارة الخليج البريطانية إلى تجنّبها، يقول إنّ الناس – حيث كانوا – حتى في أكثر البلاد الإسلامية تمسّكاً بدينهم، يمرضون ويلجئون إلى الطبيب مهما كانت عقيدته ومهما اختلفت عقيدتهم وتناقضت مع عقيدته. ولذلك، فقد أخذ سيل من المرضى من هذا القسم من العالم لم يتدفق فاتراً في البداية تجاه مستشفى مايسون التذكاري في البحرين، ثم ما لبث أن تدفق هادراً يقصد ذلك المستشفى، رغم أنه كان بعيداً عنهم. و"لقد وجد المنصّر فرصته في هؤلاء المرضى الزائرين". ولعل هذا المنصّر قد كشف عن اختلاف واضح لمفهوم الإمبريالية عند البريطانيين والإفرازات الجديدة للذهنية الأمريكية لذلك المفهوم. عمل الاستعمار البريطاني على إغلاق هذا الساحل، بعد أن دمّر بالحروب قواربه وعطّل تجاراته، وأحكم بعد ذلك إغلاقه بالتعهدات المحكمة وبعلاقات صداقة الإداريين البريطانيين التي تصانع الشيوخ، فيما سعت ذهنية الإمبريالية الأمريكية الجديدة – من جانب آخر – إلى تغذية هذا الساحل بنوع من أنواع الثقافة النصرانية الأمريكية ليسهل عليهم قياده بعد فتحه لثقافتهم، لتغريبه وتوجيهه الوجهة التي تخدم أهدافهم.

يكتب هذا المنصّر عن العمانيين وكيف أنهم – في اعتقاده – يمتازون عن العرب الآخرين بتلبيتهم بطيب خاطر نداء الأخوة والصداقة، وبما يتمتعون به من "ديمقراطية التعامل". ويرى أن الرب يستعمل الصداقة التي يبديها هؤلاء الرجال لفتح ما استغلق من الأبواب التي ظلت موصدة لفترة طويلة. ويمضي المنصّر فيقول إن الإرسالية بعد رفع الحظر البريطاني عن نشاطها في الخليج، بعثت بعدّة رسائل إلى العديد من شيوخ العرب البارزين تعرض عليهم قيام المنصّرين بزيارة مناطقهم للقيام بعلاج مرضاهم إذا رغبوا في ذلك. وما زالت اتصالات الإرسالية بالشيوخ تتوالى، "فقطرة من الماء بعد قطرة تذيب باستدامة توالي سقوطها الحجر الأصم". وهكذا وصلت، في فترة ما بعد الحرب، إلى المنصّرين الأمريكان الدعوات من شيخ بعد آخر ترحب بهم لتقديمهم العلاج لمواطنيهم الذين سدّت عليهم بريطانيا كل دروب الاتصال بالعالم الخارجي.

يصف المنصّر في تقريره هذه الزيارة التي بدأ بها إلى أبو ظبي في قارب من القوارب المحلية بالمتعة، ويدّعي أن البحار لم يكن متحمساً في البداية لنقلهم، ولكنه غيّر رأيه بعد إلحاح، وغدا لهم بعد ذلك نِعم الصديق. استغرقت الرحلة يومين، قاسم المنصّر فيها العرب طعامهم وشاركه العرب تناول ما كان لديه من شاي.

> إن الحياة فوق قارب عربي هي شأن ديموقراطي بحت. فالمسافرون معك ينامون بقربك في مكان واحد ويلتصقون بك، وكلما كان النائم بقربك نحيفاً كان جسده إليك أقرب، وبك ألصق. وتستتبع ذلك دواع كثيرة تدعوك كي تنشر ملابسك بعدئذ في الشمس الحارة، وتضع حقائبك تحت هجيرها لأسبوع كامل لتطهيرها. كذلك يحتاج التركيب البنيوي لفروة الرأس مشطاً دقيق الأسنان مع محلول مطهّر للتخلص من أثر رحلة كهذه.

وصل المنصّر إلى أبو ظبي وجلس في مجلس الشيخ حمدان بن زايد، وادّعى أن شعوره كان مثل شعور من يلقى صديقاً كان قد طال عنه غيابه. ومرّت أمام ناظريه ذكرى جولة سابقة قام بها عبر جبال عمان قبل ست سنوات مضت. ويستطرد المنصّر فيقول:

> يجلس في هذا المجلس العرب الذين يطلقون لحاهم الفاحمة السواد شجيرات غير مشذبة تتدلى على صدورهم، كل منهم يحمل بندقيته تلازمه كما تلازم ربطة العنق بزاتنا. فالرجل بلا بندقية لا يمكنه أن يكتسب في أبو ظبي مظهراً اجتماعياً. ويجب عليك وأنت في هذا المجلس أن تتناول شيئاً من الحلوى قبل تناول القهوة، ولا تروق هذه الحلوى "المذاق الأمريكي"، فهي مادة بشعة المذاق، وأجد أن الشخص الذي شبّهها بالمادة الشحمية التي تستعمل لتسهيل حركة دوران الدواليب لم يجانب الصواب. ولكن يجب على المنصّر خلال جولاته أن يتناول بسعة صدر كل شيء يُقدّم إليه، على أن يدعو بعد ذلك أن يكون لجهازه الهضمي قوّة تحمل حتى لا يخذله ويمنعه عن القيام بعمله.

ينتقل المنصّر فيحدثنا عن هذه المدن الساحلية التي تقع في الغالب خلف الجبال التي تقوم على اليابسة، وعن النخيل الذي ينمو عفوياً في كثير من المناطق ولا يجد الرعاية، رغم وجود مياه جوفية غير بعيدة الغور، ويعلل ذلك بأن مواطني هذه المدن يفضّلون العمل في الغوص دون العمل في الزراعة. ويأخذ في سرد تاريخ هذه المنطقة فيقول إن تلك المدن كانت في الماضي أعشاشاً تفرخ فيها القرصنة، ولكن "السلام البريطاني" تمكن من أن يفرض سطوته، و لم يبقَ من ذكرى تلك الأيام سوى بعض مدافع قديمة صدئة يلمحها المرء حيثما اتجه. وبعد أن يحدثنا المنصّر عن الفراغ من عمله في أبو ظبي، يقول إنّه توجه للقيام بزيارات مماثلة لكل من دبي والشارقة وأم القيوين، كما قام أيضاً بزيارة خاطفة إلى رأس الخيمة ولقي هناك ترحيباً "لا مزيد فوقه"، وكرماً بالغاً في تقديمهم للطعام له. ويأخذ هذا المنصّر في سرد ذكرياته خلال الرحلة، ويحدثنا عن رجل

"تحدث نيابة" عن جميع الشيوخ والأعيان بعد حفلة عشاء تكريم تنادى إليها جمعهم، طالباً إلى المنصّر النظر في تعيين طبيب مقيم في إقليمهم، وأبدى المنصّر الشك في حدوث ذلك قريباً، لكنه وعد بأن تستمر الإرسالية بإيفاد طبيب مرة في كل عام لزيارة المنطقة ما لم يطرأ طارئ غير منظور. وبعد أن يحدثنا المنصّر عن رأيه في أن "عمان تمثّل فرصة للعمل التنصيري لا تستطيع الكلمات أن تحيط بمداها"، ويضرب مثلاً لذلك بواحد من عرب أبو ظبي ممن يتمتعون "بتفكير غير معتاد، فقد كان ذلك الرجل يدرك أن الأحد عند النصارى يوازي الجمعة عند المسلمين!"، سأله لماذا لا يقيم قداس الأحد، فأجابه المنصّر بأنه يصلي وحده ولا يقيم صلاة جماعية، وأنه لم يحاول القيام بذلك حتى في البحرين، لأن مساعديه فيها من المسلمين الذين لا يؤدون الصلاة معه. فطلب ذلك الرجل إلى المنصّر أن يقيم القداس في أبو ظبي "في الأحد المقبل إذا رغب في ذلك"، ووعد بأنهم سيشهدونها. وقام المنصّر في الأحد التالي بذلك، وادّعى أن كل من شهد ذلك الموقف أشاد به. وينطلق المنصّر من هذا الموقف الذي يرى فيه

> روحاً تمثّل فرصة فريدة لا تماثلها فرصة أخرى في هذه الأرض. فإذا أقيم مركز إرسالية قوي في هذه الأرجاء، فمن يدري فقد تفعل الصلاة والإيمان والعمل الدؤوب أفعالها في أوساط هؤلاء القوم، وقد نشهد هنا بدايات قيام كنيسة المسيح في شبه الجزيرة العربية.

ويدّعي هذا المنصّر أنه قابل رجلاً في أبو ظبي بات يسير أولى خطواته "في درب مملكة الرب، وهو مشغوف جداً بقراءة الإنجيل، فقد أنعشت القراءة روحه". ويطالب المنصّر رئاسته بإنشاء مستشفى تنصيري في دبي، لأن المنطقة بحاجة إلى مثل هذه المؤسسة. فالملاريا تسكن كل مكان في شبه الجزيرة العربية، خاصة في مناطق حدائق النخيل حيث المستنقعات وحيث الشمس لا تتمكن من القيام بعملها. أما أمراض الجهاز الهضمي فمتنوعة لا حصر لها، والحاجة إلى العمليات الجراحية تجلّ عن الحصر. ويحدثنا عن أن العمل "الروحي والمادي في عمان" يتطلب النظر في الأحوال الاجتماعية السائدة في هذا البلد. ويتحدث المنصّر بعد ذلك عن تجارة الرقيق ويدّعي أن عمان تضم أكبر شريحة اجتماعية من الرقيق في العالم بأسره (!)، وأن الرقّ فيها لا يشمل الزنوج فقط، ولكنه يمتد إلى البلوش أيضاً. وبعد أن يتحدث عن أوجاع البلوش الاجتماعية في عمان، يرى أنهم يفضلون سادتهم أخلاقياً وذهنياً. ويسترسل في رؤيته للأوضاع الاجتماعية ليختتم بما بدأ به من أن المجتمع العماني مجتمع لا يعرف التفرقة، فشيخ المنطقة فيه ليس أكثر من أخ لمواطنيه، وأدنى عبيده منزلة ليس بأقل من ذلك، "وهذه فرصة للأخوة الصادقة لا تتاح لكثير من الناس". ويطالب المنصّر بأن تصبح الإرسالية واسطة العقد بين القديم والجديد في عمان، وأن عليها أن تعمل على قيادة

هؤلاء السُّذج الذين لا يعرفون من الحرية شيئاً كثيراً ولا يدركون كيف يستغلون القدر الذي خبروه منها، وهم – من جانب آخر – يفتقرون إلى الأمل بأن يتمتعوا بقيادة دولة حرّة قادرة على مواجهة المتغيرات المستقبلية، فالملوك والرؤساء قد يعجزهم القيام بهذا العبء. إن عصر إعادة ترتيب الأمور بما يقابل التحديث قد أطلّ على عمان، وربما بات الآن وشيكاً جداً. لقد سمعت صوت الرب ينادي: من الذي يمكنني أن أرسله، ومن سيذهب من أجلي؟ فقلت: ها أنا ذا. أرسلني.

نكتفي بهذا القدر من عرض ما كتبه الجوالة المنصّرون الأمريكان في الخليج، ونعتقد أن التدقيق في ما كتبوه يتطلب جهد المختصين لدراسته بمنهج نقدي قد يُخلّص مجتمعاتنا من تأثيراته السلبية التي أضحت كامنة فيه، تنفث سمومها بين الفينة والأخرى كلما وجدت من يعتذر عنها بالتسامح الإسلامي وضرورة القبول بالآخر الذي لا حاجة له بقبول الضعفاء كبغاث الطير الذين يُفرطون بذواتهم لعولمة لا ناقة لهم فيها ولا جمل، خاصة بعد أن غدت نوقهم وجمالهم تسير بأحمالهم غرباً وتلقي بها هناك. إن رسالة المحبة التي يدّعي هؤلاء النفر أنهم حملوها إلى المنطقة التي نقلوا صورتها إلى الغرب النصراني وإلى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة، كانت تفيض بالتهجّم على الإسلام، وتبالغ في تصوير سذاجة أهله، وتُضخّم عورات هذه المجتمعات العربية التي استضافتهم وأحسنت وفادتهم. وقد تمكن المنصّرون – في ما نعتقد – من غرس هذه الصور السلبية في رسائلهم إلى كنائسهم التي صدّرتها بدورها إلى مجتمعاتها، وانبرت شرائح كبيرة منها لتتخذها وسيلة تحضّ على كراهية الإسلام وأهله. ولقد رأينا في الآونة الأخيرة في بعض منشورات دول الغرب تهجّماً على شخص الرسول الكريم، الرحمة المهداة إلى العالم، وثارت ثائرة البعض منّا من دون أن يدركوا أن الأمر قديم متجذر، ولا يعدو ما رشح منها في حاضرنا البائس إلا أن يكون بعثاً لمنشورات تنصيرية روّج لها المنصّرون قديماً في مجتمعاتهم. فقد نشر زويمر، شيخ المنصّرين الأمريكان، في بلادنا العربية كتاباً بعنوان **على المسيح أم محمد على من تتكل؟** ونحن الذين نتوكّل على الله وحده، نعتمد بدورنا كل ما كتبه هذا المنصّر في مدح عيسى، عليه السلام، في ما لا يخالف القرآن، ليس تسامحاً منّا ولا قبولاً بالآخر، بل هو أمر إلهي ملزم، ولكننا نحتار حين ننظر في الهوس الذي أدى بذلك المنصّر الأرعن إلى سباب من أرسله الله رحمة للعالمين. كان هذا المنصّر ذو الأصول اليهودية الذي راح يدعو إلى النصرانية الأمريكية على مذهب الكنيسة الهولندية في أوساط مسلمي ونصارى الشرق، يعتمد في كتاباته بالعربية والإنجليزية النيل من شخصية الرسول الكريم. ولعل مؤلفه بالإنجليزية الموسوم **الغزالي مسلم يبحث عن الله**، محاولة تافهة للنيل من شخص الرسول في ثوب الإشادة بحجّة الإسلام الغزالي. وقد تُرجم له هذا الكتاب ونشر في القاهرة في مطبعة النيل النصرانية، وقدّم له عبد الفادي

القاهراني بما يفيد بأن الغزالي يجلّ الكتاب المقدس ويرى أنه كتاب منزل لم يداخله نسخ ولا تحريف، واستشهد في هذا الصدد بما أورده الغزالي من نقولات من هذا الكتاب. وفي تقديرنا أن تلك حُجّة ضيزى فالمفسرون وغيرهم يأخذون من ذلك الكتاب المقدس ما لا يجافي الدين الذي يعترفون به، ويعترفون بهذا الكتاب كتاباً منزلاً من عند الله، فالأديان السماوية واحدة. أما ما يأخذ به المسلمون من أن ذلك الكتاب قد داخله التحريف، فيعتذرون عن ذلك بما ورد عندهم بنصوص قطعية، ويفسر الفقهاء المسلمون هذا التحريف بما أدخله عليه الكهان والأحبار والرهبان "يشترون به ثمناً قليلاً"، وبما أضيف إليه مع توالي الأزمان، خاصة مع الترجمة من لغة إلى أخرى. وعلى أي حال، فإننا من جانبنا نثق بأن ما ربط بين نصارى الشرق ومسلميه عبر تاريخنا الطويل من مبادئ روحية، إسلامية ونصرانية، تنتهي مقاصدها إلى توطيد السلام الاجتماعي، هو الأمر الذي يجب علينا أن نعضّ عليه بالنواجذ وألا نفسد ذلك بالوقوف على الخلافات العقدية التي يعمل الغرب على استثمارها في بلادنا. فكل امرئ حرّ في ما يعتقد، وفي ما يمارسه من عبادات وطقوس ومراسم ما لم تخرجه ممارساته للإضرار بالآخرين . ويعتقد زويمر أن عدم مشاركة الغزالي في الحروب ضد الغزاة الصليبيين في الشام غداة ضياع بيت المقدس من المسلمين، كما فعل قبله الفقيه ابن تيمية الذي شمّر للحرب وخاض غمارها، إضافة إلى ما ورد عند الغزالي في إحياء علوم الدين من إشادة بالآداب النصرانية دليل على توجهات نصرانية عند الغزالي وعلى تأثره بالفكر اليهودي أيضاً. ويرى – مع ذلك – أن الغزالي لتقيّده بالسنّة المطهرة وبما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من حديث صار "مختلف المقاصد غير مترابط". ويجادل هذا المنصّر في أن ميل الغزالي إلى التأسّي "بأخلاق الرسول" صلى الله عليه وسلم، بما له من نزعات "موافقة للطبيعة البشرية"، أدخله في أزمات روحية عانى منها حتى وفاته في طوس، مسقط رأسه، في عام ٥٠٥هـ/ديسمبر ١١١١. ولعل هذه الطبيعة البشرية للرسول الكريم، التي نعى زويمر على الغزالي التشبّه بها، والتي مثّلت مدخل هذا المنصّر إلى الطعن في شخصيته صلى الله عليه وسلم، قد شهد بها الرسول عن نفسه، "أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد..." كما شهد له بها القرآن الكريم أيضاً، فتلك الطبيعة البشرية مثّلت للمتتبّع لحياة الرسول أنبل المعاني الإنسانية وأسماها، "وإنك لعلى خلق عظيم"، لا كما حاول هذا المهووس تصويرها على غير هذا النحو الرباني.

يذهب بعض الذين درسوا التنصير الأمريكي في الخليج إلى أن التنصير الأمريكي قد فشل في الوصول إلى غاياته، فلم تتحول إلى النصرانية جرّاء جهودهم الحثيثة سوى أسرة أو اثنتين. وقد لا نوافق على هذا الرأي الذي نظر في ظاهر الأمر ولم يستقصِ بواطنه. قال صموئيل زويمر، أحد أعمدة التنصير الأمريكي في الخليج، في محاضرة ألقاها في المؤتمر الذي عقده في عام ١٩٢٧م في جبل الزيتون في فلسطين وحضرته أربعون دولة من دول الصليب:

أتظنون أن غرض التنصير وسياساته إزاء الإسلام يتمثل في إخراج المسلم عن دينه وتحويله إلى النصرانية؟ إن كنتم تظنون ذلك فقد جهلتم هذا العمل و لم تدركوا مراميه. لقد برهن التاريخ كما دلت سياسات رجال السياسة النصارى جميعهم على أن المسلم لن يتحول إلى النصرانية أبداً. إن الغاية التي يسعى إليها التنصير تهدف إلى أن يصبح المسلم مضطرباً في دينه حتى لا يكون له عقيدة يدين بها أو يسترشد ضميره بهديها. وحينما لا يكون للمسلم من الإسلام إلا اسم أحمد أو مصطفى، ينبغي عليه أن يبحث عن الهداية في مكان آخر.

ويضيف زويمر في المؤتمر التنصيري الذي عقد في القدس بُعداً آخر للتنصير الأمريكي ووظيفته في المجتمع العربي، حيث خاطب زملاءه المنصّرين قائلاً:

> إن مهمة التنصير في البلاد الإسلامية التي انتخبتكم لها الدول النصرانية ليس المقصود منها إدخال المسلمين في دين المسيح، ففي ذلك هداية لهم وتكريم. إن مهمتكم التي يجب تكريس الجهود لها هي إخراج المسلم عن دينه ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، فتنقطع بالتالي صلته بالأخلاق التي هي عماد الأمم وقوامها. فإذا تيسّر لكم إعداد نشء لا يستشعر الصلة بالله ولا يرغب في أن يستشعرها وذلك عن طريق إخراجه عن دينه من دون أن يدخل في النصرانية، فسينتج من ذلك جيل سهل القياد لا يهتم بعظائم الأمور، جيل يستمرئ الكسل ويجنح إلى الراحة، فإذا تلقّى مثل هذا النشء علماً بعد ذلك وتمكن من أن يتبوّأ في بلده مركزاً مرموقاً، فإنه في سبيل الشهرة سيجود بأي شيء، بكل شيء.

نترك للقارئ الحصيف الحكم على فشل التنصير الأمريكي في الخليج أو ربما نجاحه، أما نحن فنعتقد أن مدّ هذا النوع من التنصير الذي خالطه – كما هو واضح – الإلحاد، ورعته الصهيونية العالمية، ما زال طاغياً في بلادنا العربية تتوالى موجاته في صور وأشكال متعددة تسعى لطمس ذواتنا وتجريدنا من هويتنا ليحقق الاستعمار، بأشكاله القديمة والجديدة، غاياته في أراضينا. وقد تمكن تخطيط زويمر ومن لفّ لفّه من تحقيق الكثير، بعد أن جاد بعض قادة الرأي منّا في سبيل الشهرة بأي شيء وبكل شيء.

الفصل الثالث

من أدب الرحالات النسوان في شبه الجزيرة العربية

عرفت شبه الجزيرة العربية في تاريخها الحديث عدداً من الرحالات الغربيات. وليس من المستغرب أبداً أن ترتبط رحلات هؤلاء النسوة برومانسية الشرق، أو هكذا ادّعت كل منهن في كتاباتها عن الشرق وسحره. وفي الحقيقة إن دعوى الرومانسية التي ألحقت بالشرق لم تكن شأناً نسائياً، فقد ادّعاها العديد من الرحالة الغربيين السابقين واللاحقين. تحدثنا فاريا ستارك، وهي آخر من عرفنا من الرحالات، التي امتد عمرها حوالى قرن، إذ لم تفارق الحياة إلا قبل عقد من الزمان (١٩٩٣م)، وهي المولودة في نهاية القرن التاسع عشر، فتقول إن الرحالة الغربي يعيش في بادية شبه الجزيرة العربية فترة حياة بشرية طويت صفحتها في الغرب تماماً، ولكنها ظلت حيّة في تلك البوادي، وتضيف أن الرحالة الغربي لا تستهويه الحواضر الشرقية، إذ تجري الحياة على نحو ما هي عليه في المدن الغربية التي يعيش فيها "الأفندي" الذي ارتبط مستقبله بالغرب، لكن يشدّه عقله غير الواعي إلى حياة الصحراء، ويدفعه إلى الإمعان في أدقّ تفاصيلها التي يحمل كل منها أهمية تفيض بالمعاني بما تحمله من عبق قد تلاشى في الحاضرة مع الزمن، ولن يتكرر فيها مرّة أخرى. لذا فإن رصد دقائق الحياة في البوادي أمر يشعر بضرورته حتى المسافر الذي لا تمثّل الأهداف الأخرى للرحلة شيئاً من مهماته، ففي رصد حقائق الصحراء تخليد لماضي البشرية وشهادة تبقى لمستقبل الأجيال.

الملاحظ أن رحلة النسوان الغربيات من حيث أهدافها غالباً ما تبدأ لظروف شخصية، ولكنها عادة ما تنتهي بممارسة الجاسوسية في الشرق والانهماك في الحياة السياسية، والقيام بمهمات جسام للوطن، معلنة أو غير ذلك. لم تعترف ستارك بقيامها بهذا الدور، ولكن جرترود بل التي عاصرتها اعترفت به، وكان لها أثرها البعيد في السياسة العربية، خاصة في بلاد الرافدين، ويمكن أن نسميها بحقّ لورانسة العرب لدورها المكمل لدور لورنس العرب السياسي، رغم

أن جين فليتشر جينس التي أرّخت سيرة فاريا ستارك في كتاب بعنوان "البدوية الشغوف" قد أسبغت هذا اللقب في كتابها على فاريا ستارك. تقول هذه المؤلفة: إن ستارك لم تكن على شيء من الجمال، وكم تمنت لو أنها استطاعت أن تعيد صياغة شكلها، فقد كانت تدرك مبلغ جمال العديدات من الأخريات، وتدرك أنها عُطل منه، فاختارت أن تهرب إلى عالم الخيال والأحلام، وتدفن وجهها في الكتب والدواوين، وتغلف نفسها بعدئذ بالروايات حتى أصبحت نجمة المغامرة.

كتبت فاريا في سيرتها أنها عاشت في بداية حياتها طفولة بوهيمية في أزولوا، ضاحية الروابي الخضراء والمروج الفيحاء الراقدة على مشارف البندقية، ثم انطلقت في عامها الثالث والثلاثين بعد أن تعلمت جملة من الكلمات العربية إلى الشرق لتمارس الانطلاق في العالم، عُدّتها في ذلك الخيال المجرد من الحقيقة، ودافعها تحقيق الشهرة التي تواكب شخصيتها التوّاقة إلى المغامرة التي قادتها بعدئذ إلى خدمة أهداف عالمها الغربي في عالمنا الشرقي. طوّفت ستارك في أرض الشام والعراق، وزارت بعض مدن ساحل الخليج، ودخلت إيران، وأصدرت كتابها الأول عن وادي الحشاشين في "ألموت" ووصفت قلعتها وصفاً رائعاً، وصورتها تصويراً دقيقاً يقلص مساحة الخيال، ويفسح مجالاً واسعاً لأرض الحقيقة. دخلت ستارك مجال السياسة العربية في فترة الحرب العالمية الثانية حين عملت مذيعة في البرنامج العربي لمحطة عدن التي استحدثها البريطانيون للدعاية لهم ومناهضة الدعاية الألمانية، خاصة في منطقة القرن الأفريقي. وامتدت علاقات فاريا في تلك الفترة فدخلت في "صداقات" مع سيدات المجتمع في عدن، وتعرفت إلى معظمهن من خلال عرضها لبعض الأفلام السينمائية، وأخذت تُروّج لبعض قضايا المرأة، ومن ذلك ما كتبته عن تلك الفتاة التي "لم تعرف أنها ستتزوج إلا حين فوجئت ذات يوم بأهلها يمسكون بها ليطلوا وجهها باللون الأصفر، ويصبغوا يديها وقدميها بالحنّاء، وغُطي وجهها يومئذ "بطرحة" حمراء، حتى أقبل العريس ليرفع ذلك الغطاء لتراه الفتاة أول مرّة في حياتها".

ولعلنا نجد في ما كتبته من الرومانسية أكثر مما نجد فيه من الحقيقة، فالفتاة في المجتمع التقليدي قد ترغم على الزواج ممّن لا تريد، لكننا لا نعرف أن أياً منهن قد تزوجت بمن لم تره من قبل!

للرحالة ستارك عدّة كتب، لعل من أهمها كتابها: **غبار على مخلب الأسد**، والعنوان مقتبس عن شهنامة الفردوسي الذي كان قد وصف نفسه قائلاً: وما أنا إلا كالغبار على مخلب الأسد. ومن كتب ستارك أيضاً التي سجلت فيها التاريخ العربي بعين غربية غير ناقدة تشوبها عتمة ثقيلة من التوراتيات كتاب **روما على الفرات** و**طريق الإسكندر الأكبر**. أما كتبها العديدة عن اليمن، التي منها **الأبواب الجنوبية لشبه الجزيرة العربية**، و**مشاهد من حضرموت**، و**دارين**، و**شتاء في شبه الجزيرة العربية** وغيرها، فتضم عدداً من الصور النادرة عن اليمن التي يمكن أن تخدم مهمة المورخ بأكثر مما تخدمه المعلومات الواردة في هذه الكتب. هذا إضافة إلى أن خطاباتها قد جمعت في كتاب

يحمل اسم **خطابات فاريا ستارك**. ويسجل هذا الكتاب الأخير تسجيلاً شاملاً مسيرة هذه المرأة الرحالة، ويكشف عن جوانب شخصية عديدة في حياتها الطويلة.

أبدت فاريا نشاطاً دعائياً إعلامياً بارزاً، ما جعل السلطات الاستعمارية ترسلها إلى الحبشة ومصر وبعض الدول العربية في شمال أفريقيا. وقد نجحت في أن تتعرّف بصفتها الإعلامية إلى كبار الساسة، كان منهم مصطفى النحاس باشا، كما عرفت قبله سعد باشا زغلول.

لم تكن مهمات ستارك ذات خطورة كبيرة، فطويت صفحة إقامتها في بلاد العرب لتعود بعد الحرب بما حققته إلى ذويها في أزولوا، ولكنها لم تجد فيها من أسرتها أحداً، فقد ماتت الأم ولحقت بها الأخت، وزهد الأب في تلك البلدة الصغيرة، فذهب مهاجراً إلى كندا. ووجدت فاريا نفسها من دون أنيس ولا رفيق إلا قلمها الذي ظلّ وفياً لها، لم ينضب مداده حتى فارقت الحياة. ظلّ القلم يؤنس وحشة عزلتها تصوغ به بأسلوبها الروائي المبدع تجاربها الثرّة في عالم الشرق حيث الكرم، وتأملاتها الجيّاشة في الشرق وسحره، وتمارس معه حبها للانطلاق على جناح الخيال الإبداعي الذي يمازجه قدر من الواقع الذي يستلهم البدائي والغريب.

أجادت فاريا ستارك حين طوّعت الحرف للتعبير عن رومانسيتها المتدفقة. أما جرترود بل التي هي في تقدير الكُتّاب الغربيين من أسرة محافظة، فقد كانت مثل ستارك تبحث عن السلوى، وتسعى إلى أن تهرب حتى من نفسها، فاختارت الهروب شرقاً حتى حلّت في دمشق بعد قصة حب فاشلة مع دبلوماسي عسكري هو الميجور ديك داوتي وايلي. فقد كان الرجل متزوجاً، ويمنع الغرب الجمع بين اثنتين، كما يحظر الطلاق إلا لعلّة مبينة. وزاد في معاناة هذه المرأة العاشقة أن عشيقها لقي حتفه قتيلاً في بعض معارك غالبولي، فاختارت أن تهرب في رحلة رومانسية إلى الصحراء حيث توهّمت أنها يمكنها أن تدفن ذكرياتها، فتركت دمشق إلى حائل في أواخر عام ١٩١٣، وكانت في الرابعة والأربعين من عمرها.

ولدت جرترود مارجريت لوثيان بل في ٢٥ ربيع الأول ١٢٨٥/١٤ يوليو ١٨٦٨ في واشنطن هول في درم، موطن جدها لأبيها لوثيان بل. وتوفيت والدتها ماري و لم يكن لجرترود من العمر وقتها سوى ثلاث سنوات. وتوثقت في هذه الفترة علاقتها مع أبيها الذي تزوج حين بلغت جرترود الثامنة من عمرها من فلورنس أوليف التي بادلت جرترود المودّة والصداقة. عاصرت جرترود وهي طفلة جدها إسحاق لوثيان بل، وهو أحد العاملين في الصناعة، وأصبح عضواً برلمانياً عن الأحرار في برلمان بنيامين دزرائيلي في فترته الثانية. وكان إسهام جدها في صياغة السياسات البريطانية من العوامل التي جعلت جرترود تهتم بالشؤون العالمية منذ نعومة أظفارها – كما يقول بعض النقاد –. وتلقّت هذه المرأة تعليمها في كوينز كولدج ثم التحقت بمارجريت هول في جامعة أكسفورد، حيث تخصصت في التاريخ الحديث وتخرّجت بدرجة الامتياز.

بدأت جرترود أول رحلة لها خارج بريطانيا في عام ١٣٠٣هـ/صيف عام ١٨٨٦م حيث زارت ألمانيا. أما رحلتها الثانية فكانت إلى بوخارست، وقد قادت أحداثها إلى خروج جرترود لتتوه في الشرق لفترة قبل أن تغدو أحد أهم أعمدة عناصر السياسة فيه، خلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها. لبّت جرترود دعوة لأخت زوجة أبيها، لزيارتها في بوخارست، حيث كانت دار زوجها، الوزير البريطاني في ذلك البلد، مكان لقاء العديد من الساسة والدبلوماسيين. وهناك تعرّفت بل إلى نخبة منهم، وكان من أهمهم اللورد هاردنج أوف بنهرست (السير هاردنج الذي أصبح بعد ذلك نائباً للملك في الهند) وغدا المسؤول بعد ذلك عن إرسال بل إلى البصرة في عام ١٩١٦م لتواصل مهماتها في عالم السياسة والجاسوسية وخدمة الإمبراطورية في الشرق العربي. وفي بوخارست أيضاً تعرّفت جرترود إلى وايلي "الذي ملأ كل ذرة في كيانها بالمرح والغزل". وسافرت جرترود إلى إستانبول من بوخارست في زيارة قصيرة في صحبة وايلي، وقد شهدت تلك الرحلة الرومانسية أول إطلالة لها في الشرق. وعادت جرترود في رفقة وايلي إلى إنجلترا بعد توقف لفترة قصيرة في باريس.

تواصلت رحلات جرترود إلى الشرق، فقد زارت عمّها السير فرانك لاسلس، الوزير البريطاني في طهران، في ذي الحجة ١٣١٥/مايو ١٨٩٨. وجابت خلال هذه الرحلة أرجاءً واسعة من سوريا وفلسطين في عام ١٨٩٩م، كما زارت القدس وجبل الدروز في عام ١٩٠٠م، وامتدت رحلاتها من هناك إلى القاهرة. كانت بل تعتقد أنه أمر مثير حقاً أن يبدل الإنسان معارفه التي اكتسبها عن بلد ما في مكان ما حين يدخل للمرّة الأولى إلى ذلك البلد. وعملت بل في الشرق لفترة مع وليام رامزي، عالم الآثار الذي كان يدرس في الشام وفلسطين الآثار ذات الصلة بالإنجيل، في الوقت الذي لم تكن فيه تلك المرأة - كما صرّحت - تهتم بشؤون دينها كثيراً. جاء في إحدى رسائلها من هناك بتاريخ ١٣ ذي القعدة ١٣٢٤/٢٨ ديسمبر ١٩٠٦ أنها صادفت في السفينة التي حملتها إلى مصر أحد القساوسة كان يلقي موعظة في قداس الأحد. وتقول إن الرجل كان رائعاً في بساطته الطفولية، وكان مفوّهاً حين عمل على إيصال خبراته التنصيرية إلى من حوله، ولكنها أفلتت ببراعة من صحبته خشية أن يجعلها تقتنع بما يقول فتجافي نزعتها الإلحادية وتتحول إلى النصرانية قبل أن تصل إلى بور سعيد. وفي الحقيقة، فإن رسائل بل المتواترة ومذكراتها تكشف الكثير من جوانب هذه الشخصية الساخطة في هدوء، المتمردة تمرداً مخملياً على كافة مظاهر الحياة. قصدت هذه المرأة الشرق العربي للتقوقع على الذات - كما تقول - فإذا بالشرق يضع أهم مفاتيح سياساته بين يديها وطوع بنانها!

كانت هذه المرأة - كما يصفها كل من أرّخ لها - تتمتع بجاذبية طاغية، وحيوية متدفقة، تكاد تذوب لطافة، ما جعلها مهوى قلب كل من صادفها من الرجال الذين كان يمكنها أن تطارحهم الهوى ببساطة لولا أن غرام وايلي قد شغلها عن كل شيء سواه. وحين هلك وايلي

اختارت جرترود أن تهرب إلى مكان بعيد تدفن فيه شجونها وتؤسس فيه "علاقة حميمة مع الشمس والنجوم". يصفها أحدهم بأن لها "شعراً كستنائياً ضارباً إلى الحمرة، وعيوناً زرقاء هي إلى الخضرة أقرب، وشفتين كالقوس المشدود ورثتهما من أمها، وذقناً مستديراً، ووجهاً بيضاوياً ذا أنف مستقيم ورثته عن أبيها".

تقول بل إنها حضرت في القاهرة في تلك السنة احتفالاً دينياً لجماعة من الفرس شاركت فيه بشغف، ما جعل الجماعة يعتقدون أنها "على دينهم"، ولكنها صارحتهم بأنها ليست منهم. وقد يلخّص هذا الموقف وموقفها مع القسيس في السفينة التي جاءت بها إلى مصر موقف بل من الدين، مهما كان المعتقد. وفي هذه الزيارة لمصر قابلت بل الرحالة آن بلنت التي استضافتها في عزبتها في الشيخ عبيد، خارج القاهرة، في يوم السبت ١٣ ذي الحجة ١٤٢٤/٢٩ ديسمبر ١٩٠٦. وكانت أمسية جميلة – كما تقول جرترود – حيث قضت في ضيافة آن التي كانت ترتدي زياً بدوياً كاملاً، وقتاً طيباً، خاصة أنها قد استمتعت فيه بزيارة حديقة آن التي تضم عدداً من الخيول العربية الأصيلة وحظائر للذئاب والثعالب. ولا بد أن تكون جرترود قد تأثرت بما روته بلنت لها عن حائل، كما حدثتها أيضاً عن خصامها مع زوجها ولفرد وهجره لها. وعادت بل إلى إنجلترا في فبراير ١٩٠٧ لتغادرها إلى الشرق مرّة أخرى في مارس. وفي أزمير تمكنت جرترود من عبور الحاجز الجمركي بتفتيش صوري لحقائبها التي حوت كتبها ومذكراتها وبعض الخرائط، أجراه موظف تلقى منها رشوة معتبرة. كتبت بل بعد هذه المناسبة: "فليحيَ الشرق أبداً من دون أن تمسّه يد الإصلاح". ولربما كشف هذا الرأي عن التوجه السياسي الملتزم نهج الفساد والإفساد الذي عملت بل على تطبيقه حين تمكنت من جوانب إدارية في مجريات الأمور في الشرق، خاصة في العراق الذي جابت أرجاءه للمرّة الأولى في عام ١٩٠٩م. وبدأت بل التي عملت في هذه الفترة في الاستخبارات البريطانية أولى مهماتها السياسية البارزة في شبه الجزيرة العربية.

بدأت جرترود الإعداد لرحلتها إلى حائل من دمشق التي وفدتها في شهر نوفمبر ١٩١٣، وكتبت من هناك أن خطّتها المزمعة لزيارة نجد قد تبلورت، وبدا لها أن الزيارة باتت في حدود الإمكان. تمكنت من شراء بعض نياق جيدة، كما حصلت على الرفيق الذي تبتغيه ليرشدها في طرق نجد، وهو تاجر إبل شهير يعرف كل قبائل المنطقة، وكانت هي تعرفه بدورها. وأشارت بل إلى أن موسم الأمطار في تلك السنة كان جيداً، فقد هطلت الأمطار قبل موعدها فاكتست الأرض خضرة وتوافرت فيها المياه. ورسمت جرترود في خطابها الطريق الذي ستسلكه إلى نجد حيث ستتجه شرقاً إلى حوران من ثم ينحني طريقها بنحو طفيف إلى الجنوب الشرقي حتى ينتهي إلى حائل. "ولكن ما الذي سأفعله بعد وصولي إلى هناك؟ لست أدري سوى أن روح المغامرة قد تقمّصتني". ونعتقد أن بل هي الوحيدة من بين سائر الرحالة التي دخلت مجال الرحلة

لهدف ذاتي بحت يخصّها وحدها من دون سواها، لا ارتباط له البتة بأي هدف سياسي، رغم أن هذه الرحلة وما تلاها أهّلتها لاكتساب خبرة بالعرب رشحتها في ما بعد لخدمة أهداف الإمبراطورية البريطانية في الشرق. ويؤيّد قولنا ما كتبه السفير البريطاني في إستانبول في ٥ يناير ١٩١٣ من أن الحكومة البريطانية أعلنت عدم مسؤوليتها عن رحلة الآنسة بل حين تحركت من دمشق في رحلتها إلى داخل شبه الجزيرة العربية.

تتوالى رسائل بل من دمشق فتكتب في ٥ ديسمبر ١٩١٣ أنها لا تزال مشغولة بإعداد العدّة للرحلة، من شراء الزاد والهدايا اللازمة للمرور في الطريق، رغم أنها اشترت عشرين جملاً، "... لقد اقتنيت قطيعاً من هذه الحيوانات حتى بدأت أشعر أني غدوت شيخاً عربياً...". وطلبت بل إلى أهلها وأصدقائها إرسال بريدها إلى المدعو محمد البسام في دمشق الذي سيتولى إرساله إليها في حائل. وتقول في رسالتها إنها قرأت في الصحف كما سمعت من أفواه البعض أن السلام قد عمّ الصحراء، وأن عربها قد انتظموا في حبل الوحدة، "... ولا أكاد أصدق ما سمعته وقرأته. فهل يمكن الناس أن يدفنوا أحقادهم القديمة؟ وهل يمكن إنساناً ما أن يصيغ من رمال الصحراء شكلاً ذا مغزى أو يشيد من رمالها بناءً...؟". ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إن جرترود قد لخّصت في رسالتها البليغة هذه جانباً مهماً من جوانب الشخصية العربية استثمرته في ما بعد في صياغة ما آل إليها من مقاليد السياسة العربية لخدمة الأهداف البريطانية في المنطقة. وكتبت بل رسالة أخرى في ١٣ المحرم ١٣٣٢/١١ ديسمبر من دمشق أيضاً تقول فيها إنها تأخرت في دمشق ليومين لإصابة أحد رجالها بالملاريا فانتظرت حتى يتعافى. وأخبرت أنها ستتحرك إلى الصحراء في اليوم التالي لتترك للأرض فرصة كي تدور من دونها، فهي عازمة على أن تقطع كل صلة يمكن أن تشدها إلى هذا العالم، لأن ذلك أقصى ما تقتضيه الحكمة.

> ... الطريق، والفجر والشمس والرياح والمطر ونار المخيم المتوهجة تحت ضوء النجوم، فالنوم ثم مواصلة السير بعد ذلك مرّة أخرى... يقع عليّ أن أنتظر لأعرف ما الذي سينتهي إليه كل ذلك بالنسبة إلي. وعلى الإنسان أن يعالج نفسه بنفسه، لا بديل من ذلك ولا محيص... عليك ألا تعتقد أني ذاهبة لأخوض غمار مغامرة يائسة متوحشة خلّفتها آمال ذابلة. ربما كانت المغامرة بائسة بطبيعة الحال، ولكنها تبدو لي مثيرة إلى الحد الذي يجعلني لا أعدل عنها أو أرضى بها بديلاً. ومع أني لا أدري هل سأبلغ بها الخلاص النهائي أو غير ذلك، لكني أراها طريقاً يستحق التجربة... .

وتخاطب جرترود صديقها دمبول الذي أرسلت له هذا الخطاب تبثّه أشجانها فتقول:

> ... آه يا دمبول ليتك تدرك مشقة الطريق الذي ذرعته بخطاي في قاع جهنم في الشهور القليلة الماضية، لأنك حينها ستعذرني وتدرك أني على حقّ حين أحاول أن أسلك طريقاً يفضي بي إلى الخلاص. إني أعيش الخطأ الذي اقترفته يداي، ولكن الأمر لا يخلو – مع ذلك – من سوء حظ يمنع الزمن من أن يستدير مرّة أخرى، ولكن على أي حال فالزمن كفيل بطيّ أكثر الأشياء جدية في صفحات النسيان... .

خرجت جرترود من دمشق في ١٦ ديسمبر ١٩١٣، وكتبت من عمّان في ١٤ صفر ١١/١٣٣٢يناير ١٩١٤ تقول إنها خبرت طعم الوحدة في هذا الخواء الذي باتت تعايشه للمرّة الأولى في حياتها وهي تتأمل أيام الرحلة الطويلة مع الإبل في أمسيات الشتاء القاسية في منازل الطريق الممتد أمامها.

> لقد طارت أفكاري وهوّمت بعيداً عن دائرة نار هذه المنازل، وطوّفت بي في عوالم كم كنت أتمنى ألا تكون مشحونة بالعواطف الحادة. لقد غدوت إلى فراشي بقلب أثقلته وطأة شجونه إلى درجة أني بتّ أعتقد أني أنوء بثقل حمله لأبلغ به الصباح التالي. ويطل الفجر بعد ذلك ناعماً تتسلل أشعته عبر هذا السهل المفتوح، فتتسرب عبر مساماته الصغيرة ثم تنداح لتجد طريقها إلى قلبي المظلم. إني لست فيلسوفة، ولكني أسعد حين يخطر لي في مثل هذا الوقت من الفجر خاطر يقول إنّنا لا نعني للحياة شيئاً كثيراً، فالأرض لا تزال تُوالي دورانها وتُلبس نفسها في كل دورة حلّة جديدة قشيبة لتبهج نفسها، وهي – في حركتها – غير آبهة بقلوبنا المعتمة التي لن تستطيع في دورانها أن تلقي عليها شيئاً من ظلالها القاتمة، وما ذلك إلا لأن الأرض لا تحسّ وقع خطواتنا المثقلة على أديمها. لقد استبنت في هذا طرفاً من الحكمة التي يجب عليّ أن أستلهمها لتعلمني ضرورة الاستسلام، وكيف يتحتّم عليّ أن أحتمل الألم من دون أن أصرخ أو أتأوّه.

وتصدق جرترود حين تذكر حقيقة ينكرها كافة الرحالة، وهي أنها حين تدخل الصحراء على مسؤوليتها الخاصة من دون حرس عثماني، تقطع بذلك كل خيط يمكن أن يربطها بالعالم، فقد باتت الحماية التي تقدّمها لها الهوية البريطانية لا قيمة لها وقتئذ. فإذا أضمر رفاق رحلتها سلبها، "... فإني لا أعتقد أن الحكومة سترسل جيشها لتستخلص منهم ما سُلب ..."، وتضيف أنها حين خرجت من عمان خرجت من تلك البلدة حرّة طليقة من دون قيود بعد أن أبلغها لويس

ماليت، السفير البريطاني لدى العثمانيين، أنها إذا ذهبت إلى نجد فإن الحكومة البريطانية ستغسل يديها من أيّ مسؤولية تجاهها. وترى جرترود أن خروجها عن القانون لن يصيبها بأدنى أذى. ومع ذلك يمكن أن نستمع إليها وهي تقول إنها قضت ليلتها الأخيرة في عمّان و لم يغمض لها جفن، فالحياة في الصحراء تبدو موحشة، "... ففي لحظة ما تأخذ ضربات قلبي في التسارع هوناً ما، وتتعب عيناي من التحديق إلى المستقبل على أمل أن ترى قبساً يضيء فيكشف أسدافه. وبعد أن تقلبت على فراشي ملياً أصبت اقتناعاً بألا أهتم بما يحدث، فاستسلمت للنوم...".

تستطرد جرترود فتقول إن أصدقاءها أمدّوها برفيقين للطريق وقيّدوهما بكل ما هو مقدس بعدم مسّ شعرة من رأسها. وهكذا بدأت هذه المرأة المغامرة رحلتها إلى حائل.

> ... غابت الشمس واكتسى سديم السماء نجوماً متلألئة، ثم ارتقى القمر إلى كبد السماء وراح يطلّ علينا من علٍ، فهربت من مخيلتي وانزوت كافة المخاوف التي كانت تتراءى لي سابقاً حين كنت خلف جدران المنازل. وتبدّت الصحراء في حلة من الأمن المقيم. يذبح العرب في كل ليلة خروفاً، ويُكوّمون الأرز على الأطباق تكويماً، ويرحّبون بكل ضيف يفد إليهم. سألتهم كيف يمكن الاقتصاد البدوي أن يحتمل الوفاء بكل هذا الكرم، فأجابوا بأن حسابات الاقتصاد من شأن الفنادق، ولكن أين توجد الفنادق في هذ التيه الخلاء؟...
>
> هكذا كان دربنا إلى نجد، وقد تخلّيت إن شاء الله عن أيّ قوّة يمكن أن تربطني بهذا العا لم. ولكن يبقى هناك خيط واحد لم يقطع معه بعد وهو ما يسطره المداد في هذا الكراس.

وفي الحقيقة، فقد كان في كرّاس تلك المرأة من المذكرات ما يستعصي على من يؤرّخ لحياة جرترود تلخيصه، فهو سجل مفعم بالمشاعر الرومانسية والأحاسيس التي يتعذر على غير كاتبها أن ينقلها إلى القارئ.

لم تكن حائل - عاصمة آل رشيد - مجهولة لدى الغربيين، فقد كتب عنها الرحالة بالجريف قبل نحو نصف قرن قبل وصول بل، وتلاه شارلس داوتي، عمّ حبيبها القتيل، ثم جاءتها بلنت وزوجها، وكان ما كتبته بلنت وما روته لها في القاهرة دافعاً إضافياً حفّز جرترود لزيارة تلك المدينة التي تحتضن جبليْ أجأ وسلمى، فوصلتها في ٢٨ ربيع الأول ١٣٣٢/٢٤ فبراير ١٩١٤.

وجدت جرترود في صحراء النفود السلوى، وفي ضيافة منازل شيخها من آل رشيد الكثير ممّا يعتق الفكر من همومه والقلب من شجونه. تقول بل إنها كانت تتسلّى بالنوم العميق ساعة القيلولة، وتتدثر دفء المساء، وتستقبل باكراً نسمات الفجر التي ترتعد لها الفرائص، ترتشف القهوة، وتتناول الطعام باليد مباشرة، وتأكل بالطريقة ذاتها التي كان يأكل بها أبطال ألف ليلة

وليلة، وتستمتع بكثير من عناصر هذه البيئة "التي تمثل القرون الوسطى".

طُردت جرترود من حائل من دون أن تتمكن من مقابلة أميرها الذي كان في بعض مهماته خارج عاصمته. فقد ارتابت سلطات حائل في المهمة التي كانت بل مكلفة بها، فخرجت الآنسة تحمل همومها إلى بغداد، والتحقت مع بدايات الحرب العالمية الأولى في المنطقة بالفريق الذي ألّفه هوجارث في القاهرة تحت مسمّى المكتب العربي أو الدائرة العربية الذي كان رئيسه في المحرم ١٣٣٤/نوفمبر ١٩١٥ جلبرت كليتون، وكان أوبري هربرت وجورج لويد وعالم الآثار ليوناردو وولي من أبرز رجاله. وقد أوكلت إلى هذا المكتب الذي التحق به لورنس المشهور بصاحب الجزيرة العربية Lorwence of Arabia أعمال التجسس وحياكة المؤامرات ونسج الدسائس، وأطلقت يد هذا المكتب للتعامل مع الرؤساء المحليين. وتميّز المكتب العربي بأنه مدرسة استعمارية قائمة بذاتها، لها طرقها الواضحة والخفية حتى عن حكومة لندن ذاتها. فقد كان له مناهجه الخاصة في التعامل بيد طليقة مع كافة الشؤون العربية في كافة المجالات الإدارية والسياسية، العلنية منها والسرية. وكانت المهمة الأولى التي أوكلت في هذا المكتب إلى جرترود هي مساعدة ديفيد هوجارث في تنظيم وتحقيق معلومات الرحلات التي قامت بها، والأخرى التي قام بها لورنس، ورحلة الكابتن شكسبير كذلك، والتدقيق في مواقع مضارب القبائل العربية، ودراسة موقع هذه القبائل من السلطة التركية، وأمثل السبل لتحريضها للحاق بالمعسكر البريطاني. وفي ٢٨ ربيع الثاني ١٣٣٤/٣ مارس ١٩١٦ أرسل كليتون جرترود بل إلى البصرة التي كانت القوات البريطانية قد استولت عليها منذ نوفمبر ١٩١٤ لتعمل مستشارة للسير بيرسي كوكس لخبرتها بتلك المنطقة وبقبائلها، وكانت بل قد رسمت خرائط للطرق الأكثر أمناً التي يمكن أن تسلكها القوات البريطانية في طريقها إلى بغداد. وأنيطت بالآنسة بل بعدئذ وظيفة ضابط ارتباط، وكانت المرأة الأولى التي تتولى في الجيش البريطاني منصباً رفيعاً كهذا. وأتيح لبل في هذه الفترة التعامل مع سانت جون فلبي، أحد الذين صار لهم بعدئذ شأن بعيد في الرحلة في البلاد السعودية، وتعلمت منه - كما تقول - فن إدارة المسرح بالمناورات من وراء ستار. وحين سقطت بغداد في ١٦ جمادى الأولى ١٣٣٥/١٠ مارس ١٩١٧، استدعاها كوكس وعيّنها في وظيفة السكرتير الشرقي لتتولى شؤون القبائل والتعامل مع العراقيين. وحين وضعت الحرب أوزارها وأخذت بريطانيا تعدّ العدّة لتنظيم إدارة المنطقة التي آلت إليها بموجب اتفاق سايكس بيكو المعدّل، استدعى تشرشل جرترود وكذلك لورنس مع جماعة من المستشرقين إلى مؤتمر القاهرة المعقود في ١٩٢١م للإسهام في تلك المهمة. ويُعزى إلى بل ولورنس تصميم مملكتي الأردن والعراق لكل من عبد الله وفيصل، ابني الحسين، على التوالي. وقد كتبت بل بعد ذلك أنها تسعى لتبعد عن نفسها "تصنيع الملوك، فإنجاز مثل هذه المهمة" يصيبها بالتوتر الشديد.

غادرت بل مصر إلى العراق، وحين جرى تنصيب فيصل في ١٩ ذي الحجة ٢٣/١٣٣٩ أغسطس ١٩٢١ ملكاً عليه، غدت الآنسة بل أبرز مستشاري صاحب الجلالة. وكانت تنصحه في اختيار وزرائه وقيادات حكومته وفي شؤون الإدارة والحكم، إضافة إلى أن سلطات الاحتلال البريطاني كانت تعتبرها مرجعاً في شؤون القبائل العربية وتأخذ بما تشير به عليهم، وكانوا في ذلك من المحقين. فقد تميّز المكتب العربي في القاهرة بأنه مدرسة استعمارية قائمة بذاتها، أطلق البريطانيون يده للتعامل مع أهل المنطقة وزعاماتها بالطرق الواضحة والخفية، وأقام لنفسه منهجاً فريداً وناجحاً للتعامل مع الشؤون العربية السياسية والإدارية والثقافية وربما الاجتماعية. وكانت جرترود بارعة في صياغة المعاني ورسمها، ولها من البلاغة في الخطاب ما يجعلها تصوغ الصور بالكلمات. وفي اعتقادنا أن الصورة التي رسمتها بل لابن سعود حين زار البصرة في أعقاب الحرب الأولى كانت واضحة بما تعجز عنه أبلغ آلات التصوير، فقد جمعت هذه المرأة بين صفات الرجل الخَلْقية والخُلُقية، فأبدعت له صورة حية ما زالت تنبض بواقع تلك الحال. ورغم الدور السياسي المهم الذي قامت به جرترود، كان جنوحها إلى الخيال سبباً في إحجام المؤرخين عن أخذ قدر من مذكراتها يعين على كتابة بعض فصول تاريخ المنطقة الذي أسهمت بقدر كبير في صناعته. فالرومانسية المتدفقة عند هذه المرأة كما عند ستارك وعند بعض الرحالة النسوان الأخريات، التي تصور الشرق مهداً للسحر ومستودعاً للجمال، تفسد دقّة الحقائق، وتنال من جدية التفاصيل التي يقع على المؤرخ نقدها قبل اعتمادها مصدراً يعينه على التقويم، خاصة أن هذه الرومانسية – وإن ارتبطت بالشرق – تصدر عن ذهنية ثقافية مغايرة للرومانسية المألوفة في ثقافة الشرقيين، ولن تظفر منهم بالقبول مهما اجتهد رحالة الغرب في ربطها بمجريات الثقافة الشرقية وبقصص ألف ليلة وليلة والسندباد البحري.

زارت بل بلدتها في إنجلترا في عام ١٩٢٥م بعد فترة غياب، ثم عادت من هناك إلى بغداد في حالة مزرية من الإحباط. فقد ساءت الأحوال المادية لأسرتها كثيراً لما كانت تعانيه بريطانيا من اضطرابات عمالية في أعقاب الحرب. وفي بغداد أصيبت جرترود باضطرابات معوية لازمتها لفترة طويلة، ما إن عوفيت منها حتى بلغها خبر وفاة أخيها الصغير، هوغو، بالدوسنتاريا، فازداد إحباطها وتنامى لديها الاكتئاب. ووُجدت الآنسة بل ميتة في غرفتها في ٢ المحرم ١٢/١٣٤٥ يوليو ١٩٢٦ نتيجة لتناولها جرعة زائدة من الحبوب المنوّمة.

تقول بعض المصادر إن الآنسة قد انتحرت، فيما تنفي ذلك مصادر أخرى، وتستشهد بأنها طلبت، قبل أن تنام، إلى خادمتها أن توقظها في وقت حدّدته لها.

دفنت بل في المقبرة البريطانية في بغداد، ونعاها ديفيد هوجارث بقوله:

لا توجد امرأة في زماننا هذا تجمع ما تمتّعت به من مزايا، فقد كانت تميل إلى القيام

بالأعمال الجسيمة الخطرة، كما كانت تهتم بالعلوم والمعرفة إلى جانب ما عرفت به من كفاءة في مجالي الآثار والفنون، يضاف إلى ذلك رؤية سياسية ثاقبة، وتقدير للقيم الإنسانية، مع قوّة في الأنوثة، وفكر ثاقب، وكفاءة في العمل. لقد تداخلت كل هذه المواهب وتمازجت في ذلك الجسد الأنثوي والروح الرومانسية.

لم تكن رحلات الغرب النسوية في شبه الجزيرة العربية - بطبيعة الحال - كلها مرتبطة بالسلوى ودفن هموم العواطف ومعاناة الأحلام في رمال صحرائها، فهناك - على سبيل المثال - السيدة ميجينان التي لم ترَ قط هذه الرمال. فقد وفدت عن طريق البحر إلى مسقط، في رفقة زوجها في زيارته الثالثة لمسقط في عام ١٨٢٥م. وكانت زيارته الأولى لها في عام ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م. وجاء في مذكرات الرجل في هذه الرحلة عن مسقط أن أهلها متدينون من غير تعصّب، يشاركون الكفار في طعامهم. وتحدث عن شدة القيظ في مسقط التي تبلغ درجة الحرارة فيها ١٢٠ درجة، وعدّها أشدّ الأماكن في العالم حرّاً. أما زيارته الثانية إلى مسقط فقد كانت ضمن ضباط الحملة التي أرسلت للثأر من قبيلة البن بو علي وصحبت ميجينان زوجها في رحلته الثالثة إلى مسقط وأبصرت صخورها "المتجهّمة". وما كنا لنذكرها في سجل رحلات الغرب النسوية إلا لأنها المرأة الغربية الأولى التي نعرفها في مجال الرحلة في العصر الحديث إلى بلاد العرب. وكان موضوع المرأة في البيت السلطاني هو الموضوع الذي استحوذ على انتباه تلك السيدة التي استقبلت في جناح "حريم السلطان"... جاء أنها بعد أن تبادلت عبارات الترحيب بالهندوستانية مع السلطان، لأنها لم تكن تعرف العربية، وتناولت العصير والقهوة مع زوجها في ضيافة سموّه، أخذها صاحب السموّ بيدها "بطريقة مهذبة" عبر دهاليز قصره حتى انتهت إلى جناح الحريم. ولعلها بالغت حين ذكرت أنها اجتازت إليه ثلاثة أبواب موصدة، أحكم إغلاقها بمصاريع غليظة لا يقل طول أي منها عن قدم كاملة. وبالطبع يمكن امتحان ما ذكرته هذه المرأة على ضوء الشواهد الأثرية من واقع عمارة القصر السلطاني حينها.

تستطرد ميجينان فتقول إنها لاحظت وجود خصيين يمتازان بالوسامة وحُسن المظهر في حراسة الحريم، ولكنها لم تورد مصدراً إلا ما ادّعته من أنها رأت ذلك. فحراسة الخصيان لأجنحة الحريم كانت إحدى الممارسات المألوفة في قصور السلاطين العثمانيين، ولكننا لم نجد من وصم بها قصور غيرهم من سلاطين العرب. وفي تقديرنا أن الأمر قد اختلط لدى هذه السيدة، فأضافت ما للعثمانيين إلى العمانيين، فكلهم في فكر الغربيين في نهاية المطاف شرق. وصفت ميجينان الأميرة التي استقبلتها في غرفتها ذات النوافذ الزجاجية الكبيرة الملوّنة المطلة على الميناء. ولم يكن في تلك الغرفة من أثاث سوى سرير في أحد أركانها و"ديوان" لا يزيد ارتفاعه عن الأرض على ثلاث بوصات، يجري حول محيط الغرفة، ووضعت فوقه وسائد

مزدوجة وثيرة. وركزت ميجينان على مظهر الأميرة فقط، و لم تحدّثنا عمّا جرى في ذلك اللقاء. ارتدّت تلك الأميرة ثوباً من المخمل الأرجوانيّ اللون، جرى تطريزه بكثافة، وكانت تغطي وجهها، عدا منطقة العينين، بنقاب ثقيل مطعّم بالذهب، وزيّنت يديها ورجليها بمشغولات المجوهرات والحلي الماسية واللآلئ. وشدّ انتباه ميجينان من تلك الحلي زمردة في حجم بيضة حمام. وفي حديثها عن أبّهة غرف قصر السلطان وروعتها وما تحويه من أثاث شرقي بسيط من طراز فريد، طاف بذهن تلك المرأة ما ورد في ألف ليلة وليلة، ذلك الكتاب الأسطوري الذي يرد ذكره كلما ذكر ترف أو ثراء تمتّع به ملوك الشرق، فكلهم في ظنّ الغربيين شهريار.

لم تترك ميجينان أثراً مذكوراً في أدب الرحلة الغربية، وإن حازت قصب السبق في ريادة الرحلة النسوية للغربيات في بلاد العرب. فهي لم تكن مثل جرترود ولا فاريا ستارك اللتين خلّفتا زخماً معرفياً مشوّشاً بما حققتاه بدخولهما إلى السياسة العربية من الأبواب الخلفية، وأحدثتا في بعض بلاد العرب أحداثاً تجعل دراستهما شأناً من شؤون التاريخ السياسي وليس التاريخ الثقافي أو الاجتماعي الذي يعالجه البعض منا من خلال كتب الرحالة الغربيين.

هناك خبر عن زيارة امرأتين أوروبيتين إلى الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى، هما الكونتيسة مالبياشي والليدي إيفلن كوبولد، لم نقف على كتاباتهما رغم أن الأخبار عنهما تفيد بأنهما أقامتا صداقات وثيقة بسيدات المجتمع الراقي. وتدّعي الأخيرة أنها أول أوروبية تمكنت من أداء مناسك الحج كاملة. ويبدو أنهما لم يحققا في مجال الرحلة العربية ما يستحق الذكر. وفي هذا المجال لا نجد شهرة أبلغ من شهرة آن بلنت في مجال رحلة النسوان الغربيات في شبه جزيرة العرب، فقد تركت هذه المرأة بصمات لا تُمحى في أدب الرحلة الغربية. فقد كانت سيدة حالمة أديبة، ويبدو من كتاباتها أن تطلّعها إلى المعرفة كان يحجبه شغفها بالرومانسية وجنوحها إلى الخيال. ترى بلنت أن روعة الشرق تكمن في غياب الحياة الفكرية عنه، هنا

> ينعتق العقل من قلقه الذي يستدعيه التفكير في المسقبل، ويتخلص من الألم الملازم لتدبّر الماضي. لا يوجد هنا من يشغل عقله بتدبر الماضي ولا بالتطلع إلى المستقبل. الكل هنا يعيشون الحاضر فقط حتى يحين موعد الوفاة، وفي اعتقادي أن الحاضر هو أبداً الخيار الأمثل، ولك اللحظة التي أنت فيها مقولة تحرّر العقل من عبء التفكير.

ولعل في رومانسية بلنت التي ساقتها للإشادة بجمود العقل العربي ما يلخص رأي هذه المرأة في أن العرب لا ماضي لهم ولا مستقبل، فهم يعيشون أبداً الحاضر الذي ألفوه مذ عرفوا الحياة.

كانت آن بلنت السيدة النحيلة الضئيلة الجسم – زوجة لولفرد بلنت الثقيل الجثة الضخم

الكراديس – تتحدث العربية الفصحى التي كان من العسير على أي عربي فهم مخارج حروفها أو إدراك معاني كلماتها، كما كان زوجها ورفيق رحلتها إلى حائل، التي نعالجها هنا، بدوره لا يفصح، رغم أنه التقط العربية الدارجة من أفواه الآخرين. ومع ذلك فقد كتبت السيدة بلنت كما كتب زوجها ولفرد سكاون بلنت في تاريخ شبه الجزيرة العربية وتراثها وثقافتها الكثير مما يمكن المؤرخ – بعد النقد – اعتماده بعد رفع زغل الاختلاف الثقافي الموثق بدراستها قبل بدء الرحلة لكتب الرحالة السابقين من أمثال بالجريف وغيره، رغم أن ذلك قد خفف من حدّته كثيراً إعجاب هذين الزوجين "بالعنصر" العربي مقارنة بالعناصر الأخرى. تقول آن إنها قرأت كتاب بالجريف عن رحلته في شبه الجزيرة العربية، فحرك في نفسها "كوامن حنين عارم للوقوف على تلك الأماكن النائية". أما ولفرد فقد بلغ من شغفه بما ورد من أخبار الصحارى والبوادي وأخبار حائل ما جعله يقول إنه يتحرّق شوقاً إلى الوقوف على تلك الأماكن ورؤية حائل مهما غلا الثمن، وإن بُتر رأسه عن جسده بعد ذلك فإنه سيفارق الحياة هانئاً غير عابئ. وكان الرجل – حين نجرّد كلماته من المبالغة – صادقاً، فقد تملّكته في حائل روح العروبة التي تماهت في فكره الفرانكوفوبيا، فكتب يدين سيطرة الفرنسيين القذرين من رعاة الخنازير، المتخمة كروشهم بالخمر، على العرب الأطهار رعاة الإبل في شبه الجزيرة العربية، ثم انتقل من ذلك ليتمنى أن "يعمل الغرب على تطهير روحه بطهر الشرق، ويشفيها بفيض سحره وجماله". ولم يكن ما كتبه ولفرد إلا صدى لما تعتقده آن. فحين تقرأ لأي من الزوجين اللذين ارتبطا معاً في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، لا بد من أن تجد فيه ريح الآخر. كتبت آن عن "حجّها" لحائل، وأكّدت أن ما شاهدته هناك كان أروع ما وقعت عليه عيناها.

تنتمي السيدة آن بلنت إلى الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية، وتدّعي أنها من سلالة الفرد العظيم بلانتقتس والإمبراطور شارلمان. ومن الثابت لدينا أنها حفيدة الشاعر الإنجليزي الشهير اللورد بيرون. وكان الهدف المعلن من رحلات البلنت في الشرق العربي هو الاستمتاع بسحر الشرق. وقد لا ننكر هذا الهدف، فلكل رحالة هدفه الخاص من الرحلة إلى جانب هدفه الرئيس، الذي حدده البعض بالنسبة إلى رحلة البلنت بشراء خيول عربية أصيلة لمزرعة الخيول التي يملكانها. وربما كان هذا الهدف صحيحاً بدوره، ولكن يظل هدف آخر نراه مهماً جداً لم يُذكر رغم أن الشواهد عليه كثيرة ومتواترة. فقد كان ولفرد عرّاباً للقومية العربية، انطلاقاً من عدائه السافر للدولة العثمانية، وكان من أوائل المبشرين بها، الناشطين في الدعوة إليها، فأراد أن يحملها إلى حائل التي كانت في هذا الوقت أكبر إمارة عربية، وكان حاكمها محمد بن رشيد من أقوى الشيوخ العرب. ولم يكن رجال الإمبراطورية العثمانية بغافلين عمّا يقوم به ولفرد، وقد أوقفوه في مصر فترة غير طويلة بعد اتهامه بالجاسوسية، وكانت تلك الإمبراطورية العجوز *في غفلتها عن المبادئ الاسلامية التي أتاحت لها الشرعية لحكم العالم الإسلامي، فاستبدلتها*

بالطورانية، ما هيّأ تربة صالحة لنمو بذور القومية العربية في عصر القوميات الأوروبية الذي كان يعيشه مفكّرو أوروبا وفلاسفتها. وأضحى همّ الغرب ترسيخ هذه الروح القومية في الشرق لدقّ إسفين في علاقة العرب بالترك للإجهاز على دولة آل عثمان، أو بالأحرى دولة الخلافة.

شاركت آن ولفرد فكره ومشاعره ورومانسيّته، وصاغت ذلك كله في كتابها: **القصد إلى نجد** *Pilgrimage To Nejd*، ولعلٍ في كلمة "الحجّ" التي حملها العنوان الإنجليزي لكتاب آن ما يكشف عن تعلّقها قلباً وروحاً، ويعبّر عن مشاعرها الدافقة التي راحت تهفو إلى زيارة حائل التي بدت لها كأنها مقدسة.

كان أول لقاء بين آن وولفرد مع الشرق في عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، وكانت رحلتهما في ذلك العام إلى الليفانت (الشرق الأدنى) رحلة ترفيهية، حيث كان ولفرد يعاني من سوء أحواله الصحية فوجد في أجواء الشرق ما يعينه على الاستشفاء. وما لبث الزوجان اللذان افتتنا بالشرق أن عادا إلى الشام مرّة أخرى في عام ١٨٧٨م، وواصلا الرحلة من سوريا إلى العراق لشراء خيل عربية لإسطبل أسرة ولفرد في جرابت بارك في اسكس. ويقول ولفرد إنه قد افتتن بحب الصحراء خلال هذه الرحلة التي تعرّف فيها الزوجان إلى محمد بن عروق، ابن شيخ تدمر. وحين أخبرهما محمد أنه يزمع الذهاب إلى نجد لاختيار زوجة له من هناك، انتهز الزوجان المهووسان بحب الصحراء – كما جاء عندهما – فرصة مرافقته عبر الصحراء وصولاً إلى حائل، فعادا إلى دمشق مرّة أخرى في ديسمبر ١٨٧٨ للقيام بتلك الرحلة.

الاستعداد في دمشق لبدء الرحلة

نبدأ رحلتنا مع آن وزوجها من أطراف دمشق في رحلتهما إلى نجد التي تقول عنها آن: " يتخيل العرب من أهل شمال منطقة شبه الجزيرة العربية ان إقليم نجد بعيد البون ، ولا يعرفون أن أحدا من دمشق سبق أن شدّ الرحال إليه من قبل " . وتستطرد بلنت لتحكي لنا عن مساكن عرب شبه الجزيرة العربية في دمشق فتقول: في دمشق أو على أطرافها مستوطنة صغيرة تسمى الميدان، يسكنها أهل تدمر، وكان محمد يسكن في تلك الناحية، وقد ذهبنا معه إلى تلك المنطقة لتفحّص بعض الإبل التي اشتراها لحسابنا وأودعها فناء دار صديق له هناك.

تسكن الميدان عائلتان أو ثلاث من تدمر، تعيش في منزل صغير عُطْل من الثراء. غادرت هذه العوائل تدمر قبل ست سنوات في فورة استياء – كما يقولون – ولكنهم منذ وصولهم يتطلعون إلى الرجوع إلى مدينتهم. عندما دخلت آن وزوجها ذلك المنزل لم يجدا فيه أحداً من الرجال، فقد كانوا في هذه الفترة يؤدّون أعمالهم ويتكسّبون من العتالة مثل أغلب التدمريين. واستقبلتهما النساء في ذلك المنزل بحفاوة، وطلبن إليهما أن يجلسا معهن لتناول القهوة التي

تقول آن عنها إنها قهوة ممتازة حقاً، لم يتذوقا مثلها منذ حين. وأرسلت إحدى البنات اليافعات لتأتيهما بالإبل من فناء الدار لكي يتفحّصاها. وقد تعاملت البنت مع الإبل بحذق الرجل الراشد.

ترى بلنت أن اختيار محمد بن عروق للإبل كان موفّقاً، فقد اشترى أربع ذلولات ليتّخذها المرافقون لهما مطيّات، وأربعة جمال لحمل الأمتعة. ولاحظت بلنت أن رؤوس هذه الجمال تبدو قبيحة قبحاً ملحوظاً، غير أن هذه الحيوانات نفسها بدت لها قوية، حتى إنها تستطيع "حمل بوابات غزّة" أو أيّ أثقال أخرى يمكن أن توضع فوق ظهورها. وتستطرد آن لتقول: "داخل نفوسنا شك في أمر أحد هذه الجمال، إلا أن عبد الله – ابن عم محمد – أصرّ على أن كل شيء على ما يرام"، وشهد بأن هذا الجمل مثل الأخرى تماماً، لا يقل عنها في شيء. ولاحظت آن أن أثمان هذه الحيوانات لم تكن باهظة بحال، فقد كان متوسط سعر شراء الواحد منها لا يزيد على عشرة جنيهات استرلينية.

تستطرد بلنت في تأملات فلسفية حين تذكر أن المرء لا يملك إلا أن يتعاطف مع هذه الحيوانات المسكينة حين يستحضر رهق الرحلة الطويلة التي تنتظرها، والاحتمال الضئيل في أن تعيش لتبلغ نهاية رحلتها:

> ومن حسن الحظ أن هذه الإبل هي مثلنا تماماً، إذ إنها لا تعرف أقدارها، وإلا فكم ستبلغ نذالتنا ونحن نسوقها إلى حتوفها إن كنا نعرف بالضبط في أي وادٍ أو منحدر من الأرض ستسقط وتُترك لتموت هناك، كما هو قدر الإبل. وفي الحقيقة أننا إذا كنا نعرف من تلك الأقدار شيئاً، ما تيسّر لنا من الشجاعة قدر يجعلنا نقوم بهذه الرحلة.

تحدثنا آن عن الخيول التي أعدّت لهما ولرفاقهما ليمتطوها، وبدأت بوصف مهرة محمد "جلفة" الصغيرة ذات الثلاث سنوات، وهي المهرة ذاتها التي كان يركبها في العام السابق عندما قابلاه أول مرّة.

> ويؤكد محمد أن مُهرته تستطيع أن تحتمل ثقله البالغ ١٣ حجراً، أما نحن فقد أرسل لنا السيد س (S) مهرتين مع حَنّا من حلب، إحداهما تسمى "رأس الفيداوي"، وهي جميلة وقوية، والأخرى "أبية الشراق" وهي كما تحدث نظراتها الجميلة من دون توهم، قمينة بأن تكون سريعة وقادرة على تحمل ثقل غير كبير.

تفيد آن بأن محمد – رفيق رحلتهما – ظلّ يقضي الساعات الطويلة في البازار مع ولفرد، بينما

اضطلعت هي بمهمات الشراء بصحبة الطباخ والهجّان. وتعبّر عن رأيها في هذا الأخير، وترى أنه مثل سائر حَضر العرب الآخرين، وُلد تاجراً، فقد أنقذها من الوقوع تحت طائلة مشكلات لا حصر لها، ووفّر عليها الوقت وبعض الريالات المجيدية.

تحكي لنا آن عن السلع التي اشترتها شخصياً بمساعدة الطباخ وعبد الله، ابن عم محمد بن عروق، المرافق لها أيضاً، وكانت تشتمل على التمر والدقيق والقمح والبرغل واللبن والجزر والبصل وبعض الفاكهة المجففة، وكانت قد جلبت معها من بلادها مكعبات من الشوربة المجففة وبعض اللحم المجفف وكمية من الشاي. ولاحظت آن أن عبد الله الهجان وحنّا الطبّاخ متمرسان في فن المماحكة والمشاكسة في ما يخصّ الأسعار، فتنافسا معاً في خفض قيمة المشتريات. وتضيف أن هذه الأصناف ظلت عماد مطبخهم في هذه الرحلة، فقد اشتروا منها قدراً يكفيهم حتى يبلغوا الجوف. وتستطرد آن قائلة إنها وزوجها قررا منذ البداية أن يستغنيا عن كافة المأكولات المحفوظة التي يستدعي نقلها وضعها في طرود ذات أحجام كبيرة، لأنها ستزيد من ثقل متاعهما. أما اللحم فقد تعاهدا على ألا يصيبا منه إلا ما تهيّئه الفرص من أرنب بري يصطادانه أو غزال يقعان عليه في طريقهما أحياناً، أو لحم خروف بين الفينة والأخرى. وتحدثنا آن في هذا الصدد عن أنهم حين اجتازوا بعد خروجهم في رحلتهم مضارب بني شكر في طريقهم إلى كاف الواقعة في أعالي وادي السرحان، أهلّ عليهم عيد الميلاد، فأرادوا أن يحتفلوا به بتناول شيء من اللحم الطازج، ولكنهم لم يوفقوا في قنص أيّ طريدة رغم المحاولات الدائبة لكلبهم السلوقي وما بذله الرجال من جهد الطراد على ظهور مهراتهم، وأخيراً أبصروا حواراً صغيراً يرعى فقبضوا عليه ونحروه، ومثّل لهم عشاءً طيباً في تلك الليلة. تقول آن إن الإبل التي يفقدها أصحابها وتهيم على وجوهها هي – بحكم الثقافة المتواترة – ملك لمن يصادفها ويستولي عليها. ولا ندري إن كان قولها صواباً أم هو من قبيل ثقافة رحالة الغرب المتواترة في رواية طريف القول وغريبه، أم تراها ترغب في أن تنتزع لنفسها ومن معها حكماً من القارئ بالبراءة من الاتهام بالسرقة!

اشترى ولفرد حلّة كاملة من الثياب البدوية. وتضيف أنهما لم يفكرا في اتخاذ تلك الثياب للتنكّر، فلم يكونا راغبين في إخفاء هويتهما الأوروبية: "حتى لو كنا نستطيع ذلك، ولكنا أردنا ألا نثير الانتباه حولنا في الطريق بأكثر ممّا هو ضروري". شملت ثياب ولفرد جُبّة حريرية مخطّطة تُلبس فوق ثوب طويل، وعباءة ذات لونين أزرق وأبيض من النوع المصنوع في القريتين، وكوفية سوداء مشغولة بالذهب تُثبّت على الرأس بعقال بدوي مجدول من صوف خروف أسود. وأهدى محمد ولفرد سيفاً دقيقاً منحنياً كالمنجل من صناعة فارس القديمة، فعوّضه ولفرد عنه سيفاً آخر جميلاً يشبه الأول تقريباً ولكنه مكسوّ بالفضة، وكان ولفرد قد اشتراه من البازار.

تستطرد بلنت فتقول إن محمد شُغل بالمساومة في شراء العباءات والكوفيات والسلع الأخرى

المناسبة التي يمكن تقديمها كهدايا للشيوخ الذين قد يلتقونهم، وتشهد لمحمد بأنه خبير بأساليب المساومة، كما كان خبيراً أيضاً بعادات الزي السائدة في كل قبيلة بدوية، وترى أن ذوقه في الاختيار لم يكن يتفق مع ذوقهما، ولكنهما تركاه وشأنه، فهو الأكثر خبرة، ولكنهما اكتشفا بعدئذ أن الغلطة الوحيدة التي ارتكبها في هذا الخصوص هو تقليله من شأن الهدايا الضرورية التي كان عليهما أن يقدّماها لأمير حائل. وتضيف أن محمد – شأنه شأن الكثير من عرب الشمال – لا يدرك مدى الرفاهية التي تخيّم على نجد، ولا يعرف عن شيخ حائل إلا أنه شيخ بدوي. وهكذا بدآ رحلتهما بعد أن استأجرا اثنين من عرب العقيلات دليليْن للطريق.

الخروج من دمشق

تحركت آن برفقة زوجها من دمشق في ١٩ ذي الحجة ١٢٩٥/١٣ ديسمبر ١٨٧٨، و لم تجد بلنت ضرورة لاستبدال ثياب أخرى بثيابها إلا ما كان من أمر استبدال القبعة بالكوفية وارتداء عباءة بدوية فوق سترة السفر الخاصة بها. وأخذت بلنت تسجل مذكراتها يوماً تلو الآخر وهي في طريقها إلى حائل، فلا تكاد تحس أيّ إرهاق أو تعب. مجّدت هذه المرأة الحالمة كل شيء حتى تجهُّم الطبيعة وقسوتها وعبوسها، ورأت في كل ذلك صوراً راقصة مفعمة بالحياة وبالحركة والألحان التي تعزفها الرياح فتغيّر من وجه الأرض، وتورثها حركة دائمة تتناغم مع تلك الألحان. صوّرت آن الزوابع والعواصف في الصحراء، وأجادت حين فارقت كل وصف لرحالة غربي سابق أراد أن يضع القارئ في بؤرة المعاناة التي تجشّمها. صوّرت الإبلِ التي كانت تقلّهم وهي تشق بحيازيمها تلك العواصف، يلامس بعضها أجساد بعض، كأن كلاً منها كان يحتمي بصاحبه. وكانت الإبل، على هذا النحو، تجدّ في سيرها مندفعة إلى الأمام وهي تمدّ أعناقها الطويلة مدّاً، وتحني رؤوسها اتقاء لآثار تلك العاصفة التي حفّزتها على الاندفاع إلى الأمام قدماً بدلاً من أن تثبطها، وترى البدوي على ظهر بعيره ممسكاً بخطامه الذي يهتزّ ويتأرجح في الهواء، بينما ينجرّ ثوبه من خلفه "كشراع قارب ملأته الرياح". وحين صادف ركبهم في يوم ٣ يناير "غزو" في الصحراء قرب إحدى الآبار حيث كانا يتناولان وجبة خفيفة وقت الظهيرة بعيداً عن بقية مرافقيهما، وتمكن المهاجمون من ولفرد واستولوا على بندقية آن غير المشحونة التي كانت معه وكسروا أخمصها على رأسه، كما استولوا على فرسيهما. لم ترَ آن في أولئك "الغزاة" لصوصاً بل فرساناً. "ورحت أصرخ في أقرب فارس منهم حيالي: أنا دخيلك، وهي اللفظة المعتادة عندهم للاستسلام". وانتهى الأمر بسلام حينما وضّحت لأولئك النفر أنهم من الأصدقاء وشرحت لهم مقصدها ومقاصدها، وحلّت الألفة حينما وجد أولئك الغزاة من قبيلة الرولة محمد في ركب البلنت دليلاً. فقد أخبرهم محمد أن البلنت من الفرنجة

وأنهما من أصدقاء نوري الشعلان الشيخ الرئيس لقبيلة الرولة. كذلك كان محمد من تدمر، وكان هؤلاء حلفاء لتدمر، إضافة إلى أنهم يدفعون جُعْلاً معلوماً للشعلان. أعاد اللصوص إلى البلنت فرسيهما والبندقية والأشياء الأخرى التي سبق لهم سلبها، و"كان الأسى بادياً على وجه أحدهم وراح يندب الحظ السيّئ: يا لها من أفراس جيدة، يا لها من بندقية ممتازة". وتعود آن لتشيد بسلوك هذه الجماعة الذين أبدوا الخجل من معاملتهم الخشنة لها، فقد حسبوها في البداية رجلاً، إذ لم يكونوا يدركون أنهم يتعاملون مع سيدة:

> فهم رأوا شخصاً يرتدي عباءة فلم يخامرهم شك حينها في أن من يرتديها ليس رجلاً... أصبحنا على علاقة طيبة، وتحلّقنا في دائرة فوق تلك الرمال جلوساً نأكل التمر ونمرّر الغليون من فم إلى فم بسلام. لقد أصبح أولئك النفر ضيوفنا... إن ما راعنا في هذا الأمر كله هو الثقة التي أولوها كل كلمة قلناها... لقد قلنا لهم الحقيقة فعلاً، ولكن لماذا وثقوا بأنها الحقيقة... إنهم لا يعرفوننا ولا يعرفون محمد ولكنهم مع ذلك صدقوا ما قلناه لهم حتى أصبحنا أصدقاء، مع العلم بأنه كان في مقدورهم أن يذهبوا بكل سهولة بكل ما نملك ومن دون أدنى سؤال، فلن يسمع أي أحد بما فعلوا، ولن يتحرّى أي أحد عن هوياتهم. وغادر اللصوص بعدئذ إلى أطراف الجوف.

ولعل في دهش هذه السيدة من "شهامة" القوم – وإن كانوا يقومون بعمل مستهجن – ما يصوّر لنا المفارقة الثقافية بين الشرق والغرب، والبون الشاسع الذي يفصل بينهما.

في الجوف

انتهت هذه المرحلة من الرحلة إلى الجوف التي قالت آن إن البلدة لم تكن بالصورة التي كانت تتوقعها. فقد توقعت آن أن تجد عند هذه البلدة رقعة زراعية كبيرة، ولكنها لم ترَ إلا مدينة صغيرة تحيط أسوارها ببعض قطع مربعة من الأرض المزروعة لا تتجاوز مساحة كل منها نصف فدان تقريباً. زُرعت هذه الحيازات قمحاً لا يزال في بداية نموّه، ويُسقى كما تُسقى الحدائق داخل أسوار المدينة، بجداول صغيرة منسّقة، حتى لتبدو للناظر كأنها كعكة مزيّنة. وتلاحظ آن أن حوض الجوف كله لا يزيد بالكاد على ثلاثة أميال في أبعد نقاطه. ويبدو أن هذه المنطقة تمثل – من دون شك – حوضاً جافاً لبحر داخلي صغير. ولكن كيف ومتى ولماذا جفّ هذا البحر أصلاً؟ فتلك أمور تقول آن إنها لا تعرف عنها شيئاً، ولا تستطيع إلا أن تردد مع محمد: إنه

"من الله". عموماً، الشواهد على أصل هذا الحوض بارزة في كل مكان، إذ تبدو هذه المنطقة أكثر انخفاضاً من وادي السرحان، وربما كانت متصلة به في يوم من الأيام. وتضيف آن أنها كانت تعتقد أن هذه المنطقة تمثّل آخر مستنقع مائي في بحر جفّ، ثم تبيّن لها بعدئذ أن الحقيقة غير ذلك، فأدنى جزء من هذه الأرض يقع على نفس مستوى التجاويف التي في ذلك الوادي بالضبط. وتقول بلنت إن آبار الجوف على ارتفاع يتراوح بين ١٨٠٠ و١٩٠٠ قدم فوق مستوى البحر، وهي - فوق ذلك - ضحلة لا يزيد غورها على بضع أقدام، وتفيد بأن الماء يستخرج من هذه الآبار بواسطة الإبل التي تربط إلى حبل طويل متصل بوعاء ما يلبث أن يُفرغ حين يصل إلى السطح في حوض من نوع بعينه. أما المدينة - بما في ذلك الحدائق - فمحاطة بسور من الطين يبلغ ارتفاعه عشر أقدام، ولا يتجاوز امتدادها من الشمال إلى الجنوب ميلين، وعرضها ربع ميل، أما الباقي من السهل فهو سطح رملي مستوٍ تماماً، تقطعه هنا وهناك أرض صلدة أو تربة من الرمل الطيني حيث تتجمع مياه الأمطار بعدً هطلها ثم تجفّ فلا يبقى منها غير الملح.

تلاحظ بلنت أن كل حديقة ومزرعة تمور في المدينة كانت مسوّرة. وهنالك حوالى اثنتي عشرة مزرعة من هذه المزارع القاصية التي تبلغ مساحة الواحدة منها اثنين أو ثلاثة فدادين. وتضيف: هناك أربعة أو خمسة منازل متصلة الحدائق، ما أعطاها منظراً شبيهاً بمنظر القرية. ولاحظت أن لون هذا الحوض كله - عدا هذه المساحات المذكورة - شديد البياض يبهر أعين الناظرين، أما حدائق التمور فتبدو كأنها رقع سوداء على ذلك السطح الأبيض. وتستطرد فتقول إن مدينة الجوف نفسها لا تضم أكثر من ستمئة منزل، هي في الحقيقة أشبه بصناديق مربّعة من الطين. وللكثير من هذه المنازل أنواع من الأبراج أو الطبقات العليا، كما لاحظت وجود عدّة أبراج على مسافات غير متساوية بعضها عن بعض فوق السور الخارجي للمدينة.

تصف آن قلعة نائب الحاكم التي شيدت حديثاً على مرتفع من الأرض في المدينة، بأنها مبنى مهيب له أسوار ذات شرفات ترتفع إلى أربعين قدماً، فوقها أبراج مستديرة ومربّعة الشكل ترتفع إلى عشرين قدماً فوق مستوى سطح الأرض. ولا توجد نوافذ في ذلك المبنى الذي زُوّد بثقوب تصوّب منها الطلقات، كما زوّدت تلك الأبراج أيضاً بمثل هذه الثقوب التي تشبه الأطباق في استدارتها، وذلك لنفس الغرض في التصويب.

تقول آن إنها لم تلاحظ ما يشبه البازار، وليس في الجوف ما يمكن أن يشبه الطرق، وذلك حين استلهام معنى هاتين الكلمتين، فالطرق ليست إلا منعطفات ضيّقة تحيط بها أسوار الطين من الجانبين، وتفيد بأنهما عندما دخلا المدينة وجدا أزقتها مزدحمة بعدد من الرجال المسلحين، سود السحنات، كلهم يحملون السيوف. و لم يكن هؤلاء الرجال - كما تقول - سعداء برؤيتهما، إذ راحوا يردون على التحية بمثلها، ولكن من دون أن يتحركوا من أماكنهم، فقد

كانوا يتركون الركب يسير في حال سبيله من دون أيّ إشارة منهم تدل على الترحيب. تقول آن:

> من الخطأ أن نفترض أنهم كانوا غير مهتمين بنا، إذ لا يزيد هذا التجاهل على كونه أسلوباً من أساليب تعامل العرب، ويدل على هذا أن محمد حين أخذ يسألهم عن موقع منزل أقاربه، بادر هؤلاء الجنود برقّة متناهية إلى الإشارة إلى الطريق، بل إن اثنين منهم رافقا ركبنا إلى وجهته.

قاد هذان الجنديان الركب عبر عدد من الأزقّة الفرعية الضيّقة، ثم عبرا حدائق التمور على الجانب الآخر من المدينة حتى انتهيا إلى إحدى المزارع المنعزلة عبر بوابة أخرى. ترجّل الركب أمام منزل حسين الذي راح أهله يستضيفونهم بكرم في "قهوة" منزله الأنيقة. وراحت بلنت تتساءل عن صلة القرابة بين حسين ومحمد، ووجدت أنها عاجزة عن الإجابة، كما تبيّن لها أيضاً أن محمد نفسه لا يعرف عن هذا الأمر إلا اليسير، وخلصت أخيراً إلى أن أيّ رابطة دم، مهما كانت طفيفة، تعدّ عند هؤلاء القوم ذات أهمية قصوى. وما كادت بلنت ومرافقوها يجلسون عند موقد حسين يستمتعون برؤية القهوة وهي تغلي فوقه، حتى دخل إلى "القهوة" أحد أقارب ذلك الرجل مدفوعاً بأخبار وصول الضيوف إلى تلك الدار، ثم جاء بعدئذ رجل آخر، وكان كل من الرجلين يحتجّ بأعلى صوته على استضافة حسين لنا دونهما. وراح محمد يحييهما بالقبلات والعناق، ولكنه لم يستطع إسكات احتجاج هذين القريبين المجروحين بقبول بلنت ورفاقها ضيافة حسين دونهما إلا بعد أن وعدهما بأنه سيبقى في ضيافة كل منهما أسبوعاً، وذلك حالما تنتهي فترة الضيافة في منزل حسين. وتعلّق بلنت على هذا الكرم العربي بقولها: إن الدم هنا أقوى من الماء، فظهور ابن عم ذي قرابة من الدرجة الثانية عشرة فجأة في هذه الديار أمر كاف لربط كل ذي قرابة إلى قريبه ربطاً وثيقاً. وتستطرد بلنت فتقول إن أهل المنزل أكرموهم بذبح خروف، كما تناولت لحم الأيائل المشوي على الرماد "وكان من أطيب ما تناولته في حياتي". ثم أتيحت بعدئذ لكل منهم رفاهية الاستحمام في خيمته وتغيير ملابسه كلها، فقد نصبت للضيوف خيام في حديقة تمر صغيرة خلف ذلك المنزل. "ورحنا نستمتع بالهدوء وبالسلام، ونفكر في ما حدث، ونعمل على وضع خطط للمستقبل".

تقول بلنت إنهم حينما كانوا في "قهوة" مضيفهم يتناولون القهوة التي أفرغوا فناجينها تاسع مرّة أو عاشر مرّة منذ وصولهم، دخل الغرفة اثنان من الشباب وجلسا صامتين. كان هذان الشابان يرتديان جبّتي حرير زاهيتين، وثياباً مطرّزة تظهر من تحت عباءتيهما الصوفيتين الغبراوين، وكان كل منهما قد وضع كوفية قطنية حمراء على رأسه ربطها بحبل أبيض، ويحمل سيفاً حُلّي مقبضه بالفضة. ما إن دخل هذان الفتيان حتى وقف كل من كان في المقهى تحية لهما. واعتقدت آن كما اعتقد ولفرد أن هذين الشابين من أبناء شيخ الجوف أو من أبناء إحدى

الشخصيات المهمة في تلك البلدة. وحين همس ولفرد في أذن حسين بما يظن، ضحك حسين وأجاب بأن الشابين ليسا من أبناء الشيوخ، ولكنهما من رجال الأمير، أو في الحقيقة من جنوده، وأن الكوفية الحمراء والسيف المفضّض المقبض إشارتان إلى وظيفتهما. وعرفت بلنت بعد ذلك أن دوّاساً - نائب الحاكم في الجوف - قد أرسل هذين الفتيين لدعوتها وزوجها إلى لقائه في القلعة. "وعلى الرغم من الأسف الذي انتابنا لمغادرة حديقة حسين الوادعة وخسارتنا ضيافته الكريمة، رأينا أن من الحكمة أن نمتثل للأمر، ونذهب إلى القلعة. و لم يكن حسين ولا أي من الآخرين يرى أن من الممكن رفض تلك الدعوة".

يعكس منظر القلعة - رغم أنها شيدت حديثاً - منظراً من مناظر القرون الوسطى في شبه الجزيرة العربية. فالعمارة في هذه الأرض كما تقول آن لن تتغيّر أبداً. تحدث هذه القلعة عن بناء أخّاذ مهيب، له أربعة أبراج عالية يقف كل منها عند أحد أركانها الأربعة. ولا توجد فيها نوافذ، بل استحدثت في الجدار ثقوب لتقوم مقام النوافذ، وليس للقلعة إلا باب واحد صغير عند زاوية من زوايا السور، وهو مغلق دائماً، أما المدخل إلى القلعة فمتعرّج يتلوّى هنا وهناك حتى ينتهي إلى فناء تحيط به أسوار عالية. وفي هذا الفناء مقهى تجاوره بعض غرف صغيرة أخرى مظلمة وكئيبة حتى لتبدو كأنها حفرت تحت الأرض. ويسكن في هذه القلعة نائب الحاكم مع ستة من جنوده.

تقول آن إنهما لم يقابلا حاكم البلدة، فقد كان في مشكاكا، المدينة الصغيرة في منطقة الجوف، ولا تبعد عنها سوى عشرين ميلاً، وعرفت من البعض أن الحاكم هو أحد العبيد الزنوج، ولكنه رجل يتمتّع بأهمية كبيرة، كما أنه صديق شخصي للأمير.

قامت بلنت بعدئذ بعدد من الزيارات لبعض أهالي المدينة، وتقول إنهم كانوا يستقبلون في كل منزل دخلوه بعدد لا حصر له من أقداح القهوة الممزوجة بحب الهال الذي يسبغ على القهوة مذاقاً طيباً، كما كانوا يكرمونهم بتقديم الكثير من تمر "حلوة الجوف" التي توصف بأنها أميز "حلوة" في شبه الجزيرة العربية كلها. ولاحظت أن هذا التمر ممتاز فعلاً، غير أنه حلو المذاق جداً، ولزج الملمس تماماً، لا يكاد يكون مستساغاً حين يقدم كثيراً. وتستطرد فتقول إن أهل الجوف يعيشون عيشة شبه كاملة تقريباً على التمر، ولكن ليس على "الحلوة"، فهي ليست الصنف الأساسي هنا. وتلاحظ وجود العديد من أنواع التمر وصنوفه، وهو في كثرته وتعدد أصنافه، يضاهي التفاح في الحدائق الإنجليزية. وأضافت أن كل صنف من هذا التمر يختلف عن صنوه. وكانت تفضّل صنفاً فاتح اللون، يمتاز بأنه أكثر استدارة من الحلوة التي هي شهباء اللون غير محددة الشكل، وتستطرد فتقول: من الخطأ الجسيم افتراض أن التمر يمكن أن يكون أطيب مذاقاً حين يجنى ويؤكل طازجاً مباشرة، فالعكس صحيح، لأن التمر لا يطيب إلا بعد أن يحفظ فترة ما. وتلاحظ أن الأنواع الأكثر حلاوة من التمر تحتوي على قدر كبير من السكر،

حتى إنها حين تترك فترة ما في طبق مكشوف يكاد نصفها يذوب عسلاً، وتتكوّن حولها كتل كبيرة من السكر، وتقول إنها لا تشك أبداً في إمكان استخراج السكر الطبيعي منها.

تحدثنا آن عن إعداد القهوة في الجوف فتقول: إنها تُعدّ بالأسلوب نفسه الذي تُعدّ به عند بدو الشمال، غير أن كمية الجهد المبذول في تجهيزها في الجوف هي في العادة أكبر، إذ يبدأ الأهالي بتنقية حبوب البن لتخليصها من الشوائب أولاً، ويقتضي هذا الأمر عملاً مملاً طويلاً. وقد لاحظت أيضاً أن حبوب البن في الجوف أصغر حجماً من مثيلاتها في أوروبا، وأفتح لوناً. وبعد أن تُحمّص هذه الحبوب توضع في جرن وتُدقّ فترة طويلة. ورغم هذا الجهد المبذول، فإنها لا تسحن كلها سحناً تاماً. وتجري بعدئذ عملية غير عادية من الاهتمام بآنية القهوة التي يلغ عددها خمسة أو ستة، إذ تُغسل مراراً وتُنشّف ثم تبدأ عملية غلي القهوة وتقديمها، وعادة ما يقومون بهذا العمل ثلاث مرات متتالية.

تقول آن: إن جِران (هواوين) الجوف أنيقة جداً، فهي مصنوعة من الحجر الرملي الأحمر الذي هو من أحجار هذه المنطقة. وتبدي اعتقادها أن هذا الجرن يصلح مادة للتصدير،

> وكم أحببت أن آخذ معي جرناً منها، ولكنها كانت ثقيلة الوزن جداً، حتى إن الواحد منها يمكن أن يكون ربع حمل بعير. وأجد أن الرسوم التي تزيّن تلك الجران بسيطة ولكنها أنيقة، ولن أستغرب إذا تبيّن لي أن تلك النقوش قديمة الطراز جداً.

أما صناعات الجوف الأخرى التي لاحظتها بلنت فتتمثل في صناعة أحزمة الرصاص المثيرة للانتباه، فهي مزيّنة بالفضة، وقد اشترى جميع العاملين معها عدداً منها. ومن صناعات الجوف أيضاً العباءات التي تنسج من الصوف الذي يفد إلى تلك البلدة من بغداد، وقد وصل سعر العباءة إلى ستة ريالات مجيدية ونصف ريال.

لما كانت الدعوة الوهابية تسيطر في هذه الفترة على ذهن كل رحالة أوروبي، لم يكن يمكن بلنت أن تتجاهل الإشارة إليها. قالت إنهم كانوا ضيوفاً على أحدهم حين نودي لصلاة الظهر من سطح المسجد القريب لذلك المنزل، ولاحظت عدم وجود أيّ منارات في مساجد تلك البلدة. وتقول: إن الحضور تلكّأوا في القيام للصلاة متذرعين بوجودهم، فانبرى شيخ مسنّ يحاضر في الرجال الأصغرين سناً، وطلب إليهم النهوض لأداء الصلاة، ثم قام فأسرع إلى المسجد. وانبرى فجأة الجنديان اليافعان اللذان كانا في صحبتهم يصرخان في المتقاعسين: "قمْ، قمْ"، ولكزاهم بصفحات سيوفهم، ودفعا بهم إلى المسجد دفعاً.

تمكن محمد بن عروق من تحقيق الهدف الذي ساقه إلى هذه البلدة، فقد تمّت خطبته على إحدى بنات عمومته هناك، وكانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، جميلة مهذبة ذكية.

وقد "ظلّ ولفرد يتفاوض مع أهل العروس لثلاثة أيام متتالية بخصوص المهر، وما إن تمّ تحديده حتى جرى عقد الزواج على أن يعود العريس ليدخل بعروسه بعد سنة أو اثنتين".

قصيدة نبطية في مدح آن بلنت وزوجها

تعدّ هذه القصيدة التي مدح بها محمد بن عروق هذه الرحّالة وزوجها، بعد أن تكفّلا بدفع مهر العروس التي اختارها، من قصائد الشعر النبطي التي دخلت بلفظها بالحرف اللاتيني ما لا نجده في كتاب من كتب أيّ من الرحالة المعروفين لدينا. تقول القصيدة:

نحرنا من الشام البلد البعيد
نمشي مع الوديان والبك خلاوي
وطبيت على الجوف داراً جديد
يا عز ما تلفي أبرك خلاوي
نحرت أبو تركي علومي بايدي
ذبح للخطار حائل سمان
يا مرحبا بالبك والست خاتون
طلبت بنته قال جاتك عطية
وسياقها من البك خمسين ومية
خاتون يا بنت الاكارم والاجاويد
خاتون يا بنت الامراء والاكابر
يا رب سلّم لي أخوي البك والست خاتون
يا رب وصّلهم ديار السلامة
وديار العجم وبلاد هاذا الهنود
ويطب البحور سبعاً خلاوي
ويطب على لندرة ويتكلم بفنون
ويحكي للصاحب على ما صار جاري

مشكاكا

حان وقت الرحيل، فشكروا دوّاساً وجنوده الذين بدوا كأنهم آسفون لفراقهم: "لقد كان

هؤلاء القوم كلهم من ذوي الأخلاق الحميدة بما يفوق العادة، فهم قوم صادقون، عاملونا بلطف بالغ".

اتجه الركب إلى مشكاكا التي تبعد حوالى عشرين ميلاً عن الجوف التي ترتبط بها بطريق مطروق دائم الحركة. وقد سافرت آن ورفاقها إليها في مجموعة كبيرة، إذ صحب ركبهم إلى مشكاكا العديد من أهالي الجوف. وكانت تلك المجموعة كلها تسير راجلة، فالجوفي – كما تقول آن – لا يركب، لأنه ببساطة لا يملك حصاناً ولا جملاً ولا حتى حماراً. ولاحظت أن أحد هؤلاء المرافقين يحمل قشرة بيضة نعامة حفظها داخل نوع من الشباك، وتستعمل إناءً للماء، وقد ذكر هذا الرجل أن النعام يكثر في النفود التي أخذ الركب يشرف عليها.

وصل الركب إلى مشكاكا التي تصفها آن بأنها مدينة أكبر من الجوف، وفيها – كما يقال – سبعمئة منزل، أما حدائق التمور فيها فأكثر امتداداً من تلك التي وجدوها في الجوف بمقدار الضعف على الأقل. نزلت آن ورفاقها في منزل المدعو ناصر الذي استقبلهم وأهله بأذرع مفتوحة، ورحّبوا بهم كما لو كانوا يترقّبون حضورهم "كل يوم على مدى هذه المئة سنة الأخيرة. و لم يكن ما وجدناه من كرم أسطورة تُروى، ولكنه كان حقيقة كرماً غير مشوب، وضيافة حقة صافية كريمة".

غادرت آن ورفاقها في يوم ١٢ يناير مزرعة مضيفهم في ذلك الصباح الذي تميّز جوّه بوجود ضباب كثيف، تحفّ بهم دعوات مضيفهم وتمنياته لهم بالبركة والسلامة. وتعترف آن بأن ناصر وأهله عاملوهم فترة وجودهم معهم بلطف أخّاذ، وعبّرت عن أسفها على فراق هذه العائلة، خاصة تركي وعريبي، وقالت:

> هذا على الرغم من أننا قد صدمنا قليلاً حين تبدّدت توقعاتنا في نيات تلك الأسرة عموماً. فرغم طيب محتدها، ورغم تقاليدها النجدية، أصيبت بسقطات أهل المدن، وذلك في ما يخصّ اهتمامهم بالمال. وكم تأذّت مشاعرنا حين طلب إلينا مضيفنا ناصر ونحن نفارق مزرعته هدية نقدية صغيرة سألنا إياها للنساء، فيما تشير الحقيقة التي لا تقبل الشك إلى أنه كان يريدها لنفسه!

وتعود آن لتؤكد حقيقة أن البدوي ذو أنفة وكبرياء لا يمدّ يده متسوّلاً وذلك حين تقول: "من المؤكد أنك لن تجد في تقاليد شيوخ الصحراء من يعمل على اختزان الريالات المجيدية بين أردانه مهما خشي من عضّة الفقر". وتعيب آن على أطفال هذه الأسرة طلبهم أن يتحفوهم بالهدايا، فقد طلب الابن الأكبر عباءة أسوة بأخيه الذي أعطوه واحدة سلفاً، أما الابن الأصغر الذي استقرت العباءة في حيازته فقد سألهم أن يكسوه جبة. وتوافد أفراد الأسرة الآخرون بأوعية

جلدية مملوءة سمناً وتمراً متذرّعين بأنها هدايا وداع، ولكنهم تلكّأوا في إنهاء ذلك الوداع قليلاً انتظاراً لبدائل ما أعطوا. وترى آن ما حدث أمراً عادلاً جداً، وتضيف أنها سعدت لسعادتهم ببعض المال الذي أصابوه، وتستطرد فتقول إن تلك الممارسة لم تكن تتّسق مع المشاعر الطيّبة التي كانوا يعبّرون عنها في مناسبة وبلا مناسبة عن حقوق الضيافة وواجباتها. وتعزّي تلك السيدة نفسها بأن على المرء أن يحتمل هذه الصدمات الخفيفة بروح طيبة، فالناس حيثما كانوا ليسوا سواءً في الكمال. وتعترف بلنت بأنها لا تجد لأي رحالة حقاً في أن يظفر بمعاملة خارج بلاده أميز ممّا وجدته ورفاقها في هذه البلدة، فقد كان الترحيب بهم صادقاً جداً في البداية، "مهما كان شكل الأفكار التي سيطرت علينا في النهاية". وحين حانت ساعة الوداع، أخذ ولفرد يُقبّل "الأقارب" كلهم، الواحد تلو الآخر، ويُعبّر لهم – كما يفعلون – عن النيات الطيبة المتبادلة، ويتطلّع إلى أمل اللقاء القريب. أما آن فقد انتهت إلى الحريم لوداع من بقي من أفراد الأسرة، "ومن حسن حظي أنهن لم يكنّ يتوقعْنَ مني أن أقوم بتقبيلهنّ".

النفود وأساطيره

تقول بلنت إنها ورفاقها حين خرجوا استقبلوا النفود، وأبصروا من على البعد عروقاً رملية حمراء تلوح في الأفق، ترتفع وتتجمع أمامهم كلما اقتربوا منها، وتمتد في خط متصل شرقاً وغرباً. وتستطرد فتقول: كان يمكن أن يتوهموا أولاً أن هذا المشهد قد تشكل من أثر السراب، ولكن حين باتوا على مقربة من تلك الرمال وجدوها تموج كالبحر في اضطرابه للناظر إليه من الساحل. وبدت تلك الرمال كأنها تعلو وتنخفض كفعل الأمواج الملتجّة عند ساحل البحر. وهنا صرخ أحد المرافقين: النفود! لقد أدهشتهم النفود بلونها، إذ لم يكن بين رمالها وبين الرمال التي رأوها سابقاً شبه ما...!

> وكذّبت النفود كل توقعاتنا السابقة، إذ لم يكن بينها وبين الصورة التي رسمناها لها في أذهاننا قبلئذ شبه أبداً، ولكنها مع ذلك هي النفود فعلاً، تلك الرمال الحمراء التي تسكن وسط شبه الجزيرة العربية. وما هي إلا دقائق معدودات من المسير في اتجاهها حتى كانت حوافر أفراسنا تدوس أطراف أمواجها الأولى. قضينا هذا اليوم كله في النفود التي تشدّ الانتباه جداً، وتأسر اللبّ أكثر ممّا كنت أتوقع، وعليّ أن أضيف فوق هذا أن الوصف الذي قرأته عنها في كتاب بالجريف الذي يصوّرها ككابوس مقيم، أو مصدر خوف عظيم، لا ينطبق عليها أبداً.

وتعتذر عن بالجريف فتقول إنه قد مرّ بهذه المنطقة صيفاً بينما يجتازها هذا الركب في منتصف الشتاء، ولكنها تستطرد فتقول إنها تدرك أن الظواهر الطبيعية لا تتبدل كثيراً بالمناخ، وتعود لتلوم بالجريف، لأنه تجاهل الشخصية البارزة لهذه المنطقة. وترى بلنت أن أول ما يسترعي نظر المرء في النفود هو لونها، فهي لا تشبه الرمال البيضاء التي تكوّن التلال الرملية التي اجتازوها في رحلتهم في شبه الجزيرة، ولا هي صفراء مثل رمال بعض مناطق الصحراء المصرية، ولكنها حمراء اللون لامعة متلألئة حقيقية. وتظهر رومانسية هذه السيدة في قولها: إن احمرار تلك الرمال يتلألأ في توهّج حين تكون مبلّلة بالندى، وتلاحظ أن رمال النفود خشنة قليلاً ولكنها نقية تماماً، لا تخالطها أيّ شوائب غريبة من حصى أو حصباء أو تراب، وهي –حيث يتجه بصرك فيها – متجانسة تماماً، لوناً ونسيجاً. وتستطرد فتقول: إنه لخطأ كبير أن نعتبر النفود أرضاً مجدبة، فهي على النقيض من هذا، أكثر عشباً وأوفر مرعى من الصحراء التي اجتازوها منذ أن فارقوا دمشق، فهي صحراء تزيّن وجهها في كل مكان بشجيرات الغضى وشجيرات أخرى يسمونها يرتا. وتضيف أن هذه الشجيرات الأخيرة تظلّ في هذا الموسم من السنة خالية تماماً من الأوراق، وهي في منظرها العام شديدة الشبه بالكروم المتشابكة بكثرة، وهي بجذوعها ذات العقد الكثيرة، وفروعها الليفية، لا تنمّ إلا عن ذلك الشكل، حتى جاء في المتواترات المحلية أن تلك الشجيرات كانت في الأصل كروماً، ثم دعا عليها الرسول صلى الله عليه وسلم – كما يقول راضي دليل رحلتهم – فأجدبت، و لم تعد تحمل بعدها عنباً. وتعتقد آن أن الإبل قد سعدت بالنفود، إذ رعت فيها هذه الشجيرات، إضافة إلى أنواع عدّة من صنوف الكلأ التي تستطيبها الإبل، كما يتوافر في النفود خاصة نوع من العشب لم تسمع عنه آن قبلاً اسمه آدر، يقولون إن الأغنام يمكن أن تقتات به فتصيب منه شبعاً وريّاً، فتصبر شهراً من دون أن تطلب من الماء شيئاً. هذا إضافة إلى وجود أنواع متعددة من الأعشاب الأخرى التي رعتها دوابهم من الإبل والخيول، ما جعلها سعيدة بالمكان تماماً. وتقول آن إنها وصحبها قد سعدوا أيضاً بتوافر حطب الحريق الذي يحتاجون إليه حين ينزلون، وتحكي أن ولفرد قال لها إن النفود قد كشفت له أخيراً السر في قيام تربية الخيل في وسط شبه الجزيرة العربية. ففي الصحراء الجافة لا يتوافر للخيل شيء تأكله، ولكنها هنا تصيب الوفرة، وتستطرد لتقول إن زيارتهم للنفود قد فسّرت لهم كثيراً من الأشياء، فهي كما عرفوها ليست ذلك المكان المزعج الذي وصفه الرحالة القلائل الذين عبروها قبلهم، بل هي في الحقيقة موطن البدو يعمرونها موسماً كبيراً من السنة. فالنفود لا تفتقر إلا إلى الماء، إذ لا توجد فيها إلا بعض آبار على أطرافها المأهولة بكثافة. ويقول راضي – كما جاء في كتاب آن – إن النفود تزدهي في موسم الربيع، بعد هطل الأمطار، بالخضرة، فيعمرها البدو الذين تفيض ضروع نياقهم لبناً فلا يأبهون حالئذ للماء ولا يطلبونه، ويظلون على هذا المنوال يعيشون عدّة أسابيع على لبن النوق، ويتوغلون في قلب تلك الصحاري الرملية.

سار الركب طوال اليوم في النفود على مهل، وشُغل الزوجان بدراسة ظواهرها الطبيعية. تقول آن إن هذه الأرض بدت لهم في البداية كأنها في حالة فوضى شاملة، حيث تتبادل قمم التلال الرملية مع القيعان التي تشبه حدوات الخيل وتتراوح أحجاماً، لكنها متماثلة تماماً في أشكالها واتجاهات تكويناتها. وما إن سار البلنت فوق تلك الصحراء بعض ساعات حتى أدركا فيها تناغماً يسري من خلال تلك الفوضى التي كانوا يُشغلون بمحاولة تفسيرها. وترى آن أن أبرز الظواهر في النفود تكمن في تلك التجاويف المنتشرة على أديمها، وتلاحظ أن تلك التجاويف التي يسمّيها راضي "فلوجاً"، رغم اختلافها في الحجم اختلافاً يتراوح بين فدان ومئتي فدان، كلها متماثلة في أشكالها واتجاهاتها. ويشبه "الفلج" تماماً أثر الحصان الذي لم يمسّ حافره نعل، حيث يمكن المرء أن يتخيّل شكل مقدمة الحافر محفوراً حفراً بارزاً وقائماً، بينما يتدرج الأثر عند المؤخرة حتى يتلاشى. أما الأرض المتكسرة في الوسط، التي كوّنتها المسارات المتعرجة للمياه، فتماثل الفرجة بين فجوتي حافر هذا الحيوان. ويصل قطر بعض هذه الفلوج إلى ربع ميل على الأقل، أما أعمقها، الذي تيسر قياس أبعاده، فقد بلغ مئتين وثلاثين قدماً، كذلك وجدت أن عمق الفلج الذي يليه يصل إلى مئة وأربعين قدماً. ورغم أن الرمال التي تشكل جوانب هذه الفلوج هي رمال غير مشوبة بشيء آخر، وأنها كانت أبداً في حركة مستمرة، من الملاحظ أيضاً أن الشكل العام لهذه الفلوج كافة قد استقر على حاله تلك من دون تغيير سنوات طويلة أو ربما قروناً عديدة. وترى آن أن النباتات التي تنمو في هذه المنطقة تبرهن على صحة ما ذهبت إليه، فهي تكسو هذه الفلوج كما تكسو المناطق الأخرى في النفود منذ زمن بعيد، و لم تكن كما يبدو بنت الأمس القريب. وتذكر آن أن دليلهم الذي قطع النفود مراراً غادياً ورائحاً أكثر من أربعين عاماً يؤكد أن حال سطح أرض النفود لم يعترِه أي تغيير أبداً منذ أن خبرها، فلم تهبّ عاصفة لتملأ هذه التجاويف يوماً ما، بل إن الرياح لم تذهب يوماً ما بحوافها. ويدّعي الدليل أنه يعرف – منذ أن كان يافعاً – كل هذه التجاويف الثابتة الشكل: "لقد خلقها الله هكذا"!

لقد برهن راضي، ذلك الدليل الضئيل الجسم، على أنه كسب عظيم للمجموعة، فهو رجل جاد لا يني يقدم كل نوع من المعرفة عندما يسألونه، رغم أنه ليس بالثرثار بطبعه. وتصفه آن بأنه رجل صغير الجسم، أسمر اللون، يابس العود، متآكل، حتى يبدو كأنه من فروع شجيرات اليارتا التي يجدها الإنسان في هذه الصحراء. وهو فوق هذا وذاك، محبّ للاستطلاع. ويمتطي "ذلوله" التي تشبهه، فهي مثله حزمة عظام نخرة بالية تبدو كأنها لن تتمكن من أن تعيش لتبلغ بصاحبها نهاية الرحلة. وتصوّر آن حال راضي وهو جاثم فوقها في صمت شديد ساعة بعد ساعة، يشير بين الفينة والفينة بيده اليابسة إلى الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه. وكان يحمل معه على تلك الراحلة جرناً من الجِران المصنوعة من الأحجار الرملية، جلبه من الجوف

ليهديه إلى أحد أقارب أمير حائل. ويبدو أنه كان قد وضع هذا الجرن ليعادل قربة المياه التي تتدلى من الجانب الآخر من تلك الراحلة. وقد يتحدث راضي مع آن وولفرد أحياناً ويسرد لهما من وقت إلى آخر بعض القصص التي تقشعر لها الأبدان، عن أولئك الأشخاص الذين لقوا حتوفهم هنا في النفود في سالف الأيام. فمن المعتاد أن يصادف المرء في كل تجويف رملي عظاماً لإبل نافقة أو "لإبل حسين" كما يسمّيها راضي، وإذا سأله سائل: من يكون حسين هذا؟ لم يجب إلا بابتسامة.

وجدت جماعة آن في قاع أحد الفلوج عظاماً من نوع آخر، فقد هلك في هذه المنطقة "غزو" واختلطت عظام الإبل هنا بعظام الرجال. وعرفوا أن هذه الهياكل البشرية كانت لأشخاص من قبيلة الرولة الذين اخترقوا النفود خلسة ليغيروا على شمّر، وحين همّ أولئك الرجال بالرجوع ماتوا قبل أن يبلغوا منطقة شقيق. وتصف آن حال هذه العظام النّخرة التي تعكس لوناً أبيض، رغم أن فتاتاً من الجلود اليابسة كانت لا تزال عالقة ببعضها. ويقول راضي إن هؤلاء القوم قد قتلوا قبل عشر سنوات، وأشار في مكان آخر إلى كومتين من الحطب تفصل بينهما حوالى ثلاثين ياردة، وذكر أنهما تُعدان معلماً للمنطقة التي فاجأ فيها أحد شيوخ وادي السرحان غزو شمر الذي كان قد استولى على إبل لهم. ويروي راضي أن ذلك الشيخ قد رمى بحربته على مدى هذه الثلاثين ياردة، فاخترقت "عقيد" شمر وسمّرته إلى فرسه التي لاقت بدورها حتفها بتلك الرمية نفسها، كما أشار إلى بقايا رفات لنحو أربعين فرداً من السويلمات الذين كانوا يقطعون هذه المنطقة على إبلهم وضلّوا طريقهم فيها، فهلكوا عطشاً.

أصبحت آثار الإبل التي هي إبل الرولة من دون شك أكثر تواتراً عند نهايات النفود، وكانوا يصادفون أحياناً أثراً لبعض الخيل، وأبدت آن اعتقادها بأنهم كلما توغلوا داخل شبه الجزيرة العربية أصبح وجود الخيل أكثر ندرة.

انقطعت في النهايات القصوى للنفود بعدئذ آثار الحيوانات، فلا تكاد تجد أثراً لحيوان غير الضبّ. وسار راضي بذلك الركب حتى بلغ خطاً من الإشارات الأرضية التي لا يكاد المرء يبصرها، ولكنها كانت معلومة لديه تماماً. يتجه هذا الخط جنوب الجنوب الشرقي، وهذا هو ما قاله راضي إنه طريقهم الذي سيسلكونه، أو بالأحرى طريق أبي زيد الهلالي. وتلفّتت المجموعة فلم تجد أثراً لطريق "إلا إذا توهّم الإنسان أنه يستطيع أن يرى طريقاً مرتسماً على سطح مياه البحر". وراح راضي يقصّ هذه القصة: "عمّت نجد – قبل عدّة سنوات – مجاعة، ولم يجد بنو هلال ما يقتاتون به، فأشار أبو زيد على قريبيه مرْبع ويونس بأن يضربوا جميعاً في اتجاه الغرب بحثاً عن مراع جديدة لأهلهم وعشيرتهم. وخرج الرجال الثلاثة يضربون في الأرض حتى بلغوا تونس الغرْب التي كان يحكمها أمير اسمه الزناتي. رأى أولئك الرجال تلك الأرض وأعجبوا بها، وكانوا يزمعون الرجوع إلى قبيلتهم لإبلاغهم الأمر، ولكنّ الزناتي

تمكن منهم وأودعهم السجن. وكانت للزناتي بنت رائعة الجمال ما إن وقعت عيناها على مرْبع في سجنه المحفور في باطن الأرض حتى وقعت أسيرة هواه وخطبته لنفسها، ووعدته وزميليه بإنقاذ حياتهم. و لم يأبه مربع لتلك الفتاة أولاً، ولكنها بدت مصرّة على حبها، مقيمة عليه، وسعت في أن تسدي إلى ثلاثتهم معروفاً لعلّهم يشكرونها عليه، فشفعت لهم عند والدها لكي يبقي على حياتهم، واستجاب الوالد لطلب ابنته. ثم عصفت الهواجس بالزناتي فعرف من ابنته أن سجناءه ينحدرون من أرومة طيبة، واحتار وما عاد يدري ماذا يمكن أن يصيب من سجنهم.

نقلت الفتاة إليهم بعدئذ هذا الخبر، فاقترحوا عليها أن تقنع والدها بإطلاق سراح أحدهم ليعود إلى موطنه، ويرجع له بفدية لزميليه. وفي الحقيقة حزم هؤلاء الرجال أمرهم سرّاً على أن يكون أبو زيد هو مبعوثهم إلى القبيلة. وبناءً على ذلك، بدلاً من أن يرجع إليهم بالفدية، يسوق القبيلة كلها إلى تونس لتعمل على الثأر لهم، وفكّ إسارهم.

نقلت الفتاة إلى والدها اقتراح افتداء أسراه وقالت له إن في هذه المجموعة اثنين من السادة، أما الثالث فهو عبد رقيق، وأضافت أنها تستطيع أن تميّز العبد من بين مجموعته، واقترحت على أبيها أن يرسل العبد ليعود بفدية لسيديه. وتساءل الزناتي كيف يمكنه أن يكتشف العبد من بينهم ويعرفه؟ فأشارت عليه ابنته بأن يدفع بالرجال إلى مستنقع طيني تغمره المياه، ويطلب إليهم اجتيازه، وهناك ستدرك من هو العبد فيهم، لأن العبد هو من سيرفع ثوبه حرصاً عليه من أن يتّسخ. أما السيدان فإنهما لن يأبها للثياب وسيتركانها تتّسخ. ووافق الوالد على خطّة ابنته.

في الصباح التالي، أتى رجال الزناتي بالرجال الثلاثة من سجنهم وطلبوا إليهم أن يخوضوا مستنقعاً طينياً. ولما كانت الفتاة قد أبلغت أبا زيد بالقصة، فقد عمد بدوره إلى وضع عباءته فوق رأسه، وشمّر عن ثيابه حتى الخصر، بينما خاض مربع ويونس المستنقع من دون إبداء أي حذر. ونجحت الحيلة، فقد أطلق الزناتي سراح أبي زيد فعاد إلى نجد، وهناك جمع رجاله كلهم وقادهم في هذا الطريق الذي أشار إليه راضي عبر النفود إلى تونس. وعمد رجال القبيلة في مسيرهم إلى خط ذلك الطريق حتى يتبيّنوه عند رجوعهم، ويعودوا منه إلى ديارهم في سلام. وهكذا سار أبو زيد برجاله إلى تونس وحاصر تلك المدينة.

استمرّ أبو زيد على حصاره للمدينة سنة كاملة، ولكنه لم يتمكن من دخولها، وما كان له أن يدخلها إلا بجهود تلك الفتاة المتآمرة مع المجموعة ليبلغ النجاح المنشود. "كانت تلك الفتاة راشدة تعرف القراءة والكتابة وفنون السحر وتفسير النبوءات". وتشير نبوءة خاصة بالزناتي كانت تعرفها تلك الفتاة عن أبيها أنه لا يمكن قتله في أيّ معركة إلا بواسطة شخص يدعى ذياب بن غانم، وهو رجل يعمل في قطع الطريق في الصحراء المجاورة لتلك المدينة. ولما عرف أبو

زيد خبر تلك النبوءة، عمل من فوره على تعيين ذلك اللص في خدمته. وحين وقعت المعركة التالية وخرج الزناتي للقتال، تصدى له ذياب وذبحه. وأصبح أبو زيد بعدئذ أميراً لتونس، بينما تزوج مربع من فتاته.

تعلّق آن على هذه القصة فتقول: "في الحقيقة إننا حين نعود إلى الواقع نرى أن من المستحيل علينا أن نقول بوجود طريق هنا أصلاً يشهد لرواية راضي أو يفضحه إن كان كاذباً، فلا وجود للطريق أمامنا إلا في عيون راضي".

في الحقيقة كانت ذاكرة القصص الشعبي تختزن الكثير المختلف من حكايات أبي زيد الهلالي التي تروى نثراً وشعراً في كل البوادي والحواضر العربية، خاصة في شبه الجزيرة العربية ومصر وتونس والسودان واليمن وغيرها. ويُعد برترام توماس من أهم الرحالة الغربيين الذين سجلوا العديد من الروايات عن أبي زيد الهلالي، استقاها من أفواه مرافقيه العمانيين حين كان في رحلته التي اجتاز فيها الربع الخالي.

تذكر آن أنهم قضوا يومهم ذلك يشقّون طريقهم عبر النفود شقّاً متعرجاً، ينحدرون إلى أرض مفرطة الميل شديدة الانحدار، ويسيرون أحياناً سيراً دائرياً ليتجنّبوا فلجاً، ثم ما يلبثون أن يلفّوا ويدوروا في منحنيات لأسباب غير معلومة لديهم، ولكنهم كانوا في كل مرّة يجدون أنفسهم وقد اعتلوا رمالاً لم تطأها أقدام غيرهم أبداً - كما تقول -، وأصبحت الأرض في بعض تلك المناطق أكثر تكسّراً مما كانت عليه سابقاً، كما صارت الفلوج أكثر اتساعاً وأبلغ عمقاً، ما أورث المسيرة عسْراً، غير أن كل إبلهم وخيولهم ظلت تسير قُدُماً في ثبات وتؤدة، وتمكنت من قطع حوالى واحد وعشرين ميلاً في ذلك اليوم.

هبّت في الليل عاصفة رعدية ممطرة، فلما أصبحوا وجدوا لون الرمل قد تغيّر من جرّاء تلك العاصفة فصار قرمزياً. وقد ابتهج راضي بهطل تلك الأمطار واستبشر قائلاً: الآن سنبلغ جبة إن شاء الله، ويبدو أنه كان في شك من ذلك الأمر. ثبّتت تلك الأمطار الغزيرة الرمال، واستطاعوا أن يشقّوا طريقهم بسرعة توازي السرعة التي كان يمكن أن يبلغوها إذا كانت الطريق حصوية. ولاحظت آن آثار الحيوانات الشاردة جليّة على الرمال، فقد غدت بعد الأمطار أبلغ وضوحاً، فبدت لهم "كأنها رسمت على جليد سقط على الأرض لتوّه". لاحظت آن أن آثار الأرانب البرية كانت هي الأكثر، وأن أحجام تلك الأرانب يضارع أحجامها في ديارهم، وراحت كلابهم تطارد العديد من تلك الأرانب وتلاحقها، ولكن مجهوداتها غالباً ما تذهب هباءً، فشجيرات الغضى والشجيرات الأخرى في المنطقة تحجب تلك الحيوانات عن كلابهم. وتيسّر لهم أيضاً في ذلك اليوم أن يتجوّلوا على صهوات جيادهم مرّة أو مرتين فرادى غير مصحوبين، فلم يكن ثمة خطر من أن يضلوا الطريق إلى القافلة، إذ يمكنهم العودة إليها مستهدين في إيابهم بآثار خيولهم في الذهاب.

صادفت قافلة بلنت – إلى جانب هذه الأرانب البرية – عدّة أنواع من الطيور الصغيرة، منها الزقزقية والنمنمة، وقبّرة الصحراء، وطيور الجنّة، وبعض الغربان، كما استرعى انتباه تلك السيدة منظر زوجين من القماري "كانا يبدوان هانئين". أما الزواحف، فتذكر آن أنها الأكثر وجوداً في النفود، فآثار الضب تغطي سطح الصحراء كلها، كما مرّوا بين حين وآخر على خطوط تدل على الثعابين. ورأوا اثنين منها من النوع المسمّى "سليمان". وهو النوع السائد في أكثر أرجاء تلك الصحراء، وقتلهما الرجال المرافقون. تصف آن ثعبان "سليمان" بأنه طويل نحيف، فاقع اللون، صغير الرأس، وعرفت أنه غير مؤذ، وتضيف: إن هطل الأمطار قد دفع بتلك الهوام إلى أن تخرج من جحورها لتنال حظاً من دفء الشمس. وسألت آن راضي عن الأنواع الخطرة من الثعابين في النفود، فوصف لها الحيّة ذات القرون، والحيّة الرقطاء (الكوبرا)، وتقول آن:

> كم أدهشني أن أسمع عن وجود هذه الحيّة الأخيرة هنا، ومن المستحيل أن أخطئ في فهم وصف ذلك الثعبان الذي يقف على مؤخّرة ذيله، وتنتفخ أوداجه، حتى تصير كأنها الأجنحة. وقد أخبرنا راضي بأن هذا النوع الأخير من الثعابين لا يظهر في هذه المنطقة إلا صيفاً.

تعتقد آن أن الغزلان غير موجودة في النفود، ولكنهم عثروا على آثار غير دارسة لزوجين من البقر الوحشي مرّا لتوّهما. وقد أكد راضي أن هذا البقر الوحشي لا يفارق النفود أبداً، وأنه لا يشرب الماء البتة. وتؤيّد آن هذا الاعتقاد، إذ لا يوجد أي أثر للماء فوق سطح الأرض في تلك المنطقة إلا قرب جبل أجأ. وتضيف: "ولعل في هذا ما يؤكد قدرة هذا الحيوان على الصبر على العطش". وتستطرد آن في وصف هذا الحيوان، وترى بعمق آثار أقدامه على الرمال أنه في حجم الغزال الأحمر الكبير، وتشير إلى أنها كانت تتوق إلى رؤية شكل صدر ذلك الحيوان الذي أكدوا لها أنه يشبه صدر البقرة تماماً، وتضيف أنها تشك في ذلك، وذكرت أنها كانت تتطلّع بشغف أيضاً إلى رؤية النعام في النفود، إلا أنها لم تصادفه أبداً. وتحكي آن عن حشرات النفود التي تضم بعض الأنواع من الذبابة العادية، والذبابة الفارسية، وكذلك بعض الفراشات الصغيرة، أما نباتات قلب النفود فهي ذات الحشائش التي صادفوها على أطرافها، غير أنها أكثر وفرة من سابقتها، وتعتقد أن سبب ذلك يرجع إلى عدم وجود الإبل التي ترعى هذه الأماكن النائية.

لاحظت آن أن راضي كان يتلمّس طريقه معتمداً على ظواهر أرضية معيّنة. كان ينزل عن ذلوله عند كل تلّ رملي عالٍ ليكسر بعض فروع من الغضى التي كانت هشة جداً، ويضيفها إلى كومات الحطب التي كان قد وضعها في تلك المواقع في رحلاته السابقة، وتضيف أن المرء

يمكنه أن يرى تلك الكومات من مسافة بعيدة جداً، وتدّعي أنها وزوجها قد تعلّما منه كيف يمكن أن يتعرّفا إلى الطرق الصحراوية، فما عليهما إلا أن يتحرّيا عن وجود بعر الإبل بنحو متقطّع، وكذلك وجود آثار أقدام في بعض الأحيان عند جوانب المنحدرات العميقة. بمثل تلك الظواهر راح راضي يستدل على طريقه،

> ويقف متلفّتاً أحياناً كما تفعل كلاب صيدنا عندما تفقد رائحة الفريسة. و لم أجد عند دليلنا ولا عند محمد ولا عند أيّ من العرب الآخرين الذين رافقونا في رحلتنا أدنى معرفة بالاهتداء إلى الطرق بالشمس. وقد حدث أن سأل ولفرد محمد إن كان يستطيع أن يعود أدراجه من هنا إلى شقيق فأجاب: وكيف يتأتّى لي ذلك، إن كلاً من هذه التلال هي نسخة طبق الأصل عن الأخرى!

تذكر آن أن راضي ظلّ يمتّعهم "بقصص الدماء والعظام النخرة". ولعل أكثر تلك القصص إثارة للذعر هي تلك القصة التي رواها عن بعض الجنود الأتراك الذين تركوا قبل عدّة سنوات ليموتوا عطشى في النفود غدراً. قال راضي:

> إن أولئك الجنود كانوا قد احتلوا حائل في عهد ابن رشيد الأول، وظلوا هناك حامية للبلد. ولكن يبدو أن السلطان العثماني الذي أرسلهم لم يتمكن بعدئذ من الاتصال بهم، أو ربما نسي أمرهم، ولهذا رغب أولئك الجند في العودة إلى ديارهم، خاصة بعد أن هلك العديد منهم في حائل، ووافق الباقون، وعددهم نحو خمسمئة فرد، بسهولة على أن يغادروا حائل إلى دمشق في صحبة عبيد – أخي الأمير – الذي كان قد صمّم على أن يُرديهم. ركب هؤلاء الجند جيادهم وخرجوا من حائل مع أدلّائهم الشمريين حتى وصلوا إلى هذا المكان. وكان الجند الذين أرهقهم الظمأ كلما استفسروا عن الآبار أجابهم الأدلّاء: سنصلها بعد حين. و لم يزل الأدلّاء يكررون هذه الإجابة لاستفسارات الجنود الذين أضناهم العطش، وهرب الأدلّاء بعدئذ وهجروا أولئك الجنود، وتركوهم يهيمون على غير هدى في تلك الصحراء الجدباء الموحشة.

ويضيف راضي:

> إن أولئك الجند كانوا فتياناً شجعاناً غير هيّابين، لأن آخر ما أُثر سماعه عنهم

وهم يصارعون الموت جرّاء العطش نوع من النشيد الجماعي: "نحن عسكر السلطان ما نحن العطاشى ، نحن العسكر ما بنريد موية". ولكن ما إن حلّ ظهر ذلك اليوم المشهود حتى خانتهم أطرافهم فاستلقوا تحت بعض الشجيرات لينالوا حظاً من ظلها غير الظليل. وبعد فترة ليست بالطويلة عثر على أولئك الجنود جثثاً مشتتة في الفلوج المختلفة، أما خيولهم فقد وجدت طريقها إلى جبة، وهناك أصبحت غنيمة لكل شخص يستطيع اللحاق بأي منها. وقد تيسّر لأولئك الرجال المحظوظين بيع تلك الخيول التي غنموها، واستبدلوا بها بعض الخراف والأغنام.

وفي الحقيقة ظلت هذه القصة التي لا نجد لها أثراً في المصادر العثمانية أو العربية تكرّر عند بعض الرحالة الغربيين الذين قطعوا النفود.

روى راضي قصة أخرى كانت أكثر بهجة من سابقتها، جاء فيها أن اثنين من العاشقين الصغار فرّا من الجوف، وراح أقارب كل منهما في إثره يبحث عنه. ولما كان العاشقان يدركان أن هنالك من قد يقتفي أثرهما، آثرا أن يتجنّبا الفضيحة، وأن تتباعد خطى كل منهما عن خطى حبيبه، وذلك بألا يسيرا معاً، بل يسلكان خطين متوازيين يفصل بينهما حوالى مئة ياردة. وهكذا بدأ العاشقان رحلتهما، ولكنهما ما إن وصلا إلى فلج معيّن – عيّنه راضي –حتى بلغ منهما التعب كل مبلغ، ولجأ كل منهما منفرداً إلى ظلّ شجرة ليموت تحتها، ولكن الأهل أدركوهما – لحسن الحظ – قبل فوات الأوان. وسُرّ أقارب كل من الشاب والفتاة بما أثبتته أقدامهما من براءتهما، ما جعلهم يوافقون على زواجهما، وأقيمت الأفراح بعد ذلك ودامت الليالي الملاح.

حكى راضي عن ابن رشيد أيضاً وكيف تمكن من الوصول إلى السلطة بيدين ملطختين بدماء أبناء أخيه الأربعة وعدد من أبناء عمومته، وأضاف أن الناس يعزون حالته "الطفولية" إلى غضب الله عليه ومجازاته له عن جرائمه التي ارتكبها بحرمانه من الذرية. كذلك حدثهم أيضاً عن عبيد، عم الأمير، المتوفى الذي لم يكن حاكماً في حائل إلا أن سمعته الأسطورية كانت حديث المنطقة. قيل إنه حين فارق الدنيا من قبل حوالى تسع سنوات لم يترك من حطامها إلا سيفه وفرسه وزوجته الصغيرة، وأوصى ابن أخيه، محمد بن رشيد، بالحفاظ على سيفه من دون أن يستعمله أي أحد، وعلى فرسه من دون أن تُركب، وعلى زوجته من دون أن تُنكح. وقد التزم الأمير بتنفيذ رغبتي عمّه الأولى والثانية، ولكنه اختار أن تدخل الزوجة ضمن حريمه.

جبة

قطعت تلك القافلة الصغيرة شوطاً كبيراً في النفود حتى وصلت إلى جبة التي قدّمت آن لها وصفاً تفصيلياً. تذكر آن أن جبة أغرب مكان في العالم وأكثر بقاعه جمالاً، وتذكر أن اسمها قد اشتق من "الجُب"، ولعل في هذا ما يترجم موقعها ويعرّف به، فهي تقع في حفرة أو في بئر من النفود. وفي الحقيقة لا تقع جبة في فلج من فلوج النفود المذكورة آنفاً، فحوضها يختلف في مقداره نسبياً عن الفلوج، أما شكله فليس له أي شبه بالمنخفضات التي تشبه حوافر الخيل التي أشارت إليها هذه السيدة آنفاً، وترى جبة بلدة متفردة تماماً، ومن الصعوبة أن تعلل تكوينها جيولوجياً مثلها في هذا الصدد مثل الفلوج، فهي سهل عارٍ كبير وسط محيط من الرمل، يرتفع فوق سطحها بمقدار ٤٠٠ إلى ٥٠٠ قدم. تقع جبة كما ذكرت آن في فجوة، ولكنها تلاحظ أنها فجوة مختلفة عن تلك التي تضم الجوف، لأن جبة تحيط بها النفود من كل جانب، أما الجوف فتحيط بها صخور تلال الحجر الرملي. فالأخيرة – كما تقول آن – كانت بحيرة، وذلك أمر واضح تماماً، إذ تشاهد عند الجوف آثار الماء عند سفوح تلك الصخور النابية من مراقدها في أعالي تلك المنطقة في فترة سابقة من تاريخها، أما في جبة فإن الأمر الغريب الذي لا تجد له آن تفسيراً هو سر احتفاظ حوضها بفراغه من دون أن يطمره الرمل، وراحت تسأل ما القوّة التي تحجب عنها تدفق النفود وتمنع توغلها، وأضافت أنها عندما تنظر إلى تلك السبخة أو إلى المجرى المائي الجاف لهذه الفجوة المتمثلة في جبة ثم تحوّل نظرها بعد ذلك إلى النفود تبدو لها رمال الأخيرة كأنها موجة ضخمة الارتفاع تكاد تضرب هذا المكان وتجتاحه اجتياحاً، ومع ذلك تبقى تلك الرمال ثابتة لا تنهال على ذلك المنخفض الذي ظلّ محافظاً على حدوده بدقة.

تذكر آن أن المدينة نفسها أو قل القرية (لا يوجد هنا سوى ثمانين منزلاً) تقف على طرف سبخة ترتفع إلى ٢٨٦٠ قدماً فوق سطح البحر. وتمتاز بوجود حدائق التمر مثل تلك التي سبق أن صادفوها في الجوف. وتلاحظ أن مساحتها في جبة أصغر من سابقتها، وتذكر أن تلك الحدائق تروى من آبار يبلغ عمقها ٧٥ قدماً يستخرج منها الماء بواسطة الإبل، كما هي الحال في كافة مناطق شبه الجزيرة العربية. وتستطرد فتقول إن هذه القرية بسورها الصغير ذي الشرفات، وبحدائقها أيضاً، تعكس جمالاً أخّاذاً إلى أقصى الحدود.

> وتقف عند مدخل هذه القرية بعض أشجار الأثل العجوز التي لا يزيد عددها على ست، تيّاهة بجذوعها غير المستوية ولا المنتظمة وفروعها التي تراقص الريح. أما الصخور التي تطل عليها من علٍ فعظيمة جداً، وهي من الحجر الرملي الأرجواني

اللون الذي تداخله عروق حجرية أخرى صفراء، أما الجزء العلوي منها فأسود داكن. وترتفع هذه الصخور إلى ٧٠٠- ٨٠٠ قدم فوق سطح الأرض، أما سفوحها فقد غسلت بآثار مياه نضبت منذ فترة بعيدة.

تذكر آن أن جبة تسند أكبر قسم من ظهرها إلى التلال، وفي جانب منه إلى شريط رملي أصفر اللون. "هذا هو وجه جبة الخارجي"، أما من الداخل فتذكر أن منازل البلدة أقل سحراً وتأنقاً من منازل كاف.

وفي الحقيقة لا أستطيع أن أوصم منازل هذه البلدة بالقذارة، فالقذارة في هذا الإقليم الرملي أمر يرقى إلى الاستحالة. ولعل من نافلة القول أن نضيف أن من البركات التي تنعم بها النفود طولاً وعرضاً ظاهرة عدم وجود حشرات سامة. تخلو النفود كلها، وكذلك نجد التي تقع وراء النفود، من هذه المخلوقات الضارة التي تحيل الحياة عذاباً في مناطق أخرى من الشرق.

ولاحظت آن أن القراد الذي كان عالقاً بكلابهم قد مات ما إن استشرفت تلك الكلاب رمال النفود الحمراء ودخلت في دائرتها.

ومع هذا يجدر القول إن جبة كان يمكن أن تكون قذرة لو كان ذلك في مقدورها، فالناس هنا - في الحقيقة - فقراء مدقعون، ولا تربطهم بالعالم الخارجي أيّ روابط، اللهم إلا حين يطرقهم المسافرون القلائل الذين يأتون من حائل في طريقهم إلى الجوف، ويبقون ليلهم في هذه البلدة.

تذكر آن أن شيخ البلدة كان قد توفي حديثاً وارتقى منصة الشياخة فيها رجل صغير السن يتراوح عمره بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين. وتذكر أيضاً أنه لم يكن في مقدور هذا الشاب أن يفرض نفوذه على أقرانه من مجموعة الشباب، "تلك الزمرة الفارغة المجعجعة". وتلاحظ أن أسلوب الضيافة في منزل هذا الشيخ لا تختلف عن أيّ منطقة عربية أخرى حلّوا بها:

فهناك في مثل هذه المناسبات قدر كبير من شراب القهوة يُصبّ، وقدر كبير من الحديث يُراق. وفي الحقيقة حيثما يسير الإنسان في شبه الجزيرة العربية يستطع أن يطرق أي بيت يشاء وهو واثق من أنه سيلقى الترحيب، فالمقهى مفتوح طوال اليوم، وسرعان ما تُوقد النار فور وصول الضيف، وتدور أقداح القهوة، ويبدأ الحديث.

الأمير ابن رشيد

أخذ البلنت يتشاوران مع مرافقيهم في السبب الذي يمكن أن يعلّلوا به للأمير قدومهم لزيارة عاصمته. واستقر الرأي بعد التداول على أن يقال له إن البلنت من ذوي الوجاهة والاعتبار والأهمية البارزة في بلاد الفرنجة، وإنهما زارا عدداً من الشيوخ المعتبرين في الشمال، ولكنهما سمعا أنهم جميعاً لا يقارنون بأمير حائل أبّهة ولا مكانة. ولما كان البلنت في طريقهما إلى البصرة، فقد عدلا عن طريقهما وقطعا النفود سعياً للتعرّف إليه. وقد راقت هذه الخطة راضي الذي وعدهما بأنه سيروّج لها وسيتغنّى بحمدهما وطيب محتدهما عند باب قصر الأمير، وأخبرهما أن الأمير يرحّب بزيارة الأجانب، وأن إفرنجياً وفد إلى حائل قبل فترة قصيرة فكساه ابن رشيد وأعطاه مالاً. و لم يعرف البلنت من هو ذلك الإفرنجي الذي قصده راضي، فبالجريف دخل حائل متنكراً. وكان راضي يقصد داوتي الذي لم يكن البلنت يعرفان من أمره شيئاً حتى تلك اللحظة. وعلى مشارف حائل أرسل البلنت راضي لإعلام الأمير بقدومهما، وعاد راضي يحمل ترحيب الأمير بضيوفه. وهكذا دخل الركب إلى حائل في ٣٠ المحرم ١٢٩٦/٢٣ يناير ١٨٧٩، واستقبلهم في الساحة الخارجية للقصر جمع من الحرس المهندمين، يقف في وسطهم رجل مسنّ بادي الاحترام، ظنوا بداية أنه الأمير، ولكن تبيّن لهم بعد ذلك أنه مسؤول الضيافة في القصر. وألقى ولفرد على المجموعة "السلام عليكم"، وردّت تلك الجوقة السلام بصوت جماعي. وسيق البلنت ومحمد بن عروق بعد ذلك إلى "قهوة القصر" الفسيحة التي استقبلت قبلهم من الأوروبيين بالجريف وجورماني وداوتي. وفجأة ساد القاعة همس ثم صمت، فدخل الأمير وصافح زواره الثلاثة. وتقول آن في وصفها للأمير إنه كان رجلاً نحيفاً، رقيق الشفتين، تعلو وجهة مسحة حزن لا ينجلي إلا حين يبتسم. كان وجهه كوجه من يعاني تأنيب الضمير أو كوجه من يحسّ اغتيالاً وشيكاً. وتستدرك آن التي تعرف من قراءاتها وحديث راضي دوامة الاغتيالات التي عاشتها تلك الأسرة فتقول إن وصفها لوجه الرجل ربما نبع من وحي الخيال. وعلى أيّ حال، فقد أعادت تقاسيم وجه ابن رشيد والظروف التي أوصلته إلى سدة الحكم إلى ذهن هذه الرحالة صورة الملك ريتشارد الثالث. كان للأمير لحية سوداء شُذّبت بعناية فائقة، أما عيناه البعيدتا الغور اللتان يعلوهما حاجبان متشابكان، فنافذتا النظرات، حادّتان كعيني الصقر، تجيلان النظر في وجوه الجالسين من الوافدين إليه، ثم تتحولان لترمقا الآخرين من الجلوس. أما يداه فطويلتان كأنهما مخالب الضواري، وهما في حركة دائبة لا تهدأ ولا تفتر، يلعب أحياناً بالمسبحة، ويداعب بهما أحياناً أطراف عباءته. ارتدى الأمير ملابس قطنية أرجوانية اللون، أما سلاحه فقد كان يحدّث عن مكانته الرفيعة، فقد تمنطق بعدد من الخناجر التي طُعّمت مقابضها بالذهب، فيما كان مقبض سيفه الذهبي الجميل يزدان بالفيروز والياقوت. وتنتهي آن إلى القول:

"إن كل بوصة في جسده تكاد تنطق بأنه الملك!". وتعود آن في فقرة أخرى لتصف الأمير بالطفل السيّئ التربية الذي يتناول في حديثه موضوعاً ثم يقفز إلى موضوع آخر من دون أن يستوفي الأول، فتراه يسأل ولكنه لا ينتظر من المسؤول استكمال إجابته. وقدّم ولفرد في اللقاء التالي مع ابن رشيد الهدايا التي حملوها إليه، وكانت دون المستوى بنحو مخجل، فالجبة التي قدّموها للأمير لا يمكن مقارنتها بالملابس الفارهة التي يرتديها الناس في حائل، كما قدّموا للأمير مسدساً ونظارة مكبّرة وبندقية من صنع مانشستر كان الأمير يملك واحدة مثلها، و لم يكن الأمير سعيداً بتلك الهدايا المتواضعة. وتعتذر آن أنها وزوجها لم يكونا يدركان قدر ابن رشيد عندما كانا في دمشق. وتخلّص الزوجان من الحرج حينما نادى المنادي لصلاة العصر، فذهب الأمير لأداء الصلاة. ودعا الأمير بعد ذلك الضيفين لزيارة حديقة القصر، وكانت عامرة بالحمضيات من ليمون وبرتقال، وبما ضمّته من حيوانات منها الغزلان والأيائل والبقر الوحشية، ووقف الزوار بعد ذلك على الإسطبل الذي ضمّ عدداً من الخيول التي قال ابن رشد إنها خيول عبيده. وأنهى ابن رشيد الجولة بزيارة المطبخ الذي حوى أكداساً من كتل الطعام التي يقدّمها القصر إلى المئات من الزوار وأبناء السبيل الذين يقصدونه يومياً. وقالت إن للأمير في مطبخه سبع قدور ضخمة تتسع الواحدة منها لطهي ثلاثة من الإبل، وعرفت من الأمير أنه ينحر لضيوفه في وجبة الغداء يومياً سبعة من الإبل وأربعين خروفاً، وأن عدد ضيوفه يصل إلى نحو مئتين في اليوم الواحد. وفي الحقيقة فقد كان مطبخ أمراء ابن رشيد وما امتاز به من كرم مثار تقريظ كافة الرحالة الذين زاروا حائل قبل البلنت.

زارت آن جناح الحريم في قصر الأمير فوجدتهن في أبهى حللهن، واستأنست كثيراً بعمشة بنت عبيد، السيدة الأولى في حائل، ذات الوجه الصبوح المضيء والأنف المستقيم، ووصفتها وصفاً يدل على الإعجاب، كما وصفت حدوشة ولولية من زوجات الأمير، وكذلك بعض قريباته، واسترسلت في وصف ما يضعنه على وجوههن من مساحيق الزينة وعلى عيونهن من الكحل، تماماً مثل عموشة، ولكن الأخيرة بزّتهن أناقة وحضوراً. وقدّمت آن بعد ذلك وصفاً تفصيلياً للبلدة وحكامها ومجالسهم وامتداد نفوذهم، وتحدثت عن كرمهم وعلاقتهم برعاياهم، وتقصّت عن العديد من تفاصيل الحياة في حائل. وقد أخذ عن هذه السيدة العديد من الباحثين الحاذقين بعد إعمال النقد اللازم لتجريد رواياتها من ضروب الهوس الذي يخيّم على أفق كتابات الرحالة الغربيين، كما نقل عنها آخرون من دون روية ولا دربة، فأساؤوا من حيث قصدوا أن يحسنوا. ولا يسعنا في هذه العجالة إلا أن نضيف إلى أن في هذا أو ذاك ما يستوجب من المؤرخ العربي عيناً فاحصة وعقلاً ناقداً.

عودة قافلة الحج الفارسي

استأذن ولفرد الأمير في أن يخرج إلى العراق في قافلة الحج الفارسي التي كانت طلائعها في حائل، وحصل في الأول من فبراير على الموافقة فودّعوه كما ودّعوا حمود، ابن عمه كذلك. وتنهّد الزوجان وهما يغادران حائل التي كانت بالنسبة إليهما كأنها السجن، رغم ما امتازت به البلدة ومواطنوها "من غرابة تثير الفضول". وحين هجسا تغيّراً في مزاج الأمير وتنازعا مع رفيقيهما محمد بدت حائل لهما كأنها القبر. وهنا نصل إلى الحبكة الدرامية التي تعتمد التناقض بين الأضداد، والتي ميّزت كافة كتب الرحالة. كانت حائل حلماً يهدهد خيالهما، ولكنها سرعان ما غدت كابوساً أقضّ مضجعهما.

نخرج مع آن بلنت وزوجها في يوم ٥ فبراير لنرافقهما في الطريق بين النهرين مع قافلة الحجاج الفرس المتجهة إلى تلك البلاد. أظهرت بلنت مقتها بطريقة فاضحة للفرس مقارنة بإعجابها بالعرب، و لم يكن ذلك تحزّباً منها للقومية العربية التي سافرت مع زوجها للتبشير بها – حقاً أو باطلاً – في البلاطات العربية فحسب، ولكن للمعاملة التي وجدتها من هؤلاء وأولئك. وعلينا ألا نأخذ بذلك في تسجيلنا للتاريخ، لأن العنصرية التي هي في قلب ثقافة الغرب تنفر منها ثقافاتنا، هذا إضافة إلى أن المشاعر الشخصية لم تكن يوماً مصدراً لمعالجة هذه المادة. فالبدو، حين يأنسون لشخص ما – حضرياً كان أو بدوياً، عربياً كان أو أعجمياً – يبذلون له ما يستطيعون من حماية، ويخصّونه بكل ما يميّزهم من كرم، ويحدّثونه بكل ما يعرفونه أو يدّعون معرفته، أما الفرس – خاصة هؤلاء الحجاج الذين يعدّون أنفسهم أجانب في بلاد العرب – فوفدوا لأداء مناسكهم التي لا يوجد فيها ما يدفعهم إلى التعامل مع أجانب من الغربيين الذين يختلفون عنهم هويةً وثقافةً وتاريخاً.

تقول آن إنهم تركوا مدينة حائل من البوابة ذاتها التي دخلوا منها، وذلك بعد فترة بقاء في تلك البلدة بدت لهم كأنها سنوات من السجن، كما بدت لهم في لحظات الخوف من غضب الأمير كأنها القبر.

> وبدلاً من أن نتّجه صوب الجبال التي كانت قد أفضت بنا إلى هنا، سرنا في محاذاة سور المدينة ثم على طول حدائق التمر التي تمثل استمراراً له، وذلك حوالى ثلاثة أميال، حتى انتهينا إلى واد منحدر عميق ضيق طويل، ثم اعتلينا بعدئذ السهل كرّة أخرى، وتوقفنا عند أول مجموعة منعزلة من أشجار الأثل هناك، لنستأنس آخر مرّة بمنظر قافلة الحج التي نستطيع الآن رؤيتها عن بعد.

وتبدّت لهم تلك القافلة كأنها صف طويل من النمل يخترق السهل الذي يفصل بين المنطقة التي

يقفون عليها والسلسلة الرئيسة التي تشكل جبل شمّر. وحاولت بلنت أن تثبت وصفاً لهذا المنظر الذي هو – من دون أي استثناء، كما تذكر – أجمل منظر شهدته طيلة حياتها. فالهواء في منطقة شمّر دائم الصفاء، ولكنه كان في ذلك الوقت فوق ذلك، فهو ذو شفافية عالية يتدفق بالوضوح الذي يفوق كل ما يمكن أن يتجلى في الصحراء العادية، أو على قمم جبال الألب، أو في القطب الشمالي، أو في أيّ بقعة أخرى من بقاع الكون كافة، ربما لا نستثني إلا القمر.

تصف آن تلك المنطقة التي تقع في قلب الصحراء تماماً، فهي تبعد عن البحر حوالى ٤٠٠ ميل، وترتفع فوق سطحه حوالى ٤٠٠٠ قدم، وراحت تتفحّص تحت أقدامها رقعة من الرمل الخشن الأحمر اللون التي انحدرت بعوامل التعرية من صخور جبل أجأ الغرانيتية. وكانت تلك الرمال الخشنة تتبادل هنا وهناك مجموعات من أشجار الأثل الرائعة، وكذلك أشجار عظيمة أخرى يتراوح محيط جذعها بين عشرين وثلاثين قدماً. وتحدثنا آن عن تلك الأشجار التي تقوم على تلال صغيرة متفرقة كانت تقوم عليها في يوم من الأيام بيوت المدينة القديمة، ووصفت تلك الأشجار التي تحاكي في بهائها ورونقها أشجار السرو في إسكس: "ويبدو أن المدينة قد انتقلت من هذه المنطقة من الواحة، حيث كانت تقف إلى المنطقة الأخرى". وتذكر أنها حين تجيل البصر عبر تلك الرمال ترى حزاماً طويلاً آخر من نبات الشعير يمتد حوالى فدانين، وقد أخرّت أوراق طلعه وازدهت حين قفزت فتيّة لتوّها حتى غطت تلك الجداول التي استحدثت لريّها، فما عادت ظاهرة للعيان، ثم يمتد بصرها بعد هذا المشهد حوالى ميل أو ميلين ليقع على صحراء جرداء يتماوج لونها الأحمر حتى ينتهي إلى اللون البرتقالي، ثم يذوب في ما يبدو للعين كأنه سطح مائي لامع يحضتن زرقة السماء الصافية: "ذلك هو السراب بالطبع، ولكن السراب هنا هو أصدق خيال يمكن أن يطير بك إلى الواقع".

يلي ذلك المشهد الذي تختلط فيه الحقيقة بالخيال – كما تروي آن –صف طويل من إبل الحج يخوض زرقة تلك المياه، ويرسم على صفحتها صورته واضحة جليّة عميقة تتسربل بذلك السراب الذي يعكس صورة كل حيوان في تلك القافلة، كأنه الواقع بعينه. وتتناوب بين الصورتين – الأصل والانعكاس – رؤى ألوان زرقاء، وحمراء، وخضراء، وقرمزية، تمثّل ألوان الأمتعة والخيام التي تحملها تلك الحيوانات، وتجسّدها في صورة صادقة حيّة واقعية ماثلة للعيان.

تذكر آن أن خط تلك المسيرة يمتد خمسة أميال أو يزيد، إذ لم تستطع أن ترى له نهاية:

> وتطالعك من خلف هذه الصورة كتلة رائعة مطربة متداخلة ياقوتية اللون من صخور جبل أجأ الناتئة هنا وهناك في غير انتظام، وهي في اعتقادي أكثر السلاسل الجبلية التي يمكن تخيّلها غرابة وجمالاً. إنه بحق منظر يثير العجب! توقفنا ملياً عند هذا المنظر، فلم نكن في عجلة من أمرنا، فارتسم في خاطري،

ثم انطلقنا بعدئذ إلى مهراتنا، واعتلينا صهواتها فرحين بالحريّة التي ظفرنا بها، وراحت تتهادى بنا ونحن نردّد تلك الأغنية الشمّرية:

ما أريد أركب ذلول لو زيّنولي شدادها
بدي أنا حمرة شنوف، حمرا سريع أردها

تسترسل آن في شاعريتها لتروي لنا أن تلك الأغنية قد حفّزت الخيل وألهبتها أكثر مما يفعل بها السوط أو المهماز، فانطلقت تجاه قافلة الحج في سرعة أفزعت إبلها، فتواثبت تلك الحيوانات لتثير في الحجيج الفزع من هاجس هجوم بدوي وشيك الوقوع: "هكذا انطلقنا لا نلوي على شيء حتى بلغنا مقدمة ركب الحج حيث يرفرف العلم ذو اللونين الأحمر والأخضر الذي كان يتقدّم المسيرة، وهناك وجدنا إبلنا في انتظارنا".

ترجّلت بلنت مع رفاقها عن ظهور جيادهم، وأقاموا معسكرهم في تلك البقعة من الوادي حيث غُرس العلم، و لم يكن يفصلهم عن حائل حينئذ سوى عشرة أميال. ضربوا خيامهم على بعد حوالى مئتي ياردة من معسكر الحجيج المتداخل بعضه في بعض تداخلاً أوجبه الحذر من الأخطار التي تكتنف الصحراء:

لقد نادى المؤذن لتوّه لصلاة المغرب، وانصرف الناس يؤدّون شعائرهم، بينما راحت مهراتنا تأكل شعيرها. أما صقرنا، ذلك الطائر المدرب على القنص الذي ابتعناه البارحة بستة ريالات مجيدية، فقد ظلّ قابعاً أمامنا فوق وكره تعلو وجهه مسحة من الحكمة. وقضينا ليلتنا في هذا المعسكر، ويا لها من ليلة شتاء طيّبة في خيمة نظيفة مريحة!

تشير آن إلى أن نصف الحجاج فقط هم الذين تمكنوا من مغادرة حائل في الليلة السابقة. وقد أشاع البعض في هذا الصدد وجود مشكلات تتعلق بالإبل حالت دون رحيل كافة الحجاج، بينما قال آخرون إن" الأمير عاقَ خروج الحجاج فلم يتركهم وشأنهم. وتعلّق آن على ذلك بقولها: على أيّ حال فالمسألة في الحالين مسألة تتعلق بالنقود".

انتقل بلنت مع القافلة باكراً، ولكنهم لم يقطعوا سوى ميلين حتى نادى عنبر، أمير الحج وهو أحد عبيد الأمير، في القافلة بالتوقّف. وتوقّفت الإبل وتداخلت مجتمعة بعضها إلى بعض فوق مرتفع من الأرض، ويبدو أن رجال الأمير أخذوا يتفحّصون أعدادها ويجرون لها إحصاءً، أما الدراويش والحجاج الراجلون فكانوا يسيرون كما يشاؤون، و لم يهتموا بأمر ذلك التوقف، "وكذلك كان دأبنا، إذ لم نكن مرتبطين بأي قانون من القوانين المنظمة لمسيرة الحج".

كان عبد الله قد تلقّى أمراً بأن يسير بمجموعة بلنت على مسافة غير بعيدة من المسيرة الرئيسة،

ولما لم يكن أمامهم أي أثر لطريق واضح أو مسار، أخذوا يشقون طريقهم، يبحثون عن مكامن الماء التي عرفوا قبل مسافة طويلة من بلوغهم تلك المناطق أنها في منطقة ما في اتجاه مسيرتهم. فلون رقعة الأرض التي تجاور منطقة وجود الماء أبيض، وتعلّل بلنت ذلك بأنه ينشأ عادة من تسرّب المياه الراكدة إلى ما يجاورها من الأرض. وتضيف: في مثل هذه الحالة، لا بدّ من أن تكون هذه المياه ممّا هو موجود في خزان أرضي طبيعي، أو في عدّة خزانات في مجرى وادٍ ضحل تجمعت فيه المياه عند هطل أمطار الشتاء التي امتلأ بها ذلك المجرى.

تذكر آن أنهم كانوا يسرعون تجاه تلك الخزانات الأرضية ليملأوا القرب المصنوعة من جلود الغنم، قبل أن تتلوّث مياهها مع وصول الحجاج، وتشير إلى أن تلك الخزانات لا تزيد على كونها بركاً صغيرة قد يلوّثها الحجاج، أو قد يأتون على مائها كله فلا يستبقون:

> لقد وجدنا عوض عند هذه المياه، وكنا قد أرسلناه على ذلول ليسبقنا إلى هنا، ويستوثق من وجود الماء لركبنا، وما كدنا نفرغ من ملء أوعيتنا بالماء حتى توافد الدراويش الذين يسبقون في العادة المسيرة الرئيسة للحجاج إلى هذا المكان. ولهؤلاء الدراويش - في ما نلاحظ - عادة غير حميدة، فهم يغتسلون في هذه المياه أولاً ثم يشربونها، وقد عرفنا بعدئذ أن هذه الممارسة تمثّل جزءاً من طقوسهم الصوفية!

ظلت الريح تعوي طوال ذلك الليل، وتذرو معها كميات من الرمال، ولكن حدّتها أخذت الآن في الانحسار. ونلاحظ أن طريقنا منذ أن فارقنا حائل يسير في اتجاه الشرق مع انحدار إلى الشمال تجاه جبل جلدية، ذلك الجبل الشامخ الذي يمثّل معلماً أرضياً بارزاً. وأجد معسكرنا في هذه الليلة أبهج منه في الليلة السابقة، فنحن في هذا المساء نحتل وادياً صغيراً لا يشاركنا فيه أحد، يكثر فيه الحطب وكلأ الإبل. ورغم أن النيران أشعلت في الرابعة من هذا الصباح إيذاناً بالرحيل الباكر، لم يبرح الركب مكانه، ويبدو أن السبب في هذا الانتظار - في ما علمنا لاحقاً - أن نصف الحجاج كانوا لا يزالون في حائل، وعلى بقية الركب أن ينتظر وصولهم حتى يلتئم شمل القافلة.

تقول آن:

> كان من الطريف أن نتحدث إلى الحجاج الفرس على الرغم من أنهم لم يكونوا يروقوننا. فما كانت تستهوينا شخصياتهم، ولا عاداتهم، ولن تجد في الفارسي ذلك الشعور بالتآلف واستمالة الخاطر وغير ذلك من الشعور الذي يميّز الجنس

العربي. فحين نقارنهم مقارنة عابرة بالعرب، يبدون خشني الطباع فظّين. وعلى الرغم من أن أغلب هؤلاء الحجاج يمتازون بالسحنات البيضاء، والعيون الزرق، أجد تقاطيعهم ثقيلة. أما إذا قورنوا بعرب شمّر المرافقين لهم، فيمكن أن يكون الفرق بين العنصرين كفرق الخيل الهولندي التي تستعمل في جر العربات حين نقارنها بمهرات أمير حائل. وعلى الرغم من أن هؤلاء الحجاج يغتسلون باستمرار طوال اليوم، يبدون كأنهم قذرون بما يعجز اللسان عن التعبير عنه؛ فملابسهم ملبّدة بالدهون، في الوقت الذي لا يبدو فيه أيّ من العرب المرافقين لهم غير نظيف المظهر. وغالباً ما يدخل عوض وبقية المرافقين لنا في نزاعات مع هؤلاء الحجاج بين الفينة والأخرى، وذلك حين يقترب أيّ منهم من خيامنا بحثاً عن الحطب. والحقيقة أن من الجلي الواضح أن هناك ودّاً مفقوداً بين العرب والفرس.

ولربما كانت بلنت صادقة في ملاحظتها الأخيرة، ولكنها أخطأت التفسير حين ردّته إلى العنصر، وهو غير ذلك. فقد كان الاختلاف – كما تشهد العديد من المصادر – وليد اختلاف المصالح. فالعرب المرافقون للقافلة كانوا في أعمّهم من الأدلّاء وأصحاب الإبل وغير هؤلاء وأولئك من الذين كانوا يطمحون إلى اعتصار محافظ الحجاج الفرس حتى النهاية، في هذه المناسبة التي لا تتكرر إلا بعد عام، فيما حرص أولئك الحجاج البعيدون عن ديارهم على عدم الإنفاق إلا بقدر. وبالطبع فإن تناقض المصالح المادية يؤدي أحياناً إلى التلاسن تلاسناً قد لا يركّز على العنصر بقدر ما يركّز على اختلاف المذاهب في هذه المناسبة المرتبطة بالدين.

تحركت جماعة بلنت قبل القافلة، وما كادوا يقطعون سوى عشرة أميال حتى نزلوا وادياً أكبر اتساعاً من الوادي الذي كانوا يعسكرون فيه. تجري في هذا الوادي الذي يسمونه وادي الخناصر مياه المنطقة كلها. "ولا أجد تفسيراً لإلصاق هذا الاسم بهذا الوادي". وتسترسل لتقول بوجود عدّة آبار في الوادي، كما ينمو على مساحة كبيرة من سطحه نبات الرمث الذي ترعاه الإبل، وفي هذا الغطاء النباتي أعداد كبيرة من الأرانب البرية. وقد استطاعت كلاب الصيد الخاصة بهم أن تقوم ببعض جولات الصيد يساعدها ذلك الصقر الذي أطلق عليه خدمهم اسم مرزوق، تقول عنه آن إنه غير مثير للانتباه رغم أنه يملك أنفاً قويّ الحاسة.

استمر الركب في طريقه حتى وصل بعد ساعتين إلى تل غريب الشكل يقف وحيداً في ذلك السهل. يتكوّن هذا التل – شأنه شأن الأرض التي يقف عليها – من الحجر الرملي. تحدثنا آن بأنها لاحظت على سطح ذلك التل نقوشاً كثيرة ورسوماً لطيور ووحوش من الأنواع التي صادفوها في مسيرتهم قبلاً، وتفيد بأن الحروف المنقوشة – مهما كانت اللغة التي تنتسب إليها – متأنقة، وتبدو في وضوح الحروف الإغريقية واللاتينية وتناسقها، أما الرسوم فتراها

بدائية، إلا أنها تعتقد أن لها قيمة فنية حقيقية، "ولا يمكن أن نتخيّل أن تكون هذه الرسوم ولا تلك الحروف من نقش برابرة غير متحضّرين". وتصف الحيوانات المتمثلة في النقوش بأنها حيوانات عربية خالصة، فهناك الغزال، والجمل، والوعل، والنعامة، كما لفت انتباهها صورة نخلة رسمت بشكلها الحقيقي، وتضيف أنها لم تلاحظ في الرسوم أثراً لبيت أو لخيمة، وترى الموضوع الأساسي لهذه النقوش والرسوم يتمثل في رسم يظهر فيه اثنان من الإبل وُضع خط على رقبة كل منهما، وترجّح أن ذلك الرسم الذي اختلط بحروف نُقشت بعناية فائقة يمتاز بقيمة فنيّة عالية.

تذكر آن أنهم سبقوا قافلة الحج بمسافة يسيرة حتى وصلوا إلى تل الصالحية واعتلوه. وأخذ موكب الحجاج يمر من أمامهم فاستغرق ساعة أو أكثر، "وكم كان ذلك المنظر منظراً غريباً وأخّاذاً! ومن موقفنا هذا فوق التل أرجعنا البصر فطوى بنا مسافة ثلاثين أو أربعين ميلاً من ذلك السهل، فرأينا جبل أجأ الذي تقع حائل تحت سفحه".

تقدر آن طول ركب الحج بحوالى ثلاثة أميال، ويتألف من حوالى أربعة آلاف بعير، إضافة إلى عدد كبير من الحجيج الذين كانوا يسيرون راجلين، ومجموعة من الدراويش الذين كانوا يهرولون في سيرهم هرولة ترقى إلى الجري. "وعلى الرغم من أني أجد هؤلاء الدراويش أجلافاً قذرين، لكنهم كانوا في حقيقة الأمر طيبين، وكانوا على أتمّ استعداد لأن يتحدثوا إلينا لو كانوا يعرفون اللغة العربية". وتأتي في نهاية هذا الركب مجموعة من الرجال الذين يرتدون ملابس محترمة ولكنهم مع ذلك يسيرون راجلين تقرّباً وتقوى. واسترعى انتباهها من بين هذه المجموعة رجلاً بعمامة زرقاء كبيرة اعتقدت أنه أفغاني، وكذلك شاباً نحيلاً حسن المنظر: "قد يكون كاتباً أو مساعد بقّال، يقرأ في لفافة وهو يسير مع آخرين يحملون في أيديهم أوعية جلدية تحوي الماء الذي يتطهرون به".

لاحظت أن هذه المجموعة كانت تقف بين فترة وأخرى للوضوء، وكانوا يتجاذبون بعضهم مع بعض أطراف الحديث أحياناً، ويتمتمون بصلواتهم في أحايين أخرى. وتصم آن كل هؤلاء المسلمين الأتقياء في قافلة الحج "بالوقحين"، لأنهم لا يردون التحية حين نلقيها عليهم، كما كانوا يتسمّرون في أماكنهم لا يتحركون إذا مرّت الكلاب قربهم خشية أن تلامسهم وتفضي بهم إلى النجاسة.

وذكرت أن أحد هؤلاء الراجلين الأتقياء، وهو ذلك الشاب الذي كان يقرأ في اللفافة، توقّف عند موقدهم ليدفئ يديه، فقدّموا له كوباً من القهوة، ولكنه اعتذر بأنه سبق أن تناول إفطاره، ثم انحنى بعد ذلك ليتحدث إلى خدم بلنت من المسلمين، ولكنهم ردّوه طالبين إليه أن يمضي في حال سبيله. "وفي الحقيقة إنني أدرك أن رفض شخص قبول كوب من القهوة من آخر يعتبر عند هؤلاء العرب إهانة بالغة ترقى إلى درجة إعلان الخصومة تقريباً".

تصف بلنت قافلة الحجيج العائدين إلى أوطانهم، فتذكر أن البيرق (العلم) الذي يُحمل في وسط المجموعة من راكبي الهجن التي زُينت بأبهة، والتي كانت تتحرك بخطوات سريعة، كان في مقدمة الركب، وأن تلك الهجن الرائعة البهاء كُسيت قماشاً كأنه الساتان، وتصف عيونها التي تحاكي عيون الغزلان، أما روعة حركتها فتقول آن إنها تجلّ عن الوصف والبيان، وإنها لم تعرف مثيلاً لتلك النظرة الوادعة التي ميّزت تلك الهجن التي أحسنت تربيتها وتأديبها، ولم تجدها حتى في الخيول العربية. وقد عرفت أن هذا النوع من الإبل يسمى "نيامية"، لأن المسافرين عليها يستطيعون أن يناموا على أكوارها وهي سائرة من دون أن تزعجهم حركة سيرها.

تذكر آن بيرق الأمير المربع الشكل المصنوع من الحرير القرمزي المزيّن بطرف آخر، والذي يشتمل على شعار خُطّ في منتصفه باللون الأبيض. وكان يحمله أحد الخدم الراكبين على ذلول تميز بطولها، وتضيف أن ذلك البيرق كان يُطوى طيّاً جزئياً عند المسير، وإن عنبر أمير الحج كان في العادة يرافق المجموعة من حاملي العلم. وتقول: وبالرغم من أن لعنبر فرساً بيضاء صغيرة يقودها له عبد يسير في ركابه، لم نره راكباً قط.

تلي ركب البيرق حشود من الحجاج على إبلهم، يمكن أن ترى اثنين منهم يستقلان جملاً واحداً. ويتدلى على جانبي هذا البعير أو ذاك أحياناً صندوقان للأمتعة، وتشير آن إلى أن ملكية أغلب هذه الإبل تعود للبدو الذين ينتمي أغلبهم إلى قبيلة شمّر، وكذلك إلى الظفير والشرارات. ويسير هؤلاء البدو في إثر إبلهم راجلين، وتجدهم أبداً في جلبة مستمرة مع الحجيج، وحين يصل الأمر بين الطرفين إلى اللكمات تتدخل شرطة الأمير الراكبة على الهجن، وعادة ما تنتهي مثل تلك المشاجرة بالتصالح. وترى آن في ركوب الفارسي على ظهر البعير منظراً من أكثر المناظر إثارة للضحك في العالم، فهو يجلس على ظهر ذلك الحيوان مفرشحاً، كما يبدو غير قادر أبداً على أن يتفهّم عادات هذا الحيوان الذي يمتطيه أو استيعاب أساليب التعامل معه، "فتجده يتحدث إلى البعير بصوت وبلغة لا يستطيع أي جمل عربي استيعابهما".

تقول آن إن الحجاج الأيسر حالاً، وكذلك النساء – ما عدا المعوزات منهن – يسافرون وهم على محفّات مغطاة بقماش الكتان الأزرق أو الأحمر يحمل كل بعير اثنين منهم. وهناك من يستعمل وسيلة أكثر تكلفة وهي محفّة توضع على ظهر جملين أو بغلين يسير أحدهما أمام الآخر. وكل من في هاتين المحفتين يستطيع أن يضطجع أحياناً أو يستلقي أو ينام في أحايين أخرى، أما الإبل التي تعدّ لحمل هذه المحفات فتصفها بأنها قوية جداً، وتمتاز بتناسق خطواتها، وتشير إلى أن بعض تلك "المحامل" قد جهّزت بعناية تعكس أبّهة وفخامة، وأصابت من ترف السجاد الفارسي، وزيّنت بزينات تتدلى من جوانبها، وتقول: إن للبعير حامل المحفة سائقاً خاصاً به، ويمكن المرء أن يرى إلى جانبه رتلاً من الخدم يسيرون راجلين، وتقول إنها رأت في

هذه المجموعة حاجّاً عيّن له رجلاً يسير أمام بعيره حاملاً له النارجيلة التي يدخنها من خلال أنبوب طويل جداً يمتد من النارجيلة التي يحملها الرجل إلى المحفّة حيث يجلس الحاج!

تذكر آن أن تلك القافلة لا تضم سوى عدد قليل من الخيول، قد لا يتجاوز ستة. كان منها "كحيلان حركان" وهي فرس بيضاء اللون اشتراها أحد أثرياء الحجاج من بدوي شمري، وتبدي اعتقادها أن تلك الفرس تنحدر من سلالة نقية. وراحت آن تستمتع بصيد الطرائد:

> أطلقنا اليوم صقرنا عدّة مرات، وتمكن - بعد أن خيّب أملنا مرّة أو مرتين - من أرنب بري، فهذه الأودية تمتلئ بالأرانب البرية، غير أن الكلاب لا تستطيع أن ترصدها لكثرة الشجيرات التي تغطيها. كذلك طار صقرنا تجاه حبارى، ولكنها تغلبت عليه و لم يدركها، فهو لا يزال فرخاً من طيور العام الماضي فقط، و لم يتمرّس بعد إلا على صيد الأرانب البرّية.

الطعام في الصحراء

تقول آن إنها و ولفرد قرّرا مفارقة قافلة الحجاج وتجاوزها، وإن دليلهم قد سلك بهم اتجاهاً شرقياً بدلاً من أن يأخذ اتجاهاً شمالياً، وذلك حتى يسير بهم في محاذاة النفود بدلاً من أن يقطعها. ووصل ركبهم بعدئذ إلى آبار شيبة، وهي مجموعة من أربعين بئراً متجاورة في منتصف منطقة جرداء قاحلة كبيرة لا تظهر فيها إلا بعض تلال من الحجر الأبيض إلى الشمال منها.

تذكر آن أن شيبة على درب الحج القديم الذي يؤدي شرقاً إلى بريدة في بلاد القصيم، وترى في ذلك ما يفسّر سير الدليل كل هذه المسافة الطويلة شرقاً. وتحوّل ركبهم من هناك بمقدار زاوية قائمة إلى الشمال، حيث وجدوا طريقاً مطروقاً تماماً يمكن أن يسلكوه بيُسر تام وإن فارقهم الدليل الشمري. قطع ذلك الركب أميالاً بعد مغادرته تلك الآبار، بين عروق من الحجر الأبيض التي شكّلتها الرياح فغدت: "كأنها التشكيلات الجليدية على أعالي جبال الألب". وتضيف: "لقد تبيّن لي أن الرمل الأبيض أنعم في ملمسه دائماً من الرمل الأحمر، وأنه أكثر تأثراً بالرياح، إضافة إلى أنه لا يحوي إلا القليل من النبات". وتلاحظ آن أيضاً أن التلال والعروق الرملية في تلك المنطقة كانت أقل وضوحاً منها في النفود، فالرياح تعبث بتلك العروق دائماً، حتى إنها غيّرت - في الفترة التي كانوا يراقبونها فيها - اتجاهاتها،

> وكم كان طريفاً أن نلاحظ في هذه الفترة أن أعالي العروق قد تغيّرت مع الريح

تدريجاً، ولاحظنا كذلك أن الجانب الذي تذروه الرياح كان دائماً شديد الانحدار، بينما الجانب الذي مع اتجاه الرياح كان مستدير الشكل!

أخذ ركبهم بدءاً من هذه المنطقة يعتلي بالتدريج أرضاً متكسّرة أفضت بهم إلى سهل حصوي مستو، تبدّى لهم وراءه، وعلى مسافة أربعة أميال تقريباً، الخط الأحمر الذي يميّز النفود. وتذكر آن أنهم ما إن اجتازوا تلك المنطقة حتى لمحوا حيواناً يجري على بعد حوالى نصف ميل منهم تقريباً، وانبرى محمد يجري في إثره. "وقد اعتقدنا أولاً أننا لمحنا ذئباً أو ربما بقرة وحشية، ولكن ما إن ازددنا منه قرباً حتى تبيّن لنا أنه ضبع يحمل بين فكيه شيئاً. وراحت كلابنا تطارده، وانطلق ذلك الحيوان يعدو بأقصى سرعة يستطيعها في تلك الأرض المشققة التي كنا قد قطعناها لتوّنا، ولربما كان له في ذلك الاتجاه جُحْر يقصده ليأوي إليه. وقد أسقط الضبع من بين فكيه رجْل غزال، وهي الغنيمة التي كان قد ظفر بها من النفود. وانبرت الكلاب الثلاثة تهاجم ذلك الضبع بجرأة فائقة، خاصة "صياد" الذي أمسكه من كتفه، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يوقفه، فقد ظلّ الضبع يجري بإصرار تجاه تلك الأرض المشققة ليجد ضالّته في الاختباء فيها. وكان يمكن ذلك الضبع أن يهرب لولا أننا اعترضناه ووقفنا دونه والطريق، فاستدار شارداً مرّة أخرى في اتجاه المنطقة التي تركنا فيها إبلنا. وفي الحقيقة لم أرَ في حياتي قط حيواناً بهذا الجبن. فعلى الرغم من أن حجم هذا الضبع كان أكبر من حجم أي كلب من الكلاب التي تطارده، لم يحاول أن يستدير نحوها ويحمي نفسه من هجومها، كما يفعل الدب مثلاً أو ابن آوى في مثل هذا الموقف. جدّ الكلاب في الطراد حتى إن ولفرد وجد صعوبة بالغة في أن يصوّب في اتجاه الضبع طلقة ترديه، ولكنه ما إن وجد فرصة للتصويب أخيراً حتى سقط الضبع مضرّجاً بدمائه يتلوّى عند الموضع الذي فيه إبلنا تقريباً. وقد تعالت التهاليل طبعاً في هذه المناسبة لما يمكننا أن نجنيه منها. وعلى الرغم من أن محمد وعوض أظهرا بعض الامتعاض من أكل لحم الضبع، إلا أن عبد الله أعلن أنه "خُوشْ لحم".

قُطّع الحيوان في مكانه الذي سقط فيه، وتبيّن لنا أن لحمه قد كُسي دهناً أصفر لامع اللون، وقد أدركنا أن الضباع في الصحراء لا تشبه في شكلها الضباع في مجاورة المدينة، والتي هي أقرب ما تكون إلى الغول. وجدنا معدة هذا الحيوان مليئة بالجراد، وبلحم غزال طازج، وقد استساغ ولفرد لحم الضبع، ولكني لم أستطع أن أرغم نفسي على تناوله، رغم أني قد تذوّقته وأصبت منه قضمة واحدة. وعلى الرغم من اعتراضي على تناول هذا الطعام غير النظيف، وجدت أن أتباعنا قد التهموا كل لحم هذا الحيوان الكبير السمين، ولست متأكدة تماماً إن كان محمد

قد استقام على رفضه في ألا يأكل منه شيئاً أو أنه عدل عن ذلك.

تذكر آن أن الجراد كان جزءاً أساسياً من غذائهم اليومي، وترى أنه طعام ممتاز، وتضيف أنهم جرّبوا تناوله مطهوّاً بأساليب مختلفة، وتبيّن لهم أنه أشهى ما يكون مغليّاً فقط. ولربما أكلوه نيئاً كذلك، فتقول: "كنا نقطع أولاً الأرجل الطويلة للجرادة ثم نمسك بها من جناحيها ونغمسها في الملح ونأكلها". وترى آن أن مذاق هذه الحشرة يماثل طعم الخضر أكثر مما يماثل مذاق اللحم أو السمك، "فمذاقه ليس بعيداً عن مذاق القمح الآخر الذي يؤكل في إنجلترا"، وتضيف أن الجراد بالنسبة إليهم في هذه الرحلة ينزل عندهم منزلة الخضر التي كانوا يفتقدونها في الرحلة، وترى أن الجراد الأحمر أطيب مذاقاً من الجراد الأخضر. (يقولون إن الجراد الأحمر ذكور، والأخضر إناث، بينما يقال أيضاً إن كل الجراد يكون أخضر اللون أولاً ثم ينقلب بعد ذلك إلى اللون الأحمر). وتذكر أن ولفرد استطعم الجراد، ويرى أنه يمكن أن يكون طعاماً منافساً في قائمة مطاعم باريس،

> ولكني لست متأكدة من صدق هذا الرأي تماماً. فقد تبيّن لي من تجارب رحلاتي السابقة أن أطيب الأطباق هي تلك التي تعدّ في المنزل، ولا أجد الجراد يستحق عبء تجهيزه ليكون صنفاً من أصناف المائدة المترفة في المنازل.

وتذكر آن أن الصباح الباكر يُعدّ الوقت الأمثل لاصطياد الجراد، إذ تكون تلك الحشرة نصف مشلولة بالبرد، كما تكون أجنحتها مبللة بالندى، فلا تستطيع أن تطير، إضافة إلى أنه في هذا الوقت من الصباح يكون مجتمعاً بالمئات تحت شجيرات الصحراء، فيمكن جمعه من دون كبير عناء ووضعه في سلة أو حقيبة، أما بعد شروق الشمس فإن أجنحة تلك الحشرات تجفّ ويصبح القبض عليها أمراً عسيراً، حيث لهذه الحشرة من الذكاء، كما تقول آن، ما يجعلها دائماً خارج نطاق اليد التي تتابعها. وحين تطير الجرادة تصبح مثل الفراشات الصغيرة حين تجرفها الرياح، فهي تستطيع أن تعدل مسار طيرانها، كما تستطيع السمكة الصغيرة أن تعدّل مسار سباحتها. وتستطيع أن تحطّ على الأرض من دون صعوبة متى شاءت. وتلاحظ آن أن من النادر جداً أن يسمح الجراد للريح بأن تجرفه في اتجاه البشر أو الإبل، كما تبدو الجرادة قادرة أيضاً على حساب المدى الذي يمكن أن تصل إليه العصي التي تريد أن تنالها بحيث يمكنها أن تهرب.

وتفيدنا آن بأن الجراد كان في تلك السنة كثيراً جداً، فهو يملأ المنطقة كلها، وتمثّل أسرابه في النهار جيشاً عرمرماً، أما إذا حلّ المساء فتجتمع معاً في أسراب تراها تأنس في كومات من صفوف متراصة متتالية تحت الشجيرات. وتلاحظ أيضاً أن الجراد يلتهم كل شيء آخر، كما يلتهمه هو بدوره كل مخلوق من الحيوان والطيور. فقد نالت إبلهم حظاً منه في طعامها، وكانت الكلاب تشبّ عليه حيث تجده وتأكل كل ما تستطيع أن تدركه منه، وتفيد بأن البدو يقدمون

لخيولهم في الغالب من هذا الجراد. وأفادهم عوض بأن العديد من القبائل لن تجد ما تقتات به في هذه السنة سوى الجراد ولبن النوق. وتستنتج آن أن الجراد يصلح بنفسه التلف الذي يحدثه، فهو وإن كان مُستهلكاً، إلا أنه مُستهلك في ذاته أيضاً. وتعود لتذكّرنا بالطعام في النفود المليئة بالشجيرات، وتذكرَ أن الكلاب تجد فيها فرصتها للقنص من دون مساعدة من الصقور. فهي حين تكون الأرض مشجرة لا تستطيع أن تتعرّف إلى خط سير الفريسة إلا من ملاحظتها خط تحليق ذلك الصقر في الهواء.

وكم كان منظراً طريفاً أن يغيّر ذلك الطائر خط تحليقه في السماء كلما غيّرت الأرانب البرية خط سيرها في الرمال، أما كلابنا الثلاثة فنراها بدورها تجري متأرجحة في أثر الفريسة وأنوفها إلى أعلى تتابع خط تحليق ذلك الطائر ونحن من خلفها نجدّ في المسير للحاق بها. ولما كانت الرمال كثيفة في هذه المنطقة، فإننا لم نتمكن من ملاحقة تلك الكلاب التي أصبحت خارج نطاق مدى النظر، لكن حين وصلنا إلى أطراف النفود وأصبحنا على بعد بضع مئات من الياردات من آخر خط من رمالها، وجدنا كلابنا ومعها الصقر قد تحلقوا في دائرة حول حفرة دخل فيها ذلك الأرنب وقد ران على وجوهها من الحيرة والبلاهة ما جعلنا لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الضحك، رغم أسفنا على فقدان الفريسة. تقصد الأرانب البرية في الصحراء عادةً أي جحْر يصادفها فتدخله ليؤويها. ولما كان محمد وعبد الله وعوض حريصين جميعهم على تلك الفريسة، فقد ظلوا يحفرون ليخرجوها من الجحْر، ولكنهم بعد أن جدّوا في هذا العمل أكثر من نصف ساعة بلغت فيها أقدامهم الأرض الثابتة وأكتافهم مستوى الرمل، قرروا أن لا جدوى من عملهم، فالحفرة التي دخلها الأرنب كانت تسع ضبعاً، فقد كانت تغوص إلى غور بعيد في الأرض الثابتة. عموماً صادفنا بعدئذ حظاً أوفر في الطراد، فقد أوى أحد الأرانب إلى جحْر فتتبّعناه وأفلحنا في جرّه إلى الخارج، كما أفلحنا في جرّ ثعلب صغير رمادي اللون كان قد زجّ بنفسه مع ذلك الأرنب في ذلك الجحْر.

الرفاعي

راحت آن مع زوجها تستمتع بالصحراء والإبل والخيول والطراد والجراد، وتستمع إلى حكايات

الخدم المرافقين والأدلّاء والبدو وأشعارهم، وتسرد عنهم، فذكرت بعض البدو من عبدة من شمر الذين حدثوهم عن ضريح وليّ في منطقة تدعى تلين الخراب في قلب الصحراء التي يفصلها عن موقعهم مسيرة خمسة أيام في اتجاه الشرق، ويفصلها عن سوق الشيوخ على الفرات مسيرة عشرة أيام. وتقع بقرب ذلك الضريح - كما يقولون - بركة مليئة بالماء. ولهذا الضريح باب مفتوح دائماً يرقد عنده ثعبان ضخم يلتقي ذنبه رأسه عند المدخل، لا يسمح إلا بمسافة قصيرة تسمح بدخول شخص واحد فقط. ويمنع هذا الثعبان أي شخص من دخول هذا الضريح ما لم يكن من الدراويش الذين كانوا كثيراً ما يقصدون ذلك الضريح للصلاة فيه. ويمكن كل من يدخل ذلك الضريح أن يبقى ثلاثة أيام يستمتع بالأكل "من الله" ثلاث مرات يومياً، ويتناول الماء من البئر التي في داخل الضريح، ولكن يتحتّم على الدرويش الداخل إلى الضريح أن يرحل عنه في اليوم الرابع، ولا ينتظر فيه أكثر من ذلك. وتذهب الأسطورة لتقول بوجود أسد قد رُبط من عنقه داخل ذلك الضريح. أما البركة التي خارج الضريح فهي مليئة أبداً بالماء الذي لا ينضب، إلا أن جنباتها مسكونة بالثعابين التي تنفث السم في البركة، فلا يمكن أي مخلوق أن يتناول رشفة منها، ولكن حين يحل المساء يأتي حيوان الأيل فيضرب الماء بقرنيه فيصبح الماء صالحاً للشرب، ثم تأتي كافة وحوش الصحراء وطيورها لتنال حظها من الري. وتفيد آن بأن أحد شيوخ قبيلة المنتفك قد تعهد في فترة سابقة بأن يرسل مع بعض الدراويش الذين يفدون إلى سوق الشيوخ الإبل والأدلّاء ليقودوهم إلى ضريح الرفاعي لزيارته، وتخلص إلى أن القصة ربما كانت غير حقيقية، إذ إن الصبية الذين رووها لم يدّع أي منهم أنه شاهد ذلك الموقع.

وصلت آن مع زوجها إلى النجف في ٦ ربيع الأول/٢٧ فبراير، وانتهت إلى بغداد في ٦ مارس. وأخذت رحلات بلنت وزوجها إلى الشرق تتوالى بعد ذلك، وتمكنا في عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م من شراء عزبة الشيخ عبيد في مصر، وظلا يقضيان أوقاتهما بين جرابت بارك وهذه المزرعة بالقرب من القاهرة. وانخرط ولفرد في نشاطاته السياسية في بريطانيا بمؤازرة مادية ومعنوية من آن، حتى أحسّ الزوج أنه ما عاد يحتاج إلى مساعدة زوجته فهجرها، وافترقا منذ عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م. وسكن ولفرد في سسكس، فيما عادت آن إلى مزرعتها في الشيخ عبيد حيث هلكت في عام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م. وكتبت ونتويرث، ابنة ولفرد وآن، طرفاً من سيرة أمها كانت فيه حانقة على أبيها "الذي تلاعب بقلب آن حتى تمكن من تحطيم حياتها". تقول ونتويرث إن والدها كان "يغار من ملكات أمها العلمية ومواهبها العقلية، فانتحل بكل غطرسة وصلف علمها وفكرها وجهدها، ونسب كل ذلك إلى شخصه بنحو يدعو إلى الخجل".

الفصل الرابع

رحلات جوقة السياسيين الأوروبيين في الخليج منذ بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى

شهدت الفترة منذ بداية القرن العشرين حتى الحرب العالمية الأولى مجموعة من الرحلات المتتابعة التي قام بها عدد غفير من السياسيين الغربيين والإداريين، ما يشير إلى أن المنطقة العربية قد باتت على أعتاب مرحلة جديدة من مراحل تاريخها الذي سطّره لها الاستعمار العالمي. ولعل اللورد كيرزن، الحاكم البريطاني العام للهند، كان الرحّالة الأول في سلسلة هذه الرحلات التي اختلفت بعد هذه الفترة هدفاً وشكلاً ومضموناً.

كيرزن

ولد جورج ناثانيل كيرزن في ٦ جمادى الثانية ١٢٧٥/١١ يناير ١٨٥٩ في كلدستون من أعمال ديربي شير في أسرة ذات جذور نورماندية عريقة، عاشت في ديربي شير منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي. عمل أبوه ألفرد كيرزن قسيساً في كلدستون - ديربي شير، أما أمه بلونش فقد هلكت ولم يتجاوز عمر جورج ستة عشر عاماً، وذلك من أثر الحمل والولادة المتكررة، فقد أنجبت أحد عشر ابناً وبنتاً. ولم يكن لأي من الأبوين أثر بارز في تربية جورج، فقد تولّت مربّيته إيلين ميري بارامان عن أسرته تلك المهمة. وكانت بارامان امرأة قاسية يُجمع كل من أرّخ لجورج كيرزن أنها أورثته العناد الذي كان السمة الأبرز في شخصيته. فكثيراً ما كانت تعاقبه، ولم تكن تناديه إلا بألفاظ فظّة، كما كانت تنعته دائماً بالمخادع الكاذب الجبان. وكان الأب من المتمسّكين بتراث النبلاء الذين يعتقدون بأن يبقى أبناء ملاك الإقطاعيات الكبيرة

في إقطاعياتهم يتولّون إدارتها ورعايتها لا أن يذرعوا العالم جيئة وذهاباً. وكان الأب يكره من ابنه الفتى جورج سفره المتواصل وانطلاقه في الدنيا ورحلاته المتواصلة التي جعلت منه بعدئذ الرحّالة الأشهر الذي تبوّأ أرفع المناصب في الحكومات البريطانية.

تخرّج جورج كيرزن في إلتون في أكسفورد وأقام أحد معلميه معه علاقة غير سويّة انتهت بطرد الأستاذ من عمله. وكتب جورج عن نفسه في تلك الفترة الباكرة من حياته وهو يفتخر بنفسه: "اسمي جورج ناثنيال كيرزن، وأنا أكثر الناس تميزاً، فخدّاي ورديّان، وشعري ناعم أملس". ولعل من الطريف هنا أن نلاحظ أن معظم الأفراد الذين قامت على أكتافهم الإمبراطورية البريطانية في شرقنا العربي كانوا مثل كيرزن من ذوي الخدود الوردية والشعر الناعم، فاكتسبوا في مجتمعاتنا بعدئذ شهرة بالبطولة والإقدام، وقادوا ثوراتنا العربية! وفي أثناء فترة دراسته في أكسفورد، بدأ جورج أولى خطواته في مدارج السياسة حين أصبح رئيساً لاتحاد الطلبة، وكانت آراء زملائه وأساتذته فيه على طرفي نقيض؛ فمنهم من أحبّه حبّاً جمّاً ومنهم من كرهه كراهة التحريم. وكان الإعجاب الشديد بهذه الشخصية من بعض من عرفوه والبغض الشديد لها من البعض الآخر هما السمتان الأبرز اللتان لازمتا كيرزن طيلة حياته العملية بعدئذ.

عمل كيرزن في عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م مساعداً للسكرتير الخاص للورد سالسبري، ثم ما لبث في العام التالي أن أصبح عضواً في البرلمان عن ثاوثبورت في جنوب غرب لانكشير. وعُرف عنه في هذه الفترة أنه كان خطيباً مفوّهاً يتمتع بثقة زائدة في النفس. وبدأت في عام ١٨٨٨م أولى جولات كيرزن في روسيا وآسيا الوسطى، تلتها جولة أخرى إلى فارس في ١٨٨٩-١٨٩٠م. ولم يكن الرجل يسعى من خلال جولاته إلا إلى أن يقدّم للحكومة البريطانية دراسات جيوسياسية جادة عن الأرض والسكان والمشكلات السياسية التي يتحتّم على الحكومة رصد انعكاساتها على الهند البريطانية. ونذر كيرزن حياته السياسية للعمل على مجابهة منافسة روسيا القيصرية للبريطانيين في تلك المناطق. وقد أهّلته رحلاته وأبحاثه ليشغل في عام ١٨٩١-١٨٩٢م منصب وكيل وزارة الهند. وأخذته أسفاره في عام ١٣٠٩هـ/١٨٩٢م حتى سيام والهند الصينية الفرنسية، وتجوّل في أفغانستان في عام ١٨٩٤م، وأصدر عدّة كتب ودراسات عن تلك المناطق، ما أهّله لنيل جائزة الجمعية الجغرافية الملكية. وشغل كيرزن في الفترة ١٨٩٥-١٨٩٨م منصب وكيل وزارة الخارجية البريطانية. وعُيّن في شعبان ١٣١٦/يناير ١٨٩٩ نائباً للملك في الهند وحاكماً عاماً لها. وكان همّه مقصوراً في تلك الفترة على كبح جماح الامتداد الروسي في آسيا الوسطى والخليج العربي، ونادى صراحة بما كان قد نادى به جون مالكولم قبله من أن الوجود البريطاني في الخليج العربي يجب أن يظلّ غير منازع، ويجب ألا تشارك أيّ قوّة دولية أخرى بريطانيا في هذه المنطقة. وقد تمكن كيرزن من دفع حكومة لندن إلى الموافقة على عقد اتفاقية مع الكويت لتدخل تحت حماية بريطانية غير رسمية لمجابهة المد

الألماني والروسي، ولحجز المؤثرات التركية عن الخليج. وأفلح كيرزن في دفع وزير الخارجية لانسدون إلى أن يعلن في مجلس العموم البريطاني في عام ١٩٠٣م بيانه الشهير عن أن الحكومة البريطانية لن تسمح بوجود أيّ قواعد دولية في الخليج.

هدف كيرزن من زيارته للخليج في أواخر عام ١٩٠٣م إلى تبليغ رسائل إلى القوى الدولية المختلفة تفيد بأن الهيمنة البريطانية على الخليج تامة وناجزة، وأن دولته لن تسمح لأيّ قوة دولية أخرى بمشاركتها تلك السطوة التي بنتها بتكاليف باهظة عبر تاريخ طويل، كما هدفت أيضاً - على المستوى المحلي - إلى تبليغ شيوخ الخليج، قولاً وفعلاً، أنهم تحت حماية قوّة دولية جبارة، كما دلّت على ذلك خطبه وشهدت بذلك البوارج التي رافقته في زيارته وكبار العسكريين المرافقين له في بزّاتهم الرسمية.

سعى كيرزن في فترة رئاسته لحكومة الهند إلى خطّ سياسة متشددة خشنة غير تلك السياسة الدبلوماسية الناعمة التي كانت تتبعها لندن في مهادنة روسيا في تلك الفترة، ولم يتورّع كيرزن عن أن يكتب إلى لندن بأنه يعدّ الوزير الذي يهادن في هذا الأمر خائناً لبلاده. ووصف كيرزن التنازلات الهامشية المحسوبة لحكومة لندن لروسيا في فارس بالداهية العظمى والطامة الكبرى. "فإذا رميت بالعظام إلى الكلاب المسعورة فسرعان ما تقضمها ثم تكشّر لك عن أنيابها وتلاحقك". وعلى ذلك رأت لندن أن تقيل حاكم عام الهند "المغرور المعتدّ بنفسه الفخور بها"، فإرساء السياسات الخارجية لبريطانيا - كما تقول لندن - يقوم على حسابات ليست كلها هندية. واضطر كيرزن إلى تقديم استقالته من منصب نائب الملك في الهند والحاكم العام في عام ١٢٢٣هـ/١٩٠٥م، وتوصلت بريطانيا بعد أن تخلص مجلس وزرائها من تشدد كيرزن إلى معاهدة مع روسيا في عام ١٩٠٧م لاقتسام النفوذ في الأرض الفارسية.

لم يترك كيرزن بعد مغادرته منصبه وعودته إلى بلاده ميدان السياسة. وتولّى في لندن بعد فترة عدّة مناصب بارزة، لعل أهمهما منصب وزير الخارجية ١٩١٩-١٩٢٤م، وكانت بصماته واضحة في سياسة هذه المنطقة التي شهدت في فترة تولّيه للخارجية إعلان استقلال مصر وإنشاء إمارة شرق الأردن. وهلك كيرزن في ٢٥ شعبان ١٣٤٣/ ٢٠ مارس ١٩٢٥ إثر جراحة غير ناجحة أجريت له في لندن، ونقل جثمانه حيث ووري في الثرى في مسقط رأسه.

تصف كافة المصادر المهتمة بسياسة بريطانيا في الخليج في مطلع القرن العشرين زيارة اللورد كيرزن للخليج بالتاريخية. وقد بدأت الخطوات التمهيدية لهذه الزيارة منذ جمادى الأولى ١٣٢١/أغسطس ١٩٠٣، وكان الهدف منها من وجهة نظر حكومة لندن أن يقف الحاكم العام للهند على سير العمل في المؤسسات الهندية في الخليج، وأن يلتقي شيوخ العرب الذين تجمعهم علاقات تعهدية مع الحكومة الهندية، ولتأكيد التفوّق السياسي والتجاري الهندوبريطاني في مياه الخليج.

غادرت السفينة هاردنج بنائب الملك وزوجته من كراتشي في الساعة الخامسة من مساء الاثنين ٢٦ شعبان ١٣٢١/١٦ نوفمبر ١٩٠٣. وكانت في وداعه في كراتشي، كما أبحرت في رفقته أيضاً إلى الخليج، مجموعة من السفن الحربية الضخمة بكامل تجهيزاتها الحربية والاستعراضية، وفي مقدمتها أراجونوت السفينة التي تحمل ١١٠٠٠ طن، والتي كانت في طريق عودتها من مركزها في المياه الصينية إلى بريطانيا. وتقدّمت هذه السفينة الركب البحري الذي قادته هياكنث، سفينة العلم، وهي بارجة من الدرجة الثانية في التصنيف العسكري، وفوكس المصنّفة في الدرجة الثالثة، كما أبحرت بومني، وهي بارجة من الدرجة الثالثة أيضاً، في إثر أراجونوت. وفي فجر يوم ١٨ نوفمبر تبدّت للركب البحري في الأفق البعيد سواحل مسقط حيث كانت تنتظر السفينة لورنس التي حملت الكولونيل كمبال، مقيم الخليج، إلى هناك ليكون في استقبال نائب الملك، كما كانت السفينة لابونج أيضاً تنتظر النائب في مياه مسقط. وفي الساعة العاشرة والنصف صباحاً بدأت سفينة العلم ترسل إحدى وعشرين قذيفة من مدافعها تحية للميناء، وراحت مدفعية السلطان ترد على التحية بمثلها، قذيقة هناك تتبعها قذيفة هنا. وحين استقرت هاردنج في مرساها، جرت تحية النائب بإحدى وثلاثين طلقة، وصعدت بعثة السلطان إلى هاردنج لتحية النائب.

تألّف وفد الترحيب بنائب الملك في الهند عند وصوله مسقط من السيد محمد، أخي السلطان غير الشقيق، والسيد تيمور، ابن السلطان الذي كان قد مثّل والده في احتفالات التتويج في دلهي، وقائد الحرس السلطاني، وحاكم مطرح. وقُرئت خطبة الترحيب المكتوبة بالعربية، التي جاء فيها أن الأخبار السعيدة التي حملت لجمعهم وصول صاحب المقام الرفيع اللورد كيرزن إلى مسقط "أبهجت الخواطر، وأشرقت بطلعته البهية شمس الفرح والسرور، وتلألأت أقمار السعادة وانتشر نورها يشعّ بالبهجة. أهلاً بصاحب الرتبة الرفيعة والمقام السامي الذي وفد إلينا على هذه الكيفية العظيمة". وتنتهي كلمة السلطان التي قُرئت بالنيابة عنه بالترحيب بالنائب، والإشعار بأنه أوفد ابنه وأخاه للترحيب بقدوم سعادته، ولكي يتشرّفا نيابة عنه باللقاء وتقديم أسمى آيات الاحترام لشخصه الرفيع الشأن، لكي يحتفيا بوصوله الميمون، ويعبّرا الشخصه عن تقديره لهذه الزيارة، ويشكرا له تشريفه لمسقط، "مع صادق دعواتي لكم بالعيش في سرور وحبور، والأمنيات بدوام فخامتكم ودوام علوّ سمعتكم، والدعاء بالإقبال ما توالت الأيام والليالي". وغادرت بعثة السلطان بعد ذلك الترحيب المركب تشيّعها ثلاث عشرة طلقة مدفع تحية لها وتعبيراً عن مكانتها السامية.

ما إن عاد الوفد السلطاني إلى الساحل حتى تقدّم السلطان، سموّ السيد فيصل بن تركي، ليبحر في صحبة الميجور كوكس، الوكيل البريطاني في مسقط، مع مجموعة من الأعيان إلى سفينة النائب. وطاف اللنش بالسلطان حول السفن المرافقة كلها قبل أن يرسو عند هاردنج ليترجّل

السلطان ويدخل إلى مقصورة النائب فيها. وكانت المقصورة مفروشة بالسجاد الأنيق المزخرف والمطرّز بخيوط الذهب. وجرى خلال اللقاء تبادل التحية، وقدّم السلطان إلى النائب مجموعته من العرب المرافقين. وبعد تبادل الأحاديث لفترة وجيزة، جرى خلالها تقديم المشروبات الباردة، غادر السلطان والوفد المرافق هاردنج، فيما كانت فوكس تطلق إحدى وعشرين قذيفة تحية للسلطان.

استقبل كيرزن في الفترة بين صلاة الظهر والساعة الواحدة مساءً القنصلين الفرنسي لارانس والأمريكي ماقردي على السفينة هاردنج، واجتمع بكل منهما على حدة. وحين غادرا السفينة، أحدهما بعد الآخر، أطلقت المدفعية طلقات التحية لكل منهما بما اتفق ومنزلته. وفي الساعة الواحدة والنصف، فيما كانت الأعلام ترفرف على السفن التي ازدهت بأبهى وأتمّ زينة، نزل النائب من هاردنج وسار بين الرجال المصطفّين على الجانبين، وأدّيت له التحية، ومضى إلى المقر المخصص له قرب مبنى الجمارك يرافقه اتكنسون ويلز وهيئته العسكرية. واستقبله هناك الكولونيل كمبال والميجور كوكس. وسار ركب النائب عبر طريق ضيقة كُسيت بالسجاد المزخرف عبر الحي الهندي إلى مقر الوكالة البريطانية حيث تناول ومن معه طعام الغداء. وازدان قصر السلطان بالأعلام التي انتشرت لترتفع أيضاً على قلعتي الميراني والجلالي كما حملتها باخرته نور البحر. وكبادرة من السطان للتعبير عن المصالح المشتركة والتعاون بين حكومتي عمان وبريطانيا، جرى عبر قوس بلغ طوله ثلاثمئة ياردة توصيل صف الأعلام التي تزيّن الوكالة البريطانية بالأخرى التي زيّنت قصر السلطان.

اجتمع النائب في بهو الوكالة، بعد تناول الغداء، بوفد يمثل الرعايا البريطانيين وكافة المعتمدين على الحماية البريطانية في مسقط ومطرح من مسلمين وهندوس وبارثيين. وقرأ برشوتام دانجي، وكيل إحدى شركات الهندوس التجارية في مسقط، خطبة جاء فيها أن هذا الوفد قدم للتعبير أصالة عن أنفسهم ونيابة عن جميع الرعايا البريطانيين القاطنين في المناطق الأخرى من أملاك سموّ السلطان للترحيب بسعادته وليزجي التقدير بكثير من الاحترام عن سعادتهم بالزيارة غير المسبوقة "لنائب الملك والحاكم العام للهند إلى هذه الأماكن النائية، فهو قد استنّ بفعله هذا سُنّة جديدة واتخذ سياسة نشطة في أماكن وجود المصالح الهندية بعد أن أضحت شبه القارة الهندية في أيدي التاج البريطاني". ويستطرد الخطيب فيقول: "... كما هو معروف عن الأجناس التي تحكم هذه المناطق من أنها تتأثر بظواهر الأمور، فإن زيارتكم قد بشّرتنا بأننا بتنا على أعتاب عصر جديد تسمو فية السمعة البريطانية، ويزداد فيه النفوذ البريطاني، وستؤكد زيارتكم لكافة المقيمين في هذا الساحل أن النفوذ البريطاني في هذه المناطق ليس ضعيفاً، وأن قوّته حاضرة أبداً، وهذه حقيقة ماثلة، فنائب الملك – الإمبراطور الذي بيده مقاليد نفوس الملايين من مواطني شبه القارة الهندية المترامية الأطراف يبدي اهتماماً كبيراً برعايا حكومة جلالته المتناثرين في هذا

الخليج، وهو يتطلع إلى رعاية مصالحهم ويعمل على رفاهيتهم". ويكمل بروشتام دانجي فيقول إن الرعايا البريطانيين في مسقط قد اعتادوا أن يجدوا من سموّ السلطان الترحيب، ولكنهم - مع ذلك - يجدون صعوبة في الحصول على تعويضات إذا وقع عليهم ضرر من أهل عمان. ويرى الخطيب أن هذا الأمر يعود في جانب منه إلى الاضطرابات التي يشهدها الظهير العماني، ويضيف أن نزاعات القبائل في الداخل هي سمة عامة ومن طبيعة الأمور، ولا يرى مشاحة في ذلك إذا التزمت الاضطرابات الداخل العماني و لم يصل أثرها إلى مسقط، لأن معاناة الرعايا البريطانيين - في هذه الحالة - لن تزيد على معاناة غيرهم من أفراد المجتمع المسالم، ولكن إذا انتقل مسرح الاضطرابات إلى الموانئ الساحلية أو إلى جوارها، فإن مصالح الرعايا ستتضرّر بنحو كبير، وسيتمكن منهم القلق على سلامة أشخاصهم وممتلكاتهم. وأشار المتحدث إلى أن هناك رعايا يعملون خارج مسقط في بعض الموانئ الصغيرة حيث يسيطرون في تلك الأماكن على التجارة المحلية، ورغم قدراتهم المتواضعة، يمثّلون طلائع التجارة الهندوبريطانية في تلك المناطق. وبعد أن يشكر بروشتام الوكلاء السياسيين لبريطانيا الذين تعاقبوا على وكالة مسقط لجهودهم البارزة التي يضطلعون بها، ويشيد بالسفن الحربية البريطانية على ما تقوم به في زمن الاضطرابات، يضيف أن الخطر الذي يتهدد الرعايا البريطانيين يبقى - رغم ذلك - ماثلاً وعظيماً يتهدد أموالهم وأرواحهم. واقترح المتحدث على الحاكم العام للهند أن تعمل إدارته على دعم السلطان لتكون له قوّة للردع، أو أن تعمل بريطانيا على التدخل بنشاط لتحفظ الأمن في تلك السواحل حين يتطلب الأمر التدخل للحفاظ على المصالح البريطانية. ويقع على الحكومة البريطانية أن تتخذ من الخطوات الفعالة الكفيلة بمنع قبائل عمان غير الموالية، الصعبة المراس، من عرقلة التجارة. ويضيف أن التجارة الهندوبريطانية مزدهرة في مسقط وتتحكم في السوق رغم ظهور منافسة "أجنبية". وأشار المتحدث إلى أن العامل المثبط الوحيد يتمثل في تثبيت سعر العملة الفضية في الهند منذ عام ١٨٩٣م والتذبذب الذي طرأ منذ ذلك التاريخ على أسعار ذلك المعدن، ما جعل صرف الريال المحلي غير الملتزم بتحديد سعر ثابت يتأرجح صعوداً وهبوطاً، ما يضرّ بتجارة الاستيراد. وطالب المتحدث نائب الملك بأن ينظر، بالتعاون مع الحكومة المحلية، في حلّ هذه المسألة والخروج من هذا المأزق. وكرر المتحدث في نهاية خطبته ترحيبه بنائب الملك وصحبه الميامين، مؤكداً أن هذه الزيارة ستظل نقطة فارقة في تاريخ مسقط، وأنها ستعيش في الذاكرة أبداً.

شكر كيرزن رعاياه المجتمعين على "خطبة الولاء" التي استمع إليها، وأضاف أنه ركب *البحر من الهند إلى هذه الأرض التي وجد فيها مجتمعاً مزدهراً لأتباع جلالة الملك الإمبراطور* يؤدي دوره التجاري وهو آمن قانع. وأضاف أن معلوماته تفيد بأن عدد الهنود البريطانيين الموجودين في مسقط والموانئ العمانية الأخرى لا يقل عن ألف وثلاثمئة. وأشار النائب *إلى أن*

نفوذ أيّ دولة على أخرى يقاس بحجم المصالح التجارية، وأن تجارة الهند مع مسقط وصلت في المتوسط خلال السنوات الخمس الماضية إلى ٨٤٪، أما متوسط دخول السفن التجارية البريطانية إلى ميناء مسقط فقد وصل في هذه الفترة إلى٩٧٪ من مجمل حركة السفن في هذا الميناء، ما يعني أن المصالح التجارية لبريطانيا العظمى هي من دون شك المهيمنة والمسيطرة، "ما يجعلني أدرك أني أخاطب فئة من العاملين في مركز تجاري بريطاني متقدم له أهميته، يقوم أفراده بتقديم قدر غير قليل من الرفاهية المادية لعمان". ويضيف أنه سُرّ بما سمع من أن الوكلاء السياسيين البريطانيين يقومون برعاية هذه المصالح. وأشاد النائب بالميجور كوكس الذي يُمثّل حكومة الهند في عمان، والذي يحرص على تحقيق العدالة لمن يقومون بهذه المصالح، كما أشاد النائب بمجتمع الرعايا البريطانيين لما يسوده من تسامح ديني ووحدة قصد، ما يؤهّل أفراده للقيام بأعمالهم بنجاح. وفي تعليقه على الاضطرابات في الداخل العماني، أكد النائب السياسة البريطانية الثابتة بعدم التدخل في الظهير العماني الذي يرى أن الاضطرابات فيه "تراث متوارث"، ولكنه أشار إلى أن من واجب الحكومة البريطانية أن تتدخل إذا امتدت هذه الاضطرابات إلى الموانئ العمانية وهدّدت حياة الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم ومصالحهم، الذين يجرون تجارتهم بطريقة مشروعة في تلك السواحل، وعبّر عن ثقته بأن هذا التدخل سيجد "من سموّ السلطان الترحيب المشوب بالولاء" للمساعدة المخلصة التي تُقدّم لسموّه.

أبحر النائب من المقيمية في قارب صغير إلى مقرّ إقامته تمهيداً لزيارة قصر السلطان. ووجد كيرزن السلطان وثلاثين جندياً من جنود البحرية في انتظاره هناك. وسار النائب من المرسى راجلاً في معية السلطان عبر طريق فُرش بالسجاد واصطفّ على جانبيه الجنود المساقطة حتى وصل إلى "البرزة" التي هي صالة الاجتماعات في القصر السلطاني.

ازدانت تلك القاعة بنقوش وكتابات بحروف لاتينية (إنجليزية) تعبّر عن الصداقة للتاج البريطاني. ووُضع فوق منصة عالية في تلك الصالة المستطيلة التي تطل على البحر كرسيّان للنائب والسلطان، وانتظم الزوار الآخرون على مقاعد صُفّت على امتداد الجدار على يمين الكرسيّين الرئيسيّين ويسارهما، وجلس في بهو الصالة في مواجهة الزوار عدد من الشيوخ والأعيان يتراوح بين سبعين وثمانين رجلاً جُلبوا من الداخل لحضور المناسبة. وقدّم الوكيل السياسي البريطاني إلى النائب الشخصيات المهمة التي توافدت لاستقباله، ثم قُرئت كلمة السلطان نيابة عنه، وقُدّمت المشروبات، وكان السيد تيمور يتولى بشخصه خدمة النائب. وسار اللقاء سلساً لم يعكّره إلا صوت السيد محمد وهو يطلب أن يتيح له النائب فرصة لقاء خاص. وجرت السيطرة على الموقف بسهولة، حيث كان من المعلوم أنه يطلب أن يُسمّى سلطاناً بدلاً من تيمور إذا حدث أن تنازل فيصل. وفي اجتماع محمد في اليوم التالي مع كل من المقيم والوكيل، اقتنع الرجل بأن هذا الأمر غير ممكن وغير وارد إطلاقاً من وجهة النظر البريطانية،

فوافق على إسقاطه. وكان محمد، نتيجة لتوصية من السلطان، يُقدّم خلال الاحتفالات التي أقيمت ترحيباً بالنائب على تيمور تشريفاً له ومراعاة لسنّه.

انتهى اللقاء في "البرزة" وسار السلطان مع ضيفه إلى مقر إقامته، فيما كانت جماهير مسقط والآخرون الذين وفدوا من الداخل يملأون الطرقات ويستطلعون ما يجري. وفي الساعة الخامسة صعد كيرزن إلى هاردنج. وفي هذه الأثناء، وصلت إلى ميناء مسقط الباخرة سفنكس وعلى متنها وزير جلالته في طهران للتشاور مع النائب في بعض الأمور المتصلة بزيارته إلى الساحل الفارسي. وهكذا فقد انضمت سفنكس إلى هذا الحشد من السفن الحربية التي ترفع العلم البريطاني، ويُعدّ هذا العدد الكبير من السفن أقوى حشد لسفن أمة من الأمم دخل حتى ذلك الحين إلى مياه مسقط.

جرى في اليوم التالي في الساعة الحادية عشرة والنصف عقد احتفال (دربار)على السفينة أراجونت التي زُيّن سطحها وكُسي بالسجاد الموشّى بفتلات الذهب كما رفرفت عليه الأعلام. واكتمل قبل ساعة من موعد بدء الاحتفال وصول المدعوين من المواطنين. ومع موعد البدء، أعلنت طلقات المدافع وصول القائد العام للأسطول في محطة الهند الشرقية الذي وفد إلى مسقط في رفقة كيرزن إلى مكان الحفل، وتلاه وصول السلطان. وحين التأم شمل الجميع، وصل النائب إلى مكان الاحتفال مع ثلة من نحو مئة جندي من حرس الشرف، وأخذ الرجل مكانه في منصّة الشرف. جلس السلطان على يمين النائب، فيما جلس قائد الأسطول على يساره، يليه الوزير البريطاني في طهران. وجلس السكرتير الخاص للنائب والسكرتير العسكري والحرس الشخصي المصاحب له خلف هذه المجموعة، فيما جلس أمام النائب من الجهة اليمنى الوكيل السياسي في مسقط والسيد محمد والسيد تيمور ثم عدد من مرافقي السلطان والمدعوين، وجلس في الناحية الأخرى من على يسار النائب ممثّلو الهيئة الخارجية لحكومة الهند وضباط السفن الحربية في كامل زيّهم الرسمي. وبدأ الحفل بخطبة ترحيب من السلطان كتبت بالعربية وقرأها راشد بن عزيز، والي سمايل، نيابة عن السلطان. ورد في تلك الخطبة تعبير السلطان عن امتنانه للفخار الذي طوّقه به الحاكم العام للهند حيث شرّفه بزيارة عاصمة عمان المتواضعة مصحوباً بسعادة السيدة زوجته وسعادة الأدميرال ومن برفقته من الآخرين. وعبّر السلطان في خطبته عن عمق الصداقة الخالصة والارتباط الوثيق بحكومة الهند التي "تتولون سعادتكم توجيه شؤونها وبجلالة الملك الإمبراطور الذي تقومون بحكم تلك المناطق النائية نيابة عنه. لقد دخل أسلافنا منذ أكثر من قرن من الزمان في علاقات تعهد مع بريطانيا العظمى التي أرسلت لها ممثلاً مقيماً في مناطقنا". ولقد كان لمسقط لفترة طويلة قبل الدخول في التعهدات علاقات تجارية بعيدة المدى وارتباطات مع الإنجليز في موانئ الهند البريطانية، وقد توثقت العلاقات بين الجانبين منذ تلك الفترة الباكرة.

سبق لحكام عمان، ومنهم شخصي، تلقّي المساعدات المعنوية والمادية المشكورة في العديد من المناسبات حين تنشأ خلافات مع الدول الشرقية، فقد ظلّ نائب الملك في الهند على استعداد دائم لتقديم الدعم والمساعدة لعمان. ولا تجدني أختلف عن آبائي في التعبير عن الامتنان والشكر لما بذلتموه إلا بإضافة عظيمة وهي أنني انفردت من دون سائر سادة عمان الآخرين بشرف استقبال سعادة النائب في مسقط وجهاً لوجه لأعبّر له عن مشاعري. . . .

واعتذر السلطان عن أن مسقط تفتقر إلى ما يمكن أن يجذب انتباه الزائر، ولكنه عمل بقدر ما سمحت به الظروف لتزيين طرقاتها وبيوتها تعبيراً عن الفرح بالزيارة، كما أعلن السلطان فترة الزيارة عطلة رسمية. "وليس في إمكاننا القيام بأكثر من هذا للتعبير عن استحقاق هذه الزيارة للشرف، وأطلب إلى سعادتكم التفكّر في بيت الشعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"

الجدير بالذكر أن زوجة كيرزن المرافقة له، التي رحّب بها السلطان، هي ماريا فيكتوريا ليتير، ابنة مليونير أمريكي من أصل ألماني تزوجها كيرزن في عام ١٣١٢/١٨٩٥م وأنجب منها ثلاث بنات. وتوفيت ماريا في ٢٦ جمادى الأولى ١٣٢٤/١٨ يوليو ١٩٠٦ ودفنت في كلدستون. وكانت وفاتها أكبر مصيبة عانى منها كيرزن في حياته – كما جاء عنه –. وعلى الرغم من أنه لم يعرف عن كيرزن تمسّكه بدينه، صرّح في آخر أيامه بأنه لا يخشى الموت لأنه سيجمعه مع ماريا في الدار الآخرة. وفي الحقيقة، المشهور أن كيرزن بعد فقدانه ماريا ظلّ يعاني من الفراغ العاطفي. ارتبط بعد وفاتها لفترة بالروائية اليانور جلن من دون زواج، ثم ما لبث أن تركها وتزوج من الأرملة الثرية جريس إلينا هندس في عام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م، وهي أمريكية أيضاً ولدت في ألباما، وكان لها ثلاثة أولاد من زوجها الأول هيربت داجان. وتمنى كيرزن أن ينجب من جريس ابناً ذكراً، الأمر الذي لم يتحقق له فهجرها وانفصلا من دون طلاق. ولربما ألقى هذا الاضطراب العاطفي بظلاله على تلك الشخصية القلقة التي تركت بصماتها في تاريخ السياسة البريطانية في الشرق.

ابتدأ كيرزن خطبته بالرد على كلمة السلطان بقوله إن ما سمعه من سموّه هو عين ما أراد أن يعبّر عنه، فقبل مئة وخمسة أعوام عقد "جدّكم" أول اتفاق مع شركة الهند الشرقية، وكما ذكرت فقد وفد إلى مسقط قبل أكثر من قرن من الزمان ممثل بريطاني وتوثقت علاقات الصداقة بسلسلة من التعهدات والمواثيق لا تقل عن تسعة أدّت إلى إحكام العلاقات السياسية والتجارية وحظر تجارة الرقيق ومكافحة القرصنة. وكان من نتائج تلك العلاقات أيضاً امتداد البرق الكهربائي (التلغراف) إلى مسقط. وأكد النائب أن سلسلة هذه المعاهدات هي خير شاهد على

أن العلاقات التي ربطت دولة عمان بالحكومة البريطانية هي علاقات استثنائية. وقد توثقت تلك العلاقات بما ذكره سموّك من الدعم الذي تقدمه الحكومة البريطانية لحكام عمان على التوالي في اللحظات الحرجة. ولعل موقع مسقط في مواجهة السواحل الهندية يضيف إلى تلك الروابط رابطاً طبيعياً يؤكد الاتحاد بين الجبهتين، يضاف إلى كل هذا أن تجارة مسقط في أعمّها ليست هندية المصدر فقط، ولكنها تقوم في مسقط أيضاً على تجار هنود، وهم شريحة كبيرة من رعايا الدولة البريطانية يسكنون في هذا البلد، ما يؤدي إلى ازدهار هذه الدولة. وأضاف النائب أن جماع هذه العوامل يجعل حكومة الهند تولي اهتماماً خاصاً بهذا المكان، وهذا ما دفع نائب الملك في الهند إلى زيارته والتعرّف إلى حاكمه. "لقد ازدادت دواعي سعادتي بهذه الزيارة بما سمعته منك بصفة مباشرة من أنك وأولادك على وعي تام بهذه الارتباطات القديمة العهد، وبوعدك أن تظل أنت وأولادك على ولاء دائم لها". ونوّه الحاكم العام بزيادة حجم التجارة الهندية في عهد هذا السلطان، وأشاد بتوصية حكومة الهند التي طلبت إلى السلطان أن يتولى إدارة الجمارك بدلاً من أن يوكلها إلى ملتزم، وما نجم عن تلك التوصية "الحكيمة" من زيادة في دخل السلطان. وعبّر النائب عن غبطته بما قرره من ربط مسقط بالعالم الخارجي عبر "كيبل" يربط بين مسقط والجاسك. وامتنّ النائب على السلطان بأنه عيّن وكيلاً له، مقيماً في مسقط هو "الميجور كوكس الموظف الكفء الثقة، وقد أكد لي سموّكم أنكم وجدتم فيه مستشاراً حكيماً وصديقاً صدوقاً". وأشار النائب إلى أنه سبق أن قدّم إلى السلطان دعوة في يناير الماضي لزيارة دلهي لحضور احتفالات تتويج صاحب الجلالة الملك الإمبراطور، ولكنه لم يتمكن من الحضور وأرسل ابنه تيمور نائباً عنه. ويضيف النائب أنه اجتمع بتيمور حين زاره في تلك المناسبة وتباحث معه في أحوال عمان وسبل العمل على ازدهارها. كذلك أكد النائب للسلطان أن حكومة الهند التي درجت على التدخل دائماً لكبح الاضطرابات وإسكات التمرد في عمان ستستمر باتباع تلك السياسة، ولن تحيد عنها أبداً ما دام حكام عمان يراعون تعهداتهم التي نصّت عليها المعاهدات، وأكد أنهم سيحصلون - في هذه الحالة - على الدعم المستمر من الحكومة البريطانية ما داموا يديرون دولتهم على أسس من الاستنارة والعدل، وذلك لأن الحكومة البريطانية حريصة على دعم السلم في هذه المنطقة والعمل على تقدّم التجارة فيها. وأعلن النائب أن حكومة الهند لن ترضى عن أيّ محاولة تقوم بها الطبقات المتذمرة أو الأشخاص الساخطون من أتباع سموّه لإثارة الاضطرابات، لأن تحدّي سلطة سموّ السلطان من شأنها عرقلة مصالح الرعايا البريطانيين التي تحرص بريطانيا على سلامتها كما تحرص على سلامة مصالح السلطان كذلك. وعبّر النائب عن أمله بأن يتحقق لهذا المسعى النجاح مستقبلاً للتغلب على التناقضات التي سبق لهم التغلب عليها في الماضي. وتمنى النائب أن تكون هذه الزيارة التي يلتقي فيها حاكم عمان للمرّة الأولى في مياه مسقط بممثل التاج البريطاني في الهند معلماً بارزاً

في تاريخ العلاقة التي تزداد نموّاً مطّرداً بين الدولتين. وتمنى الحاكم العام للهند لسموّه طول العمر واكتمال العافية لتنمية هذه العلاقات الراسخة، وليحكم شعباً مسالماً يكنّ له الولاء. وانتهى إلى القول إنه تسلّم البارحة فقط الإذن السامي من صاحب الجلالة الإمبراطور لمنح سموّ السلطان "شرف حمل نوط الإمبراطورية الهندية من طبقة الصليب الأعظم"، "ويُعد هذا الامتياز بمثابة تقدير من الحكومة البريطانية لروابط الصداقة المخلصة التي تشدّكم إلى الحكومة البريطانية، وللولاء لها الذي عبّر عنه سموّكم بوضوح في أكثر من مناسبة خلال اليوم والبارحة". وقام خان بهادور عبد الرحيم حكيم، الملحق "الوطني" بالأمانة العامة للهيئة الخارجية بحكومة الهند، بترجمة هذا الخطاب إلى العربية.

طلب النائب إلى المقيم كمبال والوكيل كوكس أن يخاطبا السلطان فيصل الذي كانت تراوده فكرة التخلي عن العرش لمصلحة ابنه تيمور ليعدل عن رأيه ويتراجع عمّا أزمعه. ووافق السلطان على ما اقترحه النائب، مضيفاً أنه لن يخطو خطوة في هذا الاتجاه إلا بعد التشاور مع الحكومة البريطانية والحصول على مباركتها.

كان بيرسي كوكس الذي عيّنه كيرزن وكيلاً لحكومته لدى سلطان مسقط إدارياً نشطاً من طراز استعماري فريد، تمكن في فترة وكالته عن حكومة الهند في مسقط من تعديل مسار السياسة العمانية من الوجهة الفرنسية التي حاولت أن تتوخاها إلى السياسة البريطانية التي التزمتها تماماً بعد ذلك. لم يكتفِ كوكس بأن يكون دائماً عند أُذن السطان في قصره أو في الوكالة البريطانية في مسقط، بل اتخذ من الرحلة في الأرض العمانية وعلى أطرافها طريقاً آخر لمعرفة أفضل تعينه على الإدارة الفاعلة. ولعل رحلته عبر أبو ظبي إلى عمان في عام ١٩٠٢م تجد منّا اهتماماً خاصاً. فقد أفاد بأن زايد بن خليفة، ذلك الرجل العجوز الضخم الجثة الذي تجاوز عمره ثمانين سنة يتمتّع بنفوذ كبير في المنطقة، وأضاف كوكس أن رحلته عبر عمان ما كان لها أن تتم، في النصف الأول منها، إلا بتعاون هذا الشيخ الذي يحكم أبو ظبي، فنفوذه يتعدّى البريمي إلى داخل عمان. وقد احتفل زايد بهذه الزيارة وأقام، في هذه المناسبة مسابقة لسباق الفروسية في حلبة على الرمال التي تقع خلف المدينة، كذلك تمكن كوكس من التجول برفقة هذا الشيخ المسن وأبنائه في السوق الذي يقول كوكس إنه يعدّه سوقاً جيداً، فقد وجد فيه كل ما يمكن أن تحتاج إليه هذه "البلدة البائسة"، اعتباراً من الكراسة إلى مصيدة الفأر. ورافق صقر بن زايد كوكس حتى منطقة المقطع الواقعة على بعد عشرة أميال من المدينة. وحمل كوكس معه من أبو ظبي خطاب توصية من الشيخ زايد إلى الشيخ محمد بن هلال الظاهري الذي كان مقرّه في البريمي، جاء فيه أن المقيم قد وفد إلى أبو ظبي وأجرى معه بعض المباحثات،

ويبدو أنه يرغب في السفر إلى منطقة الجوّ في البريمي على طريق رأس الخيمة

ونطلب إليك استقباله. ويحتمل أن يفكر المقيم في الذهاب إلى الباطنة وصحار، فإذا أبدى هذه الرغبة نطلب إليك أن ترافقه مع من تختاره من جماعتك، ونرجو ألا تتقاعس عن تنفيذ طلبنا.

دخل كوكس البريمي عن طريق المسعودي "القرية التي أقامها البنو ياس حديثاً". ولاحظ أن البريمي تعريف لا يدل على القرية التي تحمل هذا الاسم، بل يطلق على الواحة التي تضم عشر قرى منفصلة لكل منها اسمها الذي تعرف به. نزل كوكس في الجيمي "فهي الأقرب من سواها إلى قلب الواحة". ولفتت كوكس خصوبة التربة في تلك الواحة، وقدّر أنها تضم أكثر من ستين ألف شجرة نخيل تروى من الأفلاج التي تسيل من التلال الواقعة إلى الشرق، ويغذيها فلج آخر يجري من جبل حفيت، ولاحظ أيضاً أن نفوذ شيخ أبو ظبي يتزايد في الواحة سنة بعد أخرى، وممتلكاته فيها تتّسع. أما التجارة التي تحصل في تلك الواحة مقايضة فتجري في أسواق مفتوحة تقام في العراء، وكانت السلع التي يحتاج إليها هؤلاء الريفيون تأتي من صحار، ولكنها أصبحت تفد من الشارقة ومن دبي التي أصبحت تغشاها بواخر شركة الهند البريطانية.

درس كوكس في هذه الفترة طبيعة العلاقات بين أبو ظبي وعمان، وتعرّف إلى أسلوب الحكم في أبو ظبي من خلال جلسة عقدها الشيخ - كما هي عادته - صباحاً خارج قلعته. وغادر كوكس البريمي إلى عبري فتنوف. ويبدو أن أهل المنطقة كانوا يتشاءمون من ظهور أوروبي في بلادهم. فقد قال له شيخ تنوف بصراحة متناهية إن البلاد لم ترَ الغيث منذ أن زارها مايلز قبل ربع قرن، وطالب كوكس بدفع ما يقابل الخسائر التي حبست المطر كل هذه الفترة، واعتذر كوكس بلباقة، ولكنه - كما يقول - فهم موقف البلدة من البريطانيين.

غادر النائب كيرزن، بعد انتهاء ذلك الحفل الخطابي، إلى مقصورة في أراجونت واستبدل الزي الذي يرتديه، وتوشح بوشاح الامبراطورية الهندية من طبقة السيد الأعظم، وجلس "على العرش"، ووقف السلطان أمامه فقلّده، بعد الفراغ من المراسم الشكلية التي تتطلبها المناسبة، الوسام بالاحترام الواجب لمن يحمل هذا النوط. وغادر النائب بعد ذلك السفينة أراجونت وتبعه السلطان ثم الأدميرال، الواحد منهم بعد الآخر، فيما كانت المدفعية تؤدي التحية لكل منهم، بحسب ما هو مقرر للرؤساء، بواسطة مراسم حكومة الهند التي تحدد عدد طلقات المدفعية لكل منهم.

قدّم السلطان إلى النائب طلبين ليبتّهما. كان المطلب الأول للسلطان أن يُسمح لابن عمه، علي بن سالم، المنفي في زنجبار بالعودة إلى مسقط. وكان علي قد أبعد إلى هناك لاتهامه بالاشتراك في مؤامرة سياسية. أما الطلب الثاني فهو التدخل لدى حكومة البرتغال ليطلب العفو والصفح عن بعض تجار الرقيق العمانيين الذين كانت قد اعتقلتهم سلطات تلك الحكومة في عام ١٩٠٢م

في موزمبيق وحكمت عليهم بخمسة وعشرين عاماً سجناً لكل منهم. وقد وعد النائب بالنظر في الأمرين، ولكنه أبدى تشككاً في أن الأمل بالاستجابة للمطلب الثاني يبدو ضئيلاً جداً. كذلك استجاب النائب لما أشار به كمبال من ضرورة الحديث مع فيصل بشأن ضرورة تعيين خبير مالي أو إنشاء جمعية لتدقيق حسابات خزينته، وألا يعمد السلطان مستقبلاً إلى الاستدانة حسماً على حساب ريع الجمارك التي هي مصدر دخله الأساس. واعترف السلطان للنائب بأن إنفاقه بات يتجاوز دخله، ولكن يبدو أنه لم يكن راغباً في قبول تعيين مدقق لحساباته، إذ تجاوز ذلك و لم يرد، لكنه – مع ذلك – وعد بأنه سيبذل ما في وسعه للتجاوب مع ما يشير به النائب. وأكد فيصل في هذا اللقاء غير الرسمي اعتزازه بروح الصداقة التي أبداها الحاكم العام، وتأكيده أنه وابنه تيمور يضعان نفسيهما رهن إشارة سعادته. وغادر النائب بعد هذا الاجتماع في هاردنج التي أبحرت به تحيط بها سفن الأسطول المرافقة.

نجحت زيارة الحاكم العام للهند البريطانية إلى مسقط نجاحاً باهراً، فقد أصبح السلطان – كما تدّعي تقاريرهم – كالتلميذ المؤدّب في حضرة كوكس، وبات القنصل الفرنسي كالحلاق المهذب لا يملك إلا الثرثرة بعد أن هاله ما رأى من سطوة ومهابة وفخامة مثّلها موكب كيرزن الزائر لمسقط، و لم يعد لدولة هذا القنصل من حظّ لدى السلطان الذي كتب كيرزن بشأنه بعدئذ أنه بدا له خلال الزيارة تابعاً للراج أكثر من كونه شيخاً مستقلاً.

> لقد بدا لي سموّ السلطان في بساطته واعتزازه وسلوكه أحد التابعين بإخلاص إلى التاج البريطاني أكثر منه أميراً مستقلاً، فهو يثق بالقوّة البريطانية للعمل على مساندته وحمايته. لقد لمس سموّه من الوضع الذي يحيط به، إضافة إلى ما رآه بعينه، ما يؤكد له ضرورة الاعتماد على صداقتنا، وإن استجابة سموّه لرغباتنا لا تمثّل لنا فألاً حسناً في المستقبل فقط، ولكنها تدلّ أيضاً على تميّز ومقدرة الكولونيل كوكس، الوكيل السياسي الذي عيّنته في مسقط في عام ١٨٩٩م. فقد تمكن هذا الوكيل في أقل من أربع سنوات من أن يحوّل هذا الحاكم من شعوره بالريبة تجاهنا، إذا لم نقل من العداء الفاضح لنا، إلى الشعور بالثقة بنا وبذل الاحترام الكامل لنا.

غادر الأسطول مسقط صباحاً ووصل إلى منطقة رؤوس الجبال حيث قام النائب برفقة الأدميرال بتفحّص المنطقة. واجتازت هاردنج مدخل مالوكم لتدلف من خليج عمان إلى الخليج الفارسي مبحرة بين مضيق جزيرة مسندم والساحل الرئيس في اتجاه الناحية الغربية من تلك الجزيرة، لتشق طريقها ببطء وهي تحتمي من الرياح بجزيرة الغنم، حتى دخلت ظهراً إلى خور الشم.

واجتازت السفينة من ثمّ جزيرة التلغراف (البرق)، وكانت آثار "المحطة" القديمة لا تزال بادية للعيان. وألقت هاردنج مراسيها عند قرية سبي الواقعة عند رأس المدخل. وهناك نزل كيرزن مع بعض موظفيه واعتلوا قمة بارزة في خليج مكلاب عند الموقع الذي كان يجتازه خط البرق السابق. وتمكن النائب من هناك من إلقاء نظرة فاحصة على مدخل مالكولم ومنطقة الفنستون والجبال المجاورة. وفي المساء استأنفت هاردنج إبحارها من خلال خور الشم في طريقها إلى الشارقة عبر البحر المفتوح. وأرسل كيرزن بنتائج زيارته في ذلك اليوم إلى حكومة لندن للنظر فيها على ضوء ما سبق له أن أوصى به من إقامة قاعدة بريطانية عند مدخل الخليج.

وصل ركب كيرزن إلى مياه الشارقة في ظهر يوم ١ رمضان/٢١ نوفمبر، وحشد المقيم في الخليج والوكيل السياسي في البحرين له شيوخ الساحل العماني حين أرسلا سفينة البرق الهندية لجلبهم إلى أراجونوت. وبعد أن اكتمل عقد الشيوخ على ظهر تلك السفينة، وفد إليهم من السفينة هاردنج نائب الملك يصحبه قائد الأسطول، وتلقّيا التحية من طاقم السفينة ليبدأ الدربار.

جلس كيرزن وجعل الوزير البريطاني في طهران عن يمينه وقائد الأسطول مع الشلة المرافقة على يساره. وصدحت الموسيقى العسكرية فيما اصطفّ حرس الشرف. وجلس الشيوخ المتهادنون من دون مقاعد أمام النائب على أرض قاعة الاحتفال في السفينة. ويشير التقرير إلى أن البعض منهم نسي أساليب "أسلافه القراصنة في ركوب البحر فأصيب بالدوار". كان الشيوخ الحاضرون هم زايد بن خليفة شيخ أبو ظبي يرافقه اثنان من أبنائه، وصقر شيخ الشارقة برفقة أحد أبنائه، ومكتوم شيخ دبي مع أحد أبنائه أيضاً، وعبد العزيز، ابن شيخ عجمان، إذ لم يتمكن ذلك الشيخ من الحضور لمرضه. وراشد، ابن شيخ أم القيوين الذي كان شيخاً طاعناً في السن، و لم يتمكن من حضور المناسبة.

أخذ النائب في إلقاء خطبته التي توصف بزبدة تاريخ بريطانيا في الخليج باللغة الإنجليزية في أولئك الشيوخ الذين لم يكن أيّ منهم يعرف من تلك الرطانة شيئاً. وتولى مساعد الوكيل في البحرين بعدئذ الترجمة، وكانت على النحو الآتي الذي ننقله بحذافيره من دون تدخّل منّا لإصلاح النص:

> يا مشايخ سواحل العرب المعاهدون بالدولة البهية البريطانية، أنا جئت هنا في حيثية نواب سلطنة الهند العظمى من جانب الدولة البرطانية التي قد عرفتموها أنتم وآباءكم وأجدادكم وجرت بينها وبينكم المعاملات من مدة أكثر من مئة سنة. وغرض مجئيتي أن أظهر عليكم أنتم من تسكنون على بعد من سواحل الهند ما نسيتم تلك الدولة بل إنها قائمة على طريق الحماية الذي حصل لكم من منه الأمن والضمان لحقوقكم من مدة تبلغ مئة سنة تقريباً، وأن أول نواب الهند الذي دخل هذا البحر لا يخرج منه بدون السعي في علاقاتكم ولا بدون تحديد

المواعيد والمعاهدات التي كانت سبباً لاتحادنا في هذه المدة الطويلة.

أيها المشايخ لا شك أن آباءكم وأجدادكم قد حكوا لكم الحالات الماضية لا يخفى عليكم أن مئة سنة قبل اليوم كان القتال والجدال جارياً على الدوام، وكل رجل تقريباً ما كان له شغل إلا القتل أو الغارة كانت سرقة الإنسان وبيعه كالعبيد في غاية الشدة والقتل وسفك الدماء ما له حد ولا وقف زماناً حتى لا يمكن لأي سفينة تجري في البحر إلا أن تخاف حملة السارقين. كل سنة لا يزال القتل في محل الغرق - حفظ التجارة والأمن ما لها وجود أبداً عند دخلت الحكومة البريطانية في هذا المادة وأظهرت أنها نظراً إلى فوايد رعاياها وتجارها وإلى حقوقها الجايزة في البحور التي تحيط بسواحل الهند لا تترك الأمر على هذا الشان فظهرت سفن البرطانية في هذا البحر واحتلت أفواجها هذا البنادر والمدائن الساحلية التي نراها من هذا المركب كان الخصام الذي وقع فيما بين شديداً ولكن قصير المدة في سنة ألف وثمانمئة وعشرين انعقدت المعاهدة الأولى العمومية بين الدولة البرطانية والمشايخ، وبلغ هذه المعاهدة وأمثالها إلى عدد لا أقل من ثمان. وفي سنة ألف وثمنانمئة وتسع وثلثين انعقدت معاهدة الهدنة البحرية وتجددت وقتاً فوقتاً حتى إنها عوضت في سنة ألف وثمانمئة وثلث وخمسين بمعاهدة الصلح الدائم التي قايمة إلى الآن ومن شرائط تلك المعاهدة أن يصير وقف كامل للحرب البحري بين رعايا الرؤساء المعاهدين، ويكون حسب العبارة المستعملة في المعاهدة صلح كامل بحري على الدوام، وأنه عند وقوع حملة على أحد على البحر لا ينتقم المظلومون ويرفع دعواهم إلى باليوز الدولة البرطانية في خليج فارس، وان الحكومة البرطانية تراقب على الأمن في الخليج وتلزم على المعاهدين تعميل شرائط المعاهدة في كل وقت. أيها المشايخ لا بد أنه مع وجود هذه المعاهدة قد وقع أحيانا بينكم الشر والقتال، وقد ظهر من الناس بعض الوقت الغفلة عنها والخلاف لها ولكنها كانت عموماً مستحقة للاسم الذي وضع لها ونتجت لكم منها السلامة والأمن. هكذا حتى لا يتذكر الأكبر منكم عمراً تلك الحالات الماضية إلا كالقصص القديمة وما رأوا صغراءكم ابداً القتال ولا سفك الدماء على البحر، والآن قد جرت لآخر نقض الأمن مدة إحدى عشرة سنة.

أيها المشايخ من الروابط التي حصلت بيننا على هذا الطرق وجعلت بها الدولة حسب رضاكم محافظة لقيام الصلح بين القبايل نشأت في بين حكومة الهند وبينكم علاقات سياسية التي صارت الدولة البرطانية بسببها أميراً عليكم ومحافظاً لكم وما بقيت لكم رابطة بأحد من الدول الآخر كل واحدة من الحكومات

المعروفة باسم الحكومات ذات المعاهدة قد أوجدت على نفسها كما لا يخفى عليكم أن لا تعمل معاهدة ولا مكاتبة مع دولة من الدول غير البرطانية وأن لا تقبل من الدول الآخر وكيلاً وأن لا تترك من يدها شيئاً من بلادها. هذه الشرائط واجبة على كل واحد منكم وأنتم ما زلتم قائمين عليها بالخلوص، وهكذا هي واجبة من الجانب الثاني على الحكومة البرطانية أيضاً ما دامت المشايخ قائمين عليها بالصدق لا يمكن لأحد أن يضر حقوقكم وحريتكم. لا أظن أحياناً أن الوقايع الماضية في خطر النسيان وبعض الرجال يسئلون ما سبب دوام الدولة البرطانية على تنفيذ هذه السلطة، فتاريخ بلادكم وعائلاتكم والحالة الموجودة في الخليج جواب هذا السئوال. فنحن وصلنا هنا قبل أن ظهرت إحدى الدول في هذا البحر في القرون الأخيرة نحن وجدنا فيها النزاع فجعلنا النظام تجارتنا وهكذا أمنكم كانا في الخطر فصار حفظهما لازمة علينا في كل بندر على هذه السواحل رعية جلالة ملك انجلتره ساكنون ومشغولون بتجارتهم إلى الآن. مملكة الهند العظمى التي حفظها وصيانتها واجبة علينا هي من غاية قربها كأنها على باب بلادكم. نحن أنجيناكم من الهلاك على أيدى جيرانكم. نحن فتحنا أبواب هذه البحار لسفن جميع الملل فأمكن لهم نشر أعلامهم بالسلامة وما أخذنا ملككم ولا قبضنا عليه بل حفظناه سالماً. نحن لا نضيع مساعي مئة سنة تحتوى على همم فائزة ومصارف كثيرة ولا نمحو امن التواريخ أطهر الأوراق من كل غرض ولا بد الآن أيضاً أن يحفظ أمن هذا البحر ويبقى استقلالكم بما هو عليه في الزمان السابق. ويلزم أن يكون اقتدار الدولة البرطانية فوق الكل بلا منازع. ثم أذكركم أمراً واحداً الذي فيه من المشايخ أنفسهم مقدرة التجنّب من الشر في الزمان الآتي – لا يبغي الدولة البرطانية المداخلة في أموركم الداخلية – و لم تفعل ذالك في زمان ماض بشرط أن المشايخ يحكمون على بلادهم بالعدالة ويحترمون حقوق تجار الأجانب الذين هم يسكنون فيها وإن وقع شي من المشاجرات الداخلية تجدون دائماً باليوز الدولة البرطانية صديقكم الذي يسعى كما عمل مرات كثيرة في إطفاء نار هذا التنازعات. وفي البقاء الحالة الموجودة نحن لا نؤذن للمشايخ المستقل أن يحمل بعضهم على بعض بطريق البر لهذا السبب فقط أنه لا يجوز له الحملة من طريق البحر وبهذه الحيلة يستخلص نفسه من حقيقة فرائض المعاهدة الصلح. أنا أذكر أمراً يصلح بل يفصل بطريق الصداقة كما بينت لكم في خطابي. لا يخفى عليكم أن بعض الحصة تلك القطعة الساحل المعروفة بالباطنة على الجانب الثاني من شبه جزيرة عمان تحت رئيس الجواسم ومع ذلك

بعض الناس يقاومون حكومته فالمرغوب هي إزالة هذه المنازعات وإقامة الصلح على الدوام. أيها المشايخ هذه هي العلائق الكائنة بين الدولة البهية البرطانية وبينكم وجلالة ملك الدولة البهية البرطانية يسكن منكم على بعد ما حصل لأحد منكم زيارته ولا يحصل أبداً. لكن في كل مكان من مملكته الوسيعة تجري أوامره على يد عماله واليوم مجئيء هذا مجيئ نايبه في الهند المسئول عن صلاح أموركم والغرض منه أن يلاقيكم ويجدد المواعيد القديمة ونرجو لكم الرفاهية في الوقت الآتي.

أبلغ كيرزن بهذه الخطبة العصماء شيوخ الساحل العماني رسالة السلام البريطاني التي تحظر عليهم القتال بحراً، ولكنها لا تعارض أن "تحتال" الجماعات في ذلك الساحل على سفك دماء بعضها براً، وأن بريطانيا بمنعها القتال فوق البحر سبّبت بذلك نجاتهم من الهلاك على أيدي أعدائهم، وتمكنت بفضل ذلك من أن تصبح سيدهم الأعلى مع الحفاظ على استقلالهم! تناقضات لا حصر لها، ولكن الصلف الاستعماري الذي صاغ هذه الكلمة لا يحسّ تناقضات أقواله وأفعاله، وقد لا يعبأ بها إذا أحسّ. ولما كان النائب لا ينتظر من الشيوخ المجتمعين رداً أو تعقيباً علي الرسالة التي بلّغها لهم، وزّع من فوره الهدايا عليهم، ولقي كل شيخ منهم ساعة ذهبية وسيفاً، فيما أصاب كل من الأبناء المرافقين بندقية صيد.

انطلقت رحلة نائب الملك، الحاكم العام للهند، تجاه بندر عباس وزارت بعض الموانئ الفارسية، وأبحرت من ثمّ إلى البحرين التي وصلتها في الساعة الثامنة من صباح ٢٦ نوفمبر، واستقبلتها المدافع بإحدى وثلاثين طلقة تحية للنائب. وصعد إلى هاردنج حمد بن عيسى، ولي عهد البحرين، يرافقه وزير الشيخ، للترحيب بالزائر وتحديد موعد لقائه بالشيخ. وفي الساعة الواحدة والنصف – كما تقرر– وفد الشيخ مصحوباً بأبنائه الثلاثة، حمد وعبد الله ومحمد، يرافقهم المعتمد السياسي المساعد في البحرين. وجلس الشيخ عيسى على يمين النائب كما جلس إلى يمين الشيخ المقيم في الخليج ثم مساعد معتمد البحرين فمرافقو الشيخ. وجلس إلى يسار النائب الوزير البريطاني في طهران ثم سكرتير الهيئة الخارجية في حكومة الهند فالموظفون والضباط. وأبدى عيسى في هذا اللقاء امتنانه لاعتراف حكومة الهند بابنه حمد وليّاً للعهد، وأكد الدور البريطاني في حماية الأمن في المنطقة، مستشهداً بما قام به المقيم بيلي في البحرين قبل حوالى أربعين عاماً. وبعد أن تلقّى عيسى وأولاده الهدايا، غادر الشيخ السفينة هاردنج تودعه خمس طلقات من مدافعها تحية له.

قام النائب ومرافقوه عند الظهر بجولة في المنامة رافقهم فيها الشيخ عيسى الذي كان في استقبال الحاكم العام على الساحل. زار النائب دار الاعتماد البريطانية وعاد إلى الساحل، و لم يتمكن موكبه من الوصول إلى السفن لتأخّر المد، وظلّ الجمع يرابط في الساحل لساعتين،

ما اضطر عيسى ومرافقوه إلى أن يغادروا قبل وصول الضيوف إلى سفنهم، ما اعتبره النائب تصرّفاً غير لائق. وذكر المقيم كمبال للنائب أن مضيفيه كانوا مضطرين إلى المغادرة لتناول إفطار رمضان الذي أخّروه من أجل ضيوفهم لمدة ساعتين قبل أن يضطروا إلى الانصراف، ولم يكن هذا الاعتذار مقنعاً للنائب. وفي الحقيقة، فقد كان النائب يدرك أن الشيخ عيسى لم يكن سعيداً بالهيمنة البريطانية التي كان يمثّلها المعتمد في البحرين، فلم يُبدِ الشيخ ترحيباً عملياً كافياً بزيارة النائب من إظهار الزينات ورفع الكثير من الأعلام، كما لم يقدم الشيخ للنائب التماساً أو طلباً يتوخى تنفيذه، بل "لوحظ أنه لم يخلع حذاءه حين كان في حضرة النائب!".

أرسل التجار الهندوس المقيمون في البحرين إلى النائب خطاباً بدأوه بسرد تاريخ دخولهم إلى هذه المنطقة، وبيّنوا له فيه الأهمية التجارية البارزة للبحرين، وطالبوه بالعمل على إنشاء رصيف حتى تتمكن السفن من دخول الميناء بحرية، ليلاً أو نهاراً، من دون التقيّد بحركة المد والجزر. والتمس التجار منه أن يوالي بذل جهوده كي يمكّنهم من العمل في تجارة قطر والقطيف، وهما منطقتان تعرضوا فيهما - كما ادّعوا - لإهانات بالغة، وأن من عمل منهم فيهما مُني بخسائر مادية باهظة. واقترح الهندوس على النائب أن يعمل على توسيع دائرة مسؤولية المعتمدية في البحرين لتشمل خدماتها هاتين المنطقتين، إذا لم يكن في الإمكان تعيين موظفين دائمين فيهما.

قام الشيخ عيسى مصحوباً بحمد، وليّ عهده، في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي بزيارة النائب في هاردنج. وحضر الاجتماع إلى جانب النائب كلّ من سكرتير الهيئة الخارجية لحكومة الهند إضافة إلى المقيم البريطاني في الخليج والوكيل السياسي في البحرين الذي تولى الترجمة. وكان الاجتماع فاتراً، فلم يتقدم عيسى بأي طلب أو التماس. واستمر اللقاء حوالى نصف ساعة طلب فيها كيرزن إلى الشيخ العمل على إصلاح الجمارك، وتطرّق إلى موضوع مقتل الشيخ سلمان بن دعيج ورفاقه الثلاثة والعشرين بواسطة البحيح في ساحل الأحساء في ١٠ شعبان ١٣١٨/٣ ديسمبر ١٩٠٠، وطلب النائب إلى الشيخ التريّث في معالجة الأمر ريثما يصل ردّ الباب العالي في هذا الشأن، لتتصرف حكومة الهند بعد ذلك بما يتفق. وانتهت زيارة نائب الملك إلى البحرين التي تشير التقارير إلى أنها "لم تؤدِّ إلى شيء من شأنه التأثير على سلوك شيخها الذي يتميّز بالمشاكسة والعناد".

واصل النائب إبحاره إلى الكويت التي وصل إليها في الساعة العاشرة والنصف من صباح ٢٨ نوفمبر، حيث كان اللقاء في هذا الميناء مختلفاً والترحيب بالنائب حاراً. فما إن ألقت السفينة هاردنج مراسيها، حتى انطلقت المدافع تُحيّي النائب بإحدى وثلاثين طلقة، وصعد إلى السفينة الشيخ مبارك الصباح مصحوباً بالمقيم كمبال لتحديد الموعد المناسب للقاء النائب رسمياً بالشيخ. وجرى عن طريق موظفي النائب تحديد الساعة الثالثة بعد الظهر لمقابلة الشيخ الذي جاء إلى السفينة مرّة أخرى مصحوباً في هذه المرّة بابنه جابر. وجرت مراسم استقبال الشيخ على

النحو الذي جرى في البحرين. وانتهى ذلك اللقاء بتقديم سيف هدية للشيخ الذي أبدى إعجابه به، وطالب بأن يُمنح حزاماً كأحزمة جنود الإمبراطورية، "فقد غدا واحداً منهم"، وغادر الشيخ السفينة من دون أن يُعطى الحزام، تشيّعه خمس طلقات مدفعية تحية له. وبعد أن قام النائب بجولة بحرية استكشف فيها خليج كاظمة، نزل في اليوم التالي في بندر الشويخ حيث كان الشيخ الذي "صبغ شعر رأسه وشاربه باللون الأسود الفاحم احتفاءً بتلك المناسبة" في انتظاره مع أبنائه ومجموعة من الأعيان. واستقلّ النائب مع الشيخ العربة الوحيدة ذات العجلات في الكويت التي أتى بها مبارك من بومباي احتفالاً بالمناسبة. وشقّت عربة الشيخ مبارك وضيفه، التي تقدمتها مجموعة فرسان بلباس ملوّن، طريقها "وسط صرخات الحرب التي يطلقها الرجال المرافقون وحشرجات وأصوات مزعجة ترسلها حناجر النساء اللائي كن يرتدين عباءات سود تتدلى إلى الأرض – يقال إنها تعبّر عن الفرح –". وامتلأ الطريق حتى منزل الشيخ برجال من العرب ارتدى بعضهم ملابس نظيفة مهندمة وقد اختلطوا مع بدو ثيابهم رثّة تكشف عن أجسام ضامرة أضناها الجوع، وأطفال سود العيون، سمر الوجوه بدرجات متفاوتة. وكان في استقبال النائب نحو مئة وخمسين خيالاً ونحو مئتين وعشرين من راكبي الهجن وأربعة آلاف من الجنود الراجلين يحملون البنادق والمسدسات، فيما رفرفت راية الشيخ الحمراء التي كتب عليها: توكلنا على الله، في الوقت الذي كان فيه العلم العثماني مرفوعاً أيضاً على بيت الشيخ. وصعد الشيخ وضيفه إلى غرفة علوية ازدانت بصور ملك وملكة بريطانيا إلى جانب صورة للملكة فيكتوريا. وقدّم الشيخ أولاده وبعض كبار أعيان الكويت إلى النائب الذي تناول القهوة في تلك الجلسة الاحتفالية التي أعقبتها جلسة عمل على ظهر هاردنج في الثانية ظهراً. مثل مبارك أمام النائب الذي كان في رفقته سكرتير الهيئة الخارجية لحكومة الهند والمقيم البريطاني في الخليج. وادّعى الشيخ أمام كيرزن أنه رفض العروض التي قدّمها له الروس والفرنسيون وغيرهم من القوى الدولية الأخرى، والتزم تماماً بما يطرحه عليه البريطانيون حتى أصبح "حاكماً لمحمية بريطانية"، والتمس مبارك تكريمه بوسام أو نيشان من الحكومة البريطانية يقف شاهداً على ولائه لهم، وأشار الشيخ إلى أنه يعاني من شحّ مالي. وتحدث الشيخ عن علاقاته المتردّية مع الأتراك، وطالب النائب بالنظر في استخلاص أم القصر وبوبيان، المنطقتين اللتين قال إن الأتراك استولوا عليهما بالحيلة. ووعد كيرزن الشيخ بالنظر في التماساته، ولكنه حذّره من أن يستمر بمغامراته في المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية، فالدولة البريطانية لن يكون بمقدورها أن تقدم له مساندة أو تمنحه دعماً، وأكّد الشيخ للنائب أنه يعي ذلك تماماً. يصف النائب مبارك وصفاً طريفاً، حيث رأى فيه أنه أكثر الشخصيات التي قابلها في الخليج "فحولة"، وأنه يتمتّع بشخصية تواكب سمعته في الدهاء وتفسّر الأسلوب الذي وصل به إلى السلطة. وجاءت تقارير كيرزن عن رحلته لتفيد بأنه تشكّك في البداية في ولاء مبارك للراج، فقد ظنّ الرجل مخاتلاً

يظهر خلاف ما يبطن، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن استوثق من أن الشيخ صادق الولاء، لأنه مدين لبريطانيا التي لولا مساندتها إياه لما تمكن من الاحتفاظ بمشيخته.

غادر كيرزن الكويت في زيارة تفقّد لموقعي خور عبد الله وخور موسى، منهياً بذلك رحلته إلى الكويت. وقد جاء في تقارير كيرزن بعدئذ بأن رحلته إلى الكويت كانت شأنها شأن رحلته إلى مسقط ناجحة، حيث اعترف مبارك بأنه ارتبط "بنحو تام ونهائي ببريطانيا، وأكد على حمايتنا له والسيادة البريطانية عليه، ولعله حين طلب أن يمنح وساماً أو نيشاناً مكافأة له، قصد أن يكون ذلك اعترافاً منّا بالعلاقة القائمة معه".

دليل الخليج الفارسي

صحب جون غردون لوريمر، المكلّف من قبل النائب كيرزن بتأليف دليل الخليج الفارسي، هذا النائب في زيارته للخليج. وكان كيرزن يؤكد لإدارته في الهند ولحكومة بريطانيا منذ أن تولّى نيابة الهند ضرورة وجود سجل جغرافي وتاريخي وافٍ للخليج الذي اكتسب أهمية متزايدة في تلك الفترة بالطاقة البخارية التي أدت إلى تخطيط بعض الدول والجماعات لبلوغ الخليج عن طريق القطارات والبواخر النهرية. وكان النائب يرى في المعلومة الصادقة الموثقة ضرورة أساسية لتقوية النفوذ البريطاني في هذه المنطقة التي بات في هذا الوقت النفوذ فيها مهدداً بتطلعات عدد من الدول الأوروبية الأخرى. وقد مثّل هذا التهديد قلقاً بالغاً لحكومة الهند التي رأت فيه خرقاً فاضحاً لسياسة إغلاق الخليج التي حرصت على اتباعها منذ أن أصبح ذلك البحر في الاستراتيجية الهندية خصوصاً والبريطانية عموماً متراس أمن الهند. كلّف كيرزن في شعبان ١٣٢١/نوفمبر ١٩٠٣ جون غردون لوريمر بإنجاز هذا العمل في مدى ستة شهور، لكن لوريمر لم يفرغ منه إلا بعد مضي عشر سنوات من بدء تكليفه بالعمل، فقد تحرّى الرجل في عمله الدقّة التامة في العمل بالأرشيفات، ودأب على القيام بالدراسات الميدانية، واتخذ الرحلة سبيلاً للتدقيق في التفاصيل الدقيقة. ولم يبخل المسؤولون في الهند على ذلك الضابط البحاثة بتمديد فترة الدراسة تباعاً حتى تمكن من إنجازها في حوالى خمسة آلاف صفحة مطبوعة وضعت في مجلدين جغرافي وتاريخي. وقد نُشر المجلد الجغرافي في عام ١٩٠٨م ولم يصدر المجلد التاريخي منه إلا في عام ١٩١٥م بعد موت لوريمر بسنة كاملة، وقد تولى بيرد وود تحرير هذا المجلد الأخير. واعتبر الكتاب حين صدوره وثيقة سرية ضمن المكتبة السياسية والسرية لحكومة الهند يُحظر الاطلاع عليه إلا للعاملين في المصالح والإدارات والوكالات الخاصة بالخليج وسياساته. ومن هنا كانت الجدية التي ميّزت هذا الكتاب عمّا سواه من كتب الرحالة الآخرين. فقد اتخذت الرحلة لتوثيق صحة المعلومة الواردة في التقارير السابقة والإضافة إليها.

فالكتاب محدد الهدف واضح المنهج لا يحتمل الهذر ولا المبالغات، ولا النكات التافهة التي تميّز أدب الرحلة الغربية حين تخاطب جمهورها وتدغدغ فيه مشاعره الوطنية، وتقنعه بعلو قدم الكاتب في البلاغة والإبداع وتميّز أبنائه بالشجاعة والجسارة. ولا ريب في ذلك، فقد صوّروا لمجتمعاتهم أن مواطنهم الرحالة عاش فترة رحلته البدائي والغريب وسجّله ليبيّن لجمهور قرّائه كم هم متميزّون عرقياً وعلمياً وثقافياً مقارنة بغيرهم في هذه المجالات جميعها، وليُحسّن لهم فكرة استعمار الغير لدفعهم في دروب التمدن بالسيطرة الغربية التي يحتّم الوازع الأخلاقي عليهم فرضها في تلك الأصقاع.

تمكن لوريمر في شتاء ١٩٠٤-١٩٠٥م من زيارة مسقط وصحار والشارقة والبحرين والكويت والبصرة وكربلاء والمحمرة وبوشهر وبندر عباس والجاسك لجمع المادة العلمية اللازمة لهذا العمل الذي أصبح بعد ذلك العمدة في تاريخ الخليج، فهو في تقديرنا غير مسبوق ولا متبوع في هذا الصدد. وقد ساعده جاسكن في جمع هذه المادة، كما ساعده آخرون أنجزوا رسماً تفصيلياً لخرائط كبيرة للبحرين وللإقليم الذي يشمل الكويت ومناطق متعددة من عمان. واستعان لوريمر أيضاً بالرحلات الكشفية التي مثّلت مقدمات هذا العمل، منها تلك التي قام بها الكابتن كوكس، الوكيل السياسي في مسقط، في عام ١٩٠١م بصحبة داوننج، الضابط في الاستخبارات السياسية لسملا، والتي شملت بعض أودية عمان ودروبها، والرحلة الأخرى التي قام بها كوكس أيضاً في عام ١٩٠٢ من أبو ظبي وقطع فيها حوالى أربعمئة ميل عبر الأرض العمانية وقدّم فيها معلومات ضافية عن إقليمي الظاهرة والباطنة في عمان. و لم يقصر لوريمر تتبّع رحلات كوكس، على ما قام به هذا الإداري النشط من رحلات على الأرض العربية، فقد تتبّعه أيضاً في رحلاته في عام ١٩٠٦م حين كان مقيماً سياسياً في الخليج، تلك الرحلات التي شملت عدداً من بلدان الساحل الفارسي وعربستان. وساعد في إنجاز هذا العمل أيضاً الكابتن نوكس، الوكيل السياسي في الكويت، الذي قام في عام ١٩٠٥م بجولة في جنوب الكويت، كما قام بجولة في العام الذي يليه من الكويت حتى بلغ إلى الحفر على بعد حوالى مئة وستين ميلاً منها. وقد مثّلت مادة أرشيفات بومباي وكلكتا والمادة العلمية التي كان قد أعدّها كل من سالدنها وجبرائيل، إضافة إلى جهود لوريمر والإداريين الآخرين في مجال الرحلة، عصب هذا الكتاب الذي أرادته إدارة كيرزن في الهند شاملاً وافياً لتوفير مرجع يفي بحاجات الإداريين في الخليج والسياسيين في سملا ولندن لمعرفة تفصيلية دقيقة بطبيعة الحياة والناس، العامة منهم والشيوخ، ليسوسوهم بطريقة سلسة في هذا الوقت الذي اشتد فيه التنافس الدولي في الخليج العربي.

يُعدّ المجلد التاريخي لغازيتة الخليج الفارسي وثيقة مهمة للحياة الاجتماعية للمنطقة وتاريخها. يبدأ هذا القسم بتاريخ إقليم الخليج في الفترة ١٥٠٧-١٩٠٥م، ثم يأخذ بتفصيل أحداث التاريخ وترتيبها وفق منهج جغرافي يعتمد امتداد السواحل أولاً قبل أن يدخل إلى قلب

شبه الجزيرة العربية فالعراق التركي وعربستان فالساحل الفارسي وجزر الخليج. يتناول هذا المجلد على نهج تتابعي تاريخ سلطنة عمان ١٨٦٦-١٩٠٧م، فتاريخ ساحل عمان المتهادن ١٦٠٠-١٩٠٧م، فتاريخ قطر ١٧٦٦-١٩٠٧م، ثم تاريخ البحرين ١٦٠٢-١٩٠٧م. وهكذا دواليك حيث نجد الكتاب يعالج بعد ذلك تاريخ الأحساء فالكويت فنجد ووسط شبه الجزيرة العربية، ثم يتناول تاريخ العراق التركي فتاريخ عربستان وساحل الخليج وجزره، وينتهي إلى مكران الفارسية. ويضمّ هذا المجلد التاريخي عدداً من الملحقات والذيول والهوامش والتعليقات التي عُنيت بنصوص الاتفاقات التي عقدتها حكومة الهند مع شيوخ الخليج، وجهود البريطانيين في مكافحة تجارة السلاح في الخليج، ومواقع الاتصالات البريدية والبرقية فيه، والجهود التي بذلت في تأسيسها، ومصادر الثروة في الخليج من تجارة التمور ومصائد الأسماك والغوص عن اللؤلؤ، والأمراض المستوطنة في المنطقة، والأديان والفرق الدينية المختلفة فيها، ويضاف إلى كل هذا ثبت لشجرات الأنساب للأسر الحاكمة في المنطقة.

أما المجلد الجغرافي والإحصائي فهو عبارة عن قاموس جغرافي منظّم ألف بائياً، يبدأ بحرف العين الذي يتوافق مع حرف الألف كحرف أول في الألف باء اللاتينية، وينتهي بحرف الزاي الذي يمثّل الحرف الأخير فيها. وقد تتبّع هذا المجلد القبائل ومناطقها ولهجاتها، والمدن والقرى ومعمارها، والدساكر ومواقعها، والطوبوغرافيا والظواهر الطبيعية، ونظم الحكم والإدارة والضرائب وغير ذلك من الإحصائيات المنوعة. أما الذيول والهوامش والتعليقات التي وردت في ملاحق هذا المجلد فقد اشتملت على عدد من الخرائط وسلسلة أنساب العوائل الحاكمة، منها البوسعيد في عمان وزنجبار، والقواسم، فالبوفلاح، فالبوفلاسة، وآل علي حكام أم القيوين، والبوخريبان من النعيم، وآل ثاني معاضيد قطر، وآل خليفة، وآل صباح، وآل سعود، وآل رشيد أمراء حائل، وأل أبو الخيل في بريدة، وآل السليم، والسادة القادرية.

مثّلت الرحلة التي أمدّت هذا الكتاب بتفاصيل علمية قيّمة وثّقت ما لدى حكومة الهند من دراسات وأضافت إليها، عصب هذا الكتاب الذي لم يتبع مناهج كتب الرحلة الغربية الأخرى التي كتبت للجمهور الغربي لدوافع ليس من بينها التحرّي عن الحقائق أو تدقيقها. كذلك جرى حظر الكتاب عن المراجعات التي تجري فوق منصات الجمعيات الجغرافية وغيرها من الجمعيات العلمية، وذلك بغرض حجب الحقائق الموسوعية الدقيقة الواردة فيه عن أنظار الدول الغربية الأخرى. وظلّ هذا الكتاب حبيس المكتبة السرية والسياسية لحكومة الهند، محظوراً على غير المعنيين بإدارة الخليج وسياساته، ولم يفرَج عنه للجمهور الغربي أو لغيره إلا في عام ١٩٧٠م في ذلك الوقت الذي تهاوت فيه الاستراتيجية البريطانية في الخليج وسقطت في أيدي الولايات المتحدة الأمريكية. انتهت في عام ١٩٧١م السيطرة البريطانية في الخليج، فلملمت ما بقي من حطام إمبراطوريتها ورحلت عنه، ولم تعد تعبث بمقدراته إلا من تحت القُبّعة الأمريكية.

هيرمان بورشارت

لم يكد كيرزن يغادر الكويت حتى وفد إليها في ٢١ رمضان ١٣٢١/١١ ديسمبر ١٩٠٣ هيرمان بورشارت، وهو رحّالة ألماني يهودي يبدو أنه كان يعمل في خدمة الصهيونية التي كانت في تلك الفترة تتسرّب بنحو حثيث في عصب الإدارات الحكومية في دول الغرب، ولا سيّما في وزارات خارجيّتها.

ولد بورشارت لأسرة يهودية في برلين في عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٩م وورث تركة عن أبيه أغنته عن الكسب – في ما يقول – فاتجه لدراسة الأنثروبولوجيا. وعمل وهو في الثلاثين من عمره، بعد وفاة والده، على دراسة اللغات العربية والتركية والسواحلية. ولعل في اختياره لتعلّم هذه اللغات ما يدل على المناطق التي استحوذ إنسانها على دراساته الأنثروبولوجية. جاب الرجل مناطق شاسعة من العالم المعمور، وزار أستراليا وأمريكا والهند و آيسلندة، وبدأ أولى رحلاته في الشرق في ١٣١٠هـ/١٨٩٣م بواحة سيوة في الصحراء الليبية، وزار المغرب ومصر ووادي الفرات وإيران وسمرقند وبخارى والساحل العربي للخليج. وظلّ هذا الرحّالة اليهودي طيلة هذه الفترة، حتى اغتياله في اليمن في عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، يسكن دمشق على نحو دائم، وكان قلّما يعود إلى برلين. وتهمنا في هذه العجالة رحلته إلى الخليج ١٩٠٣–١٩٠٤م.

طلب بورشارت إلى وزارة الخارجية الألمانية في ١٣ شعبان ١٣٢٠/١٤ نوفمبر ١٩٠٢ أن توجّه بعثتها في إستانبول كي تمدّه بخطاب تعريف إلى السلطات العثمانية، لأنه يزمع السفر إلى الهفوف لالتقاط بعض الصور لتلك المنطقة التي يعدّ لدراستها أنثروبولوجياً ولغوياً. وأشار في طلبه إلى أن تلك الصور ستكون بالتأكيد مثار اهتمام، لأنها تساعد على اكتساب معرفة جديدة عن الإقليم المذكور. واستجابت الوزارة لطلبه، لكنها اقترحت عليه أن يتصل بطريقة دائمة بالممثلين السياسيين لبريطانيا في الخليج، ليطرد أيّ شكوك تحوم حول زيارته من أنه يسافر في خدمة الأهداف الألمانية في مسقط والبحرين. ونرى أن طلبه خطاب التعريف قد ينفي عنه القيام بمهمة رسمية تتصل بالحكومة الألمانية بصفة مباشرة، ولكن صيغة موافقة الوزارة على طلبه تشير إلى أن لهذا الرحّالة أهدافاً تدركها تلك الحكومة التي كانت تسعى مثلها مثل كافة الدول الأوروبية الأخرى إلى الوصول في ما بينها لتقاسم مناطق النفوذ والاستعمار بينها في الأراضي الآسيوية والأفريقية، وعلى ذلك أوصته بعدم إثارة الشكوك البريطانية. وكان اليهود في هذه الفترة يتمتعون بنفوذ قوي في وزارة الخارجية الألمانية، خاصة في ما يتصل بسياساتها في الشرق. ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى الرحّالة اليهودي الألماني ماكس فرايهير أوبنهاييم (١٨٦٠–١٩٤٦م) المنحدر من أسرة ثرية من مدينة أوبنهاييم الألمانية كانت تعمل في مجال البنوك والصيرفة، والذي بدأ رحلاته إلى الشرق منذ عام ١٨٣٣م. ونال هذا الأوبنهاييمي ثقة

القيصر، فأوكل إليه ملف سكة حديد برلين بغداد البصرة ، فزار الكويت عبر رحلة من المتوسط، وركب الخليج حتى مسقط وغادرها إلى شرق أفريقيا الألمانية (تنجانيقا ١٨٨٩-١٩١٦م)

كتب أوبنهاييم في المصالح الألمانية في ما بين النهرين وفي استثمارات السفن والسكك الحديدية فيها، كما أسّس في عام ١٨٩٤م بعد عودته إلى بلاده من رحلته عبر الخليج إلى شرق أفريقيا شركة الراين لمزارع هانداي لزراعة البن في آوسمبرة في شرق أفريقيا، وتشابكت في رحلاته الدواعي الاستثمارية الخاصة والعامة مع خيوط العمل الدبلوماسي والاستخباري وتحقيق أهداف الاستشراق من التمكين للغرب في الشرق والدخول إلى دهاليزه عبر مكوّناته الثقافية، فلا غرو أن أسّس هذا الرجل في بلاده في عام ١٩١٧م مركزاً للدراسات الاستشراق، ولا غرابة أيضاً في أنه وضع في فنون الشرق المختلفة أكثر من أربعين بحثاً في تاريخه وجغرافيته وآثاره. ويمكن القول إن بحوث الرجل كانت أشبه بالتقارير تخاطب الخاصة من السياسيين وأرباب الأموال وأهل الثقافة عموماً، فبرئت – إلا قليلاً – من الغرائبي الذي يتحرّى عنه كل رحّالة يكتب للجمهور، ولكنها – مع ذلك – لم تبرأ من الخلط الذي يقع فيه سائر الرحّالة عمداً أو عفو الخاطر حين يتعرضون للمسائل الثلاث الرئيسة التى شغلتهم جميعاً: الإسلام والمرأة والرق. وقد جرى التأكيد مرّة تلو أخرى أن على المؤرخ أن يتجنّب الأخذ من الرحالة الأوروبيين في هذه المجالات الثلاثة. ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى ما ذكره أوبنهاييم من أن الإباضية من الشيعة الناشطين في المذهب العلوي، ولكنهم باتوا بعد ذلك زنادقة في نظر الشيعة والسنّة على حدّ سواء، خارجين عن الإسلام، حتى عرفوا بالخوارج. ولا نعتقد إلا أن الرجل قصد التدليس، فهو واسع الاطلاع – كما يبدو من مصادره ومراجعه – ويدرك أن الخوارج إنما سمّوا بذلك لخروجهم على علي رضي الله عنه بعد قبوله التحكيم في موقعة صفين، ثم كان لهم بعد ذلك أثر فكري واضح في بعض المسائل العقدية، خاصة في جواز الخروج على الحاكم. ويمكن أن نذكر في هذا المجال أيضاً ما جاء في كتابه: **رحلة إلى مسقط عبر الخليج** من أن الهندوس الذين يُعرفون بالبانيان ويُعدّون في مسقط من الكفار يتمتعون في تلك البلدة بممارسة طقوسهم بحرية تامة، "وذلك بفضل حماية حكومة الهند البريطانية". وفي الحقيقة، فإن الحماية للهندوس وغيرهم من أهل الملل والنحل إنما نبعت من التسامح الإسلامي الذي امتاز به أهل عمان وحكامها الذين مكنوا لأهل هذه الطوائف جميعهم من ممارسة طقوسهم من دون أدنى قيد، وقد شهد بذلك العديد من الرحّالة الغربيين الذين زاروا مسقط قبل أن يهيمن عليها الإنجليز. أما حديث هذا الرحّالة عن المرأة العربية الذي شغل العديد من صفحات كتبه العديدة، فيمكن أن نقتبس منه ما أورده وهو يتحدث عن السيد فيصل بن تركي في عمان من أنه *"ليس له من النساء سوى عدد يتراوح بين الثماني عشرة والعشرين"، فإذا أدركنا أن الشرع لا يجيز للسلطان جمع أكثر من أربع، فكيف يمكن أن يكون له من النساء هذا العدد المذكور؟*

أما إذا قصد الرجل أن للسلطان عدداً ممّا ملكت يمينه أو من الجواري أو غيرهن من المحظيات والعشيقات، فكيف توصل إلى إحصائهن ليقدم لنا هذا الرقم!؟

كان اهتمام أوبنهاييم بمعارضة الإسلام والمسلمين ومحاباة اليهودية واليهود بارزاً. فقد أجرى الرجل حصراً للأحياء اليهودية والنصرانية في المدن العربية وأماكن وجود اليهود في الشرق، وكتب في "التعصّب الإسلامي" في تلك المدن وضرورة العمل على "أوربة" آسيا وتغريبها. جاء في تقرير لهذا الرحّالة اليهودي من مصر في عام ١٣١٥هـ/١٨٩٨م نصيحة للعاهل الألماني أن يستغل الإسلام ودعوته للجهاد في حال نشوب حرب في الشرق الإسلامي، وأن يعمل على إثارة الثورات وحضّ المسلمين على الجهاد لإضعاف خصوم ألمانيا في المستعمرات. وكان القيصر من جهته حريصاً على اتّباع نصائح هؤلاء المستشرقين واستخدام الإسلام وسيلة سياسية لمدّ نفوذ ألمانيا واكتساب النفوذ في ديار المسلمين.

زار القيصر وليام الثاني الشرق في هذه السنة، وكان قد زاره قبل ذلك أيضاً في عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م وحصلت ألمانيا بموجب اتفاقية عُقدت في شعبان ١٣١٧/ديسمبر ١٨٩٩ بين رئيس البنك الألماني جورج فون سيمنس والوزير التركي ذهني باشا على امتياز إقامة خط يربط وسط أوروبا بالشرق، لما في ذلك من فوائد استراتيجية واقتصادية لألمانيا – التي عملت لبلوغ أهدافها في الشرق بالتسرّب السلمي عبر جسد الدولة العثمانية – ولما يمكن أن يُمثّله الخط من استقرار لتلك الدولة العجوز. عقدت حكومة الهند البريطانية، ما إن بلغتها بداية هذه المفاوضات بين الدولة العثمانية وألمانيا وعرفت أن الخط المزمع سينتهي إلى كاظمة في الكويت، اتفاقاً في ٢٣ يناير ١٨٩٩ مع مبارك الصباح، حاكم الكويت، يحظر عليه التصرّف في أيّ قطعة من أرضه إلا بموافقة الحكومة البريطانية "لسد جحر الأرنب" الذي سينفتح بالخطوط الحديدية على الخليج، متراس أمن الهند. وأثبت الاتفاق نجاعة، حيث لم تتمكن بعثة ألمانية زارت الكويت في جمادى الأولى ١٣١٧/سبتمبر ١٨٩٩ من إقناع مبارك بالموافقة على مدّ الخط إلى كاظمة. ولم يقنط الألمان، فقد كانوا يعتقدون أن الدولة العثمانية كفيلة بقسر مبارك على ما تريد، ولم يتبيّن الألمان بداية أن الهند البريطانية كانت تعمل من وراء ستار مبارك، في حين عملت لندن على تصفية مشكلاتها الاستعمارية في بندر جصّة في عمان وفي فشودة في السودان وغيرهما مع باريس، وصولاً إلى الوفاق الودّي بين العاصمتين في عام ١٩٠٤م. وحين أدرك الألمان ذلك أخيراً اتجهوا للتعامل مع لندن، ونجحت بريطانيا من خلال المفاوضات في الحصول على نصيب في إدارة الخط الحديدي المزمع.

لم يكن ساسة اليهود في ألمانيا وفي الدولة العثمانية كذلك سعداء بهذا التصالح في السياسات الاستعمارية لفرنسا وبريطانيا، والتقارب في هذا المجال في اقتسام النفوذ الاستعماري مع السياسات الألمانية والروسية، الأمر الذي أخذ يتّضح مع بداية القرن العشرين. فقد بات لليهود

الصهاينة مخططاتهم في منطقة ما بين النهرين والخليج التي أخذت تتعارض مع هيمنة النفوذ الاستعماري لبريطانيا في هذه المنطقة. وعادة ما يستغل اليهود هويّاتهم "الوطنية" لخدمة ما يعتقدون أنه هويتهم "القومية"، فاستغل بورشارت هويته الألمانية لتقويم الوضع السياسي في الخليج لمصلحة الصهاينة، من دون أن يكون مبعوثاً رسمياً للدولة الألمانية أو ساعياً لكسب مادي لشخصه. فالرجل - كما ادّعى في طلبه للحصول على إذن من الحكومة العثمانية للقيام برحلته - عالم أنثروبولوجي .راجع الوثائق التركية : (**إرادة داخلية بتاريخ ١٣٢٢/٣/٢٢،** ID. 1322 RA24) وعلى الرغم من ذلك لا نجد له علماً منشوراً سوى ثلاثة مقالات عن يهود اليمن نُشرت له في بعض المجلات الجغرافية في الفترة ١٩٠٢- ١٩٠٦م إضافة إلى محاضرة يتيمة أُلقيت في الجلسة العامة للجمعية الجغرافية في برلين في ٩ ذي الحجة ١٣٢٣/٣ فبراير ١٩٠٦. وكان الرجل يوثّق رحلاته بالتصوير، فالتقط العديد من الصور للمناطق التي زارها، وقد أُهدي - بعد حوالى سنتين من مقتله بالقرب من تعز - إلى متحف الأنثروبولوجيا في برلين حوالى ألفي "نيغاتيف"، ونُشرت بعض الصور الخاصة برحلته إلى الخليج ١٩٠٣-١٩٠٤م في كتاب صدر أخيراً باللغتين الألمانية والإنجليزية، لملمت مصادره من أرشيف تل أبيب الذي انتهت إليه تلك الصور.

وصل بورشارت في ٨ ديسمبر ١٩٠٣ إلى الفاو واجتاز بوبيان "حيث توجد حامية تركية صغيرة"، وبلغ الكويت في ٢١ رمضان ١٣٢١/١١ ديسمبر، وزار شيخها الذي كان يعقد مجلسه في ساحة السوق. وكان الرجل يحمل معه خطاب توصية من والي البصرة إلى "باشا الكويت". كتب بورشارت عن الكرم الذي وجده من مبارك الصباح، شيخ الكويت، الذي ظلّ يرسل له الوجبات بانتظام في نهار رمضان. وأعجب الرجل بالكويت التي قال إنها كانت نظيفة تُكنس كل صباح وتُرش، ويشرف الشيخ بنفسه على ذلك بجولاته اليومية في المدينة. كذلك أشاد الرحّالة بمبارك الذي بدا له رجلاً يمتلك قدراً من المعرفة أكثر ممّا لدى الشرقيين الآخرين، "وهو الوحيد من بين كل الشيوخ الذين قابلتهم الذي يبدو عليه بعض ممّا قد يشير إلى أنه حاكم". وفي غرفة زيّنت بصورة الملكة فيكتوريا والملك إدوارد، استقبل مبارك ضيفه بعدئذ وجرى بينهما حديث عن زيارة كيرزن. وحدّثه الشيخ عن زيارة ثلاثة من الألمان للكويت، كان أحدهم القنصل العام الألماني في إستانبول الذي جاء في مهمة تتصل بالخط الحديدي. وقد تمكن بورشارت من التقاط صورة لمبارك كما التقط العديد من الصور الأخرى لأشخاص ولمواقع تكشف عن جوانب مهمة في الحياة الاجتماعية في الكويت.

غادر بورشارت الكويت في ١٤ ديسمبر ووصل إلى البحرين في ٢٩ رمضان/١٩ ديسمبر. وكتب عن الوضع السياسي في البحرين والتعهدات التي تربط شيخها بالحكومة البريطانية، وأشار إلى وجود معتمد في الوكالة البريطانية ومكتب للبريد وفرع لشركة فونكنهاوس همبرج

في البحرين، إضافة إلى البعثة التنصيرية الأمريكية ومستشفاها المجهّز جيّداً. كذلك زار بورشارت الشيخ في رفقة المعتمد البريطاني للتهنئة بعيد الفطر، وتمكّن من التقاط عدد من الصور لشيخ البحرين في المحرّق ولبعض أقاربه ولبعض المواقع التي تكشف عن جوانب مهمة في حياة البحرين الاجتماعية. وغادر بورشارت البحرين في ٢٧ ديسمبر إلى العقير التي لم يبلغها إلا في الثلاثين منه، وهناك قابل المدير التركي الذي استقبله استقبالاً طيّباً رغم الضنك الذي كان يعيشه ذلك المدير.

رأى بورشارت في العقير، الميناء الجمركي الذي تحيط به الصحراء من كل جانب، موقعاً تراكمت فيه القاذورات التي لم يهتم المدير بإزالتها بحجة أنه سينتقل من هذا الموقع في غضون ثلاثة شهور. ولاحظ أن الميناء غير مأهول إلا من فرقة عسكرية (بلك) يسكن بعض أفرادها في قلعة عربية قديمة، بينما يسكن البعض الآخر في مبنى الجمارك الذي تعلو أرضه طبقة من القاذورات ما أدى إلى انتشار الأمراض. ظلّ بوشارت في العقير ينتظر إذن الدخول إلى الأحساء، وتمكن في ١٦ شوال/٤ يناير ١٩٠٤ من أن يغادر إلى الهفوف في قافلة ضمّت حوالى مئتي بعير يحرسها جماعة من العقيل يرفعون علمهم المُطرّز بآيات قرآنية. وفي الهفوف وجد ترحيباً من المتصرف فايق باشا، وعاش معه في مسكنه لأسبوعين كاملين يتناول الطعام معه ومع ابنيه. وكتب بورشارت في الزيارات التي أتحفه بها عدد من الموظفين الإداريين والعسكريين في الأحساء، وأشار إلى كرم أخلاقهم لما أبدوه نحوه من مشاعر ووصفهم بالمتعلمين، "رغم أنهم لا يعرفون لغة أوروبية... ولكنهم يعدّون وجودهم هنا نوعاً من النفي، وكانوا كلهم يتطلعون إلى اليوم الذي يطلق فيه سراحهم وينقلون إلى أماكن مثل البصرة أو القرنة أو الناصرية، تلك الأماكن تبدو في نظر الأوروبيين كالجحيم ولكنها تبدو لهم مقبولة". ولاحظ بورشارت أن سكان العديد الذين يبلغ عددهم نحو ثلاثين ألفاً كلهم مسلمون، كما لاحظ وجود معتمد لأمير حائل هناك. وأخبر بورشارت أن الرجل قد توفي بالحمى بعد يومين من وصوله، فلم يتعرّف إليه.

غادر بورشارت إلى قطر في رفقة "ساع كان يرسل عادة إلى قطر مرّة أو نحو ذلك في كل شهر بالخطابات والمراسلات الرسمية"، وفي حراسة خمسة من أهل المنطقة، وهم منصوري ومري وهاجري ودوسري وخامس ذكر له اسم قبيلة غير معروفة في المنطقة، لعله قصد بها العجمان، دفع لهم "الخوّة" لتوصيله إلى هناك، واستأجر من بعضهم الركائب وسوائم النقل. ويلاحظ الكاتبان اللذان حرّرا كتاب: **رحلة في الخليج لبورشارت** (ص ٢١٥) أنه ذكر في مفكرته أربع قبائل فقط، وسأل "المكتوبجي" إن كان يمكنه أن يدفع "الخوّة" لثلاثة فقط من رجال القبائل الأربعة واستثناء الشخص المنتمي إلى القبيلة الرابعة؟، فأجابه الرجل: "قد يستطيع المرء أن يجلس على كرسي له ثلاث قوائم ولكن من المستحسن أن يجلس على كرسي ذي أربع

قوائم". وفي ٥ ذي القعدة/١٨ يناير تحركت هذه القافلة الصغيرة التي ضمت عدداً من التجار الصغار الذين كانوا يتعاملون أيضاً في النخاسة. وفي الحقيقة لن تجد أي رحّالة في شبه الجزيرة العربية إلا وهو مشغوف بمعالجة موضوع الرقّ ومسألة معاملة المرأة العربية التي تستأنس دائماً بالرحّالة "الدونجوان" أكثر من زوجها إذا وجدت لذلك سبيلاً. ووصلت القافلة إلى سلوى على تخوم قطر في يوم ٨ ذي القعدة. وحلّ الرحّالة ضيفاً على قائد حامية قطر حين وصل إلى الدوحة في يوم ٢٦ يناير، وطلب ذلك القائد التركي إلى الرحّالة أن يُحكم إغلاق نافذة غرفته لأنه لا يثق كثيراً بأمانة جنده! وينفي هذا الرحّالة القول الشائع في الغرب بأن حاضرة البدع هي من أعمال عمان، ويضيف أن الوجود العسكري التركي في تلك الحاضرة لا يتعدى "طابوراً" واحداً لا يزيد عدد أفراده على مئتين وخمسين جندياً على أحسن تقدير، وأن رجال الحامية يعيشون حياة بائسة في منازل طينية يعانون من الأمراض، وخاصة أمراض العيون. وأفاد الرحالة بأن قائد الحامية لا يتمتع بنفوذ في المنطقة، فحين طلب إليه أن يأذن له بالتقاط بعض الصور، وجّهه القائد إلى الحصول على الإذن من الشيخ أحمد بن محمد آل ثاني الذي كان يتولى الحكم في الدوحة في هذه الفترة نيابة عن أخيه جاسم. وينتهي إلى القول إن الأتراك يدّعون سلطة في مناطق العديد والوكير وجزيرة دلما، ولكن، فإن نفوذهم لا يتعدى - في حقيقة الأمر - إلى أبعد ممّا تصل إليه قذائف مدفَعي القلعة القديمين.

زار بورشارت الشيخ أحمد بن محمد كما زار الشيخ سلطان شيخ قبيلة أسلطة. ويقول إن أهل هذه المنطقة لم يسمعوا بألمانيا التي وفد إليهم منها، وسألوه إن كانت هي ولاية من ولايات الدولة العثمانية أم هي مقاطعة إنجليزية. وسأله العرب أيضاً عن الغرض من زيارته وما الداعي الذي استدعى منه قطع هذه المسافة من أوروبا عبر البحار والصحاري في رحلة شاقة ليصل إلى قطر، فأجابهم أبو إبراهيم، خادمه السوري، بأن الياس يوسف أفندي (بورشارت) يسافر للاسترواح عن النفس، وأضاف بورشارت أن أي عربي لا يستطيع أن يصدق أن المرء يمكن أن يسافر للنزهة، "فحسب اعتقادهم أن المرء لا يسافر إلا لاكتساب المال أو للتجسّس على أرضهم". والرجل عندنا كذب مرتين: مرّة حين ادّعى أن رحلته كانت للنزهة، فرحلته لن تكون للنزهة في تلك المناطق التي سبق له أن وصفها "كأنها الجحيم في نظر الأوروبيين"، وكذب مرّة أخرى حين قصر مفهوم فوائد الرحلة عند العرب على الهدفين اللذين ذكرهما. فالعرب يعرفون الرحلة وسيلة للاسترواح، وكم شكت نوقهم في الجاهلية قبل الإسلام من أصحابها الذين كانوا يُسرّون الهم عند احتضاره بالترحال الدائم:

أكُلّ الدهر حلّ وارتحال   أما يبقي علي ولا يقيني

جاء في ثقافة العرب، شعراً أيضاً، الحثّ على السفر، ففيه خمس فوائد؛ أولاها تفريج الهم ومنها اكتساب العلم، كذلك ورد في الأثر التأكيد أنه بالأسفار أيضاً تُكتسب المعرفة: اطلبوا

العلم ولو في الصين. فكيف بهذا الرحّالة ينفي عن العرب معرفتهم بفوائد السفر وهم أهل الرحلة والترحال. ويبقى سؤال أهل الدوحة عن الغرض الذي دفع الياس يوسف أفندي إلى القيام برحلته قائماً إلى اليوم، يتطلب من المؤرّخين إجابة شافية.

غادر بورشارت إلى أبو ظبي في ١٧ ذي القعدة/٢ فبراير، وهناك قابل شيخها المسنّ زايد بن خليفة، ونهل من كرمه لستة أيام متصلة. وكان طعامه "اللذيذ" يصله من بيت أصغر زوجات زايد التي كانت تهتم به كثيراً وتستفسر عن سرّ زهده في الأكل إذ لم يصب منه قدراً كبيراً. وكانت المكافأة الوحيدة لها على اهتمامها به "أنها طلبت مني أخيراً فوطة منشفة وقطعة من الصابون!" (ص: ٢١٩). وإذا صدق هذا الرحّالة اليهودي في ما ادّعاه، فقد نستغرب هذا الطلب من هذه المرأة، في وقت كان فيه لأبو ظبي اتصالات تجارية بالهند، وكان زوجها زايد الذي ربما كان أثرى شيوخ الخليج طرّاً، يملك ما يمكن أن يشتري به هذه الأشياء الرخيصة الثمن. وفي ظننا أن بورشارت افترى هذا الحديث ليستكمل به مقتضيات كتابة أدب الرحلة الغربية. فكاتب أدب الرحلة في بلاد العرب لن يحقق نجاحاً ما لم يغمز من موقف الإسلام من تعدّد الزوجات، وظلم مجتمعاته الذكورية للمرأة، حيث يتزوج المسنّون من يافعات. ومن عجب أن يجد هذا الهراء مكاناً له في كتاب ألّفته بالإنجليزية سيدتان، إحداهما أجنبية غير غريبة عن تاريخ أبو ظبي، وأعجب من ذلك قيام جهة "علمية" في أبو ظبي بترجمة هذا الكتاب ونشره وتوزيعه والترويج له! إن أخذ فقرات من كتب الرحّالة الغربيين للاستشهاد بها في كتابة تاريخنا تتطلب قلماً يتقيّد بمنهج البحث التاريخي، ومؤرّخاً متخصّصاً في هذا الفرع من التاريخ ومتمكّناً من نقد الرواية. وكان من الأجدر بهاتين السيدتين قبل إثباتهما - ربما عن غير وعي - هذه الإيحاءات الخبيثة في كتاب عن تاريخنا، خاصة قبل أن يُترجم إلى العربية، أن يتحرّيا عن وضع المرأة في أبو ظبي في تلك الفترة، وهل كانت تقابل ضيوف زوجها من الأجانب؟ وهل كان من واجب زوجات الشيوخ خدمة ضيوف أزواجهن وملاطفتهم؟ وهل كنّ في درجة تحرّر المرأة الغربية في رفع الحرج فيطلبن إلى الغريب إهداءهن بعض وسائل "المكياج" هدية أو تذكاراً؟

استرعى انتباه بورشارت في أبو ظبي الذي التقط العديد من الصور عن أبو ظبي وقلعتها، وجود مئات من العوائل الفارسية الفقيرة التي يقول إنّها هربت من طغيان حكوماتها واستبدادها، كما لاحظ أيضاً وجود عدد من التجار البانيان يستأثرون بالتجارة من دون غيرهم. وكتب بورشارت في الروابط الوثيقة بين الشيخ والحكومة البريطانية، وأشار بورشارت إلى أنه كان يزمع السفر إلى عمان برّاً وصولاً إلى صحار، ولكن الشيخ رفض السماح له بذلك ما لم يأته بإذن من المقيمية البريطانية، وعدّل اليهودي مسار رحلته، فركب البحر لإدراكه أن الإذن لن يكون ممكناً، خاصة أن ذكرى الرحلة التي قام بها الميجور كوكس لسبر غور ولاء قبائل هذه المنطقة ذاتها لم تكن قد مُحيت من أذهان أهل المنطقة بعد. وفي اعتقادنا أن رحلة بورشارت قد

شارفت على نهايتها العملية في أبو ظبي، فالرجل كان يريد أن يعرف – كما نعتقد – مدى قوة النفوذ العثماني في المنطقة الممتدة من البصرة إلى أبو ظبي وفي الظهير العماني أيضاً، وقد تمكن من تحقيق الهدف الأول، ولم يتمكّن من الثاني لرفض الشيخ منحه الإذن لدخول تلك المنطقة ما لم يتسلّح بأمر من المقيم. وفي اعتقادنا لم يكن هذا الرحّالة ولا الجهة التي كلفته بالقيام بالرحلة يسعى للحصول على المزيد من المعرفة عن النفوذ البريطاني في المنطقة الممتدة من أبو ظبي حتى مسقط، فأمر ذلك كان معلوماً للجميع. وقد تأكد هذا الرحّالة من هذا الأمر حين ذكر أن الشيخ لن يسمح بدخول أيّ أجنبي إلى ظهير أبو ظبي ما لم يأذن المقيم البريطاني بذلك.

أبحر الرحّالة بورشارت من أبو ظبي في مساء يوم ٩ فبراير إلى دبي ساعياً لزيارة الشيخ مكتوم فلم يجده، لكنه التقى ابنه. وقد استُضيف في دبي، ولكنه – كما يدّعي – لم يلقَ هناك مظاهر الاحترام التي اعتادها. وصف مدينة دبي المثلثة التي يؤلّف القسم الأول منها دبي ذاتها، ويشمل سوق البانيان والمسجد الكبير الذي يكتظ بالمصلين يوم الجمعة، والقلعة البرتغالية المهدمة، ويضم القسم الثاني منها الشندغة وقصر الشيخ، أما القسم الثالث فهو ديرة التي هي لسان ضيق يمتد إلى الميناء، "وفي هذه المنطقة يجد المرء سوقاً كبيراً مهماً جداً، وشوارع فسيحة نظيفة. وقد رأيت في السوق ملبوسات تحمل علامة صنع في ألمانيا". وهناك في هذا السوق سلع رفاهية أخرى. وأشار بورشارت إلى أن أغلب السكان في دبي من الرقيق كما هي الحال في موانئ الخليج الأخرى، وذكر أنهم يلقون معاملة حسنة.

غادر بورشارت دبي في يوم ٢٢ فبراير مجتازاً الشارقة ورأس الخيمة حتى رأس مسندم الذي "يماثل ساحل النرويج شكلاً". وصل بالمركب إلى كمزار في يوم ٢٧، حيث قضى الرحّالة عيد الأضحى في ضيافة شيخها الذي لم يسمح له بالتقاط صور ما لم يحصل على إذن بذلك من السلطان فيصل في مسقط. وغادر مركب الرحّالة كمزار في اليوم الأول من مارس ليصل إلى صحار في يوم ١٩ ذي الحجة ١٣٢١/٧ مارس ثم إلى مطرح التي وصلها في ١٢ مارس، ومن ثمّ إلى مسقط حيث أقام مع "جراهام" القنصل البريطاني في تلك البلدة. ويبدو أن هذا الرجل الذي عمل على تسجيل رحلته تصويراً لم يكن يتحرّى عن الدقّة حين يكتب في الأسماء، فقد كان المقيم البريطاني في مسقط في الفترة ١٩٠٤–١٩٠٦م هو جراي، ولم يكن جراهام – كما أشار –. وهنا يمكن أن نشير إلى أنه سمّى زايد بن خليفة، الشيخ الذي استضافه في عاصمته أبو ظبي، أحمد بن محمد، أي أسبغ عليه اسم شيخ الدوحة، رغم أن الشيخ أحمد كتب له خطاب توصية إلى الشيخ زايد نجد صورته في الكتاب المنشور! ولعل في هذا ما يدل على أنه سجّل أخبار رحلته بعد فترة من قيامه بها، ولم يهتم بتفاصيل ما جاء في مذكراته، وخاصة أنه سجّل تصويراً ما أراد تسجيله، وما عاد يهمّه بعد ذلك إن كان اسم شيخ البلدة التي زارها زيداً أم أحمد، فكلا الاسمين يدل على عربي لا يثير لدى الرحالة ذلك الاهتمام الذي يجب أن يتحرّى

عنه المؤرّخ الذي لا يجوز له - بطبيعة الحال - أن يضع في سرده وتحليله شيخاً مكان آخر.

اختتم بورشارت مفكرته بوصف لمسقط التي يوجد فيها من المؤسسات الأجنبية مقيم بريطاني وقنصل فرنسي ونائب قنصل أمريكي وفرع للبعثة التنصيرية الأمريكية ومحطة للبرق الهندي.

وليام إيرفن شكسبير

عمل كيرزن بعد عودته من رحلته في الخليج على توثيق العلاقة مع الكويت، وألحّ على لندن أن تسمح له بتعيين وكيل بريطاني فيها. وقدّم النائب لذلك عدّة أسباب في عدّة مناسبات، لكنها كانت ترفض ولا تجد من لندن قبولاً. احتجّ النائب أولاً بأن الوكيل البريطاني المقترح للكويت يمكنه أن يستلقط أخبار نجد ويعمل على مقاومة المد التركي الذي يمثله ابن رشيد التابع للأتراك، الذي بات يشنّ حملات دائبة على الكويت. ورفضت لندن، بناءً على رأي سفيرها في إستنانبول، الاستجابة للهند، وأكدت حكومتها لكيرزن أن لها مصالح في مناطق أخرى من العالم تقتضي منها عدم استعداء الأتراك من أجل الكويت التي يمكن حل ما يتصل بها بالمفاوضات بين لندن وإستانبول ضمن إطار تسويات مشكلات دولية أخرى أبلغ تعقيداً. وكتب النائب إلى لندن مرّة أخرى مؤيّداً رأي المقيم في الخليج بانتهاز فرصة طلب ابن سعود إسباغ الحماية عليه، ما يُعدّ مكسباً منتزعاً من الأتراك، ويمكن الوكيل البريطاني المقترح في الكويت أن يقوم من خلال مبارك بتقديم الدعم اللازم لابن سعود. وجاء ردّ لندن رفضاً قاطعاً، فهي لا ترغب في العمل - في ذلك الوقت - على الاستجابة لما يطلبه ابن سعود أو مساندته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كما أنها لا ترغب في أن تزيد بأي شكل من الأشكال في رقعة الأرض التي تلتزم بالدفاع عنها في الخليج. وعاد النائب ليلتقط هذا الخيط ويحتجّ مرّة أخرى بأن الوكيل البريطاني المقترح في الكويت يمكنه ضبط سلوك مبارك ليكبّل حركته في ظهير الكويت، فلا ينساق الشيخ وراء تقديم العون لابن سعود، كما يمكن الوكيل المقترح أن يعمل على حظر تجارة السلاح في أعالي الخليج. واضطرت لندن تحت هذا الضغط المتواصل إلى أن توافق على تعيين وكيل في الكويت، خاصة بعد أن وجدت أن اقتراح النائب في الهند كبح جماح تدخل مبارك في شؤون نجد يتوافق مع خطها السياسي. وأرسلت لندن في ١٠ ربيع الثاني ١٣٢٢/٢٤ يونيو ١٩٠٤ إلى الهند تبلغها موافقتها على تعيين وكيل سياسي بريطاني في الكويت بصفة مؤقتة وبصلاحيات محدودة، واختير نوكس وكيلاً للكويت التي وصل إليها في أغسطس ١٩٠٤. وسرعان ما تطور المنصب الذي بدأ شاغله أولاً مسؤولاً مسؤولية مباشرة للمقيم ليصبح منذ عام ١٩٠٥م له صلاحية مخاطبة الهند مباشرة من دون الرجوع إلى بوشهر

في الشؤون التجارية، هذا إضافة إلى أنه أصبح أيضاً مسؤولاً بصفة مباشرة لوزارة الخارجية البريطانية بوصفه قنصلاً تجارياً. كذلك أضيفت إلى مهمات هذا الوكيل مسؤولية التراسل المباشر مع المقيم البريطاني في العربية التركية (العراق) في المسائل الخاصة بشؤون الكويت ذات الارتباط بما بين النهرين. فقد كانت سياسة الكويت التي حاول كيرزن تسيير دفّتها من الهند في تقدير لندن في صلب السياسة الإمبريالية لاتصال شؤونها بالعلاقات مع الإمبراطورية العثمانية والقوى الدولية الأخرى. كذلك اكتسب منصب وكيل الكويت أهمية إضافية بعد استئجار الهند بندر الشويخ في عام ١٩٠٧م من الشيخ مبارك الصباح.

شغل هذا المنصب المتشعّب الواجبات رجل مغامر حصيف هو وليام إيرفن شكسبير في عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م. كان وليام – كما يقول – يهوى الرحلات، فامتدت جولاته السنوية في نجد في فترة قيامه بأعباء الوكالة وتشعّبت طرقها. وتمكن وليام من توظيف رحلاته أمثل توظيف في خدمة الإمبراطورية، كما أفادت الإمبراطورية في فترة الحرب العالمية الأولى من صوره الضوئية ورسومه وخرائطه ووصفه لطوبوغرفية الأراضي التي جابها.

ولد وليام شكسبير في عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م في أسرة مغمورة، وكان والداه يعملان في البنغال في الهند البريطانية. وتلقى وليام تعليمه في كلية الملك وليام العسكرية، وعُرف عنه نشاطه الرياضي وتفوّقه المثير في ألعاب القوى. وحين تخرج في العشرين من عمره في كلية سانت هيرست العسكرية التحق بخدمة الجيش الإمبراطوري في الهند. وأنيطت بهذا الضابط الشاب مكافحة الجرذان التي سبّبت انتشار مرض الكوليرا في الهند، فأظهر همّة وأثبت جدية، ما أهّله لشغل منصب مساعد الوكيل البريطاني في مسقط في عام ١٩٠٤م ليصبح بذلك أصغر نائب قنصل عرفته منطقة الخليج. قام وليام شكسبير بعدّة رحلات في أرجاء عمان، وطوّف بجزرها وزار عدّة مناطق من الساحل الإيراني، ونُقل بعد ذلك للعمل في بندر عباس قبل أن يعود إلى الهند في عام ١٩٠٧م. وقام في تلك السنة برحلة بسيارته عبر إيران وتركيا وقطع أوروبا حتى انتهى إلى بريطانيا. وتعرّف شكسبير خلال هذه الرحلة عندما كان في سويسرا على دورثيا بيلارد، ابنة أندرو ولسون بيلارد من العاملين في الهند، وكانت الفتاة تقضي إجازتها مع أسرتها هناك. كانت دورثيا قد قرأت كثيراً عن رحلات الغربيين في شبه الجزيرة العربية، فأهدته كتاب بالجريف كما حدّثته كثيراً عن آن بلنت. وازداد اهتمام وليام شكسبير بعد ذلك بالرحلات الأوروبية في شبه الجزيرة العربية وبأخبار الرحّالة في تلك الأصقاع، فقرأ ما كتبه السويدي جورج أوجستين والين، وداوتي، وبلنت، وما كتبه البارون الألماني نولدة الذي قام برحلة من دمشق إلى حائل في عام ١٨٩٥م. كذلك اهتمّ شكسبير بمذكرات نوكس، سلفه في وكالة الكويت، الذي كان قد قام بعدّة رحلات استطلاعية إلى أطراف نجد التي كانت بريطانيا تحرص على عدم تدخل شيخ الكويت في أحداثها حتى لا تتسع دائرة مسؤولياتها الحمائية التي

فرضتها مضطرة على الكويت، كرغبة ذلك الشيخ وإلحاح نائب الملك في الهند.

خلف وليام شكسبير الكابتن نوكس في موقع الوكيل البريطاني في الكويت في عام١٣٢٧هـ/١٩٠٩م في فترة تعالى فيها مدّ الاضطرابات في نجد وفي ما بين النهرين كذلك، وكانت الحكومتان البريطانية والتركية تسعيان للتغلب على المشكلات القائمة في المنطقة تحقيقاً لمصالح استراتيجية لكليهما، يتجاوز مداها أفق الجزيرة العربية ويرتبط بصلب السياسة الدولية. واختير شكسبير لمنصب الوكيل البريطاني في الكويت في هذا الوقت لما عُرف عنه من انضباط ووعي وإخلاص للإمبراطورية وأهدافها، ولحصيلة معرفته عن العرب التي يُعتقد أنه قد اكتسبها من قراءة أسفار الغربيين في شبه الجزيرة العربية، ولخبرته بالعرب لمخالطته إياهم خلال عمله في مسقط وبندر عباس، ولمعرفته باللغة العربية التي اجتاز فيها امتحاناً مصلحياً في عام ١٩٠٢م بنجاح، ولمعرفته أيضاً ببعض اللغات الشرقية التي منها البنجابية والفارسية والأردية ولغة البشتو. ورغم كل هذه المؤهلات التي دفعت حكومة الهند إلى اختيار شكسبير ليشغل هذا المنصب، نعتقد أن اختيارهم لهذه الشخصية المقدامة لهذه المهمة التنفيذية لم يكن موفقاً. فقد كان الرجل مبادراً يتناول المشكلات القائمة ويعجمها ويقترح لها الحلول، ويرى أن حلوله المقترحة أكثر نجاعة من تلك التي يصوغها الساسة في هوايت هول. ويمكن هنا أن نشير إلى أن هذه الروح القيادية تتناقض مع المهمة الأساس لوكيل الكويت بصفة خاصة. تقضي مهمة هذا الموظف منه أن يكون أداة تنفيذ دقيق للسياسة الدولية التي ترسمها الحكومة المركزية في لندن، ولا بأس في أن يدلي بدلوه باقتراحات بشأن المشكلات السياسية في المنطقة على ألا يصرّعلى تنفيذها. يضاف إلى هذا أن الرجل كان مغامراً يهوى الرحلات، وقد أخذته رحلاته إلى أطراف نجد حيث التقى عبد العزيز بن سعود عدّة مرات، ودعا حكومته بإلحاح إلى إقامة علاقة وثيقة معه تخرجه من دائرة الأتراك، وعاصرت دعوته فترة حرصت فيها سياسة لندن على العمل للحفاظ على ممتلكات الرجل التركي المريض. وكانت لندن تجري مع الحكومة العثمانية مفاوضات لتسوية المشكلات القائمة على ساحل الخليج العربي الذي بدأت مشاريع خطوط الحديد الروسية والألمانية تسير في اتجاهه وتزلزل أسس السياسة البريطانية في تلك المنطقة. ولمواجهة هذا الموقف الدقيق دبلوماسياً، طلبت الحكومة إلى الهند أن توجه إدارة الخليج إلى التصرف في تلك الفترة كأن عبد العزيز غير موجود. ومن هنا كان الخلاف الذي استشرى ودفع شكسبير المتحمّس للتعامل المباشر مع ابن سعود إلى ترك منصبه في الكويت، ومن هنا أيضاً قامت لندن بعد أن تبيّنت أن الدولة العثمانية ستدخل الحرب في المعسكر الآخر بالاستعانة به وكيلاً خاصا لها لدى ابن سعود.

قام شكسبير في فترة توليه الوكالة في الكويت بعدّة رحلات إلى نجد بدأها في ٩ ذو القعدة ٢٢/١٣٢٧ نوفمبر ١٩٠٩ حيث انطلق من الكويت في اتجاه جنوبي جنوبي شرقي حتى

وصل إلى عدان، واستكشف بعد ذلك في رحلة لاحقة المناطق التي كان سلفه نوكس قد استكشفها. وأسرع من هناك في طريق عودته إلى الكويت حين عرف أن ابن سعود قد حلّ في الكويت ضيفاً على شيخها، وقد أعجب شكسبير بتلك الشخصية منذ أن قابلها للمرّة الأولى. ومن عجب وصفه لابن سعود عقب هذا اللقاء الأول بأنه رجل يدرك أهدافه جيداً فيُشغل بها ولا تشغله سفاسف الأمور. كذلك التقى شكسبير ابن سعود مرّة أخرى في رحلة أخرى قام بها ذلك الوكيل وحلّ ضيفاً عليه في معسكره. وقامت بينهما محادثات غير رسمية تناول عبد العزيز فيها العلاقات السعودية البريطانية في عهد جده تركي الذي امتدت حدود دولته إلى الأحساء والقطيف وقسم كبير من ساحل عمان، وأشار إلى أن علاقة الإمام تركي كانت جيدة مع البريطانيين، وأنه كان قد عقد معهم اتفاق صداقة جدّده الإمام فيصل بن تركي حين آل الأمر إليه. ويرى عبد العزيز أن علاقات الصداقة بين الطرفين دفعت بيلي، مقيم الخليج، إلى زيارة الرياض لتأكيد مواثيق الصداقة القديمة بين الطرفين غير المنصوص عليها كتابة. وينقل تقرير بيلي عن عبد العزيز قوله إنه وهابي، ومن ثمّ فهو لا يعترف بسلطة دينية للأتراك عليه ولا بالخلافة الإسلامية القائمة، وإنه يناهض السياسة التركية المستحدثة لأنها تهدف إلى عثمنة شبه الجزيرة العربية. وكشف عبد العزيز لشكسبير عن أنه يزمع غزو الأحساء وانتزاعها من الأتراك ويطلب حماية البريطانيين له بحراً، وأضاف أنه لن يمانع في سبيل الحصول على ذلك في اعتماد وكيل بريطاني على الساحل لخدمة التجارة البريطانية التي يمكنها أن تزدهر مع الداخل الذي أصبحت مسالكه مخفورة بجهوده الأمنية المثمرة. كذلك تطرّق ابن سعود إلى علاقاته مع الساحل العماني، وكان الرجل قد تلقّى من إدارة الخليج البريطانية عدّة تحذيرات من التدخل في شؤونه، وقال إنه تلقّى من شيخ دبي طلباً لحمايته، ولكنه لم يفعل حرصاً منه على ألا يخلّ بالنظام التهادني.

أرسل شكسبير بتقريره عن هذه الزيارة إلى المقيم كوكس، مشيداً بشخصية ابن سعود وكرمه ونبله، وأوصى بضرورة الاستجابة لطلبه وإقامة علاقات معه على النحو الذي اقترحه، ورفع المقيم كوكس التقرير إلى حكومة الهند مع توصية بأن تظلّ حبال العلاقة ممدودة لابن سعود "ليستعان به عند الحاجة". وحين أحيل التقرير على لندن، أمرت حكومتها الهند بنحو قاطع بعدم التدخل في الشأن السعودي.

استمرت رحلات شكسبير إلى أطراف نجد سنوياً متواصلة، فقام برحلة من الكويت في ٥ ربيع الثاني ١٣٣٠/٢٤ مارس ١٩١٢ وصل حتى وارة وتجاوزها إلى آبار القلع في الحد الشمالي للشق، وعاد إلى المقيمية في الأسبوع الأول من إبريل برسوم كثيرة لطوبوغرافية المنطقة، وبوصف دقيق لطبيعتها ولون رمالها وأشكال الحياة النباتية والحيوانية فيها. وأوغل شكسبير في نجد في رحلته التالية في عام ١٩١٣ التي بدأها في يوم ٢٩ ربيع الأول ١٣٣١/٨ مارس. عبر

الرجل في رحلته الخامسة هذه الشق إلى الصمان فالدهناء متنسّماً خطى بيلي. وحين بلغه أن ابن سعود يقيم في معسكره في الخفجي التي تبعد حوالى ستين ميلاً إلى الجنوب من معسكره، أسرع في شدّ الرحال إلى هناك حيث مكث في ضيافة عبد العزيز في الفترة من ٣٠ مارس حتى ٤ إبريل. وجاء في تقرير شكسبير أن عبد العزيز بات الرجل الأكثر سلطة ونفوذاً في شبه الجزيرة العربية، ولم يعد هناك من شيخ أو رئيس يمكن أن ينازعه ذلك عدا شريف مكة الذي انحاز إلى الأتراك تماماً – خشية من بأس الوهابيين – كما يقول ابن سعود. وكشف تقرير شكسبير أن ابن سعود يخطط لغزو الأحساء حتى لا يصبح بين فكي كماشة طرفاها شريف مكة في الغرب والوجود العسكري التركي في الشرق. ويضيف التقرير أن ابن سعود يتطلع أيضاً إلى مدّ سيطرته على الأحساء حيث المناطق الغنية بالمصادر الاقتصادية والموانئ التي تربطه بالعالم الخارجي. ولم ينسَ شكسبير أن يكتب عن الكرم الذي لقيه من ابن سعود، وحاول أن ينفي الصورة النمطية عند المسؤولين البريطانيين عن الوهابية التي لا ينكر ابن سعود أنه رافع راياتها، فوصف ابن سعود وجميع من في المعسكر من أقاربه ومساعديه بأنهم مهذبون، وأنه لم يلحظ في فترة إقامته بينهم تعصّباً أو تهوّساً، فقد كان يقاسمهم من دون حرج موائدهم ومجالسهم. وأشار التقرير إلى أن عبد العزيز عاد في هذه المرّة أيضاً يُذكّر بعلاقة بيلي مع فيصل، كما أشار إلى أن بيلي حين ضرب الدمام في عام ١٨٦٥م اعترف بأن السعوديين يحكمون المنطقة. وانتهى التقرير إلى أن ابن سعود يتعهد في مقابل حمايته بحراً بمراعاة "الوضع الراهن". وأحيل التقرير على كوكس الذي أحاله على الهند يوصي بقبول وجهة نظر شكسبير، ويرى أن الاعتراف بعبد العزيز حاكماً مستقلاً استقلالاً أتونومياً على نجد تحت السيادة التركية لا يتعارض مع الاعتراف البريطاني بنجد أرضاً تركية. ولم يوافق هاردنج، الحاكم العام للهند، على هذا الطرح الذي قد ينسف مفاوضات لندن مع إستانبول التي كانت قد شارفت على نهاياتها. وأوصى النائب بالاحتفاظ بيد ممدودة بالصداقة مع ابن سعود.

تمّ لابن سعود في مايو السيطرة على الأحساء وطرد الحامية التركية، فكتب بذلك إلى سلطات الخليج البريطانية يطلب إليها إقامة "شروط كتلك التي وقعت بينكم وبين أسلافي". وأرسلت المقيمية هذه المذكرة مع تعليق من شكسبير جاء فيه أن "رفض الصداقة التي يقترحها ابن سعود سيكسبنا كراهية تنعكس ظلالها على الساحل العربي برمّته". وحين أُحيل التقرير على لندن، كتب وزير الخارجية الذي ضاق ذرعاً بما يعتقد أنه تدخّل غير مأذون من وكيل الكويت البريطاني في ما لا يخصّه، إلى وزير الهند أنه زاهد في تحرّي صدق نبوءة شكسبير، ولكنه واثق بأن نتاجها لا يساوي شيئاً قياساً بالنتائج التي قد تنتج من إقامة علاقات مع ابن سعود. وأشار الوزير جراي إلى أن سياسة بريطانيا لا تُبنى على الاعتبارات الإقليمية التي لا تستطيع حكومة الهند أن تتجاوز أفقها، وأن سياسة بريطانيا في هذه الفترة تلزمها بالحفاظ على ممتلكات تركيا في آسيا. وحين

جرى التوقيع بالأحرف الأولى بين تركيا وبريطانيا على الميثاق الذي ينظم العلاقة بينهما في الخليج ونجد، كان من المهم من وجهة نظر حكومة الهند التعامل مع ابن سعود بيد ممدودة بالصداقة وذلك حتى يضمنوا عدم تدخله في سياسة قطر والساحل العماني. وطلب نائب الهند إلى لندن شرح وجهة النظر هذه للأتراك الذين لا تنكر بريطانيا تبعية المنطقة التي يسيطر عليها ابن سعود لهم. ووافقت لندن على هذا الطرح فاتصلت في ١٨ رمضان ١٣٣١/٢١ أغسطس ١٩١٣ بحقي باشا، السفير العثماني في لندن، لإقناعه بأن صداقتهم لعبد العزيز تخدم الوفاء بالتزامات ميثاق ٢٩ يوليو. وعُقد في ١٥-١٦ ديسمبر ١٩١٣ اجتماع بين شكسبير وكيل الكويت وتريفور وكيل البحرين مع ابن سعود في العقير، وعادا منه بما سبق له أن طلبه من البريطانيين سابقاً من طلب الحماية على بلاده بحراً.

لم يكن شكسبير سعيداً بتصريف شؤون وظيفة الوكيل البريطاني في الكويت، فتخلى عن منصبه في مطلع عام ١٩١٤م. فتوصياته التي غالباً ما تؤيّدها حكومة الهند كانت تلقى من لندن رفضاً صريحاً إضافة إلى أن علاقاته الشخصية بشيخ الكويت كانت متوترة دائماً، وكان ذلك الوكيل البريطاني يكره لقاء الشيخ ولا يسعى للقائه إلا مضطراً. وحدث أن اعترض كويتي بقاربه قارب شكسبير، فاهتاج الوكيل وأمسك بالرجل ورفعه عالياً ورماه فسقط على حافة قاربه فهلك من فوره. وكان على الوكيل أن يذهب ليعتذر للشيخ عن مقتل الرجل، فتلقّاه الشيخ بحفاوة وتمنى لو يقتل الوكيل في كل يوم كويتياً واحداً من أولئك الدهماء حتى يتسنّى له لقاء صديق ضنين باللقاء.

عمل شكسبير على مغادرة الكويت بعد خدمة امتدت لخمس سنوات التقط فيها أميز صور للكويت في تلك الفترة الباكرة. واختار أن يغادر برّاً إلى البحر الأحمر عبر مسالك نجد، فكتب بذلك إلى حكومة الهند التي وافقت على الاقتراح، وكتبت بدورها إلى وزارة الهند في لندن في ٢٠ ديسمبر ١٩١٣ تطلب موافقتها، واحتجّت بأن الرحلة ستكون "مفيدة جداً في خدمة المجالات العسكرية والسياسية. يضاف إلى ذلك أن إعلان الباب العالي ابن سعود متصرفاً لنجد سيُمكّن لهذه الرحلة أن تتم من دون إثارة مشاعر الريبة لدى الحكومة التركية".

وخلصت مذكرة حكومة الهند إلى أن من المؤسف أن تتعلل لندن بدواع سياسية "فتمنع الإنجليز من استكشاف وسط شبه الجزيرة العربية بينما يبقى هذا المجال مُتاحاً لجميع الأجانب من الجنسيات الأخرى". وذكرت الهند أن شكسبير الذي تجمعه علاقة صداقة مع ابن سعود كان قد تلقّى منه دعوة رسمية لزيارته، ويمكن شكسبير أن يمضي بعد وقوفه في الرياض باتجاه حائل. وأضافت الهند أنها تثق بأن شكسبير رجل كفء، له خبرة بقبائل نجد، يتقن العربية، ما يجعله مؤهّلاً تماماً للقيام بهذه المهمة. وتبنّت وزارة الهند اقتراح حكومتها وكتبت إلى وزارة الخارجية في ٢٣ ديسمبر تطلب إليها العمل على القيام بما يلزم لنجاح هذه المهمة. وأشارت

وزارة الهند إلى أن وزيرها بات مقتنعاً بأن الاعتراضات التي حالت دون قيام مثل هذه الرحلات في شبه الجزيرة العربية ما عادت قائمة، فالتحولات في السنوات القليلة الماضية استوجبت "أن تفتح شبه الجزيرة العربية قلبها للاستكشاف". ونعتقد أن الوزير كان يشير إلى عقد الميثاق التركي البريطاني الذي حدّد مناطق النفوذ في المنطقة. واتصلت الخارجية بسفيرها في إستانبول تستطلع رأيه، فأبرق الأخير إلى لندن في ٥ يناير ١٩١٤ بأن السلطات التركية قد تُسيء فهم دوافع هذه الرحلة نتيجة للاضطرابات التي تكتنف الجزيرة العربية، ولكنه أشار إلى أنه سيبلغ وزير الخارجية العثماني بقيام هذه الرحلة لمنع سوء فهم دوافعها. وفي ٨ يناير، أبلغت وزارة الخارجية البريطانية وزارة الهند أنها تلقّت من السفير في إستانبول عدم ممانعة لقيام شكسبير برحلته، فقد تلقّى السفير من وزارة الداخلية العثمانية "أنها لا ترى مانعاً من قيام شكسبير بهذه الرحلة، ولكن الحكومة العثمانية لا تستطيع أن تضمن سلامته في المناطق التي تقع خارج نطاق سيطرتها، يضاف إلى ذلك أن ولاية الحجاز مغلقة بالطبع لغير المسلمين، ولا يُسمح لشكسبير بدخولها".

غادر شكسبير الكويت برّاً إلى نجد وعبرها حتى البحر الأحمر ليصل إلى السويس. بدأ رحلته في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الثلاثاء ٧ ربيع الأول ١٣٣٢/٣ فبراير ١٩١٤ من الجهرة إلى بندر الشويخ حيث التحق بقافلة بريدة. وكان الجوّ عاصفاً ولم يتمكنوا من قطع مسافة بعيدة، وعلى الرغم من هياج الريح وهطل الأمطار تمكن شكسبير الذي تقدم القافلة من الوصول إلى الريغية في ٨ مارس، ولم يسمح له رجال مطير ولرجاله المرافقين له من الكويت سوى بقربة ماء واحدة. واستمر الركب عبر الباطن إلى صحراء دبدبة، وهناك فقدوا اتصالهم مع قافلة بريدة التي كانت قد تجاوزتهم، ووصل ركبهم بعد ذلك إلى الحفر في يوم ١٣ فبراير، واستقوا من آبارها الأربعين المنتشرة في ذلك السهل المستدير. ومرّ ركبهم بعد ذلك إلى الأرطاوية ذات البيوت المهجورة والآبار المهملة، واجتازها إلى كلبان على أطراف النفود الذي تبدّى لهم برماله الحمراء. واتجه الركب جنوباً ليعتلي قمّة طويق في يوم ٢٦ فبراير، وتبدّت لهم الزلفي، واحة سدير التي اكتسى واديها صفرة بسنابل القمح وسط حدائق النخيل المنتشرة هنا وهناك. ولاحظ شكسبير أن الزلفي قريتان مسورتان تفصل بينهما مسافة ميل، وتحمل كل منهما اسماً مختلفاً عن الأخرى. ودخل الركب بعد ذلك إلى الغاط.

كان اهتمام شكسبير بسدير ورجالاتها كبيراً، كذلك ظفرت قرى سدير منه باهتمام خاص، وتحرّى عن منابع وادي سدير وروافده، وقال إنها تغوص في النهاية في رمال الدهناء. وصف شكسبير المزروعات على جانبي الوادي من نخيل وخضر، ونفى زعم بالجريف وجود مزارع تنتج الرمان في تلك المناطق. وانطلق ركبهم في طريق رحلته - بعد ما نهل من كرم سعد السديري - عبر أرض قاحلة ليستشرف بنبان في ٨ مارس ثم بلغ الرياض في اليوم التالي.

يكتب شكسبير عن أنه شهد حركة عمرانية نشطة في الرياض لبناء ما كان قد تهدّم منها

في فترة استيلاء آل رشيد عليها. لم يكن شكسبير هو المسؤول البريطاني الأول الذي يزور ابن سعود في الرياض، فقد سبقه إليها في أواخر عام ١٩١٢م جيرارد إيفلين ليشمان، موظف الاستخبارات البريطاني الذي قضى معظم فترة عمله ضابطاً سياسياً في العراق، وتكرر في هذه الفترة دخوله إلى شبه الجزيرة العربية كسائح أحياناً وكطبيب أحياناً أخرى. وكان الرجل قد قابل الإمام عبد الرحمن في الرياض حين كان يزمع القيام برحلة لاستكشاف الربع الخالي، ولكنه لم يظفر بثقة ابن سعود، فلم يسمح له بالقيام بهذه الرحلة، فاضطر من ثمّ إلى أن يغادر إلى الأحساء. وقد تمكن ليشمان في رحلته من العراق من زيارة بريدة ووقف على الدرعية ورسم خارطة مفصّلة للقصيم. ودخل ليشمان حين وفد إلى الرياض من خلال بوابة كبيرة يقوم عليها باب كُسي بطبقة من حديد، ومرّ عبر تلك البوابة إلى سوق الرياض "العامر بالنشاط التجاري" حتى انتهى إلى القصر.

كان ليشمان المولود في عام ١٨٨٠م استخبارياً كثير الأسفار، اشترك في حرب البوير وطاف بعدّة مناطق في الهند ودخل إلى التبت في عام ١٩٠٥م، ثم عاد إلى بريطانيا في عام ١٩٠٧م عن طريق البصرة – بغداد – حلب مروراً بدمشق وبيروت، وركب البحر من حلب إلى إستانبول ومنها عبر أوروبا إلى بلاده. كذلك كان كثير الأسفار في شبه الجزيرة العربية، ساعده على ذلك لونه الأسمر وملامحه الشرقية وبراعة تنكّره في ارتداء الملابس البدوية. وكانت أولى رحلاته إليها في الأول من صفر ١٣٢٨/٢٥ مارس ١٩١٠ حين كُلِّف في يناير بالاتصال بأمير حائل، فقد بدأ رحلته من بغداد وسار إلى كربلاء حيث وجد قافلة لمجموعة من شمّر من فخذ جعفر من العبادلة كانت في طريق عودتها إلى نجد. رافق ليشمان ماجد بن عجيل الذي كانت أخته زوجة لعبد العزيز بن رشيد، حاكم جبل شمر السابق، ولكنه لم يتمكن من بلوغ حائل. فقد اعترض الوصي زامل السبهان على دخوله حائل، فرجع أدراجه إلى بغداد. وكانت الحكومة التركية تتوجّس من تحركات الفرنجة في نجد التي كانت تمثل لها – كما يقول السفير العثماني في إستانبول – ما تمثّله أفغانستان استراتيجياً للحكومة البريطانية. ورغم أن إستانبول كانت قد أرسلت عدّة برقيات إلى كربلاء والحلة ومراكز أخرى لمراقبة تحركات ليشمان وتعطيله، أفلت من رقابتهم، ولكنه – رغم ذلك – لم يتمكن من دخول حائل بعد ذلك، ربما نتيجة توجيه من الأتراك لحاكمها.

لعلنا نلاحظ أن ابن سعود كان يرحّب بشكسبير وغيره من موظفي الإدارة البريطانية الرسميين الذين يكشفون عن طبيعة مهماتهم ووظائفهم، ولكنه لم يعمد أبداً إلى التعامل مع من يأتون من الفرنجة متنكرين. ادّعى ليشمان الذي وفد إلى الرياض في رحلة أخرى بدأت من دمشق في رفقة محمد البسام أنه جاء في مهمة علمية بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية. وكانت تلك الجمعية قد تولّت تمويل هذه الرحلة فعلاً، ولكن ذلك لا ينفي أن الرجل كان ضابطاً

في الاستخبارات البريطانية. وقد شغلت قبيلة الصليب حيّزاً كبيراً من اهتمام الكابتن جي إي ليشمان. تحدث في أصولهم وقال إن بعض "النظريات" تشير إلى أنهم من أبناء الصليبيين الذين لجأوا إلى الجزيرة العربية، فيما يرى البدو أنهم من "أبناء الإنجليز". ولربما سمع هذا الرجل القول من أحد مرافقيه فأسنده إلى البدو كلهم. ويضيف أن البدو حين يسألون الصليب عمّا إن كانوا من النصارى تعوزهم أنفة الرد وتحملهم إلى النفي، ولكنهم لا يخجلون من الأسطورة المتداولة من أنهم أبناء قبيلة نصرانية قديمة اختارت أن تعيش في شبه الجزيرة العربية. وأشار ليشمان إلى أن الصليب الذين هم الحرفيون الذين يقومون للبدو بأعمال النجارة والحدادة، لا يتوغلون كثيراً في جنوب نجد، بل يتجوّلون في المنطقة بين ساحل الخليج وأطراف نجد، كما ينتشرون إلى الغرب من نجد كذلك. ويصف ليشمان خيام الصليب، فيقول إنها أصغر من خيام البدو وقلّما تجتمع أكثر من عشرين خيمة منها في مكان واحد، وإن مضارب الصليب لا تجاور عادة مضارب البدو، ولا يعرف الطريق إليها في العادة سوى الصليب أنفسهم، فهم يتجنّبون النزول في أماكن المياه، ويلتزمون المناطق الخلاء في الصحراء، ما أورثهم في تقدير البدو مهارة في معرفة الأرض التي يتحركون فوقها. ويضيف أن أشكالهم التي يشابه بعضها بعضاً تنمّ عن بؤس من ضربه الفقر، لكنهم - في حقيقة الحال - ليسوا فقراء. فهم يملكون الغنم والشياه، وكذلك الحمير التي تُعدّ وسيلة الانتقال الرئيسة لديهم. ويضيف أنهم ربما اختاروا أن يظهروا بهذا الشكل البائس مع أن لديهم الكثير مما يأكلونه، حتى لا يثيروا "شهوة الجشع" الكامنة في البدو. كذلك يشير ليشمان أيضاً إلى أن نساء الصليب مشهورات في أوساط البدو بملاحتهن. ويلاحظ ليشمان كما لاحظ بيلي وعدد من الرحّالة قبله أن الصليب صيادون مهرة لا يُشقّ لهم في هذا المجال غبار. فهم يتقدمون نحو قطيع الغزلان حبواً حتى لا يثيروا انتباه الحيوان، وعندما يصلون إلى مسافة قريبة منه فإن طلقة واحدة من البندقية العتيقة التي يصل طول ماسورتها إلى ست أقدام كافية جداً لتجندل الغزال. ويخبر ليشمان أنه رأى أثراً لصياد حبا حوالى ميل كامل في اتجاه الفريسة.

كان ليشمان كارهاً للعرب، ويرى أن اجتثاث أيّ قبيلة عربية تجنح للثورة ضد البريطانيين واقتلاعها من جذورها حتى لا يبقى لها أثر يحدث عنها هو الحل الأمثل لردع القبائل الأخرى حتى ترعوي ولا تفكر أبداً في الثورة على البريطانيين. وقد أودت به هذه السياسة الرعناء. فقد اصطاده الشيخ الضاري بالقرب من الفلوجة بطلقة بندقية وأراح القبائل العراقية من شرّه. وقدّمت أسرة ذلك الشيخ تلك البندقية إلى الرئيس صدام حسين قبل الغزو الأمريكي للعراق، مع إهداء بأن النار ستأكل كل من يتجرّأ على المساس بحرّية العراق.

بعد أن يحكي شكسبير عن الترحيب الذي وجده من ابن سعود في الرياض، يكتب عن خروجه منها إلى بنبان مرّة أخرى برفقة ثلاثة أدلّاء شمّري ومطيري وعتيبي عيّنهم له ابن سعود. واجتاز الركب ملحم وحريملاء التي ذكر أنها مسقط رأس الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مؤسّس

الحركة الوهابية، ولاحظ أنها مخضرّة فيحاء بما تزخر به من صنوف الفاكهة التي ذكر منها البرتقال والتين والرمان والليمون إضافة إلى التمور. واجتاز الركب ثادق لينزل في شقراء حيث بقي الرحالة ليلة مع محمد بن سعود وسجل ما دار في ذلك اللقاء عن أخبار القبائل وعاداتها. وجدّ الركب في السير عبر نفود السر بعدئذ، وكتب شكسبير ملاحظاته عن قراه الصغيرة المتباعدة ومزارعها المسوّرة ومياهها المالحة. دخل الركب إلى المذنب واجتازها فوصل إلى عنيزة، "مدينة القصيم العظيمة"، في ٢٩ ربيع الثاني/٢٦ مارس، ونزل في ضيافة صالح الزامل. وأشاد شكسبير بالمستوى الحضري للبلدة التي لها علاقات تجارية مع الحواضر العربية الأخرى يقوم عليها رجال أعمال متحضّرون. وسافر من هناك إلى بريدة، حاضرة القصيم المهمة الأخرى، التي اجتاز إليها أرضاً خضراء منبسطة لم تقع عيناه في شبه الجزيرة العربية على أجمل منها. وواصل الرحالة وصحبه سيرهم من هناك عبر رمال البطار في جو قائظ تلفح وجوههم ريح الشمال لفحاً، حتى تكاد ذرات الرمل الثائرة جرّاء الهبوب تملأ خياشيمهم وتنزلق إلى حلوقهم التي جفّت من دون أن تجد من الماء إلا الزعاف. وحين وصلوا مديرج في ٥ إبريل استبدلوا بعض إبلهم التي أضناها المسير بأخرى، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقعاً ما على درب زبيدة، طريق الحج القديم. ويأخذ الرحالة في وصف تلال النفود التي يتراكم بعضها فوق بعض إلى ارتفاعات تصل إلى ثلاثمئة قدم لتشكل سلاسل متتابعة. وحين بات الركب في منطقة جبل شمّر، لاقت الجماعة رهقاً من الرجال المكلفين بحراسة الآبار، فلن يستطيع المرء الحصول على قطرة ماء إلا بإذنهم. وفي شمّر ادّعى شكسبير أنه وفد إلى المنطقة لشراء الخيل، فكان ذلك جواز مرور مقبول، حيث لم يلقَ اعتراضاً، ولكنه بات يشكو من تمرّد الأدلّاء المرافقين وهياج الريح التي قوّضت في ليلة الثالث والعشرين من إبريل خيامهم فباتوا في العراء تعصف بأجسادهم حبات الرمال. وفي هذه المنطقة جمع الرحالة حصيلة ما تنامى إليه من الظروف السياسية التي فرّقت بيت ابن رشيد وأخبار المذابح التي وقعت بين المتناحرين على السلطة في تلك المنطقة، وسجّل ما تناهى إلى سمعه ممّا أصاب زامل السبهان الوصي على سعود بن رشيد. فقد قام سعود المذكور "جرياً على عادة عائلته، وعملاً بتقاليدها، بقتل الشخص الذي ظلّ يعمل طيلة حياته لحمايته وذبح إخوته". وغادر الركب منطقة شمّر من دون أن يلج حائل في طريقه إلى البحر الأحمر والرحالة يواصل الكتابة في الخلافات الأهلية القائمة بين أمراء شمر وبينهم وبين الآخرين. وأدرك شكسبير أنه كان مُحقّاً في عدم المغامرة بدخول حائل، فالأوراق التي كان يحملها من ابن الصباح ما كان لها أن تفيده في شيء، خاصة بعد أن تبيّنت سلطات حائل علاقته بالرياض.

صادف شكسبير بعد ذلك شُحّاً في الماء في طريقه، لردم آل رشيد البئر الوحيدة في المنطقة نكاية ببعض أقسام الرولة الخارجة عليهم. ويحكي شكسبير عن العناء الذي وجده في تلك المنطقة حتى أورثه هزالاً عاماً. وفي ٢٦ إبريل، دخل شكسبير مدينة الجوف التي كانت مقرّاً

لتحالف ضمّ عنزة إلى الرولة، فغدا أميرها نوري الشعلان مستقلاً، وله من الأهمية ما جعل الأفرقاء يتودّدون إليه، فالحكام العثمانيون ورجال الشريف حسين في مكة المكرمة وآل رشيد في حائل وابن سعود كانوا جميعاً يدركون الموقع الاستراتيجي الذي يحتله الشعلان ومنعة تحالف قبائله، ولكن – في ما يعتقد شكسبير – نتيجة للعداءات التقليدية الموروثة، فإن ابن سعود يظل الحليف التقليدي لابن الشعلان. وعبّر شكسبير عن سعادته الغامرة حين استضافه ومجموعته نواف بن نوري الشعلان، شيخ الرولة من عنزة، الذي أكرمهم بوليمة عامرة بالأرز واللحم الشهي. ويكتب الرحالة بإسهاب عن الرولة وأصولهم وعاداتهم وقوتهم العددية والمادية، ويحصي إبلهم والوسم الذي تحمله ومكانه من أجسادها واختلافه عن وسوم إبل القبائل الأخرى، وينتهي إلى سرد الخلاف الذي وقع بين الرولة وأمراء شمر، ويرى أنه قد أضعف الطرفين تماماً. وفي الجوف لم يفصح شكسبير عن هويته الإدارية، وادّعى أنه طبيب، لكنه عجز عن تطبيب مجنون أتى به أهله إليه لمعالجته.

غادر الركب الجوف في ٣٠ إبريل مودّعاً منطقة النفود ليستشرف منطقة الحرّات التي تتميز بالحجارة البركانية السوداء. وهنا يمكن أن نترك الرجل ليواصل رحلته في أرض الحويطات ليلاً خشية من تعرض البعض له، واضطر إلى "أن ينحاز إلى عودة أبو تايه ذلك الرجل المرح الغدّار" الذي أدى بعدئذ دوراً كبيراً في حملة لورنس. ويبدو أن الرحالة لم يعرف من عودة أبو تايه سوى جشعه وطمعه، فهو في تقديره "لص محترف"، فقد جرّده أبو تايه من ماله حين أيقظه بعد منتصف الليل مطالباً إياه بهدية، و لم يتركه إلا بعد أن دفع له عشرين استرلينياً، و لم يبقَ مع شكسبير بعدها سوى سبع استرلينيات، واغتصب أبو تايه منه سرج ناقته المفضّض. وخاض شكسبير بعد ذلك جملة من المشاق والصعاب حتى غدا جسمه "كتلة تعب ونصب، كم تمنيت أن نمت نوماً أبدياً".

تمكّن الركب في مساء يوم ٢٥ جمادى الثانية ٢١/١٣٣٢ مايو من الوصول إلى نخل ثم إلى السويس في مسيرة استغرقت أربعة أيام. وفي الإسماعيلية التقى شكسبير كتشنر وريجنالد ونجت ليطلعهما على الدروب التي سلكها في شبه الجزيرة العربية ورسومه التي استحدثها والصور التي تمكن من التقاطها، ومجموعة تقاريره وملاحظاته، وأشار إلى أن خلاصة ما توصل إليه خلال رحلته هي أن ابن سعود هو القوّة الصاعدة في أفق الجزيرة العربية، وأن على الحكومة البريطانية أن تمدّ يدها إليه قبل أن يخرج عن مداها.

غادر شكسبير مصر إلى بريطانيا وأعدّ تقريراً عن سياسات زعماء شبه الجزيرة العربية قدّمه إلى حكومة الهند في ٢٧ رجب ٢٦/١٣٣٢ يونيو ١٩١٤، وضمّنه إعجابه بابن سعود "العسكري المحنك الذي لا يسعى للتعامل مع العثمانيين". وأكد شكسبير ثقة عبد العزيز به حتى إنه أطلعه على مراسلات سرية جرت بينه وبين السيد محمد الإدريسي أمير عسير، ويحيى، إمام اليمن،

ونوري الشعلان، شيخ الرولة. وعبّر شكسبير عن اعتقاده بأن القبائل العربية قد حزمت أمرها لمواجهة الأتراك، ورجّح قيام تحالف بين ابن سعود والشريف وأمراء حائل، وإمام اليمن، وأمير عسير، وإنشاء كونفدرالية عربية فضفاضة قد يكون ابن سعود على رأسها. وظلّ شكسبير - كلما لقي مسؤولاً عن السياسة التركية البريطانية - ينادي بالانحياز إلى ابن سعود.

كتبت التايمز في عددها الصادر في ٨ يونيو ١٩١٤ أن

> الكابتن شكسبير، الوكيل البريطاني في الكويت، قام برحلة من الكويت إلى البحر الأحمر ووصل إلى القاهرة بعد أن قطع حوالى ألف وسبعمئة ميل اجتاز خلالها الرياض وبريدة ومنها إلى البحر الأحمر، مستكشفاً هذه المنطقة الأخيرة التي لم يستكشفها قبله أحد. وقد استمرت الرحلة حوالى ثلاثة شهور ونصف الشهر لم يصاحب شكسبير فيها سوى بعض المحليين.

وأشارت الصحيفة إلى أن شكسبير سيقدم محاضرة عن رحلته أمام الجمعية الملكية الجغرافية. ونجد في ملفات وزارة الهند أن وزير الخارجية طلب في خطابه بتاريخ ١١ يونيو ١٩١٤ إلى تلك الوزارة ضرورة أن يطّلع بنفسه على أوراق المحاضرة قبل إلقائها على الجمهور. ولعل في ذلك ما يشير إلى خطورة هذه الرحلة والرحلات "الاستكشافية" المماثلة التي يجب ألا تصل أخبارها كاملة إلى الرأي العام. وقد شهد دوغلاس كاروثيرز، سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية، بأن تقارير رحلة شكسبير انتهت إلى رسم خرائط متقنة وشملت ملاحظات قيّمة صحّحت كثيراً من الأخطاء التاريخية المزمنة عن شبه الجزيرة العربية، وأدّت إلى حلّ العديد من المشكلات.

حين بدا دخول تركيا الحرب إلى جانب الألمان وشيكاً وأخذت تلك الدولة تنادي بالجهاد في أوساط العرب والمسلمين، استُدعي شكسبير وعُيّن ضابطاً سياسياً مسؤولاً مباشرة أمام كوكس، أمين الهيئة الخارجية لحكومة الهند، ومبعوثاً خاصاً لابن سعود. وقضت المهمة التي كُلّف بها العمل ما أمكنته الحال للتأكد من عدم قيام اضطرابات في المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية، وعدم مساندة تلك المناطق للدولة التركية في حال دخولها الحرب ضدهم. ولكن تركيا دخلت الحرب قبل وصول شكسبير إلى نجد، فسارعت سلطات الخليج البريطانية بالكتابة إلى ابن سعود تعترف له بوضعه الذي كان قد حازه في نجد والأحساء وتضمن له الدفاع عن أرضه ضد كل من يعتدي عليها براً وبحراً، وتعلمه بزيارة شكسبير الوشيكة لتنظيم تلك العلاقة وتوثيقها. ووجد ابن سعود في ردّه على البريطانيين الفرصة لكسب سياسي أشمل، فطالبهم بأن يكون ضمانهم لوضعه شأناً دائماً غير مقصورعلى فترة الحرب فقط.

وصل شكسبير إلى الكويت في ١٩ المحرم ١٣٣٣/٧ ديسمبر ١٩١٤ والتقى ابن سعود في

١٢ صفر/٣١ ديسمبر في معسكره في الخفجي الذي ضمّ ستة آلاف مقاتل من سدير والعارض وجملة من القبائل. وقد أبلغ ابن سعود الوكيل البريطاني استياءه من جراي، وكيل الكويت، الذي ظلّ يؤكد له السياسة البريطانية التي تدعوه إلى عدم الخروج على الأتراك، وألا ينتظر مساعدة من بريطانيا إذا عمل على الخروج عليهم. وطمأن شكسبير مضيفه بأنه جاء لتنفيذ سياسة جديدة تستجيب لكل ما يطلبه منهم. وكتب الوكيل من فوره إلى كوكس يطالبه بسرعة الاستجابة لما يطلبه ابن سعود الذي يثق بالحكومة البريطانية من دون سواها من الحكومات الأخرى، ولكنه – مع ذلك – يضع الأتراك بديلاً ثانياً في حال فشل البريطانيين في الاستجابة لمطالبه. ويكيل شكسبير المدح لعبد العزيز الذي كان يقدّر فيه – كما جاء في تقاريره – حماسته الوثّابة وإيمانه العميق بدينه ووطنيته التي تدفعه للعمل على أن يعيش شعبه في سلام واستقرار. ولم تكن مطالب ابن سعود تكلّف البريطانيين سوى الاعتراف به حاكماً مستقلاً استقلالاً كاملاً، على أن يتعهد في نظير ذلك بعدم الدخول في أيّ علاقة مع أيّ قوة دولية أخرى إلا بموافقتها. ووافقت حكومة الهند على صيغة اتفاق ليفاوض شكسبير ابن سعود على أساسه. ويمكننا اعتبار تلك الشروط بداية انتهى إليها اتفاق دارين في ١٩ صفر ١٣٣٤/٢٦ ديسمبر ١٩١٥ الذي لم يعش شكسبير ليوقّع عليه.

رافق هذا الوكيل ابن سعود في المعركة التي خاضها في جراب رغم نصيحته له بعدم مرافقته، كذلك رفض نصيحة ابن سعود له بتبديل ثيابه الأوروبية بأخرى عربية. واتخذ الرجل موقعه خلف تلّة في أرض المعركة بقرب أحد مدفعيي ابن سعود ومعه منظاره وآلة تصويره، لكنه لم يكن متسلحاً بحال. وحين اشتد أوار المعركة في يوم ٨ ربيع الأول ١٣٣٣/٢٤ يناير ١٩١٥ انسحب العجمان من الساحة فاضطربت صفوف ابن سعود، وترك المدفعيون أماكنهم، وأصيب شكسبير في رجله أولاً ثم وقع أسيراً لفرسان ابن رشيد فاقتادوه "إلى حيث لا ندري". وهكذا طويت صفحة شاب مغامر، ثاقب للنظر، شجاع، عمل بجد وإخلاص من أجل إعلاء راية وطنه في قلب شبه الجزيرة العربية. وقد ساعدت خرائطه ورسومه وصوره، وأبحاثه التي خلّفتها رحلاته في شبه الجزيرة العربية، وملاحظاته الدقيقة عن شيوخ شبه الجزيرة العربية وزعمائها، الإمبراطورية البريطانية لبلوغ نصر رخيص سريع في المنطقة في فترة الحرب العالمية الأولى. فقد جعل المكتب العربي في القاهرة تقارير الرحالة الغربيين من أبرز اهتماماته لما تكشف عنه من طوبوغرافيا، في وقت لم تكن فيه الآليات والتقنيات قادرة بعد على هزيمة الطبيعة الجغرافية القاسية للجزيرة العربية، ولما ورد في تلك التقارير أيضاً من رصد لمواطن القبائل وأعداد المقاتلين فيها والعوامل التي تحرك بدو الجزيرة وحضرها للتعاون مع الغربيين أو معارضتهم. وكانت تقارير الرحالة الأقرب زمناً هي الأبلغ فائدة لمعاصرتها، ومن هنا جاء اهتمام هذا المكتب بما كتبه الرحالة الدنماركي أندرس كرستيان باركلي راونكيير.

باركلي راونكيير

رشح أول الأخبار عن هذه الحملة الاستكشافية الدنماركية في ٨ ذي القعدة ١٣٢٧/ ٢١ نوفمبر ١٩٠٩، فقد أبرقت البعثة البريطانية في كوبنهاغن إلى السير إدوارد جراي، وزير الخارجية البريطاني، بأن صحيفة دانيبورج أوردت بياناً رسمياً صدر عن الجمعية الملكية الجغرافية الدنماركية عن تخطيطها لإرسال بعثة في عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م إلى المناطق المجاورة للخليج الفارسي. كذلك نشرت الصحيفة في هذه المناسبة مقابلة مع الأمين العام للجمعية. وأضاف السفير أن الجنرال ريشيليه سيكون رئيساً للجنة الإعداد لهذه البعثة، وتضم اللجنة أيضاً الهر كلوستادوت، وكلا الرجلين من أصحاب المال والأعمال ومن ذوي الارتباطات الوثيقة بالبنوك، ولهما استثمارات في المشروعات الصناعية في سيام. ونقل السفير البيان الذي أوردته الصحيفة كاملاً وقد جاء فيه:

> لقد أخذت الجمعية الجغرافية الملكية على عاتقها المبادرة إلى إرسال بعثة استكشافية لتفقّد المناطق الواقعة حول الخليج الفارسي بهدف دراسة أحوالها الإثنوجرافية والطوبوغرافية والحياة النباتية وكافة ما يتصل بمجال الأنثروبولجيا الوصفية في تلك الأصقاع. إن قيام هذه البعثة العلمية سيكون إنجازاً رائعاً يحسب لهذه الجمعية. ومن دون الدخول في التفاصيل، فإن هناك مناطق قليلة من العالم لها ما لتلك المناطق من الثراء المادي الذي يستدعي الدراسة والتمعّن. فهل يمكن هذه البعثة أن تصبح حقيقة؟ لا شك في أن ذلك سيعتمد على الدعم الذي سيقدمه الأشخاص الذين جرى الاتصال بهم. ويحدونا الأمل بأن يجد المشروع الدعم ليضيف هذا العمل إلى فخار هذه الدولة المعطاءة ويعود عليها بالنفع.

وينقل السفير البريطاني عن الصحيفة أن مندوبها اتصل بالأستاذ أوليفسون ليحصل منه على تفاصيل إضافية، إلا أنه رفض أن يجيب عن الأسئلة، فقد كانت شفاهه مغلقة "بسبعة أقفال"، و لم يجب إلا عن سؤال بخصوص موعد انطلاق الحملة حيث قال: كل ما أستطيع التصريح به لكم أن الجمعية شرعت تعدّ العدّة لانطلاقها في خلال عام ١٩١٠م، وذلك بمجرد أن تتمكن من الحصول على التمويل اللازم. ونفى الأمين تكفّل الدولة بالتمويل، وأفاد بأنهم طلبوا الدعم المالي من الجمعيات الأهلية ومن أشخاص بأعيانهم، كما أفاد بأن خبيراً في شؤون التجارة سيكون ضمن أفراد البعثة.

نظرت الحكومة البريطانية في أضابيرها فاتضح لها أن الجنرال ريشليه هو مدير الشركة

الآسيوية الشرقية المحدودة، وله في سيام عدّة مشاريع. فهو مساهم رئيس في خط حديد سيام، كما حصل على امتياز تشغيل "الترام" في سيام، وجمع ثروة هائلة من هذه النشاطات، وأصبح عضواً في مجالس عدد من البنوك الدنماركية. ودلّت تحرياتهم أيضاً على أن الرجل قريب الصلة بملك الدنمارك، كما أنه صديق شخصي لولي العهد، وله نفوذه في البلاط الملكي وفي الدوائر السياسية في الدنمارك عموماً، وأنه رفض قبول منصب وزير التجارة والزراعة في بلاده، واعتذر عن عدم قبوله بانشغاله بأعماله التجارية التي لا تترك له فرصة للعمل في السياسة. وكشفت التحريات أنه يسكن "فيلا" في كوبنهاغن، وله في الدنمارك منزل ريفي كان في ما مضى ملكاً لملك اليونان. وتضيف المعلومات أنه يعارض المشاريع البريطانية الاستثمارية في سيام ويعتبرها نوعاً من السرقة. ويقول السفير البريطاني في بانكوك إن ريشلييه كان قد حضر أخيراً احتفال عيد جلوس الملك في سيام، ما أثار شكوكه في الهدف من حضوره هذه المناسبة التي لا تستدعي من رجل مثله قطع هذه الرحلة الطويلة لحضورها. ويضيف السفير في بانكوك أنه يعتقد أن زيارة ريشلييه لملك سيام الذي تجمعه به علاقة حميمة تتصل بمعارضة النشاطات البريطانية التي قد تؤثر في أعمال شركة شرق آسيا (الدنماركية المحدودة). وربما انتهز ريشلييه هذه المناسبة لتسميم أفكار الملك المتأرجح في علاقاته بالبريطانيين لتعطيل المصالح البريطانية. ويقول السفير البريطاني إنه أوضح للرجل أن النشاطات البريطانية لا تمسّ بحال مصالح الشركة الشرقية ولا تعارضها. ويضيف السفير هدفاً آخر يرى أنه ربما كان سبباً في حضور ريشلييه مناسبة ذكرى تتويج الملك، فلربما أوفدته الدنمارك التي تعاني في ذلك الوقت من مصاعب مالية للحصول على قرض من سيام، وأبدى السفير الشك في أن تتمكن الخزينة العامة في سيام من الوفاء بتقديم مثل تلك المساعدة.

لم تقم الجمعية الجغرافية الدنماركية حتى عام ١٩١١م بخطوات جادة لتنفيذ ما أعلنته من قيام رحلتها الاستكشافية، ولكنها عادت في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٢٩/٢٩ إبريل ١٩١١ ونشرت في صحيفة (بوليتيكن) السياسية أنها بصدد إرسال بعثة استكشافية إلى شبه الجزيرة العربية للنظر في سبل تطوير تجارة الدنمارك

> في تلك الأراضي المجهولة من شبه الجزيرة العربية ودراسة مسالكها. ولتحقيق هذا الهدف المزدوج ستقوم هذه البعثة إلى الخليج الفارسي لتبدأ مهمتها من مسقط في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية وتستكشف عمان وحضرموت، وتتابع ما بدأه الرحالة الدنماركي الشهير كرستين نيبور الذي سافر عبر شبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر.

وأضافت الصحيفة:

بما أن تلك المناطق تقع تحت النفوذ البريطاني، فإن الجمعية ستعمل للحصول على الحماية البريطانية لعضوي البعثة المقترحة، وهما ديفيدسون وراونكيير، وستعمل الجمعية لاحقاً على تسمية آخرين من الجنسية الإنجليزية للحاق بالبعثة.

وأكملت أن الضابط ديفيدسون سيعدّ خرائط لتلك المناطق التي يحكمها بعض السلاطين، وستتحرى البعثة عن استكشافات في مناطق الحضارات القديمة "مملكة سبأ"، وستعثر، من دون شك، على العديد من النقوش والآثار المهمة. وقرّظت الصحيفة باركلي، عضو البعثة الذي وصفته بالكفء والذكي رغم صغر سنّه، فهو مختص في دراسة الجغرافية التجارية، وأشارت إلى أنه سيعكف على دراسة أحوال المواطنين هناك وعاداتهم وتقاليدهم، وما يمكن تلك المناطق أن تقدّمه في المجال التجاري، وسيستكشف ويتحرى عن المجالات التي يمكن الاستثمارات الأوروبية أن تعمل فيها في ذلك القسم من شبه الجزيرة العربية الذي يمثل "مستودعاً أو مقرّاً" للعديد من المنتجات مثل القهوة والتمور والفاكهة الشرقية العديدة، أو بعبارة أخرى "جميع تلك السلع التي نحتاج إليها ويحتاج إليها الآخرون". وأضافت الصحيفة أن "الجهود التي بذلت للدخول في علاقات وثيقة مع تلك المناطق غير كافية ولا وافية، رغم أن بواخر شركة آسيا الشرقية (الدنماركية) تمرّ بالقرب من سواحلها". وتنبّأت الصحيفة بأنه في هذه المنطقة وفي غيرها من المناطق المتعددة من العالم لم يمكن الهمّة الدنماركية أن تجد لها مجالاً خصباً للتعامل التجاري وللدفع بكافة أنماط الاستثمارات الدنماركية قُدُماً. وانتهت الصحيفة إلى أن البعثة يمكن أن تسافر إلى عدن ببخاريات الشركة الدنماركية، ويمكنها الوصول من هنالك إلى مسقط وظهيرها مستعينة في رحلاتها بالجهود التي يمكن أن يقدمها لها أهل تلك المناطق.

تقدّمت الجمعية الدنماركية في ٩ جمادى الثانية/٧ يونيو بخطاب إلى وزارة الخارجية البريطانية عن طريق بعثتها في كوبنهاغن تعلمها بأنها في صدد القيام بإرسال بعثة علمية في أكتوبر إلى مناطق عمان وحضرموت. و"بما أن تلك المناطق تقع في دائرة النفوذ البريطاني، فإن الجمعية ترجو من تلك الحكومة تقديم المساعدة والحماية لمبعوثيها". وورد في الرسالة أن البعثة التي تضم ديفيدسون الضابط في البحرية الدنماركية، وباركلي الذي يتقن العربية، ستغادر في أكتوبر، وقدّرت الجمعية أن تستغرق عودة البعثة إلى كوبنهاغن مرة أخرى حوالى ستة شهور. وحددت الجمعية في خطابها إلى الخارجية البريطانية مسقط كقاعدة لعمليات

> البعثة تنطلق منها لاستكشاف المناطق المحاذية لها، وتلك التي تقع في ظهيرها في اتجاه الصحراء "الكبرى"، إضافة إلى منطقة حضرموت المجاورة لعمان، أي إن المنطقة المستهدفة هي منطقة جنوب شرق شبه الجزيرة العربية. وأضافت الجمعية أن مهمة البعثة علمية صرفة، فهي تهدف إلى استكشاف تلك المناطق غير المستكشفة والمناطق الأخرى التي لا يوجد عنها سوى القليل من المعلومات. وأفادت بأن البعثة ستعمل على دراسة المجالات الجغرافية والإثنولوجية والحياة البيئية واستكشاف المناطق الآثارية. وأضافت الجمعية أن البعثة ستبحر إلى عدن في سفينة دنماركية، قد تكون إحدى البخاريات التابعة لشركة خطوط الأطلنطي الشرقية، ثم تواصل رحلتها بعدئذ إلى مسقط على متن إحدى السفن الإنجليزية لتبدأ مهمتها من هناك.
>
> وبما أن الساحل بين عدن ومسقط يقع ضمن نفوذ المملكة المتحدة، فإن البعثة لن تتمكن من العمل هناك إلا بإذن من الحكومة البريطانية وحصولها على الدعم اللازم من ممثلي الحكومة البريطانية في تلك الأماكن...

وأحال السفير البريطاني هذا الخطاب على لندن مع تعليق يشير إلى أن هذه الجمعية تتمتع برعاية ولي عهد الدنمارك. كذلك كتب السفير في ١٤ يونيو إلى لندن مرة أخرى يبلغ الوزارة أنه تلقى زيارة من الأستاذ أوليفسون والأدميرال ريشلييه بشأن هذه البعثة التي يدّعي الأدميرال أن مهمتها علمية صرفة، وأنها لا تسعى للحصول على مكاسب اقتصادية ولا على أي نوع من أنواع الفوائد المادية أو السياسية، نافياً بذلك ما كانت الصحافة قد نشرته سلفاً. وأكّد الأدميرال أن متابعة الأبحاث التي قام بها نيبور وتتبع المواقع الآثارية ودراسة المنطقة بيئياً هي غاية ما تسعى إليه هذه البعثة التي ستتلوها بعثة علمية أخرى في مدى ثلاث سنوات لاستكمال البحث العلمي، وأضاف أن النتائج العلمية التي ستتوصل إليها البعثة ستنشر في كتاب باللغة الإنجليزية يوضع تحت إمرة الحكومة البريطانية، واعتذر ريشلييه عمّا ورد في الصحافة من أن البعثة ستضم عدداً من الإنجليز.

بطبيعة الحال، كان الرفض هو الرد المتوقّع من الحكومة البريطانية التي تقوم سياستها على إغلاق المنطقة أمام أي وجود دولي مغاير، لكنها أوردت الرفض بصيغة اعتذار جاء فيه أنها لم يسبق لها أن سمحت لموظفيها العاملين في تلك المناطق ولا لرعاياها بارتياد المنطقة التي ترغب الجمعية الدنماركية في استكشافها، ولذلك فإنها لن تتمكن من تقديم التسهيلات المطلوبة أو الحماية اللازمة لأفراد البعثة. وأبلغ غرين، السفير البريطاني في كوبنهاغن، هذا الرد للجمعية التي - كما يقول في خطابه إلى لندن - تلقّته بعدم الرضى، لأنها كانت قد فرغت من وضع خططها ونشرت برامجها وجمعت المال اللازم للقيام بالرحلة. وأفاد السفير بأن ديفيدسون،

الرئيس المكلف للبعثة، قد استقال من الخدمة العسكرية وأزمع السفر على حسابه الخاص إلى مصر لتعلّم اللغة العربية في حوالى سنتين، وأنه سيغادر من هناك ليستكشف الصحراء في شبه الجزيرة العربية. أما باركلي راونكيير فقد غادر كوبنهاغن في يوم ١٢ يوليو إلى إستانبول، ومنها إلى حلب وعبر وادي الفرات إلى البصرة للقيام بدراسات في مجاورتها، وقد سمحت له الحكومة العثمانية بالقيام بهذه الرحلة التي ستستغرق منه ستة شهور. ويكتب قنصل البصرة البريطاني بعد ذلك في ٢٤ صفر ١٣٣٠/١٣ فبراير ١٩١٢ إلى السفير البريطاني في إستانبول بوصول راونكيير إلى البصرة في الثاني من صفر/٢٢ يناير، وعن لقاءاته المتكررة بوالي البصرة وتخاطبهما باللغة الألمانية التي يتحدثها الوالي بطلاقة، ويفيد بأن راونكيير غادر البصرة إلى الكويت عن طريق الزبير في يوم ٢٧ يناير متنكراً في ثياب عربية. "لم يتيسّر لي التحقق من طبيعة مهمة هذا الرجل، ولكني سأبلغ الوكيل السياسي في الكويت لمراقبة تحركاته". وأبلغت وكالة الكويت المقيم في بوشهر عن وصول راونكيير إلى الكويت.

ولد باركلي في ١١ ربيع الأول ١٣٠٧/١١نوفمبر ١٨٨٩ في كوبنهاغن في أسرة عريقة مرموقة، وكان الابن الوحيد لعالم النبات الدنماركي كريستيان س. راونكيير الذي كان له عدد من الأبحاث المنشورة في هذا المجال، من زوجته أنجبورج التي كانت امرأة مثقفة شاركت زوجها في اهتماماته العلمية، وكثيراً ما تولّت عنه رسم أشكال النباتات. كذلك عُرفت هذه السيدة أيضاً بأنها أديبة ناقدة شاركت بالكتابة في العديد من الصحف، وألّفت بعض الكتب، كما ترجمت عن الإنجليزية شعراً لبعض الشعراء الأمريكان. درس باركلي الجغرافية في جامعة كوبنهاغن التي تخرّج فيها في عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ثم رافق والده في عام ١٣٢٧-١٣٢٨هـ/١٩٠٩-١٩١٠م إلى تونس في مهمة علمية تمكّن باركلي خلالها من دراسة الجغرافيا الثقافية للزراعة التونسية، خاصة في ما يتصل بوسائل الري.

وصل باركلي إلى سوريا عن طريق إستانبول ثم عبر إلى بلاد ما بين النهرين، وفي بغداد استأجر مرافقاً اسمه حنا، كذلك غيّر باركلي اسمه إلى علي تمويهاً وتدليساً. وصل علي وحنا إلى البصرة ومنها إلى الزبير فسفوان ثم إلى الجهراء التي هي قرية يسكنها نحو خمسمئة نسمة. ويذكر راونكيير أن الجهراء تُمثّل الموقع الأول في "بلد مبارك". وكان الرجل على دراية بأن الكويت التي دخلها لتوّه تمثل نقطة "شدّ وجذب بين إنجلترا وألمانيا في الشرق".

كانت الخطة المقترحة للرحلة من قبل الجمعية الجغرافية تقضي بأن يغادر باركلي الكويت بحراً إلى البحرين، ليبحر من هنالك إلى الهفوف فيستكشف إقليم الأحساء، على أن يوغل ما أمكنه ذلك إلى الغرب والجنوب الغربي لاستكشاف الأطراف الشمالية لجنوب شبه الجزيرة العربية. وتركت الجمعية للرجل خيار أن يُعدّل طريقه بعدئذ بما يراه مناسباً. وتفيد مفكرات الوكالة السياسية البريطانية في الكويت عن الأسبوع المنتهي في ٢٦ صفر ١٣٣٠/١٥فبراير

١٩١٢ بأن "الدنماركي لا يزال هنا يخطط للسفر مع قافلة بريدة في الأيام القليلة المقبلة لزيارة بريدة ثم عنيزة فالرياض، وسيتحرك من هنالك إلى الهفوف لينتهي إلى البحرين". وأفادت المذكرة بأنه كان ينوي السفر من الكويت برّاً إلى الهفوف، ولكنه لم يتمكن من ذلك نتيجة الاضطرابات التي تلفّ المنطقة، وأضافت أنه يهدف من رحلته إلى تقديم مسح أوّلي لتستهدي به بعثة مزمعة سترسلها الجمعية الدنماركية للقيام بدراسات علمية مختلفة، ولكن المعدات التي في حوزته غير كافية للقيام بهذه المهمة.

كتب راونكيير كتابه: **عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل** الذي صدر في كوبنهاغن في عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م، كما صدر منه أيضاً عدد محدود من النسخ المترجمة إلى الإنجليزية في عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م لاستعمال المكتب العربي في القاهرة. وفي اعتقادنا أن العنوان لم يكن دقيقاً، فقد خصّ صاحبه الكويت بحوالى ثلث عدد صفحات كتابه، و لم يكن على ظهر جمل حتى ذلك التاريخ، إضافة إلى أن أكثر من نصف ما بقي من كتابه لا يزيد على نقولات عن رحلات من سبقوه اعتباراً من لويس بيلي إلى بالجريف. وكنا حين نقرأ له نرى شبح شارلس دواتي يرافقة مرافقة الظل لا يغادره إلا حين يبدو لنا شبح بيرتون، وهكذا تتوالى أشباح السابقين له من الرحالة الأوروبيين، الواحد منهم تلو الآخر. و لم ينكر راونكيير في مقدمة كتابه أن روايته "اكتسبت لوناً" من كتابات من سبقوه، وخصّ بالذكر بالجريف وبيلي، وإن دمغ كتابات من سبقوه بالسطحية. واستشهد باركلي في العديد ممّا رواه بنولدة، الرحالة الألماني. وأشار إلى ما يعتري كتابه من قصور، واعتذر عنه بأنه لم يتمكن من التقاط صور ضوئية خشية من أن يثير الريبة، وأنه استعاض عن ذلك بالرسوم، إلا أنها لم تكن بالدقة التي توخّاها. أما خرائطه، فيعترف بأنها لم تكن دقيقة بالقدر الذي أراده لها. و كان الرجل – على خلاف من هم على شاكلته – صادقاً حين قال إنه يدرك أنه لن يتمكن من أن يكون محايداً مهما اجتهد، فالعطف الذي وجده من البعض والتحامل الذي وجده من البعض الآخر، إضافة إلى المرض الذي عاناه خلال رحلته منذ بدايتها في الكويت إلى نهايتها في العقير، والإرهاق الذي أصابه وكافة المصاعب التي اعترضته، لا بد لها أن تكون قد تركت ظلالها على روايته. ولربما نأخذ عنه ما خلص إليه في نهاية رحلته من أن:

> كل ما هو موجود في شبه جزيرة العرب من ميت أو حي يمثّل خطراً للغريب الذي يفد إليها، ومع ذلك فإن هذه الأرض تسلب بسحرها الباب من يجرؤ على اقتحامها، خاصة إذا خرج من مغامراته فيها سليماً، فيستطيع حينها أن يُقدّر سحرها ويستعذب غموضها. فهذه الأرض تستدعي منا المزيد من المعرفة، لأنها الأرض التي ازدهرت فيها أقدم الحضارات، ما يستوجب علينا إزالة غبار النسيان عنها.

وفي تقديرنا أن هذا الرحالة قد لخّص لنا دأب كافة الذين سبقوه وأتوا من بعده من الرحالة. قال كلهم بغموض شبه الجزيرة وبغرائب ما تضمّه من أرض وسماء وإنسان وحيوان، واتفقوا جميعاً على وصم إنسانها بالبدائية، وإن اعترف له أغلبهم بأنه ابتدع أصول الحضارة الإنسانية، لكنه توقف عند تلك البدايات، كما أكد جميعهم أن الرومانسية التي تغمر تلك الأرض هي التي استدعت قيامهم بما قاموا به من الرحلات، وأجمعوا على أن الرحلات في شبه الجزيرة قاسية شاقة خطرة، ولكن قد كان لهم من شجاعتهم ما أهّلهم لمجابهة تلك المخاطر.

يرى راونكيير أن حدود الكويت تمتد من "المناطق الواقعة شمال الجهراء على طول وادي الرمة إلى بئر الحفر، ومنها إلى بئر الرصافة، ثم بئر الوبر ومنها إلى الخليج الفارسي حول رأس تناقيب". وتخيّم قبيلة العجمان في فصل الصيف جنوب الكويت، فيما تخيّم قبيلة مطير إلى الجنوب منها. أما القبائل التي تعترف بحكام حائل، فتقيم إلى الشمال من الجهراء. ويحدثنا عن النزاع بين حائل والرياض فيقول إن الأولى مدعومة بالدولة العثمانية، بينما الثانية يدعمها مبارك. ويضيف أن مبارك يرفع العلم التركي الأحمر الذي يتوسطه هلال أبيض ونجمة بيضاء، كما أنه يحمل وظيفة القائمقام التركية، ولكنه في حقيقة الأمر خارج على تلك الدولة منحاز إلى البريطانيين الذين لهم ممثّل في الكويت، فيما لم تتمكن الدولة العثمانية من إرسال ممثل رسمي لها إلى هناك. وأضاف أن البريطانيين يهتمون بالكويت لما لها من أهمية سياسية في تشابك المصالح بين إنجلترا وألمانيا في الشرق الأدنى، لموقعها الاستراتيجي،

> فهي تمثل الموقع الأمثل لنهاية خط حديد بغداد الذي يُبنى بأموال ألمانية، ولكن وضع الكويت الحساس منع وصول الخط من دون موافقة بريطانيا العظمى... غدت الكويت مكان شدّ وجذب بين إنجلترا وألمانيا في الشرق... أزمعت تركيا ضمّ الكويت فمنعتها بريطانيا حين أرسلت أسطولاً إلى ذلك الميناء...

ويضيف باركلي أنه حين قال لمبارك إنه إنجليزي التطلّعات لكنه – مع ذلك – ممتنّ للرعاية التي وجدها من المسؤولين الأتراك خلال رحلته، أثارت مشاعر امتنانه للعثمانيين ريبة في نفس الشيخ لم يبدّدها إلا تدخل شكسبير، الوكيل البريطاني في الكويت.

وصف باركلي قصر الشيخ بمعماره السائد في العراق وفارس والمكوّن من ثلاث وحدات هي: سكن الشيخ وحريمه، ومنزل الحرس والخدم والعبيد والضيوف، وبيت الحكومة. ووصف الشيخ بأنه رجل ناهز الثالثة والسبعين من عمره، متغضّن الوجه لكنه بادي الحيوية. يخرج مبارك صباحاً في طريقه إلى مجلسه في إحدى البنايات المجاورة للسوق في عربة يجرّها حصانان، يتقدمها بعض حراسه ويسير خلفها زنجي ضخم في زي رسمي أزرق يعتلي صهوة حصان أبيض وهو شاهر بندقيته، ويشقّ الموكب طريقه إلى المجلس عبر السوق الذي يستظلّ شارعه بسعف

النخيل. فإذا فرغ الشيخ من أعمال مجلسه، فإنه عادة ما يعود إلى مسكنه، وتراه ساعتها يجلس في شرفة تطلّ على الخليج وإلى جانبه علبة "سجائره" المرصعة بالألماس، التي تضم "سجائر" بغداد الطويلة، وهو يتطلع إلى مياه البحر التي تتلوّن وتتبدّل بتبدّل أوقات النهار أو كلما هبّت عليها رياح، يراقب بمنظاره القوارب التي تجوب الميناء. فإذا حان وقت القيلولة في الفترة من منتصف النهار إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، هدأت الحركة حيث يهجع كل حي في الكويت، فلا تكاد تسمع في البلدة حسّاً سوى طنين أجنحة الذباب الذي يخيّم على أعين الرجال والسوائم الغافية، فيتعالى بذلك طنينه ويزداد. ويصحو القصر بعدئذ على رنات "هاون" القهوة، وينسلّ الشيخ من جناح الحريم ليأخذ مكانه في مجلسه في سرايا الحكومة ليتناول القهوة مع زواره. يجلس الشيخ على أريكة مرتفعة في صدر هذا المجلس، بينما يجلس الزوار على أرائك خفيضة على الجانبين، ويقدم الشيخ "السجائر" لبعض من هؤلاء. فإذا انفضّ الجمع سار الشيخ إلى السوق الذي لا يعود منه إلا مع مغيب الشمس لأداء صلاة المغرب وتناول الوجبة الرئيسة.

يصف راونكيير سوق الكويت وما جاوره، ويعدّد صادرات البلدة من الصوف وجلود الأغنام الجافة بعد معالجتها بالملح. أما ما تستورده الكويت فيتمثل في الثياب البيضاء التي تأتيها عبر عدن من شركة بوسطن التي لها مركز توزيع هناك، كما تردها أقمشة إنجليزية ملوّنة يصنعون منها أغطية الرأس (الشماغ). وتستورد الكويت السجاد من إيران، والنحاس من بغداد وبومباي، والبن من جاوة، والكبريت من أوستراليا، ولكنه يلاحظ أن الكبريت السويدي أخذ يحل مكان الكبريت الأوسترالي، كما يستورد أهل الكويت البهار والزبد والشاي والسكر والفاكهة والفحم، وتأتيهم التمور والخضر من الفاو، ويلاحظ أن أهل الكويت استهلاكيّون. ويلجأ راونكيير إلى التعميم حين يقول إنّ العرب – شأنهم شأن الغنم – تراهم يتدافعون وراء كل جديد. ويعمى هذا البهيم، وهو في ضيافة من يسارع إلى سبّهم، عن أن الأغنام لا تفرّق بين الجديد والقديم. ويشير باركلي إلى أن خزينة الشيخ تقوم على ريع الجمارك والرسوم التي يتقاضاها أحد عماله من السوق. يتحصّل هذا المندوب على أربعة أنات ونصف عن كل نعجة أو معزة تُباع، ومن ربية إلى أربع عن كل حمار بحسب حجمه، وتصل الرسوم الموضوعة على بيع الإبل إلى عشرة في المئة من قيمة البيع التي تتراوح عادة من خمسة جنيهات لإبل الأحمال إلى خمسة وعشرين عن المطايا. ويضيف أن تجارة العبور (الترانزيت) في الاستيراد والتصدير نشطة جداً في الكويت، فهي لا تخدم مناطق ما بين النهرين فقط، ولكنها تصل إلى قلب شبه الجزيرة العربية. فهي المنفذ البحري الأكثر ملاءمة على امتداد المنطقة الساحلية من الخليج وصولاً إلى دبي. فمياه السواحل على طول هذه المنطقة حتى البحرين ضحلة جداً. أما منفذ دبي، فإن هبوب الرياح القوية في تلك المنطقة عليه وما تثيره من أمواج عاتية، إضافة إلى "شخصية سكان تلك المنطقة" تجعل الميناء منفذاً غير ذي جدوى لوسط شبه الجزيرة الغربية، يضاف إلى

ذلك أن الأتراك يضعون جمارك عالية في المنافذ البحرية التابعة لهم في هذا الساحل، كما أنهم يصادرون سلاح القوافل الذي تستعمله لردع البدو فيحرمونها بذلك حقّ الحماية والدفاع عن النفس. وينتهي هذا الرحالة إلى إدانة حقّ تركيا في حكم أراضٍ عربية، فهم "غير جديرين بذلك ويفتقرون إلى الكفاءة اللازمة".

سوق الكويت نشط بيعاً وشراءً، كذلك هو يمثل نقطة انطلاق للقوافل الغادية والقادمة، تراه يزدحم بالحركة الدائمة، فلا تكاد تسمع فيه غير الزعيق والصياح، "فالعرب لا يستطيعون القيام بعمل ما من دون زعيق وصراخ، ما يزيد في طلب المشروبات" لترطيب الحلوق التي تجفّ من الزعيق. وعلى ذلك تنتشر المقاهي التي تقدم الشاي والقهوة والنارجيلة في السوق. وهناك مقهى مركزي في هذا السوق يؤمّه كبار التجار ورؤساء القوافل وأفراد أسرة الشيخ. وتمتد هذه الحركة التي لا تهدأ إلى أطراف السوق حيث تنتشر في غير انتظام خيام البدو السوداء اللون، ويختلط ذلك بجماعات الأطفال والخراف والنساء، تراهم في أكوام مكدسة تفترش الأرض تحت أشعة الشمس الدافئة. ويقع بالقرب من تلك الساحة سوق الفحم الذي يُستورد غالباً من إيران، وترى الحمير وهي تحمل زكائب مجدولة من سعف مليئة بتلك السلعة. وإلى الشمال من السوق يوجد سوق صغير أغلب البائعين فيه من النساء "اللائي تخفّين بالكامل تحت أغطية كثيفة سوداء تنفرج بين حين وآخر عن لون قرمزي يبدو خلسة من خلف الغطاء. ولا تزيد محال البيع التي تؤوي تجار هذا السوق عن "أعشاش" هى عبارة عن عصي غرست في الأرض ووضعت فوقها أكوام من السعف، يعرض البائعون أمام هذه الأعشاش سلعهم التي تتألف من تمر يحاول البائعون طرد الذباب عنه من دون أن يفلحوا في ذلك، وفاكهة و إقطا وكمأة جُلبت من المناطق المجاورة للكويت، ولحم تمكن العفن من سطحه، و" قُرَب" لامعة تنضح سمناً، وصنوف متعددة من المأكولات لا يستبين المرء مكوّناتها لكنها "تثير الفضول أكثر مما تثير الشهية". كذلك تباع في هذا السوق أيضاً العبي الصوفية، وهناك نوع خفيف منها يُلبس في الصيف.

يقوم اقتصاد الكويت على صيد اللؤلؤ. يتوافد العرب عند بدء الموسم إلى الكويت من كافة المناطق المحيطة بها، من العراق ومن قلب شبه الجزيرة العربية ومن إيران مدفوعين،

> بحب المغامرة أكثر منه الحصول على المكسب أو الحصول على الأجر... إن كل مقتنيات هذا الغواص لا تزيد على طمرين باليين يلبسهما عند الغطس، وليس له من حطام الدنيا شيء سواهما يفقده أو يخاف عليه. ولا يحصل الغواص إلا على طعام قليل وأجر ضئيل في مقابل أن يقضي صيفاً طويلاً حاراً في الماء الذي تكتنفه الصخور الكثيرة في منطقة شمال البحرين، فيعاني قاربه من الارتطام بها

ويقاسي الغواص ويلات الرطوبة الخانقة، ويكابد مواجهة العواصف البحرية التي تهبّ فجأة ثم تنكسر، ثم تجده لا يعود من كل هذا العنت بعد انتهاء الموسم إلا بأجر تافه القيمة يتحفه به صاحب القارب.

ويرى راونكيير في صيد اللؤلؤ "مهنة سقيمة". ويذكر أن دماء الغواصين يمكن أن تهدر لأسباب أخرى في موسم الغوص، من دون أن تكون متعلقة بمخاطر المهنة. فهناك الخلافات الطائفية بين الشيعة والوهابيين التي تقود إلى شجار دموي إذا جرى بين الطرفين تلاسن، أو قد ينشأ الخلاف بين الغاصة بعضهم مع بعض من دون سبب يذكر.

يرى راونكيير أن تجارة السلاح تمثّل جانباً من اقتصادات الخليج، لكنه يُبرّئ أهل الكويت من ممارسة العمل بها، ويردّ ذلك إلى أن السلطة في الكويت "أوتوقراطية جمعها في يد رجل واحد له مقدرة على كسر أيّ معارضة، ما جعل الكويت تنعم بأمن تفتقر إليه مناطق ساحل الخليج الأخرى". ويلاحظ أن السلاح الفاسد المعيب يأتي عبر عدن ومن جيبوتي، وتلقى هذه السلعة من البدوي كثيراً من الإعجاب رغم أنه قد يكون اللعبة التي يمكن أن تودي بحياته. ويحدثنا هذا الرحالة عن الجهود البريطانية في مكافحة تجارة السلاح في مياه الخليج، ما يضطر الرجال إلى إلقاء حمولة قواربهم من السلاح في البحر. ومرّة أخرى لا يحدثنا هذا الرحالة عن الأسباب التي جعلت بريطانيا تحظر تجارة هذا السلاح "الفاسد"، فهل كان ذلك لحماية البدوي من هذه اللعبة التي تودي بحياته أم من أجل وقف تدفق السلاح غير الفاسد إلى أفغانستان والمناطق الحدودية في الهند البريطانية التي عمل أهلها على مكافحة الاستعمار؟

يستطرد الرجل في وصفه للكويت، فيفيد بأن مقر البعثة الإنجيلية لبيع الكتب يقع في الشارع الرئيس بالقرب من سوق الفحم، ولا تجد إلا بالكاد من يقف أمام ذلك المحل، "فالنقاش بين منصّر ووهّابي لن يقود إلى نتيجة إيجابية". كذلك يصف باركلي مسجد الكويت الكبير، ويفيد بوجود عدّة مساجد أخرى بُنيت من اللبن لا تكاد مآذنها التي تضم أربع فتحات في أعلاها ترتفع فوق مستوى السقف. ويوجد في الكويت أيضاً مقر لشركة البواخر الإنجليزية ومنزل جميل يضم بعثة التنصير الأمريكية، وكان هذا المبنى مقراً لسكن مبارك "قبل أن يصيب ثراءً". ويخلص إلى القول إن الكويت لا تزيد في حقيقتها على موقع من الطين يقع بين البحر والصحراء، فمبانيها من قش وطين يُستخرج ترابه من شمال المدينة وشرقها، يؤخذ من أي مكان هناك يختاره "صاحب المبنى أو حماره". أما أزقة المدينة غير المنتظمة والتي تفتقر إلى النظافة، فلا تكاد ترى فيها أثراً لشجرة على سوقها إلا ما كان من بعض أثل قليل.

قسّم باركلي سكان الكويت إلى قسمين: عرب يمثّلون الغالبية العظمى وفرس وفد أغلبهم من بوشهر، وتميّز الأخيرين قاماتهم العالية وتعرفهم بلباسهم الذي يتكوّن من سروال أبيض

يعلوه معطف أزرق غامق طويل وقبعات زرقاء أيضاً. ويحكي عن وصول رجل شبيه بقرد الأورانج أوتانج وفد إلى الكويت من البحرين بحثاً عن عروس جديدة، وأن مضيفه وزوجته قد شرعا في البحث لعلّهما يحققان له طلبه. كذلك يحدثنا عن بدو من حائل وفدوا بمريض لهم لعلاجه في البعثة التنصيرية، ولكنهم عادوا به مرّة أخرى بعد يومين فقط من وصولهم. "إن أبناء الصحراء يستعجلون كل شيء، ولا يزيد صبرهم على صبر الأطفال، كما أنهم لا يثقون بالطب الأوروبي...". ولا يني هذا الرحالة يسبّ، من دون أدنى سبب، كل عربي يقابله وينعته بالبهيم أو القرد شكلاً وسلوكاً، ويصل بسبابه إلى العنصر العربي كله، وعادة ما يتجاوز ليعمّ السباب أهل الشرق كافة. ونجد أن الشيء الوحيد الذي أحبّه باركلي "في الشرق" هو أنه يمتلئ "بالغريب غير المألوف... ولكن في الوقت نفسه فإن فيه من العناصر غير المحبّبة ما جعلني أهرب دائماً لأستمتع بالراحة وكرم الضيافة الأنجلوساكسوني في مبنى الوكالة البريطانية...".

غادر راونكيير في يوم السبت ٥ ربيع الأول ١٣٣٠/٢٤ فبراير ١٩١٢ الكويت في طريقه إلى داخل شبه الجزيرة العربية في رفقة عبد العزيز بن عثمان، ابن أمير الزلفي السابق، الذي تعاقد معه على أن يأخذه ضمن قافلة من الكويت إلى بريدة فعنيزة فالرياض ومن ثمّ إلى العقيرعبر الهفوف. و كان راونكيير يحمل معه خطابات توصية وتعريف من الشيخ مبارك إلى ابن سعود. وممّا تجدر ملاحظته أن ملاحظات هذا الرحالة حتى وصوله العقير ليس فيها إلا سباب متواصل للعرب، وادّعاء دائم لمخاطر يقول إنه صادفها في الطريق وقابلها بشجاعة وتصميم، ويختلط بهذا السباب وادّعاء الشجاعة ما قام به من رصد لبعض المظاهر الطوبوغرافية.

أبرقت حكومة الهند إلى وكيلها شكسبير أن يوعز إلى مبارك بأن حكومة الهند لا ترغب في قيام رحلة راونكيير، وأن على الوكيل أن يحرّض الشيخ على ألا يقدم لهذا الرحالة أدنى مساعدة قد تمكّنه من تسهيل مهمته. ولكن هذه البرقية لم تصل إلى الكويت إلا في الأول من مارس، وكان راونكيير قد غادر سلفاً البلدة في طريقه إلى نجد. واعتذر شكسبير لحكومته بتأخر وصول أمر المنع، و"إلا فلم يكن من المتعذّر عليّ منعه ووضع العقبات في طريقه، وجعل رحلته أمراً يرقى إلى الاستحالة". وأفاد بأن مبارك "لم يسهّل مهمة الرجل إلا بتوصية مني، لاقتناعي بأن هذه الرحلة قد تضيف إلى المعلومات الضيئلة عن داخل شبه الجزيرة العربية". ودفع شكسبير بأنه كان مقتنعاً بعدم وجود أيّ دوافع سياسية وراء هذه الرحلة التي ثبت له أنها لا تتصل "بوكالة سرية من قبل ألمانيا بخصوص خط برلين بغداد".

كان راونكيير – كما جاء عن شكسبير – شديد الكراهية للدبلوماسية التركية التي ظلّ ينتقدها دائماً، فهو يرى أن الدولة العثمانية بمنحها الامتيازات تنطلق من سياسة عقيمة. وأضاف شكسبير أن الرجل كان مدفوعاً برغبة شخصية للقيام بهذه الرحلة، فقد عرف منه أن الرحلة التي خططت لها الجمعية الجغرافية الملكية كانت تسعى للقيام بمسح علمي للمنطقة من مرباط

حتى ظفار، وحين تخلت الجمعية عن رحلتها بعد جمعها المال اللازم لتلك المهمة، تحمّس باركلي للقيام برحلة إلى الهفوف وأقنع الجمعية بأن تبذل له المال المتوافر لديها لتمويل رحلته. وأفاد شكسبير بأنه قد يسّر له أمر الرحلة مع قافلة الزلفي وأعطاه خطاباً لابن سعود يطلب إليه تسهيل مهمته، كما أعطاه مبارك خطاباً آخر لأمير الزلفي. وهكذا أفلت باركلي، بضربة حظ، من ملاحقة حكومة الهند البريطانية وفارق الكويت متجهاً إلى قلب شبه الجزيرة العربية.

وفد إلى القافلة بعد يومين من مغادرتها الكويت مندوب عن قبيلة "مطير الدويش" يطلب إليها أن تؤدي ريالاً (قيمته حوالى ثلاث ربيات) "إتاوة" عن كل جمل لقاء السماح لها باجتياز ديارها. ويذكر راونكيير أن قبيلة مطير تسيطر على كل الآبار في المنطقة بين الكويت والزلفي. وحين التقى هذا الرجل عبد العزيز، علا زعيقهما واشتد "حتى خيّل لي أن كلبين يُجلدان بالسياط... وبات ذلك المطيري في أطماره البالية الذي يُذكّر المرء بالضبع والثعلب أكثر تمسّكاً بمطلبه، تراه يضرب الأرض بعصاه، ما أثار الغبار في عيون من حوله...".

وفي اليوم الثالث من الرحلة وصلت القافلة إلى موقع يرى هذا الرحالة أنها كان يمكنها أن تبلغه بعد حوالى أربع ساعات فقط من مغادرتها الكويت. ويتهم القافلة

> بالسير على غير هدى، ولكن على المرء أن يظل مهيّئاً لتحمّل الصدمات الناجمة عن عمى بصيرة بدو الصحراء في شرق الجزيرة، الشيء الذي لا يتفق مع المأثور عنهم من أنهم، وهم في هذه الأسمال البالية وبجلودهم التي صقلها وهج الشمس، مخلوقات متفرّدة متميّزة... .

ولسنا في حاجة إلى بيان كذب هذا الرحالة الذي يعتقد أنه يعرف دروب شبه الجزيرة التي يطرقها للمرّة الأولى أكثر من قادة القوافل العرب الذين ارتادوها عشرات المرات.

في الفترة من الثاني حتى الرابع من مارس وقعت القافلة على أرض كثيرة الكمأة ملأ القوم منها أكياساً "... وكان يُجهّز لي منها يومياً طبق شهي بالكاري"، كذلك صادفت القافلة في هذه الفترة أرتالاً من الغزلان والأرانب البرية، وعادة ما يظفر المسافرون بوجبات لذيذة من الأرانب المشوية. "وكانت الأرانب لا تفارق أماكنها التي اختارتها، حتى ليكاد البعير أن يطأ فوق كومة العشب التي قبعت تحتها لتخلد لبرهة إلى الراحة أو النوم". ويسخر باركلي من تصويب البدو، حيث يقول إنّ " مسدس ذلك البوي كان إلى إصابة رأس بعيره أقرب من إصابته لتلك الأرنب التي قصد أن يصوّبه نحوها ." ويعيب راونكيير على العرب عدم درايتهم بفنون الدفاع عن النفس وعدم معرفتهم باستعمال البنادق. أحسّت القافلة – في ما يدّعي – خطراً في ١٥ ربيع الأول/٥ مارس، فتدافع القوم يتراكضون في غير انتظام يتعالى زعيقهم. وانطلق صوب مصدر الخطر ثمانية من نشطاء القافلة على ظهور جيادهم غير

المسرجة يُلوّحون ببنادقهم يمْنة ويُسرة، وكان فيهم عبد العزيز الذي خلع عنه عباءته وغطاء رأسه وراح يركض بحصانه وهو في ملابسه الداخلية وشعره المجدول في خمس ضفائر يتطاير حوله متناغماً مع وقع ركض حصانه. كان الرجل متسلحاً ببندقية وخنجر، كما أعاره باركلي مسدسه الذي كان عبد العزيز "يجهل كيفية استعماله". وأعار باركلي في هذه المناسبة أيضاً بندقيته إلى عجمي، مرافقه الآخر:

"لقد أعرت سلاحي لمن يجهل طريقة استعماله، لكنهم انطلقوا يتراكضون تدفعهم الحماسة للحرب. وجلست لأتناول طعام الغداء في هذا الوقت المتأخر من النهار، وكنت على يقين من أن هذا الاستنفار سينتهي إلى لاشيء...".

ويحدثنا باركلي عن امرأتين من ذوي قرابة المندفعين بخيولهم للقتال ظلتا تنتحبان وتنوحان عليهم. ويستطرد فيقول إنه كلما زاد عدد البنادق التي يحملها المحاربون، كان أثرها على الخصم المواجه لهم أكبر، وكلما زاد عدد البنادق التي لا تعمل، كان ذلك أوفق للمهاجمين، لأن العرب لا يجيدون التهديف، بل يصوّبون كيفما اتفق على أهداف بعيدة، ما يجعل إصابة العدو أمراً لا يحدث إلا مصادفة.

في مناسبة أخرى – استدعت الاستعداد لمقاومة مهاجمين على القافلة – يقدم راونكيير لقارئه صورة كاريكاتورية لمرافقيه الذين اندفعوا لمجابهة الخطر، يحمل بعضهم بنادق غير محشوّة بذخيرة، ويحمل آخرون منهم ذخيرة من دون بنادق! وحين صادف ركبهم جماعة من مطير يقول إنّهم كانوا عائدين من غزو لهم أصابوا فيه مجموعة من الإبل، ثار جدل بين هذه الجماعة وبين رجلٍ آخر من عتيبة، وكان كلّ منهما يدّعي أنه الأميز من صاحبه في فنون السلب والنهب، وراح كلّ منهما يتباهى بعدد الأغنام التي سرقها. ويضيف أن

> البدو لا عقل لهم يكبح جماح عواطفهم التي لا يعرفون كيف يمكنهم أن يسيطروا عليها. فقد يثور الغضب لأي سبب، تافهاً كان أو جليلاً، بشأن ريال واحد مثلاً أو ربما بشأن رداء قديم فيتعالى الصياح، ومن الطبيعي حينها أن تغلي عقول خمسين رجلاً في آن واحد... .

ويحكي راونكيير لقارئه عن النزاع الذي شبّ إثر هذا النقاش "... وجّه رئيس اللصوص بندقيته تجاه أحد رفاقي، ففاجأه آخر من رفاقي بضربة عنيفة من كعب بندقيته فسقط الرجل أرضاً يئن من الألم". ويذكر أنه دهن بطن الرجل بمرهم حار، فالدواء الذي يؤلم هو الذي يفيد" بحسب المفهوم العربي. "ولا نجد لهذا الرحالة من فضل في ذكر هذه الطرفة التي سبقه إلى روايتها العديد من الرحالة الذين سبقوه.

ينتقل باركلي إلى الحديث عن أشهر أنواع البنادق لدى العرب، ومنها المارتيني التي يجري

تهريبها من جيبوتي. ويرى أن العرب يتلفونها بما يدخلونه عليها من تعديلات تفقدها قيمتها الفعلية. يزيل العربي مؤشّري البندقية الخلفي والأمامي، ويلفّ مكانهما بشريط من النحاس أو القصدير يحرص على تلميعه ليبقيه لامعاً، كما يزيل جانباً كبيراً من خشب مؤخرة البندقية لتغدو خفيفة الوزن، ويثبت في ما بقي منها عدداً من المسامير ذات الرؤوس النحاسية ليرسم عليها أشكالاً معينة، ويصنع لبندقيته جراباً ويضعها خلفه على ظهر جمله. وتبقى البندقية في ظاهرها لامعة وقد جلاها الرمل، أما دواخلها فلن يفكر البدوي في تنظيفها فتصدأ وتتلف، فهو لا يعرف كيف يمكنه أن يفكّكها ثم يجمعها من جديد، "فالبدوي بطيء بنحو غير عادي في تعلّم الجديد غير المألوف له في الحياة اليومية". وتُعد بندقية الماسور هي البندقية التي تتلو المارتيني شهرة في المنطقة، وغالباً ما يُستعمل رصاص هذه في تلك، ما يقود مستعملها إلى عواقب وخيمة. ويضيف باركلي أن البدو يستعملون مظاريف الطلقات المستعملة ويعيدون حشوها بالذخيرة، ولكن مثل هذه الطلقات تبقى ضعيفة قليلة المدى، وعادة ما تفشل في إصابة الهدف.

لا يني راونكيير يسبّ العرب، المرافقين له والآخرين الذين لم يقابلهم، ويلعنهم بسبب أو من دون سبب، ويشبّههم بالحيوانات وبالطيور. فهناك جماعة ظنّها من اللصوص "كانت أشكالهم وهم في أطمارهم البالية توحي بعدم الثقة، ويتعالى صراخهم حين يتخاطبون، ويبدو زعيقهم كأنه نعيق الغربان". وحين أقدم هؤلاء على سرقة بعض الأشياء من القافلة، تتبّع عبد العزيز أثرهم وعاد بهم، فبدوا لهذا الرحالة كأنهم "الكلاب الذليلة وقد خرجت لتوّها من مستنقع بارد". ويعدّ راونكيير "التعصّب الديني والكسل" من أبرز مثالب العرب التي عدّدها هذا الرحالة لرفاق سفره، أما "عندما تهاجم المرء جيوش القمل ويدرك أنها تزحف عليه من رفاق سفره، فيُستحسن ألا يحاول القضاء عليها، فذلك أمر غير ممكن. ويزداد القمل شراسة ليلاً، بحيث لا يمكن مواصلة النوم لأكثر من ساعتين. ومن الجدير بالذكر أنه لم يستحضر مناسبة واحدة يؤيّد بها التعصب الديني الذي نعت به الرفاق.

استشرفت القافلة الدهناء التي هي تلال متتابعة من الرمال في ٢١ ربيع الأول/١١ مارس، وكانت ماعز لبعض بني عبد الله ترعى تلك المنطقة وهي في طريقها إلى الصمان. ويشير إلى أن بني عبد الله هم فخذ من مطير الذين تمتد ديارهم من عنيزة حتى الكويت ومن صحراء الحجرة حتى الخط الذي يصل بين وبرة والمجمعة. ويعدّد أفخاذ مطير الدويش فيقول إنها تشمل العبيات والصهبة وبنو عبد الله والبراعصة والدياحين والدويش والجبلان والحوامد والحلاوية والملاعبة وميمون والرخمان والرشايدة والصعران وأسامة. أما العجمان، فيرى أن ديارهم تمتد من جبل طويق حتى الخليج الفارسي ومن اللصافة إلى الهفوف، وتجدهم في الدهناء والصمان في فصل الشتاء، أما في الصيف فيستقرّون عند سلسلة الآبار الواقعة بين الهفوف والوبرة.

وصلت القافلة في ٢٤ ربيع الأول/١٤ مارس إلى الزلفي، وقدّم هذا الرحالة وصفاً للبلدة

وبساتينها، ولاحظ آثار الزحف الصحراوي عليها. وانتهت القافلة في اليوم التالي إلى بريدة "مركز التجارة والتزمّت الديني"، وعمل باركلي على أن يستوثق ممّا إذا كانت البلدة على حالها التي تركها عليها داوتي أو تغيّرت. وفي هذا السياق ينقل راونكيير ما رواه داوتي قبله، فقد راح أمير بريدة فهد بن معمر يستجوبه عن طبيعة مهمته "بنحو حاقد، يسأل ويكرر السؤال بصيغ مختلفة"، وطلب فهد إلى الرحالة العودة إلى الكويت. ويرسم الرجل صورة لفهد، ويراه في متوسط العمر، أسدل شعره الأسود على كتفيه من دون تمشيط ولا تجديل، أصابعه ممتلئة ووجهه منتفخ وشفاهه غليظة، إحدى عينيه عمياء ملأها الغمص والثانية رمداء. ويدّعي باركلي أن الأمير سأله عن الهدية التي جلبها له، وذكر الرحالة أنه فوجئ بالسؤال، لأن مبارك سبق أن قال له في الكويت أنه لا يحتاج إلى أن يقدم هدايا لأمراء المناطق، لأنه يسافر ضيفاً عليه وعلى ابن سعود، ولكنه اضطر، تفادياً للحرج، إلى أن يقول للأمير فهد أنه جلب له مسدساً كما جلب أيضاً منظاراً لأمير عنيزة وبندقية لأمير الرياض. وحين قدّم باركلي المسدس لاحقاً مع طلقاته المئتين للأمير، لم تظفر الهدية منه بالرضى، فالمسدس غير جيّد، ولا يحمل أيّ زخارف ولا يليق هدية للأمير. "وكدت أقول له إن طلقة واحدة منه إذا أصابت هدفها يمكن أن تكون هدية مُثلى له، ولكني أمسكت عن قول ذلك". وعموماً، حين رفض أمير عنيزة استقبال الرحالة في بلدته، طلب مندوب أمير بريدة إليه أن يقدم المنظار هدية للأمير "لعلّه يظفر منه بالقبول" ففعل.

خرج باركلي من بريدة في ١٧ مارس عائداً أدراجه إلى الزلفي التي وصلها في يوم ١٩ منه وفارقها في يوم ٢١، ليصل إلى الغاط التي لم يجد قبولاً من أميرها فانحاز منها إلى المجمعة التي وجد استقبالاً طيباً من أميرها عبد الله العسكر. وخرج من المجمعة في يوم ٢٣ ومرّ ركبه بالتويم فالروضة فالحصون فحوطة سدير فالعطار، وبلغ إلى العودة التي لاحظ أن بقايا أسوارها العالية المتهدمة ما زالت تُحدث عن ماضٍ عريق. واستضاف أمير البلدة الرحالة ومرافقيه وأولم لهم. وسار الركب بعد ذلك إلى ثادق، وبلغ في اليوم الخامس والعشرين من مارس حريملاء التي لاحظ أنها كانت في فترة سابقة أكبر ممّا هي عليه وقت زيارته. وفي ٢٦ منه غادر حريملاء ووصل إلى سدوس حيث استشرف وادي حنيفة، "وكانت آثار الدمار التي أحدثها إبراهيم باشا منذ قرابة قرن من الزمان لا تزال بارزة في العيينة التي تعدّ واحدة من أعرق مراكز الوهابية وأهمها...".

ويستطرد راونكيير فيقول إن العيينة لم تعد تلك البلدة الموصوفة، وإنها ما عادت تزخر ببساتين النخيل، ولكنه أبصر فيها حقولاً متفرقة تنمو فيها الذرة بين أشجار الأثل بالقرب من الآبار المندرسة، كما أبصر أيضاً أكواخاً حقيرة شيّدت باللبن وأعواد الشجر والقش تناثرت في غير انتظام، وتؤوي تلك الأكواخ سكاناً "محدودي التفكير!" معدمين لا يكادون يجدون قوت يومهم، يقيمون وسط خرائب منطقة كانت ذات يوم من القرن الثامن عشر فارهة البناء تضم جماعة من أهل اليسار.

مضى الركب في ٨ ربيع الثاني/٢٧ مارس في طريقه عبر وادي حنيفة مجتازاً الملقا فالعلب، الواحة التي تزخر ببساتين النخيل، ثم بلغ الدرعية التي لاحظ الرحالة أنها قد اندرست و لم يبقَ منها غير اسمها وبقايا ذكرى تاريخية تحدث عن انطلاق جيوش آل سعود منها لإخضاع شبه الجزيرة العربية. وما زال الركب يواصل طريقه عبر تلك المنطقة حتى بلغ إلى عرقة التي اجتاز إليها أطلالاً من خرائب الدرعية، ما يُحدّث عن اتساع تلك البلدة وازدهارها في الماضي. وأرسل باركلي من عرقة رسولاً ليبلغ الإمام بوصوله. وكان الركب كله متوجّس لأنه بات على وشك الدخول إلى عرين "التعصّب" الديني. وزاد من مخاوف باركلي عدم وجود الأمير عبد العزيز في الرياض، فقد خرج في حملة ضد عتيبة التي ما فتئت تهاجم قوافله ولا تعترف له بسلطة. فعبد العزيز البالغ من العمر ثلاثاً وثلاثين سنة – كما سمع من أصدقائه – حاكم قوي ومقاتل شجاع، لكنه – في الوقت نفسه – كان رجلاً منفتحاً على مباهج الحياة التي لا تتناقض مع ما تقرّه تعاليم الوهابية، فهو يملك الحاكي (الجرامفون) ما أغضب المتزمّتين من أتباعه. وعلى الرغم من أن عبد العزيز، مرافق باركلي، كان سعيداً بغياب الأمير عبد العزيز عن الرياض في تلك الفترة، كان الرحالة راونكيير مغتمّاً لذلك، لأنه، في غياب الأمير عبد العزيز، سيقابل الإمام عبد الرحمن، النائب عن ابنه في الرياض، والمشهود له بأنه "وهابيّ متزمّت". وهكذا نجد خلافاً في تقدير شخصية عبد العزيز الذي هو عند باركلي منفتح على ثقافات الغير ولكنه عند مرافقه غير ذلك تماماً.

استضيف باركلي ومجموعته في بستان نخيل بهيج في شمال الرياض، واستدعي في اليوم التالي لمقابلة الإمام في بستان آخر يقع في شرق المدينة. ويدّعي باركلي أنه اتخذ من الاحتياطات ما هو ضروري "لحماية كلب كافر" في تلك المدينة الشديدة الالتزام. ولعل في ذلك مبالغة غير منطقية، فلم يحدّث باركلي القارئ عن تلك الاحتياطات المتوهّمة التي اتخذها. ويسبغ الرحالة على الإمام عبد الرحمن جملة من الأوصاف، فهو وسيم ينبئ مظهره عن روح مغامرة نبيلة تكاد توحي لمن ينظر إليه أنه بطل "لقصة من ألف ليلة وليلة"، فالرجل لطيف لكنه جاد ووقور، له عينا صقر ولحية بيضاء. وبهذا المفهوم الرومنسي عن شهريار وشهرزاد يصوّر باركلي الإمام لقارئه، والذي يُلخّص الشرق كله في الخيال الإبداعي لهذا الكتاب الذي لا يعرف عامة أهل الشرق منه غير عنوانه. تناول الإمام مع ضيفه بعض الموضوعات الدولية، واتضح للرحالة أن الإمام كان يدرك تماماً قوة نفوذ بريطانيا في هذا المضمار. وانتهى اللقاء بأن أبلغ الإمام ضيفه أنه أعدّ له الترتيبات اللازمة لسفره إلى الأحساء ضمن قافلة تغادر في اليوم التالي.

يصف باركلي رئيس القافلة بأنه يفتقر إلى الذكاء، "يتنفس تطرّفاً وتزمّتاً"، وما كان يمكنه أن يأخذه إلى وجهته لولا أنه ما كان يمكنه أن يعصي أمر الإمام الذي طلب إليه أن يحسن رفقته ولا يعود إلى الرياض إلا بخطاب من الرحالة يشهد له بذلك. وزُوّد باركلي بسمن وأرز يكفيه

ومن معه لأربع رحلات إلى الهفوف، وليس لرحلة واحدة.

غادر باركلي الرياض في ١٠ ربيع الثاني/٢٩ مارس بعد أن وزع الهدايا على رجال الإمام، فأعطى بندقيته إلى أحدهم ما كان يعرف كيف يستعملها، ما دعاه – نتيجة لطلب من ذلك الرجل – أن يدرّبه على استعمالها. وارتكب الرجل بعد ذلك عدّة أخطاء، منها أنه وضع البندقية على الأرض فداخلتها ذرات الرمل فما عادت صالحة للاستعمال. ومع ذلك ألحّ الرجل على مواصلة التدريب عليها "إني لأعجب من سوء التقدير لدى العرب وعدم تمكنهم من أبسط أساليب التصرف السليم". كما أهدى راونكيير نسخة يقول إنّها جيدة من المصحف الكريم لأحد "المطوّعين، فقبل بعد لأي أن يأخذ تلك النسخة من يد كافر".

كتب راونكيير عن الحكم في الرياض فقال إن البلدة تتبع آل سعود الذين يسيطرون أيضاً على شقراء وبريدة ومناطق واحات أخرى أقل شهرة، حيث يوجد هناك مندوب موفد من الإمام أو قد يختارونه من أهل البلدة ذاتها لإدارة شؤونها. ويبقى نفوذ هذا الإداري المعين محدوداً ما لم يكن معه مجموعة كبيرة من الرجال مثلما هو حادث في بريدة التي تُعسكر فيها مجموعة من أولئك الرجال تحسباً لما قد تؤدي إليه الصلات الوثيقة التي كانت تربط تلك البلدة بحائل. وأشار إلى أن أهل بريدة حينما كانوا تحت سلطة حائل ظلوا يتطلعون إلى الدخول تحت سلطة الرياض، ولكنهم "باتوا الآن يتلفّتون" تجاه حائل. ويذكر راونكيير أن عنيزة والمجمعة يتبعان الإمام بصفة غير مباشرة، فهما يعترفان له بالنفوذ ولكنهما يتمتعان بحكومتين مستقلتين. فأمير المجمعة، عبد الله العسكر، اضطر إلى الخضوع للرياض ولكنه ظلّ يتمتع باستقلال ذاتي. ويشير هذا الرحالة إلى أن بدو شبه شرق الجزيرة العربية يعدّون أنفسهم من رعايا الإمام، أما عتيبة التي تسكن المنطقة بين طويق والحجاز والتي يدّعي شريف مكة السيطرة عليها، فهم هدف دائم لغزوات الإمام. ويذكر راونكيير أن الحكم في أسرة آل سعود يجري على نظام الوراثة، ويلاحظ أن تتابع الحكام على سدّة الحكم في الأسرة السعودية يحصل بطريقة سلمية، وذلك خلاف ما هو حادث في مشيخات الخليج الصغيرة. ويضيف راونكيير أن هذه الأسرة تستمد شرعية الحكم من التزامها الديني، ومن شجاعة أهل نجد، وكذلك من بعض الارتباطات السياسية المستحدثة.

صحب باركلي – بأمر من الإمام عبد الرحمن – القافلة التي خرجت من الرياض ومرّ بخشم العان، ولاحظ أن أغلب رفاق سفره كانوا في طريقهم إلى الساحل للعمل في صيد اللؤلؤ، ووصفهم بالحفاة العراة الذين لا يملكون من متاع الدنيا إلا عصيّاً وسكاكين تساعدهم على قنص الضباب وحفر الأرض لاقتلاع بعض جذور النبات الصالحة للأكل. وسارت القافلة من خشم العان لتتوقف في الأول من إبريل في أبو جفان التي يقول إنّها مصدر المياه الوحيد بين الرياض والهفوف. ويشكو راونكيير من البدو الذين كانوا يتلقون علاجه لعيونهم وجراحهم، ولكنهم لم يكونوا يتورعون عن "شتمي ويتطلعون إلى أن يختفي ذلك الكلب الكافر عن نواظرهم

". ويمضي باركلي في نقده الممارسات البدوية، فقد أقام القوم في إحدى الليالي حفلاً حيث يقول باركلي إنهم ظلوا يرقصون حول نار المعسكر بحركات مستغربة يرمي بعضهم بنادقهم فوق ألسنة تلك النار المتوهجة إلى البعض الآخر في الطرف الآخر، ويرفعون أصواتهم بالغناء بكل ما أوتوا من قوة. وبدت تلك الأنغام لهذا الرحالة اللئيم "أقرب إلى نباح الكلاب منها إلى الغناء". وكانوا عندما تفيض بهم الحماسة يطلقون رصاص بنادقهم في كافة الاتجاهات، ويدّعي باركلي أن رصاصة مرت فوق رأسه. ويذهب إلى القول إن ذلك لم يكن مصادفة، بل كان عملاً مدبّراً. وفي مجال البطولات المزيفة التي لا يخلو منها كتاب أي من الرحالة، يدّعي باركلي أن لصوصاً اقتربوا منه وهو راقد حتى أصبحوا على بعد أمتار قليلة، فجلس وأشعل غليونه. و"لما رأوني جالساً أدخّن اضطربوا، ويبدو أنهم كانوا يستسهلون قتلي وأنا نائم!". ويبدو من المضحك أن الرجل أرعبهم بغليونه فانحازوا عنه – كما يقول – يتهامسون، ولجأوا إلى قائد القافلة وطلبوا إليه تسليمهم باركلي لقتله واقتسام ممتلكاته في ما بينهم! وبالطبع فإننا نعدّ ذلك من الخيال السقيم الذي ينفثه الرحالة في كتاباتهم لبيان المخاطر التي واجهوها، فنحن ندرك تماماً أنه يحمل جواز سفر من الإمام عبد الرحمن، وكان معه مرافق من قبله، كذلك فإن للسفر مع القوافل قوانينه التي تقضي بأن لا يُضارّ أحد من المسافرين ضمنها، مهما كانت هويته ودينه، إلا إذا وقع اعتداء لحق خطره الجميع.

وصل باركلي في ١٩ ربيع الثاني ١٣٣٠/٧ إبريل ١٩١٢ إلى الهفوف حيث وجد ترحيباً من عباس حلمي بك "الحاكم العسكري للأحساء" الذي يصفه بالرجل اللطيف النشط. واستضيف الرحالة هنالك في منزل مخصص لكبار الزوار. وتجوّل الرجل في رفقة الحاكم في الهفوف، ومرّ بالحمامات ومنزل قائد الحامية، وزار السجن، واسترعى انتباهه أن غرف الحجز الانفرادي كانت قذرة جداً. وأخبر باركلي عن انعدام الأمن في الهفوف التي كثيراً ما تتعرض لهجمات البادية، فالناس فيها لا يستطيعون الخروج ليلاً من مساكنهم وذلك للدسائس التي يحرّكها الوهابيّون خلسة. وانتقد ما سمّاه مسيرة تركيا في طريق مرصوف بخطط إصلاح ووعود ونيّات طيبة، وعدّ ذلك من الطموحات غير المثمرة لحكم "العرب المتطلعين إلى أن يعيشوا أحراراً في بلادهم". وغريب أن يحدثنا الرجل عن الحرية للعرب حينما يتصل الأمر بالأتراك، ويسكت عن ذلك حين يتعلق الأمر ببريطانيا. ولا يعدو ذلك أن يكون طعناً في مشروع الجامعة الإسلامية والحكم بفشل محاولات السلطان عبد الحميد للخروج بتركيا من أغلال الطورانية التي قيّدتها وأودت بعدئذ بإمبراطوريتها التي كانت قد فارقت شرعيتها الإسلامية. وهناك ملاحظة دقيقة أوردها هذا الرحالة لخّص فيها حال العرب. فجميع بلداتهم الصغيرة والكبيرة في شرق شبه الجزيرة العربية ووسطها مسوّرة يخاف بعضها بعضاً، وكافة العرب في المنطقة، من الكويت إلى عدن ومن مسقط إلى سيناء يقاتل بعضهم بعضاً، وينتقم بعضهم من بعض دفعاً لظلم حقيقي

أو متوهّم، أو ربما سعياً وراء سلب يعينهم على الحفاظ على الحياة. ويعتقد العرب أنهم إنما يفعلون ذلك بمحض إرادتهم، لكنهم - في حقيقة الأمر- مثل حجارة الشطرنج يُحرّكون بحسب العرف القديم: فرّق تسد، فيخدمون بقتال بعضهم بعضاً أهدافاً سياسية لا يدركون أبعادها.

ومن الغريب أن يُسقط هذا الرحالة هذه النظرية على الأتراك دون البريطانيين الذين هم سدنتها وأبطالها، فهم - كما يرى - قد أحكموا مزاليج المنطقة من دون استخدام المرتزقة الهنود، فأصبحت هذه المنطقة مستعصية على الغير أكثر ممّا كان عليه الأمر سابقاً، ويستطرد فيقول إن بريطانيا زادت بعزلة المنطقة من سلطة الزعماء الوطنيين، فيما لم تزد جهود تلك القوّة الإمبراطورية في ما وراء البحار عن إسداء النصح لهؤلاء الزعماء، مصحوباً بالأعطيات الإمبراطورية. "تمكنت هذه السياسة الناعمة من إخضاع شعب ملتزم بدينه، فخور بنفسه، فوجّهته بأقل درجة من العنف وبكثير من الحصافة لخدمة مصالحها. إن هذه السياسة تثير في المراقب أعلى درجات الإعجاب!".

غادر باركلي الهفوف في ١١ إبريل، ومرّت القافلة بالجفر قبل أن تتوقف في الجشّة. ولاحظ راونكيير في اليوم التالي من مغادرة الهفوف وجود آثار لبقايا قافلة يقول إنّها كانت تسير من العقير في حراسة الجند وممثلين عن القبائل، فهاجمها البدو وأبيد معظم أفرادها، ويفيد بأن الحادث وقع قبل نحو شهرين من مروره بالمنطقة. وانتهت رحلة باركلي على ثرى شبه الجزيرة العربية في العقير، تلك البقعة ذات الماء الزعاف، المجدبة التي لن تصادف فيها نخلة واحدة، والتي لا تزيد على كونها قلعة طينية صغيرة تبدأ منها مسيرة القوافل المتجهة إلى الداخل، المحمّلة بالسلع التي ترد ذلك المنفذ البحري الذي يحرسه جنود ضربت عليهم العزلة التامة، فتجدهم أبداً في معارك متصلة مع البدو. وحين استقل باركلي القارب في طريقه إلى البحرين، كان أولئك الجند في وداعه وهم سُكارى "إلى درجة أنهم ما كانوا يدركون أكانوا يقفون على أقدامهم أم على رؤوسهم". ويعبّر باركلي عن مشاعره وهو يفارق هذه الأرض التي يعدّها

> أرضاً بدائية غامضة... كل ما هو حي فيها أو ميت يُمثّل خطراً ماثلاً على الغريب عنها، ولكن هذه الأرض تبقى مع ذلك تأسر بسحرها لباب من يجرؤ على اقتحامها. فإذا خرج المرء من مغامراته عبرها سليماً، فإنه يستطيع حينها أن يدرك معنى سحرها وسرّ غموضها. تستحق هذه الأرض منّا أن نعرفها أكثر لأنها الأرض التي ازدهرت عليها أقدم الحضارات التي تنادينا لإزاحة غبار النسيان عنها.

بهذه الفقرات التي لا تحمل أي معنى سوى استثارة خيال القارئ الغربي لرسم صورة لأرض

شبه الجزيرة العربية ، تلك الأرض البدائية القسمات ، الساحرة الغامضة التي أدّت دورها في غابر الأزمان ثم ما لبثت منذ فجر الإنسانية أن تكلّست فغدت متحفا للتاريخ الإنساني البعيد، وراحت تتطلع إلى رحالة الغرب لاستكشافها وإزالة غبار النسيان عن ذلك الدور العتيق الذي اضطلعت به يوما ما .

أبرق غرين، الوزير البريطاني في كوبنهاغن، في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣٠/٨ مايو ١٩١٢ إلى لندن بأن الصحف الدنماركية الصادرة في ذلك اليوم أفادت بوصول برقية من مسقط إلى الجمعية الجغرافية الملكية تعلمها بنجاح رحلة راونكيير الذي تمكن من عبور المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أنه جابه مواقف صعبة وواجه أخطاراً جمّة، تمكن من استكشاف دروب المنطقة وحقق بذلك النتائج المرجوّة من الرحلة. وبشّرت الجمعية بأن نتائج أبحاثه التي تتضمن خرائط لتلك الرقعة الأرضية الشاسعة ودراسات عن سكانها والحياة النباتية والحيوانية فيها ستنشر في الخريف التالي. وبدورنا لا نعرف أي استكشاف قام به هذا الرجل الذي سافر في رفقة قوافل استكشفت تلك الدروب منذ عصور غابرة. وأفاد الوزير بأن راونكيير غادر مسقط في طريقه إلى بومباي ليبحر منها إلى الدنمارك التي تتوقع وصوله إليها في الشهر التالي. ولعلّ من الطريف أن نختتم قصة هذا الرحالة بما أبرق به الوزير البريطاني في عاصمة الدنمارك إلى لندن عن زيارة ريشلييه للسفارة في ٢٧ يونيو لتقديم شكر الجمعية الجغرافية لشكسبير، الوكيل البريطاني في الكويت، ولوريمر، الوكيل في البحرين، مضيفاً أنه لولا العطف الذي وجده راونكيير من هذين المسؤولين ما كان يمكنه أن ينجز مهمته بنجاح. وعرف السفير من ريشلييه أن راونكيير سيقدم حصاد رحلته إلى الجمعية الجغرافية البريطانية. كذلك بعث السفير إلى لندن رسالة شكر بتاريخ ٥ يوليو وردته من الجمعية الجغرافية تعبّر عن الامتنان لما قدّمه الوكلاء السياسيون في المنطقة من تسهيلات للرحالة الدنماركي، والجدير بالذكر أن الخارجية البريطانية وجدت حرجاً شديداً في الرد على هذا الشكر. وحين عاد باركلي، هيّأ له ريشلييه وظيفة معتبرة في شركة شرق آسيا، ولكنه لم يعمّر بعد عودته إلى بلاده طويلاً، فقد هلك في ٨ شعبان ١٣٣١/١٣ يوليو ١٩١٣.

موزيل ولورنس وجرّ العرب للقتال لمصلحة القوى الغربية

وُلد اليوس موزيل، التشيكي الأصل، في بلدة ريشتاروف في ٢٨ صفر ١٢٨٥/٢٠ يونيو ١٨٦٨ لأب مزارع فقير معدم، عمل على أن يعدّ ابنه ليصبح قسيساً، وتمكن الويس من تحقيق طموحِ والده فدرس فقه النصرانية في جامعة أولوموك وتخرج فيها في عام ١٣١٢هـ/١٨٩٥م قسيساً، ولكن طموح الابن فاق طموح والده، فدخل الولد في مجال الدراسات العليا في فقه

النصرانية وحصل على درجة الدكتوراه، وغدا في ١٣١٩هـ/١٩٠٢م أستاذاً لهذا الفن في الجامعة التي تخرّج فيها. وفي عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م جرى تعيينه أستاذاً للفقه النصراني في جامعة فيينا، ولكنه تركها ليلتحق بمعهد دراسات الإنجيل في القدس الذي افتتحه الدومنيكان الفرنسيون هناك. ونشط موزيل في هذه الفترة في القيام بالعديد من الرحلات في الشام بدعوى التنقيب عن المواقع الأثرية، وبدأ بالعمل في الكشوف الأثرية في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من دمشق، واتسعت مجالات رحلاته بعد ذلك، فرسم الدروب التي سلكها في خرائط، وقدّم عدّة بحوث للجمعية الجغرافية النمساوية في فيينا، وامتدت أبحاثه لتفيد منها جامعات شهيرة كجامعة برلين وجامعة كمبردج. واختارته الجمعية الملكية للآداب بفيينا ليقود حملة لدراسة قصر عمارة الذي كان لموزيل فضل السبق في الإشارة إلى موقعه، وكان زميله في البعثة الرسام ميليش من الأكاديمية العسكرية الجغرافية. وفي عام ١٩١٤م اختير موزيل لتحريض القبائل العربية في شمال شبه الجزيرة العربية على "الجهاد" في صف الأتراك العثمانيين، أو في الحقيقة للحرب مع الألمان وحلفائهم ضد البريطانيين وحلفائهم.

دخل موزيل الصحراء تحت اسم الشيخ موسى، أو موسى بن نمسا، أو قد يُعرف أحياناً بموسى الرويلي لاستضافة شيوخ قبيلة الرولة و"خوّتهم" له. ويمكن هنا أن ننبّه إلى رمزية الاسم، وقد يجدر بنا أن نحشر موزيل في قائمة الجواسيس بدلاً من وضعه في هذه القائمة من الموظفين الرسميين ذوي المهمات المعلنة. ولعلنا نلاحظ في هذا السياق أن هذا النفر من الموظفين الرسميين لا يحتاج - في الغالب - إلى أن يغيّر اسمه الأجنبي ويأخذ اسماً عربياً بدلاً منه، كما فعل موزيل، ولعلنا نضيف أيضاً أن من حمل اسماً عربياً من هذه الجماعة الرسمية، لم يكن هو الذي أطلقه على نفسه تعمية لشخصيته وإنكاراً لمهمته الحقيقية، بل كان الاسم يطلق عليه في العادة من قبل مرافقيه، أو من الشيوخ والسلاطين الذين يستضيفونه والذين ربما تعذر عليهم نطق الاسم الأعجمي، أو ربما وجدوا له جرساً قريباً من اسم عربي. وعموماً، فإننا نحشر موزيل في هذه القائمة لأنه كان يؤدي المهمات نفسها التي كان يؤدّيها في الجانب المقابل غيره من الموظفين الإنجليز، كما كان يتّبع أساليبهم ذاتها. فعلى الرغم من التعارض في الأهداف الكولونيالية التي كان يعمل لها هذا وأولئك، إلا أن أساليب الاستعمار - مهما اختلفت شكلاً أو لوناً - فإن شراكها الخادعة تأخذ في الوطن العربي المسار ذاته.

يكشف كتاب موزيل: **أخلاق قبائل الرولة وعاداتها** عن حقد دفين حملته القبائل العربية للموظفين الأتراك لسلوكهم الفظّ المميز لهم، بعد أن سيطرت عليهم مفاهيم الطورانية التي شجّعها فيهم يهود الدونمة ودعاة الصهيونية، حتى نسيت السلطات في إستانبول أنهم إنما اكتسبوا شرعية حكم غيرهم من الأعراق بالإسلام الذي لا فضل فيه لهوية أو لقومية. أما وقد اعتمدت السلطات التركية التفاضل العرقي، فإن كل شعب من الشعوب في العالم لا يعرف

لعرق آخر فضلاً عليه ولا رتبة. وهكذا ضلّت الدولة التركية الدرب وتاهت في إثرها الأمة العربية، لتجد نفسها وهي تحاول الاهتداء إلى دروب الحرية أمام من يدفع بها من بني جلدتها، بعد أن غيّب عقله، إلى طريق في اتجاه واحد انتهى بها إلى استعمار غربي صريح أو مبطّن. جاء القس موزيل، شأنه في ذلك شأن لورنس في الجانب المقابل، ليحرّض القبائل العربية ويدفع بها إلى أتون حرب لا تصبّ إلا في مصلحة الآخرين. عمد موزيل، على نقيض لورنس بالطبع، إلى إثارة القبائل العربية ضد الإنجليز، واجتمع في أواخر عام ١٩١٤م بنوري الشعلان وابنه ونواف وبعودة أبو تاية يستثير فيهم دعوة الجهاد لإنقاذ مصر. ورفض الشعلان الذي يقول موزيل إنه أخوه "في الدم" الدعوة، معتذراً بعدم وجود أنصار أو أتباع له في تلك النواحي، وعبّر الشعلان لموزيل عن رأيه في الإنجليز، فهم قوم شرهون يملكون الكثير من الأرض ويقولون هل من مزيد، "ومع ذلك رأى الشعلان في الإنجليز "قبيلة" منضبطة، وأضاف أنه علم من بعض من زاروا الهند أن الإنجليز يحفظون الأمن والنظام في تلك المنطقة، ولكن "ما جدوى ذلك إذا كانت الحرية مستلبة. إننا لن نبيع حريتنا بذهب الإنجليز". ويذهب الشعلان إلى القول إن الأتراك يستحثّون في العرب النخوة لجهاد الإنجليز، ولكن الأتراك لم يستبقوا للعرب شيئاً يقاتلون من أجله. "لقد جرّدنا الأتراك من كل شيء في الوقت الذي لم يأخذ فيه الإنجليز منّا شيئاً". وكتب موزيل في هذا الصدد عدداً من الرسائل لاستخبارات بلاده أشاد في بعضها بعبد العزيز بن سعود الذي رأى فيه قائداً لا نظير له في شيوخ الجزيرة العربية الآخرين، ورأى أنه يسوس البدو بنحو سيؤدي به حتماً إلى الصدام مع بعضهم، وقد برهنت الأحداث اللاحقة في معركة السبلة وغيرها صدق نبوءة هذا الرحالة.

ما لبث الشعلان بعدئذ أن اختار أن يستلب الإنجليز حريته، ومن سخرية القدر أن علم ما سمّاه المؤرخون الإنجليز "الثورة العربية" قد رفرف للمرّة الأولى في ديار الرولة، فوق خيام الشعلان الذي لو بُعث حيّاً لأدرك أن الإنجليز الذين دالت دولتهم في هذه الأيام و لم يبقَ منها سوى آثارها التي لم تزل تذل أعناقنا، قد سلبونا بدعوة العروبة كل مستوجبات العزّة والكرامة ومقتضيات العروبة الحقّة، ثم تركونا نهباً للإمبريالية الأمريكية والصهيونية العالمية يبيعان فينا مع بعض أهلنا ويشتريان. و لم يفلح موزيل في دعوته العرب إلى الجهاد في صف الأتراك بعد أن أكدت ممارسات الأخيرين أنهم لا يؤمنون بالرابطة الإسلامية الجامعة التي يمثّل الجهاد لحمتها وسداها، وصادفت دعوة "الحرية" التي أطلقتها بريطانيا من "المكتب العربي" في القاهرة آذاناً صاغية من بعض رؤساء العرب الذين أعماهم بريق المال البريطاني والوعود بتمكينهم من السلطة والجاه في بلاد العرب عن التفكير في كنه الحرية التي تريدها لهم بريطانيا ودوافعها.

عاد موزيل إلى بلاده بعد فشل مهمته في بلاد العرب، لكنه انكفأ عائداً إليها مرّة أخرى في عام ١٣٣٥هـ/١٩١٧م لدراسة أثر الحرب في سوريا وفلسطين، و لم تؤدّ تلك الدراسات إلى أثر

مباشر. وفي عام ١٩٢٠م، قرر أن يذهب إلى براق ليعمل أستاذاً للغة العربية في جامعة شارلس. وهلك الشيخ موسى في ١٧ ربيع الأول ١٣٦٣/١٢ مارس ١٩٤٤، مخلّفاً زخماً من البحوث في جغرافية شبه الجزيرة العربية وتاريخها وسياستها، نشرت منها الجمعية الجغرافية الأمريكية خمسة مجلدات، وترك كتباً في الزراعة والعمران في شبه الجزيرة العربية، كما استحدث مسحاً للكنائس النصرانية في منطقة الشام وفلسطين.

طوماس إدوارد لورنس وأعمدة الحكمة السبعة

يُعدّ طوماس إدوارد لورنس من أشهر الشباب الذين خدموا أهداف الإمبراطورية البريطانية أثناء الحرب الأولى وفي أعقابها. ويكاد المؤرّخ يصاب بالغثيان حين يكتب في تاريخ هذا الرجل الذي جعل منه الغرب أسطورة، وهو ليس من ذلك في شيء، لولا أن البعض منّا سدروا بعيداً في غيّهم حين قبلوا بما صاغه الغرب من تاريخنا وحسّنوه لفظاً ومعنى. نسب الغرب إلى نفسه المعرفة والتطور والإبداع، وعملوا على نشر ذلك في أوساط "هؤلاء الهمج"، وادّعوا أنهم أخذوا بأيديهم إلى مدارج التحضّر. وساعد هذا البعض في ترجمة ما كتبه الفكر الغربي، فسمّوا الاحتلال والاستخراب ونهب خيرات الشعوب والبلاد وإذلال أهلها "استعماراً" بدلاً من أن يسمّوه استخراباً. فالإعمار بريء من ذلك كله، وأطلقوا على "الخيبة العربية الكبرى" التي حمل لورنس لواءها اسم "الثورة العربية الكبرى"، وحتى اللقب الذي أطلقه الغرب على لورنس (Lowrance Of Arabia) ترجموه لنا لورنس العرب، مع أن أبلد من يتصدّى للترجمة يدرك أن "أف" الإنجليزية تعني الملكية، فلورنس في فكر المؤرخ الغربي هو صاحب شبه الجزيرة العربية الذي قاد من الحجاز، بعد أن خدع حكامه، بعض العصابات العربية ليحقق بها غايات صليبية. فالعرب بريئون من الانتساب إليه، على أي من الترجمتين أخذنا، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فهو بحق لورنس الغرب، وما نسبة هذا الشاب إلى العرب إلا خديعة كبرى لتحقيق غايات سياسية بعيدة الغور لم نبلغ مداها بعد. وفي الحقيقة، فإن جولات لورنس في أوساط بعض القبائل العربية في الأردن وفلسطين وسوريا وما بين النهرين وأطراف شبه الجزيرة العربية لا تتصل بموضوعنا اتصالاً مباشراً، ولكنها تعنينا، لأن "الثورة" التي قادها هذا الرجل بدأت من الحجاز، من شبه الجزيرة العربية.

وُلد طوماس إدوارد لورنس في ٨ ذي الحجة ١٣٠٥/١٦ أغسطس ١٨٨٨ في تيمادوك في شمال ويلز، ابناً سفاحاً للبارون طوماس تشابمان الذي أنجبه وأربعة آخرين من سارة جونز، مربية بناته الإيرلندية، التي عملت معه في فورة من فورات السطو والهيمنة البريطانية على إيرلندا البروتستانتية.

تخرّج طوماس في الكلية اليسوعية في أكسفورد، وكان بحثه للتخرّج في موضوع القلاع والحصون في سوريا وفلسطين إبان الحروب الصليبية. وقدّرت كلية مجدولين -جامعة أكسفورد - القيمة العلمية لبحثه، فقدّمت له منحة لدراسة آثار منطقة كركميش في سوريا (١٩١١-١٩١٤م) حيث عمل هناك تحت رعاية هوجارث. وأجاد لورنس في هذه الفترة الحديث بالعربية، واختلط بالعديد من رجال القبائل، وكتب عن الشخصية العربية، وكانت له اتصالاته مع اللورد كتشنر في القاهرة، فاستعان به الجيش البريطاني في رصد اتجاهات القبائل العربية في المنطقة لمعرفة مواقفها إذا حدث أن دخلت بريطانيا في حرب ضد الدولة العثمانية. ومضى وهو يعمل تحت ستار رسم خرائط لمصلحة الجمعية الملكية البريطانية يتصل بالاستخبارات البريطانية وينقل إليها ما يستقيه من معلومات يلتقطها من مضارب القبائل التي كانت تستضيفه عن طيب خاطر. وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى، جرى تعيينه في نوفمبر ١٩١٤ في قوة الحملة المصرية في القاهرة، وأوكلت إليه الاستخبارات مهمة استنفار القبائل العربية، يخدعها بدعوى القومية العربية ضد العثمانيين الذين انخدعوا بدورهم بالقومية التركية ففقدوا بذلك الشرعية الإسلامية التي مكّنتهم من حكم الشعوب العربية. وطُلب المكتب العربي في القاهرة في يونيو ١٩١٦ إلى لورنس السفر إلى شبه الجزيرة العربية ليكتب عن القدرات العسكرية للعرب والمساعدة في العمل على تكوين عصابات لمقاومة الأتراك في تلك المنطقة الحساسة من جسد الإمبراطورية العثمانية. فالجيش البريطاني - في تقديرهم - لن يستطيع الانتشار في شبه الجزيرة العربية وقفارها لملاحقة قوى الأتراك الذين قد تفلح دعوتهم في استجابة القبائل لنداء الجهاد في الحجاز، وخاصة أن القبائل الحجازية لن ترضى بوجود جيش نصراني فيها يحارب ضد جيش مسلم. وأمدّت بريطانيا رجل استخباراتها بالمال اللازم لشراء الذمم ممن يريد أن يبيع من الشيوخ والحكام والعامة، وعللت ذلك بأن تمويل التمرد العربي بالمال البريطاني سيكلف الخزينة التركية من مئة إلى ألف ضعف ما يمكن أن تنفقه الحكومة البريطانية من أموال لمجابهته عسكرياً، كما يشتّت هذا التمرد العربي جهود القوات التركية التي لن تفلح في ملاحقته والقضاء عليه. وكانت تلك هي الخطة التي كُلّف لورنس القيام بها، ولكنه طوّرها بنحو أذهل رؤساءه الذين كانوا قد أساؤوا الظن به بداية عندما نظروا في تقاريره الأولى، ورأى بعضهم أنه لا يشبه العسكريين، فهو غير منتظم وعفوي وقح، ولم يرَ فيه أحد أبرز العسكريين في ذلك المكتب إلا أنه جحش نطاط. أما لورنس فقد اعتبر الوظيفة التي كُلّف بها "مثيرة تمكنه من أن يحرث في أرض جديدة".

بدأ لورنس بلقاء فيصل، أكبر أبناء الحسين بن علي، "وأدركت أنه الشخص الذي أبحث عنه". كتب ذلك في كتابه: **أعمدة الحكمة السبعة** ولم يزد، تاركاً للقارئ تفسير تلك العبارة بما يراه. وبمباركة الحسين وتحت راية فيصل، خرجت عصابات من القبائل العربية وسجلت أول

انتصار لها ضد الحامية التركية في العقبة ٦ رمضان ١٣٣٥/٦ يوليو ١٩١٧. ويمّم لورنس القاهرة ليناقش مع البريطانيين هنالك الخطط التي تمكّنه من استثمار الوضع الذي حازه. ووافق القائد إدوارد اللنبي على استراتيجية "الثورة العربية" التي اختطّها لورنس. وصرّح اللنبي بعد الحرب بأنه أطلق منذ تلك اللحظة يد لورنس، فقد رأى في تعاونه إخلاصاً بلا حدود، "وليس لدي إلا أن أشكر له عمله الذي لم يكن يقدّر بثمن في فترة الحملة...". وعاد لورنس من القاهرة، وقد رُقّي إلى رتبة الميجور، وهو يحمل قدراً من المال الذي كان يُمثّل الداعم الأقوى الذي يمكن تقديمه "لثواره". وأخذ لورنس يعمل على تحريض فيصل بن الحسين والعصابات العربية التي أولته قيادها حتى سقط الرجل في عام ١٩١٧م أسيراً لدى الأتراك في درعا، وقضى يومين في الأسر قبل أن يُحرر، وحكى بعد ذلك عن التعذيب الذي لقيه في الحجز، وأشار إلى أنه لا يريد أن يكشف عمّا حدث في تلك الليلة، "فالرجال المهذبون من أمثاله" ينبغي ألا يتحدثوا في مثل تلك الأمور، وأوحت روايته أنه تعرّض لاغتصاب من قائد حامية درعا. ولا نستطيع بدورنا نفي ذلك الحادث أو إثباته، ولكننا ندرك أنه قصد بروايته إشانة سمعة قائد الحامية التركي، أما هو فشذوذه أمر لا يحتاج إلى دليل، فقد أكده العديد ممن أرّخوا له. وفي تقديرنا ما كان يجدر به ذكر ذلك الحادث الذي لا ينال منه إذا وقع شيء من ذلك من القائد التركي أو بعض جنوده، بل إننا لا نرى مبرراً من شكواه أنه عُذّب في فترة احتجازه بالضرب، فقد كان لورنس - كما جاء عند بعض من أرّخوا له - "مازوشيا" يتلذّذ بتعذيب الذات، وتأكد بشهادات المعاصرين له أنه كان حتى بعد أن ترك الخدمة العسكرية يستدعي أحد زملائه من العسكر لجلده. أما شذوذه الجنسي الذي أفاض كل من كتب في سيرته في الحديث عنه فتشهد به عليه بعض رسائله التي جاء منها: "أنه عرف الكثير من مبادلة الرجال الحب بعضهم لبعض، وكان ذلك عملاً مشوّقاً".

سقطت القدس فاعتبر لورنس تلك المناسبة نقطة الذروة في الحرب، وتمكن ذلك الصليبي من أن يحصل من شريف مكة وأولاده على اعتراف ضمني بالوجود الصهيوني في القدس "المحررة"، كما تمكن من خديعتهم فأقنعهم بزيف الحقائق الموثقة التي كشف عنها الروس البلاشفة بعد اعتزالهم الحرب من مخطط سايكس- بيكو واتفاق بريطانيا وفرنسا على تقسيم المنطقة العربية بعد خروجها من يد تركيا. وحين سقطت دمشق في ٣ أكتوبر ١٩١٨ ودخلها جيش فيصل المؤلف من نحو ألف وخمسمئة من الخيالة العرب هرع لورنس إلى قبر صلاح الدين وانتزع منه التاج البرونزي الذي كان قد وضعه عليه الإمبراطور الألماني وليام الثاني حين زار دمشق. وأهدى لورنس ذلك التاج إلى المتحف الحربي البريطاني، معلّقاً بأن صلاح الدين ما عاد بحاجة إليه. وفي الحقيقة فإن لورنس وأمثاله لم يكتفوا بسرقة عقولنا حين كتبوا لنا تاريخنا، بل عملوا أيضاً على سرقة كل أثر يقف شاهداً عليه. فإضافة إلى تاج صلاح الدين، أهدى لورنس المتحف البريطاني ثلاثة صناديق كبيرة من الآثار، كما شهد بذلك ولاس بدج، مدير

قسم المصريات في ذلك المتحف. ولا نريد في هذه العجالة سوى تسليط الضوء على لورنس، هذا الرحالة الغربي الذي جاب أرجاء بعض البلاد العربية متخذاً من العمل بالآثار دثاراً للعمل ضد حقوق العرب والمسلمين في بلادهم، ونجح في ذلك بجهود عربية خالصة لغير وجه الله. ورغم أننا لا نتّهم المعاصرين من الغربيين الذين يعملون في مجالات الإنسانيات وغيرها في بلادنا العربية، نؤكد أن الطبع يغلب التطبّع، وأن الطبع الذي أسهمت كتب الرحالة الغربيين في تكوينه في المجتمعات الغربية شيء غدا فيهم أصيلاً يرثه طارفهم عن تليدهم، وأن أساليب الاستعمار العالمي قد تُغيّر كالحرباء ألوانها ولكنها تظل ثابتة في أهدافها وأساليبها. ويبقى النفاق الصفة الأبرز في تلك الأساليب، فقد جاء في أعمدة الحكمة السبعة أن لورنس كان كثيراً ما يتعرض لتأنيب الضمير. كتب: "كان واضحاً لي منذ البداية أننا إذا كسبنا الحرب فإن هذه الوعود لن تساوي قيمة الورق الذي كتبت عليه. فإذا كنت صادقاً مع هؤلاء العرب، كان يجب عليّ أن أنصحهم بالعودة إلى ديارهم، فهم يحاربون مخدوعين".

وكتب وهو على رأس فرقة الاستطلاع في طريقه لاحتلال دمشق كم تمنى لو لقي مصرعه في الطريق "فقد استدعيناهم (العرب) ليحاربوا من أجلنا بكذبة، وهذا شيء يفوق قدرتي على الاحتمال".

لعلّ من الطريف أن نذكر أنّ بريطانيا قد عيّنت لورنس مستشاراً لفيصل للدفاع عن "حقوق" الشريف وأولاده في مؤتمر السلام في عام ١٩١٩م، وكان لورنس يعرف كما تعرف الحكومة البريطانية أن الأرض العربية الضحية باتت جاهزة للتقسيم بين قوى الاستعمار، ولا حصّة فيها ولا حقوق للشريف وأبنائه إلا من الباطن، وأن ما يجري في ذلك المؤتمر لا يزيد على إجراء تعديلات في حصص كل من القوى الدولية من الجسد العربي المستباح. ولعلنا نحفظ للورنس أن تشرشل حين أوكل إليه العمل على تنظيم شؤون المستعمرات في عام ١٩٢٠م وعيّنه مستشاراً له، رشّح هو وزمرته من الرحالة الجواسيس الآخرين الذين من ضمنهم جرترود بل - في مؤتمر القاهرة الشهير الذي عقد في عام ١٩٢١م - عبد الله بن الحسين أميراً في شرق الأردن، وأخاه فيصل ملكاً على العراق، وذلك وفق الشروط التي نصّت عليها تلك اللجنة، وجرى تعيين الرجلين حاكمين بغطاء بريطاني. وكان فيصل قد فقد عرش سوريا لمصلحة الفرنسيين في ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠، وكان قد حازه لفترة مرحلية وجيزة فصلت بين خروج الأتراك وتسليم سوريا للفرنسيين بموجب اتفاق سايكس بيكو. ولعل لورنس قد حقق بهذا شعوره المتورّم بالذات حين قال في هذه المناسبة: "كنت أرمي إلى خلق أمة جديدة، وأن أستعيد للعرب مجداً غابراً، وأن أهيئ لعشرين مليون من الساميين أساساً يبنون عليه قصور أفكارهم القومية!".

انتهت حياة هذا الرجل الأسطورة الذي وصفته زميلته جيرترود بل بالرجل "الذي يؤجّج النيران في الغرف الرطبة"، ولا يزال البريطانيون يلحّون سنة بعد أخرى على إحياء ذكراه، في

٣ صفر ١٣٥٤/٦ مايو ١٩٣٥، حين كبت به دراجته الهوائية فأوردته هلاكه. ولا يزال كتابه **أعمدة الحكمة السبعة** يُنشر ويُترجم ويُروّج له كلما أثير أمر إعادة ترسيم حدود البلاد العربية، كذلك نُشرت في عام ١٩٨٦م رسالته العلمية: **حصون الصليبيين** التي كانت قد نُشرت للمرّة الأولى عقب وفاته في عام ١٩٣٦م، وصدر في عام ١٩٨٨م في لندن كذلك كتاب بعنوان: **خطابات تي آي لورنس**، اختيار وتحرير ماكو لم براون. وقد حشد هذا الكتاب الأخير عدداً من رسائل طوماس لعدد من المشاهير، لعل أبرزهم جورج برنارد شو وزوجته شارلوت، وونستون تشرشل، وسيفرد ساسون. وقد أورد براون في رسالة من لورنس إلى شارلوت يحدثها عن المتعة التي قد تنجم أحياناً عن الجنس المثلي. كذلك نُشرت للورنس أيضاً قبل موته ترجمة لأوديسا هومر وكتاب بعنوان: **عملاق الغابة**، وهو عبارة عن ترجمة لأسطورة فرنسية، وله أيضاً كتاب: **ثورة الصحراء** الذي صدر في عام ١٩٢٧م، وقد لخّص لورنس في هذا الكتاب ما كتبه في أعمدة الحكمة. وما زلنا نرى الروايات تكتب في الغرب عن لورنس، وقد وجد بعضها طريقه إلى السينما، ولقي فيلم "لورنس العرب" رواجاً في الغرب والشرق، ونال الإعجاب عند كثير من العوام في البلاد العربية. وفي الحقيقة، فإننا نستطيع أن نفهم احتفاء الغرب بهذه الشخصية التي تمكنت بالخديعة من أن ترمي شرقنا العربي تحت أقدام الغزاة الصليبيين والصهاينة والغربيين عموماً، ولكن يصعب علينا أن نفهم إشادة البعض في عالمنا العربي "بثورة عربية" ما زلنا نعيش عقابيلها ذلاً وهواناً وعمالة وخيانة. يقول لورنس إن الحكومة البريطانية قد حرّضت العرب ليحاربوا من أجلها نظير وعد بأنهم سيحكمون أنفسهم بأنفسهم.

> لقد بدا لي واضحاً منذ البداية أننا إذا كسبنا الحرب فستغدو وعودنا لهم حبراً على ورق، ولو قُيّض لي أن أنصحهم لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم وعدم المخاطرة بحيواتهم لقاء هذه الوعود. لقد خاطرت بالخداع لاقتناعي بأن مساعدة العرب لنا كانت ضرورية لنكسب نصراً رخيصاً سريعاً في الشرق، وكان من الأفضل لنا أن نربح ولا نلتزم بوعودنا بدلاً من أن نخسر.

وفي تقديرنا أن هذا هو عين ما يفعل الشيطان الذي لا يعد الإنسان إلا غروراً. فقد رسم إبليس الماكر المراوغ لآدم صورة متخيّلة لمُلك لا يبلى، وأقنعه بوعود ليس لها في عالم الحقيقة مكان، فأغواه فسقط لولا أن تولاه ربه الذي نطمع في أن يتولانا برحمته أيضاً، فنحن بعض بني آدم الذين يتبعون خطوات الشيطان ويثقون بوعوده.

اكتسبت هذه الشخصية في الغرب، خاصة في بريطانيا والولايات الأمريكية المتحدة، بُعداً أسطورياً. فهو الرجل العاصفة الذي اكتسح الأتراك كنساً كفعل الريح بأوراق الشجر في

الخريف، وهو الفارس في عباءته الفضفاضة التي تتطاير مع الريح حتى لتسبق مقدمة حصانه، وهو السياسي القدير الذي خدم القضايا العربية حين غيّر وجهة العرب من الشرق إلى الغرب فأسلموه قيادهم، وهو في المحصلة النهائية "لورنس العرب" وليس لورنس العربي. غير أن المتصفّح العربي في أوراق لورنس يتوه حين يجوس بين سطورها. هل كان الرجل فعلاً قائداً لجيش فيصل الذي عمل على قتال الأتراك لقاء وعود كاذبة وحفنة إسترلينيات، أم هو مجرد جاسوس ومستشار لذلك الرجل فيما كانت القيادة في أيدي زعماء العصابات العربية؟ وهل كانت مهمة لورنس استخبارية صرفة كما تثبت وثائق تعيينه أم كانت عسكرية صرفة كما صوّرته الروايات اللاحقة؟ وهل كان لورنس مُحبّاً للجنس العربي كله أم كان قد قصر حبّه على دحام الفتى العربي المرافق له؟ ونعتقد أن المتصفّح العربي لسيرة هذه الشخصية الشاذة لن يجد إلا أن الرجل كان ضابط ارتباط بريطانياً تمثلت مهماته في تقديم الرشوة لبعض الحكام والشيوخ الذين جعلوا الثراء ضالتهم في هذه الدنيا، وغيّبوا عقولهم حين توهموا أن الغرب يقدم لهم المال صدقة واحتساباً.

يقول بعض مؤرّخي الإمبراطورية البريطانية من الغربيين إن الانتصارات التي حققتها الإمبراطورية تمت على أيدي الهواة. ونحسب أن هذه الملاحظة كانت صادقة إلى حدّ بعيد حين ننظر في مسيرة هذا التاريخ، اعتباراً من جهود القرصان دريك حين كانت الإمبراطورية لا تزال في رحم الغيب إلى الفترة التي قام فيها المكتب العربي في القاهرة عشية الحرب العالمية الأولى، الذي لم يعرف قبلاً للعاملين فيه من رجال ونساء في عالم السياسة والإدارة والحكم شيئاً يذكر.

شهدت هذه الفترة عدداً من الرحلات التي قام بها سياسيون واستخباريون بريطانيون إلى نجد، ولكنها لم تُخلّف زخماً طوبوغرافياً ولا ملاحظات عن الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية. فقد تمّت لأولئك الرحالة الإفادة من أدب الرحلات السابقة. وقد نستطيع أن نكتب في هذه العجالة عن الرحلة التي قام بها دونالد ستورز، السكرتير الشرقي في القاهرة في مايو ١٩١٧ إلى بغداد وهو يحمل رسالة لابن سعود تدعوه إلى التعاون مع الجهد الحربي الذي يقوم به الشريف الحسين والعمل على مهاجمة ابن رشيد في حائل. ووصل ستورز إلى بغداد وواصل طريقه إلى الكويت عبر البصرة وغادر إلى الرياض في ١٧ شعبان ١٣٣٥/الأول من يوليو ١٩١٧، ولكنه طفق عائداً إلى الكويت بعد يومين من بداية رحلته لإصابته بضربة شمس. كذلك أرسل البريطانيون بعثة مشتركة من مركزي القاهرة وبغداد للعمل على تنسيق التعاون بين الحسين وابن سعود، وحمل عبء هذه المهمة الصعبة سانت جون فلبي وكنكليف أوين وهاملتون. وقابلت البعثة ابن سعود في المحرم ١٣٣٦/نوفمبر ١٩١٧، وجاء في تقريرها أن ابن سعود لم يُخفِ امتعاضه من السياسة البريطانية التي لا تساوي بينه وبين الشريف، وأفاد

بأنه يرفض تماماً أن يكون الشريف رئيساً له، وطالب السلطات البريطانية بأن تعامله على قدم المساواة مع الشريف، وبأن تعترف بسيادته غير المنازعة على نجد وتوابعها. وفشلت البعثة في مهمتها، فتقرر أن يكون جون فلبي ممثلاً دائماً لبريطانيا لدى ابن سعود، وقضت مهمة الرجل بمراقبة ابن سعود والعمل على الحيلولة دون وقوع قتال بينه وبين الشريف حسين ومحاولة تحريضه لدفعه للقتال ضدّ ابن رشيد في حائل، وتشديد الحصار على مناطق الأحساء لمنع تهريب الذخيرة والسلاح إلى الأتراك ومن يحالفهم. وقام فلبي في هذه الفترة برحلة أخرى وصل فيها إلى جدّة للقاء الملك حسين، في بعثة تألّفت منه ومن هوجارث الذي وفد من القاهرة، وباسيت المقيم البريطاني لدى الحسين. وقابلت البعثة الملك حسين في ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٦/١٦ يناير ١٩١٨ للتفاوض معه بشأن ما رشح من معاهدات سايكس بيكو ووعد بلفور لليهود في فلسطين. وجاء في تقرير فلبي أن عبد العزيز بن سعود، وليس الحسين، هو رجل المرحلة في شبه الجزيرة العربية.

جون فلبي

ولد جون فلبي في ٣ إبريل ١٨٨٥م في سيلان، وبعد أن تخرّج في كلية وستمنستر درس اللاهوت في كلية الثالوث المقدس في كمبردج، ثم التحق في أواخر عام ١٩٠٧م بالإدارة السياسية لحكومة الهند، وعمل في عام ١٩٠٨ في لاهور في البنجاب. وقد أبدى فلبي في هذا المجال تميّزاً ملحوظاً أهّله في فترة الحرب العالمية الأولى لأن يشغل منذ نوفمبر ١٩١٥ منصباً سياسياً كبيراً في حملة ما بين النهرين، وأصبح بعد ذلك رئيساً لدائرة المالية في الإدارة البريطانية في بغداد، وتتلمذ في هذه الفترة على جرترود بل، وأوفد في مهمة سياسية مع آخرين في عام ١٩١٧م إلى ابن سعود، وعاد من رحلته مقتنعاً بأن على بريطانيا أن تتعامل مع ابن سعود ملكاً للعرب وليس مع الشريف حسين، وعُيّن من ثمّ مندوباً لدى ابن سعود.

عُيّن فلبي في عام ١٩٢٠ وزيراً للأمن الداخلي في حكومة الانتداب في العراق، وعمل في هذه الفترة على صياغة دستور للعراق بمجلس منتخب، ونُقل في نوفمبر ١٩٢٠ ليعمل رئيساً للجهاز السري للانتداب البريطاني على فلسطين، وخدم في هذه الفترة تحت إمرة لورنس قبل أن يرث منصبه ممثلاً للحكومة البريطانية في شرق الأردن. واستُدعي إلى لندن في نهاية عام ١٩٢٢م للمشاركة في الاجتماعات الممتدة التي كانت تعقد مع المسؤولين في الحكومة البريطانية عن فلسطين وهم: ونستون تشرشل، والملك جورج ، وأمير ويلز، والبارون روتشفيلد، و ويكمان ستيد، وحاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية العالمية.

اشتُهر فلبي بأنه شديد الاعتداد برأيه، عنيد في ثباته عليه. ويروى أنه قال لأحد زملائه

من الذين اعترضوا على بعض آرائه: إني لم أسمع ما قلته، ولكنني غير موافق البتة على أيّ ممّا جاء فيه! كال فلبي النقد تلو النقد لسياسة حكومته في شبه الجزيرة العربية، وعارض اتجاهاتها للتعامل مع شيوخ العرب، وخاصة في ما يتصل بابن سعود الذي تنبّأ بأنه الرجل الذي سيبلور مستقبل شبه الجزيرة العربية. وحين تناقضت آراؤه مع رؤسائه تناقضاً صريحاً - خرج به فلبي عن أسلوب الإدارة السياسية للحكومة البريطانية في إدارة الخلاف المرحّب به مع الرؤساء، مهما علت رتبهم، بشرط أن يلتزم الجميع في نهاية الأمر بقرار الحكومة الصادر بعد دراسة تلك الخلافات - قُبلت في عام ١٩٢٤م استقالته واستُغني عن خدماته، وذلك: "لأنه كثيراً ما تخطّى حواجز الحكومة البريطانية وتجاوز خطوطها الحمراء التي تحظر استقلالية موظفيها السياسيين بالقرار". وجاء في بعض وثائق وزارة الخارجية أن فلبي أحدث أموراً تناقض أصول السياسة البريطانية، "كما أنه كان كثير الجدل في ما يخصّه، دائم الشكوى من أن راتبه لا يرقى لمكافأة ما يؤدّيه من مهمات". ومع ذلك، استمر لخمس سنوات أخرى يتلقّى راتبه من الجهاز السري. وانخرط فلبي بعد ذلك في خدمة ابن سعود، وأعلن في عام ١٩٣٠م إسلامه. واعتمدته ستاندرد أويل كاليفورنيا في عام ١٩٣٢م مستشاراً لها لعقد اتفاق امتياز النفط مع ابن سعود، ولكنه ظلّ يكشف لشركة بترول العراق (الإنجليزية) خطط سوكال الأمريكية، ويحذرها من أن الشركة الأمريكية ستفوز بالامتياز. وممّا يُروى أنه قام بذلك حرصاً على مصالح سيّده ابن سعود، لأنه كان يرجو أن يقود التنافس بين الشركتين إلى شروط أفضل للسعوديين. وأخيراً ظفرت سوكال في مايو ١٩٣٣ بالامتياز، وعاد فلبي ليعمل مستشاراً لهذه الشركة، بعد أن تحوّل اسمها إلى أرامكو. واستمر هاري سان جون فلبي أو جاك فلبي أو عبد الله فلبي - كما كان يعرف في هذه الفترة - على خلافه مع سياسة الحكومة البريطانية تجاه شيوخ العرب ونقده لها واتهامها بالجهل لمخالفتها ما يشير عليهم به من آراء لم يعملوا على الالتزام بها. وفي هذا الصدد، جاء في تقرير لوزارة الخارجية البريطانية في عام ١٩٣٧م بعد عودة فلبي من بعض رحلاته:

> إنه كان في قمة نزعاته في تطلعه إلى البطولة، بدا كأنه بريموس الذي تسند إليه الأساطير اليونانية سرقة النار من السماء ونزوله بها إلى الأرض ليعلّم البشر استخدامها. لقد أضاف فلبي إلى رغبته العارمة في هداية البشرية نية بالغة السوء في فضح ما سمّاه نفاق الحكومة البريطانية.

ظلّ فلبي في الرياض حتى عام ١٩٣٩م ليعود إلى بريطانيا ويخوض انتخابات برلمانية، وكان للسياسة العربية نصيب في حملته الانتخابية، حيث دعا إلى شراء السلام في فلسطين بعشرين مليون استرليني يدفعها الصهاينة لتوطين الفلسطينيين بواسطة ابن سعود، على أن ينشأ وضع خاص في القدس على غرار وضع الفاتيكان. ولا يفيد ما تيسّر لنا من معلومات أن فلبي كان

مُكلّفاً بهذ المهمة من ابن سعود ولا عاملاً بتوجيه منه، ولكنه على أيّ حال كان قد سبق له أن ناقش بنود هذه الخطّة في اجتماع له مع وايزمان وموشي شرتوك (شاريت لاحقاً)، وضم ذلك الاجتماع ابنه كم Kim أيضاً. واقتنع وايزمان بالفكرة، ووعد بمناقشتها مع روزفلت، الرئيس الأمريكي. ولما لم يظفر فلبي بكرسي البرلمان البريطاني، عاد إلى نجد مرّة أخرى ليعمل في خدمة ابن سعود الذي، كما روى الكثيرون، لم يكن يثق بالرجل ولكنه عمل على الإفادة منه في المجال الإعلامي وفي بعض مجالات المعرفة التي كانت تنقص رجاله في ذلك الوقت.. يكرّر فلبي في كتابه : **الربع الخالي** ما سبق ان لاحظه موريزي– الذي سبقه إلى الرحلة في شبه الجزيرة العربية بنحو قرن من الزمان أو يزيد قليلا – حين قال هذا الأخير ان عرب شبه الجزيرة يُمجّدون الغربيين . وبدوره يروي فلبي أنه حين كان في بعض رحلاته أثار فضول بعض من صادفه من العرب فأدّعى مرافقوه حين سئلوا عنه أنه مهندس كلفه ابن سعود بدراسة مشكلة المياه في تلك المنطقة . وبعدة عدّة أسابيع ،وفي ظروف مماثلة ، قُدّم فلبي لبعض العرب على إنه طبيب ، وفي مناسبة لاحقة قُدّم على أنه خبير في سلاح المدفعية . ويخلص فلبي مما رواه إلى القول إن" "الرجل الأبيض يُعدّ في شبه الجزيرة العربية وارث العلوم كلها ،ومستودعها، ملم بكل ما فيها ." كتب فلبي عدّة كتب في الشؤون السياسية الخاصة بابن سعود، وإليه يرجع الفضل في تعريف قطاعات واسعة من الرأي العام الغربي بسيرة ابن سعود وكفاحه لإحياء الدولة السعودية، كما كتب فلبي أيضاً عن رحلاته المتواترة في المناطق السعودية المختلفة، وخاض في جغرافية المنطقة وتاريخها. ونستطيع القول – حكماً بما اطلعنا عليه من كتب فلبي عن المملكة العربية السعودية – إنها افتقرت إلى منهج المؤرّخ. فعلى الرغم من أنه اعتمد في كثير ممّا كتب على روايات ابن سعود وبعض المتصلين بالأحداث في المنطقة، وعلى بعض ملاحظاته الشخصية للدور الذي أدّاه، تضمن سرده للأحداث فجوات عديدة يستعصي على القارئ جسرها. أما سرده لأخبار رحلاته في شبه الجزيرة العربية، فقد اتخذ شكلاً برزخياً تموضع بين مناهج الرحالة الأوروبيين التي تنظر إلى ظواهر الأشياء بعين غربية وبين الصدق الذي كان يجب أن يسود أخبار رحلات هذا الرجل التي وجدت الدعم من ابن سعود الذي كان يشجّع هذا النشاط. ونتفق مع بعض منتقدي الرجل الذين اتهموا أسلوبه بالجفاف، الأمر الذي لم ينكره فلبي نفسه الذي يقول إنّه يسعى لمواجهة القارئ بالمعلومة بطريقة مباشرة.

ظلّ فلبي في خدمة ابن سعود حتى عام ١٩٥٣م حين أصبح غير مرغوب فيه بعد وفاة الأخير، فقد كانت تحوم حوله منذ فترة بعيدة العديد من الشبهات التي قد يصحّ بعضها عليه. أُشيع أن الرجل جاسوس بريطاني، فيما سرت شائعات أخرى بأنه جاسوس يتعامل مع الحركة الشيوعية، كما اتُّهم أحياناً بأنه عميل صهيوني. واضطر فلبي إلى الرحيل إلى بيروت، ثم ما لبثت الرياض أن سمحت له بالعودة إليها والإقامة فيها مرّة أخرى، وصار بعد ذلك يتنقل بين

المدينتين حتى مات في عام ٣٠ سبتمبر ١٩٦٠ في بيت ابنه المسمّى كيم في بيروت. وكان كيم قد تتلمذ في مجال الجاسوسية على والده - في ما يبدو - وأصبح في لبنان عميلاً مزدوجاً لبريطانيا والاتحاد السوفياتي كليهما.

الفصل الخامس

دي جويري والعنقاء العربية وأخواتها

العنقاء العربية عنوان كتاب دي جويري، أحد الرحالة المتأخرين من الذين زاروا بلاط ابن سعود عام ١٩٣٥م في مهمة سياسية لمرافقة السير أندريو ريان، أول وزير بريطاني لدى المملكة العربية السعودية. ولم يكن الرجل مكلفاً رسمياً بكتابة تفاصيل رحلته في كتاب.

خدم جيرالد دي جويري ضابطاً في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، وقاتل في الجبهة الفرنسية، وأصيب في العمليات الحربية، ما اضطره إلى ملازمة سرير المستشفى. وقد شغل نفسه في هذه الفترة بتعلّم اللغة العربية، ما أهّله للعمل عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م في البعثة البريطانية في العراق ضابطاً في استخبارات سلاح الطيران الملكي. وشارك في هذه الفترة في مسارح العمليات في كردستان وفي جنوب العراق، فاكتسب معرفة بالمنطقة عضدت اهتمامه بسياسة شبه الجزيرة العربية، وأهّلته للقيام بمهماته الاستخبارية على الوجه الأكمل. ذهب دي جويري مع أندريو ريان إلى الرياض عام ١٩٣٥م، وعاد إلى نجد مرّة أخرى عام ١٩٣٩م ولكنه لم يستقر فيها، وعُيّن عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م قائماً بالأعمال في العراق، وعاصر في تلك الفترة ثورة رشيد عالي الكيلاني، وأعيد مرّة أخرى إلى السلك العسكري، وأوكلت إليه قيادة فرقة فرسان الدروز التي ضمّت نحو ألف ومئة فارس، ومثّلت جناحاً في مسيرة الجيش الزاحف إلى سورية بقيادة ميتلاند. وقد عمل ولفرد ثسجر – وهو إداري استخباري بريطاني آخر – نائباً له، وللأخير أيضاً حظّه من الرحلة العربية، خاصة في عبوره الربع الخالي وفي مناطق ساحل عمان، وقد سطّرها في كتابه: **الرمال العربية**.

كانت مهمة جيرالد دي جويري إلى الرياض سياسية، إلا أنه أدرك بحسّه الاستخباري وتدريبه العسكري ودرايته السياسية أنه يزور هذه المنطقة في مرحلة مفصلية من تاريخها، وأن شبه الجزيرة العربية كانت تستشرف في تلك الفترة منعطفاً جديداً، فعمل على تنبيه ساسة بلاده

والدوائر العلمية المهتمة فيها إلى فحوى هذا التحوّل. ونرى أن كتاب دي جويري يمكن أن يمثّل بعد النقد والتمحيص مصدراً يمكن اعتماده للتاريخ لهذه الفترة في شبه الجزيرة العربية، مع مراعاة أن الخلفية الثقافية التي ينطلق منها هذا الرجل لا تتفق وأبجدياتنا الثقافية بل تناقضها، وأنه كان ينطلق من خلفية سياسية لأداء مهماته الاستعمارية التي تتناقض والتطلعات العربية، إضافة إلى أنه – شأن كافة مسؤولي تلك الإمبراطورية في الشرق العربي – ينطلق من ذهنية متخمة بكتابات الرحالة الغربيين السابقين له، جعلته يعشو عن رؤية الحقائق على نحو سليم. وسادت هذا الكتاب رومانسية متدفقة توحي – بوضوح – بأن العرب بعامة وأهل الجزيرة بخاصة يحنّون إلى ماضيهم العريق، ويتطلعون إلى أن يحققوا في حاضرهم بعض ما اندثر من ماضيهم التليد. فابن سعود – كما يرى دي جويري – يسعى لإنشاء دولة حديثة على أسس قديمة.

بدأ دي جويري انطلاقته من مرتكزات لها أسسها في الفكر الإغريقي الروماني، واجتهد في أن يزجّ بها زجّاً في تيار ثقافتنا العربية، فبدت رومانسيته لنا نابية غير مقبولة ولا منطقية. ونعذر الرجل في ما ذهب إليه، لأنه ما كان يكتب للعرب – رغم أنهم في هذه الفترة قد بدأوا يدركون بعض ما يكتب عنهم – بل كان يخاطب مجتمعه الغربي الذي ظلّ منذ العصور الإغريقورومانية يرى أرض العرب أساطير حيّة؛ فالعنقاء التي جعلها دي جويري عنواناً لكتابه – والتي لا مراء في أنها قد وردت في قصص الأدب العربي الموغل في الخيال – هي عند العرب مثل "الغول والخِل الوفيّ" كائن لا وجود له إلا في الأساطير، ومع ذلك يصرّ دي جويري – في رومانسية تشرّبت الفكر الوثني الإغريقي والروماني – على أن يعطي هذا الكائن هوية عربية بشهادة أوروبية!

استغرق التعريف بالعنقاء حيّزاً كبيراً من كتاب دي جويري. يحيلنا هذا الكتاب في البداية على ما ذكره أحد الأدباء الفرس من أن آخر العنقاوات الحيّة عاشت في حدائق حيوان البلاط الفاطمي! ويبدأ دي جويري في استقصاء وصف طائر العنقاء العربية، واعتمد الأسطورة الغربية في هذا الصدد. والأسطورة – غربية كانت أو غير ذلك – لن تؤدي بذاتها إلى توثيق التاريخ. يقول دي جويري على لسان بلني: إن العنقاء طائر ذو ريش أرجواني اللون ينحسر عند أطرافه في الرقبة والذيل. فالأولى يزيّنها ريش ذهبي اللون، أما الذيل الذي يمتاز بريش لازوردي طويل فيخالطه في تدرج ريش آخر وردي. ويساير هذا الرحالة تلك الأسطورة الأوروبية القديمة ليحكي لنا على لسان بلني أيضاً أن لطائر العنقاء عُرفيْن من الريش: يقف الأول كالحزمة فوق رأسه، ويزين الآخر أعلى الرقبة، وأن الشمس تقدس هذا الطائر، وأنه عندما يشيخ ويحسّ بدنوّ أجله يتوارى في عش يتخذه من أعواد القرفة، ويملأه بصنوف العطور، فيتضوّع مرقده أريجاً بعبق البخور المتصاعد، ويظل مستلقياً فيه حتى يدركه الموت الذي لا يمثّل له نهاية المطاف، فبعد الموت تنبثق من عظام هذا الطائر دودة صغيرة بنية اللون ترضع نخاعه ثم ما تلبث أن تترعرع حتى تستحيل فرخاً يشبّ فيؤدي بكل الضراعة والخشوع ذلك العمل الذي كان أسلافه يؤدّونه

سلفاً، فيحمل عشّه كاملاً ويهاجر به إلى مدينة الشمس على مشارف بانشايا Panchaia حيث يودعه مَذْبَحَها المقدس. ويضيف دي جويري اعتماداً على أساطير الغرب الإغريقورومانية أن "السنة العظيمة" تنتهي بانتهاء حياة هذا الطائر "لتبدأ من جديد مع الفرخ الوليد لتعيد دورة الفصول السابقة، وتأخذ النجوم تسطع وتتوهج مرّة أخرى".

يحمّل دي جويري قلمه فوق طاقته حين يأخذ في شرح معنى السنة العظيمة التي أوردها في نصّ الأسطورة والمعنى المقصود من السطوع والتوهج، ويستغل في ذلك معرفته بالأساطير الأوروبية القديمة، ويصل إلى أن "السنة العظيمة" هي مسار عطارد - رسول الآلهة وأقرب السيارات إلى الشمس - وتمتد سنته ستمئة وخمسة وعشرين عاماً ممّا نعدّ، ومع ذلك يذهب هذا الرحالة ليؤكد لقارئه أن للعنقاء هوية عربية صرفاً منذ أمد بعيد، ويربط لغوياً بين اللفظ اللاتيني الأصل Phoenix الذي يعني العنقاء، وبين الفينيقيين ذلك العنصر الشرقي الذي - في ما نعرف من وقائع التاريخ - قد حمل قدراً كبيراً من الحضارة إلى الغرب البدائي الهمجي. ودافع دي جويري بأن الإغريق كانوا يعرفون النخلة الشرقية الهوية بلفظ Phoenix أيضاً، واعتماداً على ذلك أكد للعنقاء - Phoenix بلا لبس ولا جدال - الهوية العربية. ويذهب هذا الرحالة - اعتماداً على مصادره الأسطورية - إلى أن بانشايا الواردة في النص هي جزيرة سقطرة الراقدة عند السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وأن اسمها يعني - حين يترجم من السنسكريتية - جزيرة النعيم، وهو لفظ بمعنى الجنة، اكتسبته تلك الجزيرة "لأنها موطن الملوك الذين يملكون أرض البخور". ويضيف دي جويري أن العنقاء تقضي قسطاً من حياتها في ماشو Mashu التي تعني - في تقديره - وسط شبه الجزيرة العربية التي شكل جبلا أجأ وسلمى مداخلها، ويقول: إنها كانت تعرف في مرتفعات نجد نصّاً بلفظ: العنقاء!

هكذا يمكن القول إن دي جويري لم يتورّع عن استغلال الأساطير الغربية ومزجها بالأساطير الشرقية غير العربية لإثبات ما يظنه حقيقة عربية موغلة - في تقديره - في الوهم الذي استحدثه الخيال العربي الغارق في الرومانسية. ويظل دي جويري يبرر ويلحّ في تكراره - اعتماداً على أساطير من المخيّلة الغربية التي لا تميّز بين حضارات الشرق المختلفة - على الهوية العربية لهذا الطائر، ويخلط خلطاً مريباً - شأن أكثر الرحالة الغربيين - بين تلك الحضارات التي يعدّونها حضارة واحدة موغلة في القدم، غارقة في الرومانسية، تعكس مظهراً واحداً موغلاً في البدائية، رغم العراقة التي يعترف بها بعضهم لها. أما الحقيقة التي يتجاهلها هؤلاء الرحالة، أو التي قد يجهلها البعض منهم، حين يضعون الحضارة الغربية الطارفة الضحلة الجذور في مواجهة الحضارات الشرقية التليدة، فهي أن حضارات الشرق متعددة، وأن منها ما تضارع به نظيراتها الشرقيات في الرقيّ والسموّ، وأن كلاً منها - رغم تشابكها - تمتاز عن الأخرى بتفرّدها الذي أسبغت منه على الأخريات، مؤثّرة فيها ومتأثّرة بها. ولا مندوحة عن إشارة

عابرة إلى أن حضارات الصين غير حضارات الهند التي تختلف بدورها عن حضارات فارس وما بين النهرين، واليمن ووادي النيل، والحضارات الأخرى التي لم نذكرها، والتي أسبغت على الشرق رقيّاً مادياً وروحياً لم تبلغ شأوه بعد حضارة الآلة في عالمنا المعاصر، التي لم يجد الإنسان إنسانيته فيها بعد.

يخوض دي جويري في علاقة القربى بين العنقاء العربية والسمورغ Simurgh الفارسي الذي يجتهد هذا الكاتب في وصفه أيضاً، ويرى أنه طائر مثل العنقاء تماماً نادر الوجود، يعيش بمعزل عن بني الإنسان على قمم الجبال الشوامخ، متّخذاً عشّه من أعواد تستخرج منها عصارة الصبر، يقيمه على قوائم من حطب الأبنوس والصندل. ويضيف هذا الرحالة أن السمورغ حين يحلق في السماء تظلل المنطقة غمامة يكسي هواؤها عتمة كثيفة حتى لتبدو كأنها سحابة توشك أن تمطر مرجاناً! ويضيف دي جويري – اعتماداً على مصادر الأسطورة الغربية – أن السمورغ بات بعدئذ يسكن شبه الجزيرة العربية في جبال كاف، موطن الجن العربي. ويسرد – في أسلوب قصصي مشوّق يجذب به القارئ الغربي، ويحلّق به في ما يتوهم أنه الخيال الشرقي – بعض القصص الواردة في شأن السمورغ، منها: أنه ظلّ حامياً لرستم وأبيه حتى تصدّى له إسفنديار وقتله، رغم الخصائص الكامنة في ريش هذا الطائر، والتي تضمن له حصانة ضد القتل! ولا يني هذا الرحالة في تقصّي أخبار قرابة العنقاء العربية في الشرق اعتماداً على مصادره الأسطورية الغربية، فيذكر طائراً خنثى في الصين يلقّح نفسه، وهو رفيق الغول، ويمثل في ذاته رمزاً كونيّاً معيناً. ويصفه بأنه طائر أحمر يسمّونه فرخة السماء، يرابط في الربع الجنوبي عند علامات المجرّة الأربع، يمثّل فيها النار والحرارة والصيف القائظ، ويقوم صباح كل يوم من موقعه فوق شجرة الحياة في أعلى العالم يغرد للشمس ليوقظها لتؤدي دورها من جديد. ولا يزال دي جويري يحلّق بنا بجناح الأساطير الغربية – دونما سبب منطقي – في الكائنات الأسطورية الطائرة في الشرق بحسب ما رآها قدماء الأوروبيين، ويتحرّى عن أصولها، ويربط بين عائلاتها، ويستقصي أوصافها وخصالها، ويحكي عن غرائب أحوالها وأفعالها حتى يصل بنا إلى كوريا التي ذكر – اعتماداً على مصادره الغربية أيضاً – أن ذلك الطائر من قرابة العنقاء العربية، قد شوهد آخر مرّة عام ٦٦٥م وهو يراقص السحاب على أنغام الناي! ويضيف أن هذا الطائر لا يتبدّى للناس إلا في أوقات الوفرة والسعادة، ولا يحطّ إلا في حدائق الأمراء المشهود لهم بالعدل، والذين اشتهروا بالكرم ووفرة العطاء. ويخلص دي جويري – بعد كل هذا الجهد الأسطوري الذي لم نُشغل إلا بترجمة اليسير منه – إلى أن العنقاء رمز لشيء مرغوب فيه رغم أنه مستحيل، وما هو إلا تجسيد لتطلّع الإنسان إلى الخلود وولادة ذاته من جديد، وهي في نهاية المطاف رغبة مستحيلة المنال. وينتهي هذا الرحالة إلى القول إن العنقاء تظل أولاً وأخيراً رمزاً للأمل بتحقيق المستقبل للإنسان رغم كافة المتناقضات، وتعني له دورة الأمل المتجدد،

وإعادة بعث. ونحن بدورنا لا نملك – رغم المتاهات التي أدخلنا فيها دي جويري في بحثه عن العنقاء العربية وأخواتها – إلا أن نؤكد أنه قد تمكن بحذق من أن يحقق فكرة كتابه الذي يقوم على أن ابن سعود يسعى لإقامة دولته الحديثة على النمط الإسلامي الذي ساد القرن السادس الميلادي، ويرتقي بها في مدارج القرن العشرين، ولكن هيهات، فالعنقاء قد ولّى زمانها، وما عادت قادرة على إعادة بعثها من جديد! فقد شوهدت آخر مرّة عام ٦٦٥م في العصر الإسلامي الأول، ويبقى ظهورها مرّة أخرى مرهوناً بأمل لن يتحقق إلا في الخيال. واستتباعاً لذلك يمكن القول: إن دي جويري يدين تاريخنا الإسلامي كله اعتماداً على أساطير غربية، ويرى أن العرب والمسلمين – في سعيهم إلى تحكيم الشرع – يأملون بناء مجد طارف على أنقاض مجد غابر بقيم قد تقادم عليها العهد وما عادت صالحة لتؤسّس مجداً جديداً! ونرى من جانبنا أن العديد من هؤلاء الرحالة – خاصة السياسيين والاستخباريين منهم – حين يكتبون عن الشرق، لا يعتمدون حقائقه ولا حتى أساطيره، بل يكتبون وفق حقائق وأساطير غربية، أو بعبارة أخرى: يكتبون الشرق غرباً، ولا يستبقون للشرق – في فكرهم – موقعه الذي يرون – زوراً وبهتاناً – أنهم الأحق به من أهله الذين شُغلوا بقديمه حتى أصبحوا مثله شيئاً من التاريخ!

إعداد القهوة العربية:

خاض دي جويري في التاريخ العربي، واستكشف شيئاً من تراثه، مع اهتمام خاص – بطبيعة الحال – بنجد ومملكة ابن سعود المؤسسة في ذلك الوقت حديثاً. ولنبدأ مع دي جويري بإعداد فنجان من القهوة العربية التي يستقبل العرب بها ضيوفهم، لعلّنا نفقه مقالته: "إعداد القهوة" كما جاء في كتاب **العنقاء العربية**. وكان لدى جويري غرام أكيد بالقهوة العربية، فلا نراه يجلس مجلساً في شبه الجزيرة العربية إلا تحدث عنها، ولا يترك فرصة تمرّ إلا أشاد بها وبطقوسها.

يقول دي جويري "خُذ مقدار قبضتين من البُن اليمني وضعهما في "المحماص" على نار هادئة حتى تكتسب لوناً أسود في ظرف أربع إلى خمس دقائق". ويرى دي جويري أن الوقود الأمثل لنار القهوة هو بعر الإبل الجاف. ويستطرد فيقول: وفي الفترة التي يستغرقها تحميص البُن، يكون الماء في "الدلة" جانب تلك النار قد أخذ يغلي. يفرغ البُن من المحماص في الجُرن "النجر"، وتُدقّ الحبوب حتى تغدو في هيئة المسحوق. ويلاحظ هذا الرحالة أن العرب يستمتعون بالجرس المتناغم الذي يحدثه صوت المدق في الجرن. يؤخذ مقدار فنجان من مسحوق البُن ليصبّ في "الدلّة" التي تحوي الماء المغلي، ثم يوضع الخليط على النار ويترك مدة ثلاث دقائق ليتمازج. ويُشغل مُعدّ القهوة في هذه الفترة بسحق حب الهان "الهيل" في الجرن. ويؤخذ مقدار نحو نصف فنجان من مسحوق حب الهان ويوضع في دلة أخرى، ثم تنحى الدلة

الأولى عن النار وتغلق فتحتها بلحاء شجر النخيل "ليف"، ويصبّ الخليط في الدلة الأخرى حيث يعمل "الليف" عمل المصفاة. وبهذه الخطوة الأخيرة تغدو القهوة جاهزة للتقديم.

تدور القهوة بعدئذ على الجلوس، وعلى مقدمها أن يمسك "الدلة" بيده اليمنى ويصبّ القهوة تباعاً في الفناجين التي يمسكها باليسرى، فيملأ نحو ربع الفنجان ثم يقدمه، ويظلّ واقفاً حتى يفرغ المقدم له من ارتشاف فنجان القهوة، ثم يدور بها على المجتمعين واحداً تلو الآخر ثلاث مّرات متتالية.

يلاحظ دي جويري أن هناك نوعاً آخر من القهوة من مغلي قشر البُن، "وهو شراب غير مألوف تماماً، ولكنه منتشر في أوساط الأكثرين تديّناً" الذين يفضّلونها على الأخرى ويعتبرونها أمثل من تلك التي تُعدّ من حبوب البُن، فالأخيرة - في تقديرهم - قويّة جــداً، و"حجتهم في رفض شرب القهوة القوية المعدّة من الحبوب أنها تدخل في عداد المشروبات المحظورة في القرآن (الكريم)، إضافة إلى أنها بدعة، فهي لم تكن معروفة على عهد الرسول، كما أنها من ناحية أخرى تؤثر في "النشاط الوظيفـي للجسم".

بداية الرحلة

تحرك المركب الذي أقلّ الوزير البريطاني ودي جويري ومن معهما في ٢٣ رجب ١٣٥٤/١٩ نوفمبر ١٩٣٥ من البحرين التي كانوا قد وصلوا إليها من القاهرة جوّاً في أوائل نوفمبر. يقول هذا الرحالة أنهم حين غادروا الطائرة في البحرين: "ودّعنا رفاقنا الذين كانوا في طريقهم إلى الهند وجاوة بعبارات منتقاة، فقد كانوا يدركون أننا متوجهون إلى عالم آخر"! وكان المركب التابع لعبد العزيز القصيبي - "تاجر لؤلؤ في البحرين ووكيل ابن سعود فيها، والرجل مشهور في الخليج وفي بومباي وكراتشي" - قد فرش بالسجاد الذي وضعت فوقه الوسائد الحريرية. ولقي جميع من في المركب صوراً من حسن الضيافة، فقد أولموا "بكوم من لحم الضأن أعلى تل من الأرز". ويرى دي جويري أن لحم الضأن في نجد حلو المذاق، "أما الأرز الذي يعدّه العرب "فهو غير مسبوق في طريقة طهوه"، ولا يمكن أوروبا أن تصل إلى ما يماثله". "لقد كان هذا هو الطعام الأول الذي تناولناه على الطريقة العربية التقليدية، فجلسنا متربعين، واستخدمنا أصابعنا الأربعة في الأكل، وبذلنا كل جهد ممكن في الاستزادة من الطعام تلبية لمضيفنا الذي راح يلحّ علينا المرّة تلو الأخرى في تناول المزيد". وما إن فرغوا من تناول الطعام حتى جاء الخادم بإبريق وطبق فيه صابونة ومنشفة مُزيّنة الأطراف، فغسلوا أيديهم.

نَصَحَنا عبد العزيز بارتداء الملابس العربية. وهذا أمر لكل أجنبي يزور أرض

الوهابيين. وجاء خادمي سعيد أو سعدان، كما ينادونه – وهو رجل من أهل مكة قليل الجسم سبق أن قطع الربع الخالي مع المستكشف جون فلبي – ليساعد الوزير في ارتداء ملابسه. وعموماً عندما وصلنا إلى المرسى، كان السير أندريو ريان "متقمشاً" كعربي من ذوي الوجاهة بنحو كامل.

استعمل الوزير لباساً للسفر جلباباً دمشقياً رمادياً وعباءة بنية من وبر الإبل مزينة بسلك الذهب في الجوانب والأطراف. وكان غطاء رأسه (غترته) منديلاً كشميرياً من صوف بني "فاتح" عليه عصابة رأس (عقال) من صوف أسود، أما في حفلات الاستقبال فقد كان أندرو يرتدي لباساً آخر من جلباب لونه داكن أكثر من سابقه، ومشغول في بغداد بسلوك الذهب، وغطاء رأس من قماش قطني ناعم من النوع الذي يجري تطريزه في مكة على أنماط مختلفة، وإن كان التطريز بأشكال الزهور هو النمط السائد.

الوصول إلى العقير

وصلنا إلى العقير لنجد أعيانها وعلى رأسهم الأمير أو الحاكم في استقبالنا، كما كان في استقبالنا أيضاً ممثل الملك، واسمه توفيق، وهو أحد موظفي وزارة الخارجية الصغار، وأخو فؤاد حمزة الذي أصبح أخيراً وزيراً للملك في باريس.

ويسترعي الانتباه "أن الأمير أو الحاكم بدوي أبيض اللحية يحمل في يده مقرعته التي يقرع بها بعيره".

يكتب دي جويري في تاريخ العقير فيقول: إن بعض الباحثين يعتقدون أنها "جرها" الأثرية، ويتطرق إلى سكانها، ويروي عن ياقوت الحموي التاريخ من دون استقصاء. ويصف القلعة العثمانية القائمة هناك، ثم يذكر أن رسوم الجمارك التي تجبى في العقير تبلغ ٨% من قيمة السلع، وأنها درّت على الخزينة في السنة الماضية دخلاً بلغ ستين ألف جنيه. ويضيف: "رغم أن العقير صغيرة، تمثّل الميناء الرئيس لكافة السلع التي ترد عن طريق شرق شبه الجزيرة العربية".

يقول دي جويري إنهم حين نزلوا من المركب شقّوا "طريقهم عبر مئات الإبل التي كانت في مباركها، وكان أصحابها من البدو مشغولين بوضع الأحمال عليها. ويضيف أن القائمين على الإبل من الإبالة أهل القوافل رجال لطيفون رغم ما تعكسه سماتهم "من توحش". ويسترسل في وصف لباسهم "والخنجر الذي يجعله الواحد منهم في حزام عند خصره والعصا الرقيقة التي

يقرعون بها رقاب إبلهم ويوجهونها بها، والتي تراها دائماً" في حركة دائرية "هي لا تفارق أيديهم". ويعتقد دي جويري أن أكثر هؤلاء الإبالة "توحشاً... هم أهل الجنوب من آل مرّة والمناصير، أما أهل القبائل الشمالية من عجمان وعوامر وبني هاجر وبني خالد، فهم أكثر لطفاً وأميز هنداماً وشعورهم مجدّلة مضفّرة".

"استضافنا الأمير بالشربات والقهوة، وأديرت علينا أقداح شاي صغيرة، وكنا نجلس في هذه الفترة في الديوان الذي هو غرفة علوية في القلعة في مواجهة الميناء عندما كانوا ينزلون متاعنا من المركب".

ويتناول دي جويري آداب الضيافة في شبه الجزيرة العربية فيقول: إن العـــرب "يخصصون أفضل الغرف في قسم الاستقبال البعيد عن مقرّ الحريم لنوم الضيوف. وعلى ذلك فقد يحدث أن ينام الضيف في إحدى الغرف التي تستغل لتقديم القهوة نهاراً بالقرب من الموقد المعدّ لعمل القهوة".

ويبدو هذا الأمر للأوروبي – حتى يعتاده لاحقاً – نقصاً في الخصوصية، إذ إن الجميع يستيقظون قبل الفجر لأداء الصلاة التي يجب أن تقام قبل شروق الشمس، ثم يلتئم شملهم عند معدّ القهوة ليتناولوا منها الجرعات الصباحية "... أسعد الله صباحك... أعطاك الله خير ما في هذا اليوم"، هي العبارات التي تقال صباحاً، "ثم يسألون بعد ذلك عن الصحة وعن الأشخاص الذين وصلوا مساءً".

> ليس هناك أفضل من وجبة الإفطار في القصور العربية، فهي تحوي – إضافة إلى القهوة التي يُجلب بُنّها من اليمن، والتي هي أفضل قهوة مذاقاً في العالم – حليباً دافئاً قد تغيّر لونه قليلاً بالشاي المضاف إليه. وتشمل الوجبة أيضاً التمر والكمثرى، والجبن، وفاكهة غمست في العسل، والبيض، والزبد، والزيتون، إضافة إلى الخبز الطازج الذي يصل من التنور مباشرة. ويضيف هواء الصحراء الصباحي الذي لا يزال مشبعاً ببرودة رياح الليل إلى المرء طاقة إضافية.

وصل دي جويري إلى شرق شبه الجزيرة العربية بعد مئة وخمسة عشر عاماً من وصول سادلير – أول رحالة بريطاني مبعوث من حكومة الهند البريطانية إلى إبراهيم باشا – إليها ليأخذ طريقه من هناك إلى الرياض وعبرها إلى جدّة، وقد اختلفت أحوال شبه الجزيرة العربية، فيما اختلف الزمن. جاء سادلير موفداً من حكومة تابعة للحكومة البريطانية، وهي في حالة فوضى بعد غزو، وجاء دي جويري في ركاب مبعوث من حكومة لندن لا من حكومة تابعة للندن في بومباي إلى شبه الجزيرة العربية، وقد استقرت أحوالها. ورغم اختلاف الزمن وتقلّب الأحوال، لم

تتبدل نظرة أيّ من الرحالتين إلى العرب. و لم يكن سادلير في فصاحة دي جويري ولا ثقافته العامة، و لم يكن من البلاغة ليتلاعب مثل دي جويري بالكلمات التي تحمل مضامين عميقة المعاني بعيدة المرامي.

الوصول إلى الهفوف

يصوّر دي جويري الرحلة من العقير إلى الهفوف عاصمة الأحساء ويفلح في ذلك، حتى يبدو القارئ كأنه المرافق له يشاركه أحاسيسه. فاللغة التي يستعملها سهلة الأسلوب ومباشرة، والمحسنات البديعية التي يضيفها تزيد الصورة وضوحاً، والتجربة الإنسانية التي يعبّر عنها مثيرة، خاصة للقارئ الغربي ولغيره من الذين لم يعيشوا تجربة الرحلة بالسيارة

> في الصحراء التي يتعانق فيها الجديد والقديم، ويتحدى دولاب السيارة أخفاف الإبل. ما إن تدلف السيارة إلى تلك التلال فلا مناص لها من أن تسير وتندفع في سيرها جهد استطاعتها من دون أدنى تراخ. وكان سائقنا – شأن أغلب السائقين العرب – معتاداً هذا الأسلوب في السواقة، مستمتعاً بهذه الطرق التي لا يظهر فيها أثر لدواليب أيّ سيارة أخرى طرقتها قبل ذلك. وكان السائق يصرخ وهو ينادي على سيارته ويخاطبها، كأنه يستحثّ بعيره!

ويمضي دي جويري في وصف الطريق ومعالمه، فيحدثنا عن نجع بالقرب من العقير، وعن أشجار نخيله التي تغالب الرمال التي طمرتها حتى نصفها، وكانت – لعدم وجود مصدات للرياح – تنحني أمام هبوب الرياح السائدة وترخي رؤوسها

> كأنها تبتهل متطلّعة إلى الخلاص من هذا الخطر الأصفر الذي تمثله الرمال في شبه الجزيرة العربية. ورحنا نشق بسيارتنا الرمال كما يفعل المحراث، حتى ارتقينا قمة تل رملي مرتفع، فأبصرنا عندها الشاحنة التي كانت تُقلّ متاعنا، وقد غاصت في الرمال، والجند المصاحبون لها قد خرّوا راكعين عند جوانبها يزيلون الرمال من تحت عجلاتها. ولمّا لم نكن نستطيع التوقف حتى لا نغرق في لجّة تلك الرمال، فقد شجعناهم بأن أشرنا إليهم بالتحية.

وصل ركبهم إلى الهفوف ليلاً وكانت البوابات مغلقة، ولكن سرعان ما أقبل جنود بأيديهم

المصابيح ومعهم مندوب ضيافة "فدخلنا"، وقادونا إلى الغرفة العليا من القلعة لقضاء الليل فيها. وقد لقينا من هؤلاء العرب تحية حارة جداً، وكانوا يسألون دائماً وتكراراً للاطمئنان إلى أننا لم نصادف رهقاً، أو نلقى عنتاً في رحلتنا، وكانت نار القهوة موقدة وانطلقت صرخة: قهوة، لتأتي بمعدّ القهوة سريعاً إلى الموقد حيث كانت أوعية القهوة النحاسية التي وضع بعضها إلى جانب بعض، ونظمت بحسب أحجامها حتى بدت كأنها الجنود استقاموا صفوفاً منسّقة. وبحركة من ذراعه اليسرى مصحوبة بانحناءة، قدّم الرجل للضيوف فناجين تحوي قهوة عربية مرّة خففت عنّا النصب الذي لقيناه في سفرنا. وأقبل زنجي عملاق في جُبّة موشاة بالزهور وسيفه يتدلى من كتفه بحامل زُخرفت خيوطه بالذهب والفضة، مبعوثاً من الأمير سعود بن جلوي ليهنّئ بسلامة الوصول ويستفسر عن صحتنا.

> تناولنا العشاء ثم أوينا إلى مخادعنا وعيوننا تغالب النعاس الذي ما لبث أن تمكن منها لتهدأ عقولنا المشغولة بغرائب عالم جديد قديم!
>
> أرسل إلينا الأمير سعود بن جلوي أحد قادة حرسه ليقول إنه في انتظارنا... اجتزنا مع المرافق دهاليز بلا سقف، مفتوحة إلى السماء مباشرة إلى غرفة استقباله التي دخلناها عبر بهو مقوّس البناء مظلم، يقف فيه عدد من الحرس. يتبادل أصحاب السيوف الذين هم كالمرافقين مع سيدهم الهمسات، ويتبادل الواحد منهم كلمة أو اثنتين مع زميله، ولكن ذلك لا يشغلهم عن أن يكونوا كلهم آذاناً صاغية لما يقوله سيدهم أو ما يشير به، فالعرب لا يحبّون مراسم الحرس الأوروبية الجافة. راح هؤلاء يتنحّون عن الطريق لإفساحه لنا، فلمحنا ذلك الأمير الصغير من خلفهم الذي كان جالساً على أريكة ينبري قائماً لتحية الوزير. كان الأمير وسيماً داكن اللون، ولكنه ليس أسود، له لحية خفيفة مهذبة... وهو ابن عبد الله ابن عم الملك. وقد توفي عبد الله قبل أقل من شهر من زيارتنا، ولذا لم يكن للأمير الشاب سابق معرفة بالتعامل مع الأجانب.

ويتحدث دي جويري عن عبد الله بن جلوي المتوفى، "تلك الشخصية القوية، الذي كان لشجاعته وعدله ومهابته اليد اليمنى عند الملك. جعله عدله مهيباً حتى لدى الشاهد البريء. ويروى أن شاهداً خاطبه ذات مرّة قائلاً: حوّل نظرك عني حتى أستطيع الكلام".

يتحدث دي جويري بعد ذلك في نسب بني خالد، أبرز قبائل الأحساء فيقول: إن البعض ينسبونهم "إلى الكلدانيين الذين ورد ذكرهم في التوراة". ونلاحظ أن إشارات دي جويري إلى العهد القديم متواترة. ولا يستغرب ذلك من هذا الرحالة وغيره، فهو يكتب بعين ثقافته وأفكاره الموروثة، فكل مثقف غربي – دعك عن الرحالة – لا يستطيع – وإن حاول – إلا

أن ينظر إلى شبه الجزيرة العربية من خلال كونها مهد "الآباء الأوائل" وموطنهم. ولا نرى في ذلك ضيْراً إلا في المبالغة في الاعتماد التام على هذا المصدر من دون غيره من المصادر الأخرى. فالكلدانيون وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة، وأخبار إسحاق وإسماعيل ابني إبراهيم عليهم السلام، وأسماء البلاد التي يردّها هذا الرحالة وغيره إلى مواقع ورد ذكرها في التوراة، كلّها حقائق ذكرها هذا المصدر، ولكنها ذُكرت أيضاً في مصادر أخرى وفي كتب الآثار والأخبار، وهذا أمر يتجاهله الرحالة الغربيون تماماً، ما يتعارض وأصول البحث العلمي الجاد غير المتحيّز.

يعود دي جويري بعد الاستطراد في الحديث عن عبد الله بن جلوي وابنه الشاب فيصف غرفة الاستقبال بقوله:

> إنها "صالة" طويلة تبدو كأنها النفق. فعلى الرغم من كونها مضاءة، كانت معتمة. ووقف على طول امتدادها رجال مسلحون ببنادقهم الطويلة التي تصل إلى ركبهم. وحين يتوقف الأمير عن الحديث يسود صمت قاتل، وتظل عيون الجنود اللامعة المدربة على الرؤية في الصحراء ترمقنا، وقد أحاط الكحل بحدود تلك العيون ما يزيد مرتين من تأثيرها، عيون تحاكي عيون صقورهم، فهي مثلها لا ترفّ.

كان دي جويري أول الرحالة الغربيين الذين دخلوا شبه الجزيرة العربية فقطعوها من شرقها إلى غربها، بدعوة من حكومة مستقرة منظمة. فكل الذين سبقوه من الرحالة في هذا المضمار كانوا يسافرون من منطقة إلى أخرى، إما برفقة فيلق من الجيش مثلما فعل سادلير، أو في حماية شيخ تنتهي سلطته عند منطقة ما، ليدخل في حماية شيخ آخر في منطقة أخرى. وكان من حظّ دي جويري أنه قطع هذه المرحلة كلها مستقلاً سيارة، وإن لم تكن طرقها معبدة، بينما قطع الرحالة السابقون هذه الفيافي على ظهر بعير غالباً، أو على دواب أخرى أحياناً.

يقول دي جويري: إن قبائل البدو كان – قبل أن يتولى ابن سعود الحكم – ينهب بعضها بعضاً،

> ولا تصيخ إلى سلطة أو تأبه لها، لكنها غدت الآن تحت السيطرة تماماً. ولا ريب في أن ذلك انتهى لمصلحتهم. أدت سلسلة محطات اللاسلكي التي استحدثها ابن سعود، إضافة إلى ما تتمتع به قواته من سرعة الحركة، ومعرفته بتقاليد البدو وأعرافهم، إلى سيادة الأمن الشامل في المنطقة.

يُروى أن "جوالاً" من الأرز سقط قبل ستة شهور من قافلة في الأرض السعودية وعُثر عليه الآن، لم تمتد إليه يد. لقد استتبّ الأمن في قلب شبه الجزيرة العربية، فغدت في هذا المجال أكثر أمناً من أي مكان في أوروبا وقت السلم. إن المؤهلات اللازمة لإدارة البدو في شبه الجزيرة العربية هي ذكاء لمّاح، وتفاعل كامل بين الحاكم وجنده، وسرعة حركة تفوق سرعة حركة القبائل، وفهم شامل لتراثهم وأعـــرافهم، "فبغير هذه العوامل، خاصة العاملين الثاني والرابع لن يتسنّى حكم هذه القبائل، وستنشأ المشكلات من دون شك".

يتحدث دي جويري عن

> الأقلية المحافظة من الوهابيين في الرياض، الذين استجابوا لما يمليه العقل من أن مجيئنا إلى الرياض لا يناقض التعاليم القرآنية، ولكن ما يحسّ به هؤلاء الجماعة من فخار، وما يميّزهم من تطرف، يعكسان إباءً في سلوكهم تجاه هؤلاء النصـــارى. يسير هؤلاء الأعيان أمامنا بلحاهم البارزة المصبوغة بالحناء وملامحهم المخيفة، ويأبون لعيونهم أن تتلوث برؤية هؤلاء النصارى فيغضّون الطرف عنهم!

في تقديرنا أن التطرف مشين، وأنه في الإسلام بحكم الكتاب مرفوض، وبحكم السنّة بغيض، فقد جعلناكم أمة وسطاً، والغلوّ في الدين منهيّ عنه نصاً، ولكن التطرف – حين يوجد – لا يمثّل إلا ردّ فعل لتطرف مقابل أسبق منه، فهو موروث مغروس في اللاوعي التاريخي للغرب الذي لم يعرف من الحروب الصليبية في بلاد المسلمين إلا الهمجية والقتل والتعذيب، وهو مغروس بعد في الوعي التاريخي الذي أثمر تطرفاً غربياً منذ أن وفد البرتغاليون إلى الشرق واستعمروه بهدف معلن أساسه هو القضاء على الإسلام والمسلمين، وقد أكّدت الإمبريالية اللاحقة بعدئذ تلك النظرة العدائية الصليبية الاستعلائية من الغرب، التي وجب على المسلمين، حتى غير المتطرفين منهم، مواجهتها بمظاهر الأنفة والإباء وبالعزّة التي هم جديرون بها، وهذا أضعف الإيمان. وعلى الرغم من أن تلك المظاهر مستنكرة من دي جويري وغيره من الرحالة الذين هم نتاج فكر تراث ثقيل من تاريخ استعماري بغيض، لا يستطيعون أن يتبيّنوا أنها ثمار ذلك الغرس الغربي الممقوت. وفي اعتقادنا أن الاعتذار عن التطرف ومحاولة تبريره أمر مشين إلا لاستجلاء جذوره والإشارة إلى أنه لا يمكن اجتثاثه ما لم يتفهّم الآخرون ثقافة هذه المنطقة وإزالة ما لحق بعدئذ بالعقل الغربي من استعداء ساذج حمله على الإساءة إلى موروثات البلاد التي وقعت فريسة استعمارهم في فترة ما، ولادعاء التفوّق والجنوح للاستعلاء العنصري والحضاري. ونرى أن معالجة التطرف من الجانبين أمر عقلاني، تقع معالجته على أهل الفكر والرأي شرقاً وغرباً، ولا دور فيه للعسكريين وتجار الحروب وصُنّاع السلاح وبعض دعاة الصراع من الحكام الشرقيين

المتهوسين لتحقيق غايات ذاتية أو طائفية.

من حكايات الطريق: الحرب العربية

يحكي دي جويري عن الحروب العربية ويسند روايته إلى سالم، دليلِ دربهم، وهو من عشيرة العجران من العجمان - حسبما يقول هذا الرحالة - ويعرف تماماً كل قصص الحرب التي جرت أخيراً.

> سألته: كيف كنتم تحاربون؟ فأجاب: نحارب على النمط العربي!
>
> وصف لي حرب الفروسية التي تجري بين القبائل. فقال: إنهم كانوا يحتفظون بعادة عربية قديمة حين بدأت تلك الحروب، فعادة ما ينتظم المحاربون حول عذراء من ذوات الحسنِ الفائق من بنات أحد شيوخ القبائل. تركب هذه البنت الشهيرة بجمالها بعيراً أبيض في هودج مكسوّ بالقماش القرمزي والأزرق، ومزيّن بريش النعام، وتظل تجوب منطقة الجيش بين القائد وحامل العلم جيئة وذهاباً. وفي هذه الفترة تقوم الكشافة (العيون) من فرق الاستطلاع الذين يمتطون صهوات الجياد برصد مواقع العدو، وحين يتحققون ويعودون بتقاريرهم يعطي الشيخ الأمر للهجانة بالهجوم، بينما تقوم البنت المذكورة بإنشاد أغنية حرب خاصة بالقبيلة، فيندفع الشيخ منتفضاً إلى المقدمة بينما تردد البنت: هل في القبيلة رجال يحتملون أن يقال عنهم: إنهم تقهقروا في يوم النصر؟ وتأخذ الفتاة في تقريع الجبناء المتوهمين، ويتدافع الجميع خشية أن يظن بأي منهم أنه تقاعس وهو في حضرة أكثر البنات في عالمه جمالاً، وهذا أمر لا يستطيع أي رجل احتماله. ويأخذ الراكبون في التقدم، كل منهم يبذل ما في وسعه ليسابق الآخر ويشهد له زملاؤه بذلك، ولتبصره تلك الجميلة، وتراهم يتدافعون ويردّدون ما يدفع عنهم سخريتها من الجبناء، وتتوالى قذائف الطلقات، وترى الشيخ أو العقيد أو المختار تحيط به ثلّة من زنوجه الأوفياء، ينتخي بنخوة القبيلة، وهو يشق الصفوف ويتقدم الخطوط ليلتحم مع العدو.

يقول دي جويري على لسان سالم أيضاً: إن الجيش حين يتحرك ليلاً يدلج ولا يستعمل المصابيح، وذلك لدواعي الأمن. ويجب أن يكونَ في الجيش منشد يطرد ما في قلب الليل من أسرار، ويدفئ برده كما يدفئ دماءهم، استعداداً لحرب اليوم التالي، بأناشيد وبمدائح من التراث تمجّد محمداً نبيهم (صلى الله عليه وسلم). ويستمر الشاعر مدة سبع ساعات حتى منتصف الليل "في

أهازيجه وأناشيده ومدائحه". ويضيف دي جويري - نقلاً عن سا لم - أن العجيري، من أهل الحوطة - منشد الملك عبد العزيز - كانت أناشيده تأخذ بألباب القوم، وحين يصمت لا تكاد تسمع شيئاً إلا وقع أخفاف الإبل وجلبة السلاح، وما يلبث الملك أن ينادي على الرجل بصوت جهوري: "يا عجيري، علِّلْ جيشنا بروايات تراثنا. هذا ما حكاه لي سا لم". وربما حملت هذه الروايات آخر حكايات هذه الأحداث "التي لن تتكرر بعدئذ على هـذا النحو".

من حكايات الطريق: العالم مربع تقع الخرطوم في منتصفه

"جاءني سعيد بعد العشاء يستفسر عن أوروبا فأخرجت له أطلساً، وراعني أنه أظهر اهتماماً بالأمر يفوق توقعاتي. كتبت له أسماء بعض المدن الكبرى بالعربية، وأوضحت له أن الخط الأحمر على الخريطة يظهر حدود الإمبراطورية البريطانية، وقلت له: هي كما ترى شاسعة جداً. ألقى سعيد على الخريطة نظرة فاحصة، وجال ببصره عليها من أوّلها إلى آخرها، وكان تعليقه أن الخط الأحمر (الذي يمثّل الإمبراطورية البريطانية) على الخريطة يجعلها تبدو كأن العا لم يعاني المرض. وقبل أن أستفيق ممّا انتابني، أضاف الرجل أنه لم يكن يدري قبل رؤيته الخريطة أن العا لم مربع تقع الخرطوم في منتصفه. وما كان مني إلا أن أخرجت مفكرة الجيب، وأثبتّ فيها ضرورة أن تحدد الإمبراطورية باللون الأخضر، لون السلام ولون الإسلام، ثم رحت أبذل جهداً مضاعفاً قبل أن آوي إلى سريري لأوضح لسعيد شكل العا لم على طبيعته.

من حكايات الطريق: الجن العربي

يكتب دي جويري وهو يستكشف - حسبما يظن - تخلّف الثقافة العربية، وينعى عليها إيمانها بالغيبيات. يتحدث عن الجن، وهو يصف حركة بعض البدو الحفاة في ثيابهم البيضاء التي تسطع تحت ضوء القمر عبر أحد النجوع الخربة في هجعة الليل حتى بدوا له كأنهم أشباح، فيقول: إنها حرّكت في ذهنه ما يقوله البدو عن الجن "الذي يؤمنون به إيماناً قاطعاً. وكيف لهم ألا يؤمنوا به وقد وردت في القرآن (الكريم) قصة خلق الجان من نار؟!". ويعجبنا دي جويري وهو يصوّر الجن كما يتراءون له: "فهم ليسوا على شاكلة واحدة، شأنهم في ذلك شأن البشر، يختلف بعضهم عن بعض في شخصياتهم ويتباينون في أدائهم". ويستطرد قائلاً: "إن بعض الجان يمتازون بالطيبة، بينما يتميّز آخرون بالمشاغبة... وبعض الجان مؤذٍ وشرير، وبعضهم غير ذلك. فبعض الجان يسوق للإنسان (؟) ما يؤرقه بينما يرمي آخرون منهم البشر بالشر الصراح.

ويضيف دي جويري فيقول:

> إن الجان يختلفون عن الإنسان، فهم لا يصابون بالضجر، تراهم يترددون على عالمنا من العالم الآخر، مستغلين في ذلك مقدرتهم على التخفّي في أرجاء الأثير. يتدخل الجان في مسار حياة الإنسان على الأرض، ويوجهونها إلى الصواب، أو قد يحملونها على الخطأ (؟).

ويسترسل دي جويري في حكايته عن الجن من منظوره الثقافي، ويكتب في تدخلهم في حياة الإنسان في أيّ لحظة أو في أي موقع، سواء في قلب الصحراء أو على السواحل، أو في الحدائق أو في الشوارع، حيث يجد الإنسان نفسه ضحية لقراراتهم العجيبة! "... قد يساعدونك في وقت يتعذر على أي أحد أن يمد لك يد المساعدة...". ويدّعي دي جويري أنه قابل عرباً التقوا الجن... "يتطايرون هنا وهناك... ويوجد جن مسلم كذلك...". ويقول: إن الجن لا يتركون أثراً في الأرض، "وهذه خاصية تميّزهم، فإذا ذهبت إلى حيث تبدّوا لك و لم تجد آثار أقدام، فذلك هو الجن". ويقول دي جويري: إنه قد رُوي لأحد العرب "أن القلاع الإنكليزية تغشاها ليلاً سيدات مقطوعات الرؤوس يمشين وهنّ يحملنها تحت آباطهِن". ويبدو واضحاً من هذا السرد أن دي جويري – شأن أكثر الرحالة – يأخذ ما يرويه مرافقوه من العرب، ويسرده بما يمليه عليه خياله ومقتضيات ثقافته. ويجب أن نذكر أن أسطورة السيدات اللائي يحملن رؤوسهن تحت آباطهِن وردت في بعض الروايات الإنجليزية، مع أن دي جويري يسندها إلى راوٍ عربي!

الشعر الشعبي

لا يعجب دي جويري – خلافاً للسيدة آن بلنت قبله – بالأغاني الشعبية، ويرى فيها ضرباً من القول يستعصي على الترجمة. ولا يعود ذلك في تقديره إلى اللغة التي صيغ بها، ولا لغموض لهجتة التي يُروى بها فحسب، ولكن لعدم تطابق أوصاف المشبّه بالمشبّه به. "يمثل شاعر نشأ في المدينة الشيء الأبيض بمدخل جحر الأرنب. ويضيف أن شاعراً آخر يمثل كاعباً وضيئة بمصباح اللوكس، وهو مصباح يتوهّج ساطعاً في منازلهم ويعمل بالكيروسين. أما الفتى الأنيق القوي فيشبّهه هؤلاء الشعراء الشعبيّون بالسيارة الفورد ذات الثماني أسطوانات. ويخلص دي جويري إلى أن "عقيدة حب الآلة" سرعان ما ستجد لها في شبه الجزيرة العربية الكثير من الأتباع.

حادث في الطريق إلى الرياض

خرج الركب من الهفوف في طريقه إلى الرياض. ووصف دي جويري ما صادفوه من تعب في الطريق، خصوصاً في وادي أم السقيان الذي تكثر فيه التلال الرملية، فتشل حركة السيارة حتى ليجد الراجل أنه أسرع من راكب السيارة، إضافة إلى أن السير على الأقدام كان أدعى إلى الراحة من ركوب السيارة.

> ترجّلنا من السيارة وتركنا سائقها يشق دربه وسط التلال. وفي بعض الأحيان كانت ثلاث من عجلات السيارة تدور في الهواء مرتفعة عن الأرض، بينما كان الرابع يسقط كالسكير في إحدى الحفر، فتوشك السيارة أن تنقلب رأساً على عقب. وأخيراً بدا لنا أن الوضع قد تحسن، فعدنا إلى مقاعدنا في السيارة التي سرعان ما عادت للترنح والارتجاج مرّة أخرى، ما سبّب لنا الإرهاق وأثار فينا الغضب. وقفزت السيارة قفزة أطارت السير أندرو ريان فارتطم رأسه بسقفها فشجّ، وسال الدم على شعره الأبيض، فأسرعت لمساعدته ولكنه دخل في غيبوبة. وأنزل الرجل من السيارة وطرح على فراش من جلد الماعز، وخلع المرافقون عباءاتهم ووضعوها فوق كومة من القش وجعلوها وسادة له. وعلى الرغم من أن الكحول تُعدّ من الممنوعات في شبه الجزيرة العربية كنت أحمل في صندوق الأدوية زجاجة من البراندي، فحاولت أن أعمل على إنعاشه ببعضها ولكن من دون جدوى. ولم أدرِ ماذا أفعل، فأنا وحيد منقطع في ذلك الوادي القاصي، بعيداً تماماً عن تلقي أيّ مساعدة، ولم يكن لدينا ما يمكن أن نفعله إلا أن نجترّ الأمل ونرجو أن يبلّ الرجل سريعاً، لنتمكن من مواصلة الرحلة. وبدأ الرجل يتعافى رويداً رويداً، وعدنا إلى السيارة نشقّ طريقنا فوق تلك الأرض الموحشة...

على مشارف الرياض

ابتهج الرجال الذين كانوا مع الركب حين شارفوا نهاية الرحل، فطفقوا يهزجون ويغنون، وتعالت أصواتهم وهم ينشدون للحرب وللحب في زعيق متصل. "ويصعب ترجمة أهازيج البدو، ولا تعود الصعوبة إلى فهمي للغة فقط، ولكنها تتصل بمضامين المحسنات البديعية العديدة

التي يستعملونها". ويسوق دي جويري تشبيهاً ورد في إحدى الأهازيج إذ: "شبهت قمم سلسلة جبال معروفة لديهم وهي تغوص في سراب الظهيرة، شاقته في رحلة عودته إلى بلاده بعد طول اغتراب، "كأنهن خبز في إدام"!.

اجتاز الركب قصر نورة - أخت الملك - وهو البيت الوحيد خارج السور، وكذلك قصر البادية عند مجرى وادي حنيفة على بعد سبعة أميال من الرياض. وبعض القوافل الصغيرة وعدد آخر من راكبي الإبل يستحثّون الخطى في اتجاه بوابات المدينة قبل أن تغلق لصلاة المساء (المغرب). ويعمّم دي جويري حين يقول: إن المدن العربية تغلق أبوابها في أوقات الصلاة. يقول هذا الرحالة: إن عدداً كبيراً من شيوخ القبائل يجتمعون سنوياً بداية كل صيف في الرياض للقاء الملك، يرفعون إليه ظلاماتهم ويسألونه ما يريدون، ويعبّرون له عن الولاء، ثم يعود كل منهم من حيث أتى وهو يحمل من الهدايا ما يناسب مقامه، فمنهم من يمنح "جوالاً" من الأرز، ومنهم من يحظى بفرس أو ربما بعض الأسلحة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ويرجع بعضهم بأعطيات الذهب، أما كسوات الشرف فهي - في الغالب - توزع على الجميع.

مجلس الملك

يصف دي جويري الملك عبد العزيز في مجلسه فيقول: إن لباسه كان بسيطاً ولكنه أنيق، فجلبابه الرمادي من نسيج يعرف في دمشق "بصدر الحمامة"، وعباءته بنية من وبر الإبل تتدلى من على كتفيه على الأرض حين يجلس. و"غترته" بيضاء فيها مربعات، أما عقاله فكان من الصوف الأسود المشغول بسلوك الذهب. وهذا العقال امتياز مقصور على "الملكية النجدية"، وعلى الأشخاص الذين يتفضّل الملك بتقديمه هدية لهم، يشرّفهم به. وكانت "طاقيته بيضاء، أما صندله فقد صمّم له مخصوصاً على النموذج النجدي. وكان خاتمه الذي نقش عليه اسمه مجرداً من دون لقب أو شارة من الفضة والعقيق الأحمر. ويستطرد دي جويري فيقول: إن لباس الملك في الصيف يختلف عنه في الشتاء. ويصف جلباب الملك الأبيض الخفيف، ويرسم صورة قلمية للملك عبد العزيز يكاد من يقرأها يشعر أنه يرى هيئته فعلاً، إذ تؤكد الصور الضوئية "الفوتوغرافية" للملك عبد العزيز هذا الوصف الدقيق. وصف دي جويري الملك عبد العزيز بطول القامة التي تزيد على ست أقدام وبحجمه الضخم، ويأخذ في وصف وجهه وعينيه اليسرى واليمنى، وأنفه الدقيق البارز، ولحيته وبسمته اللطيفة التي تكشف عن "أسنان منتظمة"، ويصف يديه ورجليه ولون بشرته، ولا يغفل عن ذكر آثار جرح قديم في ساعده الأيمن أصابه في معركة البكيرية، وآثار جرح آخر على فخذه اليمنى في معركة جنزان، وأشار إلى أن جروح الملك تؤلمه مع كل تغيير فجائي في حالة الجوّ، وفي الصيف يعاني "تلك المعاناة التي يدرك قسوتها

كل جندي ذاق طعم الجراح".

يخلص دي جويري بعد هذا الوصف الدقيق لهيئة الملك إلى وصف حركاته وسكناته وعاداته وحديثه الذي يدعمه بآيات من القرآن الكريم وبالأمثال ومأثورات البدو، فيقول: إنه يطيل الحديث عندما يتناول الشؤون الدبلوماسية، وينظم حديثه بشرح نقطة بعد أخرى حتى يصل به إلى ذروته، وعندها يتراجع بجسده حتى يتّكئ بظهره على مقعده، ويبتسم بطريقة لافتة. ويضيف دي جويري بعد ذلك أن الملك ينظّم وقته وفق مواقيت الصلاة، وأنه "يصوم رمضان ويحجّ كل سنة تقريباً"، وأنه يداوم على قراءة القرآن وسماعه. ويكتب عن عادات الملك فيقول عنه إنه يصحو عادة قبل آذان الفجر ليستعد للصلاة في وقتها. أما تلاوة القرآن فيمكن أن يسمعها المرء في مجلس الملك بعد صلاة العصر حتى وقت العشاء. تجد المقرئين وقد اتخذ كل منهم موقعه في الناحية المحددة له من ردهات القصر على مسافة ما من مجلس الملك وقد حجبتهم عنه أعمدة الدهاليز المقوّسة، إلا أن ترتيلهم "يسري ناعماً إلى مجلس الملك كأنه النغمات يرسلها مزمار من على البعد".

ينتهي دي جويري بالحديث عن نسب ابن سعود، ويرجعه إلى عدنان، ولا ينسى أن يذكر أن له واحداً وثلاثين ابناً وإحدى وثلاثين بنتاً (في عام ١٩٣٥م). ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نقول إن أقلام هؤلاء الرحالة من الاستخباريين تجيد الوصف وتتحرى فيه الدقة ما وسعها ذلك، فتصوّر ما شاهدته بالصدق الذي يجب عليها التزامه تجويداً لأصول المهنة التي يؤديها، هذا في حال عدم مخاطبته للجمهور الذي لا يستسيغ الصدق في ما يقرأ من أدب الرحلة. ولعل في هذا ما يجعل بعض المؤرخين ينقلون عنهم بثقة كبيرة – وإن كان بعد النقد – كل ما يتعلق بالصورة، ولكنهم لم يأخذوا عنهم في ما وراء ذلك إلا بعد التثبّت الجاد.

ذكرنا أن دي جويري كان مغرماً بالقهوة العربية لا يني يذكرها في كل مناسبة. يقول: إن القهوة تقدم للملك أولاً، ليس كما هي الحال في الأماكن الأخرى، إذ تقدّم للضيف أولاً ما لم يكن الأخير عاملاً لدى المضيف، أما إذا كان الضيف على نفس درجة أهمية المضيف وجاهة أو دونها، أو في السنّ نفسها أو دونها، فعلى الأول أن يرفض تناول الفنجان ويشير لمقدم القهوة إلى المضيف، "ولا يجد هذا التواضع إلا الاستحسان من العرب الآخرين الذين يعدّون هذا الإجراء من حسن الأدب، ويحرصون عليه ويمارسونه، خاصة مع الغرباء من ذوي الاعتبار".

من روّاد قصر الملك: ما شاء الله بن هدبة

هذا الرجل من أشهر من عرفتهم شبه الجزيرة العرب من قصّاصي الأثر، له طلعة بهية ولحية مصبوغة بالحناء، وعينان محددتان بالكحل، ويقف خلفه عدد من المتدربين على مهنته. ويضيف

دي جويري أن قبيلة بني مرّة التي تقطن صحراء الجنوب الجافة، والتي تفتقر إلى المياه، والذين يجوبون في الصحراء مناطق يتردد كثير من بدو الشمال في ارتيادها، هم الذين يمدّون المنطقة بقصّاصي الأثر. يستطيع هؤلاء أن يميّزوا بالأثر البعير الأسود من الأبيض، وخطو العذراء من المتزوجة، وآثار أقدام المقاتل من غيره. ويشهد العرب الآخرون لآل مرّة بحذقهم في هذا المجال، ولكنهم لا يستطيعون تعليل ذلك.

يستطرد دي جويري في الحديث عن ديوان الملك عبد العزيز فيقول:

> تجد عدداً من الناس عند باب ديوانه ينتظرون وهم على أهبة الاستعداد لتلقّي أوامره. يستدعي الملك من يريده منهم بنداء: "امش يا ولد" وتكون الاستجابة بالتقدم خطوة إلى الأمام مصحوبة بلفظ "سم" التي قد تكون اختزالاً لسمعاً وطاعة. وحين يؤتى بالأوراق للملك لختمها، فإنه يطالعها ثم يختمها بختمه، ويلقي بها في الهواء بحركة تكاد تكون متكررة في كل مرّة، فيتلقفها أحد كتابه يكون واقفاً أمامه مع انحراف بسيط على يمينه قبل أن تسقط إلى الأرض.

يعود دي جويري إلى موضوع القهوة مرّة أخرى فيقول: يتولى السياف تقديم القهوة التي تصنع من قشر البن وتخلط بالهيل، في أقداح صغيرة لا مقابض لها، مرّة واحدة فقط وليس ثلاث مرات كما هي الحال في الأماكن الأخرى. أما إذا طال زمن اللقاء، فيُستدعي الرجل مرّة ثانية وثالثة. يؤمر بالقهوة ويتكرر الأمر بصوت مرتفع من الواقف لدى الباب، ثم يتردد صداه بين الرجال الواقفين المرّة تلو المرّة حتى تصل صرخة: "قهوة" إلى مكان موقد إعدادها، فيسرع مقدمها وهو يقول في صوت مرتفع: "إي والله قهوة". ويستطرد دي جويري في الحديث عن القهوة "ورنّة المدقّ في الجرن ما يبهج العرب".

الضيافة العربية

يقول دي جويري: إن العشاء في القصر بالرياض في وقت زيارته لها يُوضع على طاولة، ولكنه يقدم في المعسكرات وفي العديد من المنازل بالطريقة التقليدية. يجلس الضيف جلسة الراكع حول طبق كبير مستدير مرتفع بقوائم من سطح الأرض، وقد وضع فيه تلّ من الأرز يتلوّى فوقه وهج البخار، محاطاً بلحم الضأن النجدي اللذيذ. وتحت قوائم الطبق أطباق صغيرة من الحلويات والمقبلات، و"سلطات" من أنواع مختلفة. وإذا صادف أن وصلت قافلة من الشمال، فإن السُفرة تزدان بالحلويات الشامية، كما يمكن أن تكون هناك فاكهة نجدية من تمر وكمثرى

وغيرهما من الثمار التي تصادف ذلك الموسم. ويستطرد فيقول: إن هناك طائراً صغيراً ذا رقبة حمراء من الطيور المهاجرة يأكل هذه الثمار إذا غفل عنها العرب، وأضاف: إنهم يستخدمون عدداً من الصبية لطرد هذه الطيور التي يلاحظ أن طعم لحمها حين تُطبخ يكتسب الطعم نفسه للفاكهة التي أكلتها.

يقول دي جويري وهو يصف مراسم العشاء في قصر الرياض: إن أحد الخدم يمرّ على الضيوف، ويتولى صبّ الماء على أصابع يد الضيف اليمنى التي تستعمل في الأكل. ويدعو المضيف ضيوفه للبدء بتناول الطعام، فيبدأون الأكل. وتراهم عندما يرفعون اللقمة الأولى إلى أفواههم يرددون بصوت خفيض: بسم الله. ويلاحظ دي جويري أيضاً أن الحديث على الطعام ليس مستحباً، رغم أن الشيوخ يتحدثون قليلاً أحياناً ربما عند قرب الفراغ من تناول الطعام. أما المضيف الذي لا يجلس مع ضيوفه في العادة إلا إذا اقتنع بذلك أمام الإلحاح، فيبقى جالساً حتى يفرغ آخر ضيوفه "عن قناعة من طعامه"، ورغم ذلك ترى المضيف يشجع الضيوف على الاستزادة من الأكل. ينهض الضيوف واحداً تلو الآخر وهم يردّدون: أحسن الله للمضيف، أو قد يرددون عبارة أخرى تحمل المعنى ذاته.

بعد الفراغ من الأكل يأتي الخدم، أو ربما بعض أقارب المضيف، أو أولاده الصغار، بالإبريق والطشت مرّة أخرى للضيوف ليغسلوا أيديهم. وبعد الفراغ من ذلك تقدم القهوة، وأحياناً الشاي بالسكر في كاسات صغيرة. ولا يخوض الجالسون في الأحاديث "فليس هذا وقتها بل هو قبل الأكل أكثر مما هو بعده". وما إن يتناول الضيوف القهوة ويؤتى بالبخور وماء الورد حتى يستأذن الضيوف للانصراف. ويتقدم الضيوفَ حينئذٍ أحد خدم المضيف وهو يحمل في يده مصباحاً ليصل بهم إلى الخيمة أو المنزل المخصص لهم.

من هوايات ابن سعود: القنص والاستجمام في الصحراء

يخرج الملك في ربيع كل سنة مع رجال بلاطه إلى الصحراء، ويقضي فيها عدّة أسابيع لممارسة الصيد. فعندما يصدر الملك أوامره للإعداد للرحلة التي يتحرّق الجميع إليها شوقاً، يعمّ القصر نشاط يعبّر عن فيض السعادة. ويبدأ المسؤول عن الخيام إعداد حوالى مئتي خيمة، منها خيم بيضاء فخمة يصل بعضها إلى بعض بممرات من الخيام كذلك، وتجهز بالسجاد وبالوسادات والمستلزمات الأخرى، وهذه الخيام خاصة بالملك، ومنها الخيام الصفراء التي جرى تبطينها بحرير دمشق أو الأقمشة المصبوغة المستوردة من الهند، وهناك أيضاً الخيم المخروطية الشكل، المخططة بالأحمر والأزرق، إلى جانب الخيام السوداء المصنوعة من وبر الإبل، التي ينزل فيها مرافقو الملك من البدو. ويقوم العاملون في المطبخ الملكي بإعداد آنية الطبخ النحاسية الكبيرة

وعدد من "جوالات" الأرز والتوابل، كما يقوم كبير الصقارين بإعداد ما تتطلبه أعمالهم. ويتولى مكتب الإشارة تجهيز محطة لاسلكي متنقلة. ويقوم الأمير قائد القافلة الملكية بعدئذ بإصدار أمره للتحرك إلى الموقع الذي اختاره الملك.

بعد هطل المطر تظل غدران من المياه في قيعان الأودية، وتتفتح الزهور وتكتسي الأرض بخضرة بحيث يمكن أن تقام المعسكرات في مناطق صحراوية وسط التلال بعيداً عن مناطق الآبار العامرة في الصيف. وتعتمد المراعي في شبه الجزيرة العربية على متوسط أمطار الخريف. وحين يستقر البدو عادة في المواقع التي يختارونها مرابع لهم، يبدأون بجمع حطب الحريق، ويتخذون منه مصدّات للرياح في الليل ويدّخرونه - بهذه الطريقة - لتزويد نار المعسكر كلما احتاجوا إلى ذلك، وللاحتفاظ بنار القهوة مشتعلة دائماً. ويظل البدو عدّة أيام لا يُشغلون إلا بجمع الحطب. تنشر شجيرات السدر حين تحترق رائحة طيبة، وهي مثلها مثل حطب العرفج تتضوع أريجاً. إن رائحة الشذى الناجم عن تنوّع الأشجار المنبعث من المناطق التي ينمو فيها هذا الشجر الذي يعبق برائحة زكية حكى عنها إكساتفون في كتابه **أنباسيس** ***Anabasis***، كما ذكرها ياقوت الذي نقل عن شاعر عربي من شعراء القرن الثالث عشر حيث يقول: إن الأرض تتضوّع صندلاً ومسكاً وعنبراً. "وهواء الصحراء في وقت الربيع عليل بليل ندي بنحو لا يصدق. وقد لاحظت السيدة آن بلنت وهي في طريقها إلى حائل في شمال نجد هذه الميزة ووثّقتها". وبعد أن يستعير دي جويري شيئاً من رومانسية آن بلنت، ينقلنا إلى هواية الصيد بالصقور.

> وكما يفقد الصقارون صقورهم في السماء وهم يطلقونها على حبارى بعيدة، تهاجر بنا الأفكار بعيداً على جناح فلسفة الخيال لتعبّر عن كمال الحياة في الصحراء. والمرء هنا لا ينتابه الخوف إلا حين يتذكر أنه سيضطر إلى أن يعود أدراجه إلى العالم الغربي، وهو هنا يستطيع أن يرى ذلك العالم على ضوئه الصحيح.

في ذلك العالم البيوت مغلقة وشوارع المدن التي ترقد على جانبيها سلسلة من الحوانيت والمطاعم والمقاهي تخترقها صفوف غير منقطعة من القاطرات. حين يفكر المرء في ذلك العالم يستحضر التجمعات السكنية من "شقق" تكدّس بعضها إلى جانب بعض، حتى ليخيّل للمرء حالياً أنها لم تُعد لإيواء البشر بل لتكون موئلاً للحشرات. ترى الناس هناك محجوزين في المشافي لإجراء التجارب، وتجد "المكيّفات" التي تبعث دفئاً مستحباً، والطعام المتوازن الذي تصحح فيه نسبة الفيتامينات، و"حتى فضلاتهم تحملها عنهم الآلات". ويستطرد دي جويري في تعبيره عن

فلسفة الزهد والتقشف التي تعلّمها من الصحراء وصاغها في أسلوب شجي، لتعبّر عن غريب الشرق وعن سحره، ولتؤيّد ثقافته التي استمدها من بلنت وزوجته وغيرهما من الرحالة الآخرين في هذا الصدد. وفاقت رومانسية دي جويري الحالمة الهامسة صخب تعبير بلنت الذي قال: إنه يتمنى أن يرى مدينة حائل ولا يبالي بعدها، وإن قطع رأسه!

يقول دي جويري: إن الظفر بزهرة العالم يتطلب أموراً أكثر من مساكن تبنيها الدولة. فالسلام الاجتماعي يتطلب "الخطر في صحبة طيبة ملؤها الحب والضحك واللقاء والغزو. إن الراحة لا تجدي فتيلاً ولا تساوي نقيراً إذا افتقرت إلى العوامل المذكورة، ولن يجني المرء دون ذلك رضى يستحق التنويه". ويسترسل دي جويري بعدئذ في التعبير عن وجهة نظره في التاريخ "الممتد لقيام الدول واستمرارها فترات قصيرة وسقوطها"، ويرى أن البدوي يعتقد أنها "شؤون غير مهمة، فهي من أعمال الكفار يجدر بالبدو العاقلين المدركين حقائق الحياة تجاهلها".

يخلص دي جويري بعدئذ إلى الحديث مرّة أخرى عن القنص والطرائد ويفصّل القول في ذلك. يقول هذا الرحالة: "يمارس النجديون الصيد بالصقور كثيراً، وتجد لكل صاحب خيمة في الصحراء صقراً لاقتناص الطرائد من غزلان وطير الحبارى وأرانب برية"، ويضيف: إن الصقور تجلبها عادة القوافل التي تصل من البصرة. تصطاد هذه الصقور أفراخاً في جنوب العراق، وفي المناطق الجنوبية الغربية من فارس، وتباع بأثمان مرتفعة، إذ "يبلغ ثمن الفرخ منها استرلينيين كاملين". ويضيف دي جويري: إن الطيور المستعملة للصيد نوعان هما الوكرى Wikiri والحرّ. ويطلق العرب على كليهما اسم الصقر. "ونجد أن ريش صدر الوكرى يعكس في العادة بياضاً لا يعرفه ريش صدر الحرّ، ولا يمكن التفريق بين ذكر الصقر وأنثاه، وخاصة أن هذه الطيور لا تتزاوج في الأسر".

يستطرد دي جويري فيقول: إن كثيراً من البدو لا يجيدون تدريب الصقور، ما يجعلهم يفقدونها سريعاً، ولكنّ بعضهم - ومنهم الخدم العاملون لدى الملك - يعرفون كل ما يمكن معرفته عن هذه الطيور التي يرعونها طيلة حياتها، فهم صقارون قبل كل شيء، يصاحبون طيورهم، وحتى حين يأوون إلى النوم يظل الطائر مربوطاً على مقعده (الوكر) إلى جانبهم.

> يسبغ هؤلاء المدربون على صقورهم أسماء تستجيب لها هذه الطيور وتميّزها بسهولة، ومن هذه الأسماء: شطة، وحطب، وشلال، وأسماء أخرى ينادونها بها. وهم يداعبون ريش صدورها ويكررون ذلك حين يطعمونها قطعاً صغيرة من اللحم الطازج. تجدهم يملأون أفواههم بالماء ثم يرشونه على ظهر الطائر لترطيب ريشه من حرارة الظهيرة، ويفعلون كل ما من شأنه تعويد الطائر التأقلم مع الإنسان. وتلي هذه المرحلة مرحلة أخرى لتلقين الطائر الدرس الأول في

القنص. يربط هؤلاء الصقارون إحدى قدمي الطائر بحبل طويل ويطلقونه على حمامة قصوا ريش جناحها، أو يربطونها هي الأخرى بوتد في الأرض، وينزعون الغطاء عن عيني الطائر، ثم يطلقونه لينقضّ على الفريسة. عندما ينزع الغطاء عن عيني الصقر في الصحراء تراه يجيل رأسه هنا وهناك بطريقة حادة، ويفتح عينيه ويغمضهما مرّة أو مرتين، ثم يأخذ في مسح الأرض حوله متيقظاً كالوحش، حتى إذا لمح الفريسة مدّ رقبته ورفع ريشه، فيسرع الصقار إلى فك رباطه، ويرفعه بيده اليمنى المستعصمة بالقفاز. وحين يحسّ الصقار أن الطائر قد أوشك على الطيران، يرخي يده قليلاً، ثم يرفعها إلى أعلى بنحو طفيف، تشجيعاً للصقر على الانطلاق. ويبدأ الطائر التحليق والدوران، ويعلو بجسده ثم ينطلق بسرعة هائلة إلى حيث الفريسة فينقضّ مرتين متتاليتين بالقرب منها، ويكون في انقضاضه الثاني أقرب إليها من المرّة الأولى، أما في المرّة الثالثة فتراه ينقضّ على فريسته مباشرة ويأخذ بنهاية رقبتها، فإذا لم يخطئها فإنه يحطّ عليها مباشرة ليقضي عليها تماماً، ويعلو صوت رفرفة الأجنحة، ويتدفق الدم غزيراً فوق الصحراء ساعة يبدأ الصقر تمزيق قلب فريسته. ويهرع الصقار إلى المكان بكل السرعة الممكنة، فيقفز من فوق بعيره أو فرسه إلى الأرض، وينشر بيده اليسرى طرف عباءته على الفريسة، وتتولى اليمنى تخليصها تدريجاً من الصقر الذي يكون في هذا الوقت متشبّثاً بكل قوته باللحم الذي أصابه. وما إن ينزع الصقار الصقر من الفريسة حتى يغطي عينيه، بينما لا تزال رقبة الطائر ومنقاره يهتزان بعنف. ويأخذ الصياد بمكافأة الصقر ومعالجة خيبة أمله بإعطائه قطعاً صغيرة من أمعاء الفريسة، وإلا فقد الصقر الرغبة في الانطلاق وراء أيّ فريسة مرّة أخرى في ذلك اليوم.

ويشير دي جويري إلى أن بعض الصقور تصيب في صيدها اليومي ما يصل إلى ثلاث عشرة حبارى، "غير أن هذا لا يحدث إلا نادراً، فالمتوسط هو ست حباريات فقط".

يستطرد دي جويري، هذا الكاتب الأديب المبدع الفنان الذي يرسم بالكلمات مشاهد حية لن تتمكن آلات التصوير مهما كانت دقيقة من الإحاطة بأبعادها، فيقول:

لا تستعمل هذه الصقور في صيد الغزلان التي يتطلب صيدها تدريباً آخر يناله صقر آخر. فتدريب هذا الطائر يختلف عن التدريب الذي يناله الأول. يدرب الصقر الذي يستغل في صيد الغزلان على التعامل مع الكلب السلوقي العربي.

تطلق السلوقيات على الطريدة أولاً، فتراها يسابق بعضها بعضاً حين تبلغ جانب الغزال، ثم تأخذ في الإحاطة به في شكل دائرة تضيّق خناقها تدريجاً وهي تتسابق على جانبي الفريسة، وحينئذ يطلق الصقار صقره الذي يبدأ الطيران بسرعة هائلة قريباً من سطح الأرض، ولا يحلّق عالياً إلا حين يقترب من الغزال. وحين تبدو الفريسة في متناول مخالبه، يرتفع فجأة في الهواء ثم ينقض على الغزال لينزل على قرنيه، وينقر عين الحيوان في وحشية. وفي هذه اللحظة، أو ربما قبلها قليلاً، ترى الحيوان وقد سقط رأسه بين رجليه بعد أن أضحى أعمى، وعيناه تقطران دماً يسيل على الأرض. وترى الصقار وقد أخذ يهدّئ الطائر، ويسرع بشحذ سكين الصيد لقطع رقبة الغزال بسرعة فائقة قبل أن يفارق الحياة... إن منظر دماء الحيوان وهي تشكل بركة حمراء قانية فوق تلك الصحراء العذراء، ورائحة السائل الذي يتدفق من فمه بلون أخضر باهت، وشكل أحشائه، هذه كلها أشياء مقززة لدى الأوروبيين، ولكنها تورث العربي سعادة كبيرة، فوجبات اللحم في الصحراء نادرة، إضافة إلى أن لحم الغزال لذيذ الطعم.

يقول دي جويري: إن ذروة الوقت المحدد للقنص تنتفي قبل أن تعتلي الشمس كبد السماء. فحين تخلو الأرض من الظلال وتغدو كأنها قطعة من معدن، وتسرع طيور الحبارى لتندس في قلب تلك الشجيرات الشوكية التي ترعاها الإبل، يكون الصقر قد فقد رغبته في الصيد. وعند ذلك يكرّ الصيادون عائدين إلى المعسكر، وحين يقتربون منه تعلو عقيراتهم بالغناء وهم يرددون أشعاراً خاصة بالقنص. ولا يسعنا إلا أن نحتفل بهذا الوصف الرائع. فإضافة إلى ما ظللنا نردده كثيراً من أننا نأخذ من الرحالة ما شاهده بأم عينيه ونعتمده بعد النقد، نرى أن الاستخباريين منهم يمتازون بتطويع القلم لتصوير الواقع الذي يرسمونه بكلمات دقيقة معبّرة، وهذا ما أجاد فيه دي جويري فأبدع.

اعتاد كافة الرحالة الغربيين تناول موضوعات محددة يخوضون فيها بلا معرفة ولا دراية، وتتمثل هذه الموضوعات في الإسلام وفقهه وطوائفه، والمرأة العربية وعالمها، والرق في البلاد العربية، كما يتناولون البادية وقبائلها. وفي هذا المجال يكتبون ما يرونه بأعينهم فيجيدون كما فعل دي جويري، ويفسرونه على ضوء من ثقافتهم فيضلّون كما ضلّ دي جويري أيضاً. أما الحديث في تاريخ المناطق التي يزورونها فهو المجال الذي يسرح فيه جميعهم ويمرح، فيوفّق هوناً ما حين يأخذ عن الرواة في التاريخ القريب، ويفشل حين يغوص في التاريخ الأبعد حيث تختلط عند العامة الذين يأخذ عنهم الأسطورة بالحقيقة، ولا يجد الرحالة الغربيون إلا أن ينقلوا

بعضهم عن بعض في المسائل الخاصة بالإسلام والمرأة والرق وأخبار القبائل وأنسابها، وكلهم في هذا المجال ضال مُضلّ. ولبيان ذلك يمكن أن نقارن بين دي جويري ورحالة غربي آخر سبقه في الرحلة بقرن كامل في ما أورداه عن المرأة العربية، لندرك مدى التطابق في المفاهيم التي لم تتغيّر بمرور الزمن.

المرأة العربية

لم يتردد دي جويري – شأن كافة الرحالة الغربيين السابقين له واللاحقين – في تناول شأن المرأة العربية، أحد الموضوعات الرئيسة في كل كتابات الرحالة الذين خيّل إليهم أنهم اخترقوا كل شيء في شبه الجزيرة العربية، شجرها ومدرها، ورمالها ووديانها، مقاهيها ومجالس الذكور فيها، ولكنهم كلهم كانوا يدركون حقيقة أنهم لم يتمكنوا من دخول عالم المرأة العربية فاستعاضوا عن ذلك بإعمال الخيال. راح هؤلاء الرحالة جميعهم يكتبون عن المرأة العربية التي استعصمت منهم بتراثها وتقاليدها وأصالتها، فجاءت كتاباتهم عنها مغلوطة، مشوّهة ومغرضة. وكانوا دائماً ينقلون في هذا المجال بعضهم عن بعض، لا يتمايزون إلا باختلاف الأسلوب، وربما باختلاق أكاذيب جديدة أحياناً. مثّلت المرأة العربية في الفكر المسلم أهم عنصر في المجتمع الذي يرى في صيانة العرض قيمة أخلاقية لا تدانيها أيّ قيمة أخرى. وتبقى قيمة العرض قيمة غريبة تماماً في الذهن الغربي، وغير مفهومة البتة، وفوق إدراك العقل الغربي مهما طوّف بالخيال. فهم لا ينظرون إلى الأعراض كنظام اجتماعي شامل متكامل، ولا يستطيعون أن يروا فيه – مهما اجتهدوا – إلا الجانب الجنسي منه. وما ذلك إلا لأنهم نتاج ثقافتهم التي تعكسها مرآة مسيرة تاريخهم. فالمرأة الغربية قد مرّت عبر تاريخها الطويل – ولا تزال – بتقلبات دراماتيكية انعكست على تفكير المجتمعات الغربية التي أدركت أنها انتهكت حقوق المرأة فترات طويلة، فراحت تكفّر عن أخطائها، فاندفعت من تطرّف عبر تطرّف إلى تطرّف معاكس مقيت.

يرجع أول ما نعرفه عن المرأة الغربية إلى عصور التوثين الإغريقي الروماني التي لم يكن يُعترف للمرأة بحقوق في مجتمعها إلا للحسناوات الفارعات الفاتنات اللاتي خُلّدن بتلك التماثيل التي تكاد تنطق بالإباحية المفرطة. ولم تكن هذه المرأة في تلك المجتمعات إلا مستباحة، ولا تحدث صورتها إلا عن غنج الأنوثة ودلالها. وما لبثت مسيرة المرأة في الغرب أن دخلت انعطافاً خطيراً بعد أن ثابت أوروبا إلى النصرانية، وغالت في ردّ فعلها ضدّ القيم الوثنية السابقة. وغدت المرأة في الفترة القروسطية مخلوقاً نجساً غايته الإغواء، فانقلبت الصورة – ربما ببعض المؤثرات اليهودية – من النقيض الذي عُبدت فيه صورة المرأة الجسد إلى النقيض الذي لُعنت فيه صورة المرأة الجسد، ولم تبرز في أي من هذين النقيضين صورة المرأة الإنسان. وجاهد إصلاحيّو المجتمع

الأوروبي لرفع الغبن عن المرأة حتى تمكنوا من شيء من ذلك في عصر التنوير والانقلابات الدينية، الإصلاحية منها وغيرها. وأخذ الفكر الأوروبي ينتعق تدريجاً من قيود العصور القروسطية، وأخذت المرأة بمعاونة الرجل تستخلص قسراً وبالتدريج حقوقها حتى وصلت إلى ما يشبه المساواة الإنسانية الكاملة مع الرجل، فوقعت في النقيض مرّة أخرى، فقد أنكر المجتمع خصوصيتها كامرأة، وراح بعض نساء المجتمع الأوروبي ورجاله وقد ضلّوا الدرب، وسدروا منذ هذه الفترة في الغي يتطلعون إلى إلغاء الجنس والوصول تطابقاً إلى "الجندر" أو المثلية أو ربما التماثل؟ في الوقت الذي ترى فيه الفطرة الإنسانية السليمة المرأة مرأة والرجل رجلاً، وآية ذلك أنك إذا أشرت إلى أي من الجنسين بمسمّى الآخر كان ذلك أبلغ إساءة يمكن أن تلحق بإنسان، رجلاً كان أو إمرأة. أما تاريخ المرأة العربية فلم يشهد تلك التقلبات العنيفة، فقد ثبتت للمرأة بالإسلام هويتها وتأكدت خصوصيتها فهي – وإن كانت صنو الرجل في الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة – تمتاز عنه بخصوصيتها كامرأة، في العديد من المجالات الحياتية التي درج الغرب بحكم ثقافته على إنكارها بكافة الوسائل، بما في ذلك أقلام الرحالة. أدرك هؤلاء ومن لفّ لفّهم من المستشرقين والساسة أنهم إذا لم يتمكنوا من اختراق هذه الخصوصية المهداة فسيظل المجتمع العربي الإسلامي الذي تعد المرأة حاضنته مستعصياً عليهم مهما اخترقوا من سباسبه واجتازوا وديانه واجترحوا رجاله. فالمرأة العربية المسلمة – تشاركها نظيرتها غير المسلمة التي تعيش في هذا المجتمع الذي أسهمت في الإضافة إلى تراثه – قد شرع الإسلام لها حقاً مطلقاً في الرعاية والعناية، فالأحق بالعناية في المجتمع الإسلامي هي الأم ثم الأم ثم الأم، ثم الأب، كما أشارت السنّة المطهّرة. أما البنت فحقها في الرعاية أوجب على الأب من الأبناء الذين يجب عليه حقّ رعايتهم. وقد ضمن الرسول الكريم للأب الذي يقوم على تربية بناته وتنشئتهن خيري الدنيا والآخرة. أما الزوجة فتظلّ حقوقها مصونة، وحرية تصرفها في ما تملك مكفولة، ولها الحقّ شرعاً في أن تشارك زوجها ماله في مهرها المدفوع ونفقتها زوجة أو مطلقة، وليس للزوج في مالها حق وإن كان معسراً إلا برضاها وموافقتها. وتبقى كرامة المرأة موفورة بصيانة العرض الذي هو فرض على المرأة والرجل الذي يضحّي بحياته ولا يضحّي بموفور عرضه. أما العقل الغربي فلا يدرك من قيمة العرض الذي هو منظومة متكاملة من القيم إلا الجانب الجنسي منه. وسأنقل في هذه العجالة عن ولستد أحد الرحالة الذين جابوا قسماً من شبه الجزيرة العربية قبل قرن كامل من الزمان، ثم ننقل عن دي جويري لنبيّن أن صورة المرأة العربية لم تتغيّر في الذهن الأوروبي طيلة قرن كامل من الزمان، فهم ينقلون بعضهم عن بعض، ويوردون الصورة النمطية التي رسموها في أذهانهم للمرأة العربية، وهي صورة تجافي الواقع الذي يجهله العديد منهم.

يقول ولستد عن بعض بدو البني بوعلي الذين استضافوه في ديارهم (راجع كتابنا **تاريخ عمان** ص ٥٧):

> وانتقل الحديث بعدئذ إلى شؤون نسائنا، وسئلت عن صحة ما يقال من أن نساء الطبقات العليا في مجتمعاتنا يخرجن سافرات ويرقصن في الأماكن العامة. وظنّ القوم أنهم قد زجّوا بي في ركن ضيق، فظلوا في انتظار إجابتي وهم يتنحنحون. واعترفت لهم بصحة الأمر، ولكنني أضفت إلى ذلك أننا لسنا أمثالهم نعلق أهمية على مثل هذه الأمور، فنساؤنا لسن انطوائيات، وهن متعلمات علماً نافعاً، ولهن حريتهن مثلما للجنس الآخر تماماً، ونحن بهذا راضون قانعون، فنساؤنا رفيقاتنا، ولسن مجرد أوعية لرغباتنا الجنسية.

غير أن ما كتبه هذا الرحالة، من لمز هو نتاج قريحته التي صاغت صورة المرأة العربية بحسب الصورة الغربية الموروثة، لا يثبت أمام تجربته في الرحلة. فقد روى عن بعض نساء البني بوعلي اللاتي شاركن أزواجهن بكل الشجاعة قتال الإنكليز وردّهم عن ديارهن، أن لنساء هذه القبيلة قسطاً وافراً من النفوذ في كافة شؤون الحياة (**المصدر نفسه ص ٥٧**). ويروي أيضاً وهو يتحدث عن نساء الجنبة فيقول حين حل في ديار تلك القبيلة:

> استقبلتني في تلك الغرفة سيدتان، هما: زوجة الشيخ، وأخته... كانت المرأتان منقبتين تماماً، لا يرى منهما من أعلى رأسيهما إلى أخمص قدميهما أي شيء، و لم أتمكن خلال فترة وجودي معهما من أن أرى إصبعاً واحداً من أيّ واحدة منهما، ولكنني استعضت – على أيّ حال – عن خيبة الأمل التي أصابتني برؤية بعض الحبشيات الجميلات غير المحجبات اللائي كنّ في خدمة هاتين السيدتين (**المصدر نفسه ص ٦١**).

ويقول هذا الرحالة أيضاً:

> وصلنا إلى السويق و لم أجد شيخها هناك... وقد استقبلتنا زوجة الشيخ التي رحّبت بنا أيّما ترحيب، وأصدرت توجيهاتها لعبيدها واضحة صريحة بضرورة مراعاة راحة هؤلاء الرجال... وهيّأ لنا هذا الأمر الواضح أن نستمتع بكافة ضروب الرفاهية التي يمكن أن يوفرها لنا مطبخ هذا الشـيخ... (**المصدر نفسه ص ١٣٢**).

ويتحدث ويلستد عن زوجة السيد هلال، أحد أبناء عمومة السيد سعيد الذي يصفه بأنه ثاني

أكبر شخصية في عمان التي يمثل الإمام فيها درجة الصدارة فيقول: "وهنا يجدر بنا أن نقف أمام حدثين يوضحان بنحو واف مدى نفوذ المرأة العربية وسلطانها في هذا المجتمع". ويقصّ ولستد قصة خروج السيد هلالٍ على السلطان الذي حبسه في مسقط، ويضيف: "و لم تتردد زوجة هذا الشيخ - وهي أخت السيد سعيد - حينما علمت بالنبأ، في أن ترسل في طلب قبائل البدو، وجهزتهم بعدّة الحرب للسير إلى مسقط ومجابهة السلطان". ويسترسل ولستد فيقول: إن السيد سعيد أرسل قوة إلى السويق من رجاله، وهدد أخته بأنه سيقتل زوجها إن امتنعت عن تسليم القلعة، فردّت تلك المرأة الجسور بأنها ستدافع عن القلعة حتى إذا قُطّع زوجها أمام ناظريها إرباً إرباً. وصمدت تلك السيدة مع قواتها، ودافعت عن القلعة المحاصرة حتى اضطرت القوّة السلطانية إلى رفع الحصار والعودة إلى مسقط. وعفا السلطان عن الشيخ المعني، فعاد إلى زوجته التي حفظت له نفوذه وهيبته في هذه المناسبة، وفي مناسبة أخرى كذلك حينما قامت برد هجوم مفاجئ من صحار على القلعة نفسها، لم تجِد إلا المقاومة بقيادة هذه المرأة ذاتها. ويضيف هذا الرحالة: "ويقال إن السيد سعيد يجلّ هذه السيدة ويوقرها، ويصغي إلى نصحها، ولا يبرم أمراً إلا بعد استشارتها وموافقتها". **(المصدر نفسه ص ١٣٣-١٣٤)**. وكان السيد سعيد نفسه، في ما يقول هذا الرحالة، يزور والدته - التي لا تزال على قيد الحياة - كل يوم، "يتحسّس رغباتها ويستجيب لما تريده".

وإذا خرجنا من دوائر نساء الشيوخ والأمراء، ودوائر عامة النساء اللائي اشتركن مع الرجال في الحروب حماية للديار والذمار، فهناك النساء اللائي كن يعملن في رعاية الكروم، ويقمن بأعمال الفلاحة، ويجلبن الماء من الينابيع، يحملنه فوق رؤوسهن، وأجسامهن تتمايل عفوياً للحفاظ على توازن الآنية التي يحملنها. "وقد انعكس ما تمارسه هؤلاء النسوة من حركة دائبة ونشاط دائم في الهواء الطلق على خطوهن الذي بات يعكس حركات أجساد انزلاقية محبّبة. أما ألوانهن فقد صفت نقاءً وأشربت حمرة زاهية، فأصبن جمـــالاً...".

ويتساءل هذا الرحالة: "فهل تمسّ يد التغيير هؤلاء النسوة ذوات الطلعة البهية والقامات الفارعة والجمال الأخّاذ على الرغم من أنهن قانعات بالمعاناة التي هنّ عليها في ميزان الإنسانية؟". ونتساءل بدورنا: أيريد هذا الرحالة من نساء العرب فوق مشاركة رجالهن شظف الحياة ولينها أن يكنّ مثالاً للمرأة الغربية؟!

عموماً، فقد أتيح لولستد أن يرى في جزيرة سقطرة التي كان المجتمع فيها أكثر من مجتمع عمان جهلاً بالدين وأقل ثراءً، ما لم يره في عمان. فقد حدث أن أهدى إلى إحدى نساء هذه الجزيرة بنطالاً، ففرحت به وراحت تقهقه، وهي تحاول أن ترتديه، فكشفت عن ساقيها لتتيح له أن يلاحظ "أن نساء هذه الجزيرة يتمتعن بأكثر السوق اكتنازاً في العالم". ولا نعرف أي عالم قصده ذلك الرحالة الشاب إلا أن يكون قد عنى عالم بلاده، وربما بعض

المجتمعات الوثنية في المناطق التي استعمرتها بلاده.

لن نستطرد كثيراً في استكشاف صورة المرأة العربية في عقل دي جويري، ونحن نربط بينه وبين ولستد لمرور قرن من الزمان بالضبط بين الرحلتين. الصورة عند الرجلين هي هي لم تتبدل، وما ذلك إلا لأن الرحالة الغربيين الذين لم يفت أي منهم الخوض في عالم المرأة العربية ناقلاً عن سابقه، يرى اللاحق منهم نساءنا بعين السابق منهم، وقد يضيف إليها بُعداً هنا أو يحذفه هناك تبعاً لدرجة ثقافته، أو ربما تبعاً لما قد تستدعيه مهمة رحلته. تراهم يلوكون الصورة النمطية نفسها التي رسمها الخيال الغربي، على الرغم من أنهم غالباً ما يقدمون صورة مغايرة حينما يكتبون ما وجدوه أو لاحظوه، فيقعون بذلك في الخلط والتناقض. ولا تزال نساء العرب – ما عدا شريحة فيما عدا شريحة منهن استهوتها الغربنة فاستغربت – لغزاً يستعصي على المستشرقين الذين يحاولون اختراق عالمها بذرائع قد تصدق في بعض مجتمعاتنا العربية، ولكنه الصدق الذي يراد به الباطل، كما يكشف التراث الاستشراقي الذي بدأه الرحالة الغربيون وأرضعوه مجتمعاتهم.

يتحدث دي جويري عن نساء الملك عبد العزيز، ثم ينظر في سلبيات "النظام العربي" وإيجابياته، في تعدد الزوجات فيقول: رغم أن التعدد مكلف، إلا أن الرجل يجد فيه "أربعة أمثال ما يمكن أن يجده لدى زوجة واحدة"، وأن أقل ما يمكنه أن يلقاه هو الاستمتاع بالتنوع بدلاً من أن يصبر على طعام واحد. وفي الحقيقة، إن الغربي الذي لا تعني المرأة في عقله أكثر من المتعة، لا يستطيع أن يدرك الحكمة من التعدد في المجتمع الإسلامي. ويستطرد دي جويري فيقول من دون أن يشير إلى مصدر: إن التعدد "لا يؤدي إلى مشكلات بارزة في الحريم، فكل منهن تدرك أعباءها جيداً"، ويضيف هذا الرجل المتحذلق وهو يفلسف جهله بحياة الأسرة الشرقية: "إن الطلاق يُعدّ من أهون الأمور، وإن السهولة التي يتم بها تنفي وقوع المشكلات، وإن المطلقة لن تتذمر، لأنها لن تفقد شيئاً أبداً إلا زوجها (؟!) أما كافة شؤونها الأخرى فهي على ما ينبغي".

ويسترسل دي جويري في الحديث عن النساء العربيات في فترة الإمبراطورية العثمانية التي طويت صفحتها فيقول: ليس هنالك إلا القليل ممّا يمكن أن يؤرق "الضمير الإنساني" في شأن الحياة الأسرية، ويرى أن اليافعات العربيات "لسن إلا حيوانات هانئة ضاحكة، أما عجائز النساء العربيات فيتميّزن بالحكمة بصفة خاصة".

يقع دي جويري – شأن كافة الرحالة الغربيين السابقين له – في التناقض بين واقع المرأة العربية. وبينما يصوّره الذهن الغربي حين يذكر أن شبه الجزيرة العربية قد عرفت في سابق عهدها حكم عدد من الملكات، "وما بلقيس وزنوبيا إلا ملكتان أصابتا شهرة لم تلحق بملكات عربيات أخريات جلسن على عروش شبه الجزيرة العربية". ويعترف هذا الرحالة مثل سابقه ولستد بأن للمرأة في شبه الجزيرة العربية نصيباً في إدارة شؤون الحكم، وإن لم يكن مباشراً،

فيقول: إن الملك عبد العزيز يزور أخته نورة المتزوجة بسعود - ابن عمه - يومياً في العادة، يستشيرها ويأنس برأيها الذي يراه سديداً. ثم ما يلبث هذا الرحالة أن يناقض نفسه حين يراجع ثقافته فيقول: "حقاً إن العرب يضعون المرأة في منزلة أدنى من الرجال، ولكنهم مع ذلك لا يحتقرونهن (؟!)، فهم يعترفون بأن المرأة تمتاز عن الرجل في العديد من المناحي، ويستشهدون بأن أنثى الحيوان أميز من ذكره (!)".

ويذهب دي جويري - من دون أن يذكر مصدره - إلى القول: "إن نساء البدو في مضاربهن البعيدة أصدق إخلاصاً لأزواجهن من العديد من النساء الأوروبيات". ويستطرد في الحديث عن النساء فيقول: إن البدوي أكثر تعلقاً بنسائه ممّا يظنه بعض الأجانب الذين لم يسمعوا في هذا الصدد إلا عن نظام الحريم، "ذلك النظام الأكثر قسوة، والذي كان يسود بلاداً غير هذه البلاد، وفي فترات غير هذه الفترة". ويرى أن الفصل بين الجنسين أمر قد تغلّب عليه شباب المكيين الذين توصلوا عبر الأجيال إلى إنشاء مؤسسة تواصل سرية كاملة، واتخذوا لها حركات ذات مغزى يعبّرون بها عن مشاعرهم. ويقول: إنهم في العادة لا يتقابلون ولا يتبادلون الخطابات، ففي هاتين الممارستين أمر معيب. ويكتب دي جويري في هذا الموضوع المبتذل شيئاً كثيراً، قد نذكر شيئاً منه لطرافته. يقول: إن الشاب يستطيع أن يعبّر عن إعجابه بالفتاة بأن يرسل إليها ورقة من فرع برسيم أو حبات فلفل وهيل، أو بن، ويمكن أن تبادله الفتاة خطاب تلك الإيماءة السرية بقطعة قماش عليها تطريز بخيط من ذهب يربطه الشاب ببعض ملابسه. ويقول دي جويري: "إن الوسطاء بين الجنسين هم في الغالب من الخدم والخادمات السود الذين اخترقوا حصار الفضيلة الذي يقوم عليه المعمّمون وحراس الأخلاق من الوهابيين، وعجائز المدينة المتعصّبون".

رواية التاريخ

كتب دي جويري في تاريخ شبه الجزيرة العربية اعتماداً على الرواة، فأصاب بقدر ما يمكن الرواة أن يصيبوا وهم يتناولون تاريخهم المعيش. وعلى الرغم من أن مصادر تاريخ هذه الفترة كثيرة ومتعددة، ومختلفة الاتجاهات والمشارب والأهواء، لا يمنع هذا إدراج دي جويري ضمن هذه المصادر بعد فحصها من قبل مؤرخ مختص يعتمد نقد الرواية. أما حين يخوض دي جويري في مجاهل ما وراء التاريخ المعيش، فإنه مثل رواته يخلط الحقيقة بالوهم، والأسطورة بالحقيقة، ما يتطلب من المؤرخ قدراً كبيراً من النقد والاستقصاء. ولمّا كان ما أورده هذا الرجل من تلك الحقب غير كبير ولا خطير، ولن يضيف شيئاً إلى المعرفة التاريخية، فعلى المؤرخ أن يتجاهله من دون أن يخسر شيئاً، بل ربما ربح بتجاهله ضرباً من الجهل أضافه هذا الرحالة إلى التاريخ من

مصادر العديد من السابقين له من الرحالة الغربيين الآخرين، ومصادر أخرى استعملت وفق الرؤية الغربية لتاريخ المنطقة القديم.

كتب دي جويري عن استيلاء عبد العزيز على الرياض، وتمكّنه من انتزاعها عام ١٩٠١م من الحاكم الذي عيّنه آل رشيد، وروى الرواية الشهيرة عن قضاء عبد العزيز الليل في قلة من أتباعه خارج أسوار البلدة ساهراً متربّصاً حتى مطلع الفجر، ثم ما كان بعد ذلك من العراك الشرس الذي دار عند بوابة المصمك والتي انتهت بسيطرة ابن سعود على المكان. ويشير في هذا الصدد إلى رأس الحربة المغروس في باب الحصن، والذي لا يزال حتى يومنا هذا شاهداً على قوة المهاجمين الجسدية وقوة إيمانهم بقضية قائدهم.

يضيف دي جويري أنه سمع هذه القصة من بعض مرافقيه، ويدافع عن هؤلاء الرواة وصدقهم، ويرى أنهم يعرفون تاريخهم معرفة تامة، ويعلل ذلك بنقد الرواية، ونراه قد أفلح في ذلك كثيراً. يسند دي جويري هذه المعرفة إلى أمرين، أوّلهما: أن المنطقة تكاد تخلو من كافة ضروب التسلية التي يمكن أن تشغل الجمهور عن رواية الماضي، ما جعل الرواية مكان ترحيب في المجتمع، وثانيهما: ليس في شبه الجزيرة العربية أسرار حكومية خطيرة، فكل الذي يحدث وكل الذي يقال يجري في العلن ويذاع بعفوية. وينتهي دي جويري إلى القول: إن العرب جميعهم يتمتعون بذاكرة قوية تختزن التحديات الدائمة التي تكتنف المجتمع، وهم دائماً على حذر من هجوم وشيك من عدو يطرقهم فجأة، وهم أيضاً على حذر من الطبيعة نفسها، ولذلك فإن السوابق يجب أن تكون حاضرة في أذهانهم أبداً، "فالهامش بين المصائب التي يمكن أن تنزل عليهم فجأة وبين الأمن الذي يعيشونه ضيق جداً، ولذلك ترى العربي يتمتع بحدّة ذهن مدهشة".

يلاحظ دي جويري – استتباعاً لما سبق – أن الأخبار تنتشر في أوساط العرب بسرعة مذهلة "تكاد أن تكون مستحيلة"، ويلاحظ أيضاً أن تلك الأخبار المتداولة عادة ما تكون صحيحة لا لبس فيها، لأنها تتصل بمسائل حياتية. فعندما ينزل الغيث في منطقة معينة ينتشر خبره بسرعة هائلة، وتحدد بدقة أماكن نزوله، ويُتحقق من قيمة مثل تلك الأخبار، لما سيتمخض عنها من ملابسات مهمة تؤثر في أسلوب حياتهم. فالمرعى في ذلك الموقع الذي هطلت فيه الأمطار مخصص لبطن معين من قبيلة بعينها، ولا يجوز لغيرها أن ترعاه، وتلك العشيرة ذات الاختصاص ستصل إلى تلك المنطقة الممرعة في فترة بعينها، عبر طريق معين يمر بمناطق بعينها، تبعاً لوجود المياه في الحفر التي تتجمع فيها مياه الأمطار، وسيعرف أهل هذه القبيلة قبل تحركهم كم تحوي تلك الحفر من المياه، وكم منها جافة، وكم مترعة، وذلك لتحديد الزمن الذي سيستغرقه قطع تلك العشيرة أو القبيلة حتى تصل إلى المنطقة التي تقصدها.

يتفوّق دي جويري بما أورده هنا على كافة الرحالة الغربيين الآخرين في إدراك شكل المنظومة

القبلية وحدود ديرة القبيلة ووطنها وعلاقاتها بعضها ببعض. يقول جميع الرحالة الغربيين - ونحن هنا لا نبالغ حين نقول جميعهم، وتبعهم في ذلك ثلة من المستشرقين والمستغربين - : إن العربي لا وطن له ولا ارتباط له بالأرض، وإن كل نصيبه من الوطن خيمة وجمل، فهو يطرق منطقة ما ويرعاها، ثم يرحل منها إلى أخرى ليصيب من خصبها أيضاً، ثم ينحاز إلى غيرها. وترى غلاة هؤلاء المستشرقين يقارنون بين البدوي والعناصر الأخرى من البشر التي يعدّونها متخلّفة حضارياً في أفريقيا وغيرها، ويقولون: إن لكل من أفراد هذه العناصر كوخاً يستميت في الدفاع عنه، ما يجعله يدرك معنى الوطن أكثر مما يدركه العربي الذي لا يعني الوطن له شيئاً، فهو في ترحال دائم لا يملك كوخاً يستوجب الدفاع عنه، ولا ولاء له للأرض. وبالطبع فإن تطور هذا الفكر الاستشراقي وما استتبعه من نظريات سخيفة لا يقع ضمن دائرة اختصاص المؤرخين، فهو شأن علماء السياسة والمهتمين بالدراسات الاستشراقية.

يتحدث دي جويري عن الرواية والأخبار التي تشكل الإعلام العربي في ذلك الوقت، فالملك في مجلسه يسأل القاصي والداني من الوافدين إلى مجلسه عمّا لديهم من أخبار، كما يجب على مستشاري الملك أن يجدوا الإجابة بسرعة عن الأسئلة الصعبة، وأشار دي جويري إلى أن مستشاري الملك في حركة دائمة يراجعون "الغازيتات" والقواميس والمصادر الأخرى المتوافرة لديهم يستقون منها المعلومات. ويضيف دي جويري القول: إن الرياض تصدر صحيفة إخبارية، إلا أن الملك يتابع الأخبار بدقة وبصورة دائمة، فهي ترد لاسلكياً من أرجاء متعددة من العالم، وتقرأ له مرتين في اليوم "كأنه قائد جهاز استخبارات متمرّس، فهو بعيد الهمة، قاطع الرأي، سريع الاستجابة كالبرق في السماء".

يستطرد دي جويري في الحديث عن البدو، ما يجعلنا نؤكد فيهم فكرة الوطن التي يسعى البعض لإدانتها. فالوطن في تقديرنا هو الأرض التي تضم أفراداً يسودهم التآلف والتراحم والتكافل والسعي المشترك لكسب الرزق، باستثمار إمكاناتها وفقاً للقيم التي تحكم المجتمع والأعراف التي تتحكم فيه، وروح الفداء التي تحرس الإرادة الجمعية التي بلورتها مجالس الشورى وارتضاها الأفراد. يقول دي جويري: إن بدو كل قبيلة يدركون ما يميّز شخصيات شيوخ القبائل البعيدة بما اشتهروا به، فترى البدوي يجوب تلك الأرض من دون معوقات. ويضيف: إن أي بدوي من شمال شرق الجزيرة العربية - على سبيل المثال - يستطيع أن يشق طريقه إلى عسير للقاء رجل أوكل إليه رعاية حيوان يخصّه، أو للقيام بأيّ مهمة أخرى قد تبدو في أعين الأوروبيين تافهة، "يمكن بدويين أن يشتركا في ملكية مهر واحد، فإذا أرادا بيعه كان من اللازم أن تنشأ بينهما مداولات طويلة الأمد لإنجاز المهمة. يشد البدوي الرحال من منطقة إلى أخرى لا يحمل معه إلا العدم، وهو خالي الوفاض من المؤونة تماماً غير معتمد إلا اعتماداً غير ناضج (؟) على ما تهيّئه له الظروف أو تجود به عليه الفرص. وترى ذلك البدوي المسافر

وقد آب إلى أهله بعد أن فارقهم شهوراً عدّة وقد فرغ من أداء مهمته بنجاح".
ويذهب دي جويري إلى تأكيد حقائق بارزة في الشخصية البدوية إذ يقول:

> إن هؤلاء الرجال قد ورثوا من شظف العيش في الصحراء عبر القرون ما لا يمكن أوروبياً أن يصدقه، فأصبحوا بذلك أقوياء، أعينهم مفتوحة دائماً، وذاكرتهم نشيطة أبداً. لن تجد في وجوههم البائسة أوقية لحم زائدة، فهؤلاء البدو، سواء أكانوا من النبلاء (الشيوخ والأعيان) أم كانوا رعاة إبل في أسمالهم البالية، أم ربما شباباً معدمين يسعون للكسب في سواحل صيد اللؤلؤ، أم أولئك الذين يضربون بأقدامهم أزقة الرياض المزدحمة، هؤلاء كلهم مفعمون بفيض من الآمال.

واعتماداً على ما تقدّم نستطيع القول: إن في الأنظمة العربية الإسلامية من التكافل والشورى والأبوّة والأخوّة وصلات القربى والتراحم ما لو تمكنّا من تطويرها لاستيعاب المستجدات المختلفة لتفوّقنا على الأنظمة الأخرى التي تطورت تحت اسم الديمقراطية في مناطق أخرى من العالم اختلف تاريخها تماماً عن تاريخنا. فإذا كانت كلمة الديمقراطية ذاتها غريبة عن قواميس لغتنا العربية فكيف بها تطبيقاً وعملاً؟!

الطوبوغرافيا والقبائل

يقول دي جويري: إن شبه الجزيرة العربية ليست بالجفاف الذي يظنه البعض. ويتحدث عن الخصب في عسير حيث يعمل سكانها في الزراعة على امتداد السنة، يزرعون الذرة الشامية والذرة الرفيعة وغلات أخرى، ويبذلون من الجهد والعرق وكل ما يمكن أن يبذله نظراؤهم في أوروبا. ترى هؤلاء المزارعين وقد نالت منهم الشمس يعملون مجردين من كل لباس إلا من قطعة قماش مخططة باللونين الأصفر والأحمر يلبسونها حول أوساطهم، ويضعون أكاليل من نبات عطري في شعر رؤوسهم. أما في منتصف النهار، فإنهم يتقون أشعة الشمس بقبعات من القش، متناهية الكبر، تغطي رؤوسهم وأكتافهم وتحجب الحرارة. وهم - مثل المزارعين في كل مكان - يتوقفون عن العمل برهة، ويستندون إلى معازقهم عندما يلمحون أحد المارة، ويحيّونه.

> لغة العسيريين مختلفة قليلاً عن لغة أهل نجد، وهم عادة أقل أحجاماً من أهل الهضبة (نجد)، أما جلودهم فتظهر لوناً أكثر سمرة من النجديين، وفي أخلاقهم تواضع أكثر ممّا نجده لدى وهابيي المرتفعات من أبناء إسماعيل. وفي الحقيقة لا

يوجد حتى الآن شيء ملموس يبرهن على ما يشير إليه التراث العربي من تباين بين الإسماعيلي والقحطاني.

ونعتقد من جانبنا أن دي جويري رحالة غربي ومسؤول سياسي في شؤون الشرق لأعتى دولة استعمارية أخذت تستشعر في هذا الوقت بنحو خافت أن شمس إمبراطوريتها قد آلت إلى الأفول، ثم إنه – فوق هذا وذاك – مستشرق ذو ثقافة واسعة في ضروب الاستشراق، أيّدتها معرفته التي نعتقد أنها عميقة بما كتب الرحالة الغربيون السابقون له عن شبه الجزيرة العربية. فبعد أن خاض هذا الرحالة عميقاً في أساطير الشرق – في رمزية بدت في ذاتها أشد وضوحاً من الخطاب المباشر – لم يتردد في استعماله في أثناء كتابه بعدئذ حين قال: "إن القرن العشرين يتحرك في اتجاه القرن السابع"، وهو يشير بذلك إلى الدولة التي أقامها عبد العزيز بن سعود على مبادئ الفكر الوهابي، قصد تلميحاً أن العرب حينما يسيرون في دروب التقدم يتجهون إلى الوراء.

يستطرد دي جويري فيحكي في تاريخ المنطقة، ونعتقد أنه قد أجاد كثيراً في سرد الأحداث، وأساء كثيراً حين غمز ولمز في تحليلاته لها. ولربما لم يكن هذا الأمر الأخير مقصوداً، ولكنها الذهنية الغربية التي قد تدرّبت عبر تاريخها الطويل من خلال كتابات الرحالة ومؤثرات الاحتكاك الحضاري الأخرى على اعتبار الشرق موطن البدائي الغريب، ما يجعل مسؤولية الغرب في انتشاله من وهدة التخلف مهمة أخلاقية مقدسة. ولهذا لا نبالغ حين نقول: إن دي جويري وهو يحلل التاريخ، استعان بحشد كبير من كتب الرحالة، اعتباراً من نيبور في العصر الحديث. أما مصادره في العصور الأقدم التي لم يعمد إلى استكشافها كثيراً، فلم تزد على ما ذكره الأولون من اليونان والرومان. تحدث دي جويري عن نشأة الدولة السعودية على أساس الفكر الوهابي، واستعان في ذلك بنيبور الذي وفد إلى جدّة في ٢٩ أكتوبر ١٧٦٢، وما كتبه عن "سماعه بظهور دين جديد في نجد". ويواصل دي جويري سرده وتحليله لقيام تلك الدولة وتوسعها، ويتابع كل ذلك حتى يصل إلى يوم "٩ سبتمبر ١٨١٨ حين تمكن فايسيري VAISSIERE، ضابط المدفعية الفرنسي من إسقاطها". ولا يعتمد في كل هذا السرد إلا على الرحالة الغربيين، فنقل عن جوان لودونج بوركهاردت الذي وفد إلى جدّة عام ١٨١٩م وعن جوفياني فيناتي، ذلك الإيطالي الهارب من صفوف الجيش الفرنسي، والذي شارك في حصار القنفذة عام ١٨١٤م، ثم استقر بعد ذلك في مكة المكرمة إلى حين، وعن علي بك العباسي، اليهودي القادم من المغرب والذي ادّعى نسباً عباسياً، وكان نابليون قد أوفده في مهمة تجسّسية عام ١٨٠٧م ثم عاد إلى أوروبا "ليغوص في متاهة النسيان التي انطلق منها". وينقل دي جويري عن كيث Keith، ذلك المملوك الذي عمل في جيش محمد علي باشا، الذي وثق به

وعيّنه حاكماً على المدينة المنورة، و لم تغفل مصادره حتى عمّا كتب أتكنز Atkins قائد بطارية الراجمات، الإنكليزي الجنسية الذي شارك في الحرب ضد عسير. ويجدر بنا أن نشير إلى أن هذه المصادر كلها أصيلة، شهدت من ألفها الأحداث وشاركوا في صناعتها، ولكنها – في الوقت ذاته – مصادر مغرقة في الزيف لازدرائها المتعمد أو المكتسب غير المقصود للثقافة العربية والقيم الأخلاقية للشرقيين عموماً، وللعرب، خصوصاً، وللإسلام الذي يعدّه أمثال هؤلاء الرحالة العقبة الكأداء والمحرّض الأساسي لأتباعه على العزّة التي ترفض في إباء أن تُعطي الدنية في ديارها مهما تناهت قوة الآخرين المادية.

يستطرد دي جويري فيسرد تاريخ آل رشيد الذين تولّوا حكم المنطقة بعد انهيار الدولة السعودية القديمة (١٨١٨م)، فيواصل سرده للأحداث، ويحللها على ضوء ما كتبه السابقون له من الرحالة الغربيين أيضاً، الذين ذكر منهم ويلفرد بلنت وزوجته اللذين وصلا إلى بلاط أمير عربي "بلغت شهرته أوروبا!". ويخوض في سرد "الاغتيالات الدموية" التي سادت هذا البيت، وكانت من أهم الأسباب التي قضت عليه. وينقل دي جويري عن داوتي، ذلك الرحالة المتسكّع الذي لم يكره في حياته – حسبما يقول – إلا الجنس العربي، والذي قال: إنه يكاد يجن وهو يرى العربي يغوص في الجهالة والتخلف ومع ذلك تجده مرفوع الـرأس "حتى ليكاد حاجباه أن يلامسا السماء". ويحدثنا دي جويري عن الدولة السعودية الوسطى، قيامها وانهيارها، وخروج عبد الرحمن الفيصل آل سعود من الرياض "وهو يحمل صغيريه محمداً وعبد العزيز في جرابين ربطهما إلى جانبي بعيره!" إلى الكويت حيث لم يمنح حق الاستضافة واللجوء، فاتجه من ثم إلى الأحساء حيث منحه العثمانيون حقّ الإقامة. ويصل دي جويري في تحليله للتاريخ السعودي إلى أن الوهابية قد ذهبت ريحها "و لم يبقَ فيها إلا مراعاة ضرورة صيام رمضان مراعاة كاملة، إذ يجب على المرء ألا يشرب ولا يأكل خلال ساعات النهار، وهو بهذا يتحمّل في الصيف عبئاً مستحيلاً".

ولا أدري أي جهل هذا الذي يقصر الصيام صيفاً على الوهابيين! وترى دي جويري – اعتماداً على هذه المصادر المليئة بالزيف والتحريض – يتهم البدوي بالنفاق، فهو لا يتعبّد إلا في حضرة الآخرين. ويقول في هـذا الصدد: "إن مجموعة البدو المكوّنة من ثلاثة هي مجموعة مسلمة، والتي تضمّ بدويين فهي نصف مسلمة، أما حين يكون البدوي بمفرده فلن تجد هناك مسلماً!".

يسترسل دي جويري في رواياته الغريبة التي تلامس الحقيقة أحياناً وتجانبها في كثير من الأحيان، فيتحدث في إيجاز عن نشأة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل (ابن سعود) وجهوده في توحيد الجزيرة العربية، ويشهد للرجل بأنه "متفرّد قام بما لا يُحتمل أن يقوم به أي رجل آخر من أسرته، فلولاه لكانت شبه الجزيرة العربية تعيش حروباً قبلية، وتتخبط في مؤامرات أجنبية

تمثّل خطراً متزايداً على استتباب الأمور في الشرق الأوسط".

ويصل دي جويري في إعجابه بالأمن الذي حققه ابن سعود إلى حدّ القول إن شبه الجزيرة العربية لم تعش سلاماً كالذي تعيشه في تلك الفترة منذ أن وحّد الإسلام بين قبائلها. وعلينا معشر المؤرخين ألا نطرب لثناء ساقه ضابط استخبارات بريطاني لإنجازات حاكم عربي، وألا نعتمده مصدراً إلا بعد الرجوع إلى مصادر أخرى أدعى إلى الثقة، رغم أن الثقة التي يظفر بها ما يكتبه الاستخباريون من كل لون وملّة يجب أن تكون موجودة، باعتبار أن مهمات هؤلاء تقتضي التقصّي والتثبّت. وعلينا حين ننظر بعين ناقدة إلى ما أورده هذا الرحالة الاستخباري وغيره أن ندرك أن رحالة القرن العشرين أقلّ تجنّياً على الشخصية العربية وثقافتها من السابقين، لأنهم يدركون أن ما يكتبونه وينشرونه أو قسماً منه يمكن أن يصل إلى مسامع العرب، فخففوا من غلوائهم السابق، وربما اضطروا إلى أن يكذبوا أحياناً إرضاءً لحاكم أو تملّقاً له، لتمضية بعض مشروعاتهم الدولية. ولعلنا حين نراجع ما كتبه هذا الرحالة الاستخباري نراه يتحدث عن أثر أمن شبه الجزيرة العربية في الشرق الأوسط، لما لذلك من انعكاسات على السياسة الاستعمارية لبريطانيا ومشروعاتها في المنطقة برمّتها.

جدّة

وصل دي جويري إلى جدّة في وقت بلغ القيظ فيه ذروته قسوة. "كانت أوراق الصحف تتفتّت أشلاءً من كثافة الرطوبة وشدة القيظ، وأعواد الثقاب لا تشتعل، والمفاتيح تصدأ في جيوب حاملها". وكانت ضراوة الحر ووفرة الحشرات تسبّب الأرق لهذا الرحالة - حسبما يقول - حتى لا يكاد يغمض له جفن الليل كله، فكان عليه أن يهرب إلى أوروبا ولكن هيهات، فليس ثمة اتصال بها إلا عن طريق باخرة يتيمة تأتي إلى الميناء مرّة كل أسبوع، وتستغرق رحلتها من جدّة إلى السويس أسبوعاً كاملاً، "وكان عليّ انتظارها".

لم يكن دي جويري راضياً عن جدّة، فهي "حارة رطبة بنحو لا يصدق فترة تمتد أكثر من ثلاثمئة يوم في السنة"، ويقول: إن المدينة تعتمد في نمائها - إلى حد بعيد - على الحجاج الوافدين إليها موسمياً، وعلى استيراد السلع من الهند، ولذا فإن حياتها تكمن في رواج هذه التجارة التي تتخللها فترات من الكساد، ويستطرد فيقول: كان لجدّة في فترة سابقة أهمية عسكرية حين كان تهديد البرتغاليين لمصر ماثلاً، فأرسل السلطان الغوري إليها حاكماً بنى عام ١٥١١م حولها أسواراً، واستبقى فيها حامية عسكرية. وحين دالت دولة المماليك اضطر الأتراك إلى الحفاظ عليها، واستطاعوا بذلك أن يجدوا لهم موطئ قدم في مكة، وامتدوا على طول سواحل البحر الأحمر حتى دحرهم من شبه الجزيرة العربية "انتصارنا الذي حققناه في

الحرب العالمية الأولى". ولسنا في حاجة إلى التذكير مرّة أخرى بأن تاريخنا الذي يكتبه أمثال هؤلاء الرحالة، لا بل المتخصصون في المراكز البحثية في الغرب المعتمدون على هؤلاء تاريخ مشوّه، يعتمد شكل الحقائق، ويجافي التحليل المنطقي السليم. فالمماليك الذين تحركوا لحماية جدّة من البرتغاليين لم يكن دافعهم الأول حماية مصر التي كانوا يحمونها من دنس البرتغاليين بقدر ما كان همّهم التصدي لمخططات الصليبيين الجدد الذين استهدفوا تدمير البيت الحرام، ما يعني زوال كل شكل من أشكال الاستقلال لمصر ولكل بلد مسلم، وهوان كل مسلم على وجه البسيطة وإذلاله بالإساءة إلى أقدس مقدساته على وجه الأرض. أما العثمانيون (الأتراك) فكان هاجسهم في ذلك اكتساب شكل من أشكال العلاقة بالبيت الحرام يتيح لهم الشرعية لحكم هذه الرقعة الإسلامية الشاسعة، بحسبان أن السلطان هو "خادم الحرمين الشريفين". أما ما رواه عن انتصارهم الذي طرد الأتراك من شبه الجزيرة العربية فهو أمر مشكوك فيه تماماً، ما لم يكن دي جويري يقصد أن الحرب خدعة، فقد جرى إخراج العثمانيين من المنطقة بأيدي العرب الذين انخدعوا برحالة استخباري آخر، هو لورنس رجل شبه الجزيرة العربية Lawrence Of Arabia.

إن التاريخ علْم - إذا جاز لنا أن نعتبره كذلك - يبحث في الذات، ويعتمد الهوية، ويخوض في الدواخل، ويستلهم قيم المجتمع، ويستثير تراثه، ولذلك نقول: إن الآخر الذي ينظر في ظاهر الذات بعين من هويته الذاتية وقيمه لن يصل إلا إلى قشور الحقيقة حين يكتب في هوية الغير، على الرغم من أننا نعتمد دي جويري بعد النقد مصدراً لما رآه بعينه، أما رؤيته للأحداث وتحليله لها فنعدّها ضرباً من الزيف، لأنه لا يعتمد إلا تراث الرحالة السابقين له أو يعدّه مع مصادر غربية أخرى مغرضة قاعدة قد ينطلق منها إلى اتجاه مختلف، ولكن على كل الأحوال ليس اتجاهنا.

يمكن أن يأخذ المؤرخ المتمرس من دي جويري بعد النقد، حين يتحدث عن جدّة - على سبيل المثال - أن سكانها الذين يبلغون نحو ثلاثين ألفاً خليط ليس فيهم من العرب الخلّص إلا القليل. ففي جدّة، كما يقول هذا الرحالة، الهنود والجاويون والأفارقة والصينيون وأهل بخارى وروسيا وغيرهم من الحجاج والمقيمين الذين تمتلئ بهم شوارع المدينة التي يلاحظ أن أزياء أهلها تختلف وتتباين تبايناً كبيراً لا تجده في شوارع أيّ بلدة أخرى على ظهر البسيطة؛ فهناك المسلم الروسي الذي يلبس الفراء رغم وخامة الجوّ الحار، وينتعل "بوتاً" ذا رقبة طويلة، إلى جانب النيجيري الذي لا يعرف من الملابس إلا خرقة صغيرة يلفها حول وسطه، ولكن لا يمكننا أن نأخذ عن دي جويري ما لم يره بعينه ولا نعتمده، ونحاول إخضاعه للنقد، لأنه - بداهة - زيف لا أساس له. فعلى سبيل المثال، يتحدث هذا الرحالة عن هؤلاء الأخلاط من الناس ويقول: إنهم يذهبون من جدّة إلى مكة المكرمة "لأداء الحج الإعدادي" أو العمرة، ثم يمكثون هناك لأداء الحج السنوي الأكبر وزمانه ذو القعدة الشهر الذي يفد فيه إلى جدّة أو قبله بفترة قصيرة عدد من الحجاج. ويأخذ هذا الرحالة في الحديث عن ملابس الإحرام، ويهرف

بما لا يعرف في شعائر الحج من دون سند من كتاب في الفقه أو رواية من فقيه في هذا المجال، إلا ما كتبه الرحالة الغربيون الأوّلون. يرى دي جويري في الإحرام تطوراً في شعيرة الحج، "والتي كان الوثنيون يؤدونها لمناة في مكة وهم عراة تماماً"، ويتناول تفسير رمي الجمرات فيقول: إن الحجاج

> يحصبون مواقع كانت لأصنام منصوبة بالقرب من مناة أصبحت جزءاً من الشعيرة الحالية، يضاف إلى هذا قيامهم بصلوات خاصة وتوسلات أخرى يؤدونها حول الحدود المقدسة لبيت الله، ثم يأخذون في الجري بين عمودين أخضرين، ويتوافدون إلى جبل الرحمة لسماع خطبة. ويجب أن تكون كل تلك الممارسات مسبوقة بطهارة كاملة. يأتي الحجاج مزدلفة بعد ذلك فترة وجيزة يشكرون فيها الله، ثم يضحي الحاج بخروف بعد أن ينهي شعائره.

فإذا اعتبرنا دي جويري من أواخر الرحالة الذين جاؤوا شبه الجزيرة العربية قبل أن تتطور وسائل المواصلات، وإذا اعتبرناه من رجال الاستخبارات الذين هم من أكثر الرحالة صدقاً، وأبلغهم تصويراً بالكلمات والرسم وبالصور، فكيف لنا أن نفسّر ما رواه عن الحج؟ هل كذب الرجل متعمّداً بقصد التشويش والإساءة للمسلمين ودينهم "المتطور من الوثنية" أم هو نوع من التعالي، فهو غربي عالم مسؤول وعلى الآخرين - من المسلمين وغيرهم - أن يصدقوه في ما يقول؟!

يتحدث دي جويري عن البيت العتيق ويصفه وكسوته التي تأتي من مصر والآيات المطرزة على الكسوة الشريفة "التي أوحى بها الإله، ولا تزال تتردد منذ ثلاثة عشر قرناً فهي حية لم تزل في القرآن (الكريم) كتاب المحمديين (؟)". ويكذب المأفون حين يقول لقارئه الغربي: إن القرآن "يحوي أقوال الرسول كما سجلت بعد وفاته، وكان تسجيله بأمر من الخليفة عثمان...". ويستطرد فيقول: إن الحجاج "من كل أمة وكل عنصر يلتقون في هذا المكان، يلبسون الملابس نفسها على النسق ذاته، ويقفون هنا في يوم واحد معين، وكلهم سواسية في عين الإله...". ويسترسل في الحديث عن الإسلام ليصل إلى العنصر العربي "الذي يعمر الشرق الأوسط (؟) والذي خبرته إسبانيا وصقلية وسردينيا وجبل طارق وخراسان وإستانبول وسواحل ملبار وزنجبار وكل السواحل الشمالية والشرقية لأفريقيا، إضافة إلى سمرقند، والذي ترك بصماته على قبائل أفغانستان التي ترى أن تاريخها يبدأ بوصولهم إلى أراضيها".

ويتحدث بعد ذلك عن الإسلام الذي أورث العرب في العالم الإسلامي مكانة لا يعلى عليها فيقول: "إن الحكام من الهند إلى أفريقيا يفاخرون بأنهم من نسل الرسول"، أما في جزر الهند الشرقية الهولندية (أندونيسيا حالياً) فيعتقدون أن في العرب شيئاً من القداسة، أما مسلمو الصين

فيكادون يعبدونهم (؟) "ولا ننفي بدورنا أن الإسلام قد أكسب العرب تقدير الشعوب التي حملوا الإسلام إليها رحمة للعالمين كلهم، ولا يقرّ لقومية باستعلاء على أخرى، فلا سيادة لعرق على عرق، ولا تمايز للون على آخر".

يختتم دي جويري حديثه عن الاسلام كأنه يحسد العرب سبقهم إليه، أو كأنه ينعى على العالم الغربي انهماكه بالماديات، أو ربما كان هذا الرجل يتنبأ بالانتصار النهائي للإسلام، وذلك حين يقول:

> إن العالم الغربي الذي يركب تيار قوته الصناعية المتعاظم يوماً بعد آخر يسدر بعيداً غير مدرك كُنْه هذا الشيء. هو روحي نعم، ولكنه قوي بنحو غريب، ولن يموت وإن دهمه فيضان المادية الذي راح يجتاحنا الآن حتى غمرنا عبابه. إنه سيواصل شق طريقه في هذا العالم، فهو الروح المقدسة التي ولدت من التفاهم المشترك ومن التعاطف الإنساني، والتي انبثقت من المعاناة. هذه الروح قادرة على أن تستعيد الحياة من جديد في أوساط رجال يجمعهم هدف مشترك، ولا يمكنها أن تزدهر إلا في البحر، وفي الجوّ، وفي البراري، أو في الصحراء. إن العرب من ذوي العلاقة بها يسمّونها روح الإسلام، ولكنها في حقيقة الأمر أخوّة العالم في المخاض، وهي أعمّ وأشمل وأعظم ممّا تعرفه شبه الجزيرة العربية، ولكنها أعطته للعالم!

في تقديرنا أن هذا الرجل حين أرسل إلى مجتمعه الغربي هذا الخطاب القوي الذي يجسد للعربي سبقه للإسلام وتميّزه به، ويشير إلى أنه لا قوّة للعرب إلا بالإسلام الذي يمكنه أن يعيش في مجتمع الآلة، ويعايش ثقافتها، قد أخطأ مرتين: مرّة حين ربط الإسلام بالعرب وبسبقهم في مضماره، فالإسلام شاسع استقطب منذ بداية أمره الجميع عرباً وعجماً، ولا سبق فيه ولا امتياز إلا بالتقوى، ومرّة حين ربطه بالبراري وبالصحراء ورأى فيه قوة غريبة تقف حتى أمام القوّة المادية. ولا شك في أن للإسلام من الشفافية ما يمكنه من استيعاب كافة الثقافات وتعديلها لما يناسب رسالته: رحمة للعالمين. أما قوله: إن شبه الجزيرة العربية قد أعطت هــذه الروح للعالم، وإن ذلك أعم وأشمل وأعظم ممّا تعرفه شبه الجزيرة العربية فيحمل كذباً مضاعفاً، فالإسلام قد خرج من شبه الجزيرة العربية ولكنه لم يكن من إنتاجها، أما أنها لم تعرف أساليب استثماره استعماراً للآخرين أو استلاباً لحقوقهم فليس ذلك من الإسلام في شيء، بل هو نتاج ذهنية نشأت وترعرعت وشابت على ضرورة استثمار كل إيديولوجية لمصلحة من أنشأوها أو من حملوها للآخرين.

لا نرى أننا قد أخطأنا حين تابعنا أفكار هذا الرحالة التي أخذته بعيداً عن جدّة ليعود إليها مرّة أخرى فيقول: إن منازل جدّة ذات خمسة أو ستة طوابق طليت باللون الأبيض، وزوّدت بأبواب عرفت فن النحت، ويضيف: إن منظر البلدة يبدو مهيباً من بعيد، ولكنه لا يدل عليها حين تدخلها، لأنها كانت تتردى بسرعة في مهاوي الخراب، فقد غدت أبنيتها أكواماً ترتع فيها قطعان الغنم. ويلاحظ أن لبن الغنم في هذه المدينة الشحيحة المياه هو أفضل المشروبات، وأن أصحاب الغنم يغلفون حلمات ضروعها بأغطية من علب التبغ الفارغة. أما الأبقار القليلة العدد، فتوجد في بعض الحظائر الخربة، يجعلون معها عجلاً رضيعاً ليحرك مشاعرها حتى يزداد درّها.

نخلص إلى القول: إن جيرالد دي جويري كان رحالة سياسياً، عسكرياً استخبارياً، أديباً حالماً. وقد ترك اجتماع هذه الصفات بصماته بارزة على كتابه، فميّزته عن كتب سابقة في أدب الرحلة الغربية. أدت هذه المزايا المختلفة بدي جويري إلى أن يكون مختلفاً في أسلوبه وطرقه ومناهجه عن الرحالة الآخرين، وإن لم تؤدِّ به إلى مخالفتهم في المضمون، فالكل يسعى إلى إبراز البدائي والغريب في الشرق وتجسيده. كان دي جويري بحسّه السياسي أسبق من غيره في إدراك أن شبه الجزيرة العربية كانت تمرّ في هذا الوقت بمرحلة مفصلية من تاريخها، فعمل على توجيه أنظار ساسة بلاده وعامتهم إلى ما يدور في هذه المنطقة وانعكاساته على الشرق الأوسط برمته. وكتب بحسه العسكري في طوبوغرافية البلاد السعودية وطرقها، وقوة ابن سعود في أوساط قبائلها، وحلل كل ذلك بعين الجندي المدرك للاستراتيجيات، إضافة إلى ما نلحظه من تعاطف مع شخصية ابن سعود بحسبانها شخصية تتمتع بروح عسكرية وذهنية تدرك أهدافها الاستراتيجية، تماماً مثلما يعتقد دي جويري في نفسه. وأدى بهذا الرحالة حسّه الاستخباري إلى أن يكون دقيقاً في وصفه، ثاقب النظر، لا تخطئ عيناه أدق التفاصيل. لم يتحدث دي جويري عن أيّ شخصية اعتباراً من الملك نزولاً إلى الخادم الذي رافقه في رحلته، إلا وقدّم لها رسماً بالكلمات لن تعجز عنه الصورة التي قد تظهر الهيئة فقط، ولكنها تقصر دون إحصاء الحركات والسكنات التي لم يغفل دي جويري عنها مهما كانت طفيفة. فحين وصف الملك عبد العزيز لم يكتف بتصوير هيئته ولا جلسته ولا بسمته وانتظام أسنانه فقط، بل ذكر الجروح التي أصيب بها، وحدد أماكنها في جسده، ومتى أصيب بها، وكم كانت تؤلمه مع تغيّر الجوّ، خصوصاً مع بداية الصيف. وكان دي جويري - مع كل هذا - أديباً أريباً تفنن في البلاغة، فأجاد الوصف، وطوّع قلمه في أسلوب رمزي لتخليص فكرة كتابه التي ارتكزت على "التقدّم إلى الوراء" إن صحّ التعبير. وكان في رمزيته أشد وضوحاً وأبلغ تأثيراً في القارئ من كثير من الرحالة الغربيين الآخرين الذين عبّروا عن هذه الفكرة بأسلوب مباشر، ولم تكن صورة الحدث عندهم بأبلغ ممّا رسمتها ريشة هذا المبدع الفنان. هذا الأديب الحالم الذي وجد في الصحراء - مهد القدم - ما لم يجده في المدينة الغربية الحديثة، ورأى في الإسلام قوة ترابط

لم تبلغه نظريات ساسة الغرب المادية وحذّر من قوته الكامنة التي قد تسود العالم، ولكن حين تمعن في ما وجده دي جويري من أمـــن "ذهني في الصحراء يقوم على الخواء، فإنك لن تختار الصحراء موطناً، وفي ما عرفه من "أمن" روحي لا ينتعش إلا في البراري والمتاهات فلن تختار الإسلام ديناً، فكلا الأمرين – عنده – شيء من الغيبيات وسحر الشرق القديم.

تعامل ابن سعود مع البريطانيين بحرص شديد، وكان يختار أن يتعاون معهم فقط في ما يحقق له أهدافه التي تلتقي مع بعض تطلعاتهم، ولذلك نراه يسعى للخروج من طوق حكومة الهند البريطانية للتعامل مع حكومة لندن مباشرة . وقد تحقق له شيء من ذلك بعد عام ١٩٢٧م حين وافقت لندن على أن تنتقل المسؤولية السياسية لنجد إلى يد وزارة المستعمرات. وخرجت حكومة الهند بموجب هذا القرار رسمياً عن إدارة العلاقات مع ابن سعود التي باتت في يد لندن. وعمل ابن سعود لتحويل هذه العلاقة من وزارة المستعمرات إلى وزارة الخارجية البريطانية. ومع ذلك، فقد ظلّ قطع العلاقة بين شؤون نجد وحكومة الهند أمراً صعباً، فأرض ابن سعود تطل على الخليج الذي تمثّل المقيمية فيه وحدة إدارية تابعة للهند عليها أن تتعامل مع ما تقضيه التزامات التعهدات التهادنية القائمة مع كافة المشيخات العربية المطلة على الخليج والمسائل المعقدة التي أثارها استخراج البترول من امتيازات، وما تستتبعه من ترسيم الحدود المتصلة مع السعودية. وعملت الهند نتيجة لتوصية من المقيم البريطاني في الخليج في ٢٨ إبريل ١٩٣٩ على أن تتعامل مع ابن سعود بأسلوب غير مباشر، وذلك بتعيين وكيل لها يمثلها في بلاطه، واختير دي جويري للقيام بهذه المهمة التي لم يكن ابن سعود مرحّباً بها. فحين وصل الوكيل إلى الرياض جرى تبليغه بطريقة غير مباشرة أيضاً أنه غير مرغوب فيه، فقد بادره ابن سعود بسؤاله عن سبب قدومه إلى الرياض الذي أثار لغطاً. و لم يجد الرجل سوى التطرق إلى ما قام به شكسبير وفلبي خلال الحرب العالمية الأولى. و لم يثنِ ذلك ابن سعود عن سؤال الرجل مرّة أخرى عمّا تعنيه زيارته. اضطر الوكيل إلى الاعتذار لحكومته عن القيام بهذه المهمة، محتجّاً بأن الذين سبقوه في هذا المنصب كان لهم من الأخبار التي تردهم أسبوعياً من بومباي ما يثيرون به اهتمام الملك، ولكن بعد أن أصبح له العديد من المندوبين في الخارج، وغدت لديه أمانة تقرأ عليه الأخبار مرتين في اليوم الواحد، وهو في اهتمامه باستلقاط الأخبار الداخلية والخارجية يبادر كل من يفد إلى مجلسه بعبارة: "شنو علمكم ؟ "، لم يعد بحاجة إلى وكيل بريطاني مقيم. وأفاد دي جويري بأنه شعر بحرج بالغ حين سأله الملك بدهاء عمّا يشاع في الأخبار عن العلاقة الإيرانية العراقية و لم يكن لديه ما يجيب به عليه. وانتهى دي جويري إلى القول: "يجب أن أرحل فوراً حتى لا يظن الملك أننا نرغمه على قبول ممثل بريطاني في بلاطه". واستجيب لرغبة الوكيل الذي أدركت حكومته أن الملك يرحب بالتعاون معهم حين يكون مردود ذلك في خدمة أهدافه، ويتجاهل وكيلهم ولا يرحّب به حين لا يخدم وجوده في البلاط إلا مصالحهم فقط. وعلى الرغم من

تزايد المصالح الهندوبريطانية في الخليج في هذه الفترة، ما عاد أسلوب الهند في التعامل مع ابن سعود يواكب المتغيرات التي استحدثها الملك في علاقاته الخارجية التي تبدلت وجهتها بحسب ما طرأ من تغيير على الساحة الدولية التي برزت فيها الولايات المتحدة الأمريكية بعد الخروج من عزلتها قوة اقتصادية وسياسية لا تبارى.

الفصل السادس

رحالة استكشاف المصادر الطبيعيّة وعقود النفط الأولى

كانت أرض عمان التاريخية في فترة تنافس الشركات الغربية على بترول الخليج مبعثرة السيادة بين مسقط التي يحكمها البوسعيد سادة عمان وشيوخ وراثيون ظلّوا يحكمون لفترات طويلة ممتدة في ساحل عمان، إضافة إلى إمامة مستحدثة نشأت في الداخل في ذلك الوقت الذي استعر فيه التنافس بين شركات البترول. وتمكنت الإمامة من أن تعقد برعاية بريطانية مع سيد مسقط في عام ١٩٢٠ م عقداً أتاح لها نوعاً من أنواع السيادة الهلامية في الداخل العماني الذي كان لعدد من الشيوخ فيه نفوذ في قبائلهم يوظفونه لمصلحة الإمامة أو قد يوظفونه أحياناً لمصلحة السلطان لتحقيق مكاسب مادية في الغالب من هذه الجهة أوتلك، كما كانوا في كثير من الأحيان يحاولون توظيفه لخدمة مصالحهم الخاصة من دون اعتبار للسلطنة أو الإمامة. وحين سعت شركات البترول الإنجليزية لاحتكار الاستثمار في هذه المناطق التي تقع تاريخياً تحت نفوذها، كان لزاماً عليها أن تتحرّى عن امتداد سلطة السلطان في الداخل العماني وتحقق في ما كتبه بعض الرحالة الإنجليز في رحلاتهم في فترات سابقة عن الأرض العمانية وديار القبائل، وتنظر في نصيب السلطان من الولاء فيها، كما كان لزاماً على تلك الشركات أيضاً أن تتعرّف إلى توجّهات الإمامة، وتنظر في قوة شيوخ الظهير العماني، وتستجلي علاقاتهم بالسلطنة والإمامة، وتستقصي عن قوة شيوخ ساحل عمان، وتنظر في امتداد نفوذهم في الداخل، وفي علاقاتهم بالقبائل في تلك المناطق وشيوخها لتبني سياستها على ضوء الواقع، تعتمده أو تغيّر فيه كما تقتضي مصالحها. وحين تقدّمت شركات البترول الأمريكية تحت ستار السيادة السعودية إلى المناطق الداخلية المتنازع عليها تاريخياً مع عمان، أدركت الحكومة البريطانية أن الوضع يتطلب تحركاً عاجلاً للحفاظ على مكاسبها التاريخية في تلك المنطقة. وكان الرحالة، وكثير منهم كانوا يعملون في مناصب إدارية في الخليج، طليعة ذلك التحرك في عمان وغيرها

من ساحل الخليج العربي، كذلك استعانت شركات البترول البريطانية العاملة في مناطق أعالي الخليج، خاصة في منطقة الكويت، بعدد من الإداريين البريطانيين الذين كان لهم يد طولى في الإدارة في المنطقة، أسست لهم علاقات وثيقة مع شيوخها. وكان كتاب مايلز، **بلدان الخليج وقبائله**، من المصادر المهمة في المراجعات التي استند إليها العديد من الباحثين في هذا الصدد، رغم أن مايلز لم يعش ليتمّ هذا الكتاب، إذ هلك في ٦ شوال ١٣٣٢/٢٨ أغسطس ١٩١٤، وقامت أرملته بتكملة المهمة من مذكراته التي تركها وراءه ونشرت الكتاب في عام ١٩١٩م.

صموئيل باريت مايلز

وُلد صموئيل باريت مايلز في ٢٣ رجب ١٢٤٥/١٢ أكتوبر ١٨٣٨ لأب اسمه وليامز مايلز كان يعمل وقتها قائداً للفرقة التاسعة التابعة للواء المشاة الوطني في بومباي. والتحق مايلز الابن في عام ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م بخدمة العسكرية الهندية، وعُيّن ملازماً بحرياً في الكتيبة السابعة للواء المشاة الوطني في بومباي. ونقل صموئيل في عام ١٨٦٦م بعد خدمة حوالى تسع سنوات في الهند في مقيمية عدن البريطانية، وكُلّف في السنة التالية مباشرة بتولي قيادة معسكر عدن إضافة إلى تعيينه مساعداً للمقيم السياسي في عدن أيضاً. وقد ظلّ قائماً بالمنصبين حتى ذي القعدة ١٢٨٥/مارس ١٨٦٩، حيث جرى نقله ليكون مساعداً للوكيل السياسي في ساحل مكران، فوكيلاً سياسياً وقنصلاً بريطانياً في مسقط في عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٢م، وتقلّب بعد ذلك في العديد من المناصب السياسية والإدارية في بغداد وفي الخليج وفي زنجبار وفي مناطق أخرى. قام مايلز برحلة مع السيد تركي سلطان عمان في عام ١٨٨٤م في المناطق المجاورة لمسقط، لكنه ظلّ منذ عام ١٨٧٤م يقوم بالعديد من الرحلات في الأراضي العمانية ، وبدأ في ذلك العام بزيارة الأشخرة، وله عدّة رحلات في الباطنة والجبل الأخضر والجعلان وظفار وغير ذلك من مناطق الظهير العماني. وكان عادة ما يرسل بنتائج رحلاته إلى مجلة جمعية البنغال الآسيوية، وكذلك مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، وغيرهما من المجلات الجغرافية التي تهتم بهذا المجال. ويُعدّ كتابه: **الخليج بلدانه وقبائله** درة أعماله، رغم أنه لم يعش ليراه مطبوعاً. فقد هلك في عام ١٩١٤م وتولّت أرملته نشر الكتاب في عام ١٩١٩م بعد الاستعانة بمذكراته العديدة التي تركها عن عمان و بصفة خاصة النظر في قبائلها و الأصول التي تعود إليها . ونعتقد أن رحلة مايلز من صحار إلى البريمي عن طريق وادي الجزي في عام ١٨٧٥م، والتي حاول فيها تتبّع أثر هامرتون الذي وفد إلى البريمي في عام ١٨٤٠م وهاله انتشار الخضرة فيها وحدائق النخيل والتين والزيتون والرمان التي تروى من أقنية ممتدة مغطاة، ينسب الأهالي استحداثها إلى عهد سليمان عليه السلام... جديرة بالانتباه. فقد ظلت هذه المنطقة لفترة من تاريخها منطقة

تشابك بين ادّعاءات قوى محلية وإقليمية مختلفة. وقد نشرت أخبار هذه الرحلة في مجلة جمعية البنغال الآسيوية لعام ١٨٧٧م.

يبدأ مايلز بالقول إن من المعتاد حين يزمع المرء ارتحالاً في عمان أن يصطحب معه شخصاً أو شخصين للحماية والخفارة حين يقطع مناطق القبائل الكبيرة، ولا يسري هذا التقليد على الأجانب فقط، إذ يمتد ليشمل العرب أيضاً الذين لا ينتمون إلى تلك القبيلة ما لم يكن بين قبيلة ذلك العربي المسافر وبين القبيلة التي يجتاز أرضها حلف أو ميثاق، ففي هذه الحالة تنتفي الحاجة إلى "الخفير". كتب مايلز عن صحار، نقطة البداية لرحلته إلى البريمي، وأشار إلى أنها كانت على مدى قرون عديدة من أكبر مدن عمان على ساحل الباطنة وأهمها، ولكن حالها تبدّلت بتبدّل الأيام وتداعت حتى لم يبقَ فيها من السكان سوى نحو أربعة آلاف فقط. ويستدل مايلز على عراقة صحار بما ورد في بعض المراجع الأوروبية من أنها عرفت عند بطليموس بعمانا أو عمنا، وكانت هي السوق التجاري لعمان في ذلك الوقت، وأشار إلى أنه لا يعرف متى وكيف تغيّر اسمها إلى صحار. ويضيف أن صحار ظلت مزدهرة في العصور الوسطى، كذلك أشار إلى دور صحار في عام ١٧٤٧م حين انطلق منها أحمد بن سعيد لطرد الفرس وتأسيس دولة البوسعيد. ووصف مايلز قلعة صحار التي هي مقرّ حاكم البلدة ومكان مثوى السيد ثويني. وفي مجال اهتمام مايلز بتاريخ عمان في العصور القديمة والوسطى، كانت زيارته في فترة لاحقة لقلهات التي رأى في آثارها معالم حضارة آلت إلى الزوال واندثرت معالمها. وتتبّع مايلز قرى قلهات فزار كبدا وقوضا وحلم وقصعة وشوفي وضعن وتعب، وتجوّل في وادي العسر الذي كانت تسدّه جلاميد الصخر التي انهالت عليه من الجبال المجاورة، وكان هذا الوادي يربط قلهات في فترة ازدهارها بالظهير العماني ويرفده بما يحتاج إليه من سلع التجارة العالمية، ويُرجع سبب ذلك إلى زلزال ضرب المنطقة قبل حوالى ثلاثمئة سنة.

يفيد مايلز بأن البريمي التي وفد إليها من صحار تقع في منطقة الجوّ التي تحدّ من الجنوب بجبل حفيت ومن الشرق بخطمة الشكلة ومن الشمال بالشمال ومن الغرب بالصحراء. وتسكن الجوّ قبائل عدّة، منها الهناوية ومنها الغافرية، والأخيرون أحسن حالاً من الآخرين منذ أن تولى السيد تركي مقاليد الحكم في عمان. وتعدّ النعيم – القبيلة الغافرية التي تنقسم إلى قسمين متساويين، وينقسم كل قسم منهما إلى بطون وعشائر متعددة – القبيلة الأقوى في تلك المنطقة. ويبلغ عدد أفراد قسمي النعيم مجتمعين نحو عشرين ألف نسمة، يسيطرون على قلعة البريمي، ما مكّنهم من أن يرهبوا هذه المنطقة كلها. و لم تكن النعيم في فترة حكم الإمام عزان تهتم كثيراً بحكومة مسقط، ولكنها غدت تبذل الولاء بعد ذلك للسلطان تركي "السلطان الحالي". يسكن أحد فروع النعيم البريمي بينما يسكن الفرع الآخر في الظاهرة، وهم سنيّون ويخالفون في هذا الصدد القبائل العمانية الأخرى التي هي في أعمّها إباضية. ويُعدّ الشيخ محمد بن علي

بن حمود الذي يعيش في ضنك، الشيخ الرئيس للنعيم، وينوب عنه في البريمي ابنه سالم. وقد وجد مايلز في البريمي من هذا الشيخ استقبالاً طيباً، حيث استُقبل في القلعة بطلقات الرصاص دليلاً على الترحيب. ولاحظ مايلز وجود مدفع نحاسي في الحصن نُقش عليه تاريخ ١٨٤٢م مع اسم السيد سعيد، ويجزم بأنه من المدافع التي كانت السلطانة، سفينة السيد سعيد، قد جلبتها من الولايات الأمريكية المتحدة.

أما القبيلة الهناوية الرئيسة في البريمي فهي بني ياس التي اشتهرت يوماً ما في سابق عهدها بممارسة القرصنة. وتشغل هذه القبيلة قسماً من البريمي، وهم في عداء دائم لا ينقطع مع قبيلة النعيم إلا لفترات وجيزة بهدنات قصيرة، ثم ما يلبث النزاع أن يبدأ من جديد. رئيس قبيلة بني ياس زايد بن خليفة الذي يسكن أبو ظبي، شيخ ذو شخصية قوية يتمتع بسلطة حقيقية ونفوذ كبير، وله في البريمي أربعة شيوخ أصغر منه قدراً تابعون له. وقد أصابت بني ياس التي تنحاز إلى الهناويين في المشكلات التي تنشأ في المنطقة مع الغافريين وضعاً مهيمناً في فترة حكم الإمام عزان بن قيس. وتقع المساكن الرئيسة لبني ياس في البريمي في مناطق الجيمي والقطارة والهيلي ووادي المسعودي، وكانت لهم في فترة ما وفرة على النعيم في عدد الأشخاص في البريمي، ولكن – في ما يلاحظ مايلز – هذا الوضع قد تراجع كثيراً في الفترة الأخيرة.

تسكن منطقة محضة في البريمي قبيلة غافرية أخرى هي قبيلة بني كعب التي تنتشر مساكنها لتشمل سلسلة الجبال والأودية بين وادي الجزي ووادي حتا، ويبلغ عدد نفوس هذه القبيلة نحو خمسة عشر ألف نسمة. وهناك في البريمي من القبائل الغافرية الأخرى بنو قتب والدرامكة، أما الظواهر الذين يعمرون قرى العين والداودي وخريس والمريجب وسعنة والمعترض فهم من الهناويين، ويلي هؤلاء القوم بني ياس قوّة. ويسكن قسم من قبيلة العوامر في العين، وهم قبيلة كبيرة من أهل الرحلة تتجوّل في مناطق واسعة من عمان، ولكنهم ينتشرون على نحو رئيس في المنطقة الواقعة على أطراف خليج كوريا موريا امتداداً إلى الصبخة حيث يرعون إبلهم وسوائمهم. وهم "بدو حقيقيون وليس هناك في شبه الجزيرة العربية بكاملها قبيلة أخرى أكثر منهم بداوة، ولا منافس لهم في مجال النهب والسلب، ويُعتقد أنهم يأكلون حيواناتهم النافقة، ولكنهم ينفون عن أنفسهم ذلك وينكرونه تماماً".

ويُعدّ العفار من عشائر العوامر. وقد استقرت عشائر كثيرة من هذه القبيلة واشتغلت بالزراعة، أما الرعاة منهم فهم عشائر متجوّلة لا ترعى عشيرة منهم مع أخرى ما لم يكن بين العشيرتين تفاهم على ذلك. ويشير مايلز إلى أن العوامر يدّعون معرفة مسالك الربع الخالي، وأنهم قد اعتادوا اجتيازه.

يخبر مايلز أن الإبل كثيرة ومتوافرة في البريمي، وأثمانها زهيدة، كذلك توجد في البريمي الحمير التي تستغل في الركوب والأحمال أيضاً. أما الخيول فنادرة ولا تتوافر إلا في حظائر

الشيوخ. ويخبر أن الأبقار غير متوافرة كثيراً، ولكن لحم الإبل والماعز متوافر، كما يتوافر للسكان اللبن الذي يصنعون منه أيضاً نوعاً من الجبن الدسم الذي يُجبّن باستعمال منفحة الحيوان. ويستطرد مايلز فيقول إن أهل الساحل في عمان يستبدلون المنفحة في صناعة الأجبان بمصارين السمك. ويذكر أن أهل البريمي يتناولون اللبن رائباً أحياناً للحيوية والنشاط، ولكن غالب طعامهم يتمثل في التمر بصفة رئيسة، كما يأكلون نوعاً من الخبز الخشن أو الأرز مع السمك المملّح المطبوخ.

يلاحظ مايلز عدم وجود سوق دائم في البريمي، فلا وجود لحوانيت مشيّدة، ولا لتجار محترفين. يعقد بعد العصر سوق في باحة يتوافد إليها البدو بنتاج سوائمهم يعرضونه للبيع أو للمقايضة، فكل احتياجات البيت العربي من اللحوم وأدوات الطعام وغير ذلك تأتي بالمقايضة، أما النقود فلا تستعمل إلا نادراً، ربما في شراء الملابس على سبيل المثال. واسترعت المرأة بطبيعة الحال نظر مايلز، فذكرها لا يغرب عن بال أيّ من الرحالة، مهما كان شكل مهمته أو طبيعتها. يقول إن نساء البريمي لا يتنقّبن، بل يكتفين بالحجاب يطرحنه على رؤوسهن عوضاً عن النقاب الثقيل الذي يغطّي الوجه كله، كما لاحظ أيضاً أنهن ينتعلن أحذية بكعوب عالية.

توجد في البريمي أيضاً مستعمرة للزط أو الزطوط، ويقال إنهم يرجعون بأصولهم إلى الجات من مواطني الهند. ورغم أن وجود هذه الجماعة يعود إلى فترة بعيدة من الزمن قد تصل إلى ألف سنة، لا يشبهون العرب، فهم أطول قامة، وتعكس سحناتهم لوناً داكناً، وتظلل قسمات وجوههم تلك النظرة الماكرة التي تميّز غجر أوروبا. ويذكر مايلز أن هذا العنصر ينتشر في شبه الجزيرة العربية اعتباراً من مسقط التي لهم فيها وجود كبير حتى بلاد ما بين النهرين. ولاحظ مايلز أن الزواج بين الزط والعرب نادر الحدوث، بل هو ربما كان غير موجود، ولكن قد يحدث أن يتزوج العربي زطّية، ولكن يستحيل – مع ذلك – أن تتزوج عربية خالصة بزطي. ويعدد مايلز بيوت الزطوط العرب، فمنهم ولاد مطلب، وولاد قبال، وولاد شغرف، ومسندي، وحريمل، وحيك، وعشوري، ويضيف مايلز أن كل بيت من هذه البيوت يلحق نفسه بقبيلة عربية قوية مشهورة. ويرى أن الزطوط مسلمون لكنهم يمزجون إسلامهم بكثير من عاداتهم وتقاليدهم التي درجوا عليها عبر العصور. ورغم أن العرب يعدّون الزطوط عنصراً أدنى منهم، يقدّرون دورهم الذي يقومون به في خدمة المجتمع، فهم يعملون بما تتيحه لهم الظروف ولا يأنفون، فمنهم النجارون والحدادون والنساجون والحلاقون، كما يتولون القيام بكافة ما يحتاج إليه البدو من صناعات حرفية تشمل في ما تشمل صناعة البنادق والمسدسات، ويمكن القول إن الصناعة في ظهير الساحل والتجارة تقعان في أيديهم تماماً، كما هي عليه حال الهنود والبانيان في الساحل. ورغم ما يمكن أن يقال من أنهم يمارسون حياة شبه بدوية، إذ اعتادوا الترحال الدائم بين قرية وأخرى، لا يحملون سلاحاً. ويلاحظ مايلز أن بعض العائلات من الزطوط

قد استقرت في المدن الكبيرة، لكن منازلهم فيها صغيرة وحقيرة، بل هي الأصغر والأحقر ممّا رأى من مساكن في "حياته"، فهي عبارة عن "عشة" من حصير. تقوم هذه المنازل على ثلاثة أعمدة خشبية لا يزيد ارتفاع الواحد منها على أربع أو خمس أقدام يربط فوقها حصيران، ولا شيء غير ذلك.

يعود مايلز ليتحدث عن العرب، ويرى أنهم يستمرئون السؤال وتستهويهم الشحاذة. ويذكر أنه حين أراد أن يصرف مرافقه أعطاه ما اعتقد أنه يكافئ المهمة التي استأجره للقيام بها. لكن العربي اقترب منه هامساً يطلب إليه أن يتحفه بريال أو اثنين زيادة، فرفض أن يزيده. و لم يقتنع العربي بما أعطي، وراح يلحّ في الحصول على ريال زيادة عمّا حصل عليه. وفي حديثه عن مرافقيه أيضاً، أشار إلى أنهم يوقدون النار بفرك خشبة يديرونها بسرعة فوق أخرى موضوعة فوق عشب جاف. وتتولد نتيجة الاحتكاك بين الخشبتين شرارة يتولونها حتى تتأجّج ناراً.

تناول مايلز بعد هذا جغرافية المنطقة بعد البريمي في اتجاه الطريق إلى الرياض، فيقول إن بينونة تقع في ما وراء جو، وفيها قرية العانكة التي يعمرها بنو قتب وشيخها سعيد بن أويدمي. وتلي الظفرة بينونة وسكانها المناصير بنحو أساس، ويرعى المناصير وبنو ياس وبني قتب والمزاريع وبدو الغفلة عشب بينونة في المواسم. وتقع الجفور بين الظفرة وقطر والأحساء. ويمر الطريق من البريمي إلى الرياض عبر هذه المناطق، ولكن ليس ثمّة طريق محدد مرسوم، فالرمال التي تذروها الرياح تطمس كل المعالم ولا تبقي على أثر بارز. ومع ذلك يمكن القول بوجود طريقين تسلك القوافل أحدهما شتاءً والآخر صيفاً. ويمتاز الطريق الأول بأنه مباشر عبر هذه الفجاج، وهو أقل طولاً من الطريق الثاني الذي يمر قريباً من البحر حتى سبخة ثم يتجه بعد ذلك شمالاً لمسيرة ثلاثة أيام ليصل إلى الأحساء. ولا تُعدّ هذه الرحلة صعبة ولا خطرة، فالمياه متوافرة في عدد من المواقع، رغم أنها في الغالب مُرّة، ويندر أن تحمل القافلة في هذه الرحلة ماءً يكفيها لأكثر من يومين. ومع ذلك فالقوافل لا تحبذ أن تسير في هذا الطريق بين البريمي والأحساء الذي تسلكه ليلاً في العادة ويستغرق قطعه منها حوالى ثلاثة عشر يوماً. أما التحركات العسكرية في هذا الطريق فإنها تسير نهاراً على مهل، وتقطع هذه المسافة في حوالى خمسة وعشرين يوماً متصلة، فيما يقطعها "القاصد" في حوالى عشرة أيام فقط. ويملك المناصير وبنو ياس القسم الشرقي من الطريق، بينما تملك قبيلة آل مرّة القسم الغربي منه. ويستطرد مايلز فيتحدث عن السبخة أو "سبخة مطي كما تسمى أحياناً"، ويصفها بالوادي الذي يبلغ عرضه حوالى أربعين ميلاً، تبدأ من وادي جبرين لتنتهي إلى ساحل الخليج بين خط طول ٥٠ ٥١ و ٢٠ ٥٢ وخط عرض ٢٤. ويصعب اجتياز هذه السبخة في بعض أقسامها الوعرة ذات المستنقعات الخادعة إلا من خلال طرق معلومة لا يعرفها إلا الدليل. ويضيف أنه سمع أن الجمل إذا فقد طريقه في هذه المناطق فإنه سيغوص في الوحل ويبقى عالقاً فيه لا يستطيع حراكاً. وتمثّل هذه السبخة "كما

علمت من أشخاص موثوق بهم، الحدّ الفاصل بين نجد وعمان منذ قديم الزمان". ويضيف أن الشيخ علي بن سيف، شيخ كعب، الذي يسكن محضة كان قد أخبره أنه اعتُقل في فترة شبابه ونُقل مُقيّداً إلى الرياض في رحلة استغرقت أربعة وعشرين يوماً كانوا يسيرون فيها على مهل، و لم يحدث أن شكوا شُحّاً في المياه.

يستطرد مايلز فيحدّث عن الربع الخالي أو الصحراء الكبرى التي يجوبها آل مرّة والعوامر وترعاها إبل بعض البدو، ويرى أن تلك المناطق ليست خالية من الماء تماماً، إذ يحفر البدو في بعض المناطق المعلومة ويحصلون على ماء مر، ويضيف أن النخيل والأشجار الكبيرة لا تنمو في تلك المناطق، ولكن الأشجار القزمية والشجيرات والحشائش التي ترعاها الإبل متوافرة في تلك الصحراء، كما يوجد في تلك المناطق من الحياة الحيوانية نوع من الغزلان، وتعيش في المناطق الشمالية والغربية منها جماعات من النعام يصطادها البدو ليبيعوا ريشها في مكة المكرمة. ويخبر مايلز أن سعيد بن جلوي (؟) قد سلك في عام ١٨٧٠م على مهل طريقاً مباشراً عبر هذه الصحراء من نجران إلى أبو ظبي في رحلة استغرقت منه ستة وخمسين يوماً. و لم يصادف ذلك القائد شحّاً في الزاد إلا في الخمسة عشر يوماً الأخيرة. ويسترسل فيقول إن ابن جلوي هدف من هذه الرحلة إلى مقابلة السيد عزان في بركا وموازرته في حملته على البريمي.

تُعدّ الرحلة التي قام بها مايلز في ديسمبر ١٨٨٥ مهمة، لأنها لامست الربع الخالي، لكنها لم تلجْه. زار مايلز في تلك الرحلة إزكي ووادي حلفين ومنح وادم وعز ونزوى وبهلا وجبرين وجبل الكور وتنوف والحمرا وعبري ثم ضنك والرستاق والسويق حتى انتهى إلى بركا. وورد في كتاب مايلز **بلدان الخليج الفارسي وقبائله** عدد من الصور للقلاع والحصون في بهلا والرستاق وغيرهما من المدن. ولربما ما كان من المفيد أن نشير إلى أن تصوير الرحالة للمباني وغيره من ضروب الثقافة المادية يُعدّان أصدق ما يرد في تلك الكتب، فالأمر فيها غير قابل للتزوير. وسجل مايلز في هذه الرحلة العديد من الملاحظات عن الحياة والناس في تلك المناطق. يقول مايلز إن ارتفاع قامة شجرة النخيل الذكر يمكن أن يصل إلى مئة وثلاثين قدماً، وإن الشجرة الواحدة تكفي لتلقيح سبعمئة نخلة مثمرة، وأفاد بأن في ذكور النخل ما يمكن تسميته بالفحول، وأن أثمان فسلات الفحول يصل سعر الواحدة منها إلى عدّة ريالات. ويقول مايلز إن شجرة النخيل تبلغ نضجها في عمر الثامنة عشرة، وتعطي حينها ثماراً تصل إلى ثلاثمئة رطل في العام الواحد.

لم يكن مايلز في تسجيله يتعمّد الإسراف في سرد البدائي والغريب، فقد كانت كتاباته شأنها شأن التقارير الإدارية تعمل على تقديم صورة حقيقية للواقع لا يطمسها إلا ذلك القدر من الاختلاف الثقافي الذي يعمي صاحبه في كثير من الأحيان عن الجادة. ورغم أنه لم يكن يروي في هذا الصدد إلا ما شاهده أو سمعه من روايات وطرائف من مرافقيه، لم يغادر كثيراً ما درج عليه الرحالة من آفة إصدار الأحكام وتعميمها. يذكر مايلز بعض الأدوية التي يتناولها

"العرب"، فيقول إنهم يدخلون عصا في جوف البقرة فتتقيأ فيتناول المريض ذلك السائل علاجاً شافياً في ما يعتقدون، كما يعالج بعض العرب مرضاهم باستحضار الجان والعفاريت التي "تركب" المريض، وقد يرسلون للعفريت أو الجني بيضة تحملها له فتاة عذراء. ويُحمد لهذا الأرعن أنه اختار التبعيض في الجملة الثانية، و لم يشمل بالدواء المزعوم العرب كافّتهم كما ذكر في الجملة الأولى. وبدورنا لا ننكر أن جماعة ما في مجتمع عربي هنا أو هناك كانت تستعمل هذا النوع من العلاج المذكور، ولكننا نرى أن الأمانة تقتضي من الرحالة ذكر الجماعة التي تمارس هذا أو ذاك من دون اللجوء إلى التعميم.

أفاد مايلز حين مرّ بساحل طوي بأن خطبة الجمعة كانت حتى خمسة عشر عاماً قبل زيارته لتلك المنطقة تُقرأ باسم السلطان العثماني، كما أفاد بأن أهل السنّة والإباضيين في الجعلان كانوا لا يزالون يفعلون الشيء نفسه. وربما كان هذا أمراً مستبعداً في ضوء الظروف التي تكتنف عمان في ذلك الوقت الذي كانت تتنازعها فيه القوى الأوروبية، و لم يكن للدولة العثمانية فيه وجود أبداً.

يحدث مايلز في مكان آخر عن زيارة قام بها في عام ١٨٧٦م إلى الجبل الأخضر، والتي بدأها من بركا وتجاوزها إلى نخل التي كتب عن معمارها والتنوّع في سكانها الذين يسودهم السلام، وينابيعها الحارة وقلاعها وحصونها وصناعاتها، وانتقل مايلز بعد ذلك إلى عوابي التي تقع بين نخل والرستاق، وقدّم وصفاً لحصنها الذي يقوم عند منحنى الوادي ويكاد يهيمن تماماً على الممر المؤدّي إلى الجبل الأخضر شمالاً. وقال إن كل بيت في عوابي يمتلك بقرة أو اثنتين تعلف بالشعير والتمر والبرسيم في مرابطها، ولا يتركونها ترعى في التلال المجاورة رغم توافر العشب فيها. وأضاف أن سكان عوابي من بني خروص والعبرانيين والحراصين يسود جمعهم الوئام، وأفاد بأن عددهم مجتمعين يصل إلى ألف نسمة، ولهم قوة مقاتلة تبلغ نحو أربعمئة رجل، وزعم أن رئيس البلدة كان خلوقاً خدوماً، لكنه لم يكن منفتحاً. وكتب مايلز عن صناعة التمور المجفّفة في عوابي، التي تعرف في عمان بالبسر، وفي الهند بالكراك. وذكر أنهم يستعملون المبسلي والخنيزي من أصناف التمور في هذه الصناعة. وقدّم مايلز وصفاً لصناعة البسر، فذكر أن التمور تُخرص قبل نضجها وتوضع داخل "غلايات" نحاسية مستديرة تبلغ سعة الواحدة منها خمسة جالونات من المياه. توضع تلك الآنية فوق نار هادئة فتغلي، وكلما نقص الماء بالتبخر أضافوا إليه حتى ينضج التمر تماماً، ثم يؤخذ الخليط ويُعرّض للشمس بعد ذلك حتى يجفّ ويصبح لونه ضارباً إلى الحمرة . ويفيد صموئيل مايلز بأن هذا البسر يُصدّر بكميات كبيرة من مسقط إلى الهند.

تجاوز مايلز عوابي صعوداً إلى الجبل الأخضر على حمار، وأشاد بهذا النوع من الحمير الراسخة كراعها فوق الصخر كأنها البغال النشطة التي لا تكلّ ولا تملّ. راحت تلك الحمير التي

حملت الرحالة ورفاقه، والتي لا تقارن قوّة وحيوية بحمير السهول، تشقّ طريقها صعوداً إلى ارتفاع خمسة آلاف قدم قطعتها في خمس ساعات من دون أن يبدو عليها أثر من إعياء أو تعب. وخصّ صموئيل حماره المدعو ذياب أو ذيب بثناء خاص، فهو حمار صغير مشاغب يحاول أن يعضّ من يصادفه إذا استطاع. كذلك أشاد مايلز بقوة الحمّالين العرب الذين كانوا يحملون متاعه في شباك على ظهورهم تشدّ إلى جباههم بحبل، لا يكترثون في صعودهم بالأحمال للمعاناة التي لا بد أن تنجم عن ذلك. وكانت سيق التي اتخذت لها ركناً منعزلاً في أسفل أحد منحدرات الجبل الأخضر هي القرية الأولى التي وقف عليها في الجبل الأخضر. ونترك مايلز في الجبل الأخضر، فرحلاته في عمان كثيرة ومتشعّبة، والكثير منها مترجم ومنشور. ويمكن لمن شاء أن يتابع هذه الرحلات، ففيها الكثير من الطرائف والسخرية من العرب وأساليبهم في الحياة، ولكنها لا تخلو من مادة جادة حين يتصل الأمر بالشؤون الإدارية في عمان، والتي لا نجد لها مكاناً بارزاً في كتبه، فمكانها تقاريره لرؤسائه.

وليامسون من رحّالة النفط

وُلد وليام رتشارد وليامسون، الحاج عبد الله فاضل الزبير أو المسلماني، في مدينة برستول عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، وبدأ حياته متسكّعاً يجوب العالم، ما إن تستقبله أرض حتى تلفظه أخرى، ولجأ، حين أرهقه الترحال، إلى جنوب العراق واستقرّ هناك حتى مات ودُفن فيه.

هرب وليام رتشارد وليامسون، وهو بعد صبي يافع، من بلده إلى كاليفورنيا ليعمل في مجال التنقيب عن الذهب، و لم يحقق حلمه في الثراء، فخرج من هناك إلى القارة القطبية وعمل فيها صائداً للحيتان، ولكنه لم يوافق حظاً في هذه المهنة أيضاً، فيمّم الشرق قاصداً مكة المكرمة، واندسّ وسط المسلمين وهم يمارسون شعائر الحج، و لم يحقق من وراء ذلك شيئاً من الشهرة ولا المال. و لم يترك أي أثر مكتوب يدل على الفوائد التي حققها من رحلة الحج هذه التي قام بها في عام ١٣٠٧هـ/يوليو ١٨٩٠م، و لم يكن قد بلغ العشرين بعد. ويبدو أن وليامسون كان مغرماً بخوض المغامرات، ولكنه – في ما يبدو– لم يكن يملك ناصية الكلمة ليروي أخبار مغامراته. وكان أرنولد طالبوت ولسون، المقيم البريطاني في الخليج والحاكم العسكري للعراق (١٩١٨–١٩٢٠) قد طلب إلى وليامسون أن يسجّل مذكراته، وقيل إنه استجاب للطلب، غير أن حريقاً شبّ في بيته فأتى على كل ما كتبه. و لم يحاول وليامسون أن يبدأ الكتابة عن زخم حياته مرة أخرى، ولربما كان يعتقد أنها غير جديرة بالتسجيل، أو ليس فيها ما يحرّض على ذلك. ومن هنا كانت أخبار مغامرات هذا الرحالة غير واضحة.

خرج وليامسون من مكة المكرمة وباعد الله بين أسفاره حتى وصل إلى الفيليبين، وتزعم

هناك جماعة من اللصوص والمتمردين، ولكنه لم يحقق شيئاً أيضاً، فعاد إلى جزيرة العرب مرة أخرى وعمل في شرطة عدن. واعتنق وليامسون الإسلام في هذه الفترة (١٨٩٥-١٨٩٩م) وأدى فريضة الحج. ويشهد له سليم أحمد خالد الذي جمع بعض أوراقه والصور الخاصة به ونشرها أنه أصبح ورعاً تقياً وحسن إسلامه. يقول سليم في **رحلة إلى الخليج العربي – بعثة شركة النفط الإنكليزية الفارسية إلى البحرين وقطر ومسقط وعمان وأبو ظبي والشارقة وعدن ١٩٢٥-١٩٣٧** (الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٥) عن الحاج عبد الله وليامسون "عرفته مسلماً متديناً لا يترك فريضة من الفرائض، ولا واجباً من واجبات الصلاة. كان يحفظ أكثر من ثلثي القرآن، وكثيراً من الأدعية والأوراد، كما كان يشهد حفلات الموالد والذكر".

سكن وليامسون بعدئذ لفترة في البصرة، وتنقّل بين تخومها ونجوعها، واستقر لفترة في الناصرية عند آل السعدون والمنتفك، وهناك تزوج بعربية شمرية أنجب منها ثلاثة أبناء وبنتاً واحدة، وعاش مع أسرته في كوت الحجاج في البصرة، وهناك ذاع صيته، فقد كان يملك من المخترعات الحديثة ما يثير به دهشة المواطنين. كان عنده الحاكي (الجرامفون) الذي كان الأهالي يعتقدون أنه صندوق مسكون بالعفاريت. أما دراجته التي كان يتنقل عليها في ربوع البصرة، فكانت توحي إليهم أنه رجل يأتي بالعجب العجاب!

اشتغل عبد الله وليامسون في صيد اللؤلؤ، وكان له قارب يعمل في هذا النشاط. وربما شارك قاربه في العمل في تجارة السلاح في الخليج ونقله بين موانئه. فقد كانت تجارة السلاح في تلك الفترة رائجة وتدرّ أرباحاً طائلة بسبب الحظر الذي أقامته السلطات البريطانية في الخليج على تلك التجارة. ومن الثابت أنه عمل أمداً بتجارة الرقيق كذلك، واختتم الرجل حياته العملية في الخليج بأن عمل مترجماً في شركة النفط الأنجلوفارسية في عبدان، وتقلّب في وظائف تلك الشركة حتى غدا مفتشاً لوكالاتها في الخليج، ثم أحيل على التقاعد في عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م لبلوغه الخامسة والستين.

ينبع اهتمامنا بالأوراق المبعثرة التي تركها وليامسون من أنه جاب مناطق مختلفة في شبة الجزيرة العربية في اليمن والحجاز وجنوب العراق لأكثر من أربعين سنة، استقرّ في العشرين سنة الأخيرة منها في منطقة جنوب العراق، التي كانت تشهد نشاطاً مستعراً وتسابقاً مريراً بين شركات البترول البريطانية والأمريكية في مناطق الخليج على امتداد سواحله. وقد عمل وليامسون – كما سبق أن ذكرنا – في مجالات عدّة في الخليج، وتعامل مع العديد من أهل المنطقة وشيوخها، ولم يجد من الذين عرفهم وتعامل معهم إلا التقدير الذي ترجعه بعض المصادر إلى أن الرجل كان قد أسلم وحسن إسلامه.

تضمّ بعض مذكرات وليامسون نقداً للعديد من الرحالة الغربيين، خاصة أولئك الذين حكوا عن مغامراتهم في صحارى الجزيرة العربية، واتهم العديد منهم بالجهل، ولكنه لم يتّهمهم

بالتدليس. قال وليامسون إن بعض الرحالة كتبوا عن واحات لم يسبق لهم أبداً أن وقفوا عليها، فكثير منهم كان يخشى أن يفارق الطرق المعلومة ويتوغل إلى عمق مئة ميل في الصحراء ليزور واحة ما. ويضيف أن مثل هذا الرحالة يكتفي باستلقاط الأخبار من أفواه مرافقيه وممن يصادفهم من الآخرين، ثم يكتب عنها بعد أن "يلبس الوهم صورة الحقيقة" ويطلقها في مجتمعات غربية لا تعرف عن تلك المناطق شيئاً. ويستطرد الحاج عبد الله ليقول إنه رأى في كتاب أحد هؤلاء الرحالة صورة لرجل ادّعى ذلك الرحّالة أنها لبدوي من شبه الجزيرة العربية، ولكن "في حقيقة الأمر الصورة كانت لرجل كردي أعرفه معرفة جيدة!".

كثيرون هم الرحالة الذين عملوا على كشف زيف رحالة آخرين، ويمكن أن نذكر في هذا الصدد بلنت وزوجته، وفلبي، وغيرهم كثير، ولكن هؤلاء وأولئك وكافة الذين كتبوا في أدب الرحلات الغربية من الغربيين لم يذكروا عن مثالب أولئك الرحالة الكذّابين شيئاً. ولا يهمنا أن نبحث في أسباب هذا التحيّز المشين، ولكن ما يبدو لنا واضحاً جلياً أنه كلما ارتفعت حدّة الكذب في الرواية التي ينشئها رحالة ما، وكلما ألبس شخوص روايته والواقع المعيش صورة الخيال وأمعن في تصوير البدائي والغريب، ازداد إعجاب القرّاء الغربيين به. فهو يقدم لهم الصورة النمطية التي ألفوها دهراً للشرقي المترف الخامل البليد، الذي يسكن أرضاً قطوف خيراتها دانية تنتظر من يستثمرها من الغربيين بعلمه، وفوق ذلك بأخلاقه ومبادئه وفضل ثقافاته التي تدعوه لانتشال هذا الشرقي الغارق في وهدة خيالاته وجهله وتخلّفه.

يقول ستانون هوب، الرجل الذي كتب سيرة عبد الله وليامسون: إن المؤرَّخ له "هجر المجتمع الأبيض منذ صباه، فقد امتاز الرجل بحب المغامرة". ولعل ما يستوقفنا هنا أن الكاتب لوّن المجتمعات. فهو وإن لم يقل إن وليامسون عاش في مجتمع أسود أو ربما ملوّن، إلا أن السياق يصرّح بذلك. ويعرض ستانون مغامرات وليامسون "في البراري الأمريكية... والسواحل البربرية البعيدة... وبحار الشمال القطبية". يصل بنا معه إلى "البحار الجنوبية الدافئة في الهند ومانيلا...". ويسوقنا معه إلى اليمن، وينتهي بنا إلى استقراره على مقربة من البصرة. ويستطرد ستانون فيردّ استقرار وليامسون في تلك الأرض، التي استضافته، إلى قدرات وليامسون "الاستثنائية التي مكنته من التكيّف مع تلك الحياة المبهمة بين ظهراني أقوام غير متحضّرين". ولا تهدأ عنصرية ستانون، بل تزداد مع كل فصل من فصول كتابه عن وليامسون فيقول: بالرغم من أنه قد تمرد على بني جلدته وعلى إفراز حضارته، ظلت جذوة التفوّق المتّقدة في داخله والعبقرية الكامنة في شخصيته تقودان خطاه. وهو، حين أسلم، لم يصبح مسلماً شأنه شأن المسلمين الآخرين، بل أصبح فقيهاً، وبات مرجعاً دينياً يهرع إليه المسلمون للفتوى! ويضيف هذا الكاتب المتهوس بأن وليامسون "كان يعي جيداً أنه مختلف عمّن حوله، "فهو غير ذلك العربي الذي لا يكترث لسفك الدماء، المولع بتعدّد الزوجات، والذي يستمتع بمجالس الأنس

والثرثرة وتبهره منجزات الحضارة التقنية الحديثة...".

لم يقل الحاج عبد الله وليامسون عن نفسه إنه مختلف عمن حوله من البشر، ولكن من أرّخ له من الغربيين أراد له ذلك للإساءة إلى صورة الشرقي، والقول بتفوّق الرحالة الأوربي - وإن كان صعلوكاً متشرداً - فهو الذي يجلب في ركابه التمدن إلى المجتمعات العربية في المناطق التي يزورها أو يختار أن يعيش فيها، والقول مكرور بطريقة مملّة عند أكثر أولئك الرحالة. فكل منهم يدّعي أنه مغامر قام بما لم يأتِ به الأوائل حين عايش أولئك المتبربرين. ويتكرر أيضاً القول ذاته عند كل من أرّخ لأولئك الرحالة من الغربيين، خاصة المؤرخين المتقدمين منهم، أما المتأخرون فقد اكتفوا - في كثير من الأحيان - بتمجيد الرحالة من بني جلدتهم مع عدم التهجّم الصريح على الشخصية العربية إلا في ما ندر.

لم يكن وليامسون بحكم امتياز عنصره، كما يقول مؤرّخه ستانون هوب، أو غير ذلك فقيهاً دينياً يُستفتى، ولا يمكن أن يكون، ولكنه كان له من ثقافته الدينية الإسلامية ما يستطيع أن يقوله للأوروبيين، خصوصاً من معاصريه الذين عاشوا تلك الفترة في شبه الجزيرة العربية. وكثيراً ما استشهد ديكسون، صاحب كتاب **عرب الصحراء**، بما أفتى به وليامسون في بعض المسائل الدينية. جاء عند ديكسون - على سبيل المثال - وهو يتحدث عن الختان عند المسلمين أن الحاج عبد الله وليامسون أخبره بأن الإسلام يحضّ على ختان البنات، ولكنه لم يلزم أتباعه بذلك. ويزيد وليامسون - على لسان ديكسون كذلك - بأن الشرع لا يشترط ختان الذكور الذين يدخلون في الإسلام بعد البلوغ. وينقل ديكسون في مكان آخر عن الحاج عبد الله الفاضل وليامسون أنه قرأ في صحيح البخاري أن المسلمين كانوا على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتفاكرون في أمثل الطرق للدعوة إلى التجمع لأداء الصلاة المكتوبة جماعة. وذات يوم حدّث عمر - رضي الله عنه - جماعة من المسلمين بأنه رأى في المنام رجلاً يعتلي قمة عالية ينادي للصلاة بكلمات ذكر عمر صيغتها. وجاء علي - رضي الله عنه - بعد ذلك وأخبر بأنه رأى الحلم ذاته، وذكر الصيغة ذاتها التي ذكرها عمر. ورُفِع الأمر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فاعتمد صيغة النداء وأقرّ كلماته، ثم علّمها بلالاً - رضي الله عنه - ليؤذّن بها. و لم تتغيّر صيغة نداء الصلاة بعد ذلك أبداً.

كانت رحلة وليامسون، في رفقة جيولوجيَّين هما أم ليز وواشنطن جراي، وعالم النبات فرنانديز، وكذلك إكلز، ضابط شرطة كان يعمل في قوة ساحل عمان (ليفي عمان) على باخرة شركة النفط الأنجلوفارسية التي زاروا خلالها عدداً من مشيخات الخليج، من أهم رحلاته التي تعنينا، لأنها خلّفت أثراً بارزاً في تاريخ المنطقة. وتعتبر رحلاته إلى الكويت وقطر وأبو ظبي والشارقة ورأس الخيمة وعمان من أهم إنجازاته، فقد ترك لنا صيغ أول

اتفاقات النفط في الساحل العماني وقطر. يجري نص خطاب وليامسون في هذا الصدد إلى الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان على النحو الآتي:

في ١ جنوري ١٩٣٦م الموافق ٥ شوال ١٣٥٤هـ إلى جناب الأجل الأمجد الأحشم الأفخم حضرة الشيخ شخبوط بن سلطان بن زايد حاكم أبو ظبي المحترم.

بعد التحية والاحترام.

استخبرنا بأن فخامتكم ترغبون في استثمار الموارد الطبيعية في قطركم، فنحن مستعدون لإرسال أحد الجيولوجيين أي المهندسين لاكتشاف الأراضي من عندنا ليفتش عن النفط على موجب الشروط الآتية:

١- أن تمنحوا هذه الشركة والشركات المتعلقة بها الحق الانحصاري الوحيد للقيام بالفحص لأراضي المهندسين والكشف في بلدكم أبو ظبي وفي جميع النواحي الأخرى والحدود التي تحت إمارتكم لمدة سنتين، اعتباراً من تاريخ هذا الكتاب . وإذا انتهت السنتين واحتجنا إلى زيادة الوقت في السنة التالية

٢- ضمن المدة المذكورة ستستلمون من هذه الشركة أو أي شركة متعلقة بها ما تعتبرونه عوضاً لامتياز استخراج النفط مشروطاً على قبول شروط الامتياز المذكورة من قبل فخامتكم، فإذا اتفقنا الجانبين بشروط الامتياز تمنحون هذه الشركة أو أي الشركات المتعلقة الحق الانحصاري الوحيد لاستثمار موارد النفط في أبو ظبي ونواحي الحدود التي تحت إمارتكم.

٣- في ضمن مدة السنتين أو الثلاثة المذكورة لا تستلمون من أي شخص أو الشركة أو الشركات عرضاً للقيام بالفحص الجيولوجية والكشف واستثمار منابع النفط في أبو ظبي ونواحيها والحدود الأخرى تحت إمارتكم.

٤- إذا عجزت هذه الشركة أو أي شركات متعلقة بها أن تقدم عرضاً لأجل استثمار النفط الذي تقبلونه في ضمن مدة السنتين أو الثلاث المذكورة حينئذ لفخامتكم الخيار بمفاوضات لأي شخص أو الشركاء أو الشركة.

٥- تبذلون المساعدة والمحافظة اللازمتين لموظفي هذه الشركة أو أي شركات متعلقة بها أثناء مدة الفحص الجيولوجية والكشف.

إزاء قبول فخامتكم لهذه الشروط ومنحكم الخيار الانحصاري لهذه الشركة التي يمكنها أن تحيله إلى أي شركة من شركات المتعلقة معها، والذي يكون معمولاً به من قبل وارث فخامتكم ومن يقوم مقامكم، ومتعلقة على موافقة حكومة صاحب الجلالة، نتعهد بهذا بأننا في خلال مدة السنتين وإذا احتجنا إلى السنة

الثالثة المذكورة نقدم لفخامتكم مبلغ (.........) شهرياً من تاريخ هذا الكتاب.
ولفخامتكم فائق الأحترام والسلام الصميمي.
عن شركة كشف الدارسي المحدودة
توقيع وختم: عبد الله وليامسون
عن مدير الشركة.

وجاء ردّ الشيخ شخبوط حاكم أبو ظبي على النحو الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم
من شخبوط بن سلطان
إلى شركة كشف الدارسي المحدودة المحترم
قد وصلنا خطابكم المؤرخ عاشر شوال ١٣٥٤هـ بإمضاء الحاج عبد الله فاضل وليمسن. أشرفنا عليه وفهمنا مضمونه وما ذكرته مرادكم ترسلون أحدالأخصائيين المهندسين لأجل الفحص والكشف بها عن معدن النفط في أرضنا أبو ظبي وجميع نواحي الحدود التي تحت إمارتنا فنحن نمنحكم الحق الانحصاري للكشف والفحص في أرضنا أبو ظبي وجميع نواحي الحدود التي تحت إمارتنا مدة سنتين فقط من تاريخ كتابنا هذا. وأتعهد في ضمن السنتين المذكورتين أني لا أتفاوض مع غيركم من الأشخاص أو شركاء أو شركة من طرف ما يتعلق بها من شأن الكشف أو الامتيازات الاتفاقية حفر للنفط في أرضنا الذي في حدود إمارتنا، وفي مدة السنتين أتذاكر مع الذي يأتي من طرفكم في المبالغ الدراهم والشروط التي ترضيني لأجل امتياز حفر النفط في أرضنا وفي ضمن السنتين إذا ما صارت اتفاقية ما بيننا وعجزت الشركة عن أن توافقنا في أداء مطالبنا فأكون في كمال الحرية أتفاوض مع كل من أريده من أي شخص أو شركاء أو شركة وعرض ما ذكرناه بأعلى الكتاب أشرط عليكم كما يأتي:

١- أن الشركة تدفع لنا في مدة سنتين في كل شهر ثلاثة آلاف ربية.

٢- أن موظفي الشركة ما داموا هم في حدودنا التي تحت إمارتنا لا يعملون شيئاً يخلّ بسياستنا الداخلية مثلاً لا تدخل في أمور السياسية أو الأمور التجارية وأن موظفي الشركة ما لهم اعتراض في مماليكنا وبحريتنا ومسائل الغوص وأمور الأهالي وأنهم يلزمون عمل الشركة من قبل الكشف والفحص فقط وإذا أحد الموظفين تعدّى بخلاف ما ذكرناه أو تعدّى على حقوق رعايانا وأردنا عزله نرفع الخبر للشركة تنقله من عندنا وأيضاً نشترط عليكم أن المحافظين اللازمين

وأصحاب الجمال والعملة وغيرهم من بلدنا ومعاشهم على الشركة وإذا موظفو الشركة احتاجوا إلى مساكن يسكنون فيها، فنحن نعين لهم بالإيجار وأنا أبذل الاجتهاد في المحافظة والمساعدة اللازمتين لموظفي الشركة ما دام هما في حدودنا في مدة السنتين.

هذا ولفخامتكم مزيد الاحترام

حرر في عشر شوال ١٣٥٤

الواثق بالرحمن شخبوط بن سلطان.

لعلنا نلاحظ في هذا الخطاب خشية الشيخ شخبوط بن سلطان من تدخّل الأجانب في شؤون البلاد الداخلية، السياسية منها والاقتصادية، كما يمكن أن نستشفّ من هذا الخطاب نمط التفكير التقليدي الذي ميّز الشيخ شخبوط بن سلطان، الذي كان يتوجّس خيفة من أن يسبّب دخول الأجانب إلى بلاده انفلاتاً في السلوك الاجتماعي لأفراد شعب مشيخته. كان شخبوط يخشى رياح التغيير التي يمكنها أن تجتاح بلاده إن هو فتحها للأجانب، ويعي المخاطر الناجمة عن ذلك، فراح يقاوم كل ضروب التحديث حتى في ما يخص تطوير العمل في هيرات صيد اللؤلؤ وما يتصل بنشاط الغوص الذي كان شخبوط يريده أن يظل تقليدياً، كما هو، من دون تدخّل من أولئك الأجانب أو تأثير. كذلك يمكن تفسير الشرط الذي وضعه الشيخ شخبوط الذي ينص على أن يكون العمال والحراس "المحافظون" الذين تحتاج إليهم الشركة من مواطني أبو ظبي – إلى جانب ما هو واضح من حرصه على أن يكون لمواطنيه مردود مادي من هذا النشاط المستحدث – من زاوية مقاومته للتغيير الاجتماعي الذي يحمل في طيّاته مخاطر سياسية جمّة. فقد تجرّ أعمال الشركة إلى إمارته أعداداً من بدو المنطقة من خارج حدود المشيخة من ذوي الولاءات المغايرة. فالعلاقات بين مشيخات الساحل العماني المتجاورة كانت في تلك الفترة تراوح بين شدّ وجذب. وظلت العلاقات على ذلك المنوال حتى تولّى الشيخ زايد بن سلطان الأمر في مشيخة أبو ظبي، فعمل على إعادة اللحمة إلى قبيلة بني ياس في أبو ظبي ودبي بعد القتال الذي وقع بينهما في عام ١٩٤٦–١٩٤٧م، ثم عمل زايد بعد ذلك على التصالح مع المشيخات المختلفة في ساحل عمان قبل جلاء البريطانيين عن الخليج. و لم يبخل الشيخ في سبيل ذلك بالمال الذي بذله للحلفاء والخصوم، وتحوّل بذلك المسار التاريخي لأهل المنطقة الذين وسعتهم فكرة الاتحاد.

لم تكن شركة دارسي في هذه الفترة تحرص على الاستكشاف في منطقة الساحل العماني، كما لم تكن في حاجة إلى توسيع مجال نشاطها الاستكشافي، فقد كان لها في ماعونها ما يكفي. ولكنها عملت، مع ذلك، على تعطيل الشركات الأمريكية التي ظفرت بالكثير بعد أن حصلت في عام ١٩٣٣م من ابن سعود على امتياز الأحساء وعملت على الامتداد إلى ما وراء ذلك في

فترة لم تكن الحدود السياسية بين الكتل السياسية في المنطقة قد ولدت بعد.

كانت الحكومة البريطانية في وستمنستر ومن ورائها حكومة الهند تدفع الشركة البريطانية إلى القيام بهذه الاتصالات مع شيوخ المنطقة، وذلك لاعتبارات سياسية أكثر منها اقتصادية. وكما يظهر من الخطاب الموجّه إلى الشيخ عبد الله بن قاسم أدناه، فقد كانت هذه الشركة تتقاعس عن أداء الالتزامات المالية، التي نصّت عليها هذه الخطابات المتبادلة، ولا تلتزم بأدائها، فالأمر بالنسبة إليها لم يكن استثماراً بالمعنى الاقتصادي، إذ لم يكن يتعدّى حطر الاستثمار في هذه المناطق كي لا تمتد إليه أيدي الشركات الأمريكية التي تفتر في العادة ولا تزاحم البريطانيين على منطقة تراهم يفاوضون شيخها، كذلك عملت الحكومة البريطانية من خلال هذه الشركة وموظفيها على مقاومة أصحاب التطلعات الشخصية من أمثال الميجور هولمز وغيره ممن قد يحصلون على امتيازات من الشيوخ يبيعونها لمن يدفع أكثر دونما اعتبار لمقتضيات السياسة البريطانية في المنطقة. ولعل الخطاب الموجّه من وليامسون إلى الشيخ سلطان بن سالم، حاكم رأس الخيمة، يظهر نوعاً من أنواع المقاومة للميجور هولمز "الذي لا يأمنون مكره" ولا يلتقي معهم لساناً ولا ديناً، ولعل وليامسون يذكّر الشيوخ في هذه المناسبة بأنه يسعى لخيرهم، "فهو أخوهم في الدين، ولسانه قد أصبح عربياً مبيناً".

جاء في خطاب الشيخ سلطان:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جناب الأفخم الأمجد حضرة الشيخ المطاع الشيخ سلطان بن الشيخ سالم حاكم رأس الخيمة وما يتبعها... المحترم. أدام الله عزّه آمين.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أول السؤال عن عزيز وشريف خاطركم ونحن ولله الحمد في الخير والعافية وبعد يا أخي العزيز فإني كلما تذكرت كلامكم أتى أزيد في دعائي إليكم بالخير والعزة. أخبرنا الأخ الحاج يوسف في سفر وكيل إليكم في الخطوط فأنا محقق عندي أن في المكاتيب بينا صار فيهم لعب، ولأجل ذلك كنت في نيتي أن أرسل رجّالاً من عندي في المكاتيب لما وصلنا وكيلكم يا أخي العزيز هذا حال ليس طيب عدم الأمان في حفظ السر، ولكن تذكرنا بعض من هذا الشيء إلى وكيل الحكومة الذي هنا مستر هكن بتوم وهو عن قريب يزور لطرفكم إذا رأيته تكون حر الضمير وتخبره عن حقيقة الأمور وأنا أخبرته بأن أكثر أسباب عدم موافقة أهل الساحل مع الميجر أنهم لا يأمنون مكره ويخافون منه من حيث عدم الاتفاق لساناً وديناً بينهم وبينه وبعده يا شيخ العزيز إن شاء الله عن قريب يوصلكم من عندي موتركار طيب الجنس ولكن نريد منكم أن تخبر الناس أنه مشترى من دراهمكم وهذا ما لازم،

Twitter: @ketab_n

وسلمنا على جميع الإخوان ومن عندنا الأخ العزيز الحاج يوسف يسلم سلاماً كثيراً وأنت سالم والسلام.

محبكم

أما الخطاب الذي يظهر عدم وفاء الشركة البريطانية بالتزاماتها المادية تجاه شيوخ المنطقة فهو هذا المرسل من وليامسون

لحضرة جناب الماجد الأفخم صاحب الفخامة الشيخ عبد الله بن قاسم الثاني.

بعد السلام والتحية

نظراً للمذاكرة التي جرت بيني وبين فخامتكم في خصوص رواتب الممثلين الذي قدمتم فخامتكم طلباً بذلك إلى مدير شركة النفط الإنكليزية الإيرانية المحدودة في عبادان واعتبرتم تاريخ كتابكم المشار إليه مبتدأ لإجراء الرواتب المذكورة ولقد كررتم هذا الطلب لدي وطلبتم مني إجراءه قبل الشروع في أي عمل لذلك التمست من فخامتكم مهلة أسبوعين أجري المخابرة بشأن ذلك مع الهيئة التنفيذية للقيام بما طلبتم فخامتكم فإذا مضت الأسبوعين المذكورة و لم تتم مطاليب فخامتكم في أثناء هذه المدة فالأمر يرجع إلى اختياركم ونظركم في إيقاف العمل والاحتفاظ بحقوقكم ولنا الشرف بأن نكون لفخامتكم من المخلصين المطيعين.

يمتاز هذا الخطاب بوضوح غير مألوف في خطابات وليامسون إلى الشيوخ، فخطاباته لهم يتخللها عادة الكثير من الرموز والإشارات المبهمة لإقناع بعضهم بأنه يمكن أن يكون مكان سرهم، وأنه مخلص لهم يسعى إلى تحقيق أهدافهم، وقد يقتنع بعضهم ويبادل وليامسون خطابات تسير على أسلوب خطاباته الغامضة وتعزف على نغمتها. نجد الخطاب الآتي:

من سلطان بن صقر القاسمي إلى جناب الأجل محترم المقام حضرة الأخ الفاضل عبد الله الفاضل وليمسن سلمه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على البقاء والدوام دمتم بخير وسرور أخبار طرفنا فلله الحمد على ما يرام و لم يتجدد شيء من الأخبار يلزم رفعه إليكم سوى الخير وعدم ضده. تشرفت بورود محررك الكريم بيد عيسى بن شرهان من أهالي بلدنا رأس الخيمة وسررت بسلامتكم وحسن استقامتكم والقلمين وصلا نشكر صنيعكم لا عدمناكما وعن قصدكم التوجه إلى البصرة في آخر هذا الشهر تصحبك السلامة في الظعن والإقامة وما كان بطي كتابنا والكتب عدد ٣ فقد

سلّمناها حالاً للإخوان المشايخ محمد وماجد وعبد الله الفارس فهما يشكران حضرتكم. وأجزم أيها المخلص الودود بأننا نحن المخلصين الذين تعهدهم فلا تغيرنا الطواري جعلها الله محبة خالصة لوجهه الكريم متصلة بحبله القويم والأمل أن تكون كتبكم متصلة غير منفصلة وإبلاغ سلامنا الوالد الحاج يوسف بن أحمد كانو وأبنائه ومن تحبون ومن الإخوان كافة والأخ عبد الله الفارس يسلمون وابنه لازم آل شاع والأخ الشيخ سلطان بن سالم بقى من شهرنا الجاري توجه إلى وطنه تصحبه السلامة حلاً ومترحلاً.

حرر في ١٣٥٦/١/١٥

توقيع...

عقد وليامسون صداقات مع العديد من الشيوخ وكان دائم الترحال لرعاية مصالح شركة النفط الأنجلوفارسية التي لم تكن قد تبلورت بعد بصورة جلية، فقد كان الأمر سياسياً أكثر منه اقتصادياً. ويلاحظ أن حكومة لندن كانت تتولى عن طريق وزارة الخارجية المسائل الخاصة بالحدود بين العربية، تلك المسائل التي مثلت اعتبارات احتكار البترول بعض خيوط نسيجها المتكامل استراتيجياً وأمنياً ودولياً. وكان ابن سعود قد احتجّ على منح قطر في عام ١٩٣٥م امتيازاً لشركة النفط الأنجلوفارسية (دارسي). وربما كان الخلاف الحدودي بين ابن سعود وعبد الله بن جاسم آل ثاني هو الذي جعل بريطانيا تجدد في عام ١٩٣٨م المعاهدة الموقّعة بين الطرفين، كذلك أصدر القصر الملكي في بريطانيا في العام التالي مباشرة أمراً في المجلس يُنظّم شؤون القضاء للبريطانيين ورعاياهم في قطر. ولعل في هذا الاهتمام المباشر من لندن ما يجعل دور هذه الشركة البريطانية ومبعوثيها من أمثال وليامسون ضعيفاً وغير مباشر، خاصة في منطقة الساحل العماني التي أصابت في هذه الفترة أهمية حيوية للمصالح البريطانية لموقعها في طرق المواصلات البحرية والجوية والاتصالات اللاسلكية الامبراطورية، إضافة إلى النفط الذي بدأت تباشيره واعدة. وصرّح نائب الملك في الهند في ١٨ جمادى الآخرة ١٦/١٣٥٤ سبتمبر ١٩٣٥ بأن للحكومة البريطانية مع شيوخ الخليج المستقلين علاقات خاصة عملت على رعايتها وتحمّلت مع حكومة الهند كافة مسؤولياتها تاريخياً، وأنها لن تتخلى عن المنطقة. ولعل في هذا ما يفيد بأن دور شركة النفط الأنجلوفارسية لم يعد في هذه الفترة الموجّه الأكثر تأثيراً في سياسة الخليج العربية، و لم يكن لممثليها الطبق المعلى في بلورة تلك السياسات التي كانت تعالجها السلطات العليا وتجريها من خلال المقيم البريطاني في المنطقة وليس عن طريق رجال شركة البترول، وإن كانوا ضمن أذرع المقيم الأخطبوطية.

كتب وليامسون خواطر وذكريات عن بعض رحلاته التي رافق فيها بعض الفنيين والعسكريين إلى بعض المناطق، وكان يتولى عنهم الترجمة ويقوم بالاتصالات العامة. لم يخلّف وليامسون

الكثير من المذكرات، ولكنه - مع ذلك - ترك للمؤرخين ما يمكن الاستشهاد به بعد نقده وتحليله. ونحمد لسليم أحمد أنه جمع هذا الشتات ونشره في كتابه المذكور.

يقول الحاج عبد الله فاضل إن البحرين، وهي مثنى بحر، تُطلق على منطقة تقع على امتداد سواحل صيد اللؤلؤ، وإنها قد سمّيت بهذا الاسم لأنها تجمع بين نوعين من الأمواء، ملح أجاج وسائغ نمير. فالبحر في العربية لا يعني مدلوله، بل يستعمل اصطلاحاً بمعنى الماء على إطلاقه. ولما كانت ينابيع الماء العذب تنبجس من قاع البحر المالح على عمق ست قامات فيجمعها القوم للشراب، اكتسبت منطقة البحرين هذا الاسم. أما تاريخياً فقد كانت البحرين، في ما يروي وليامسون، إقليماً شاسعاً من ساحل شبه الجزيرة العربية يمتد من شبه جزيرة قطر في الجنوب الشرقي إلى أم قصر في الشمال الشرقي عند حدود البصرة، وكانت الأحساء هي عاصمة هذا الإقليم. ويضيف الحاج عبد الله فاضل أن هذا الإقليم قد عرف قديماً باسم هجر، وكانت البحرين في تلك الفترة تعرف باسم آوال، والاسم - في ما يُروى - نسبة إلى صنم كانت الجزيرة العربية تعبده. ويعود وليامسون لينفي هذه المقولة، فالاسم - في ما يعتقد - قد اشتقّ من وائل، تلك القبيلة العربية العريقة التي شاركت بني قيس سكنى الجزيرة.

يذكر وليامسون أن أكبر جزر البحرين مساحة تمتد إلى ستة وعشرين ميلاً ونصف الميل طولاً، ويصل عرضها إلى عشرة أميال، وتقع فيها العاصمة المنامة. ويرى أن المنامة اسم مكان من النوم، لأنها قامت على موقع من الأرض خالٍ من البعوض. وكان الحاكم قد اتخذ له فيه بيتاً يقضي فيه لياليه، فاشتهر ذلك الموقع بالمنامة. ويضيف أن الحال لم تعد كما كانت في المنامة سابقاً، فقد غزا البعوض البلدة وتمكن منها. ويروي المسلماني عبد الله فاضل أن أرض جزيرة البحرين زراعية قامت فيها العديد من المزارع التي تؤوي قرى الفلاحين الذين يقومون على ريّ البساتين بمياه الينابيع الحلوة، التي من أشهرها "عين العذاري" التي هي من أوفر الينابيع ماءً وأوسعها عيناً. وتقوم على مدخل عين هذا الينبوع بركة يبلغ عمقها عدّة قامات، ويمتد محيطها حوالى خمسين ياردة، وماؤها عذب مستساغ. ويضيف أن أهل المنامة يقصدون هذه العين التي تقع على حوالى بعد أربعة أميال من المدينة للاستحمام صيفاً. ويفيدنا وليامسون بأن أهل الجزيرة قد أنفقوا الأموال الوفيرة على حفر الآبار الارتوازية، فالمياه الحلوة متوافرة في باطن الأرض، ولا يزيد عمق أيّ من الآبار هناكِ على مئة وستين قدماً. وقد كان في البحرين في عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م حوالى أربع وعشرين بئراً تؤلّف في ما بينها جدولاً متصلاً من المياة العذبة.

يحدثنا الحاج عبد الله عن بستان نخيل لأحد أصدقائه على تخوم المنامة، فيه مضخّة وطاحونة هوائية وماكينة ديزل لرفع المياه قوتها أربعة أحصنة، ولديه أيضاً مضخّة أخرى تقوم على بئر ارتوازية. ولاحظ وليامسون أن هاتين المضخّتين الحديثتين لا تكادان تفيان بما تدرّه السواقي التقليدية ذات الدلاء التي تجرّ بالثيران من ماء، فالأخيرة القديمة أكثر سخاءً وأوفر ماءً.

تنبّأ وليامسون للبحرين بمستقبل زاهر لنشاطها في صيد اللؤلؤ ومواءمة سواحلها لهذا النشاط، ورأى أن المنامة ستصبح من أكثر مدن الخليج ثراءً وتقدماً، وأنها ستتسع مساحة وعمراناً. فساحلها ضحل والأهالي يبنون منازلهم من الحجارة التي يأتي بها العمال من المحاجر ويشيدون جداراً في وشل مياه الساحل، فيحجزون بذلك موقع المبنى عن المياه. وتُترك المنطقة المحجوزة في ما وراء هذا الجدار حتى تجفّ ومن ثمّ يملأونها بالتراب، وبهذا تزداد مساحة اليابسة وتمتد المباني إلى ما كان يوماً بحراً. ويضيف وليامسون أن هذا الساحل الضحل لم يكن يُمكّن السفن من الرسوّ بالقرب من المدينة، فقد كانت تقف على بعد ميل من ساحلها، وكان القادمون والمسافرون يخوضون لجّة الوشل إلى الساحل، كما كان بعضهم يُحمل على أكتاف الرجال من المركب أو إليه. ويقول عبد الله إن من مظاهر التقدم في البحرين إقامة رصيف يمتد إلى مسافة بعيدة داخل اليم، ما مكن المراكب من أن تنزل المسافرين والسلع هناك. ويفيدنا عبد الله بأن رصيف المنامة البحري الذي يمتد في واجهة المدينة قد أصبح مقصداً لهواة رياضة المشي، فتراهم هناك زرافات ووحداناً، خاصة ليلاً وكذلك باكراً في وقت الشروق، كذلك يقصده بعض أصحاب السيارات أحياناً.

أما عن النفط، فيقول إن ايسترن سندكيت، الشركة المملوكة لهولمز، كانت قد حصلت على امتياز استكشاف نفط البحرين، ولكنها لم تعمل في هذا المجال، بل تعاملت في حفر الآبار الإرتوازية. وكانت هذه الشركة تتقاضى خمسين ألف ربية عن حفر البئر الواحدة، ولكن حين جلبت عائلة يوسف كانو آلة لحفر الآبار، تدنّت قيمة الحفر لتصل إلى خمسة آلاف ربية فقط.

يتتبع وليامسون تاريخ الحكم والإدارة في البحرين بإيجاز شديد فيقول إن الجزيرة كانت قبل الإسلام تحت ملوك فارس، وينسب إلى ابن الأثير وابن خلدون القول إن أهل الجزيرة كانوا يعترفون بحكم ملوك فارس، إلا أن الأخيرين كانوا يتيحون لأهل البحرين اختيار شيوخـــــهم. ويسترسل الحاج وليامسون فيقول إن السنة الثامنة للهجرة شهدت أول حاكم مسلم يتولى أمر الجزيرة، وهو العلاء بن الحضرمي، وإنها ظلت تدين بالولاء لحكومة المدينة المنوّرة حتى العام الخامس والأربعين للهجرة، حيث دخلت بعدها في طاعة بني أميّة في دمشق، واستولى عليها بعدئذ عقبة بن سا لم في عام ١٥١هـ لاسم الخليفة المنـــصور ثاني خلفاء بني العبـــاس. ويستطرد ليذكر استيلاء القرامطة على البحرين في الفترة من ٢٧٦-٣٧١هـ حتى غزاهم أبو البهلول.

يذكر وليامسون أن جنكيز خان قد سيطر على هذه الجزيرة حينما أوفد إليها أحد قادة عسكره في عام ٧٣٢هـ، كذلك استولى عليها البرتغاليون في عام ٩٢١هـ/١٥٤٤م وأقاموا في المنامة حصناً لهم، ظلّ قائماً حتى أيامه. استولى بعدئذ على الجزيرة الشاه عباس أول ملوك الصفويين، وعيّن عليها حاكماً من قبله. ويذكّرنا وليامسون بأن الشاه عباس هو حفيد إسماعيل

الذي نشر بالقوّة المجردة المذهب الشيعي في إيران. ويصل بنا الحاج عبد الله إلى المرحلة الأخيرة من هذه الرواية التاريخية المختزلة، فيقول إن رؤساء عرب الأحساء طردوا في عام ١١١٠هـ الحاكم الإيراني وظلوا يحكمون البحرين حتى عام ١١٣٢هـ حتى انتزعها منهم نادر شاه، وظلت الجزيرة تحت حكم الفرس حتى استولى عليها في ١١٧٩هـ/١٧٧٩م الشيخ الخليفة. فقد كانت سلطة الفرس واهية على الجزيرة واسمية، فلم يكن لهم فيها حكام فرس ولا قوات عسكرية فارسية، ويخبرنا الحاج عبد الله بأن آل خليفة لا يزالون حكاماً للبحرين.

ينتقل وليامسون ليحدثنا عن الآثار في الجزيرة، التي تظهر في شكل سلسلة من التلال تبدأ من على بعد ستة أميال من أطراف بساتين النخيل في غرب المنامة، وتمتد حتى وسط الجزيرة. ويعتقد أن هذه التلال كانت مدافن للفينيقيين، ولكن الحفريات التي قام بها عالم الآثار ديورانت في العديد منها لم تسفر عن نتيجة محددة، و لم يعثر في هذه القبور التي بنيت من الأحجار الكبيرة بملاط كأنه الأسمنت على أيّ "موجودات". ويلاحظ وليامسون أن القبور كلها متطابقة تقوم على النسق ذاته في البناء، وهي ذات مدخل واحد يطلّ على الغرب.

يحدثنا الحاج الفاضل عبد الله وليامسون بعدئذ عن جزيرة سيري Siri، التي قصدها مع مجموعته من البحرين، وعن القرية القائمة في تلك الجزيرة وتحمل الاسم ذاته، ويعيش فيها زهاء ستين نسمة. وقال إن السكان الذين يعيشون على صيد الأسماك ويعمل بعضهم في الغوص قد أكرموا البعثة الزائرة بوليمة أعدّت لهم من لحم السلاحف، الطعام الذي يفضّله السكان عمّا سواه. ويضيف أن في الجزيرة بساتين تمور يفاخر بها أصحابها ويعدّونها تماثل في شهرتها بساتين البصرة وتعادل تمورها الشهيرة. وينتقل وليامسون مع فريقه الاستكشافي من الجيولوجيين إلى جزيرة بو موسى ثم إلى جزيرة قشم "جسم"، والأخيرة مثلها مثل سيري تفاخر بنخيلها. ويذكر أن في قشم تلّاً شاهقاً يرتفع عدّة مئات من الأقدام من الصخور الملحية المغطّاة بطبقة من الجص والتراب. وأفاد بأن أهالي قشم يحفرون في داخل هذا التل كهوفاً فيستخرجون الملح الذي يحملونه بعد ذلك على الإبل إلى الساحل تمهيداً لتصديره. كذلك يحدثنا بأن البعثة زارت أيضاً جزيرتي داس وبلبلول.

يقول وليامسون إنه رأى على ساحل الكويت عدداً من المراكب الموسوقة بالخضر المستوردة من البصرة، وأخرى تحمل جلود الأغنام التي أعدّت للتصدير. ويلاحظ أن تجارة الماء رائجة هناك، يقوم بها صبية يجلبون الماء من الآبار المختلفة في أوعية جلدية "قِرَب" يحملونها على ظهور الدواب ويتجوّلون بها يعرضونها للبيع، وأن الأهالي لا يشترون منهم الماء إلا بعد تذوّقه والتأكد من أنه سائغ شرابه.

ينتقل بنا وليامسون إلى الدوحة عاصمة قطر ومقرّ حاكمها عبد الله بن ثاني، ويقول إن سوقها عامر وهو في حركة لا تهدأ، ما أورثها رخاءً يبدو واضحاً. وقد "دهشت لمنظر مساكنها الجيدة

البناء". ويذكر أن ما وجده في الدوحة يتعارض مع ما قاله بالجريف عن أنها عاصمة بائسة لإقليم بائس. فالأمر مختلف تماماً، خاصة أن المواطنين يقولون إن الدوحة كانت في سابق أيامها أكثر رخاءً وازدهاراً عمّا هي عليه اليوم. ويذكر الحاج الفاضل أن البعثة حلّت في ضيافة مأمور "الكرمك" وهو عربي من أعيان لنجة، قرّبه الشيخ عبد الله وجعله مستشاراً له. ولهذا الرجل، كما يقول وليامسون، يعود فضل إدخال السيارات إلى المنطقة، وتمكّن من تعبيد طرق عدّة تبدأ من الدوحة وتتفرع لتصلها ببعض المدن الكبرى في شبه الجزيرة العربية.

سعت البعثة لمقابلة الشيخ عبد الله، ولكنه كان في مضاربه على بعد حوالى ثلاثين ميلاً من الدوحة. فهو في ما يبدو – كما يقول وليامسون – يقضي فصلي الشتاء والربيع "الباردين" مع عدد من أتباعه في البادية يمارسون القنص. خرجت البعثة لمقابلة الشيخ في البادية فوصلت إلى الريان الذي يقع على بعد اثني عشر ميلاً من الدوحة. ويصف هذا الرحالة منطقة الريان بأنها ذات ماء عذب ثمار وفير، فيها بساتين نخل ولوز خاصة بالشيخ. وتقوم على البئر القريبة الغور في الريان مضخّة هوائية، ولكن، مع ذلك، الريّ في البساتين يعتمد على الساقية التقليدية. ويحكي الحاج عبد الله فاضل الزبير أن الشيخ جاسم كان قد أمر بتدمير جميع بساتين قطر، لأنه عرف من البعض أن طواعين وأوبئة أخرى قد حلّت ببلاده جرّاء بعض المزروعات التي جُلبت من الهند، كذلك أصدر قانوناً قضى بعدم زراعة بساتين وإقامة حدائق جديدة. ويلاحظ وليامسون أن الشيخ عبد الله تخلّى عن تطبيق هذا القانون.

كان حمد، وهو ابن الحاكم الشيخ عبد الله، في استقبال البعثة في الريان ليرافقهم إلى معسكر والده، فالطريق إليه وعر ولا يمكن السيارات اجتياز مسالكه. ووصلت البعثة إلى مضارب الشيخ عند الظهر، فقصدوا خيمته للسلام عليه، ثم أووا إلى الخيمة التي أُعدّت لهم للاستجمام. وجاء خدم الشيخ بعد الغروب وهم يحملون الوجبة المسائية للضيوف. وكانت تلك الوجبة مكوّنة من عدّة أطباق، وضع في الطبق الرئيس خروف بكامله، وفي طبق آخر أكداس من الأرز ينوء ثمانية من الخدم الأشداء بحمله. وكانت الجماعة تترقّب وصول هذه المائدة، الذي بات قريباً، فجلسوا على حصير من سعف النخيل كان قد أُعدّ لأولئك الجياع الذين كانوا يُمنّون أنفسهم بوجبة شهية. تعثّر أحد الخدم بطنب الخيمة وتبعه آخرون فانقلبت الأطباق رأساً على عقب واختلط الأكل بالرمال. وأسرع الخدم يجمعون الطعام المختلط بالرمل وحملوه إلى المجموعة التي لم تتمكن من أن تشبع نهمها إلا من بعض أطباق غير رئيسة. واعتذر أحد الرجال بعدئذ عن تصرّف الخدم بهذا الأسلوب، وخشي أن يسمع الشيخ بذلك فيعاقب خدمه على تقديم الأكل لضيوفه ملوّثاً برمال الصحراء. وبالطبع فقد عرف الشيخ لاحقاً بما جرى واعتذر لضيوفه عن تقديم الخدم لهم طعاماً ملوّثاً، ولكنّ وليامسون عمل على حماية الخدم من عقاب الشيخ، فاعتذر عنهم بأنه والمجموعة كانوا يحسّون عضّة الجوع فطلبوا من الخدم أن يمدّوهم بهذا

الطعام المختلط بالرمل بدلاً من أن ينتظروا إعداد وجبة أخرى. ولربما يتضح لنا من هذه القصة وغيرها ممّا سنورده أن الحاج وليامسون كان يمتاز بخفة الظل، فلقد استغرقت منه رواية هذه القصة ما لم تستغرقه أخبار مقابلة البعثة للشيخ أو سير المفاوضات معه، فقد سكت عن كل ذلك تماماً، ولعله لم يرد الإشارة إليه.

ركبت البعثة البحر من الدوحة إلى الشارقة في الساحل المهادن، وذلك بغية أن ينضم إليهم الوكيل المحلي السيد خان صاحب عيسى من مقرّه هناك ليصحبهم إلى رؤوس الجبال "التي تظهر في الخريطة باسم رأس مسندم، والتي تقع في أقصى الشمال من سلطنة مسقط". ويحدثنا الحاج عبد الله بعدئذ عن رأس الخيمة، وراعه هناك أن رأى السيارة الوحيدة في الساحل المهادن وهي "ماركة ديزي" لها ثلاثة دواليب مطاطية سليمة، أما الدولاب الرابع فقد كُسي مكانه بحبل غليظ ملفوف بإحكام طبقة فوق أخرى ليقوم مقام الإطار المطاطي. والحقيقة، مهما كانت الحال، فإن ركوب هذه السيارة – كما يقول مالكها – أميز من ركوب الجمل الجموح.

يحدثنا وليامسون عن بساتين رأس الخيمة، التي تقع على بعد بضعة أميال من الساحل، ويضيف أن البلدة مشهورة بطيب هوائها، وأنها أبرد الأماكن التي يمكن أهالي الساحل المهادن أن يلجؤوا إليها من هجير الصيف، تقصدها النساء والولدان، فيما يمّم الرجال السواحل لركوب البحر والعمل في الغوص في هذه الفترة من السنة.

يسترسل الحاج عبد الله فيذكر خصب وأماكن أخرى في رأس مسندم، حيث لم تلاحظ البعثة وجود ترسبات جيولوجية تثير اهتمامهم. ويذكر أن ساحل مسندم الصخري تكتنفه العديد من الخلجان الصغيرة والشروم التي كانت تهيّئ "للقراصنة" ملآذات آمنة يهرعون إليها بمراكبهم فتحميهم من عيون مطارديهم، ومن ثمّ – كما يقول – سمّي الساحل بساحل القراصنة. ويذكر أن البعثة كانت تريد الوصول إلى كلبا وزيارة المناطق المتاخمة لها، ولكنهم عرفوا أن أهالي المنطقة "معادون" لهم، ففضّلوا عدم الذهاب وعادوا أدراجهم إلى خصب وركبوا منها إلى مسقط بعد ذلك.

تُعدّ مسقط، عاصمة سلطنة عمان، الأشد حرّاً في كل مناطق الخليج. ومن طريف ما يُروى أن بريطانياً مات هناك، وحين كان أصدقاؤه يعدّونه للدفن، قدم لهم أحد العمال دثاراً (بطانية) ليلفّوه بها لأن هذ المسكين حين يُلقى به في جهنم سيُعاني فيها من شدّة البرد، ذلك لأنه أتاها من مسقط! ولعل الحاج عبد الله يضيف لنا بهذا طرفة إلى الطرائف الأخرى التي سبق لبعض الرحالة أن تندّر بها على جوّ مسقط الحار. فمن قائل إن الطير إذا وفدت إلى مسقط تسقط على الأرض مشوية، ومن قائل إن أهل مسقط يستخرجون السمك من بحرهم مسلوقاً فلا حاجة لهم إلى طهوه.

يرى وليامسون أن ميناء مسقط – وإن كان صغيراً – يُعدّ من أميز الموانئ الطبيعية في العالم،

ثم يشرع في وصف مسقط التي هي مدينة مسوّرة لها بوابتان كبيرتان ويحيط بها من ناحية اليابسة خندق. أما من ناحية البحر فيطلّ عليها حصنان كبيران يذودان عن الميناء، يدعمهما عدد من الأبراج الصغيرة أقيمت على مسافات بعضها من بعض، ولكن نتيجة للضعف الذي حلّ بالسلطنة في السنوات الأخيرة، فقد أهملت تلك الأبراج فأناخ عليها البلى بكلكله فتهدّمت.

يسرد وليامسون جانباً من تاريخ السلطنة فيقول: إن فيصل، السلطان السابق والد تيمور، الذي جرت زيارة هذا الفريق الاستكشافي في عهده، كان يعتمد في قواته الرئيسة على عشائر عقيل. ويصف عقيل بأنهم جنود مرتزقة تعود أصولهم إلى عدد من المدن في وسط الجزيرة العربية وإلى القصيم وشمّر. ويضيف أن عقيل قد اشتهروا بالأمانة وبالإخلاص لمن يستأجرهم، حرساً أو أدلّاء للقوافل. ويقول وليامسون إن السلطان تيمور سرّح العقيل واستعاض عنهم بقوات الليفي، وهي القوّة العسكرية الخاصة بعمان، التي تضمّ عدداً من البلوش ومن الجند العمانيين كذلك، وجعل تيمور قيادة هؤلاء جميعهم في نفر من الضباط البريطانيين والهنود المُعارين من الحكومة البريطانية. وينتهي وليامسون إلى تلخيص طبيعة أرض مسقط ووصف مينائها المحاط بتلال من صخور سوداء يصل ارتفاعها إلى حوالى أربعمئة قدم، ويفيد بأن الرحالة جاك تار (؟) قد نقش اسمه وأسماء بحارته على تلك الصخور، وأن جاك وصف مسقط بأنها نهاية العالم المعمور.

تابع الحاج عبد الله وليامسون وصف المدن العمانية فحدثنا عن سيداب، القرية الجميلة التي لا يفصلها عن مسقط أكثر من ستة أميال. أما مطرح فيصفها بأنها مدينة تجار، وأنها أقرب المدن إلى مسقط العاصمة وترتبط معها بطريق قوافل يمرّ عبر صخور صلدة، ثم يعود ليصف هذا الطريق البري بغير النشط، فالنقل بين المدينتين عادة ما يحصل بحراً.

أما بيت الفلج، حيث استقرّت قوات ليفي عمان في معسكر هناك، فهي نقطة تتفرع منها عدّة مسارات إلى الجبل الأخضر، وإلى الباطنة التي هي منطقة خط الساحل الذي يقع إلى الشمال الغربي من مسقط. أما المنطقة التي تقع إلى الجنوب الغربي من مسقط فيطلق عليها الظاهرة.

يعود الحاج عبد الله ليحدثنا عن سلسلة رؤوس الجبال التي استكشفتها بعثتهم في ربيع الأول ١٣٤٤/أكتوبر من عام ١٩٢٥ بعد انتهاء زيارتهم لبيت الفلج، فيقول إن تلك الجبال تفصل بين ساحل الباطنة وريف الظاهرة وصولاً إلى أطراف الربع الخالي الذي يسمّيه وليامسون المنطقة التي لم تُستكشف بعد. لعلنا نلاحظ أن وليامسون كان قد كتب هذه الملاحظة قبل أن يقوم بترام طوماس وفلبي برحلاتهما - كل على حدة - عبر الربع الخالي، وأيضاً من تبعهما بعد ذلك من أمثال شسجر وغيره.

يقول وليامسون إنهم قد حصلوا على خطابات أعدّها مجلس وزراء مسقط لشيوخ القبائل في داخل عمان من الذين كان على البعثة أن تعبر ديارهم، فقد كان ذلك المجلس

> يظن أن تلك القبائل ما زالت خاضعة له وتصيخ لأوامره... لكن ما لبثنا أن تبيّنّا عدم جدوى هذه الرسائل، فاستعنّا على الشيوخ ورؤساء العشائر في المناطق التي اجتزناها بالهدايا التي كنت أتولى توزيعها بنفسي بقدر كبير من الحرص، خاصة أني كنت أقول للشيوخ المرافقين لنا إن النقود التي ندفعها لهم والتي ننفقها على إطعام أتباعهم ليست في مقابل أننا نقوم باستئجارهم، ولكنها منّا على سبيل الهدية.

زارت البعثة الخابورة والسيب وبركا والسويق وينخل. ويحدثنا وليامسون عن يافع في الرابعة عشرة من عمره، ابن والي بركا من أم زنجية، كان يتولى تصريف شؤون المنطقة تحت رعاية والده. وقد أولم هذا الفتى للبعثة وأقام مأدبة في القلعة في غرفة واسعة كانت معدّة أساساً لاستقبال الضيوف. وينتقل وليامسون بعد ذلك إلى ظفار التي يقول إنّها أوفير التاريخية الشهيرة بثرائها بالذهب على عهد سليمان – عليه السلام – وبأشجار الأترج كذلك. وبخفّة دمه الملحوظة يقول وليامسون إنهم لم يجدوا هناك ذهباً، إذ "يبدو أن سليمان قد استولى عليه كله وذهب به". ويضيف أن الأشجار المنتجة للصمغ لا تزال موجودة لم يستنزفها سليمان. ويدّعي وليامسون أن بدو المنطقة كانوا يراجعونه لاستشارته في علاج بعض أمراض إبلهم، ويدّعي أنه كثيراً ما كان يصف لهم العلاج الشافي بعد تحديد الداء. وقد أدهش هذا الأمر أفراد البعثة الآخرين، ولكنه أجابهم بأنه قد اكتسب هذا الفن "من خبرة السنين الطوال". وقد يدهشنا منه هذا القول أيضاً، فخبرة البدو الذين ادّعى أنهم يستشيرونه هي، من المؤكد، خبرة طويلة موروثة تمتد زمنياً إلى ما شاء الله، ولكن يبدو لنا أن شقوته الأوروبية في التفوّق قد غلبت عليه في هذه المناسبة. ويقارن وليامسون بين إبل عمان وإبل شمال الجزيرة العربية والعراق، فيرى إبل عمان ضعيفة لا تقوى على حمل الأثقال، ويستنتج من ثمّ أن بدو عمان لا يقدرون بدورهم على أعمال النقل.

يحدثنا وليامسون بعد ذلك عند وصوله إلى مشارف ديار البني علي، بعد أن اجتاز ديار العوامر، فيقول إن شيخ قبيلة البني علي كان يستعدّ لقتال شيخ الجبل الأخضر. ويرى أنه وأفراد بعثته قد وجدوا من هذه القبيلة استقبالاً طيباً. ولاحظ أن صوت الشيخ كان مجهداً كمن يعاني زكاماً، فاستفسره الحاج عبد الله عن ذلك، فأجاب بأن صوته قد ذهب لأنه اضطر إلى رفعه عالياً وهو يخاطب رجال قبيلته في شأن ثلاثة من أقاربه تآمروا عليه لاغتياله والظفر بالزعامة في القبيلة دونه، ولكنه كبتهم وتمكن منهم وزجّ بهم في السجن. فاستفسر وليامسون مرّة أخرى عمّا إذا كان سيطلق سراحهم، فأجابه الشيخ بأن قطع الرؤوس يحول دون تجدد النزاع!

لم يذكر وليامسون الكثير عن أبو ظبي، فقد تحدث عن عدم الاستقرار الذي عاشته الإمارة، وكتب في الاضطرابات الواقعة عند تولّي الشيخ صقر الذي دبر اغتيال أخيه سلطان وأشرف

عليه بنفسه، ثم اعتلى سدّة الحكم بعده. وأضاف أن صقر لم يعمّر في الحكم إلا لعام واحد فقط، لاقى بعده المصير ذاته على أيدي الرجال ذاتهم الذين كان صقر قد استخدمهم لقتل أخيه، لتدخل الإمارة - كما يقول - في اضطرابات أخرى انتهت بوصول الشيخ شخبوط إلى سدة الحكم. ولنا أن نستعين في نقد حديث وليامسون بما ذكره محمد محمود بهرزاد، وهو بحراني كان يتعاطى مهنة الطب في البحرين وقطر وساحل عمان. يقول بهرزاد إن الشيخ خلف بن عبد الله العتيبة، وهو شيخ مسن في حوالى الخامسة والتسعين، وفد إلى دبي لمقابلته هناك ودعوته للذهاب معه إلى أبو ظبي لعلاج أحد أبنائه. واستجاب له بهرزاد، ولكنه خرج إلى البحرين أولاً لجلب بعض الأدوية اللازمة ليلحق من ثمّ بالعتيبة في أبو ظبي، في أول ذي الحجة ١٣٤٤. وأقام بهرزاد في أبو ظبي خمسة أشهر، وكان أبرز ما ذكره عنها في كتابه: **ديوان الوجهة الذهبية** (مكتبة مصر، د.ت.، ص ٤٨-٤٩) مقتل الشيخ سلطان بن زايد على يد أخيه صقر في ليلة الثلاثاء ٢٣ المحرم ١٣٤٥/٢ أغسطس ١٩٢٦. واستدعي الطبيب في يوم الأربعاء لعلاج خالد بن سلطان الذي أصيب في ذلك الحادث

> وفيه من الجروح ثلاثة جروح، واحد في البطن جانب الأيسر، والثاني وراء الكتف جانب الأيسر، والثالث على الظهر وسط الظهر. ورمي من أعلى السطح إلى أسفل البيت والذي ضربه أحد البوفلاح علي بن محمد بن جافور وطامي وعاطف وهم من بدو عقيبة ؟ (عتيبة) وأقاموا عند الحاكم الشيخ صقر بن زايد وهم من أعوانه علي بن جافور وطامي وعاطف إلى أن قتل الشيخ صقر وعلي بن جافور معه في ١٣٤٥ في ٦ رجب ولزم الحكم سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوم وقتل بعده وقتل بن جافور معه والآخرين البدو شردوا من البلاد وراحوا وبعده الشيخ خليفة بن زايد الحاكم بعدهم وله ابن محمد وأرسل عليهم على شخبوط وهزاع وخالد وزايد أبناء أخيه سلطان الذي قتله صقر وقال لهم تعالوا لأوامر محل أبوكم وأنا يا خليفة لا أبقي (أبغي) الحكم هو لكم وهو من ذاك الوقت وهم شيوخ من سنة ١٣٤٦ بو ضبي وتوابعه إلى هذا الوقت عسى الله أن يديمهم ويبقيهم لبلادهم.

ويستطرد بهرزاد فيقول:

> أما من طرف الشيخ خالد فأنا عالجته علاج الروح والبدن إلى خالد للمعالجة أسبوع. قال الشيخ صقر الحاكم عم خالد يا محمد إيش صار خالد جروحه قال

له الدكتور محمد جروحه طيبة قال الشيخ صقر أنت الحين وقف عنه قليل إلى أن نشوف عنه بعدين نخبرك قال له محمد الدكتور إذا عندك أمر عن عدم المعالجة له اخبرني الولد ولدك ليس ولدي إن أردت أن تمنع من المعالجة أخبرني وراح منه بعد أسبوعين للمريض من المعالجة الدكتور أخبر الشيخ صقر أنت تخلي واحد في قصرك ولا لك أمان منه لأنه شيخ ويجمع عليه بعض يتقوى بهم عليك وهذا ليس يطيب لك الأحسن أن نخرجه من القصر إلى خارج القصر فهو أحسن لك. وإني أحببت أن يخرجه من القصر لأجل أن يصد عن وجهه ولا يراه كل وقت يجي ويمر عليه وكل وقت له نظر فيه. ولما تم خمسة وثلاثون يوماً للمعالجة قال الدكتور بهرزاد لي الشيخ صقر الولد تخليه في البلاد فهو ليس في صالحك أن يبقى هنا فلازم أن ترسله إلى أهله ولا لك حاجة به أن يبقى في البلاد فهو أحسن لك ثم جهزناه بمطية وخنجره و لم يدفعها له. وقال له الخنجر له ولا لك حق به وتعطيه مبلغ من الدراهم. وقال كم نعطيه قلت أعطه ثلاثمائة روبية يستعين بها على حياته وأعطاه المطية والخنجر والدراهم البالغ عدده ٣٠٠ روبية وراح إلى أهله وهم في عمان ذاك الوقت.... .

وفي الحقيقة، إن الانقلابات العنيفة كانت السمة البارزة في تبادل السلطة بين شيوخ النهيان، خاصة بعد عهد الشيخ زايد بن خليفة الطويل وتكالب أبنائه على السلطة وتقاتلهم عليها لم يبرأ منهم إلا خليفة الذي كان زاهداً فيها منذ البداية. فقد كان وريث والده فيها، ثم حين آلت إليه بعد مقتل أخيه صقر الذي تولى قتله بعضٍ أعوان خليفة سلّمها إلى شخبوط، ابن أخيه، الذي كان له من قوة الشخصية والشكيمة ما مكنه من إعادة هيبة الحكم إلى المشيخة التي شغلها ما يزيد على ربع قرن قبل أن ينتزعها منه أخوه زايد بن سلطان.

يلاحظ أن وليامسون لم يهتم كثيراً بالكتابة عن إقليم الأحساء، الذي أشار إليه باقتضاب. وقد يعود السبب في ذلك إلى أن هذه المنطقة كانت قد انفلتت منذ عام ١٩٣٣م من قبضة الاستثمارات البريطانية التي يمثّلها وليامسون ووقعت في يد الاستثمارات الأمريكية. ورغم أن العديد من الملاحظات التي ذكرها وليامسون، وأشرنا إليها هنا، تعود إلى رحلته في عام ١٩٢٥م التي قام بها مع مجموعة من رفاقه العاملين بالاستكشاف والحفر الذين أشرنا إليهم سابقاً، إلا أن *عدداً من المعلومات المهمة التي سجلها وليامسون تعود إلى فترة لاحقة، ما يدل على أنه كتب هذه المذكرات بعد عام ١٩٣٦م.*

لاحظ الحاج عبد الله الفاضل أن العقير هي المعبر الرئيس لتجارة نجد والقصيم عبر

الأحساء، ومع ذلك فلا توجد فيها مدينة ولا قرية. فهي تضم إضافة إلى مبنى دائرة الجمارك خاناً كبيراً لإيواء المسافرين يقع في قبالته حانوتان لبيع المواد الرئيسة التي يحتاج إليها العـابرون، كذلك أشار إلى وجود حصن قديم لا يزال قائماً. أما الأحساء، فيذكر هذا الرحالة أنها واحة طولها حوالى ثلاثين ميلاً، أما عرضها فلا يتعدّى أحد عشر ميلاً. وهي غنية ببساتين النخيل والفاكهة. وقد اشتهرت بأنها تنتج أفخر أنواع التمور "التي على رأسها الخلاص التي يقال إنها أجود تمور العالم قاطبة". ويشير إلى أن هذه المنطقة باتت تعبّئ الخلاص في أكياس وتصدّره إلى أوروبا. وأشار أيضاً إلى أن مزارع الأحساء تنتج أرزّاً فاخراً كذلك، لكنه رغم جودته العالية، لا يضاهي الأرز الهندي. ويقول وليامسون إنه قطع الطريق من الساحل حتى الهفوف، عاصمة الأحساء، والذي يبلغ طوله تسعين ميلاً عبر صحراء النفود في اثنتي عشرة ساعة. ويضيف أن الهفوف العاصمة هي مدينة داخـــل مدينة. فالمدينة الرئيسة، وهي الكوت التي تقوم في قلب مدينة الهفوف القديمة، أصبحت مفصولة عنها بسور بناه الأتراك في فترة "احتلالهم" لعزلها عن محيطها، واستقرّ الأتراك في الكوت، حيث أقاموا مباني الدوائر الحكومية ومنازل الموظفين. ويشير وليامسون إلى أن ابن جلوي "أمير إقليمي الأحساء والقطيف وابن عم سلطان شبه الجزيرة العربية"، كان هو الذي يحتل هذا الكوت في فترة زيارة الحاج عبد الله. و لم يعجب وليامسون بالقطيف رغم أنها مدينة مثلها مثل الأحساء ذات مياه وفيرة، فهي تُسقى من عيون عديدة يدرّ بعضها ماءً حاراً، ولكنّ جوّها راكد رطب.

لم يعمد وليامسون إلى نشر أوراقه أو تسجيل تاريخ حياته، وقد يعود ذلك إلى أن الرجل قد عاش منذ بواكير حياته الرحلة والترحال، وألف حياة التشرد والصعلكة، ثم أسلم وحسُن إسلامه، فعمد إلى دفن أوزار ماضيه. كذلك لم يهتم المؤرخون الغربيون الذين أرّخوا للرحلات في شبه الجزيرة العربية بالحاج عبد الله وليامسون، و لم يكتب عنه غير واحد منهم، مجّده وكال له الثناء، لأنه "عاش وسط العرب وتحمّل مشقّة ذلك، وبذل من تفوّق عنصره ما جعله معلماً ومرشداً لهم حتى في أمور الدين". ولعل الكاتب قصد بذلك الإساءة إلى العرب من دون تمجيد هذا الرجل الذي يستحق الذكر الطيب، إذ هداه الله للحقّ بعد طول تفلّت، غفر الله لنا وله. أما المؤرّخون الغربيون الآخرون، فقد يعود تجاهلهم لسيرة هذا الرجل إلى أنه قد استبدل بوطنه وطناً آخر وبدينه ديناً آخر. والاعتقاد السائد لدى أكثرهم هو تفوّق العنصر الغربي الذي نبذه وليامسون واستبدل – كما يعتقدون – الذي هو أدنى بالذي هو خير، وذلك على الرغم من أن وليامسون قد أدى – كما تقتضي وظيفته – للإمبراطورية البريطانية خدمات جلّى بالكشف عن سلوكيات أهل المنطقة واتجاهاتهم في ما يخصّ الاستثمارات البترولية.

بترام طوماس

وُلد طوماس سيدني بترام في بل بالقرب من برستول في ١٧ ذي القعدة ١٣٠٩/١٣ يونيو ١٨٩٢، وتخرج في كلية الثالوث في كمبردج، وتقلّب بعد تخرّجه في بعض الوظائف المدنية والعسكرية قبل أن يتولى بعض الوظائف السياسية في العراق وشرق الأردن في الفترة بين عامي ١٩١٨-١٩٢٣م. واختير في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م وزيراً لمالية سلطان مسقط وعمان، وشغل هذا المنصب حتى عام ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م. وكان في هذه الفترة كثير التجوال في عمان للتعرّف إلى مصدر الثروة فيها وامتحان ولاء قبائلها للسلطان، والتعرّف إلى تقاليدهم ولهجاتهم، وله في هذا المجال بحث في لهجة الشحوح التي ترجم بعض مفرداتها، كذلك عمل على استكشاف طوبوغرافية عمان، جبالها وسهولها وصحراواتها، وله في هذا المجال كتاب: **مخاطر الاستكشاف في شبة الجزيرة العربية**. وعكف طوماس على البحث أيضاً في تراث عمان وآدابها، ودرس الأدب العربي الرائج في عمان، وله في هذا المجال ترجمة لبعض مقامات الحريري، وله أيضاً عدد من الروايات التي وردت في كتابه: **العربية السعيدة**. أما أبرز منجزاته فتتمثل في أنه الأوروبي الأول الذي قطع الربع الخالي، أو صحراء الأحقاف، وقد صدر له في هذا الشأن كتاب: **الربع الخالي**. وقد هلك طوماس في البيت الذي ولد فيه في بل في ١٧ ربيع الأول ١٣٧٠/٢٧ ديسمبر ١٩٥٠.

تطلّع طوماس بشغف في الفترة التي عمل فيها وزيراً أو مستشاراً في حكومة مسقط إلى أن يكون أول أوروبي يقطع الربع الخالي. يقول ديكسون إن طوماس كان في زيارة له في مقر عمله في الكويت، ففاتحه برغبته في القيام برحلة لاستكشاف الربع الخالي، فانتفض طوماس حتى سقط قلمه من يده، وقال إنه يتمنى أن يكون الأول في هذا المضمار ليعيش ما بقي من عمره على صدى ذكريات هذه الرحلة.

تحقق لطوماس ما يصبو إليه، فقد قام بهذه الرحلة في رفقة أحد شيوخ الرواشد وجماعته في ١٠ ديسمبر ١٩٣٠، وتمكن من إنجاز المهمة في ٢ شوال/٢٠ فبراير ١٩٣١. ويظل ما سجّله طوماس عن أعراف البادية وتقاليدها وأعرافها خلال هذه الرحلة عبر صحراء الربع الخالي "ذلك الفراغ الهائل حيث يتربّص الموت بكل من يضل فيه" مصدراً للعديد من الباحثين الذين يعملون في الدراسات الأنثروبولوجية بعد نقد كتاباته وتمحيصها. كذلك يظل ما كتبه هذا الرجل من أساطير وخرافات وروايات وأحاج مصدراً مهماً لذاكرة بعض العشائر والقبائل والجماعات العمانية. ويُعدّ كتابه – في تقديرنا – من أهم ما كتبه رحالة في مجال التراث الحكائي في المنطقة، فهو يتفوّق كمّاً وموضوعاً على النزر القليل الذي أورده فلبي في هذا الصدد، وعلى النتف غير المترابطة الواردة عند ثسجر. ولا ندري لماذا حمل هذا الأخير على طوماس حين قال إنه كان

قد قرأ له كتاب **العربية السعيدة** خلال فترة الدراسة في أكسفورد واتضح له أن طوماس ليس على شيء، وأن الكتاب المذكور ما كان له أن يكون أسوأ ممّا هو عليه. ومن المفارقات الطريفة أن يذكر ثسجر حين جاء لاحقاً لعبور الربع الخالي أنه وجد تقديراً لشخصه من أهالي المنطقة لأنه – كما يقول – ينتمي إلى القبيلة ذاتها التي كان طوماس من أبنائها. ويذهب ثسجر الذي هو الثالث في قائمة الإنجليز الذين عبروا الربع الخالي في المفاضلة بين بترام طوماس وفلبي الذي كان الإنجليزي الثاني الذي قطع هذه الصحراء فيقول إن طوماس يختلف تماماً عن فلبي، فالأخير في تقديره مستعرب حقيقي، و لم يكن لطوماس في مجال الاستعراب شيئاً. ويضيف أن فلبي كان مسلماً تمكّن من أن يتعرّب لمعايشته القوم لفترة طويلة، بينما كان طوماس أحد منسوبي مدرسة الإدارة الاستعمارية في الهند بعيداً عن العرب بتوجهاته وبمشاعره، وكان يترفّع عن مخالطتهم، فعزل نفسه عنهم "فشحنه" مرافقوه من العرب عبر الربع الخالي شأن أيّ سلعة، فالرجل لم يكن فاعلاً ولا منفعلاً. ميّز طوماس نفسه عن رفاقه – كما يقول ثسجر – بأن وضع على راحلته سرجاً هندياً كان أثقل على الدابة من السروج المحلية، كما كان يتّخذ لنفسه عند النوم مكاناً قصيّاً عن رفاقه، من دون أن يدرك أن أولئك الرفاق "كانوا يفضلونه في كثير من الأمور". ويرى ثسجر أن ما كتبه طوماس عن رحلته في الربع الخالي في كتابه: **العربية السعيدة** ليس بشيء، فهو لا يثير الانتباه ولا يستثير التفكير. أما فلبي فيعدّه ثسجر كاتباً بليد الأسلوب، ولكن،

> على القارئ أن يأخذ ما جاء عنده مأخذ الجد، فكل فقرة في ما أورده تخاطب العقل وتستدعي التأمل... لن تستطيع أن تقرأ ما كتبه فلبي ما لم تقسر نفسك على ذلك قسراً، ولكنك سترجع من ذلك بنفع عميم، أما ما ورد في كتابي طوماس: **العربية السعيدة ومخاطر الاستكشاف** فلا يحرّك في النفس ساكناً، ولا يعود على الفكر بفائدة.

ولا ندري لماذا كان ثسجر يحمل بهذا النحو على طوماس.

اختلف خط سير هذين الرجلين، طوماس وفلبي، عبر الربع الخالي، فقد شقّ الأول طريقه عبر قلبها منطلقاً من صلالة في عمان، وقطع حوالى تسعمئة ميل في غضون شهرين لينتهي إلى قطر، فيما انطلق الثاني بعده من الأحساء وجاب طرقاً وعرة عبر تلك الصحراء واستدار عبر مجاهل مسالكها حتى انتهى إلى السليل في الغرب. وفي هذا الصدد يقول ثسجر:

"إذا أراد رجل أن يتسلق جبلاً لم يسبقه إلى تسلّقه أحد، فمن الطبيعي أن ينظر في أسهل الطرق التي تقود إلى القمة، ولكن من يحاول ذلك بعده فسينظر في سبل مختلفة لبلوغ تلك الغاية".

وعلى النقيض من ثسجر الذي قطع الربع الخالي بعد ذلك مرتين، يبدي المسمّى لورنس العرب إعجاباً كبيراً بطوماس "الذي انتزع من الآلة نصر الدقيقة الأخيرة". ويعني بذلك أن الرجل كان آخر من امتطى الإبل في فترة كان الأجدر بالآلة أن تحمل من يقوم بمثل هذه المهمة، وخاصة أن لورنس نفسه كان قد قال في عام ١٩٢٩م إن استكشاف الربع الخالي قد يجري عن طريق الطيران، و لم تصدق نبوءته - على أيّ حال - فقد قطع طوماس المنطقة على أكوار الإبل وتبعه على المنوال ذاته فلبي ثم ثسجر.

كان طوماس هو الأوروبي الأول الذي كشف الكثير ممّا غمض على الأوروبيين في الربع الخالي. فإذا استثنينا المادة الطوبوغرافية التي كانت تمثّل هاجساً كبيراً لأولئك الرحالة وتجاوزناها إلى الحياة الحيوانية والنباتية في تلك الصحراء، نجد أنه كان أوّلهم كشفاً عن أن الربع الخالي ليس خلواً من النبات والحيوان والحشرات إلا في أعماقه حين تتوالى على تلك الأعماق فترات من الجفاف. ولاحظ أن حيوان الربع الخالي يتميّز بجسم ضئيل، فالثعلب فيها - على سبيل المثال - الذي يحاكي أديم جلده لون الرمال، لا يتجاوز حجمه حجم الهر. وقدّم طوماس وصفاً لذئب الصحراء الرمادي اللون، وأفاد عن وجود الأرانب والجرذان، وكذلك السحالي التي يباري بعضها بعضاً في فنون الركض برؤوسها المرفوعة إلى أعلى وقد تيبّست حركتها حتى لتكاد تحسب تلك الرؤوس كأنها نحتت من جلاميد، فيما راحت عقارب الصحراء ترفع أذنابها إلى الأعلى فبدت كأنها تهدّد العالم بأسره. وأشار طوماس إلى وجود الغربان والطيور الأخرى من آكلات الجيف في تلك الصحراء.

حكى طوماس عن الكثبان الطروب التي تخالها تغني وتصدر أحياناً أصواتاً كأنها صفارات السفن التي تنطلق فجأة ثم ما تلبث أن تخمد فجأة أيضاً. وكان فلبي الذي انطلق في إثر طوماس أول من قدّم تفسيراً علمياً لظاهرة الإيقاعات المثيرة التي تبدو للمسافر عبر الصحراء للوهلة الأولى كأنها صفير باخرة أو أزيز طائرة. وقال فلبي إنها ناتجة من الحفيف الذي يتنامى هادراً مع ازدياد انهيار الرمال من أعالي الكثبان إلى سفوحها، تنهار في البداية طبقة رخوة تتدرّج بسرعة على الطبقات الأدنى منها فتتبعها وتتزايد سرعتها كما يتزايد حجمها في هذا التدافع، فتصدر الكتلة المتدحرجة صوتاً كالصفير ما يلبث أن ينقطع فجأة حين تملأ طبقات الرمال المنهارة فجوة ما أسفل الكثيب وتستقرّ فيها. وقد اعتمد ثسجر بعد ذلك هذا التفسير المنطقي.

يسترعي انتباهنا في كتاب طوماس وصفه الأدبي المشوّق لطوبوغرافية هذ الصحراء حيث

> يعتري المرء في بعض اللحظات الشعور بأنه أمام لوحة فنية لا تُضاهى فخامة وجلالاً، لوحة أبدع خطوطها فنان قدير تعكس سديماً وردياً بالغ العمق شديد الصفاء، تحت سماء تعرّت من الغيوم لتشعّ ضوءاً ساطعاً بهيجاً، فينتاب المرء شعور

كذلك الشعور الذي يتملّكه في شتاء سويسرا حيث تتحدى تجليات الطبيعة هناك أعظم الرسامين. . . .

ويستطرد طوماس في الحديث عن

هذا البحر الهائل المتلاطم الذي يموج بالكثبان الرملية التي يعتلي كلّ منها الآخر ثم ما تلبث أن تبرز أمامك فجأة جبلاً شاهقاً يطلّ عليك من عليائه كالشيطان الكئيب، ثم ما يلبث هذا بدوره أن يختفي ليفسح المجال من ورائه مُتّسعاً لوادٍ منبسط يمكن أن تسير فيه أياماً متتالية من دون أن تلوح لناظريك نبتة خضراء. وتبصر هنا وهناك الكثبان الرملية المتناثرة في غير انتظام ، مختلفة الأحجام، مؤتلفة الأشكال، تكاد في استدارتها تحاكي نهود العذارى. تمتد هذه الكثبان حزاماً بعد حزام حتى لتبدو للنظر كأنها سلاسل متتابعة من الجبال، وحين تتعامد الشمس عليها لا تكاد تجد لها ظلاً مرسوماً على صفحة تلك الرمال. . . .

أفاض بترام في حديثه عن الإبل وعن العادات والتقاليد والمعتقدات المرتبطة بها في مجتمع البادية العماني. يقول إنّ البدويات يستعملن بول الإبل لغسل الشعر، لاعتقادهن بأنه يبيد القمل. ويرى أن البدو يعالجون أوجاع المعدة بتجرّع هذا البول أو بتناول لعاب الناقة الذي يستخرجونه بإدخال مهماز إلى بلعومها فتطرش، ويقال إن هذا السائل يطفئ حدّة الظمأ لدى البدوي. ويضيف طوماس أن بعض مرافقيه من البدو عبر الربع الخالي نحروا ناقة ثم أحدثوا في مثانتها عدّة ثقوب تقطّر منها سائل أصفر اللون ذاقه واحد منهم وادّعى أنه لذيذ الطعم، فتناوب الآخرون على شربه. وعبّر بعضهم لطوماس عن أنهم يستسيغون شراب هذا السائل أكثر ممّا يستسيغون شرب مياه الآبار المرّة في المناطق الرملية. ويشيد طوماس بعرف البادية الذي يحتّم على البدوي المسافر مع جماعة، إذا بلغ قبلهم إلى مصدر ماء، فلا يجوز له أن يهدي حلقه قطرة ماء واحدة منه حتى لو أضناه العطش ليوم كامل ما لم يصل إلى مصدر الماء آخر رفيق من رفاقه في ذلك الركب، كما لا يجوز أن يتناول الرجل كسرة من الخبز ما لم يكن رفاقه حاضرين لمقاسمته إياها. ويرى طوماس أن هذا النوع من شظف العيش عادة ما يولّد القسوة في النفوس، ولكنه ينمّي فيها – في الوقت ذاته – روح صداقة شفيفة. ويضيف بترام أنه قرأ كتاباً يفيض بالحكم العمانية ويذكر عدداً منها.

كان طوماس كثير الاختلاط بشيوخ القبائل – على خلاف ما رواه عنه ثسجر – فكان ينقل أخبارهم للسلطان سعيد بن تيمور، ويوجّه اهتمام الإدارة البريطانية في الخليج إلى ما يدور

في تلك المناطق. ساح الرجل في الباطنة والظاهرة والشميلية وشبه جزيرة مسندم، وعاد من رحلاته بذخيرة كبيرة من المعرفة التي لا يفسدها إلا إعجاب طوماس الكبير باليهود، فتراه لا يفتر عن ذكرهم والزجّ بهم في ما يكتب، في مناسبة وفي غير مناسبة، رغم أن أثرهم في عمان التي يكتب عنها لم يكن ملموساً.

يحكي عمّا رواه له شيخ المقابيل من أن الأفلاج من صناعة الجنّ بأمر سليمان بن داؤد عليه السلام الذي أتى عمان في موكب حملته أجنحة الرياح. وفيما يفيد بعدم موالاة القبائل في الظهير العماني للإنجليز، يحدّثنا طوماس عن حمدان، شيخ الشوامش، الذي اعترضه في البريمي ليمنع عبوره إلى مسقط. وكان لطوماس أيضاً اهتمام خاص بالشحوح الذين كتب في رحلته إلى مناطقهم عن أصولهم وعاداتهم وتقاليدهم، مازجاً الحقيقة بالأسطورة. كذلك كان مشغوفاً بجمع الروايات الشعبية، وتمكّن من أن يبرز جوانب من الفكر العماني الذي عبّرت عنه الروايات المختلفة، التي منها روايات أبو زيد الهلالي نثراً وشعراً، ومنها أيضاً قصص الحيوان من كليلة ودمنة الذي حوى توجّهات أخلاقية وضعت على ألسنة الطيور والبهائم على سبيل الرمز والإيحاء. ورصد طوماس أيضاً في كتابه العديد من خرافات المجتمع العماني وقصص السحر والدجل والشعوذة ونوبات الزار التي تعتري الرجال والنساء على حدّ سواء. واختار أن يفرد فيه حيّزاً خاصاً بالخرافات التي أدرجتها متواترات البدو في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، اختلاقاً منهم لكرامات هو في غنى عنها، ولكنها – إن كان صادقاً في نقلها – تمثّل نوعاً من أنواع حب قلوب تلك البوادي العامرة بحبّه صلى الله عليه وسلم، حتى مع مخالفتها لأصول العقيدة التي لا تعرف البادية منها شيئاً كثيراً.

يمكن أن نذكر من مرويات طوماس قصة الأسد والذئب والثعلب التي قد يكون سمعها – كما يقول – أو ربما قرأها في كتاب ابن المقفع مع عدم إجادته اللغة العربية. تذهب القصة إلى أن هذه الحيوانات الثلاثة اجتمعت على وليمة تألّفت من غزال وأرنب وحمامة. وطلب الأسد إلى الذئب أن يعمل على تقسيم الطرائد بينهم، فاقترح الذئب أن يأخذ الأسد الغزال، والثعلب الحمامة، أما هو فيعود بالأرنب. فغضب الأسد لهذه القسمة الضيزى، وأنزل بالذئب ضربة فصلت رأسه عن جسده حتى طار عالياً في الهواء. والتفت الأسد إلى الثعلب يطلب إليه أن يقترح أسلوباً أمثل للتقسيم، فاقترح الثعلب عليه أن يأخذ الأرنب لفطوره، والغزال لغدائه، والحمامة لعشائه. فسُرّ الأسد بذلك وامتدح حكمة الثعلب وسأله عن الذي علّمه هذه الحكمة، فأجابه الثعلب : رأس الذئب الطائر في الهواء.

سجّل طوماس من مرويات مرافقيه إحدى القصص التي تُروى في عمان عن أبو زيد الهلالي، وهي تختلف في موضوعها وصياغتها عمّا رواه راضي المرافق للسيدة بلنت عبر النفود عن هذه الشخصية الواسعة الانتشار في التراث الشعبي العربي. يبدأ طوماس بالقول إن دياب بن غانم،

من وجوه بني هلال، وقع مع صاحبيه أبي زيد وبريجة أسرى لبعض من نهبوا إبل قبيلته. ولما كان دياب أسود اللون فقد ظنّه القوم عبداً فلم يعبأوا به، وأوكلوا إليه من الأعمال ما يناسب العبيد. كلّفوه بالعمل مع البنّائين الذين كانوا يعملون في ترميم قلعة الزناتي، فتعمّد البلاهة حتى أعفي من هذا النوع من العمل، وأوكلوا إليه - بدلاً من ذلك - رعاية بعض الأغنام، فتصنّع الرجل الغباء وساق الماشية إلى مناطق لا ماء فيها ولا كلأ حتى كادت البهائم تهلك عطشاً، فكلّفوه بعمل آخر حيث طلبوا إليه الخروج لجلب الحطب، فأتاهم بحطب وفير على الحمارين اللّذين خرج بهما بعد أن غرس في مؤخرتيهما أعواداً حتى يهيّئ للأحمال مساحة أوسع، وما لبث الحماران أن نفقا جرّاء هذا الهبل المتصنّع. وأخيراً كلّفه القوم برعي الإبل التي غنموها من بني هلال، فأدرك دياب من ذلك مبتغاه لتنفيذ خطّته المبيّتة. وراح يؤدّي عمله على أكمل وجه ويبعد بالإبل عن الديار يوماً بعد آخر وراء المرعى الطيب حتى اطمأن القوم له. وفي ذات يوم أوغل بالإبل بعيداً، ثم دفعها أمامه دفعاً حتى وصل بها إلى ديرته. ورحّب رجال القبيلة بدياب العائد مع الإبل، وهرعوا لاستخلاص أبي زيد وبريجة من الأسر، تاركين النساء والغلمة والأباعر في عهدة دياب عند مصدر مياه طيب الرائحة، وتكفّل دياب لهم بالحفاظ على الأمانة. وما إن أليل الليل، حتى برز من الوادي جنّ استعرض إبل القبيلة وغرس رمحه في أكملها ووضعه على كتفه وغاب به. وكرر الجنّ فعلته ليلة بعد أخرى حتى لمحته زوجة دياب في الليلة الثالثة، فأصابها الذعر ممّا رأت، وخشيت أن تخبر زوجها به. وتغيّر لون الزوجة وطال صمتها، فساء دياب ذلك، وطلب إليها أن تبوح له بسر شحوبها، ولكنها لم تفعل حتى شهر السيف في وجهها فاضطرت إلى أن تحدّثه بما رأت.

أرسل دياب خادمه ليقتفي أثر الجنّي ويحدد مكمنه، وعاد الخادم ليخبر سيده بأنه أدرك الجنّي في قعر بئر يلوك لحم الإبل التي أخذها، فسارع غانم إلى موقع الجب، فبرز له الجنّي متحدّياً فعاجله دياب بضربة من سيفه مزّقته إرباً حتى تشتّت لحمه في البئر وخارجها. وصاح الجني يطلب إلى دياب بن غانم أن يوافيه بضربة ثانية تجهز عليه، فانتهره دياب: ما أثني! فقد كان دياب يدرك أن الجني يولد من جديد في صورة جنيَّين إذا ضُرب بالسيف مرتين.

عاد دياب إلى خيمته ليجد أن أهله قد عادوا لكنهم تركوا ثلاثة من أبنائه قتلى في معسكر الأعداء فتداولوا أمرهم: كيف يخبرونه بذلك النبأ المفجع، فرمح دياب لا بد من أن ينال ممّن يحمل إليه الخبر، والمشهور أن ذلك الرمح إذا لم يصادف لحماً يفريه، فإن صاحبه يموت فوراً. وطلب القوم إلى عبد من العبيد أن يحمل إلى دياب النبأ، فاستجاب بعد أن طلب إليهم أن يمدّوه بأسرع فرس لديهم. واقترب العبد من دياب ورمى له بالنبأ، وفرّ هارباً على صهوة جواده، فعاجله الرجل برمية رمح راغ منها العبد فأخطأه الرمح و لم يصبه، لكنه صادف حيّة أطاح رأسها. وانبرى العبد الهارب يصرخ: أعطني الأمان لأبلغك ما يسرّك فأمّنه دياب قائلاً: في

وجهي، فأبلغه العبد أن رمحه قد أصاب لحماً، وهكذا كتبت الحياه لدياب وللعبد الذي حمل إليه النبأ كذلك.

رتشارد بيرد وإدوارد هندرسون

استخدمت شركة بترول العراق (التي عملت في عمان باسم بتروليوم دفلبمنت عمان) رتشارد بيرد ليجري مسحاً لولاءات شيوخ الداخل العماني وتحديد أمثل الوسائل التي تمكّنها من إرسال فريق مسح جيولوجي إلى تلك المناطق. وراح بيرد في خلال زيارتيه إلى منطقة الظاهرة في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩م يتعامل مع شيوخ قبائلها دونما اعتبار لسيادة السلطان هناك، مُحتجّاً بعجز السلطان سعيد بن تيمور عن تأمين وصول المسّاحين الجيولوجيين إلى تلك المناطق. وقد احتجّ السلطان لدى السلطات البريطانية في الخليج على سلوك بيرد، ووجد المقيم البريطاني في الخليج خطلاً في الإجراءات التي اتخذها بيرد، ونبّه إلى أنها ستعصف بالنفوذ البريطاني في تلك المنطقة، فولاء هؤلاء الشيوخ في الظهير العماني متقلّب لا يعتمد عليه، وقد يُفوّت ما يقوم به بيرد على الحكومة البريطانية فرصة الدفاع عن مصالح السيد سعيد بن تيمور ضد عبد العزيز بن سعود المؤيّد بشركات النفط الأمريكية التي تؤازرها الحكومة الأمريكية. أما إدوارد هندرسون، فهو جندي عرف الصحراء العربية في آسيا وأفريقيا، حيث بدأ حياته العملية في عام ١٩٤١م ضابطاً في صفوف الفرقة السابعة مدرعات، التي استحدثها الجيش البريطاني باسم جرذان الصحراء، تلك الفرقة التي قاتلت في صحراء العلمين ضد قوات رومل، كذلك عمل بعد ذلك ضابطاً في الفيلق العربي مع الجنرال جلوب باشا "أبو حنيك" في شرق الأردن. وحين عاد إلى بلاده خلع بزّته العسكرية في عام ١٩٤٨م وعمل ممثلاً للامتيازات النفطية في دبي ثم في البحرين. وكان هندرسون أكثر حصافة من بيرد في خدمة المصالح البترولية البريطانية. وشارك هندرسون بفعالية في تثبيت السيادة العمانية في منطقة الظاهرة، فقد موّل شيوخ الظاهرة الطامعين في عطاء السلطان، نظير السماح لشركات النفط بعمل المسح المزمع، كما موّل بعض العمليات العسكرية ضد الشيوخ المترددين، وقاد بذلك منطقة الظاهرة إلى معسكر السلطان. فقد كان هندرسون في فترة عمله في هذه المناطق (١٩٥٣-١٩٥٥م) يتعامل بوعي سياسي دفعه إلى التعاون مع السلطان على نحو تام تحقيقاً لمصلحة شركة البترول البريطانية التي كانت ستواجه خسارة أكيدة إذا ترك لشيوخ قبائل المنطقة حرية الاختيار في التعامل مع الملك السعودي أو السلطان العماني. وقد ساعدت هندرسون في الوصول إلى غاياته وفاة الإمام العماني محمد بن عبد الله الخليلي، في مارس ١٩٥٤، والضعف الذي أصبحت فيه القبائل التابعة له. وحاز *هندرسون الثقة التامة من الحكومة البريطانية التي اعتمدته في عام ١٩٥٦م مندوباً سياسياً لها*

في المنطقة، في هذه الفترة التي شهدت فيها هذه المنطقة تشابك المصالح النفطية والسياسية والعسكرية، وأصبح هندرسون من ثمّ أول سفير بريطاني في قطر. وانتهت فترة خدمته كسفير في عام ١٩٧٤م، فالتحق بعد ذلك بمركز البحوث والوثائق في أبو ظبي لفترة غادر بعدها إلى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل لمدة عام رئيساً لمجلس تطوير التفاهم العربي البريطاني ومحاضراً في الشؤون العربية في بعض الجامعات الأمريكية، وما لبث أن عاد مرة أخرى للعمل في مركز البحوث والدراسات في أبو ظبي. وقد ألّف هندرسون كتاباً بعنوان: **ذكريات عن الأيام الأولى في دولة الإمارات وعمان** لم يضمّنه إلا قشوراً من ذكرياته الثرّة في المجالات العسكرية والاستثمارية والدبلوماسية المتشابكة، ولكنه قد يفيد – بعد النقد اللازم – في تصوير جوانب من الحياة الاجتماعية.

ترك هذان الرجلان، بيرد وهندرسون، عدداً من التقارير عن الأحوال السياسية والاقتصادية كُشف النقاب عن بعضها ولا يزال بعضها الآخر محجوباً لسبب أو لآخر، وضمّت أضابير شركات البترول العاملة في المنطقة الكثير ممّا يكشف عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي يمكن – بعد غربلتها – أن تفيد المختصين في كتابة بعض زوايا التاريخ العماني. أما أدب الرحالة الغربيين البتروليين اللاحق لما كتبه هذان الرجلان، فهو فقير جداً. فحين استقرّت الأمور للشركات النفطية المختلفة، أصبح رجال البترول يعيشون في حظائر معزولة بمنأى عن تيار الحياة العربية الذي باتوا في ثكناتهم يرقبونه من خلال ما كتب السابقون لهم، بكل ما فيه من حقائق ويكتنفه من زيف.

رتشارد باترك ديكسون

وُلد هارولد رتشارد ديكسون في الخامس من ربيع الأول ١٢٩٨/٤ فبراير ١٨٨١ في بيروت، حين كان والده جون ديكسون يعمل قنصلاً بريطانياً في القدس، وعاش طفولته وشطراً من صباه في دمشق حيث عمل والده هناك حتى عام ١٩٠٦م. وبعد أن تخرّج رتشارد في أكسفورد، التحق في عام ١٩٠٨م بالخدمة العسكرية في حكومة الهند، وعمل من فوره وصيّاً على المهراجا كومار في بكانير حتى رمضان ١٣٣٢/أغسطس ١٩١٤. وفي نوفمبر ١٩١٤ نُقل ديكسون إلى العراق للعمل في الإدارة السياسية هناك، وأصبح في رمضان ١٣٣٣/أغسطس ١٩١٥ مساعداً لبيرسي كوكس في مقيميّة الخليج. وظلّ الرجل يتقلّب في مناصب الهند السياسية في بلاد العرب، فعُيّن مستشاراً في الناصرية، فوكيلاً سياسياً في البحرين في الفترة ١٩١٩–١٩٢٠م، فمستشاراً لأول متصرّف عربي في لواء الحلة تحت البريطانيين، واستُدعي ديكسون إلى الهند ليعمل مستشاراً خاصاً لمهراجا بكانير، وشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٢٧م، ثم عاد مرّة

أخرى إلى مقيمية الخليج، ونقل في عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م ليعمل وكيلاً سياسياً لدى أحمد الجابر الصباح في الكويت، في الوقت الذي تفاقمت فيه حدّة الظروف الإقليمية نتيجة لتمرّد الإخوان النجديين على ابن سعود. وتكشف الوثائق البريطانية أن الكويت ما عادت في هذا الوقت تمثّل أيّ أهمية استراتيجيّة أو اقتصاديّة لبريطانيا، "فنحن لا نريدها، ولكننا لا نريد أن يأخذها الآخرون... فيجب الحفاظ عليها عظمة بين كلبين" في نجد والعراق لتحريكها كلما كان شجار الكلاب ذا فائدة لهم. ووقع الاختيار على ديكسون لتطبيق تلك السياسة الجهنمية التي تطلّبت منه دراسة شؤون العشائر والقبائل والزعامات في المنطقة لتحريك الفتن في الوقت المناسب. وظلّ ديكسون طيلة فترة وجوده في الكويت دائم الرحلة في تخوم نجد، متقلّباً بصفة دائمة في المناطق المجاورة للكويت. ووضع ديكسون نتائج تحرياته في كتاب بعنوان: **عرب الصحراء - لمحة عن حياة البدو في الكويت والعربية السعودية (١٩٤٩م) والكويت وجيرانها (١٩٥٦م)**. ولديكسون عدد كبير من التقارير والمذكرات السياسية والخطابات التي عُنيت بدقائق التفاصيل في حياة البادية لم تستثنِ الخيمة وتجهيزاتها، بل إنها شملت حتى طيور البادية وهجرتها في هذه المنطقة من شمال شرق الجزيرة العربية، وله بحث في هذا الشأن نشر في مجلة جمعية بومباي للتاريخ الطبيعي (عدد ٤٠، عام ١٩٣٢م).

تقاعد ديكسون في عام ١٩٣٦م من الخدمة الحكومية ليصبح ممثلاً محلياً لشركة نفط الكويت، ليعود مرّة أخرى، بناءً على رغبة الحكومة البريطانية، في عام ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م إلى منصبه السابق وكيلاً سياسياً في الكويت، وذلك نتيجة للتعقيدات السياسية التى سادت المنطقة في تلك الفترة. وتقاعد ديكسون مرّة أخرى عن العمل السياسي ليُعيّن ممثلاً رئيساً لشركة نفط الكويت التي سعت لاستثمار خبرته الطويلة في المنطقة واستغلال صداقته لكثير من شيوخها وحكامها في خدمة مصالحها. وقد ساعدته صلة الدم - كما يقول - في توثيق صلاته مع العديد من بدو الصحراء، وكذلك البدو في مجاورة الكويت، وذلك في إشارة منه إلى أنه رضع من امرأة من عنزة في فترة عانت فيها أمه، إديث ويلز، من شحّ لبنها في طفولته. وراح ديكسون ينافق الشيوخ برابطة الدم، وادّعى أنه "أخ للعرب" بالرضاعة. ونعجب من لبن هذه البدوية الذي لم يكسب هذا الرجل تواضعاً يجعل منه أخاً لعربي واحد، بل غدا بلبنها أخاً للعرب كافتهم. كان ديكسون ومن على شاكلته من موظفي الهند البريطانية في الخليج يحسّون التنافس المستعر بين شركات البترول الأمريكية التي ابتدعت أساليب مبتكرة في التعامل مع الاستثمارات البترولية في الخليج تتفوّق على أساليب شركات الإمبراطورية العجوز. ولذلك عمد العديد من هؤلاء إلى العمل مع شركات البترول البريطانية وخدمة استثمارات بلادهم بما اكتسبوه من معرفة في شؤون المنطقة وفي استخدام نفوذهم الذي اكتسبوه مع الشيوخ والمتنفذين.

هلك هارولد رتشارد ديكسون في ٨ المحرم ١٣٧٩/١٤ يونيو ١٩٥٩ مخلّفاً ولداً هو

سعود، وبنتاً هي زهرة فريث. كتبت زهرة بعض موضوعات عن الكويت وجيرانها، وحررت ونشرت بعض مذكرات والدها، وهي - في حقيقة الحال - تحوي مرويات ثرة غنية بالمعلومات التي يختلط الغثّ فيها بالسمين على شاكلة سائر ما يكتبه الرحالة الغربيون، ويمكن من يعمل في صناعة التاريخ من العرب أن يتولاها بالنقد والتحليل لتخليصها من الزيف، فتكشف له عن فصول من شؤون السياسة والنفط في الخليج.

الفصل السابع

ولفرد ثسجر... جدل بين الذات والموروث

تعود جذور أسرة ثسجر إلى أصول ألمانية. وفدت هذه الأسرة إلى إنجلترا في حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ونذر أفرادها أنفسهم لخدمة التاج البريطاني حتى أصبح البارون جلمسفور، الجد الأكبر لرحالتنا، عضواً في البرلمان البريطاني، ثم نائباً عاماً في حكومة دزرائيلي، أول رئيس وزراء بريطاني من أصول يهودية. أما فريدريك ابن هذا النائب العام والجد المباشر لرحالتنا - هذا الرحالة الذي شارك أبوه في مؤامرات البلاط والجيش إلى حدّ استضافته الابن الأكبر لهيلاسيلاسي وولي عهده بعدئذ في مقر البعثة البريطانية في أديس أبابا - فقد كان ضابطاً قاد أشرس معارك الحرب ضد الزولو، ويشهد سجل خدمته في تلك الفترة أنه كان دموياً. فلا غرْوَ أن انتهت أسرة رحالتنا ولفرد إلى الأرستقراطية البريطانية رغم أنها ليست منها تقليدياً. فالأرستقراطية البريطانية التقليدية هي طبقة تألّفت من نبلاء الأرض الذين اختلفوا عن العامة بحكم المولد ثم بالوراثة. أما أرستقراطية آل جلمسفور فهي أرستقراطية الولاء للتاج البريطاني. وقد تأثر ولفرد ثسجر بانتمائه إلى هذه الطبقة النبيلة في بريطانيا التي لم تكن جذوره عميقة فيها، ما أدخله في جدل بين الذات التي تؤمن بنحو قاطع بالتفوق الأسري، والموروث المجتمعي الذي يحتفي بالرقي الاجتماعي المتوارث، من دون أن يحيد عن حقائق التاريخ.

وُلد ولفرد ثسجر في ٢٣ رجب ١٣٢٨/ ٣٠ يوليو ١٩١٠ في أديس أبابا لأب كان يعمل في خدمة البلاط البريطاني، وكان في هذه الفترة وزيراً مفوّضاً لدى البلاط الإثيوبي الذي كان يعيش فترة انهيار. وقد انغمس الوزير البريطاني في المؤامرات التي تجاذبت العرش هناك. وتفتّحت عينا ولفرد على الحرب ومنظر الجيوش:

شاهدت الجيوش تتقدم للقتال في الثورة التي وقعت في الحبشة عام ١٩١٦، وقد

ظلت تلك الجيوش تمرّ عبر السهل أمام مقر البعثة البريطانية، وسمعت النحيب بعد هزيمة جيش الراس لول سيجيد الذي حاول وقف زحف النجش ميخائيل، وشهدت الابتهاج الكبير الذي قاد إلى النصر النهائي والعودة المظفرة بعد معركة سيجالي التي اشتبك فيها جيشا الشمال والجنوب يوماً كاملاً بالسلاح الأبيض على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال من أديس أبابا... و لم يكن لمقاتلي الزولو ولا لدراويش أم درمان أن يكونوا أكثر همجية من همجية هذا المد الهائل من الرجال الذين تدفقوا أمام السرادق الملكي طوال اليوم على أصوات قرع طبول الحرب وأصوات النفير... عاد هؤلاء الرجال للتوّ بعد أن قاتلوا بشراسة للظفر بحياتهم في الوقت الذي ما زال فيها هياج تلك الساعات المثيرة يلازمهم. وكانت الدماء اليابسة لا تزال تغطي الملابس التي انتزعوها من جثث القتلى ولفّوا بها جيادهم... ما زلت أذكر صبياً كان يبدو أكبر مني قليلاً يُحمل بزهو وفخار، لأنه تمكن من قتل رجلين... وما زلت أذكر النجش ميخائيل، ملك الشمال، يُقتاد مكبّلاً بالسلاسل يحمل حجراً على كتفه إمعاناً في الإذلال الكامل. كان الرجل عجوزاً أُلحف بثوب أسود طويل ولُفّ رأسه بخرقة بيضاء.

لم يذهب ولفرد إلى المدرسة إلا بعد سن العاشرة بعد أن غادر أديس أبابا مع أسرته إلى بلاده. و لم يكن له فيها أصدقاء من بني جلدته: "وجدت نفسي في عا لم مُعادٍ لم أقدر على فهمه... تحدثت عن أشياء رأيتها وفعلتها وطالما وصفوني بالكاذب". وهكذا بدأ الجَدل بين الذات والموروث في شخصية ثسجر منذ طفولته، فقد رأى من مظاهر العنف الأفريقي الذي كان الغربيون يؤجّجون أواره ما لا يمكن أن تدركه عقول أطفال الغربيين الغضة، رغم جنوح ولفرد للمبالغة أحياناً. فالرجل تشرّب منذ ميلاده في الأرض الأفريقية أن في الأفارقة من الزولو ودراويش أم درمان همجية مفرطة يضرب بها المثل، فيما هؤلاء وأولئك كانوا قد ضربوا أروع مثل في الذود عن حقوق مواطنيهم وحاربوا في أرضهم جنود الغرب الوافدين من وراء البحار الذين دفعت بهم همجية فكر بلادهم وعنجهية التسلط الاستعماري إلى غزو بلاد هؤلاء الأفارقة.

لعلّ في ما ذكرنا – من نشأة ولفرد وأسرته – بعض الأسبابُ التي قد تفسر ما يقول به هذا الرحالة من أنه ليس ثمة خطأ أخلاقي في عدم المساواة بين بني البشر، وأن على المرء أن يقنع بموقعه في طبقته، وبمكانة عنصره في سلم الإنسانية، وأن يعيش وفق منزلته التي وجد نفسه عليها. ويؤكد ثسجر أن التفاضل بين صفوف البشر حقيقة من حقائق الحياة يجب على بني الإنسان القبول بها. فبعض العناصر – عنده – أكثر رقيّاً من الأخرى، لأنها بحكم تكوينها جُبلت على

الأحسن. ويجادل في إثبات الحقيقة، ويضرب مثلاً بالخيل التي تضمّ الأصائل ذات السلالات المميزة المعروفة الأصول، كما تضم أخرى أدنى من الأولى، وفي كل خير - كما يقول - ويستتبع ذلك بأن بعض الأسر ضمن هذه العناصر المتفاوتة أبلغ نبلاً وأميز من بعضها الآخر. بهذه المقاربة بين الإنسان والحيوان يحكم الرجل على بني البشر الذين كرّم الخالق أبيضهم وأسودهم.

أدخلت هذه النظرية العنصرية رحالتنا الذي لا يخجل من أن يجهر بها في جدل بين الذات والموروث. فقد عاش في أرض البدو في شبه الجزيرة العربية زمناً وعاش عامتهم وشيوخهم، وتقلّب في حمايتهم في البوادي والسهول، ووجد فيهم نبلاً لا يمكن أن يوجد في قصور أكثر النبلاء في الغرب. فأثار ذلك في نفسه جدلاً بين الذات التي استوعبت ظاهر التجربة، والموروث المغروس في أعماق تلك الذات، ولكنه استعصم لتهدئة هذا الجدل بالهوس القديم للرحالة الغربيين الذين سبقوه، والذين رأوا في البدوي "نبلاً متوحشاً". ما كان يمكن ثسجر ولا من سبقوه في مجال الرحلة أن ينكروا نبل البدوي. لأنهم عاشوه حقيقة ملموسة لا يمكن إنكارها إلا بالتفسير المؤيّد بالتراث الأوروبي، والتصوير القائم على الخيال الأوروبي. يرى ثسجر أن في البدو نبلاً همجياً يجب ألا تمسّه يد التغيير، فهم قد خلقوا بدواً وعليهم التزام بداوتهم أبد الدهر، لا يتطورون! ويرى أن الأشدّ توغلاً في البداوة من البدو والأكثر معايشة للرمال هو الأنقى عنصراً والأبلغ نبلاً. والرأي في تقديرنا يحمل في ظاهره تمجيداً للبداوة والإعجاب بها إلى حدّ الافتتان، وفي باطنه ازدراء غير محدود لهذه الشريحة البشرية التي يتعامل معها كأنها أحفورة تعود إلى ماضٍ سحيق تكوّنت على هيئة جامدة لا حياة فيها ولا تفاعل مع التطور وسنّة التاريخ، أو كأنها موّمياء حنّطت للعرض في متحف حياة لإمتاع المتحضّرين من أمثال هؤلاء الرحالة. ما ضرّ هذا الرحالة لو قال بضرورة تطور البادية في أطر نبل البداوة وضمن ثقافتها وأعرافها وتقاليدها، وحمايتها من التلوث بالثقافات الدخيلة التي لا تلتزم المثل النبيلة التي تلتزمها البادية. يصرّح ثسجر بأن المساس بحياة البداوة وتحديثها لا يعدو أن يكون إفساداً وجرماً عظيماً، وينعى على نفسه أنه أسهم برحلاته في هذا الإفساد. ويبدو الجدل بين الذات والموروث عند هذا الرحالة في قمته حين يتناول البادية في حديثه. فهو يعشقها ويعجب برجالها، ويأخذه جمال نسائها. فهؤلاء الرعاة الأميّون - كما يقول - هم من أهل الشجاعة والكرم والتسامح والصبر ومثال الشهامة: "و لم أشعر قط وأنا بين أقوام آخرين غير البدو بمركّب النقص".

مع هذا كله، لا ينسى ثسجر أن يشيد بالمجتمع الإنجليزي الذي لا يزال يضمّ عناصر أرستقراطية موروثة، وينعى على العالم خارج بريطانيا اعترافه بأرستقراطية هي ليست منها في شيء، بل هي مزيفة. فأيّ فتى أسود مهرّج يغطي وجهه بمساحيق بيضاء - كما يقول ثسجر - يغني أغنيات البوب يمكنه أن يصبح مليونيراً ويدخل بذلك عالم الأرستقراطية. ونحن حين نوافقه - وهو يشير إلى مغنٍ بعينه من السود الذين حاولوا أن يبيضّوا استجابة لمتطلبات مجتمعهم

العنصري الذي لم يعترف بالمواطنَ الأسود إلا أخيراً - نأخذ عليه إمعانه في حسد المغني الأسود من دون الأبيض. فهناك العديد من البيض والشقر أيضاً دخلوا بالغناء عالم الأرستقراطية، ولكنهم لم يلقوا من رحالتنا الاستنكار، أو ربما وجدوا استنكاراً غير مصرّح به.

غادر ثسجر أديس أبابا مع أسرته عام ١٩١٩م، وتعلّم في ايتون وتخرج في كلية ماجدولين أكسفورد. يقول في كتابه **حياة من اختياري** *The life of my choice* إنه اكتشف في فترة دراسته في أكسفورد ضرورة دراسة التاريخ، ولكنه لا يهتم كثيراً بتاريخ التطور الدستوري (يقصد التاريخ البريطاني) أو النظريات السياسية (يقصد التاريخ الأوروبي)، ولا يهتم البتة بتاريخ الثورة الصناعية، ولا بتاريخ الإنجازات التقنية والعلمية التي اجتاحت العصر الحديث: "كانت رؤيتي للتاريخ رومانسية أكثر منها موضوعية". ويضيف مستعرضاً طفولته في أديس أبابا فيقول: "في طفولتي شهدت التاريخ وهو في طور الصناعة. رأيت مسيرات جيوش الفدراليين (الرؤساء المحليين)، وشاهدت المنتصرين يعودون مظفرين، ورأيت الأسرى يساقون مكبّلين بالأصفاد". وتكريماً لعلاقة والده بالعرش الإثيوبي تلقّى ولفرد دعوة شخصية من هيلاسيلاسي لحضور حفل تتويجه في ٦ جمادى الآخرة ١٣٤٩/٢٨ أكتوبر ١٩٣٠م. وقد مثّل هذا التاريخ نقطه البداية في رحلاته المتواترة في صحارى الصومال والسودان وجنوب شبه الجزيرة العربية، وأهوار العراق.

التحق ثسجر في ١٣٥٣هـ/أواخر ١٩٣٤م بالخدمة المدنية في السودان، والخدمة في تلك المستعمرة - كما يقول هذا الرحالة - تماثل الخدمة السياسية في مستعمرة الهند البريطانية. فالعاملون في هذا السلك كانوا نصف عسكريين ونصف مدنيين، ولكنهم كانوا في الدرجة الأولى إداريين. أبلغ مواصفاتهم إجادة ضروب الجاسوسية وإتقان فن التعامل مع مواطني البلاد المستعمرة، خاصة شيوخهم والمتقدمين منهم في المجالات المختلفة. وفي الحقيقة، لا عجب أن كان أغلب مقيمي الخليج العربي والعاملين معهم من البريطانيين، بعد إعلان الإمبراطورية، من هذا السلك السياسي خاصة. ويجدر بنا أن نشير إلى أن كثيراً من الذين عملوا في مكاتب المقيمية البريطانية في الخليج وفي الوظائف الإدارية المختلفة في عمان خاصة وفي الخليج عامة كانوا من الذين عملوا في الخدمة المدنية في السودان، والذين تقلّب بعضهم في وظائف عسكرية في ذلك البلد أيضاً، وكان ثسجر - كما هو واضح - أحد هؤلاء.

عمل ولفرد ثسجر في مناطق متفرقة من السودان، تلك المستعمرة القارة ذات الأجواء والمناخات والأعراق المختلفة في تكامل، اعتباراً من جنوب خط الاستواء، ليضمّ الخط نفسه ويستمر من دون انقطاع، ليشمل السافانا الغنية والفقيرة وشبه الصحراوية وينتهي في نقطة ما قريبة من مدار السرطان. عمل ولفرد في كتم في غرب السودان، وعاش في تلك المنطقة السافانا والصحراء بإنسانها وحيوانها وأرضها، كما عمل في مناطق النوير في جنوب البلاد،

وعاش مناخها الممطر وأعراقها النيلية. وانتقل من السلك السياسي في خدمة تلك المستعمرة إلى السلك العسكري فيها حين التحق في ربيع الأول ١٣٥٩/إبريل ١٩٤٠ بقوّة دفاع السودان، وخاض مع تلك القوّة التي تألّفت من جنود وطنيين وضباط بريطانيين العديد من الحروب حتى خارج حدود السودان، في مناطق من إريتريا وإثيوبيا وغيرهما، دفاعاً عن العلم البريطاني، بعد أن جاب السودان طولاً وعرضاً. وتقلّب هذا الرحالة بعدئذ في عدّة كتائب في البلاد العربية. وكانت الإمبراطورية البريطانية تتخذ جنودها من الوطنيين وقياداتها من البريطانيين وتطلق عليها أسماء وطنية، ومن ذلك مثلاً: قوة دفاع السودان.

عمل ثسجر ضابطاً في كتيبة الدروز، واستفاد في هذه الفترة - كما يقول - معرفة وثيقة بحياة البادية في سوريا وفلسطين، وزار بعض خيام عرب الرولة، ووقف على بعض خيام عنزة بادية شمال شبه الجزيرة العربية:

> وعشت في أوساط قبائل ترى أنها تنحدر من صلب إسماعيل، واستمعت إلى الكهول وهم يروون أحداثاً وقعت منذ آلاف السنين، كأنهم عاصروها في شبابهم. لقد توجهت إلى هناك معتقداً تفوّقي العنصري، ولكنني شعرت وأنا في خيامهم أني مجرد رجل همجي بليد الإحساس لا يستطيع الدفاع عن رأيه، مجرّد متطفّل وفد إليهم من عالم مادي رديء، فتعلمت منهم كم يرحب العرب بضيوفهم، وكم هم أسخياء!

وهكذا يثور في ذهن هذا الرحالة جدل عنيف بين الذات والموروث، وبين التصور والواقع، وبين المعقول واللامعقول. فالرجل يؤمن بتفوّقه العنصري ولا ينكره، ولكنه تعلم أن في العرب السخاء والبذل وحماية العهود. والرجل ثري بما يلقاه من راتبه الذي لا يقارن بما يملكه البدوي، ولكنه لن يستطيع أن يكون كريماً مثله، والرجل آمر في كتيبة رجالها من الوطنيين، وظفت لخدمة استعمار بلادهم ضد هؤلاء المواطنين، والرجل - فوق هذا وذاك - إنسان يسعى لمعرفة الحقيقة التي تومض أمامه وميض السراب الذي لا يمكن الوصول إليه. ولربما فسّر هذا العامل الأخير الحقيقة التي تبدو جليّة في كتاب: **رمال الصحراء** من إعجاب غير محدود بلورنس صاحب كتاب: **أعمدة الحكمة السبعة** الذي قاد حملة ما يعرف بالثورة العربية الكبرى إلى شباك الاستعمار الغربي الذي ما وهنت حبائله في بلادنا يوماً حتى توثّقت من جديد.

يقول بعض النقاد الغربيين إن نظرة ولفرد الرومانسية إلى التاريخ لم تجعل منه جندياً ملتزماً. فتعاطفه مع أهل القبائل، أو بالأحرى تعلّقه بهم، جعلته رحالة متميزاً، اختار أن يخالط المواطنين الذين عاش في أوساطهم. اختير ثسجر بعدئذ للعمل في الشمال الأفريقي، فرحل من الشام

في عام ١٩٤٢م ليعمل في الصحراء الغربية في كتيبة الخدمة الجوية الخاصة التي ألّف أفرادها مجموعات صغيرة مهمتها قطع خطوط العدو، ودخل في مغامرات شرسة كادت تودي بحياته - كما يقول - فلم يكن له ما يستره عن أعين العدو سوى رمال الصحراء.

الهدف من رحلات ثسجر في جنوب شبه الجزيرة العربية

لم يصرّح ثسجر بالأهداف التي ساقته للقيام برحلاته في ظهير أبو ظبي وفي الداخل العماني، وكان كغيره من الاستخباريين يتعلل بأسباب واهية. ادّعى أنه قد وظف في العمل لمكافحة الجراد، كما ادّعى في مناسبة أخرى أن تعلّقه ببعض مرافقيه من العرب هو الذي جعله يعود إلى الرحلة مرة أخرى في شبه الجزيرة. وقد حاول أكثر من مرة أن يقول إن هوى الصحراء الذي تملّكه وعشقه للبدو والبادية هما اللذان حملاه على الرحلة. ولكن هل يعقل أن ينقلب عسكري مغامر شجاع، تمرّس في أعمال القتال فوق الصحراء وعلى الجبال وفي المستنقعات، وخاض خلال الحرب العالمية الثانية أشرس العمليات في الشام وفلسطين وفي الصحراء الليبية - فجأة من دون مقدمات وبلا مؤهلات - إلى موظف في منظمة دولية لمكافحة الجراد؟! ولعل من الطريف أننا حين نقلّب صفحات كتابه **الرمال العربية**، لا نجد فيه من أسراب الجراد شيئاً. فليس فيه سوى فقرة أو فقرتين عن هذه الحشرة التي هيّأت له حجة مكافحتها أن يعبر شبه الجزيرة العربية عام ١٩٤٥م من غربها إلى شرقها، في وقت كان فيه ابن سعود يحظر على كافة الغربيين، بمن فيهم العاملون في البعثات الدبلوماسية، تجاوز دائرة من الأرض يزيد نطاقها على عشرين ميلاً خارج مدينة جدّة. ولعل هذا السعي وراء الجراد هو الذي شكل المهمة الاستخبارية الصريحة الأولى لهذا الرجل الذي قطع شبه الجزيرة العربية بعد مرور عقد من الزمان في رحلة مماثلة قام بها دي جويري، الرئيس المباشر لثسجر في فيلق الدروز، والذي قطع بدوره شبه الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها بعد أكثر من قرن من الزمان على رحلة سادلير الذي وفد إلى ذات المنطقة في مهمة عسكرية. كانت مهمة سادلير واضحة معلنة، بينما جاءت مهمة دي جويري بإذن من ابن سعود. أما ثسجر فلم يجد - بعد أن تحولت الاستثمارات البترولية في السعودية إلى الولايات المتحدة الأمريكية - إلا أن يتعلل بالجراد ليؤدي مهمته! ورغم معرفة ولفرد ثسجر بأن داوتي الذي استشهد به في كتاب **الرمال العربية** عدّة مرات كتب عن الجراد، ورغم معرفته أن السيدة بلنت ترى أن الجراد يمكن - كما يرى زوجها ويلفرد - أن يكون أميز الأطباق في قوائم مطاعم باريس، لم يهتم رحالتنا بالجراد أبداً. ولا يمكننا - بطبيعة الحال - أن نتّهم هذا الرجل العسكري الحاذق الذي لم يؤهّل في علم الحشرات ولا في علوم الزراعة أو في غيرها لمكافحة تلك الآفة بأنه مهمل لم يؤدِّ مهمته المتصلة بهذه الحشرة التي لا نجد لها أثراً في كتاباته.

إن أسباب ولفرد الواهية لم تقنع حتى عقول بعض مرافقيه من البدو. يقول مسلم بن طفلة – أحد مرافقي هذا الرحالة في بعض أسفاره – إنهم لم يكونوا على اقتناع بأن ولفرد وفد إلى البادية لمكافحة الجراد. فالجراد – كما يقول ابن طفلة – كان يضربهم في البادية قبل مجيء هذا الرجل، وظلّ يضربهم بعد انتهاء مهمته. ويعتذر ابن طفلة بأنه ورفاقه من البدو ما كانوا يميّزون من أساليب العالم الحديث شيئاً كثيراً، ولكنهم – مع ذلك – ارتابوا في المهمة التي يقوم بها هذا الرجل، وتساءلوا عن الدوافع الحقيقية التي ساقته إلى الصحراء. وكعادة أهل البادية، صاغوا شكوكهم في الرجل شعراً عاميّاً يقولون فيه إن لرحلة "شيخ النصارى" إلى أرضهم دوافع خطيرة يجهلون مقاصدها. وبصراحة أهل البادية أنشدوا الرحالة شعرهم، فأجابهم الرجل: "نعم، لقد عزفتم على الوتر الصحيح، إن دوافعي سرية بعيدة المدى يجب ألا يطّلع عليها أحد". وفي تقديرنا أن الرجل كان صادقاً، إذ لا نجد في ما كتب ما يدل على أنه كان ساخراً حتى نحمّل حديثه محملاً آخر.

ما هي الدوافع الحقيقية لرحلته؟

على ضوء سيرة ولفرد الشخصية ودوره الرائد في المهمات العسكرية والإدارية والاستخبارية في البوادي والصحارى العربية، واعتماداً على المتغيرات التي أحدثتها الحرب العالمية الثانية، والتي أسهم فيها الرجل في أكثر من موقع، والتي غيّرت موازين القوى العالمية، نؤكد صدق قول ثسجر: إن له دوافع سرية بعيدة المدى. لأن دوافعه كانت تتصل بنحو وثيق بالسياسات البريطانية الخاصة بالاستثمارات البترولية المناهضة للاستثمارات البترولية الأمريكية في شبه الجزيرة العربية قبل قيام الشركات المتعددة الجنسيات. كانت حكومة لندن تسعى لمعالجة دخول وامتداد الاستثمارات الأمريكية في المنطقة مع واشنطن بدبلوماسية واقعية تعتمد معطيات لا تريدها، ولكنها لا تستطيع إلا مجابهتها بما بقي لها من نفوذ. وكانت شركاتها البترولية تتوجس من استشراء هذا الامتداد الأمريكي المتسارع في مناطق النفوذ البريطاني في الخليج، وتسعى للقيام بإجراءات استباقية تحفظ للشركات العجوز أكبر حصة ممكنة قبل أن تلتقمها الشركات الأمريكية الفتية. أما الإداريون في الخليج التابعون لحكومة لندن مباشرة أو الحكومات التابعة لها في الهند التي باتت تجمع أوراقها استعداداً للجلاء من شبه القارة الهندية – وخططت في هذا الوقت لتشديد قبضتها على الساحل العربي من الخليج بنقل مقيميتها من بوشهر إلى البحرين – فقد عملوا في كافة إداراتهم على معالجة الاستثمارات الأمريكية بمزيد من الأمريكوفوبيا التي بلغت حدّ البغض المعلن لكل ما هو أمريكي. كره أولئك الموظفون تراجع الدور البريطاني المهين لمصلحة الدور الأمريكي الذي انساب ناعماً يتغلغل في أوساط القبائل بدعم من حكومة

ابن سعود، ودفع من حكومة واشنطن، وقوة من رؤوس الأموال الهائلة.

لم يتردد ثسجر - بحكم حماسته للإمبراطورية وإخلاصه لها فعلاً وقولاً - في أن يجهر بكراهيته للولايات المتحدة الأمريكية، إدارة وربما شعباً، مثله مثل كافة المتنفذين البريطانيين في الشرق. فقد أورثه النفوذ الأمريكي المتزايد في مناطق كانت تحت الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة للإمبراطورية البريطانية - وكانوا سدَنَتها والقائمين عليها - مرارة وحقداً وحسداً، ولربما كانت حكومات لندن في هذا الوقت من منتصف الأربعينيات من القرن الماضي تكنّ الشعور ذاته لواشنطن، إلا أن لندن كانت أكثر واقعية في التعامل مع المستجدات الدولية من موظفيها في الشرق. يقول ثسجر في مرارة تعبّر عن ذاته المشتّتة في الجدل بين الواقع الدولي الذي لا يمكن إنكاره، وبين الموروث الذي نذر حياته لخدمته وفي صراحة متناهية: إنه يرى في الأمريكان أمّة من الرعاع المفلسين أخلاقياً. فهم - كما يقول - شتات من البشر بلا تراث ولا تقاليد، انتشروا في أرجاء العالم فلوّثوه بثقافة التقنيات المادية التي انداحت بسرعة لتغطي كل ركن فيه. وإذا التمسنا العذر لهذا الرحالة في نقمته العارمة على الأمريكان برومانسيّته التي لا ينِي يذكِّر بها أنه ضد أن تهيمن الآلة على حياة البشر، فلن نجد له عذراً حين يصف الأمريكان بأنهم منتهزون للفرص. وربما كانت هذه الانتهازية في استلقاط الفرص هي التي دفعت ثسجر إلى صحراوات جنوب شبه الجزيرة العربية ليؤدي في إخلاص وثبات المهمة التي أوكلتها إليه بعض شركات البترول البريطانية لاستكشاف مدى انتشار النفوذ الأمريكي في المنطقة، ومحاولة الوقوف على اتجاهات الشيوخ الأقوياء فيها. ويبلغ الإحباط عند هذا الرجل في الجدل بين الذات والهوية انطلاقاً من هذه الكراهية المعلنة التي ما كان لها أن تغيّر من الواقع شيئاً، أن أدان هويته الغربية ذاتها، إذ يضيف أنه يكره في هذه القوّة الأمريكية الوليدة ثقافتها الجديدة التي أخذت تعكس نفسها في الحضارة الغربية مباشرة! كانت المصالح النفطية الأمريكية قد فرغت منذ عام ١٩٣٣م من توقيع عقد استثمار مع ابن سعود خلافاً لكافة التوقعات الرسمية البريطانية التي كانت ترى أن نفط الخليج وشبه الجزيرة العربية - خاصة في سواحل الخليج - يجب أن يكون مقصوراً على شركاتها.

راحت ستناندرد أويل كاليفورينا (سوكال) - خلافاً لهذه التوقعات - بعد الحرب العالمية الثانية تضخّ النفط السعودي في عروق الاقتصاد الأمريكي. وتمكنت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٤٥م من إنشاء مصفاة رأس تنورة التي اعتبرتها الحكومة البريطانية مشروعاً عسكرياً يربط النفط السعودي بالاستراتيجية الأمريكية في المنطقة. وأكدت قاعدة الظهران أن الدور البريطاني في سياسة الخليج قد انحسر. وبينما كانت لندن تعالج الأمر بروية مع واشنطن، كان كافة موظفيها الرئيسيين في المنطقة يندبون حظوظ إمبراطوريتهم التي باتت بعض ذكريات من تاريخ يحسّونه ينزلق من بين أصابعهم.

غدا الارتباط بين شركات النفط البريطانية العاملة في الخليج أو التي تتطلع إلى العمل فيه وبين الحكومة البريطانية منذ الحرب العالمية الأولى ارتباطاً عضوياً. ففي عام ١٩١٢م تحوّل الأسطول البريطاني – أهم ذراع للاستعمار البريطاني – من استخدام الفحم إلى النفط، ما دعا إلى استثمار أموال دافع الضرائب البريطاني في شراء قسط كبير من شركة النفط الأنجلوفارسية حتى أصبحت المساهم الأكبر فيها. وغدت الشركة التي عرفت بأسماء مختلفة في أمصار الخليج المختلفة مَثارَ اهتمام الرأي العام البريطاني كله، ما أدخل النفط إلى قلب السياسة البريطانية. وقد صرّح ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في ١٤ رجب ١٣٣٢/٧ يونيو ١٩١٤ في أروقة مجلس العموم معلناً لشعبه وللعا لم أنه لن يسمح لأحد ما بأن يزايد على حكومته في ما يمكن أن تنفقه في استثمار البترول الذي هو سلعة استراتيجية لا يجوز أن ينظر إلى أسعاره، حتى في زمن السلم، على ضوء آليات السوق في العرض والطلب. فإذا أضيف إلى هذا العامل الاستراتيجي ما يمكن العوائد النفطية أن تحققه في الاقتصاد الكلي لبريطانيا التي لا تتمثل فقط في الفوائد التي تجنيها الشركات، بل بالرواتب والمكافآت الضخمة لآلاف العاملين مباشرة في هذا الاستثمار، لاستبان الحرص الكبير من الحكومة البريطانية على هذه الاستثمارات، خاصة في منطقة الخليج. وقد ارتكز هذا الحرص على تعهدات حصلت عليها الحكومة من الشيوخ تحظر عليهم حق إبرام عقود خاصة باستثمار النفط إلا بموافقة الحكومة البريطانية. وكان هذا العامل هو الذي حدا بشركات النفط البريطانية إلى إرسال ثسجر وغيره سراً وعلناً إلى ظهير الساحل، للتحقق من قوة أولئك الشيوخ في ظهير الساحل، في المدى الذي تبلغه سلطاتهم في تلك المناطق، وهل هناك من شيوخ آخرين منفذين يمكن الاعتماد عليهم في دفع الخطر الذي تمثله شركات البترول الأمريكية التي راحت تتسرب بهدوء إلى تلك المناطق الداخلية؟

لم يكن ثسجر ضمن الكادر الإداري البريطاني العامل في الخليج، ولكنه كان في السلم وفي الحرب على حدّ سواء من أبرز العسكريين الاستخباريين الإداريين البريطانيين الذين تمرسوا في التعامل مع الشيوخ الوطنيين في مواقع عديدة من المنطقة العربية، ومع زعماء بارزين في أفريقيا. وكان هناك ارتباط عضوي بين العاملين البريطانيين في مجال الإدارة والسياسة في الخليج، والعاملين في مجال النفط المرتبط بالسياسة والإدارة. وكم من عامل في المجال الأول انقلب فجأة للعمل مع شركات النفط في الخليج! والعكس أيضاً صحيح، إذ اختلطت المصالح الشخصية للعاملين في هذه المجالات بالمصالح القومية لبلادهم، ما زاد في قوة الحماسة وأجّج فيهم روح المقاومة، من دون أن يدركوا أبعاد التحدي الذي كانت لندن تعمل على معالجته بصبر كثير وبحزم لا يرقى إلى الحسم. ولربما لم يكن لثسجر من ارتباط مباشر بالإدارات السياسية البريطانية في الخليج ذات الأهداف المتشابكة مع الإدارات النفطية فيه. ولهذا نجده في غدوه ورواحه أكثر ارتباطاً بالإدارات النفطية – التي كانت تستضيفه في منازل موظفيها الذين كانوا في أعمّهم من

رفاق ثسجر الذين عمل معهم سابقاً، أو تعرّف إليهم - منه بالإدارات السياسية أو الإدارية. إن نظرة واحدة في الخرائط التي أعدّها ولفرد ثسجر لخط سيره تؤكد أنه كان في رحلته الأولى يعمل على استكشاف المنطقة سكاناً وقبائل وشيوخاً، مع اهتمام بارز بالحدود السياسية التي لم تقم بعد رسمياً مع اليمن. وكان في رحلته الثانية عبر صحراء الربع الخالي وعلى أطرافها حريصاً إلى درجة المغامرة على استكشاف الحدود القبلية للمملكة العربية السعودية. وتبرهن رحلاته الأخرى في عمان الداخلية وظهير أبو ظبي وتفرعات دروبه المستكشفة أنه وجد ضالته في شخصية الشيخ زايد في المويجعي. إن الناظر إلى بعض المصوّرات الجغرافية التي رسمها ثسجر والأسهم الداخلة إلى المويجعي والخارجة منها تؤكد أن عين هذا الجندي الاستخباري قد تفتّحت على حقائق كان لها آثارها البعيدة في السياسات البترولية في المنطقة ومسائل الحدود فيها بعد ذلك. ويؤكد توقيت هذه الرحلة، والدروب التي سلكها هذا الرحالة، والمناطق التي زارها، والشيوخ الذين التقاهم، هذه المهمة الاستخبارية التي قام بها لحساب شركات البترول البريطانية، والأمر عينه تؤكده الوثائق.

امتاز الرحالة الاستخباريون على مدى تاريخ الرحلة الغربية في المنطقة بصدق القول في ما تتّسع له أذهانهم. وعلينا - معشر المؤرخين - أن نفحص أقوالهم، وأن نعمل على نقدها بدقة وعناية وأمانة، ثم نأخذ منها ما تؤيّده الشواهد الأخرى، ونرفض ما يعارضها، وعلينا أن ندين بالنقد الصريح باطلها الذي نجد أنه غير مقصود في كثير ممّا كتبوا، بل هو من قبيل المغروس الثقافي الغربي الذي ينطلق متعدّياً على الحقيقة الشرقية كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. وقد امتاز الرحالة الاستخباريون أيضاً بوصف طوبوغرافية الأرض التي يمرون عليها، وذلك ما لا نجده عند ثسجر. فقد تطور الطيران وأصبح المسح الجوي عيناً على الأرض يرصدها بدقة لا تستطيعها عين الرحالة. وتميّز الاستخباريون من الرحالة أيضاً بإتقان فنون الرسم، وذلك ما لا نجده عند ولفرد ثسجر أيضاً، فهو قد امتلك آلة تصوير منذ عام ١٩٣٤م، وما عاد الرسم يعبّر عن الحقيقة كما تفعل الصور التي أبدع ولفرد في التقاطها. هذا إضافة إلى أن الاستخباريين جميعهم كانوا على مدى تاريخهم الطويل يهتمون بالوصف التفصيلي لهيئة من يهمهم استطلاع أمره، ولكن آلة التصوير الخاصة بهذا الرحالة، وفنون التصوير التي أجادها، وروح الفنان التي ميّزته أغنته عن ذلك كثيراً، فصبّ جلّ اهتمامه على استكشاف مدى امتداد سلطان الشيوخ والقادة الذين قابلهم، فتلك كانت مهمته الأساس. يقول تقرير من الوكيل البريطاني في البحرين إلى المقيم البريطاني بتاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٣٦٩/٢٧ مارس ١٩٥٠ "تأكدت من ثسجر الموجود هنا أن أهم القبائل في المنطقة التي زارها في ظهير الساحل العماني هي بني كعب والبوشامس والنعيم والبلوش، وهي قبائل مستقلة استقلالاً ذاتياً، ويمكن السعوديين أن يتعاملوا معهم مباشرة".

وسم ثسجر كتابه عن رحلته هذه بعنوان: **الرمال العربية**. ونرى أن العنوان لا يعبّر عن روح

المضمون الحقيقية، وإن عبّر عن هيئة هذا المضمون التي تعمّدت الغموض. استبان لمؤلف الكتاب بعد رحلته الأولى عبر الربع الخالي أن مفتاح المهمة التي كلف بها هو في يد زايد بن سلطان آل نهيان الذي يمثل من قلعته في المويجعي مركز الثقل في تلك البادية. فلا غرْوَ أن قصد هذا الرحالة زايد في المويجعي عدّة مرات. ذهب إلى المويجعي في الثالث من جمادى الآخرة ١٣٦٧/١٢ إبريل ١٩٤٨م ليغادرها إلى بريطانيا عبر الشارقة والبحرين، وعاد إلى المويجعي مرّة أخرى في ٥ نوفمبر من العام ذاته ليغادرها في يناير ١٩٤٩ بعد أن استوفى مهمته بصورة نهائية. وأدّت تقارير ثسجر السرية، إضافة إلى المعلومات التي أوردها بيرد، إلى أن ترشد الشركات في تعاملها مع شيوخ المنطقة على ضوء من الحقائق المستمدة من الوقائع على الأرض. وقد ساعدت هذه التقارير هندرسون الذي كان ممثلاً للامتيازات النفطية في البحرين في تثبيت السيادة العمانية على عدّة مناطق في الظاهرة، وذهب في سبيل ذلك إلى قيادة حملات عسكرية في الداخل العماني كان يموّلها على حساب شركات النفط البريطانية، كما رشا بعض شيوخ القبائل العمانية لربطهم بمعسكر السلطان، خاصة بعد أن أصيبت الإمامة في الداخل العماني بالوهن والفتور. وامتاز هندرسون – وهو يتعامل وفق تقارير صادقة – بدرجة عالية من الوعي، ما مكنه من أداء عمله في هذه المناطق في الفترة ١٩٥٣–١٩٥٥م.

وقع ثسجر – بعد عبوره طرف الربع الخالي المتاخم للقبائل التي تدين بالولاء للسعودية – في أسر السلطات السعودية. وتقول وثيقة بريطانية (PRO/F.O./371/1676) صادرة عن الخارجية البريطانية إلى بعثتها في جدّة بتاريخ ٢٤ ربيع الأول ١٣٦٧/٤ فبراير ١٩٤٨ إن أستلي Astlay، والدة ولفرد، تلقّت من فلبي – أحد الرجال الذين كان يستخدمهم ابن سعود – أنه تدخل لدى الملك لإطلاق سراح ابنها الذي دخل البلاد من دون إذن (!). وتشير الوثيقة إلى أن فلبي كان يعتقد أن ولفرد يعمل لحساب الجمعية الجغرافية الملكية، بينما عبّرت الوزارة عن رأيها في أنه كان يقوم بجهود استكشافية لشركة نفط ظفار. وجاء ردّ السفارة في جدّة بتاريخ ٢٠ فبراير غير قاطع، إذ أفاد بأن ثسجر قد أعدّ أكثر من مرّة أوراق بحث للجمعية الجغرافية الملكية، وأسهم عدّة مرّات في الكتابة في مجلتها. وأبدت السفارة تشكّكاً في مصادر تمويل هذه الرحلة الأخيرة، وأفادت بأنها لا تعرف إن كانت نشاطاته مرتبطة بشركات النفط أو لا، "ولكن ذلك يبدو محتملاً".

تقطع تقارير هاي، المقيم البريطاني في الخليج، هذا الشك باليقين، إذ يقول: إن ثسجر قد عاد من جولاته الأخيرة في عمان "وهو يتبنّى خطأً أكثر واقعية في ما يخصّ السلطان (مسقط)، ويرى ضرورة التعامل معه وفق امتداد المناطق التي تقع تحت سيطرة حكمه الفعلية، والتي حددها بالمنطقة الممتدة في الساحل الشرقي بين صور والفجيرة". وتذهب الوثيقة إلى أن ثسجر يتحدث

بإعجاب شديد عن العائلة الحاكمة في أبو ظبي، ويرى أنهم إذا أصابوا ثراءً من العمليات النفطية التي تجري في الوقت الراهن في المناطق الواقعة تحت سلطتهم، فإنهم يستطيعون بسهولة فرض سلطتهم على كافة القبائل التي تسكن جنوب البريمي، والتي نعدّها في الوقت الراهن من قبائل السلطنة.

ويؤكد التقرير حماسة ثسجر لتعامل شركات النفط مع آل نهيان حتى تتمكن من القيام بعملياتها في ظل حاكم قوي يوفر لها الأمن. وأشارت تقارير ثسجر إلى أن زايد بن سلطان آل نهيان هو الشيخ الأبرز في الداخل الذي تسيطر بريطانيا على سواحله، وهو الذي يمكن أن يتعاون مع المصالح البريطانية من دون أيّ معوقات. ولمّا كان زايد يدرك هذه الحقيقة في المنطقة الداخلية التي يحكمها، ويدرك أيضاً أن نفوذه يمتد إلى ما وراء تلك المنطقة، ويدرك السبب الذي أتى بهذا الرحالة عبر الرمال العربية إلى المويجعي، فقد عمل على تمكين هذا الرحالة ليستكشف الحقائق التي يسعى إلى استجلائها ليعيد صياغتها على مهل، وذلك باستضافته التي مكّنته من الاستقصاء. وعلى الرغم من محاولة ثسجر إخفاء طبيعة مهمته التي يقوم بها، كانت معلومة تماماً لزايد ولغيره من الشيوخ الأقل نفوذاً في ظهير أبو ظبي، وفي عمان الداخلية أيضاً. ويفضح هذا التقرير الذي أشرنا إليه الأمر حين يقول إن الشيخ سليمان بن حمير، زعيم مجموعة القبائل الغافرية في عمان الأساسية، نزل من الجبل خصوصاً لمقابلته وإبلاغه أنه يتطلع إلى التعامل مباشرة مع الحكومة البريطانية إذا عاملته على أساس أنه شيخ مستقل. وأبدى سليمان استعداده للدخول مع البريطانيين في تعهدات مماثلة للتي ارتبط بها شيوخ أبو ظبي وشيوخ الساحل الآخرون. وعبّر ثسجر في تقاريره للمقيم عن عدم اقتناعه بالتعامل مع هذا الشيخ، لكنه مع ذلك وعد الرجل بأنه سيرسل الرد على طلبه لاحقاً. ويقول هذا التقرير أيضاً: "إن الإمام العماني رجل بالغ التعصّب، ولا يرغب البتّة في إقامة أيّ علاقات مباشرة مع أيّ قوة نصرانية". ويخوض ثسجر في تاريخ عمان حتى يصل إلى عام ١٩١٣م وانتخاب الإمام الخروصي، ويأتي على معاهدة السيب وصولاً إلى تولّي الإمام الخليلي مقاليد الحكم في عمان الداخلية. وقد ورد في تقرير للمعتمد البريطاني في البحرين بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٥٠ أنه علم من ثسجر أن القبائل المهمة المستقلة في تلك المنطقة هي بنو كعب والبوشامس والنعيم والبلوش، ويمكن السعوديين التعامل مع شيوخهم مباشرة. ولكن "إذا أمكن القول إنهم مستقلون عن شيوخنا، فيمكن القول أيضاً إنهم مستقلون عن السعوديين". ويعترض المعتمد على ما ورد في برقية البعثة البريطانية في جدّة من أن إطالة أمد المفاوضات يمكن أن يؤدي إلى شدّ محتملٍ في العلاقات السعودية البريطانية. فتعليق المفاوضات إلى أمد آخر لا يثير في العادة اعتراضاً لدى العرب، ورأى أن التعطيل سيمكّن السلطات من إنشاء كشافة ساحل عمان. كذلك جاء في تقرير في ٢٩ مارس

١٩٥٠ لروبرت هاي، المقيم في الخليج، أن رحلة ثسجر كانت عموماً عبر أرض الدروع جنوباً حتى خط نزوى، وأنه لم يتمكن من دخول الجبل الأخضر علناً بسبب كراهة الإمام لذلك، وأنه أنفق كثيراً من المال لاستئناس الشيوخ. ويذهب إلى القول إن الدروع إباضيون ويعارضون السعوديين على أسس عقدية. أما قبائل البريمي السنيّة، كالنعيم والبوشامس، فهمّهم المال. لقد طلبوا إلى بيرد (بترول العراق) أن يعود إليهم للتفاوض معهم مرّة أخرى، و"لكن هناك خطر حقيقي في أن تستجيب هذه القبائل إلى ابن سعود ويمنحوا الرياض حقّ الامتياز في أراضيهم". ويذهب هاي وينقل على لسان ثسجر أنه ليس لسلطان مسقط أي نفوذ في هذه المنطقة، وأنه إذا أرسل أياً من عماله إليها فسيعاملون من قبل شيوخ المنطقة بالازدراء. "ولكن قد ينجح شيخ أبو ظبي عن طريق أخيه زايد في إدراج هؤلاء الشيوخ تحت سلطته ويعمل على تأسيس النظام والقانون في المنطقة". ويخبر هاي بأن سليمان بن حمير، رئيس القبائل الغافرية في عمان، طلب إلى ثسجر – حينما التقى به خلال رحلته – الاعتراف به شيخاً مستقلاً في نظير أن يقيم مع الحكومة البريطانية علاقة على أسس مماثلة لعلاقاتها المتبادلة مع أبو ظبي. وينقل المقيم عن ثسجر أن الاحترام الذي يتمتع به الشيخ شخبوط وأسرته في أوساط قبائل المنطقة يفوق ذلك الذي يتمتع به السلطان الذي ينظرون إليه بصفته سيداً للباطنة ومسقط وظفار فقط. أما الإمام فهو في تقدير ثسجر متعصّب لا يُرجى منه الجلوس للتفاوض مع البريطانيين ولا مع شركات البترول التابعة لهم. ويخلص المقيم إلى ما أوصى به ثسجر من ضرورة إطلاق يد أسرة أبو ظبي لتمدّ نفوذها على البريمي وعلى ما وراء ذلك لئلا تذهب القبائل إلى ابن سعود. ويشير المقيم إلى وجود كميات كبيرة من المياه في المنطقة الواقعة إلى جنوب البريمي، "وفي حالة وجود البترول فسيكون لعائلة أبو ظبي من عائداته ما يمكّنها من تشجيع الزراعة في هذه المنطقة. ويضيف المقيم أن أسرة أبو ظبي تعارض منح امتياز الجرف البحري لأي شركة بترول أمريكية، لأن ذلك سيجرّ في إثره موظفين أمريكيين وحرساً سعوديين في منطقة الساحل إلى الجنوب من العديد. وأبدى المقيم اعتقاده بأن شركة بتروليوم كونسشون يمكنها استغلال الوضع بنحو تكتيكي للحصول على موافقة الحاكم على إلحاق امتياز الجرف البحري بامتيازهم السابق، نظير مبلغ زهيد نسبياً.

أبو ظبي

وصل ثسجر إلى أبو ظبي في الرابع عشر من مارس، وكانت على حدّ وصفه: بلدة صغيرة متداعية تمتد في محاذاة ساحل الخليج، وعلى مشارفها بئر ما، وفيها عدد قليل من أشجار النخيل. لدى وصول ولفرد وجماعته كانت أبواب القلعة موصدة، "فاستلقينا في ظل جدارها على مقربة من مدافع صغيرة كانت نصف مطمورة بالرمال". وخرج من باب جانبي في القلعة فتى

صغير مشى قليلاً ثم تقرفص فبال. وعندما انتهى سألوه إن كان الشيوخ جالسين، وهو تعبير كناية عن أنهم على استعداد لاستقبال من يقصدهم. وأرسل ولفرد مع ذلك الصبي إلى الشيوخ من يقول لهم: إن إنجليزياً قدم من حضرموت ينتظر مقابلتهم، فاستجابوا له بعد أن أرسلوا مندوباً ألقى عليه بعض الأسئلة. ضمّ مجلس شخبوط شقيقاه هزاع وخالد. ويصف ثسجر شخبوط بالرجل الناعم الصوت، المنتظم التقاطيع، الضئيل البنية، الشاحب الوجه، لحيته السوداء مشذّبة بعناية فائقة وعيناه الكبيرتان سوداوتان. ويقول إنه كان ودوداً لطيفاً، مع أنه كان متحفظاً، يتحرك ببطء وحذر بالغين ليسيطر على مزاجه الانفعالي. وقد بدا الشيخ للرحالة كأنه لا يثق بأي من الرجال. ويعلل ثسجر ذلك بأن شخبوط كان الحاكم الرابع عشر لأبو ظبي من سلسلة حكام مات منهم اثنان فقط ميتة طبيعية، أما الآخرون فقد اغتيل منهم ثمانية، ونُفي أربعة منهم إلى الخارج بعد أن تمرّد عليهم بعض أفراد أسرتهم. واسترعى هزاع، الرجل الذي غطّت لحيته نصف صدره، انتباه ثسجر لأنه كان بشوشاً. أما خالد فما ميّزه عند ثسجر أن سنّه الأمامية كانت غير ثابتة، وكان كثيراً ما يحرّكها بلسانه.

يكتب ثسجر عن اللقاء الأول والأحاديث التي دارت في ذلك المجلس، وكان منها انتقاد الشيخ شخبوط اللاذع لما يقوم به اليهود في فلسطين. ويدّعي ثسجر أن ابن كابينة، مرافقه، لم يسمع عن اليهود شيئاً قبل ذلك، و لم يتمالك أعصابه فسأل: من هم اليهود؟ هل هم عرب؟

يتحدث ثسجر عن الكرم الذي لقيه. فعند حلول الظلام جاء العبيد بطبق كبير من الأرز ولحم الغنم وأطباق أخرى مترعة بالتمر وصنوف أخرى من الحلوى. وبعد الطعام جلس العبيد مع الرحالة ومرافقيه وتحدثوا "بلا رسميات". ويلاحظ ولفرد ما لاحظه كافة الرحالة الغربيين قبله، أن العبيد في بيوت سادتهم العرب يمثّلون جزءاً من العائلة "ولا يعانون التمييز الاجتماعي". وفي الغرفة الخاوية المفروشة بالسجاد التي خصّصها شخبوط لاستضافتهم في ذلك البيت المتهدم الفسيح الواقع قرب السوق، وفد إليهم تجار السوق وبعض البدو لاستلقاط الأخبار. وعلى الضوء الخافت الذي يرسله القنديل الذي كان يبعث دخاناً من خلال فرجة زجاجته المكسورة دارت الأحاديث وثسجر مأخوذ بتلك البساطة العارية التي بدت له أميز من تكديس الأثاث بلا ضرورة. وكثيراً ما قضى العديد من الزوار الليل في تلك الغرفة يلتفون بعباءتهم وينامون حتى الصباح.

مكث ثسجر في أبو ظبي عشرين يوماً كان يلتقي فيها الشيوخ كل صباح يتحدثون معه لساعة أو أكثر، يرتشفون خلالها معه القهوة ويتناولون الحلوى ثم ينصرفون. ويخرج ثسجر بعد ذلك إلى السوق، ويجلس القرفصاء أمام أحد الحوانيت الصغيرة يثرثر مع الناس ويتناول المزيد من القهوة ويتجوّل على الساحل. ويقول: إن هذه البلدة الصغيرة تضم نحو ألفي نسمة، وتحدث عن صيد السمك فيها، وعن "تجديد مراكب البوم"، وطلائها بزيت سمك القرش

استعداداً لموسم صيد اللؤلؤ المقبل. وحين يتجوّل الشيوخ في أبو ظبي، فإن الشيخ شخبوط بشخصيته المهيبة وعباءته السوداء كان يتقدّم إخوته قليلاً، ويتبعه حشد من العبيد المسلحين.

يتحدث ثسجر عن امتداد سلطة آل نهيان فيقول: إن الشيخ زايد كان يسيطر على ست من قرى البريمي باعتباره ممثلاً لأخيه في المنطقة، وإن القريتين الأخريين في البريمي كانتا بسيادة اسمية لسلطان مسقط (البريمي، حماسا). وبعد أن يحدد ثسجر امتداد سلطة سلطان مسقط في الداخل ثم سلطة السعوديين التي تمتد إلى قبيلة آل مرّة على مشارف الربع الخالي، ومساعي السعوديين لجمع الزكاة في ليوا يقول: إن بني ياس قد طردوا السعوديين أخيراً عن ليوا، وهم تابعون للشيخ شخبوط. أما منطقة البريمي "فقد مضت ثمانون عاماً على خروج السعوديين منها، و لم يبقَ فيها من النجديين سوى بعض التجار الذين يتعاملون في النخاسة التي تجد لها سوقاً رائجاً في القريتين اللتين لم تكونا تحت سيطرة زايد المباشرة. ويستطرد ثسجر وهو يراقب سلطان شيوخ المنطقة وسلطاتهم بعين ثاقبة، وأذن واعية، وقلب مفتوح، ليتمكن من أداء المهمة التي انتُخب لها، والتي تقضي بأن يعمل على منع دخول الامتيازات الأمريكية وتقصّي أحوال شيوخ القبائل والحكام ليختار من أوساطهم رجلاً يمكنه أن يسوسهم لقبول التعاون مع المصالح البريطانية في المنطقة.

يقول ثسجر: إن لكل شيخ من شيوخ الساحل جنداً مستخدمين من القبائل إلا شيخ أبو ظبي الذي كانت له سلطة حقيقية على القبائل ذاتها، ويحافظ على هذه السلطة بالطرق السلمية، ولا يلجأ إلى فرض سلطانه بالقوّة. ويلاحظ ولفرد عدم وجود قوة نظامية في أي من إمارات الساحل المتصالح، ويضيف: إن سلاح الجوّ البريطاني كانت لديه قاعدة في الشارقة، ولكنها كانت محطة على الطريق إلى الهند. ويحدد ثسجر السلطة الفعلية التي يتمتع بها شيوخ آل نهيان في ظهير أبو ظبي، كما يحدد السلطة الاسمية لهم في ما وراء ذلك. ولربما كانت تلك الإشارة الأولى إلى ضرورة قيام قوة مسلحة نظامية في ساحل عمان والتي سرعان ما تبلورت بقيام كشافة ساحل عمان، وما رافق ذلك بعدئذ من نشوء ما عرف بمشكلة البريمي التي كانت من أهم النتائج التي تمخّضت عنها رحلة ثسجر.

يستطرد ولفرد ثسجر فيتحدث عن المويجعي التي أصبحت بعد ذلك هدفه وقبلته، ليتحقق ويستوثق من أن آل نهيان هم الشيوخ المسيطرون في ظهير الساحل كله، وأنهم - بجهود زايد بن سلطان آل نهيان وحكمته وكرمه - هم الأقدر على ضبط البادية، لتمكين الاستثمارات البترولية من مسوحاتها، وهم - فوق هذا وذاك - الأقدر من كافة الآخرين على الوقوف في وجه الزحف الأمريكي الذي لم يكن يتعامل مع شيوخ هذه المنطقة، وذلك في فترة كانت فيها العلاقات الظبيانية السعودية متردّية.

قلعة المويجعي

كان زايد يعيش في هذه القلعة التي تحرس المويجعي التي هي من قرى منطقة البريمي، وكان حصنه البارز يُرى من مسافة عند خروج المرء من الكثبان الحمراء التي تفصل البريمي عن أبو ظبي إلى السهل الحصوي حيث يقوم الحصن. ويصف ثسجر منطقة الحصن الذي يقوم على فناء واسع محاط بسور يبلغ ارتفاعه عشر أقدام، على يمينه جدار متداع نصف مطمور بالرمل يبدو أنه أقيم – في ما نعتقد – كمصدّ لزحف الرمال عن مزرعة النخيل غير المتناسقة التي تقع خلفه. ويتبدّى للناظر وراء المزرعة جبل حفيت على بعد عشرة أميال من القلعة، ويرتفع إلى حوالى خمسة آلاف قدم. ويضيف ثسجر أنه كان يلحظ من فوق الحصن "معالم زرقاء باهتة لجبال عمان البعيدة"، ويحكي عن لقائه الأول مع زايد، ذلك اللقاء الذي ترك أثراً بالغاً لدى هذا الرحالة الذي تعكس كلماته أنه بات قريباً من تحقيق المهمة التي كُلّف بها.

قال ثسجر إنه طالما تطلع إلى لقاء زايد الذي كان البدو يجلّونه لما امتاز به من بساطة تتجلّى في تصرفاته غير الرسمية، وفي تعامله الودّي معهم. احترم البدو فيه قوّة الشخصية وبُعد حكمته وقوّة جسده، ودقّة رميته، ومعرفته فنون القتال التي تعادل احترامه لأقدار الرجال، هذا إضافة إلى تمرّسه بحياة البدو والبادية. فقد قال البدو عنه: "إنه يعرف النوق ويمتطيها كواحد منهم".

وصف ثسجر زايد في هذا اللقاء الأول بأنه قوي البنية بنحو لافت، تنمّ قسمات وجهه عن الذكاء، أما عيناه فثاقبتان في تيقّظ. وكان الانطباع الأول لهذا الرحالة عن زايد: إنه "شخص هادئ قادر، ذو عزيمة"، أما لباسه فقد امتاز بالبساطة أيضاً: "ارتدى جلباباً بنياً فاتح اللون من نسيج عماني وصدرية بلا أزرار، وامتاز في لباسه عن رفاقه بعقال أسود وكوفية مسترسلة غير ملفوفة حول الرأس كما هي الحال السائدة في المنطقة. وكان يتمنطق بحزام رصاص وخنجر".

وأشار إلى أن زايد يبلغ حوالى الثلاثين من عمره.

في أول لقاء جمع هذا الرحالة بزايد لاحظ أنه أمر خدمه بفرش بُسط له ولمرافقيه، بينما كان هو يجلس على الرمل، وقدّم الخادم القهوة والتمر "ولا بد منهما". ولعلنا نلاحظ المهمة الأساس لمجالس الشيوخ التي تبدو لبساطتها للذهن الأوروبي أنها مجرد مجالس لقاء. تمثل هذه المجالس نظام الحكم الأبوي، وهي البرلمان، كما تمثل ساحة المحكمة، وهي أيضاً رئاسة الاستخبارات، وذروة الديموقراطية في المجتمع المحلي. ولعلنا نلاحظ أيضاً المهمة الاستخبارية هنا في ما رواه ثسجر حين قال: سألني الشيخ زايد عن رحلتي، وتحرّى المسافات والآبار وواحة جبرين، وليلى والسليل، والمناطق الداخلة في طاعة السعوديين، كما سأله أيضاً عن كيفية عبوره ديرة الدروع. ولاحظ هذا الرحالة أن زايد على معرفة بالغة بشؤون الصحراء. وغفل ثسجر عن أمر أساس وهو أن الأسرة الحاكمة عندما اختارت زايد عام ١٩٤٦م على هذه المنطقة

التي باتت قبلة للاستثمارات النفطية، راعت في اختيارها معرفته بشؤون الصحراء ودرايته بالتعامل مع إنسانها. ومنذ عام ١٩٣٣م باتت شركات البترول البريطانية تحرّض حكومتها على سن "قانون في المجلس" لحماية مسّاحيها في ظهير أبو ظبي، ولكن تلك الحكومة كانت في هذه الفترة تخشى أن تثير غضب الأمريكان، الأمر الذي تجاوزته في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وراح حكام أبو ظبي يرقبون بحذر تطور أزمة الاستثمارات البريطانية الأمريكية في ظهيرهم، فاختاروا زايد من بينهم لمواجهتها، لأنه الأقدر على إدارة الأزمات، وسموّه حاكماً لتلك المنطقة، ولحكمته المعهودة ودرايته بتاريخ قومه في البادية وتعلقه بتراثها، وتعامله بعقل مفتوح مع مشكلات التحديث دونما اعتبار للعقابيل، وانفتاحه على التعامل مع الغربيين أكثر من شخبوط، أخيه الذي ظلّ يتعامل معهم بحذر بالغ، ومن ثم جاء تعيينه حاكماً للعين في هذا الوقت بالذات.

لم ينتظر زايد طويلاً ليكشف لثسجر أنه يدرك طبيعة المهمة التي ساقته إلى الصحراء. فقد قال له منذ لقائه الأول به أن بيرد – إنجليزي آخر – يقيم في إحدى قرى البريمي، ويعمل على إقناع القبائل بالسماح لإحدى شركات النفط بالتنقيب. وأشار زايد إلى أن ذلك الرجل لم يصب نجاحاً. وهذا يدل على أن زايد كان يراقب ما يجري حوله بدقة لاستثمار المواقف واهتبال الفرص. ويبدو أن ثسجر قد وجد منذ اللحظة الأولى ضالته في زايد، وما لبث الأخير أن وثق بالأول ثقة عمياء. يحدثنا أحد الإداريين البريطانيين أنه كان يفاوض زايد في مسألة ما في خيمة كانت مفصولة في الداخل بستارة تمثّل عازلاً لخباء النساء. وحدث أن خرج زايد لهنيهة من المجلس لبعض حاجته. وحرّك الهواء الستارة، فلحظ ذلك الإداري الذي كان يشك في وجود حريم في ما وراء الستار وجود ثسجر في الخباء وهو يحمل ورقة وقلماً.

يزعم ثسجر في كتابه: **الرمال العربية** أنه صديق للمدعو ديك بيرد الذي قابله قبل ثلاث سنوات حينما كان الأخير ضابطاً سياسياً في البحرين. وانطلاقاً من الصلف الغربي الذي يميّز هؤلاء الرحالة، يصف ثسجر بيرد "بالرجل المهتم بالعرب المتعاطف معهم". ولا ندري كيف له أن يهتم بالعرب، ويتعاطف معهم وهو أعزل يقيم في ضيافة العرب، الذين هم أمة، وهو في حماية بعضهم وفي ذمتهم؟! ويكشف ثسجر عن شيء من مهمته حين يقول إنه قرر البقاء مع الشيخ زايد والإقامة في كنفه وليس مع بيرد: "ما دمت أنا في البريمي، فإذا ارتابت القبائل المحلية في أني على صلة بشركة النفط، فإن ذلك سيقلص كثيراً من فرص وصولي إلى عمان". بهذا الاعتراف المنقوص يكشف هذا الرجل عن مهمته، فوجود بيرد لم يكن يرضي سلطان مسقط، و لم يكن يشبع طموحات شيوخ القبائل في المنطقة، ولا يقنع الإمامة في عمان، وهو – فوق كل هذا وذاك – لا يحظى بقبول زايد الذي أكد في أول لقاء له مع ثسجر – في صراحته ببساطة متناهية – أن هذا البيرد لا يحسن التخليق في الاتجاه الصحيح، ولن يصل إلى مبتغاه. أما تبريره

البقاء في رحاب الشيخ زايد من دون الإقامة مع بيرد فهو أيضاً حقيقة ناقصة. فقد كان ثسجر يسعى لمعرفة المزيد عن زايد وشخصيته وعلاقاته بالقبائل وشيوخها، ومدى قوة نفوذه، وذلك وفاءً لمهماته الاستخبارية من دون أن يثير الريبة.

في فقرة أخرى في الفصل الثالث عشر من كتاب **الرمال العربية** يكشف ثسجر عرضاً عن مهمته. ففي حديث آخر له عن الأمن في الصحراء يقول: إن البدو يخدمون كجنود مرتزقة لدى بعض الشيوخ، وهم مغامرون بطبيعتهم، ما يجعل انعدام الأمن في البادية أمراً متأصّلاً. فالشيوخ المتخاصمون يعتمدون إلى حدّ بعيد على مؤازرة البدو غير المضمونة للحفاظ على مراكزهم. وكان شيوخ البدو يتنافسون على كسب تأييد رجال القبائل بالبذل والعطاء، وهؤلاء الشيوخ لا يعترفون في مناطقهم بسلطة أعلى من سلطاتهم، كما لم يكونوا – في الوقت نفسه – قادرين على فرض سلطاتهم على البدو، و لم يكن أي منهم يحاول ذلك خوفاً من فقدان تأييدهم له. ونتيجة لذلك كانت البادية تعجّ بالخارجين عن القانون، ولا ضابط لهم إلا الدية وانتقام القبائل المعادية. ويسترسل ثسجر فيقول: إن كل الخارجين على القانون في البادية يدركون أن الشيوخ يسعون إلى الظفر بصداقتهم وعدم استعدائهم، ومن يستعدهم من هؤلاء الشيوخ يجد شيخاً آخر يطالب بالإفراج عنهم ويدّعي أنهم تحت حمايته. وعلى الرغم من أن تفسير حقائق الصحراء وتحليلها من قبل عقل كوّنته ثقافة بلاد الضباب يبقى أمراً صعباً، أدرك الرجل في تحليله قدراً من الحقيقة كان سبباً في نجاح مهمته، إذ يستفاد ممّا جاء فيه أن اعتماد شركات النفط على شيوخ القبائل سياسة خاطئة. فقوّتهم متأرجحة، وهم في تنافس أزلي بعضهم مع بعض. وبالطبع فقد حمل هذا الرحالة هذه النتيجة إلى هندرسون الذي كان أحد مراجعه، وكان رفيق سلاحه في البلاد العربية، إذ تزاملا في الخدمة في سورية خلال الحرب العالمية الثانية.

أدرك زايد بذكائه الفطري الذي شهد عليه ثسجر قبل غيره أن بيرد يمثل الجزء البارز للعيان من جبل الجليد الذي يمثّل ثسجر أصله الغائص المغموم عن العقول غير المدربة على الإبحار في الشؤون السياسية. كان بيرد يقوم بمهمة معلنة لشركة بترول العراق (بيترليوم دفلبمنت عمان) لتحديد أمثل السبل لتمكين فريق المسح الجيولوجي من دخول المنطقة، ولكنه كان قصير النظر حين راح يتفاوض مع شيوخ منطقة الظاهرة دونما اعتبار لسيادة السلطات الشرعية، محتجّاً بأن السلطان السيد سعيد بن تيمور عاجز عن تأمين دخول موظفي الشركة إلى المناطق الداخلية من عمان. وقد احتجّ السلطان لدى المقيم البريطاني مراراً على ما قام به بيرد في رحلته عام ١٩٤٨م والسنة التي تليها، وأشار المقيم في هذا الصدد إلى أن بيرد ينسف بعمله هذا النفوذ البريطاني في المنطقة تماماً حين تتوزع السيادة فيها بين شيوخ القبائل، وولاء هؤلاء لبريطانيا غير مضمون، ما يفقد – في نهاية الأمر – الحكومة البريطانية القدرة على تقديم الدعم له للوقوف في وجه ابن سعود وشركات النفط الأمريكية المؤيدة بحكومة واشنطن. أما زايد فلم يحتج، فقد سنحت له

الفرصة باستضافة ثسجر، ليجعله يدرك بنفسه أبعاد المشكلة، ويوصي في تقاريره شركات النفط أن ترشد وتدرك مع أي الرجال عليها أن تتعامل في الظهير المتشابك بين أبو ظبي ومسقط، الذي تتنازعه عوامل أخرى ممثلة بالمملكة العربية السعودية وإمامة عمان، وبطموحات شيوخ بعض قبائل المنطقة. و لم يبخل زايد على ثسجر باستضافته مرتين متتاليتين دامت إحداهما أكثر من شهر، وكان فيها ثسجر ملازماً مجلسه. أراد زايد أن يمكّن ثسجر من أن يدرس على مهل وبإمعان طبيعة السلطة في المنطقة، وأن يدرك من هو الأبرز نفوذاً فيها والأكثر شهرة، ومدى امتداد نفوذ آل نهيان في البادية وفي مجالس شيوخها، وفي أوساط البدو وأرجاء البادية. و لم يبخل زايد على ثسجر برحلة اصطحبه فيها للصيد والقنص ليثري معرفته بثقافة البادية التي يجوبها زايد مطمئناً. فقد جمع آل نهيان قبيلة بني ياس من مجموعات من قبائل صغيرة ما كان لها من حول أو طول إلا بعد أن اجتمعت في وحدة تحت راية آل نهيان، واجتمع لها من المنعة ما استقطبت به تحالف قبائل أخرى.

أفلح ثسجر حين نقل إلى هندرسون – بعد دراسة واقعية لواقع المنطقة لقّنته إياها مجالس زايد بنحو علمي وصادق – أن آل نهيان هم السلطة الأكثر بروزاً في تلك المنطقة، وأن قوّتهم قوّة متكاملة مع قوّة سيد مسقط. أما شيوخ المنطقة الآخرين فيرفضون التعاون مع الاستثمارات البترولية والتعامل مع قوى التحديث، أو أن لهم طموحات لا تتناسب وقدراتهم،، بل إن ذلك ربما أدى بهم إلى العزف على النغم الآخر الذي لا يطرب الاستثمارات البريطانية، ولا يتناغم مع مصالح أهل منطقة الساحل ومناطق عمان. ولعل كل هذا – إضافة إلى فشل بيرد الذريع – قد أقنع الاستثمارات البريطانية بتفويض هندرسون القيام بمهمته.

أمن ثسجر على نفسه في ضيافة زايد، وكان طيلة إقامته معه يجلس في هذا المجلس يومياً على مقعد في ممر عند مدخل القلعة، وفي كثير من الأحيان في ظلّ شجرة خارج الحصن يراقب الزوار الذين كانوا يفدون من كل فجّ وصوب تقود إليه دروب الصحراء، من قبائلها من الرواشد والعوامر وبني ياس والمناصير، وغيرهم من السعودية ومن عمان. كان هؤلاء وأولئك يأتون لينهلوا من كرم زايد أو يأتونه بالأخبار، أو ليرفعوا إليه ظلاماتهم. وكان هؤلاء الأخيرون يتجادلون ويتخاصمون وتعلو أصواتهم بغضب بارز في مجلس الشيخ الذي اتّسع لهم جميعاً. وكان الشيخ زايد بشخصيته التصالحية وبتمرّسه في أعراف البادية يصدر الحكم الذي يرتضيه الخصوم. وقد أصاب ثسجر بقدر ما سمحت به ثقافته حين قال: إن الشيخ لم يكن يرغب في الإساءة إلى الخارج عن القانون، ولا أن يخسر شهرته بإجراء العدل، وكان بارعاً في ذلك. وفي الحقيقة، فإن ثسجر لم يكن يعرف قانون البادية ليحكم بخروج البعض عليه! ويضيف ثسجر أن البدو الزائرين للشيخ كانوا يطلبون منه هدية عند انصرافهم، وكانوا يُلحّون في ذلك. ويخطئ حين يقول: إن ذلك عادة متأصّلة فيهم، "فقد يقطع بعضهم رحلة أربعمئة

ميل من الرياض وإليها" ليحصل على شيء من ابن سعود، وآخرون قد ينطلقون من البريمي صيفاً ليحصلوا على بعض المال من السلطان في مسقط، وكثير منهم كانوا يقصدون زايد. ويستغرب ثسجر ذلك، ويسعى لتعليله فيخطئ، لأنه لا يدرك أن الطلب يمثّل جزءاً مهماً من منظومة النظام الأبوي. فالبدوي يفد إلى أبيه الشيخ ليحصّل منه ما يعينه على مكابدة اقتصاد الصحراء الشحيح. ولسوء فهم ثسجر لهذا التقليد الأبوي يقع في الكذب حين يقول: إنهم كانوا يطلبون هدايا من الشيخ، كما كانوا أيضاً يطلبونها منه شخصياً. وبالتأكيد أن الطلب منه غير جائز إلا أن يكون الطالب من خدمه والمرافقين له، إذ يصعب أن يمدّ البدوي يداً لمن قد يعطيه تفضّلاً لا عرفاً، أو قد يحرمه، فيهين في الحالتين كرامته. ولا عجب في مثل هذا الكذب الأغبش. فثسجر – مثل كافة من سبقه من الرحالة الغربيين – يريد أن يحرك في قارئه الغربي أن دخولهم الصحراء قد رفع من منزلتهم، ووضعهم موضع الشيوخ، وأن مجيئه قد عاد على بعض البدو خيراً وبركة، ونال بعضهم منه بعض ريالات حوّلت من نمط حياتهم إلى الأفضل. ولربما كان لثسجر هدف آخر، هو أن يمنّ على مستخدميه بأن جزءاً من مخصصات الرحلة قد ذهب إلى جيوب البدو وهو يحقق مهمته في أراضيهم!

ليوا في كتاب "الرمال العربية"

وردت أول إشارة إلى ليوا في كتاب **الرمال العربية** في بداية الفصل السادس عندما كان ثسجر يمتحن صدق الدليل الذي سيرافقه في قطع الربع الخالي، والذي – في ما يقول – قد عبر الربع الخالي منذ سنتين. وأكد الدليل للرحالة أنهم إذا استطاعوا اجتياز عروق الشيبة التي هي جبال متتالية من الرمال، فإنهم سيبلغون الظفرة حيث الآبار والقرى وحدائق نخيل ليوا. ويقول ثسجر إنه لم يسمع شيئاً مؤكداً عن الظفرة التي تبدو كأنها نهاية العالم عند بدو الجنوب الذين دخلت الظفرة أمثالهم فيقولون: "بعيدة مثل الظفرة". إنها تمثّل لهم نهاية العالم المعروف. وصف الدليل ليوا لهذا الرحالة فقال: إنها واحة من حدائق النخيل والقرى التي تمتد مسيرة يومين بالإبل. وأثارت هذه الأخبار ثسجر، لأنها منطقة – كما يقول – لم تطأها قدما أوروبي قبله، ثم عاد هذا ليذكر ليوا مرة أخرى حين أصبح على مشارفها عند نهاية رحلته الأولى في الربع الخالي، أو بحسب تعبيره بعد أن "خلّفوا الأسوأ" وراءهم. باتت الكثبان الرملية في هذه المنطقة أقل انخفاضاً عن تلك التي خلّفوها وراءهم، وأكثر تناسقاً في علوّها، وأكثر استدارة، وأضيق مساحة عند القمم. وما لبث ركبهم أن دخل بعد أربع ساعات من المسير مرتفعات متدرجة من الرمال التي تعكس ألواناً فضية وذهبية، والتي بدت في بعض المواقع بلون حبوب القهوة المسحونة، وتبدّت لهم في مرتفعات أخرى بلون القرميد والأرجوان، وعكست في

مواقع أخرى لوناً ذهبياً مع اخضرار غريب. وخيّم الركب بعد ساعتين أخريين من المسير على رمل بلون "الدماء الجافة"، ثم واصلوا المسير. وبات تسجر في هذه المرحلة يخشى على نفسه. فقد أصبح في إحدى مناطق التماس، وهي المناطق التي وفد إليها خصوصاً لاستكشاف ولاءات القبائل، واختيار قوّة الشيوخ والحكام والمتنفذين فيها من القبائل والجماعات. يقول تسجر: إن هذه المنطقة شهدت قبل فترة وجيزة الغزو القادم من حضرموت والسهول الجنوبية، كما يحدثنا عن وجود بعض محصّلي الزكاة السعوديين فيها. وفي معرض روايته يفصح مرة أخرى عن طبيعة مهمته من دون أن يقصد، إذ يقول إنه يريد أن يرسل إلى قرى ليوا من يشتري لهم طحيناً وأرزاً وتموراً وبُنّاً وشاياً وسكراً ومعْزاً، وإن محمد أحد مرافقيه أخبره أن "ليوا تخصّ البوفلاح حكام أبو ظبي". ولعل في هذه الكلمات ما يلخّص لنا النتيجة التي خرج بها هذا الرحالة من رحلته الأولى التي وصفها بأنها... رحلة تافهة لا تقدم شيئاً للآخرين إلا خريطة غير دقيقة قد لا يستخدمها أحد، وأنها مثّلت قسماً من رحلة أطول... هي رحلة العودة". ونضيف أنها مثّلت في حقيقة الأمر هدفاً لرحلة أخرى إلى ليوا قام بها هذا الرحالة من العين لاستقصاء الحقيقة التي أوردها محصّلة لرحلته السابقة، والتثبت منها. فقد كان الرجل بالغ الدقة في تنفيذ المهمة المكلّف بها. ويهمنا أن نشير إلى مقالة أخرى أثبتها هذا الرحالة بعد أن اجتاز ورفاقه تلك المرحلة، وباتوا على مقربة من قرى ليوا: "إن جميع قبائل الجنوب من عوامر ومناصير وبني ياس على علاقة طيبة مع الرواشد". وقد أشار إليه كافة مرافقيه من الرواشد بأنهم إذا وقعوا في إشكالات فإنهم سيخرجون منها سالمين بالتأكيد على أنهم من الرواشد قدموا من حضرموت، والادّعاء أنهم في طريقهم إلى أبو ظبي للقتال إلى جانب البوفلاح أهل أبو ظبي. ولعلنا نجد في هذا إشارة صريحة إلى أن كافة القبائل المذكورة ومواطنها كانت تناصر شيوخ البوفلاح. فهم حلفاء لهم، ويرحّبون بأي حليف آخر يجيء للانتصار لهم.

عاد رجال ولفرد الذين أرسلهم لشراء المؤن من ليوا بحمل بعير واحد، وكانوا قد أُرسلوا لهذا الغرض ومعهم ثلاثة أباعر، واعتذروا بأن أهل قرى ليوا رفضوا أن يبيعوهم بالريالات، فقد طلبوا الربيات، ولكنهم قبلوا الريالات بنفس ثمن الربيات، وكان الثمن بخساً فلم يشترِ رجال تسجر إلا القليل من الزاد. ولعلنا بهذا ندرك عمق ارتباط هذه المنطقة باقتصاد أبو ظبي، الذي كان في هذه المرحلة مرتبطاً ارتباطاً كبيراً باقتصاد شبه الجزيرة الهندية، تلك المستعمرة التي أخذت في هذا الوقت تتحرر من قبضة البريطانيين.

يقول تسجر إنه سأل أحد الذين أرسلهم ليشتروا المؤن من ليوا عن قراها فقال: إن فيها نخلاً جيداً يتوزع الكثير منه فوق الكثبان التي تعلو المنبسطات الملحية، وإن بيوتها مشيّدة من الحصير وسعف النخيل، وليس فيها أي بيت من الطين. وعلم هذا الرحالة منهم أيضاً أن جميع السكان كانوا من بني ياس أو من المناصير، وأنهم حين ارتابوا في أمره دافع عن نفسه ورفاقه

بأنه من الرواشد جاء للقتال إلى جانب البوفلاح، واستعصم بذلك عنهم. ويقول ثسجر في موضع آخر وهو يروي عن أحد مرافقيه أيضاً: إن المسطحات الملحية جنوبي ليوا تعج بقطعان إبل المناصير الذين يرعونها في تلك المناطق الملحية ما يجعلها كثيرة العطش، وعليها أن ترد الماء ثلاث أو أربع مرات في اليوم، ويضيف: إن المناصير من أحلاف آل نهيان الذين كان الولاء لهم منتشراً بلا مراء حتى في أوساط نساء البدو. ويحكي هذا الرحالة عرضاً أنهم عاجوا في طريقهم إلى مقر عجوز في ثوب أسود تقادم عليه الزمن حتى اخضر، كانت ترعى مع يافعين عدداً من النوق، فرغبوا في أن يصيبوا شيئاً من حليبها. رحبت العجوز بالوافدين وأرفدتهم، وسألتهم عن مقصدهم، فادّعوا أنهم ذاهبون للقتال في صفوف بني ياس، فقالت العجوز "بحماسة: الله ينصركم".

يحكي ثسجر في رحلته الثانية عبر الربع الخالي - التي انتهت باعتقاله في منطقة السليل ثم أطلق سراحه واجتاز المنطقة الحدودية حتى بلغ في ٢ مارس خياماً للمناصير على أطراف ليوا، حيث وجد دليلاً يمكن أن يقود ركبهم إلى أبو ظبي - عن مجموعة أغارت على مخيم للمناصير ولكنها انتهت بعقد صلح بين مشايخ أبو ظبي ومشايخ دبي، ما يدل على أن مشايخ أبو ظبي كانوا ينتصرون لأحلافهم مهما بلغت صلة قرابة العشيرة المعتدية. ويضيف ولفرد في ما أثبته في رحلته من العين إلى ليوا، "التي كنت أرغب في استكشافها أن أبدأ رحلتي إلى ظهير عمان"، أنه صادف عند بئر لها آثاراً لقافلة علي المري. وقد ضمت القافلة ثمانية وأربعين عبداً كان ينقلهم إلى الأحساء، فقد رفعت أموال شركة النفط الأمريكية من الطلب على الرقيق كثيراً. ويفيد بأن علي المري قد أثرى من النخاسة وتجارة الرقيق. ونستطيع أن نستخلص من هذا ما تؤكده المصادر الأخرى من أن ليوا كانت عبر تاريخها الطويل المعبر الأهم بين ظهير أبو ظبي وبين الأحساء وما وراءها، كما نستخلص أيضاً ما تؤكده شواهد وثائقية من أن شركة النفط الأمريكية كانت تستأجر العبيد من سادتهم، وتدفع لهم الأجور، ما زاد في الاستثمار في هذه التجارة الممقوتة.

يحكي ثسجر وهو في طريقه إلى ليوا عمّا ظنّه غزواً تعرضوا له قرب بئر تحمل اسم "فسوة العجوز"، وهذه حكايات سائدة في كافة كتب الرحالة الغربيين التي تسعى لإمتاع القارئ بتضخيم بعض الحوادث التي قد يتعرضون لها أو التي قد تكون من نسج الخيال، لتضخيم الأنا المجازفة في أرض مجدبة عجفاء. وتنتهي رواية ثسجر عن ليوا التي حكى مرة أخرى عن كثبانها ونخيلها، وقد فارقه عند أطراف الظفرة بعض رفاقه على أمل اللقاء به مرة أخرى في المويجعي. واتجه ولفرد ومن معه صوب الساحل، ثم عدلوا في اتجاه المويجعي التي بلغوها في ١٤ ديسمبر. ويشكو هذا الرحالة من سلوك بني ياس والمناصير الذين شاركوه العشاء في قلعة زايد، ويرى أن هؤلاء الأفراد الذين يعيشون على أطراف الصحراء نهمون لا يمتازون بالكرم الذي يميّز الآخرين في الصحراء. ويقدم ثسجر في هذه الرحلة الأخيرة وصفاً أدقّ لليوا التي

"تمتد شرقاً مسافة ثلاثة أيام" كما أفاد دليلهم. وكتب عن الظفرة حيث ينمو النخيل بمحاذاة المنبسطات الملحية المتقاربة عند سفوح الكثبان العالية ذات الجوانب الشديدة الانحدار، كما يفيد ثسجر بأن مزارع النخيل في التجويفات الرملية كانت مستورة، ويفيد أيضاً بأن أهل ليوا كانوا يعدّون مصدّات للرياح من الأسوار لتمنع انزلاقات الرمال وتحركها، ورغم ذلك فإن زحف الرمال غطّى بعض الأشجار. ويشير ثسجر إلى عدم وجود صنوف أخرى غير النخيل من المزروعات في تلك المزارع التي حددت المسافات بينها بدقة، والتي كانت تجد من أصحابها العناية الفائقة. أما ماء ليوا فيراه هذا الرحالة وفيراً، وقليل الملوحة، وغير عميق الغور، إذ يتراوح عمق البئر بين سبع أقدام وعشرين قدماً فقط.

يقول ثسجر: كان عرب بني ياس يعيشون (في ليوا) في حجرات مرتفعة مصنوعة من سعف النخيل، يقيمونها على المرتفعات المطلة على مزارع النخيل، وذلك لتلطيف حرارة الجوّ. ويفيد أيضاً بأن المنزل تسكنه عائلة واحدة، وأنه مكوّن من حجرتين أو ثلاث، مع سياج محيط، ويضيف أنه صادف عند هذه البيوت عدداً من النياق وأعداداً قليلة من المعز ومن الحمير، ويفيد بأن العديد من سكان المنطقة قد ذهبوا في هذا الوقت من السنة (مارس) إلى أبو ظبي للعمل في مراكب الغوص لأجل اللؤلؤ. ويسترسل ثسجر ليصف الطريق إلى أبو ظبي التي وصلها في ١٤ مارس عصراً.

البدوي عند ثسجر

لن تجد رحالة غربياً أكثر تناقضاً مع نفسه من ثسجر حين يكتب عن البدو. فجميع الرحالة الغربيين - بمن فيهم هذا الأخير - يجمعون على أن في البدوي نبلاً، ولكنهم يختلفون في دوافعه وأهدافه، رغم أن لاحقهم كثيراً ما ينقل عن سابقهم، ثم يلوّن الصورة بما يناسب تجربته. أما التناقض الذي اختُص به ثسجر فهو إعجابه بهم إلى حدّ الافتتان، ثم عودته ليلصق بهم أبشع الصفات!

يقول ثسجر إن القيم النبيلة المتمثلة في المروءة والشجاعة والإخلاص والتسامح والكرم وحسن الضيافة تبلغ ذروتها في أوساط بدو شبه الجزيرة العربية، ويردّ كافة هذه الصفات الخيرة إلى البدائية والانعزال وروح أرضهم القاسية. فالبدو ينتشرون في الصحراء ويعيشون شهوراً - كما يقول ثسجر - بلا زاد من طعام أو شراب، لا قوت لهم إلا لبن النوق الذي يتخذونه طعاماً وشراباً على حدّ سواء. وحين يعثر البدوي على الماء فإنه قد لا يكون مستساغاً، فقد يكون مالحاً أو ممزوجاً بمادة كبريتية، ولكنه وطّن نفسه عليه، فهو ابن المعاناة. ترى البدوي في ليالي الشتاء القارسة يحفر في الرمل لنفسه حفرة يثوي فيها عارياً إلا من ثوبه فينام ليله، ويصارع الجفاف

وتنزل به الأمراض، ويتعرض فوق هذا وذاك لغزوات القبائل المناوئة وغاراتها، ولكن هذه المصائب كلها لا توهنه ولا تنال من عزيمته. فتراه ينظر إلى المستقبل بتفاؤل وثقة!

البدوي مخلص مؤتمن على رفيق سفره الغريب عنه داراً وعنصراً وهوية، يدافع عنه ويفتديه بحياته إذا اقتضى الأمر، وكأنه يقوم بواجب مقدّس، يدفع عن رفيق سفره كل خطر قد يطرقه، حتى لو جاء هذا الخطر من أسرته أو قبيلته. والبدوي أمين لا يعرف السرقة. فلم يفقد ثسجر أي شيء مهما كان طفيفاً في رحلاته التي قطعها مع رفاقه مع البدو، رغم معرفتهم أنه كان يحمل في بعض أسفاره أثقالاً من الريالات تنوء تحت ثقلها النوق! ويستطرد ثسجر فيقول: إن البدوي أليف يرحّب بالضيف في خبائه، وكريم يقدم لضيفه ما يملك من طعام وشراب، لا يستبقي لنفسه وعياله شيئاً مع إدراكه أنه قد يعاني في اليوم التالي عضّة الجوع. ويحكي ولفرد ثسجر عن شيخ عجوز محمرّ العينين، بارز الأنف، يتدلى جلد صدره طيّات فوق كرشه الغائص، فقير معدم يتدثر بأسمال بالية لا تكاد تستر جسده، تراكم فوقها غبار الزمن، زارهم في معسكرهم، ووجد ترحيباً بالغاً من مرافقيه الذين فرشوا له حصيراً وقدّموا له التمر وهرعوا فأوقدوا نار القهوة. وعلم ثسجر من مرافقيه بعد ذلك أن الرجل كان على قدر من كبير من الثراء، ولكنه أتلفه بالكرم، فما إن يصل أي شخص إلى مضاربه حتى يذبح جملاً تحية له. وانتهز ثسجر هذه الفرصة ليحكي قصة قال إنه سمعها من أحد بني جلدته أخبره أن شيخاً ما كان إذا سمع ذئباً يعوي قرب خبائه يطلب إلى ابنه أن يسوق له شاة لطعامه لئلا يقال إنه بخيل، ويحكي عن رجل من مرافقيه أو لم لهم في منزله لحماً شهياً يُسيل اللعاب، وضع فوق كومة من الأرز المطبوخ بالزبد، ونادى على ضيوفه بلهجة آمرة: كلوا كلوا. ويروي ولفرد أنهم انهالوا على الطعام بشراهة حتى تورّمت كروشهم، وما زال مضيفهم الذي لم يشاركهم في ذلك الطعام واقفاً لخدمتهم، يصرّ عليهم لتناول المزيد، رغم تأكيدهم له المرة تلو الأخرى أنهم ما عادوا قادرين على تناول المزيد. وعندها فقط جلس المضيف ليأكل ممّا بقي من طعام، بينما جاء ابنه بالماء، وراح الضيوف يرتشفون القهوة المُرّة "والشاي المحلّى". وهكذا نجد هذا الرحالة يخلط بين الموروثات والواقع خلطاً يعطي لمروياته قدراً من الطرافة.

إن المعاناة هي التي تصنع الرجال – كما يقول ثسجر – وهي التي صاغت صفات النبل في البدوي الذي لا يعرف من العالم شيئاً، فتراه يقيس الأمور بمقاييسه الخاصة التي لم تلوّثها مادية البرجوازية. فالبدو لا يملكون من الدنيا سوى إبلهم وأقتابها وخناجرهم وعدد من الآنية في الخيام، فتراهم أحراراً غير مقيّدين. ويدين ولفرد ثقافة الآلة التي أنكرت قيم الإنسان التقليدية، فتراجعت هذه القيم وانحسرت. فالشجاعة، وغريزة حب القتال، والكرم والتسامح، والولاء للرفاق، والشهامة والكرامة والأمانة غدت كلها في قاموس ثقافة الآلة بلا معنى. فهذه الثقافة الأخيرة لا تنتج إلا أفراداً أنانيين اقتصر همّهم على جمع الثروة وتكديسها.

يستطرد ولفرد في وصف نفوس البدو النبيلة الصورة، ويدّعي أنه حين يراقب حديثهم ومجاملاتهم "الغريزية" يدرك الفشل والأنانية في الجانب الإنساني، ويضيف: إنه يشعر بالمودّة تجاه كل بدوي من مرافقيه، وتزيد إعجابه بهم تلك السلاسة في التعامل بالمساواة، ولكنه يضيف: ومع ذلك

> ما كنت أخدع نفسي بأن أكون واحداً منهم. فهم بدو وأنا غير ذلك، وهم مسلمون وأنا نصراني. ومع ذلك كنت رفيقهم في عروة وثقى مقدسة تشد الضيف إلى المضيف، وتلك علاقة أسمى من الولاء القبلي والعائلي. ولمّا كنت رفيقهم فقد كانوا مستعدين لقتال حتى إخوانهم أيضاً من أجلي.

وفي الحقيقة إن تراجيديا الإعجاب المبالغ فيه بالبدو لم تكن من بنات أفكار هذا الرحالة، ولا يزيد ما جاء به عن الحلقة الأخيرة في ذلك المسلسل السخيف الذي لا يحمل من الإبداع شيئاً إلا إذا اعتبرنا نفاق الكاتب لقارئه الغربي وإتحافه بغرائب الأقوال شيئاً من الإبداع!

مجّد بعض الرحالة الغربيين الأوائل البدوي بحسبانه من الآباء التوراتيين، ورأوا فيه صورة آدم عليه السلام بعد السقوط. فهو وإن أصاب الغفران، إلا أنه غرّ بلا تجربة سابقة ولا آمال لاحقة! وازداد الإعجاب بالبدوي عند الرحالة البريطانيين المتأخرين بصفة خاصة، وداخله النفاق السياسي. وكان ولفرد سكاون بلنت وزوجته أول من ذهب هذا المذهب لخداع الرأي العام البريطاني. رأى هؤلاء ومن لفّ لفّهم في العرب جنساً أعرق من الأتراك الذين يحكمونهم بسلطة الدولة العثمانية، يجب أن يُساعدوا للفكاك من هذه الربقة. وزاد الرحالة البريطانيون في ميزان نبل البدوي حتى إنهم فضّلوهم على الفرنسيين إبان فورة الفرانكوفونيا في بريطانيا، واستعار حدّة التنافس الاستعماري بينهما. وفي هذا الصدد يقول بلنت إنه ليعجب كيف أضحى البدو في شمال أفريقيا – بكل ما فيهم من نبل وكرم وفروسية، وبكل ما يمثّله تاريخهم من قدم وعراقة، وهم يعيشون في بواديهم الغنية بالتراث المفعمة بذكريات الأمجاد – خَوَلاً للفرنسيين الذين أقاموا بينهم سادة في تلك البوادي، في حاناتهم القذرة ومع خنازيرهم التي لا تضاهى بالإبل. وتعالت هذه النغمة لدى العديد من اللاحقين من الرحالة الإنجليز بصفة خاصة حتى استوت عند لورنس – صاحب الجزيرة العربية – نفاقاً سياسياً عمّ أوروبا، وانخدع به أهل شبه الجزيرة العربية. فتخلصوا في الحرب العالمية الأولى من حكم العثمانيين ليوقعهم لورنس فريسة سهلة للغرب الذي أوردهم موارد الاستعمار، وأورث أرضهم التقسيم والتشرذم. وجاء بعد هؤلاء الرحالة آخرون كانوا أقل من الأوائل حماسة لنبل البدوي، حتى انتهوا إلى ثسجر الذي سرد لنا طرفاً من نبل البدوي عنده تمثّل في شجاعة ومروءة وأمانة وشهامة حفظت عليه حياته في الرمال العربية. غير أن ثسجر ما يلبث أن ينكص على عقبيه فيسبّ البدوي ويهين البداوة،

ربما من دون قصد. يقول هذا الرحالة إنه يغضب لجشع البدو ويرهقه إلحاحهم.

> وفي الأيام الأولى للرحلة كنت أسأل كلما دنا أحدهم مني: ما سيطلب؟ وكان يضايقني تملّقهم الصبياني الذي يبدأون به التقديم للسؤال. و لم أكن قد تعلمت بعد أن البدوي لا يعدّ الاستجداء عيباً، بل إنه عندما ينظر إلى الهدية التي تقدمها إليه يسألك هل هذا هو كل ما تستطيع أن تعطيني إياه؟

يقول ثسجر في مكان آخر إنه كان يمتعض من شعورهم بالفوقية. وينعكس التناقض والحوار بين الذات والموروث في صورة البدوي عند ثسجر. فالبدوي إما كريم مفرط الكرم أو شحيح إلى درجة لا تصدق. وهو إما شجاع في غاية الشجاعة، أو مذعور بلا سبب يستدعي الذعر. وهو عفيف ولا يعدّ العزوبيّة فضيلة، ومع أنه يرى أن النساء خلقن لمتعة الرجل، لكنه ينتخي باسم أخته. ويخلص إلى إنه لا يعرف شعباً آخر في العالم يجمع بين هذه الصفات المتناقضة إلى حدّ التطرف. ويرى ثسجر أن البدو يحبون المال حباً جماً ويشعرون بالنشوة لمجرد لمسهم للنقود. تراهم أبداً في حديث غير منقطع عن المال، ويعلو صياحهم وهم يتناقشون لأيام عديدة خلال الرحلة في أثمان بعض الحاجيات التي قد لا يحتاجون إلى شرائها. ولتزجية الوقت، قد يعرض الرجل منهم جمله للبيع فيساومونه ويعلو صخبهم ويتصل ضجيجهم، مع أنهم يدركون أن الرجل لا ينوي بيع جمله. ويضيف ثسجر أن البدوي مسكون بحلم الذهب المدفون، فقد كان رفاقه يؤكدون له دائماً أن هناك ذهباً مدفوناً في بقعة ما هنا أو هناك تحت رمال هذه الكثبان الرملية العظيمة أو الصخور الضخمة. وكان الرجل - كما يقول - كثيراً ما يعيب عليهم ذلك ويوبّخهم على طمعهم وانشغالهم بحب المال، وكانوا يردون عليه بأنه يملك المال فلا يستبين أثر الفلس في حياته، أما هم فإن بضع ريالات تعني لهم النجاة من الموت جوعاً.

يحكي ثسجر عن البدو قصة ربما صاغها من خياله، أو ربما كذب عليه من رواها له، أو قد تكون قد حدثت فعلاً، ولكنها - إذا حدثت - قصة معزولة لا تمثل شيئاً من شيم البادية، ولكنّ الرحالة الغربيين عادة ما يسبغون على البدو كلهم ما فعله بدوي واحد. يقول: إن بدوياً قتل له صبي في الرابعة عشرة من عمره صادف صبياً آخر من أفراد القبيلة التي ينتمي إليها الجاني. وعندما حاول الصبي الفرار، لاحقه البدوي لإدراك ثأره، "ووضع الصبي الأعزل إصبعه في فمه علامة الاستفهام، وتوسّل من دون جدوى، فقد استلّ البدوي خنجره وغرزه بين أضلاع الصبي، ووقف فوقه إلى أن لفظ أنفاسه فشفى غليله". ويضيف ثسجر: "كنت أتصور منظر ذلك الصبي بشعره الطويل ومئزره الأبيض يهوي إلى الأرض وسط بركة دماء تغطيها أكوام الذباب، وعويل النساء في ثيابهن الداكنة السواد، والأولاد الخائفين والصراخ المرتفع المتواصل لطفل صغير".

ونرى في ما أورد تراجيديا سخيفة سوداء.

لم يكن ثسجر يعرف عن البدوي إلا تلك الصورة التي صاغها في خياله ومن تراثه الإغريقي الوثني أو من مصادره التوراتية وتراثه من الاستشراق، أو ربما من بعض الصبية العرب الذين رافقوه في أسفاره و لم يكن لهم في البداوة من حظّ إلا القليل، فمازج بين هذا وذاك وصاغه خيالاً منافياً للواقع. يصف ثسجر أحد صبيان البدو من مرافقيه وصفاً حتى لتتخيّله كأنه يعيش في (بادية) أثينا الخضراء المروج فيقول:

> تدلى شعره الفاحم على كتفه كأنه عُرف الفرس، أما وجهه فعليه مسحة من جمال كلاسيكي حالم لامسته مسحة من حزن هادئ، ولكنه يضيء عندما يبتسم كأنه البركة انعكست عليها أشعة الشمس. لا شك في أن أنطونيوس بدا مثله عندما أبصره هايدريان للمرّة الأولى في غابة فرجينيا، كان يمشي بخفّه ورشاقة كما تمشي النساء اللواتي اعتدن منذ طفولتهن موازنة حمل الأوعية فوق رؤوسهن.

يستطرد ثسجر فيتساءل كيف يمكن هذا الجسد المخملي الناعم أن يقوى على تحمّل مشاق الصحراء. ولا نريد أن نستطرد، فمثل هذه الصورة لا وجود لها في الصحراء ولا تصدر إلا من خيال سقيم وطبع لا يرى الشذوذ الجنسي من الموبقات. ونراه في سانحة أخرى يصف

> كهلاً تدلّت خصل شعره القذر على وجهه وضرسه الوحيد يترجرج في فمه عندما يتحدث. وتساءلت ما إذا كان هذا العجوز الذي ورد ذكر أسلافه في سفر التكوين يرى بعينيه الضيقتين وببصره الضعيف وجفون عينيه التي تجعّدت من حدّة التحديق نهاية "العالم قبل وقوعها"؟

وربما بدا لنا واضحاً من هاتين الصورتين التباين الثقافي الذي حجب عن هذا الرجل حقيقة الواقع الاجتماعي في تلك الصحراء، فراح يعبّر عنه كيفما شاء.

يرى هذا الرحالة البادية متحفاً طبيعياً للتاريخ الإنساني، لا يريد له أن يُغلق نتيجة للتطورات اللاحقة بأموال البترول. ففي هذه الصحراء رعى الساميّون "الشبيهون برفاقي" قطعانهم قبل أن تُبنى الأهرام، وقبل أن يأتي الفيضان على كل أثر للبشر في وادي الفرات. لقد نشأت حضارات على حوافّ هذه الصحراء ما لبثت أن اندثرت. كان هناك الميناثيون والسبئيون والميريون وفراعنة مصر وملوك بابل وآشور والعبرانيون والفينيقيون واليونان والرومان والفرس وأخيراً الأتراك. عاشت بعض هذه الحضارات دهوراً امتدت إلى مئات السنين، وعمّر بعضها آلاف السنين، ثم انقضت وذهب ريحها إلا قبائل هذه الصحراء عاشت من دون أن تتبدّل حياتها في

هذه الحقبة الممتدة على مرّ الأزمان. وينعى ثسجر على نفسه أنه قد يكون في مقدمة المؤثرات التي ستودي بتلك الحياة الطبيعية وتبدّل في مسارها. ويعيب ثسجر على الحكومات في شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها فرضها السلام في البادية، ما نقض أسس الحياة الاقتصادية للبدو الذين لم يعد في إمكانهم مهاجمة الحواضر للرجوع بالغنيمة، و لم يعد في إمكانهم أيضاً أن يحصلوا على رسم "الخوّة" من العابرين لأرضهم. وإذا نفق بعير لبدوي، لم يكن في استطاعته أن يستعير بعيراً آخر يقوم به مع مجموعته بالنهب للحصول على الثروة. ويضيف: إن اعتماد الحكومات الحديثة في شبه الجزيرة العربية على النقل الآلي سيقضي على سوق الإبل التي كان البدو يسوقونها قوافل إثر أخرى في الصحراء، فينالون إيجار النقل والحراسة والنشاطات الملازمة الأخرى. وسيؤدي الإفلاس إلى نسف الاقتصاد البدوي الذي كان اقتصاداً جمعياً مشتركاً. فالمال الذي يكسبه البدوي ليس حقّه وحده فقط، بل هو قسمة بين مجموعة واسعة من أفراد العائلة. ويرى ثسجر أن اكتشاف النفط أدى إلى انفجار في الأسعار، حتى إن البدوي لم يعد قادراً على شراء مستلزماته البسيطة. ويستطرد هذا الرحالة في سرد خيالاته المريضة البوهيمية إلى حدّ الجنون فيقول: إن البدوي يحب المال حبّاً جمّاً، ويسعده - إن لم يجد إليه سبيلاً - مجرد الحديث عنه. فالبدو جشعون مسكونون أبداً بأحلام الثراء. وينتهي ثسجر في هذا الصدد إلى القول إنه يخشى أن يفقد العرب بالثراء البترولي صفاتهم النبيلة التي أورثهم إياها فقر الصحراء، ويؤلّفوا بروليتاريا طفيلية تتغذى بريع البترول!

يرى الأنثروبولوجي الأمريكي دونالد باول الذي قضى سنتين في مضارب آل مرّة على أطراف الربع الخالي في ستينيات القرن الماضي أن ثسجر لا يعرف عن البدو والبداوة شيئاً كثيراً أو قليلاً، فهو لم يلتقِ البدو و لم يخالطهم، بل اكتفى في هذا المجال برفقة صبية من العرب عبر الربع الخالي. ويذهب دونالد إلى القول إن كتاب ثسجر **الرمال العربية** لا يمثّل دراسة لأي جانب من جوانب حياة البداوة، فقد اشتغل الرجل بأصدقائه الغُرّ الصغار وبحكاياتهم عمّا سوى ذلك، وتحدث بإعجاب شديد عن الرواشد الذين عدّهم عنصراً بدوياً نقيّاً لم يخالط أهل المدن، فيما الرواشد - كما يقول دونالد - حضر سكنوا صلالة ولهم العديد من القرى على طول ساحل المهرة، كما لهم ارتباطاتهم الوثيقة بحضرموت.

ثسجر والنوق

تحدث ثسجر كثيراً عن النوق وألبانها، وأفاد بأن مواطني هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية يفضّلون ركوبها دون البعير الذي يفضّل عرب السودان ركوبه دون النوق. وأضاف: إن عرب المنطقة الأولى قد يعيشون ستة أو سبعة أشهر على حليب الناقة من دون تناول أي شيء سواه،

وقال: إن النوق إذا تركت ترعى عشب المناطق الممرعة، فإنها تكتسي شحماً في أقل من شهرين حتى يتشقق سنامها فتموت! ويروي على لسان أحد مرافقيه أن المدّة التي تصبر فيها الإبل على العطش في فصل الصيف تتوقف على طبيعة المرعى وطبيعة الأرض. ففي الأودية حيث يمكن الناقة أن تستظل بالشجر، يمكن أن تصبر على العطش أسبوعاً كاملاً، أما "في الرمال"، فإن البدو يحاولون أن يوردوها الماء كل يومين أو ثلاثة. فالإبل تعطش كثيراً عندما تلهبها حرارة الشمس، ويزيد عطشها لدى هبوب الرياح الحارة وإبان الطقس اللاهب. وفي الآبار في منطقة الرمال حيث لا ظل، وحيث تكون الإبل أكثر عطشاً، فإنها تشرب كثيراً لتملأ كروشها. وقد تكون الآبار في منطقة ما شديدة الملوحة فيضطر البدوي إلى مزج هذا الماء الزعاق بحليب النوق حتى يستسيغه.

يقول ثسجر: إن البدو يتركون فصيل الناقة يرضع من دون اعتراض في الأسابيع الستة الأولى لولادته، ثم يمنعونه بوضع كيس على ضرع الناقة، ولا يسمحون للصغير بالرضاعة صباحاً ومساءً قبل حلبها، ويفطمونه عند بلوغه شهره التاسع. وتظل الناقة – ما لم تلقّح – تدرّ الحليب مدة أربع سنين متواصلة، وقد تلد في فترة حياتها، إلى أن تبلغ عشرين عاماً، اثنتي عشرة مرة. ويحتفظ البدو بقطعة من جلد فصيل مات أو ذبح قبل فطامه لتشمّه الناقة قبل حلبها، وإلا فإنها لن تدر. ويقول ثسجر: إن الناقة يجفّ ضرعها إذا حلبت بأيد قذرة، أو في إناء قذر. ويحكي عن أحد مرافقيه أنه كان يغسل يديه ببول الناقة، ويفرك الأوعية بالرمل حتى ينظفها مما لوثها من لحم وسمن، ثم يمري ضرع الناقة وهو يحدثها ويشجعها لتدر الحليب، وهو واقف على رجله اليسرى، أما رجله اليمنى فقد أسندها إلى ركبته اليسرى فيما كان الحليب ينزل في إناء على فخذه اليمنى. ويستطرد هذا الرحالة فيقول إن البدو يتخاطبون مع إبلهم بعبارات تختلف ألفاظها من قبيلة إلى أخرى، تبعاً لسلالة الحيوان ولونه وضروب استخداماته ركوباً أو تحميلاً، كما يعرّفون الناقة تبعاً لعمرها ولأحوالها. فالناقة الحبلى التي لا تزال تُرضع فصيلها يختلف تعريفها عن التي لا رضيع لها، كما تُعرّف الناقة أيضاً في فترات تقدم الحمل واستدامة الرضاعة بنعوت معينة، وهناك ألفاظ أخرى تطلق على الناقة العاقر.

ينعي ثسجر على الرحالة البريطانيين الذين كتبوا عن هذا الحيوان جهلهم بطبائعه، وأشار إلى أن ما كتبوه لا يزيد على سخافات من القول ونكات تافهة لا تستند إلى معرفة حقيقية. ويتّهم هذا الرحالة من سبقه بأنه لم يعايش الإبل في مواطنها في الصحراء بين البدو. فالإبل عند البدو هي هبة الله، يقدّرون لها منافعها وصبرها ولا يسيئون معاملتها ولا يضربونها، بل يكنّون لها مودّة حقيقية. ويروي أن البدو المرافقين له رأوا على أطراف بعض المدن قروياً يضرب جملاً فاحتجوا عليه وعبّروا خلال مسيرهم عن احتقارهم لذلك الرجل. ويستطرد ثسجر ليقول إن العلاقة بين البدوي وجمله هي علاقة ألفة خالصة. وأضاف أنه شاهد أحدهم يدعو ناقته التي

كانت في وسط قطيع كبير من الإبل، فجاءته من فورها تسعى إليه. وشهد بأنه رأى جملاً يوالي صاحبه موالاة الكلب لسيّده ولا يطيق فراقه. يأتي هذا الجمل إلى حيث يرقد صاحبه ويشمّه بلطفٍ وهو نائم ثم ينصرف عنه ليرعى. ويقول إنه عرف من مرافقيه أن هذا الجمل لم يكن ليمكّن أحداً من اعتلاء ظهره ما لم يكن يحمل قطعة من ثياب صاحبه. فلو صدقت هذه المقولة، فإن حاسة الإبل للتمييز - كما يقول ثسجر - لا تكمن في عيونها بقدر ما هي في أنوفها.

يحدثنا ثسجر عن غزالة، ناقة زايد بن سلطان، فيقول: "عرض عليّ زايد أن أنتقل إلى الشارقة في الساحل بسيارته، فأبديت رغبتي في أن أذهب إلى هناك على ناقة، فأعارني ناقته "غزالة" وسررت بذلك، لأنها كانت أشهر ناقة في عمان، ولربما كانت أجمل ناقة في شبه الجزيرة العربية كلها". وقد قال له أحد مرافقيه: إن أيّ بدوي لا يأبه لأن يضحي بأي شيء، ليقول إنه ركب غزالة. وقد ركب ولفرد غزالة مرّة أخرى في رحلة الصيد التي رافق فيها الشيخ زايد، وابتدره أحد مرافقيه فيما كان يشدّ الرَّحْل ويرتّب الخرج والغزو بقوله: "لم تركب ناقة مثل هذه في حياتك".

فأجابه ثسجر بأنه امتطاها في رحلته إلى الشارقة في الربيع الماضي. ويقول: "بينما كنا ننحدر نزولاً بين الكثبان ونَرِد الحفر ونخرج منها، ونعدو عبر المسطحات (الرملية)، أدركت أني أمتطي ناقة ممتازة تماماً، فقد كنت دائماً مستوياً على الرَّحْل لا أحيد...".

ثسجر وأخطار الرحلة

لا نلوم ثسجر في ما حاول أن يسبغه على ذاته من بطولة حينما يحدثنا عن البنادق التي كان يحملها لتقيه أخطار الرحلة، فتلك حكاية مكرورة ردّدها كافة الرحالة الغربيين قبله، وحديث خرافة حكاه كل منهم لقرّائه. ويمكننا القول: إن البنادق التي أهداها لمرافقيه أو باعها لهم هي التي حمته على أطراف بعض المناطق التي مرّ بها، والتي ربما كان لبعض مرافقيه فيها ثأر، أو شبهة ثأر، ولكن ما كان لهذا الرحالة ولا لمرافقيه الذين يدركون بطبعهم أعراف البدو أن يجتازوا "ديرة" قبيلة من دون "ربيع" ترتضيه تلك القبيلة. ونقبل من هذا الرحالة وغيره أن يحكي لنا معاناته المتمثلة في شحّ المياه وما يتصل بتناول الطعام في الصحراء، ومكابدة الأسفار فوق أكوار النياق، وأخطار الأمراض الناجمة عن الإرهاق والآفات المختلفة. وليس أقل من ذلك كله معاناة الاغتراب، إذ يعيش الرحالة في حماية قوم يختلفون عنه عرقاً وثقافة، في ظل ثقافة غريبة لا تستطيع أن تصدق - إلا بعد التجربة - أصالة القيم البدوية التي يشهد لها كافة الرحالة حتى المهووسون منهم بالنبل والإخلاص. تبقى - قبل هذا وبعده - الصعاب النفسية التي يغذيها الخوف الغريزي الذي يعتري كل ذات بشرية تعيش وضعاً استثنائياً لا قبل لها به.

يشهد ثسجر بأن البدوي مؤتمن على رفيق سفره الأجنبي. ومع كل هذه الثقة في صحبة البدوي التي عبّر عنها وأكدها مراراً، نجده في بعض أسفاره مع أصدقائه من البدو يصاب بذلك الخوف الغزيري، فأراد أن يمتحن ولاءهم. يحكي لنا أحد مرافقي ثسجر أن ركبهم توقف عند بعض الآبار التي أخذوا في تنظيفها لاستخراج الماء منها، وراحوا بعدئذ يجمعون العلف لدوابهم، حتى إذا فرغوا انتظم مجلسهم لإعداد القهوة. وراعهم في هذه اللحظة أن يروا "النصراني" يسقط أرضاً فتفحّصوه، فإذا هو هامد لا يتحرك. وأخذ الجمع يصيحون! اصحَ يا مبارك اصحَ! ولم يصح مبارك أبداً. ومبارك هو أحد الأسماء الذي عرف به ثسجر عند مرافقيه، ومنها أيضاً ابن لندن، ومبارك بن مريم، والنصراني. وتعالت أصوات مرافقيه: "لقد مات النصراني... لا إله إلا الله. كيف نتصرف؟". واقترح ابن قابينا – من مرافقيه – حمل جثمان ثسجر إلى أهلهم لتبرئة ذمتهم من جريرة الغدر به، بينما اعترض ابن غبيشا، وهو مرافق آخر، على ذلك. فالمسافة بعيدة، وسيتعفّن الجثمان وتنفق الإبل من نتن الجيفة. وبينما هما يتجادلان، هبّ النصراني واقفاً على قدميه، فأدهش الجميع. وفسّر مبارك بن لندن ذلك لمرافقيه بأنه أراد أن يختبر صدق رفقتهم، ويعرف كيف يتصرفون. ويعترف ثسجر بأنه قام بتلك المسرحية، لأنه شك في ولاء هذين اليافعين اللذين يرافقانه، فقد صادف ركبهم بعض الرواشد من قبيلهم من الداخلين في ولاء ابن سعود، فعنّفوا هذين الفتييْن ولعنوهما، لأنهما يقومان بخدمة "النصراني". ويقول ابن لندن إنه استحضر في هذه اللحظة المثل العربي القائل: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب، فخشي لذلك على حياته، وقام بهذه التمثيلية، ليمتحن سلامة نيّة مرافقيه.

ثسجر طبيب في البادية

مارس ولفرد تطبيب مرافقيه وبعض معارفهم. والطب مهنة ادّعاها كثير من الرحالة في بلاد العرب، وتكسّب بعضهم به. ويعترف ثسجر – في مناسبة – بأنه اتّخذ على علاجه أجراً من أحد المرضى، وإن برر ذلك بعذر أو بآخر. وفي الحقيقة ليس ثمة مهنة أسهل من هذه يستطيع الرحالة الغربي القيام بها في البادية. فبدلاً من أن يسافر بصندوق إسعافات أوّلية واحد مليء بأقراص الأسبرين والملح الإنجليزي والضمادات والمطهرات والمسهّلات المختلفة والعقاقير المألوفة، يمكن أن يأخذ معه عشرة صناديق، إضافة إلى المسكّنات والمهدّئات التي قد تقنع البدوي وهو تحت تأثيرها بأنه قد بات معافى. كان كثير من هؤلاء الرحالة يحملون – إضافة إلى البراندي – أقراصاً من الأفيون يبيعونها للبدو الذين لا يدركون كنْه أي منهما، ولكنهم يحسّون التأثير، فيطلبون المزيد. كان ولفرد يعالج بالبراندي، ولكنه بزّ الآخرين في أنه مارس

الجراحة، وأجرى عملية ختان واحدة على الأقل كما جاء في كتابه: **أهوار العراق**. وكان الرجل – لسبب أو لآخر – كثير الاهتمام بهذه الممارسة التي لم يخل منها كتاب من كتبه. كتب ولفرد عن الختان عند القبائل اليمنية التي – في ما يقول – يؤجّل الكثير منها القيام به إلا بعد أن يبلغ الصبي أشده، ويقول: إن بعض عشائر المهرة لا تختن صبيانها إلا عشية زواجهم. وتحدث هذا الرحالة تفصيلاً عن الختان عند الرواشد، الذي عادة يكون جماعياً، فقال: إن الصبية عند الرواشد يجهّزون للعملية بتدليك أجسادهم بالزبد المخلوط بالزعفران، ثم يتوافدون إلى مكان الاحتفال بالختان الجماعي، ويرتقون صخرة عالية تجعلهم على مرأى من الحشد الذي يأتي لحضور الاحتفال. ويبدأ الخاتن بربط القلفة بخيط قوي حتى يفقد الإحساس بها، ثم تقطع بعد ذلك، ويذرّ على الجرح خليط من الملح والرماد ومسحوق بعر الإبل. وأضاف: إن بعض الصبية قد يغمى عليهم جرّاء العملية. وتحدث عن الختان في بعض القبائل ذات الجذور اليمنية في المملكة العربية السعودية، الذين يمارسون السلخ بدل القطع، ويشير إلى أن ابن سعود قد منع القيام بالختان على هذا النحو. وتدل شواهدنا على أن الرجل صادق ويتحدث عن حفل ختان شهده في جنوب العراق لصبية في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من أعمارهم كانوا يتسابقون في حماسة إلى الخاتن لإجراء العملية، ما أعاد إلى ذهنه صورة الطلبة في بريطانيا وهم يتزاحمون على مقصف المدرسة. وجنح الرجل إلى المبالغة التي تصل إلى حدّ الكذب وهو يخاطب مجتمعه الأغلف في أعمّه، ليعطي لكتاباته نكهة جاذبة حين قال: إن بعض أولاد عرب السودان ختنوا أنفسهم بأنفسهم بعد أن تقاعس آباؤهم عن القيام بهذا العمل! وندرك من جانبنا أن أياً من عرب السودان لا يمكن أن يؤجّل ختان أبنائه إلى ما بعد السابعة، كما ندرك بداهة أنه لن يستطيع أحد – مهما بلغ عمره – أن يختن نفسه بنفسه. ولطرافة ما كتبه ولفرد عن حفل ختان في تهامة ننقل لقرائنا طرفاً منه. يقول: إن الصبيان الذين ستجرى لهم عمليات الختان يبدأون الاحتفالات قبل العمليات بأسبوعين. فيأخذون في الرقص المتصل، وهم في قمصانهم الحمراء الأكمام، وفي سراويلهم البيضاء الفضفاضة التي تضيق عند الكعبيْن، ويظلون على هذه الحال حتى يحدد كبارهم بعد مراقبة النجوم وقت إجراء الختان. وما إن يحين الموعد، حتى ينطلق هؤلاء الشباب على أكوار الإبل تزفّهم الموسيقى التي تعلن اقتراب موعد الحدث. وفي اليوم المعلوم يجتمع الناس، ويأخذ "أولئك الشباب بملامحهم الرقيقة وشعرهم المنسدل كأنهم البنات في خلع سراويلهم بمساعدة أصدقائهم". ويقف الصبي منهم وقد باعد بين رجليه ممسكاً بشعره الطويل وهو يحدّق في ثبات إلى خنجر مغروس أمامه على الأرض، وما إن تتم عملية القطع حتى ينبري الصبي – أمام أعين رجال قبيلته المشرئبة التي ترمق ثباته – قافزاً إلى أعلى، ويأخذ في رقص هستيري على أنغام الطبول ودمه يتناثر على ساقيه. وتحدث ولفرد أيضاً عن علاج البدو ببول الإبل وبالكيّ الذي يمارسونه لعلاج إبلهم أيضاً، ويستطرد فيقول: إن أجساد البدو تحمل

أثر هذا العلاج البدائي، تراها في ظهورهم وبطونهم وصدورهم، وحتى في كعوب أرجلهم.

ثسجر والتاريخ الإسلامي

جرى اللقاء بين ثسجر وصديقه القديم فلبي في ليلى في الأفلاج، فطلب الأخير من الأول أن يعرف "أنه نصراني مكروه من هؤلاء المسلمين المتشددين"! ويزعم ثسجر أن فلبي كان يرى أن هذا الالتزام الصارم بهذه المبادئ في عا لم سريع التغيير "هو الذي يحافظ على الميزة التي تعجبنا في العرب في بعض المناطق النائية"، ويزعم أيضاً أن فلبي أخبره أنه كان مع الملك عبد العزيز على سطح القصر الملكي في الرياض، "وسمعنا شخصاً يغني من مكان بعيد، فذهل الملك وصرخ: أعوذ بالله، من ذا الذي يغني؟"، وأرسل في استدعاء الجاني، وكان يافعاً بدوياً يسعى في البلدة وراء إبل له. وسأله الملك عمّا إذا كان يعرف أن الغناء استسلام لإغراءات الشيطان، وأمر بمعاقبته. وفي اعتقادنا أن في هذه المقالة تدليساً من ثسجر، أو ربما من فلبي. فشعر البدو وما يصاحبه من إنشاد – كما تدل كافة الشواهد – لم يكن مرفوضاً لدى الملك عبد العزيز، ويقيناً أن ركبه عبر الصحراء لم يكن يخلو من الحداة. ويسترسل ولفرد ثسجر ليقول: إن الكراهية الدينية التي اتهم بها مواطني ليلى "بشعة"، ولكنه يرى أنها "ليست بأفضل من الكراهية الجديدة القائمة على التمييز بحسب اللون والعرق والطبقة التي ولدتها حضارتنا". وهنا يدخل هذا الرحالة في تناقض صريح. فالتمييز بحسب اللون والهوية والطبقة قديم قدم الإنسان، دخل إلى الحضارة الغربية الحديثة بعفوية بالغة لافتقار حضارة الآلة ورأس المال إلى قيم تهذّبها، خاصة في نظرتها إلى الآخر. ويشيد ولفرد بتسامح المسلمين الأوائل مع الأديان الأخرى، وهنا أيضاً يدخل في التناقض. فقد رأيناه سابقاً يحدثنا بأن عرب الصحراء خرجوا "متلهفين للسلب والنهب متّحدين بفضل (الإسلام) دينهم الجديد... وبعد مضي قرن ونيف على معركة اليرموك عام ٦٣٦م التي قررت مصير الشام، امتد حكمهم من البرانس (جنوب فرنسا) وسواحل الأطلسي إلى حدود الصين...".

لا نريد أن نتهم الرجل بالجهل، ولا نريد أيضاً أن نتهم حضارته بأنها عوراء، ولكننا – معشر المؤرخين – ندرك أن العقل الغربي حين يتناول موضوعاً من موضوعات الإسلام والتاريخ الإسلامي لا يملك إلا أن يستعيد أقوال الصليبيين، ويعيد صياغتها، ويردد ترّهات كثير من المستشرقين. وقد أصابت سموم هذه الأقوال والترهات هذا العقل بالتليّف، فتبلّد. ونحن إذ لا نطالب هؤلاء الرحالة بقراءة تاريخ الإسلام ليدركوا أن أول كتيبة خرجت من شبه الجزيرة العربية مع وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقّت أوامرها من الخليفة الصديق رضي الله عنه بألا يقطعوا شجراً، وألا يقتلوا شيخاً أو طفلاً، وألا يهدموا صومعة، ولا يؤذوا من انقطع

للعبادة فيها، لا نطلب إليهم إلا أن يرفعوا عن أعينهم غطاء التعصّب الذي أورث عقولهم التبلّد، لتحكم أمن الممكن لجماعة من النهّابين أن يخرجوا من شبه الجزيرة العربية أو من غيرها للسلب، ويتمكنوا في ربع قرن فقط من تأسيس حكومة المدينة من اجتياح أغنى الإمبراطوريات، ويصلوا بحدودهم إلى المغرب العربي وحدود أفغانستان؟ وكم بلغ عدد هؤلاء النهّابين؟ بل كم بلغت نسبة كافة سكان شبه الجزيرة العربية بأطفالهم ونسائهم إلى نسبة سكان الأقطار التي كان يجب عليه أن يواجهوا هؤلاء النهّابين حماية لأملاكهم وأرواحهم؟ ثم ما هي تلك الأسلحة الفتاكة التي أعملها أهل السلب والنهب لينتصروا على الآخرين؟! يعي العقل الغربي أن هذه المجموعة الصغيرة انتصرت لأنها خرجت تحمل العدل، رسالة السماء إلى الشعوب المغلوبة، وعليه أيضاً أن يقارن خروج هذه المجموعة الصغيرة والإنجازات التي حققتها بالمجموعات الكبيرة من الجند التي تفد إلى الشرق من الغرب بأعداد هائلة وهي مدجّجة بأسلحة الدمار الشامل والجزئي، فتصبّ نار حممها من السماء على رؤوس الصغير والكبير، وتهلك بالدبابات الزرع والضرع، وتزرع في الأرض السموم، إضراراً بأطفال الأزمنة المقبلة، ثم لا يستطيعون بعد ذلك أن يخضعوا حيّاً في مدينة ما إلا بإراقة سيل من الدماء، ولا يبقى لهم بعد ذلك من المواطنين المغلوبين على أمرهم إلا اللعنات تتبعها المقاومة. ويتضح من هذه المقارنة البديهية أنهم لو جاؤوا من غرب الأرض إلى شرقها يحملون العدالة إلى الشعوب لوجدوها إلى جانبهم تقاتل معهم، بل وتقود المعارك كما فعل أهل كل أرض وصل إليها المسلمون الأوائل الذين "لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً"، والذين يدركون أن من قتل نفساً بغير حقّ فكأنما قتل الناس جميعاً، ويقرأون في كتابهم: "ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"، و"لا عدوان إلا على الظالمين".

إن بلادة العقل الغربي في ما يخصّ تاريخنا بصفة عامة، وما يخصّ الإسلام بصفة خاصة بلادة لا يرجى برؤها، وعلينا ألّا ننصت لما يقولون إلا كما ننصت لببغاء علّموه كلمات، فطفق يرددها ولا يعي معناها، وتجد ذلك الطائر - مع ذلك - تيّاهاً بما يقول، خاصة وهو يرقب إعجاب البعض منّا بأصواته الغريبة التي يردّدها كما ألفها: حقوق إنسان!

يستطرد ولفرد ثسجر ليقول بشمولية الإسلام في حياة أتباعه، ويزيد بأنه يفترض أنه إذا ما انقرضت حضارات اليوم، كما حدث في بابل وآشور، فإن كتب التاريخ المدرسية ستخصص للعرب في صفحاتها حيزاً، ولكنها لن تشير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وما ذلك إلا بفضل الإسلام. يقول ثسجر:

> ... لم يكن لدى عرب الشمال من عادات مقتبسة من الحضارات البائدة شيء ذو بال. كان أقصى ما يهمّهم من هندسة البناء تنظيم ثلاثة أثافي في شكل موقد لوضع قدر فوق النار. وكانوا يعيشون في الصحراء في خيام سود أو في حجرات

> في قرى عُطل من الأثاث، لا يطلب أكثرهم من الحياة إلا لقيمات يقيم بها أوده، وجرعات من ماء تحفظ عليه حياته، وهِدم يستر عريه، وملجأ يقيه الشمس والرياح، وبعض الأواني والقرب، وشيئاً من سلاح، وهذه حياة تنتج النبل لكنها لا تورث الرشاقة. كان هؤلاء العرب الغزاة الطمّاعون أجلافاً يكرهون الأجانب - كما يقول ثسجر - لكنهم في ذات الوقت نبلاء لا يطيقون القيود. اتحد العرب لأول مرة في تاريخهم بالإسلام وخرجوا من شبه الجزيرة العربية وهم يحملون لواءه. واكتسحوا كل شيء أمامهم فاحتلوا مقاطعات من الإمبراطورية الرومانية وجميع أراضي الإمبراطورية الفارسية. وكان طبيعياً أن يحدثوا في تلك المقاطعات مثلما أحدثته جماعات أتيلا وجنكيز خان حين اجتاحت العالم من خراب ودمار، ولكنهم - يا لعجائب التاريخ - أقاموا مدنية جديدة حين مازجوا في بوتقة واحدة بين حضارتي الفرس والبحر المتوسط. وأضحت اللغة العربية ذات انتشار واسع، وارتقت لتتفوّق على اليونانية واللاتينية. وتلاشت الفوارق بين المحتلين العرب ورعاياهم... .

يقول ثسجر إن المسلمين قد انتشروا اليوم في رقعة جغرافية تمتد من نيجيريا إلى الصين، ويمثّلون نحو سبع سكان المعمورة. ويبدي اعتقاده أن كافة حضارات العالم ستُمحى تماماً كما حدث لحضارات بابل وآشور، ولكن كتب التاريخ ستخصص، حتى بعد ألف سنة، عدداً من صفحاتها للعرب الذين حملوا لواء الإسلام لكنها لن تذكر شيئاً عن الولايات المتحدة الأمريكية. أما من جانبنا فنرى أن حضارات البشر من بابل وآشور والولايات الأمريكية المتحدة أيضاً - إن كان لها حضارة - وما سبق كل هذا الزخم وما يأتي بعده، كلها إلى زوال، وقد لا يبقى منها أثر ولا حتى في صفحات التاريخ. أما الإسلام فقد تكفّل الله بحفظه. فهو تاريخ الأمس واليوم والمستقبل الذي لن تطوى صفحاته حتى يطوي الله الأرض ومن عليها، حيث لا تاريخ يكتب ولا كتاب يقرأ إلا ما اجترحه كل إنسان من شرّ أو قدّمه من خير يلقاه مسطوراً.

الربع الخالي

وردت أول إشارة إلى الربع الخالي في المصادر الغربية عند الرحالة بيتر فان دون بروكه الذي أوفده إلى حاكم عدن حاكم مقاطعة بنتام في الهند الهولندية لاستطلاع فرص التجارة مع شبه الجزيرة العربية. جاء عند فان دون بروكه:

وعند الظهيرة خيّم ظلام كثيف على السماء من اتجاه اليابسة أشبه ما يكون بالسحب المثقلة بمطر مدرار، وخالط الغيم حمرة كثيفة لاهبة حتى لكأنها تنبعث من تنور متّقد، وطلب حاكم عدن إلى بحارة بروكة أن يوثقوا الحبال التي تشدّ مركبهم إلى المرسى ويمتّنوها لئلا تنقطع. واكتست المراكب من جراء العاصفة طبقة من الرمل يتجاوز سمكها قدر الإصبع. وأفاد الحاكم ضيوفه بأن تلك العاصفة قد هبّت من بحر الرمل، وأنها قد تدفن قوافل بأكملها في تلك الأرجاء لا تستثني الإبل ولا الرجال.

وفي الحقيقة، فإن الربع الخالي لم يكن يعرف في الغرب قبل كتابات الرحالة داوتي بهذا الاسم. فقد كان يشار إليه في أوائل الخرائط الأوروبية بالمكان الكبير أو الصحراء الرملية الكبرى. ويرى هذا الرحالة الغربي أنه كان الرجل الأول الذي حمل هذا الاسم من شبه الجزيرة العربية إلى الغرب، ثم وجد طريقه إلى خرائطهم. أما أول رحالة غربي فكر في قطع الربع الخالي فهو بيرتون الذي ناقش هذه الفكرة مع بعض مرافقيه البدو عام ١٨٣٢م، وقد ردّ عليه هؤلاء – في ما يقول –: "يا أفندي، والله إنك لمجنون". وفي الحقيقة كان داوتي هو الأول من الرحالة الغربيين – في ما نعلم – الذي خصص فقرات في كتابه للربع الخالي الذي قال عنه: إنه لم يلتقِ عربياً واحداً ذكر له شيئاً – ولو كذباً – عن تلك الأرض الموحشة. عبّر داوتي عن اقتناعه بأن تلك الرمال في أعماقها عدد كبير من السكان شبه الجياع. ويمكن أن نعذر جهل داوتي بهذه الأرض التي سمع عنها، ولكن طريق رحلته كان بعيداً عنها، فلم يلتقِ العرب الذين اجتازوا مراراً تلك الأصقاع الخاوية إلا من الهوام. أما مايلز – وهو إداري بريطاني قبل أن يكون رحالة، وله معرفة عملية بالأرض العمانية بصفة خاصة لأنه ارتحل فيها كثيراً – فقد كتب عن هذه الرقعة الشاسعة من شبه الجزيرة العربية، مشيراً إلى أن الأوروبيين يجهلون تماماً مظاهرها الطبيعية، ويضيف – صواباً – أن المنطقة تعرف عند بدو آل مرّة الذين تقع ديارهم في الأطراف الشمالية لتلك الصحراء العظيمة باسم الربع الخالي، ويعنون بالخلو عدم وجود مستقرات سكنية دائمة، أما الرواشد والعوامر والبدو الآخرون الذين يعيشون على الأطراف الشرقية والجنوبية فهم لا يعرفون المنطقة باسم الربع الخالي، بل يشيرون إليها بالرمال.

كان بترام طوماس – الوزير في حكومة سلطان عمان الذي انطلق من صلالة في ١٧ ربيع الثاني ١٣٤٩/ ١٠ سبتمبر ١٩٣٠م – أول رحالة غربي يقطع الربع الخالي، إذ انتهى إلى ساحل قطر في ٢٠ فبراير ١٩٣١م بعد أن قطع حوالى تسعمئة ميل من الصحراء المجدبة. وقد عبّر لورنس الذي يعرفه الغرب باسم لورنس صاحب شبه الجزيرة العربية Lawrence of Arabia عن إعجابه بطوماس الذي نعته بآخر الرحالة العظام، "فقد انتزع من الآلة نصر الدقيقة الأخيرة".

وكان لورنس قد عبّر قبل ذلك في عام ١٩٢٩م عن اعتقاده بضرورة ان يُستغل الطيران في استكشاف الربع الخالي.

في هذا الوقت الذي كان طوماس يسعى فيه بطريقة أو بأخرى لمعرفة مدى الولاء الذي تتمتع به مسقط في الداخل العماني – لتعديل السياسات البريطانية لما يتفق والتعامل مع الظهير العماني – كان رحالة آخر، وهو جون فلبي، يستعد للقيام برحلة مماثلة لقطع الربع الخالي لحساب ابن سعود، في وقت لم تزل الاستثمارات الأمريكية في بلاده غير واضحة بعد، بل يمكن القول: إن رحلته لم يكن لها ارتباط بالنفط. لأن إعداده للقيام بهذه الرحلة كان قد استغرق منه حوالى أربع سنوات. وكان ابن سعود يعرف من بدو آل مرّة عن الربع الخالي ما لم يكن ممكناً لفلبي أن يعرف عنه حتى لو قضى حياته كلها فيه، ولكنه كان يدرك أيضاً أن فلبي يمكن أن يضع من الخرائط ويحدد المواقع على الورق، بما لا يستطيعه البدو. وكان ثسجر هو ثالث أوروبي يقطع هذه الصحراء.

أما عرب الرواشد والقبائل الأخرى فقد ذرعوا المنطقة عبر التاريخ جيئة وذهاباً قبل أن يستثير النفط شهية الغربيين لاستكشافها. يقول ثسجر إنه سأل أحد مرافقيه: أَقَطعَ الربع الخالي؟ فأجابه: إنه اجتازه مرتين متتاليتين، وكانت المرة الأخيرة – كما يقول الرجل – "حينما كنت عائداً من أبو ظبي. سألته: من كان معك؟ فأجاب: كنت وحدي. فسألته مجدداً خشية أن أكون قد أسأت فهمه: من كان في رفقتك؟ فأجاب: الله كان رفيقي". ولربما كشف هذا الحديث أن الربع الخالي لم يكن مجهولاً لدى أبنائه البدو الذين كان الفرد منهم يقطعه من دون أن يثير ضجيجاً، وأن ادّعاء الأوروبيين استكشافه هو ادّعاء باطل في الأساس. فهم لم يضيفوا في التعريف به إلا الكتابة والرسم والتصوير.

يفاضل ولفرد ثسجر بين ما كتبه فلبي وطوماس عن الربع الخالي، فيضع اعتباراً كبيراً لما كتبه الأول، ويزدري ما جاء في كتاب الثاني الذي يقول عنه: "إنه لا يمكن أن يكون أسوأ مما هو عليه". ولا يصدر ثسجر هذا الحكم على كتاب طوماس بعد أن خبر بنفسه طبيعة الرحلة عبر هذه الرمال. فقد كان هذا هو رأيه في الكتاب منذ أن قرأه، وهو لا يزال طالباً في أكسفورد، وخلص إلى أنه "ليس على شيء أبداً". ويرى ولفرد – صواباً – أن كلا الرجلين قد خلّف بصماته في كتابه، فجاء كل كتاب مختلفاً عن الآخر اختلاف كل رحالة عن زميله. ونتفق من جانبنا كمؤرخين، حين نقرأ للرجلين، مع شهادة هذا الرحالة بالنسبة إلى فلبي، فالرجل مكلف بمهمة علمية محددة أدّاها على خير وجه، إذ لم يكن لديه شيء يخفيه، أما طوماس فكانت مهمته أشبه بالاستخبارية غير محددة بوضوح. فجاءت كتابته من ناحية المنهج مماثلة لشكل مهمته. ويجب علينا ألا ننكر أن ما كتبه طوماس أصاب في وقتنا الراهن أهمية قصوى، بينما تردّى ما كتبه فلبي إلى النسيان. فقد أورد الأول العديد من القصص التراثية السائدة في عمان، وسيظل

شاهداً على عصره في هذا الصدد، أما الثاني فقد كتب عن حقائق طوبوغرافية وإيكولوجية تجاوزتها الأيام.

يرى دونالد باول، الأنثروبولوجي الأمريكي الذي قضى عامين في مضارب آل مرّة على أطراف الربع الخالي - في ستينيات القرن الماضي - كتاب ثسجر **الرمال العربية** كتاباً معدوم الفائدة لا يعبّر عن أي شيء له معنى، ولا يمكن أن يُعدّ كتاباً جيداً إلا إذا نظرنا إليه باعتباره وصفاً لفترة ما من سيرة حياة هذا الرحالة قضاها في رفقة بعض أصدقائه الصغار. واتهم دونالد رحالتنا بأنه لا يعرف شيئاً عن البدو، ولا يدرك معنى البداوة، ولا يحوي إيجابيات كتاب **الرمال العربية** أيّ دراسة إيجابية عن المنطقة. ويقدم هذا الأنثروبولوجي نقداً لاذعاً لأساسيات البداوة التي أوردها ثسجر، خاصة أنه يعدّ الرواشد موغلين في البداوة. ويستنكر دونالد هذه الفكرة. فالرواشد - كما يراهم - متحضّرون، يمثّلون قسماً كبيراً من أهل صلالة، كما أنهم أقاموا العديد من المستقرات الحضرية على طول ساحل المهرة، وأن لهم ارتباطاتهم الوثيقة بحضرموت. ونتفق مع دونالد في أن كتاب **الرمال العربية** كتاب لا معنى له حين نتناوله من دون النظر إلى أهداف رحلة هذا الرجل. ففيه الكثير من التناقض، ولا تجد فيه أيّ معلومة غفل عنها فلبي. كذلك يفتقر كتاب ثسجر إلى جاذبية حكايات كتاب طوماس، ونؤكد أن الكتاب الأخير مجرد ذكريات عامة كتبها استخباري جاد ما كان له أن يثبت فيه أصول مهمته التي أفلح في القيام بها، ونقل في تقاريره صورة جادة لواقع الحدود القبلية في المنطقة التي باتت بعدئذ - لاعتبارات استثمارية - حدوداً سياسية لم تثبت إلا بعد أن استماتت كافة الأطراف المعنية في الدفاع عنها. أما ما ورد في كتاب **الرمال العربية** فهو - في تقديرنا - تعبير عن مشاعر رجل حاول أن يقلّد ما كتبه الرحالة الغربيون قبله فلم يفلح، و لم يدع إبداع من سبقه، وكان تأثره ذهنياً وعاطفياً بلورنس كبيراً جدّاً، حتى إنه أهدى كتابه لاثنين من مرافقيه من البدو، مثلما أهدى لورنس كتابه لرفيقه البدوي دحام. ولا نرى في هذا الكتاب إلا مجرد ذكريات تعبّر عن الجدل بين الذات والموروث. الذات التي عايشت النبل البدوي والموروث الذي لا ينكره ولكنه يردّه إلى البدائية والتمس له الأسباب. فالبدوي كما رآه هذا الرحالة محسن، ويثبت له من دون مواربة هذا الإحسان في كتابه **الرمال العربية**، ولكنه يفسره على النحو الآتي:

> لا وجود للتكتّم في الصحراء، فإنهم يتحدثون لساعات طويلة، وإن كان الحديث تافهاً... إذا تميّز الرجل يدرك أن شهرته تتردد في كل ربع، وإذا أساء فإن قصته ستروى في كل خيمة... إن الخوف من الرأي العام هو الذي يفرض تقاليد الصحراء القاسية في جميع الأوقات، ووعيهم أنهم أمام جمهور من المستمعين يحصي عليهم تصرفاتهم!

وقد تكون ذكريات الرجل فيها الكثير من المبالغة التي تخرجها إلى الكذب. يحكي ثسجر في **الرمال العربية** الذي نحن بصدده أنه حين خدم في السودان قتل سبعين أسداً. فإذا كانت مدة خدمته في السودان حوالي ستين شهراً قضى ثلاثين منها في مناطق تعيش فيها الأسود، يكون قد قتل أسدين وثلث شهرياً، ما يجعلنا نسأل: هل كانت مهمته هناك صيد الأسود؟ وكم يا ترى قتل هذا الرحالة في السودان من ظباء وأيائل وغزلان وبقر وحشية قتلها أسهل من قتل الأسود؟!

تبقى للصور التي وردت في هذا الكتاب قيمة كبيرة. فقد امتاز الرجل بعين ثاقبة، وبروح فنان يؤدي - بتدريب على فنون التصوير - ما خلّد به مشاهد خارج دائرة الربع الخالي، اندثرت أو باتت في طريقها إلى الاندثار. أما النتائج التي أدت إليها رحلته فتظل بالغة الأثر في تاريخ المنطقة برمّتها وفي ترسيم حدودها بعدئذ. ويبقى ولفرد ثسجر مثالاً للجندي الجسور، والاستخباري المؤهل، والرجل المتفاني في خدمة أهداف وطنه. فأخلص في أداء مهمته إخلاصاً وصل به إلى حدّ إنكار الذات، وادّعاء أنه قام بهذه الرحلة لدوافع شخصية، رغم أنه كان في رحلاته يحمل "جوالات" من الريالات، وقد تأكد لنا أخيراً أن شركة بترول العراق هي التي تولّت تمويل هذه الرحلات. ويمكننا القول إن كتاب **الرمال العربية** يجب أن يظفر من المؤرخين الجادين باهتمام خاص، وذلك للأثر الذي أحدثه كاتبه حين زار هذه المنطقة ووضع طرفاً من أخبار رحلاته في هذا الكتاب الذي ضمّت صفحاته أطيافاً من ظل الحقيقة الراقدة في مراقد الزيف.

الفصل الثامن

بكماستر في رحلة تفقدية مع الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان لشهرين متواليين

(١٤ جمادى الآخرة-١٨ شعبان ١٣٧١هـ/١٠ مارس-١٢ مايو ١٩٥٢م)

مارتن بكماستر الذي تخرّج في مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية هو أول ضابط سياسي بريطاني جرى تعيينه في أبو ظبي، وقد شيّد مبنى الوكالة البريطانية هناك في عام ١٩٥٦م. ويعدّ بكماستر الغربي الثاني الذي يزور ليوا، فقد سبقه إليها ثسجر في عام ١٩٤٨م. وتعدّ الرحلة التي ننشر أخبارها في هذه الدراسة الأولى له إلى تلك المنطقة التي تضم مجموعة من الواحات تمتد من الشرق إلى الغرب إلى مسافة مئة ميل كانت الإبل تقطعها في حوالى أسبوع، أما رحلة مارتن الثانية إلى المنطقة فقد جرت عن طريق الجوّ بطائرة من سلاح الجوّ البريطاني، رافقه فيها دريك وورسنوب الذي خلفه في منصب الضابط السياسي، في أبو ظبي، ولكن الأخير لم يعمّر فيه طويلاً، إذ غادر أبو ظبي في مايو ١٩٥٩، أي بعد عشرة شهور من تعيينه فيها.

يقول بكماستر الذي كان في هذه الفترة ضابطاً سياسياً لبريطانيا في الساحل المهادن ومقرّه الشارقة، في ذكرى هذه الرحلة التي يرى أنها كانت آخر رحلة لقوافل الإبل في إمارة أبو ظبي: "لقد ذهبنا إلى ليوا التي تقع على بعد مئة وخمسين ميلاً إلى الجنوب من أبو ظبي، وكان الهدف من الرحلة استكشاف تلك المنطقة التي يعمرها على نحو رئيس بنو ياس والمناصير لِسبْر غور الولاء فيها".

وبحسب تعبير بكماستر، فقد كانت الرحلة في نطاق "مواجهة المحاولات الرسمية السعودية لضمّ مناطق حول البريمي وليوا، واستقطاب الأهالي هناك بالهدايا والهبات". وفي

الحقيقة فإن البحث في تلافيف هذه الفترة التي شابها الخلاف بين أبو ظبي والرياض لن تزيد الباحث إلا اقتناعاً بأن الخلافات العربية لا تستعصي على الحل ما لم تداخلها الأطماع الأجنبية التي لن تلقح إلا في المياه العكرة.

يقول بكماستر لأحد الصحافيين عن انطباعاته عن هذه الرحلة: إن تلك القافلة التي ضمّت حوالي اثنين وخمسين رأساً من الإبل حملت على أكوارها بدواً من قبائل مختلفة، كما حملت أثقالاً من التمر والأرز والمؤن، كانت تبدأ مسيرها صباحاً بعد أن يتناول أفرادها إفطارهم المكوّن من التمر والقهوة والخبز، ويرى أنها آخر قوافل الإبل الكبيرة في إمارة أبو ظبي: "فما إن انتهينا من رحلتنا هذه حتى بات من الممكن لسيارات اللاندروفر ذات الدواليب التي تغالب الرمال أن تصل إلى أي مكان كان الوصول إليه مقصوراً على أخفاف الإبل...". ركب بكماستر على غزالة، ناقة الشيخ زايد الشهيرة التي هي - كما يقول الرجل - "أميز ناقة في شبه الجزيرة العربية"، وهي ذات الناقة التي امتطاها قبله ولفرد ثسجر في فترة سابقة ووصفها بأنها الأميز في عمان. ويستطرد بكماستر في سرد انطباعاته عن هذه الرحلة التي صاحب فيها زايد شهرين كاملين في مضارب البدو، وزار بعض الجزر: إن الأحاديث جرت في هذه الرحلة بصفة شاملة عن البدو ومنازلهم، وعن الصحراء ونباتاتها وزهورها، وعن الإبل وحكاياتها، وعن آبار الصحراء وفضلها على آبار الشارقة وأبو ظبي الشحيحة المياه الملحية المذاق، والتي غالباً ما تكون متّسخة. فآبار الصحراء - كما قال - صافية مستساغة الماء إلى حدّ بعيد، ولكل بئر طعمها المختلف عن الآخر. ويروي أن بدو المنطقة حين يشربون الماء يمكن أن ينسبوه إلى بئره ولا يخطئون النسبة. أما الطعام فقد كان وافراً في وجبتي "الظهيرة والمساء"، ويتكوّن عادة من لحم الخراف أو المعز المغلي مع الأعشاب، وكذلك الأرز الذي أضيفت إليه الأعشاب ذاتها. توضع كتل اللحم في أطباق كبيرة مترعة بالأرز، ويجلس الجميع في شكل دائرة إلى طعامهم. ويحكي بكماستر عن ذبح تلك الحيوانات على الطريقة الإسلامية؛ فبعد أن توجّه إلى القبلة تقطع رقابها بسكاكين حادة بسرعة فائقة حتى "إن الحيوان لا يكاد يحسّ من آلام الذبح شيئاً"، ويحكي لنا عن سلخ الحيوان وما إلى ذلك من ممارسات قد تستهوي القارئ الغربي، لكنها لا تضيف إلى معرفتنا شيئاً كثيراً. ويضيف بكماستر أن القافلة كانت تقطع مسافة ١٥-٢٠ ميلاً في اليوم الواحد، وأن قادة الإبل كانوا يتوقفون في أوقات الصلوات المكتوبة، خمس مرات في اليوم، آخرها الصلاة التي تؤدى بعد الغروب بساعتين، ويقول إنه حمل في الرحلة اسم حمد، "وعلى الرغم من أني لم أكن أتمكن من أن أتصرّف كبدوي، بذلت كل ما في وسعي لأن أكون كذلك".

إن ما سردناه حتى الآن لا يعدو أن يكون انطباعات خاصة عن هذه الرحلة أدلى بها بكماستر إلى صحافي غربي يخاطب الرأي العام الغربي الذي لا ينظر إلى "حكايات" هؤلاء

المستعربين إلا كما ينظر إلى حكايات المستشرقين بعامة، ليتلقط البدائي والغريب، ولكن التقرير الرسمي الذي كتبه بكماستر، والذي سننقل طرفاً منه هنا، يُعدّ شهادة مقبولة على أحداث تلك الفترة التقطتها عين غربية، وتوثيقاً مهماً لرحلة حاول كاتب يومياتها، ذلك الإداري البريطاني المسؤول الأول في منطقة الساحل العماني، ألا يغفل ذكر شاردة أو واردة، إلا أن يتحرّى عنها بأسلوب علمي ليساعد الحكومة البريطانية في اتخاذ قرارات تخدم توجهاتها السياسية والاقتصادية في المنطقة. وفي الحقيقة إن هؤلاء المستعربين من أمثال بكماستر هم فئة متخصصة من المستشرقين، وكانوا بصفة عامة أكثر من الأواخر دقّة، وأبلغ تصويراً، وأدق هدفاً. فإذا كان الشرق برمّته والشرقيات كلها بعامة هي مجال المستشرق، فإن العرب أو ربما طائفة منهم، وشبه الجزيرة العربية أو ربما منطقة معينة فيها، هم الذين يمثّلون مجال دراسة المستعرب، فأعانه هذا التحديد المكاني والموضوعي على الدقة، إضافة إلى أن رحلات المستشرقين كانت متعددة الأهداف؛ استخبارية، سياسية، تنفيذية، أما أهداف رحلات هؤلاء المستعربين فكانت أكثر وضوحاً. فهم في الغالب موظفون سياسيون، أو هكذا كانت البدايات، أو موظفون في مراكز البحوث الحكومية أو الخاصة ببعض الشركات الكبرى في الغرب، يعملون بدراسات تهتم اهتماماً مباشراً بالشؤون العربية أو ببعضها، كذلك فإنهم غير معنيين بمخاطبة الرأي العام المشغوف بالقصص الغريبة والروايات العجيبة عن العرب وغيرهم من أهل الشرق. وإذا كان المستشرقون يجمعون أخبارهم خلسة في الغالب من الرواة الذين يصادفونهم، والذين تتفاوت ثقافتهم، وتتضارب أهدافهم، وتتباين معارفهم، فإن هؤلاء المستعربين كانوا – بحكم مواقعهم الرسمية أو العلمية – من المتعاملين مع الحكام والمتنفذين وشيوخ القبائل، ما يجعل مصادر أخبارهم موثوقاً بها إلى حدّ بعيد، إضافة إلى أنهم يحققون فيها ويدققون. فتأتي معلوماتهم في الغالب صادقة، إلا في ما لا يد لهم فيه ممّا يقع فيه الباحثون الغربيون عموماً نتيجة اختلاف المفاهيم والثقافات المؤثرات التي يؤجّجها الاستعلاء القومي، فيحسبون ثقافاتهم الأمثل والأرقى، وهم في ذلك – من دون شك – مخطئون، فثقافات شرقنا – كما يشهد التاريخ – هي الأبقى والأنقى. ويمكن أن نذكر في هذه العجالة أسماء عدد من هؤلاء المستعربين الذين تركوا بصماتهم في جسد تاريخنا العربي الحديث، ومن أهمهم، بطبيعة الحال، لورنس "سيد الجزيرة العربية" Lawrence Of Arabia (التعريف الذي تُرجم خطأً: لورنس العرب. والخطأ بطبيعة الحال مقصود حتى نجنّب أنفسنا تهمة أن لورانس قد "ساد" العرب في فترة ما وأحدث "ثورة عربية" ألقت بالعرب في مهاوي الاستعمار العالمي وتنفيذ مخططاته)، وجرترود، بل وغيرهما من أمثال بترام توماس، وجلوب باشا أبو حنيك، وغيرهم كثير.

من الشارقة إلى البريمي عبر أبو ظبي

يقول بكماستر في تقريره إنه غادر مقرّه في الشارقة في ١٤ جمادى الآخرة ١٣٧١/العاشر من مارس يرافقه مساعده "العربي" علي البستاني الذي كان - كما يشهد بكماستر "بأناته وصبره وكفاءته" - خير معين له في تلك الرحلة. قضى بكماستر وتابعه الليلة الأولى في معسكر بترو ليوم دفلبنت (الساحل المهادن) في منطقة رأس الصدر، ومنها غادرا إلى أبو ظبي التي بلغاها في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، والتقيا حاكمها الشيخ شخبوط. يقول التقرير: "وجدت شيخ أبو ظبي متطلّعاً تماماً إلى قيام هذه البعثة، وكان قد أرسل في وقت سابق إلى أخيه زايد للإعداد لهذه الرحلة وتنظيمها". ويقول بكماستر إن شخبوط وزايد قد ناقشا معه سائر المسائل المتعلقة بالرحلة، وإن الحاكم كان حريصاً على أن نجوب كذلك منطقة الباطن التي تقع إلى الجنوب مباشرة من ليوا، وكذلك منطقة المجن التي تقع غربي سبخة مطي المجاورة لحدود قطر. وقد أفاد شخبوط بوجود نشاط سعودي في هاتين المنطقتين في السنوات القليلة السابقة لعام ١٩٥٢م، وأنه شغوف جداً بضرورة أن تقوم هذه البعثة باستعراض علم البوفلاح في تلك المناطق إلى أقصى حدّ ممكن.

كان بكماستر ضابطاً سياسياً لبريطانيا في الساحل المهادن الذي كانت بريطانيا بموجب الاتفاقيات التهادنية التي عقدت منذ عام ١٨٢٠م والتي بلغت ذروتها في عام ١٨٩٢م هي المسؤولة عن تصريف العلاقات الخارجية لإماراته. ولمّا كان شأن الامتداد السعودي المدفوع بزخم شركات البترول الأمريكية شأناً خارجياً - كما تراه الحكومة البريطانية - كان من الضروري أن يقوم بكماستر المدفوعة حكومته بزخم شركات البترول البريطانية برحلة إلى مناطق التماس في الحدود بصحبة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، أبلغ شيوخ آل نهيان حكمة في التعامل مع البدو والبادية، وأكثرهم معرفة بأعرافها وتمسكاً بتقاليدها، واعتزازاً بتراثها.

يقول كاتب التقرير:

> أدهشني زايد بقوله إن إبل الرحلة التي نزمعها إلى ليوا جاهزة الآن وهي في طريقها إلى البريمي، وإن كافة التنظيمات الأخرى قد رتّبت تماماً، وإن الرحلة ستنطلق في مدى ثلاثة أيام. وقد اتفقنا على أن تكون منطقة طوى الدُهان التي تقع على خط السيارات في منتصف الطريق بين أبو ظبي و البريمي نقطة الانطلاق لبداية الرحلة. وفي الحقيقة لم نتمكن من أن نبدأ الرحلة في وقتها المحدد، فقد تأخرنا يوماً في أبو ظبي، كما تبيّن لي لاحقاً، بسبب وعكة ألّمت بوالدة زايد، ولذلك لم نغادر إلى البريمي إلا في اليوم التالي، الثالث عشر من مارس، وقضينا

في تلك المنطقة ثلاثة أيام ونصف اليوم إضافية.

يحكي بكماستر عن الأيام التي قضاها في منطقة العين في جناح داخلي في بيت شبيه بالقلعة غير مأهول، من أملاك الشيخ محمد بن خليفة، ابن عم زايد. ويقع هذا البيت في منطقة المعترض التي هي إحدى المستوطنات الست التي يديرها البوفلاح في البريمي، و"كنا نأكل كما تأكل الأنعام، نلتهم بلا حساب من كرم زايد الذي يصلنا من قلعته في المويجعي. وكانت الوجبات تصل إلينا في شاحنة شفروليه يقودها طحنون، الابن الثالث لمحمد بن خليفة، وهو فتى في الحادية عشرة من عمره. وفي فترة الأيام الأربعة التي قضيناها في البريمي، أجريت عدداً من اللقاءات مع هزاع، أخي زايد، تحدثنا فيها عن ليوا. وكان الرجل يتمتع بمعرفة جيدة في هذا الموضوع."

زار بكماستر في هذه الفترة أيضاً راشد بن حماد، شيخ البوشامس، وصقر بن سلطان شيخ النعيم الذي لم يرق بكماستر فنعته بلفظ قبيح.

> لقد استبقاني لمدة نصف ساعة تقريباً و لم يسارع إلى الترحيب بي عند باب قلعته، وحين قابلته كان يغطي وجهه بنحو كامل تقريباً، و لم يقدم لي سوى القهوة، في حين يتوقع المرء حين يزور شيخاً في عمان أو الساحل أن يستضاف بالأناناس أو الخوخ المحفوظ.

كذلك فإن ذلك الشيخ لم يجب عن استفسارات بكماستر بوضوح، ما جعل هذا الموظف الذي يعتقد أن احترام المسؤولين البريطانيين واجب على شيوخ العرب يكيل السباب لهذا الشيخ مرة أخرى بطريقة بذيئة لا يحدث إلا عن عنجهية واستعلاء وسوء أدب. التقى بكماستر بعد ذلك بعض العربان النازلين على مشارف جبل حفيت، وزار قرية حفيت على أمل اللقاء بالشيخ أحمد الصلف، وزار أيضاً قرية قابل للقاء الشيخ محمد بن رحمة بن سالمين، والأخير "رغم أن قبيلته تُعدّ تاريخياً فرعاً من قبيلة البوشامس، يدّعي حالياً أنه تحت حماية البوفلاح"، ولكنه لم يجد أياً من الشيخين، فقد كانا يضربان في الصحراء.

كان الشيخ زايد يأمل أن تبدأ الرحلة من البريمي في السادس عشر من مارس، لكن بعض الأحداث حالت دون ذلك، فتحرك الركب بعد عصر السابع عشر ليصل إلى نقطة الانطلاق في طوى الدُهان التي تبعد عن البريمي حوالى ثمانية وخمسين ميلاً، عند منتصف الليل، ثم اجتازوها – في ما يقول كاتب التقرير – في أربع ساعات رغم الصعوبة البالغة التي صادفوها في قطع عرق من الكثبان الرملية الناعمة التي تقع على بعد حوالى عشرين ميلاً من دُهان، والتي تعرف باسم هزاع البوش Baush؟. وفي الدُهان وجد بكماستر أن زايد قد أعدّ للرحلة ثمانية وثمانين رأساً من الإبل، وأربعين رأساً من الضأن. أما رفاق السفر فقد كانوا كوكبة متقاربة من

خواص زايد وأقربائه وبعض شيوخ القبائل. فقد ضمّ الركب مبارك وأخاه طحنون، ابني عم زايد، وكان مبارك حديث عهد بزيارة ليوا. فقد وفد إليها قبل أقل من ثلاثة أشهر، في ديسمبر، مع لي أولدفيلد، كما ضمّ الركب أيضاً اثنين من كبار المناصير، هما: سعيد بن مبارك بن سالمين، شيخ قسم البورحمة ذي الولاء للبوفلاح، ومحمد بن خادم البوشلبي، وهو أحد أكبر شيخين في البوشعر، والذي كانت معرفته الطوبوغرافية "المدهشة" مفيدة تماماً ولا تقدّر بثمن. كذلك ضمّ الركب أيضاً سالم بن حم وهو أحد أكبر شيخين من شيوخ العوامر، وهو رجل مرح ومستشار موثوق به لدى زايد، كما كان في الركب أيضاً أحمد بن فاضل، والي ليوا السابق، وأخوه مبارك الذي عيّنه زايد أميناً مسؤولاً عن الإبل والمؤن الخاصة بالرحلة. واكتمل هذا العقد برجل كان صديقاً حميماً لزايد ومكان ثقته وهو مناع بن محمد، والرجل "مُطوّع" في نحو الستين من عمره، وكان دائماً إلى جوار زايد مع ابن حم يسرّيان عنه ويشيران عليه. فقد كانا ألصق بطانته وأهل ثقته. وضمّت المجموعة أيضاً علي بن سعيد ثامر، وهو أحد المناصير الجديرين بالاحترام، ومن الذين يمكن الاعتماد عليهم. فهو يختزن في صدره معرفة كبيرة بليوا والمناطق الأخرى في البادية. "ولم يرافقنا هذا الرجل من الدُهان إلا لمسافة ما حتى أمره زايد بالعودة إلى البريمي مرة أخرى، ليكون في صحبة السيارات التي خطّطنا لأن تكون في انتظارنا في منطقة بعينها حال أن تنتهي رحلتنا على الإبل".

وقد اكتملت هذه المجموعة - كما يقول بكماستر - بسكرتير مقتدر في خدمة زايد، ومجموعة المرافقين المعتادة من صقارين وطهاة ومقدمي القهوة وسائقي إبل الحمل وغيرهم. "وقد وضع زايد اثنين من الصقارين في خدمتي، وتولّى الرجلان خدمتي طوال الرحلة بتقدير ومسؤولية وولاء لا مزيد عليه".

كان لهذا الركب ثلاث وثلاثون ناقة ركوب كانت في ملكية زايد وهزاع ومحمد بن خليفة، وفد بعضها من أبو ظبي. "وقد أتحفوني بالناقة التي ركبها تُسجر، وهي أميز النوق العمانية. فقد كان خطوها ناعماً حتى إني لم أحس أدنى نوع من الإرهاق". أما إبل الأحمال فقد جيء بها من المنطقة الواقعة شمال شرق أبو ظبي، وقد خُصّصت خمسة وأربعون منها لحمل المؤن والطعام. فقد حمل خمسة وعشرون بعيراً خمسين جراباً من التمر، في كل جراب مئة رطل، وحملت الأخرى الأرز والدقيق، ومؤناً أخرى. ويشيد بكماستر بقدرة الشيخ زايد التنظيمية في هذه الفترة الوجيزة، فكل هذا الحشد من الرجال والخيام والزاد والمؤن والإبل قد تم في فترة لا تزيد على أربعة أيام إلى خمسة، "فعندما اجتزنا الدُهان في اليوم الثالث عشر من مارس في طريقنا من أبو ظبي، لم يكن قد وصل إليها جمل واحد". ويستغرب بكماستر هذا التنظيم الدقيق في هذه الفترة الوجيزة، خاصة وقد كان على زايد حينما كان في منطقة العين أن يقضي يوماً كاملاً تقريباً لإكرام مجموعة من ضيوفه من قبيلة الدروع، كما كان عليه في اليوم السابق

للمغادرة إلى الدُهان أن يرسل كل ما تيسّر له من وسائل المواصلات إلى منطقة عبري لإلقاء القبض على بعض اللصوص الذين انحازوا إلى تلك المنطقة.

زايد كما صوّره بكماستر

نستطيع أن نتبيّن من خلال هذا السرد العديدَ من الخصال التي ميّزت الشيخ زايد. فإضافة إلى ما أثبته له بكماستر من دقة تنظيم، هناك الكرم الذي يظهر جلياً في السرد، إضافة إلى برّه بوالدته، وتلك خصلة اشتهر بها زايد ونجدها تتردد كثيراً في العديد من الوثائق التي تظهر أن زايد كان يرهن العديد من أفعاله برضى والدته التي كان يخصّها بعطفه ورعايته. ويقول بكماستر في قسم آخر من التقرير عن شخصية زايد إنه "دون شك أبلغ شيوخ ساحل عمان قوّة. فهو يظفر باحترام وافر لا يدانيه في ذلك أي شيخ آخر في الساحل العماني". ويفاضل بكماستر بين زايد وإخوته الثلاثة شخبوط وخالد وهزاع، ويرى أنه أفضلهم، وأنه شخصية قيادية توجهه مبادئ أخلاقية سامية، وهو – فوق ذلك – قائد بدوي من الطراز الأول، يتطلع إلى أن يلقى من أتباعه الطاعة التامة التي يلقاها منهم فعلاً، وفي مقابل ذلك تراه يسعى بكل ما في وسعه لرفاههم. حدث أن جُرح أحد أتباعه في حادث، فطلب أن يرسل الرجل جوّاً بسرعة إلى البحرين، قبل أن يُعرض على الطبيب المقيم في دبي. ويستطرد بكماستر في وصف زايد فيقول:

> بالرغم من أنه لا يمارس أيّ تمرينات رياضية، يسترعي تكوينه الجسدي الانتباه، وعندما تكون هناك أيّ مسابقات من أي نوع كانت، في السباحة، أو الرماية أو القفز على النار، وهذه الأخيرة من ألعاب البدو المفضّلة – تجد زايد يفوق الآخرين بجدارة في كافة هذه الرياضات. ويستطرد بكماستر فيقول: إن زايد موسوعة شاملة وافية في معرفة الصحراء وطرق الإبل، ويمتاز فوق ذلك بمقدرة تنظيمية غير عادية قياساً إلى أنه بدوي، وقد يخطئ الرجل أحياناً نتيجة لعدم رغبته في أن يوكل إلى غيره بعض المهمات، فهو يشرف بنفسه على كل أمر، صغر أو كبر، سواء تعلق هذا الأمر بإطعام صقر من صقوره، أو دقّ وتد لنصب خيمة، أو تجبير عظم جمل مكسور. ويضيف بكماستر: إن زايد سخي متلاف لماله، كريم لا يبالي، وإنه أنفق على الطعام والهدايا في هذه الرحلة التي صحبه فيها مبلغ ١٦٠.٠٠٠ ربية، ٩٠.٠٠٠ منها من حرّ ماله.

وجد بكماستر صحبة زايد كرفيق سفر غير مزعجة رغم أني كنت أقضي في الغالب معه ثلاث أو أربع ساعات يومياً في الغالب. إن زايد ودود بطبعه ولطيف، وهو رجل قدير متعاطف مع الآخرين، متحدث لبق يمكنه الخوض في عدد من الموضوعات اعتباراً من الأمثال العربية التي يستلهم معانيها، كما يتحدث في التراث، وتراه يتحدث في موضوعات السياسة الأوروبية وعن القنبلة الذرية. وتبقى الصحراء بأخبارها وشائعاتها وغاراتها وسباقات إبلها وأخبار آبارها ومواطن مراعيها ومواقع كلئها هي أفقه الحقيقي. فعلى الرغم من أنه قضى ليلة في روما حينما كان في طريقه إلى باريس مرافقاً للشيخ شخبوط، ما كان يعرف أنها عاصمة إيطاليا.

> ونعتقد أن ليس في ذلك ما يضير زايد الذي ما كان يعدّ نفسه مدرساً للجغرافيا في مرحلة ابتدائية، ولكنه يُجرّم السياسة الهندوبريطانية التي قضت، قبل أن يولد زايد بأكثر من قرن من الزمان، بإغلاق تلك المشيخات عن العالم ومعارفه، فأورثت إنسانه الجهل ولكنها لم تسلبه الحكمة. ويمضي بكماستر ليبرز الجانب الآخر الذي وجده في زايد فيقول إن في شخصيته
>
> ذلك الخمول المميز للشخصية البدوية، فحين يتوقف الركب في استراحة وقت القيلولة، فإنه يعمد إلى مدّ الفترة إلى أربع أو خمس ساعات، وتكون نتيجة ذلك عدم وصولنا إلى مخيمنا الليلي إلا بعد حلول الظلام، وكان عليهم أن ينتظروا بعد ذلك دائماً إلى الساعة الحادية عشرة أو ربما إلى منتصف الليل لتجهيز الطعام. كذلك كان زايد يرفض أحياناً أن يرافقني في زيارة موقع أو بئر أريد الوصول إليه، ويعتذر بأنه مشغول، ولا تزيد مشغوليّته عن استغراقه في النوم أحياناً أو قد يكون مستلقياً في دعة مستمتعاً بالنكات التي يرويها له ابن حم أو بألعاب الأطفال التي يمارسها معه،

ولربما نلحظ في أقوال هذا الإداري تناقضاً ينأى به عن الحقيقة. نجد أنه أقرّ – في ما سبق من سرده – لزايد بوفرة النشاط وباهتمام الرجل بكل صغيرة وكبيرة، وفي تقديرنا أن اتهام زايد بالكسل الموروث عن الشخصية البدوية محض افتراء درج على قوله العديد من الرحالة الغربيين كلما طرأت على أذهانهم فكرة البداوة أو جرى على أقلامهم لفظ البدو. وتشهد العديد من الوثائق البريطانية على أن هذا الشيخ، خاصة في هذه الفترة الباكرة من شبابه، كان يراقب بشخصه كافة ما يخصّه، ولا ريب في أن رأيناه في مدينة العين ينزل مع العمال إلى الأفلاج يراقب أعمال نظافتها التي كان لا يستنكف عن المشاركة فيها بيده. وينتهي بكماستر إلى القول: إن زايد – بالرغم من اعتدال مزاجه وهدوئه البارز – في أخلاقه حدّة، كما يقول الذين يعرفونه معرفة تامة.

ملاحظات بكماستر بشأن بعض رفاق الرحلة وبعض من التفاهم فيها

تحدث بكماستر بإسهاب عن محمد بن خادم البوشليبي أحد أكبر شيخين في البوشعر من المناصير ومركزه جرة Gara في ليوا، ووصفه بأنه رجل شجاع، مجامل، مرح، مستقيم متديّن بعمق، ينادي للصلاة في مواقيتها "وهو الوحيد في أفراد المجموعة الذي كان أبداً مداوماً على صلاته". وأشاد بكماستر بمعرفته العالية غير المحدودة بآبار الصحراء، وقال: إنه يعرف موقع حوالى أربعمئة بئر في الحمرا والظفرة وبينونة ومجن، وكان في معرفته بمحاضر ليوا وسبل حياة أهلها وأنماطها، وفي استعداده، بل رغبته في تقديم أيّ معلومة خاصة بالمنطقة، وفي دقة المعلومة التي يقدّمها، رجلاً لا يبارى. ويقول بكماستر: إن الرجل رافقه خلال تحركاته كلها في هذه الرحلة، ووجد صحبته ممتعة. فهو بشوش دائماً، تراه مبتسماً حتى وهو يؤدي أعمالاً شاقة، مثل حفر بئر أو نحو ذلك. وأشار بكماستر إلى أن الرجل كان قائداً لقوة أبو ظبي في النزاع الذي شبّ بينها وبين دبي عام ١٩٤٦-١٩٤٧م، وقد جرح في المعارك. وفي الحقيقة كان زايد من أبرز معارضي تلك الحرب التي نشبت بين الأهل من بني ياس، وحاول كثيراً في عام ١٩٤٥م التدخل بين حاكمي أبو ظبي ودبي بالوساطة لمنع نشوب الحرب، لكنّ مساعيه في هذا الصدد لم تنجح، ولربما كان ذلك الحدث أحد المحركات القوية التي دفعت به، حينما أصبح حاكماً لأبو ظبي، إلى التصدي لإقامة الاتحاد بين الإمارتين الياسيتين أولاً، لدرء أسباب الخلاف ودفنه في ذمة التاريخ، لمقابلة المشكلات المتوقعة نتيجة لتخطيط بريطانيا الانسحاب من المنطقة.

يحدثنا بكماستر أيضاً عن سعيد بن مبارك بن سالمين، كبير البورحمة الموالين للبوفلاح، الذي كان في صحبة زايد، والرجل مستقيم وموثوق به وهو شديد الإعجاب بزايد، وكان مركزه في قعيصة. ويستطرد بكماستر فيحدثنا عن سالم بن مسلم (حمد) بن حم، أحد أبرز أهل الثقة لدى زايد، وما تمتع به من خفة ظل. وقال إنه وجد صحبته ممتعة، وأفاد بأن صحبة الرجل الدائمة لزايد أكسبته مزيداً من الخصال الطيبة. وعلى الرغم ممّا رواه بكماستر عن انفتاح الرجل اجتماعياً، أشار إلى الصعوبة التي وجدها في أن ينتزع منه أيّ معلومات عن قبيلته. وتحدث بكماستر أيضاً عن محمد بن صياح الفندي، أحد اثنين من رؤساء المزاريع والذي رافق الركب من مرخية، وأحمد بن فاضل المزروعي الذي كان حتى رمضان ١٤٧١/يونيو ١٩٥٢ والياً على ليوا، ولكنه أعفي من منصبه. ويحدثنا أيضاً عن مانع بن محمد الظاهري، تلك الشخصية المحترمة المحبوبة جداً، والذي بلغ خمسة وستين عاماً من عمره، وهو عم سلطان بن سرور، شيخ الظواهر. وكان الرجل - كما يقول بكماستر - أكثر أصدقاء زايد حميمية، وكان مثل سالم بن حم دائماً قريباً من زايد لا يفارقه أبداً، خاصة أن زايد كان يعدّه مستودع ثقته ومكان سرّه. وكتب بكماستر عن شخصية الشيخ طحنون بن خليفة، الابن الثالث للشيخ خليفة بن

زايد، "ذلك الفتى الذكي جداً، الدقيق الملاحظة، المدرك لما حوله، وقد قرّبه زايد إليه فارتبط به تماماً، وهو جمّ النشاط، لا تراه إلا فوق جمل أو على صهوة حصان أو قائداً لسيارة". و لم يظفر الشيخان مبارك ومحمد، ابنا خليفة من بكماستر بالإطراء الذي ظفر به أخوهما منه، بل قدح فيهما. أما الشيخ خليفة بن زايد نفسه، فقد رأى فيه بكماستر رجلاً ودوداً كريماً مرحاً جذلاً، اكتسى مسحة من مظاهر نبلاء البادية الإنجليزية، وقد وجه اهتمامه كله للعناية بممتلكاته الشاسعة، ولا تجده يكترث للسياسة كثيراً.

إلى ليوا

غادر الركب بئر الدُهان على الإبل في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح جمادى الآخرة ١٣٧١/الثامن عشر من مارس على انحراف ٢١٠°. وكعادة البدو حين يبدأون المسير، فإن القافلة لا تقطع مسافة طويلة في اليوم الأول لمسيرها، فقد أراد زايد أن يركب ساعتين فقط، فطلب بكماستر إليه أن يمدّها إلى أربع فوافق، وهكذا تمكّنت القافلة من قضاء ليلتها الأولى عند بئر بدع الخيطوم Kaitoum على بعد حوالى اثني عشر ميلاً فقط من طوى الدُهان، مكان المغادرة.

تطلّب قطع الختم من القافلة ثلاثة أيام من المسير في اتجاه ٢١٠°، وقد عكست هذه الصحراء – في تقدير بكماستر – أبهج منظر لصحراء أخرى قطعوها على امتداد الرحلة. فهي عروق متلاحقة من الكثبان المتتابعة بعضها إثر بعض كأنها الأمواج. يتراوح عرض العرق بين نصف ميل وميلين، ويفصله عن الآخر سهل حصوي غير متّسع. وكان الكلأ وافراً في كل مكان، ولا يكاد المرء يقطع أكثر من أربعة إلى خمسة أميال من دون أن يصادف بئراً. أما أشجار الغاف فكأنها النقاط في صحيفة الأرض. وعلى الرغم من ذلك، كان تقدم القافلة في هذه الأرض بطيئاً، لأن زايد كان – في فترة ما – يشكو ألماً في ضرسه، ولسبب رئيس هو أن القافلة كانت كبيرة، وما كان من المتيسّر لإبل الأحمال أن تزيد من سرعتها. وهكذا فإن القافلة لم تتمكن من أن تبلغ بئر بودخان التي لا تبعد عن طوي الدُهان أكثر من خمسة وأربعين ميلاً إلا في يوم ٢١ مارس. ولتدارك هذا البطء تقرر أن تنفصل أباعر الأحمال عن المسيرة، وأن تتخذ طريقاً آخر يفضي بها إلى بئر ديباي Dibai على بعد حوالى اثني عشر ميلاً من لطير في ليوا، على أن تتحرك المجموعة الرئيسة المكوّنة من اثنين وثلاثين رجلاً على النوق التي زيد عددها بثلاث للطوارئ، كذلك زوّدت هذه المجموعة بمؤن تكفيها أسبوعاً، إضافة إلى ثلاث خيام فقط.

انطلق الركب من بودخان على هذا النحو من التنظيم الذي برهن على نجاحه التام، فوصل إلى الثروانية في قلب ليوا بعد أن قطع مسافة خمسة وثمانين ميلاً في أربعة أيام فقط. ويقول

بكماستر إنهم ما إن تجاوزوا بودخان حتى أخذوا يتجاوزون الحدود بين الختم ورملة الحمرة، وقد أشار من أخبره بذلك إلى بعض الأشجار عند الحد الفاصل بين الأرضين وإلى التلال الرملية التي تلي ذلك الحد "بدقة أدهشتني". ورأى هذا المستعرب مساحة الختم أكبر مساحة مما أثبته تُسجر في خريطته، وأنه يمتد بنحو أو بآخر بين سيح النصورية شمالي غربي البريمي إلى صلاحية Silahia جنوبي جبل حفيت، ويتجه شرقاً إلى بوفافا Buffafa وشمالاً إلى شيثان Shaithan ثم إلى سيح النصورية. أما رملة الحمرا فتمتد جنوباً حتى بئر قسيورة Quasaiwara حتى تتصل بإقليم الطف Taff الساحلي في الشمال. ويورد بكماستر أن رملة الحمرة هي رمال حمراء بنحو تام أو للتحرّي عن الدقّة يمكن القول: إن لونها قرمزي باهت. ويلاحظ أيضاً أن رمال الختم تتّسم بهذا اللون أيضاً، ولكن منطقة الحمرة هي منطقة مفتوحة بنحو أكبر، فهي سهول رملية عريضة ممتدة يكسر النظر فيها أحياناً عدد من المسطحات الملحية أو الأودية العريضة المنخفضة، وتلال في شكل قباب، وعروق كثبان رملية متباعدة بعضها عن بعض أحياناً. وقد تصل المسافة بين الواحد منها والذي يليه إلى عشرة أميال. أما في منطقة الختم، فلم تكن المسافة الفاصلة بين العرقين من الرمال تتجاوز ميلين إلا نادراً. وبالطبع ما إن اقترب الركب من ليوا حتى ترك أشجار الغاف خلفه وكذلك نباتات الهلام Halam النضرة الوافرة العصارة ذات اللون الرمادي، والنباتات الأخرى من شيري Chiri وبرشان Birchan وغيرهما ممّا تستسيغه الإبل، ودلف إلى أرض تنتج أعشاب الهضرب Hudhrib العنقودية المسمارية الأوراق، والأرطا Arta ذات اللون الأخضر الداكن التي أمدّتهم فروعها الجافة بالوقود لإعداد القهوة، كذلك صادف الركب العديد من الأرانب الصغيرة الحجم، الطويلة الآذان، البنية اللون "التي أشاعت في صقورنا وكلابنا روحاً رياضية مستحبة"، كما لاحظ بكماستر مجموعات من الضباب الكبيرة ويفترض أنها تؤكل وكذلك الضباب الصغيرة المعروفة باسم بوتخان BuTakhan.

أناخ الركب في مساء الثاني والعشرين من مارس عند بئر شانتالا Chantala، فتوافد عليهم نحو عشرين فرداً من قبيلة العوامر ممن كانوا في بينونة، وفدوا إلى هذه المنطقة في طريقهم إلى البريمي أو إلى الجنوب منها ليلحقوا برجال قبيلتهم الذين - كما أفادت تقاريرهم - كانوا يعسكرون هنالك. ولربما كانت هذه المجموعة - كما يقول بكماستر - هي آخر المجموعات التي تقطع الرحلة في هذه السنة إلى الشرق. وقد أفادت هذه المجموعة بأن عبد المحسن بن جلوي، أمير الدمام، قد زار المجن برفقة قران بن مانع، أحد كبار مجموعة البومنذر من المناصير، وأنه أرسل بعض سياراته إلى بينونة للاتصال بالعوامر، ولإبلاغهم أن الحكومة السعودية ستتولى جمع زكاة إبلهم عندما يصلون إلى البريمي.

وصلت القافلة في مساء اليوم الخامس والعشرين إلى مضارب الثروانية التي كانت مثل كافة المضارب التي تقع إلى الشرق منها مهجورة مؤقتاً، إذ لا يعود إليها سكانها من مناطق الرعي في

بينونة والختم والحمرة ومناطق الكلأ الأخرى إلا في نهايات شهر يونيو لجني تمور نخيلهم. وفي اليوم التالي قرر زايد، بعد نقاش مستفيض مع بكماستر والمجموعة المرافقة له، زيارة المضارب القليلة التي فيها مستقرات دائمة للسكن. وقد اتضح أن عددها لا يزيد على تسعة، وهي تحديداً: السبخة، وشاه، وجرمدا، والظفير Dhafir، والظويهر Dhawaihir، وشدق الكلب (تغيّر اسمها لاحقاً إلى مروان)، وقطوف، ومزيرعة، ومارية. وكان زايد في بداية الأمر حذراً في تعامله مع بكماستر، ولكنه ما إن استوثق من أن بكماستر كان مقتنعاً بضرورة الثبات إلى جانب البوفلاح في تصدّيهم للتحرك السعودي في المنطقة حتى "أطلق يدي لأستفسر ممّن أريد عن نشاطات السعوديين في المنطقة وكما أريد".

جرى التخطيط لزيارة هذه المضارب المأهولة وأخرى كانت مأهولة جزئياً، واستغرق ذلك منهم ثمانية أيام، بما في ذلك ثلاثة قضوها في منطقة البطين جنوبي ليوا مباشرة. وفي السادس والعشرين من مارس ركب زايد وأتباعه إلى سبخة، بينما انفصل عنهم بكماستر مع مجموعة أخرى لزيارة المشروب، حيث تمّ له ضبط الاتجاهات التي عليها سلسلة محاضر البورحمة والبوشعر التي كانت وقتئذ مهجورة، والتي تنتظم المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الجريرة Al Jaiara. وقد لحقت هذه المجموعة عند المساء بزايد ومجموعته عند حدائق النخيل على تخوم سبخة التي كان شيخها سيف بن موسى لا يكنّ - كما هو واضح - الكثير من الاحترام للبوفلاح، وكان استقبالنا فاتراً. وقد حدثني زايد بأنه يشعر بالخجل من أن أسرته أهملت ليوا، وأن لا أحد من ذوي النفوذ منها قد زار المنطقة أخيراً. وكان سيف يشكو من أن البوفلاح قد أهملوا ليوا مدة طويلة، وعبّر عن استيائه خاصة من السلوك المتعجرف للشيخ شخبوط. فحين زاره في أبو ظبي لم يرجع منه سوى بأربعين ربية. وعلى الرغم من ذلك أجاب هذا الرجل عن الأسئلة بصراحة وقال: إن القبيسات والمزاريع يتقاسمان السكن في هذه المستوطنة. وفي الحقيقة لم تجد البعثة فيها سوى مجموعة قليلة من السكان، وكان هذا هو عين الحال في الييف، رغم أن كبيرها سعيد بن خليفة كان موجوداً فيها. وركب بكماستر في صحبة البعض عصراً وزاروا ظفير Dhafir، وعادوا إلى المارية لقضاء الليل، وكان زايد قد سبقهم إلى هناك.

وصل مبعوث من الشيخ شخبوط في الثلاثين من مارس بالبرقية رقم ٢١٩ المؤرّخة في ١٢ مارس إلى المقيمية البريطانية في الخليج، والتي حددت طبيعة المعلومات التي كان من الضروري لبكماستر أن يجمعها من الظفرة وبينونة. ورجع ذلك المبعوث بخطاب إلى شخبوط وآخر إلى ولتون Wilton، ورافقه في رحلة العودة بعض رجال الشيخ زايد الذين كان عليهم أن يعودوا إلى دبياي للرجوع ببعض المؤن والطعام. وفي الساعة التاسعة والدقيقة العشرين تحرك ركب زايد، وتمكن في هذا اليوم من زيارة ثلاثة محاضر، الظويهر Dhawaihir على بعد ساعة واحدة من المارية،

وهي مأهولة تماماً بالبوفلاح، وكبيرهم "مطوع" يوثق به، وقد تملّكته العاطفة وفاضت مشاعره حين وقعت عيناه على زايد، حتى إنه ظل في خلال الساعتين اللتين قضيناهما معه يلهج بحمد الله وشكره، ولكنه مع ذلك وجد متّسعاً من الوقت ليقدم لنا أميز نوع من التمور أكلناه في ليوا، وأنقى مشروب من المشروبات المنعشة.

وتحرك الركب من هناك فبلغ شدق الكلب بعد حوالى ثلاثة أرباع الساعة، وقضت المجموعة هناك حوالى أربع ساعات قبل أن تغادرها إلى قطوف التي بلغوها مع مغيب الشمس، ووجدت المجموعة من القبيسات، أهل قطوف، استقبالاً حافلاً، وقدّم كبيرها خليفة بن خلفان ناقة هدية لزايد، كما قدّم ابنته ذات السنين السبع إلى طحنون ليتزوجها حينما يشاء، وكانت تلك عادة معروفة في المنطقة باسم "التوهيب". وعلى الضوء المنبعث من النار المشتعلة بجريد النخل في قطوف جلس القوم يتذاكرون. وكان أغلب أهل القرية بالقرب من كبيرهم يذكّرونه إذا نسي. ويرى بكماستر أن المعلومات التي حصل عليها من أولئك القوم كانت أكثر ممّا يتوقع، ولكنه شعر بأن وجود الشيخ زايد قد أخل بموضوعية بعض إجاباتهم. وقد تقرر بعد ذلك أن يقوم علي البستاني في مجموعته بزيارة "المحاضر" الخمسة الأخرى التي ظنوا أنها مأهولة، على أن يقوم فريق آخر باستطلاع النهاية الشرقية للظفرة بالقرب من آبار بلاغ Bilagh للتحرّي عن وجود قبائل ترعى المنطقة الواقعة بين ليوا والساحل، أما المجموعة الرئيسة في البعثة فقد توجهت إلى البطين.

البطين

تحرّكت المجموعة من قطوف فارتقت عروقاً عالية من الكثبان المرتفعة التي تعدّ الفاصل بين ليوا والباطن الذي يمتد من ليوا جنوباً مسافة ثلاثين ميلاً. وتقع الكدن (تنطق شيدان Chidan) التي يزورها العوامر والمناهيل والرواشد، كما يزورها آل مرّة من المنطقة السعودية، في جنوبي البطين بعد حوالى ساعة وربع من المسير على اتجاه ١٦٠°. وصل الركب إلى بئر صبايا Sabaya حيث وجدوا خيمتين للمناصير الذين وفدوا إلى المنطقة من نوفير. والجدير بالذكر أن كل آبار الباطن التي على مدى ١٠-١٥ ميلاً من حدود ليوا تعدّ ملكية خاصة لأحد المضارب في ليوا أو لآخر، ما يجعل الباطن عامة جزءاً من ليوا، أما ما وراء ذلك فإن آبار البطين مثل آبار الصحراء عامة هي ملكية عامة مشاعة.

يختلف البطين عن ليوا اختلافاً بيّناً، فارتفاع كثبانه قد يصل في بعض الأحيان إلى ٣٠٠-

٤٠٠ قدم، ما يجعلها أعلى بوضوح من كثبان ليوا. أما السهول الفاصلة بين هذه الكثبان الرملية فيتراوح عرضها بين نصف ميل وميلين، وتجري العروق الرملية لهذه الكثبان بنحو غير منتظم في اتجاه غربي جنوبي غربي، وتأخذ شكلاً منتظماً إلى حدّ ما، وتظهر المنحدرات الشمالية لهذه العروق ميلاً طفيفاً متعرّجاً في الغالب، أما جوانبها الجنوبية فهي في الغالب رأسية. ويلاحظ بكماستر أن نبات البطين أوفر وأكثر تنوّعاً من نبات ليوا، غير أن المياه فيها أسوأ بكثير من مياه ليوا. ومن المشهور أن الآبار التي في المنطقة الجنوبية من البطين شديدة الملوحة يتعذر شربها، فلا عجب إذاً من كون المنطقة غير مأهولة إلا قليلاً جداً. ولذلك فلن تجد أيّ مستوطنات في البطين رغم وجود عدد من حدائق النخيل التي تحيط بالآبار عند أطراف الباطن الشمالية. ويرعى البطين بدو العوامر بصفة رئيسة. وقد علم ركب زايد حين حل في المنطقة أنه كان فيها ثمان وثلاثون خيمة للعوامر، ولكن أكثرهم قد غادرها في هذا الوقت، كما عرفوا أيضاً أن الرواشد يعبرون هذه المنطقة، وكذلك آل مرّة، من السعودية في طريقهم من ليوا وإليها، إذ يعملون في محاضرها في مواسم جمع التمور، ويحصلون على أجورهم نوعاً.

قضى ركب الشيخ زايد ليلة الحادي والثلاثين من مارس عند بئر بلاغ، حيث وجدوا أسرتين من العوامر من فرع عمرو، ولم يقدم هؤلاء للركب معلومات مفيدة، ولكنهم قالوا إن جباة الزكاة السعوديين لم يظهروا في هذه المنطقة في السنتين الماضيتين. وسارت قافلة زايد تضرب في الصحراء غرباً من بئر بلاغ مسافة اثني عشر ميلاً تقريباً، ثم اتخذت بعد ذلك طريقاً شمالياً حتى انتهت إلى حَمار (استبدل اسمها بحصان) التي كانت ملكاً لأهالي مستوطنة ختّور. وأشار زايد بيوم "إجازة"، حتى تتمكن الإبل من أن ترعى المنطقة. وعموماً فقد وصلت القافلة بعدئذ إلى ختّور في ٨ رجب/١٢ إبريل حيث التقوا هناك مجموعة البستاني التي كانوا قد أرسلوها في مهمة استكشافية، ورجعت هذه المجموعة بمعلومات قيّمة عن طرق (طرج) Taraq وحمرور وختّور والمارية الغربية. واستقر الرأي على ألا تزور القافلة المضارب الواقعة إلى الغرب من ختّور، فكلها مهجورة، وكان على الركب أن يقطع الظفرة إلى بئر مرخية في بينونة حيث أملوا أن يلتقوا هناك السيارات المرسلة من أبو ظبي.

الظفرة

ابتهج الركب – في ما يقول بكماستر – حين غادر ليوا ومنحدرات عروقها الرملية الحادة التي لا يستطيع البعير عبورها إلا بعد نضال شديد وبصعوبة بالغة، وشجرات الهرم Haram التي تصيب الإبل بالإسهال الدائم. وقد قضت الخطة بأن تقطع القافلة الظفرة التي تعني في معناها الجغرافي المنطقة المحصورة بين النهاية الغربية لليوا ومنطقة بينونة، في مجموعتين عبر طريقين مختلفين،

ولكن ذلك غدا مستحيلاً حين تبيّنوا أن أغلب آبار المنطقة غدت "ميتة"، أي إنها رُدمت تماماً بالرمال وبعر الإبل، نتيجة عدم استعمالها قط السنة الماضية، إذ كانت الأمطار شحيحة في الظفرة فلم تغْشَها أيّ قبائل للرعي، وظلت المنطقة مهجورة تماماً. وكان على القافلة أن تسلك الطريق المعتاد الذي يسلكه المسافرون من ليوا إلى الساحل ويمر عبر الساروق Sarug عن طريق آبار ديباي Dibai ويربوب. وكان على القافلة أن تعيد بعض الآبار الميتة إلى الحياة مرة أخرى بتنظيفها وإزالة الأخلاط المتراكمة فوق سطح المياه، وكانت تلك العملية شاقة جداً، فمتوسط عمق البئر في هذه المنطقة يتراوح بين ٣٠-٤٠ قدماً، في حين لا يتجاوز العمق في المناطق الأخرى التي زارتها البعثة ١٥-٢٠ قدماً.

وصلت القافلة إلى مرخية غروب شمس يوم الثامن من إبريل بعد أن اضطرت إلى التأخير يوماً ونصف اليوم عند بئر شليف Shilif انتظاراً لعودة الجماعة التي أرسلت إلى ديباي في طلب المؤن من مجموعة إبل الأحمال، وكانت القافلة قد تزوّدت بالماء قبل ورودها آبار مرخية في بدع سويلم، حيث توجد بعض أشجار النخيل التي تعود ملكيتها إلى البومنذر من المناصير، وكانت تلك آخر بئر حية صادفوها، ما جعلهم يقطعون خمسة وأربعين ميلاً في إحدى عشرة ساعة من المسير في أرض لا ماء فيها، ومع ذلك "وصلنا والإبل في أحسن حالاتها".

يلاحظ بكماستر أنهم ما إن غادروا ليوا وغدت العروق الرملية الكثيفة المتلاصقة وراءهم حتى تبيّنوا أنهم دخلوا إلى منطقة أكثر انفتاحاً ذات عروق رملية عريضة، جوانبها غير وعرة الميلان، وتجري بنحو رئيس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتفصل بينها مسافات تتراوح بين ميل وأربعة أميال. أما نباتات هذه الأرض فهي تشبه إلى حد كبير النباتات التي صادفوها في الحمرة، إضافة إلى زهرة الضهر Dhahr الصفراء التي تستسيغها الإبل كثيراً. وتغيّر شكل الأرض بعد أن قطع الركب حوالى خمسة عشر ميلاً من مرخية، فاختفت العروق الرملية الكبيرة، وأخذت الأرض تموج بعدد من التلال الصغيرة المتلاحقة التي تبدو للناظر كالأمواج، ولا يزيد ارتفاع أي عرق منها على عشر أقدام.

عرف بكماستر من استفساراته أن الظفرة ترعاها إبل العوامر بصفة رئيسة، رغم أن المناصير قد يَرِدونها إذا أضحى المرعى وافراً، وكذلك آل مرّة، فكل الآبار في هذه المنطقة "مجانية" ليست في حيازة قوم بعينهم، حق مشاع لمن يردها. وقد يحدث أيضاً أن يقطع بعض جباة الزكاة السعوديين الظفرة أحياناً في طريقهم إلى بينونة أو رواحهم منها.

بينونة

تمتاز أرض بينونة بنحو بارز بانبساطها. فهي أرض سهلية تظهر فيها هنا وهناك تلال منخفضة.

وقد أفاد الشيخ زايد بأن بينونة تمتد من بئر أمديسس Umdaisis غرباً حتى سبخة مطي، وتصل في أطرافها الشمالية إلى المنطقة الساحلية التي تمتد ٥ - ١٠ أميال والمعروفة باسم الطف Taff. أما حدودها الجنوبية فمتداخلة، ولكن يمكن تحديدها بطريقة ما بأنها تنتهي إلى الحدود الشمالية للرمال الغزيرة بعد حوالى خمسين ميلاً في اتجاه الداخل.

قضت البعثة في بينونة واحداً وعشرين يوماً، منها يومان في المجن. فقد اضطرت البعثة إلى أن تنتظر في مرخية حتى الرابع عشر من إبريل وصول السيارات التي وعد الشيخ شخبوط بإرسالها في اليوم العاشر. وما إن عرف البدو بوجود زايد في المكان حتى أخذوا يتوافدون عبر طرق الصحراء زرافات ووحداناً ليقيموا منازلهم على بعد بضع ياردات من معسكر زايد، وذلك "للاستمتاع بكرم مطبخ زايد الذي لا يداني، وللظفر بالهدايا المالية المعتادة، وكان البدو بدورهم يبادلونه الهدايا من المعز والخراف وصغار الإبل". ويلاحظ بكماستر أن عدد تلك الإبل قد بلغ ثلاثة وثلاثين بعيراً... وتأخر وصول السيارات، وأرهقت مصادر مطبخ زايد من المؤن، إذ كان عليه واجب إطعام نحو مئتي رجل يومياً، ونحر ثلاثة من الإبل أو أكثر في اليوم الواحد، وقد كان هؤلاء الضيوف من خيمتين من العوامر، وعشر من المزاريع الذين يرجعون إلى بني ياس، وثلاث من مناصير البورحمة، واثنين من مناصير البوشعر. وقد وفد هؤلاء القوم جميعهم من سبعة محاضر من محاضر ليوا. وكانت قافلة زايد حينما وفدت إلى مرخية قد أدركت الإبل التي تحمل المؤن والتي كانت قد وصلت إلى هناك من ديباي عبر آبار يربوب ودعفس. وقد أفاد قائد هذه المجموعة بأن كافة الآبار بين يربوب ودعفس آبار "ميتة". ويلاحظ بكماستر أن كرم زايد بما هو عليه من فيض، ما كان له في تلك المناطق النائية أن يتحمّل هذا الضغط الثقيل من الضيافة بنحو غير متناه. فقد أخذت المؤن تنضب، ولهذا قرر زايد في الرابع عشر من إبريل، أي بعد أربعة أيام من الموعد المحدد لوصول السيارات أن يحوّل معسكره شرقاً إلى خريج ثمارا على بعد حوالى اثني عشر ميلاً، وذلك حتى "يخفف ضغط ضيوفه الذين فرضوا أنفسهم عليه". وحين أوشكت القافلة على الرحيل، ظهرت في الأفق السيارات التي أرسلها الشيخ شخبوط، وكانت ثلاثاً أعاد زايد إحداها إلى أبو ظبي فوراً بخطاب إلى شخبوط يطلب إليه أن يرسل له مالاً ومؤناً إضافية، وأن يزيد في عدد السيارات، غير أن السيارة التي أرسلت إلى أبو ظبي أصابها العطب ولم تقطع نصف الطريق إلى وجهتها، وكان على مبعوث زايد أن يكمل رحلته إلى أبو ظبي بحراً.

ظلت السيارتان الأخريان في المعسكر (إحداهما لاندروفر والأخرى دودج، وهما في الأصل تتبعان مجموعة مسّاحي رصد تحرّك الجراد، ورئاستها في الشارقة، أعاروهما لهذه البعثة) في الانتظار حتى نقل زايد معسكره في الثلاثين من إبريل إلى خريج ثمارا التي جعلها قاعدته، ثم تقدّم من هناك في ستة فقط من مرافقيه إضافة إلى بكماستر إلى المجن، بينما أرسل

البستاني مع الشيخ مبارك للوقوف على آبار العقيلة والرجيب Raquaib.

المجن

تقع المجن أو المين كما تنطق إلى الغرب من سبخة مطي، وتمتد حتى حدود مقاطعة الأحساء. والمنطقة ليست كثيفة السكان، ولربما لا توجد فيها سوى قرية دائمة واحدة فقط هي بعيّا Bacuyah، التي وفدت إليها البعثة في مساء اليوم الخامس عشر من إبريل، وصادفت فيها ثمانية من بيوت المحاربة من بني ياس وفدوا إليها من ليوا، وخمسة من بيوت المزاريع من بني ياس وفد ثلاثة منهم من جرمدا، وقد أنهى كبير هؤلاء إلى البعثة أن مجموعته تقضي نحو ٨-٩ شهور في بعيّا، ولا تعود إلى ليوا إلا لجني محصول التمر، وأفاد بأنهم يعملون في ما بقي من السنة في الغوص حيث توجد أصداف اللؤلؤ في المياه الضحلة القريبة من الساحل، ما يجعل العمل في هذه المهنة ممكناً على امتداد السنة. ولا يجني حكام البوفلاح ضريبة أو رسماً على التقاط هذه اللآلئ الصغيرة، ولكن إذا ظهرت الحاجة إلى وضع الضرائب أو الرسوم فإنها تورّد لخزينة البوفلاح، فهؤلاء المحاربة صادقو الولاء للبوفلاح، وقد شهدوا بأن المجن مقاطعة فلاحية، وهكذا كان رأي سائر البدو الذين يقولون بانتماء المجن تاريخياً إلى أبو ظبي.

صادفت هذه البعثة في اليومين اللذين قضتهما في المجن مجموعات صغيرة من البدو كانت كلها في حالة حركة. فعند النهاية الشرقية للمسطحات الملحية غير المأهولة المعروفة بسبخة مطي، التقت البعثة مجموعة من محاربة مزيرعة، كانت بعض العواصف قد حطمت قاربهم في طريق عودتهم من جزيرة دلما. وفي هذا النطاق الصغير الذي لا يتعدى عرضه ١٠-١٥ ميلاً، ظهرت في منتصف السبخة أرض ذات نبات في منطقة تعرف باسم الجزيرة، وصادفت البعثة هناك خمسة من المزاريع الذين جاؤوا من المارية الغربية، وقالوا: إنهم عائدون من قطر بعد أن زاروا أحد أقاربهم من العاملين في شركة البترول هناك، كما صادفت البعثة رجلين من آل مرّة في بعيّا كانا يعبران المنطقة في طريقهما شرقاً إلى قطر، وقد وفدا إلى معسكر زايد يسألانه أن يقبل ولاءهما وبثّاه شكواهما. كذلك وفدت مجموعة أخرى من آل مرّة عندما عاد إلى البريمي، وتقدّمت إليه بطلب مماثل، كما وجدت البعثة أحد البورحمة من العد عند بئر سند، وكان في طريق عودته إلى بينونة بعد أن قضى شهرين في الأحساء، وعند بئر المنيع التقوا اثنين من العوامر وأحد البورحمة في طريق عودتهم من الأحساء إلى الختم وقالوا: إنهم من العاملين في أرامكو، كما صادفت البعثة في بئر الخشم Khasham عائلة مرّية وفدت من الأحساء قبل أربعة أو خمسة أيام واشتكوا من أنهم اضطروا إلى النزوح إلى هذه المنطقة بسبب الجراد الذي نزل بمراعيهم وسبّب الكثير من الدمار.

في تقديرنا أن هذه المجموعات الشتات تشير إشارة مقبولة إلى هوية القبائل والبطون التي تغشى المنطقة عبوراً أو تنزل بمراعيها، إضافة إلى ما عرف من أن البورحمة و البومنذر الذين يرعون بينونة في الغالب يفدون إلى الرعي في هذه المنطقة في أعداد كبيرة نسبياً إذا كان المرعى فيها مريعاً، كما يرعاها العوامر أيضاً وبعض آل مرّة أحياناً، ولكن على المرء ألا يتوقع أن يصادف في هذه المنطقة إلا شتاتاً من أبناء هذه القبائل الذين قد يقضي بعضهم بضعة شهور يرعى المنطقة في طريقه إلى الأحساء غادياً أو رائحاً. فمراعي المجن تعدّ فقيرة مقارنة بمراعي بينونة، أما آبارها فهي أقل عدداً، ومياهها أكثر مرارة. ولا يأتي منطقة المجن جباة الزكاة السعوديين إلا عابرين في طريقهم إلى ليوا وبينونة أو رواحهم منها، فالمنطقة عامة - كما سبق أن أوضحنا - قليلة السكان. وقد أكد المحاربة في بعيّا أنهم لم يحدث أن التقوا أبداً جباة سعوديين.

قضت البعثة ليلة في بعيّا وعادت إلى بينونة مرة أخرى في السادس عشر من إبريل بعد أن ضلوا طريقهم وعانوا الكثير من التعب والإرهاق، فقد كانت ثقتهم كبيرة بدليلهم سعيد بن سالم من البومنذر، الذي كانوا يدركون أنه لا يخطئ "دلالة الإبل" مهما تشابهت الأرض أو اختلطت معالمها، لكنه لم يستطع أن يضبط نفسه في مواكبة سرعة السيارة. وفي اليوم التالي كان على تلك السيارة الدودج أن تجتاز المنبسطات الطينية على الطرف الغربي من سبخة مطي المغطّاة بطبقة سطحية من المياه، وتمكنت من إنجاز ذلك. وبعد أن زارت البعثة آبار منباعي Mincacci وسند Sanad وصفق Safaq وخشم، طفقت تضرب شرقاً نحو بئر العجيلة على بعد ٤/١ ٧٣ ميلاً، وقد تمكنت من الوصول إليها في ثلاث ساعات وأربعين دقيقة. وكانت سبخة مطي في المنطقة التي اجتازوها ثابتة وجافة، كما اجتازوا في ما بقي من رحلتهم مناطق ذات رمال حمراء أغمق لوناً وأدكن من رمال المنطقة المعروفة بالرمال الحمراء. ووقف القوم في الطرف الشرقي من سبخة مطي على جثة باكستاني كان في ما يبدو أحد أفراد مجموعة من أربعين حاجاً كانوا في طريقهم إلى مكة المكرمة ضلّوا طريقهم فاستشهدوا فيها عدا واحداً منهم تمكن من الوصول إلى بعيّا. وقد صحب هذا الباكستاني القافلة ثم عاد مع بكماستر إلى الشارقة. وتمكن هذا الأخير من أن يجد له عملاً في دبي، إلا أن الرجل سرعان ما عاد يحاول من جديد أن يبلغ مكة المكرمة فترك عمله وتوجه إلى الحجاز (خطاب بكماستر رقم ١١٣٦/١٤/٥٢/ بتاريخ ١٨/٥/١٩٥٢م).

إلى بينونة مرة أخرى

وصلت البعثة إلى بئر العقيلة Al Aquaila التي هي مثل مرخية، إحدى مراكز المناصير الرئيسة في بينونة، ووجدت عند البئر تسعة عشر بيتاً من بيوت البومنذر وفدوا إليها من محاضر حويطين

الوهيدة والثروانية وصريط وشاه والعد، كما وجدت هناك أيضاً ثلاثة من بيوت البورحمة وفدت من عرادة، وبيتين من البوشعر جاءا من حويطين. وقضت البعثة يوماً عند هذه البئر ثم قفلت عائدة في اليوم السابع عشر من إبريل إلى خريج ثمارا التي أملوا أن يجدوا فيها المؤن والسيارات التي بعثوا في طلبها من أبو ظبي، ولكنها لم تصل، فاضطر زايد إلى أن يرسل الشيخ مبارك وعلي البستاني في اليوم العشرين إلى الشيخ شخبوط لحثّه على السرعة، وعادا في اليوم الثاني والعشرين بسيارتين إضافيتين، ما مكن البعثة من أن تغادر إلى بدع ابن سويد حيث معسكر سعيد بن سويد كبير البورحمة الموالي للسعوديين. كانت قد أحاطت بمعسكر زايد في هذا الوقت مجموعة من خيام عوائل البدو، منهم ستة من البومنذر من الهيلة Haiyla وداهن Dahin، وثلاثة من البورحمة من جرمدا، وثلاثة من المزاريع كانوا قد تبعوا الركب من مرخية. وفي اليوم الحادي والعشرين ركب بكماستر السيارة مع مجموعة من الرجال إلى الرويس على الساحل، وقابلوا في طريقهم عدداً من البدو من ليوا كانوا فرادى يرعون إبلهم على مسافة عشرة أميال من بئر الرجيب Raquib، أحدهم من البورحمة من طرق (الطرج) Taraq وآخر من ملقطة، وأحد البوشعر من كيّة Kaya. وحين عادت هذه المجموعة إلى المعسكر صادفت في طريقها أربعة من البورحمة من كيّة أيضاً.

قابلت البعثة وهي في طريقها إلى مضارب سعيد بن سويد مجموعة من العوامر وفدت من الكدن جنوب البطين، كانوا على وشك أن يشدوا رحالهم إلى منطقة الختم التي قالوا: إن بها عدداً كبيراً من جماعاتهم. وفي مساء الثالث والعشرين من إبريل وصلت البعثة إلى بدع ابن سويد، وتحرك بكماستر مع محمد بن خادم وآخرين لزيارة بئر أم الأشطان، بينما كان زايد مجتمعاً مع سعيد بن سويد. وفي بئر أم الأشطان وجدت المجموعة ثلاثة عشر بيتاً للمناصير وبيتين للمناهيل من الذين ترجع أصولهم إلى حضرموت، ولكنهم دخلوا في البومنذر حتى ذابوا فيهم، وقد حدث ذلك منذ حوالى ثلاثين سنة. وقد بذل المناهيل ولاءهم لقران بن مانع. أما بدع بن سويد فقد ضمّت عدداً من بيوت المناصير: سبعة منها للبومنذر، وستة للبورحمة، واثنان للبوشعر، إضافة إلى أربعة بيوت للعوامر، كان أهلها وفدوا إلى المنطقة قبل وقت وجيز ليمضوا بعض الوقت هناك قبل أن يتحركوا شرقاً، وبيتان للرواشد الذين كانوا بدورهم في طريقهم شرقاً ويزمعون أن يرافقوا العوامر إلى حيث يجتمعون بأهلهم في الختم. وكان من المعروف تماماً علاقات الصداقة الوطيدة التي تربط بين الرواشد وبيوت العوامر التي توالي البوفلاح. وفي الاجتماعات التالية التي جرت مع سعيد بن سويد الذي كان يعاني الشلل ولا يستطيع الوقوف إلا مرتكزاً على عكازين، وصديقه صالح بن غرير رئيس المطاوعة Matawa من البومنذر، تطابقت آراء الشيخين على أن لا خلاف يذكر بينهم وبين حكام البوفلاح، ولكن مصالحهما قد ارتبطت بالسعوديين وهما يخشيان من قوتهم ويهابانها. ويعود السبب

الحقيقي الذي أسرّ به ابن سويد لبكماستر في عدم بذل الولاء للبوفلاح إلى عدم رضاهم عن الشيخ شخبوط الذي كانوا يرونه غير متعاطف معهم وغير متفهّم. وكان للرجلين – كما يفيد بكماستر – تقدير عالٍ للشيخ زايد، وأشار سعيد إلى أن زايد لو كان حاكماً في أبو ظبي بدلاً من شخبوط لكان ولاء مجموعته للبوفلاح صادقاً. وأضاف: إنه تبع السعوديين منذ حوالى ثلاثين عاماً، وأنهم يدفعون له ١٢٠٠ ريال سنوياً، كما أنهم يمدّونه بكميات وافرة من الطعام والملابس والكسوات، ويدفعون لرجاله الذين يؤدون لهم الزكاة مبالغ لا يقل نصيب الفرد فيها عن مئة ريال في السنة، وأفاد ابن سويد بأنه لا يفكر في الانتقال إلى داخل الأراضي السعودية. وقد بذل زايد جهداً كبيراً مع الرجل ليحوّل ولاءه مرة أخرى إلى البوفلاح، فأصرّ على ألا يفعل إلا أن يعطى مبلغاً معيناً بانتظام من عائدات نفط أبو ظبي. ونتج من ذلك في وقت متأخر من ليلة الخامس والعشرين أن تم اتفاق بينه وبين زايد قضى بأنه إذا حدث أن اكتشف النفط في إمارة أبو ظبي، فإنه سيسعى لدى شخبوط لكي يدفع له ثلث مبلغ عوائد الامتياز. وذلك حتى يحوّل سعيد ولاءه للبوفلاح.

عادت البعثة في اليوم التالي إلى خريج ثمارا حيث التقوا مبارك والبستاني اللذين استطاعا أن يحصلا من الشيخ شخبوط على سيارة أخرى، واستقر الرأي على القيام برحلة إلى جزيرة دلما، ولكن لمّا كان القارب البخاري لم يصل إلى الرويس في صباح اليوم التالي فقد تقررت زيارة أمدياسس على بعد ستة وأربعين ميلاً إلى الشرق من خليج ثمارا حيث توجد إحدى المجموعات المهمة من المزاريع كانت تنتظر وصول زايد. وقد كانت الرمال غزيرة وعرة، وغرزت السيارات فيها فاستغرقت الرحلة خمس ساعات وأربعين دقيقة، هذا مع عدم احتساب ليلة كاملة قضوها في الطريق. وفي أمدياسس التقوا ثلاثة بيوت من المزاريع وهم من أسرة محمد بن صياح أحد كبار القبيلة الرئيسين، وكان الرجل قد رافق البعثة من مرخية. وعرفت البعثة أن هناك عدداً أكبر من المزاريع ينتظر في آبار بدع خلفان ووجه الحمرة على بعد حوالى ١٣–١٥ ميلاً في اتجاه الشمال، شمالي غربي أمدياسس. وقد زار بكماستر في رفقة مجموعة من البعثة تلك الآبار، وصادف هناك في عصر يوم الثامن والعشرين من إبريل خيمتين، كما صادف ثماني خيام في وجه الحمرة، وفدت أسرها على نحو أساسي من لطير وموجب Mauqab وختّور.

عادت البعثة في اليوم التالي إلى خريج ثمارا، منهم من عاد بالطريق الذي سلكه سابقاً، ومنهم من اختار طريقاً أقل وعورة ولكنه أطول من سابقه يمر بطوي ودعفس، وهما بئران مشهورتان في المنطقة إلا أنهما كانتا "ميتتين"، وتمكنت المجموعة كلها من زيارة معظم آبار بينونة التي تجمّع عندها البدو.

جزيرتا دلما ومروح

وصلت البعثة إلى جزيرة دلما مساء الثلاثين من إبريل بعد أن استقلّت من الرويس قارباً بخارياً أرسله لهم الشيخ شخبوط من أبو ظبي، وقد قطع هذا القارب المسافة من الرويس إلى دلما في خمس ساعات كاملة. وقضى زايد ومجموعته الليل على ظهر القارب، بينما نزل بكماستر ضيفاً في الجزيرة على فهد بن راشد، وهو أحد التجار البارزين هناك، ويُعدّ الأبرز في جزيرة دلما في غياب الوالي الذي يعيّنه عليها شيخ أبو ظبي. وقد أقرّ زايد فهد على مكانته في الجزيرة، وأناط به حقّ تسوية أيّ نزاعات قد تنشأ في غياب الوالي وخوّله حق الفصل فيها.

تعدّ دلما المركز الرئيس لصيد اللؤلؤ في أبو ظبي. وقد وجدت البعثة هناك مجموعة من القبيسات من مزيرعة وقطوف والمارية والييف، وعدداً من المزاريع من طرج ومارية الغربية. وعادت البعثة من دلما إلى الرويس صباح الثاني من مايو، ومن هناك غادرت إلى جزيرة مروح وقضت عصر ذلك اليوم وشطراً من الليل في مواجهة مشكلات في الإبحار، ما اضطرها إلى قضاء الليل في جزيرة الحمر Hamer غير المأهولة، ووفد إليهم أحد الرميثات من دقالة Daqualla، وهي جزيرة صغيرة مأهولة تقع بين الحمر وثميرية. وقد حصلوا منه على بعض المعلومات المفيدة.

في ساعة باكرة من صباح ٩ شعبان/الثالث من مايو وصلت البعثة إلى قبة على منتصف ساحل مروح الجنوبي، حيث وجدوا اثني عشر كوخاً للرميثات والبوفلاسة والمزاريع الذين وفدوا من حمرور وطرج. واتخذت البعثة بعد ذلك طريقها على القارب البخاري إلى مرفأ التي تبعد حوالى خمسين ميلاً إلى الشرق من الرويس التي غادروا منها بعد أن طلبوا إلى السيارات انتظارهم في مرفأ. وواجهت البعثة مشكلات في الإبحار، إذ نضب زيت ماكينة القارب البخاري الذي يستقلونه، فاضطروا أخيراً إلى تغذيته بالزيت النباتي، "وقد استجابت الماكينة لهذه الوجبة الغريبة واقتنعت بها". واضطرت البعثة بعدئذ إلى أن تقضي الليل في جزيرة رملية غير مأهولة هي جنانه التي غادروها صباح اليوم التالي ليصلوا إلى مرفأ قبل عصر الرابع من مايو. وقد اجتهدت البعثة في التحرّي عن الجزر المأهولة في المنطقة الواقعة إلى الغرب من مجيشط Maquaishat والتي كانت مأهولة كلها برميثات بني ياس وعدد من بطون المزاريع وكذلك البوفلاسة والرواشد، فاتضح أنها جزر صلاحة Salaha ومروح والفييّ وثميرية ودقلة وياس ودلما وغاغا، وهي جزر لم يسبق لأي من الجباة السعوديين زيارتها، كما لم يزر أي منهم أيّ جزيرة من الجزر الأخرى المواجهة لساحل الطف، فكل رسوم الغوص وكل جباية في هذه المنطقة يجمعها البوفلاح.

الختم–البريمي

استقلّت البعثة السيارات من مرفأ مساء الرابع من مايو ووصلت في منتصف الليل إلى بئر أم قطارة Qatara في الختم على بعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من أبو ظبي. وفي الأيام الثلاثة التالية زارت البعثة آبار خريمة ومقيل سالم ولهاما وأم بنادق، ووجدت في تلك الآبار جماعات من البوخيل والهوامل والبورحمة والبوشعر، وكانوا كلهم قد وفدوا من المستوطنات الواقعة إلى الشرق من الثروانية. وكانت أكبر هذه المجموعات تنزل في أم البنادق. وقد أملت البعثة أن تلتقي المجموعة الكبرى من جماعة سعيد بن مبارك الذي قيل إنهم ينزلون على بعد ٥٠–٦٠ ميلاً في المنطقة الواقعة غرب الجنوب الغربي من جبل حفيت. فاتخذت طريقها في ذلك الاتجاه في الثامن من مايو، وسارت حوالى ثلاثين ميلاً، وقابلت في طريقها مجموعات كبيرة من البوشامس الذين كانوا غالبية السكان في تلك المناطق، وكذلك العوامر. و لم تتمكن البعثة من أن تواصل طريقها إلى مقصدها لنقص الوقود وللأعطاب التي حلّت بالسيارات. فاضطرت إلى أن تتوجه إلى البريمي التي وصلتها في التاسع من مايو. وظل بكماستر يتمتع بضيافة زايد حتى مساء الحادي عشر من مايو، ثم استقلّ السيارة في طريقه إلى مقرّ عمله في الشارقة التي انتهى إليها صباح الثاني عشر من مايو.

نتائج الرحلة

أسفرت الرحلة عن مجموعة نتائج مهمة جداً في مسار تاريخ أبو ظبي. فقد حملت علم المشيخة إلى هذه المناطق التي تعدّ تاريخياً مَهْد حكامها من البوفلاح، والتي شهدت بدايات تأليف الحلف الياسي. وقد تناصر هذا الحلف القبلي الياسي مع مجموعات قبائلية وعشائرية أخرى من مناصير وعوامر وظواهر وغيرهم، ما أدى إلى تكوين الإمارة. والتقى زايد – المسؤول نيابة عن أخيه شخبوط منذ عام ١٩٤٦م عن إدارة هذه المناطق الداخلية – كبار رجال القبائل والمقدمين فيها، وجدّد الكثيرون منهم الولاء لآل نهيان. كذلك عمل زايد على إقناع المعترضين على سياسات الشيخ شخبوط، التي كانوا يرون أنها غير نشيطة في المنطقة ويرون في ما يدّعونه من تقتير على الحلفاء سبباً كافياً للخروج عليه. هذا على الرغم من أن قيام هذه الرحلة يكذّب عدم نشاط سياسة شخبوط، فقد كانت الرحلة باقتراح من شخبوط الحريص تماماً على امتداد أرض المشيخة وولاء قبائلها للبوفلاح، وبدعمه وتأييده، وهذا ما يكذّب هذا الادّعاء الذي يتحمّل – مع هذا – قدراً من الصدق. فالبادية تتبع شيوخها بنظام الحكم الأبوي الذي يمثّل العطاء المادي والكرم المتواتر أبرز ركائزه، و لم تكن خزينة شخبوط الفارغة تستطيع تلبية حاجة

البادية المادية، كما لم يكن شخبوط بطبعه من الذين يستحبون أن يقاسموا القبائل الكفاف كما كان يفعل زايد، وكان ذلك من العوامل التي أكسبت الأخير احترام أهل البادية وتقديرهم.

أحصت هذه البعثة المضارب والمحاضر والآبار في ليوا وما جاورها، ما سنثبته في نهاية البحث، كما تناولت مذكرة بكماستر - التي أثبتت يوميات هذه الرحلة - كثيراً من المعلومات عن القبائل وأصولها وعلاقات بعضها ببعض، والتي نراها مفيدة إلى حدّ بعيد في توضيح رأي الشيخ زايد في الحدود الفاصلة بين إمارة أبو ظبي من جهة والسعودية وقطر من جهة أخرى. فقد أدلى زايد بنفسه بالكثير ممّا ورد فيها، كما وافق أيضاً على المعلومات الأخرى التي قدّمها أعيان القبائل، سواء الذين كانوا يرافقونه أو الذين التقوهم في البادية والجزر، كما قدّمت هذه الورقة دراسة مستفيضة عن إدارة البوفلاح في المنطقة، والنشاط الاقتصادي لسكان الإمارة، ونظم الجباية، وقدّمت تفسيرات منطقية لبعض الظواهر الاجتماعية.

بنو ياس

استقى بكماستر معلوماته عن قبائل أبو ظبي من الشيخ زايد ومرافقيه من كبار رجال القبائل، ومن استفساراته من بعض البدو الذين التقاهم في رحلته في البادية، وأضاف إلى ذلك كله ما كتبه لوريمر وغيره من الرجال الذين خدموا في مستعمرة الهند البريطانية، وراجع ذلك كله على ضوء ما أدلى به عدد من الرجال "المحليين" الذين خدموا الهيمنة البريطانية في الساحل المهادن للمقيم البريطاني وغيره في الخليج، فجاءت معلوماته وافيه إلى حدّ بعيد.

يؤيّد بكماستر في بداية مذكرته ما ورد في افتتاحية الموضوع الذي كتبه لوريمر عن بني ياس، ويشير إلى أن ما أثبته لا يزال يمثل الواقع في هذه الفترة من بداية النصف الثاني من القرن العشرين. فبنو ياس - كما ذكر لوريمر - هم إحدى أقوى القبائل وحدة وتماسكاً في عمان المتصالحة، وأفقها يمتد عملياً ليغطي كافة الأراضي التي يحكمها شيخ أبو ظبي الذي تمثّل هذه القوّة القبلية أساس قوته وعمادها. ويستطرد فيقول: إن بني ياس هناوية الانتماء، مالكية المذهب، وإنهم في هذا غير المناصير الذين هم حنابلة المذهب مثل العديد من القبائل المجاورة لهم. وفي الحقيقة لا نعرف من جانبنا أن في فروق المذاهب السنيّة حنبلية كانت أو مالكية شيئاً يستدعي الإثبات حين ندرس الاختلافات بين القبائل، ولكننا لا نلوم الرجل هنا، لأنه قصد أن يتحرّى عن العلاقات السياسية بين قبائل المنطقة وبين السعوديين الذين يمثّل المذهب الحنبلي أساساً قوياً في دعوتهم الوهابية.

أورد بكماستر عشائر بني ياس على النحو الآتي:

البوفلاح - الهوامل - المزاريع - الرميثات - المرر - البوفلاسة - المحاربة - القبيسات - البوخيل - الرواشد. وأضاف بكماستر أن الشيخ زايد وكذلك الشيخ هزاع، وقد استقى منهما - كما يقول - أكثر المعلومات الواردة هنا، يعتمدان العشائر الآتية في بني ياس:

البوحمير - القمزان - الظواهر - المشاغين - الأحبابي - البومهير - السودان، ويستطرد فيقول إن لوريمر ذكر الطائفة الأولى وإن لم يذكر البوخيل الذين كانوا في ذلك الوقت قسماً من المناصير. أما الرواشد والأحبابي والمرر والظواهر والبومهير والسودان، فقد كانوا عنده في عداد القبائل المستقلة. كذلك أورد لوريمر أربع عشائر أخرى في عداد بني ياس لم يذكرها زايد وهي: القنيصات، البوشكر، والقاصال Qasal؟ وآل سلطان. ويعود السبب في ذلك إلى أن القاصال فرع من البوحمير، أما السلطان فهم فرع من البوفلاح.

المزاريع

مفردها المزروعي، هي أكبر فروع البني ياس وفي أغلبها من البدو، وهي قبيلة متشعّبة. وقد استمد بكماستر معلوماته عن بيوت هذه القبيلة الرئيسة من مصادر يصفها بأنها لا يرقى إليها الشك. فهي من الشيخ زايد، وكذلك من محمد بن صياح وخميس بن علي، وكلاهما من كبار فرع البورواشد، وهما شيخا خنّور ومارية الغربية على التوالي.

ينقسم المزاريع إلى:

- البوشكر: وهم الذين أوردهم لوريمر تحت اسم بني شكر.
- البورواشد.
- الغنام.
- الحميلات.
- الحييات.
- القنيصات.

يُعد البوشكر والبورواشد - وهم من الذين يسكنون ليوا عموماً - أكبر بيوت المزاريع، وكذلك البوغنام الذين يسكنون البريمي ودبي، أما البيوت الثلاثة الأخيرة فهي صغيرة، وتعد أقل أهمية من الأوائل، وتسكن منطقة البريمي عموماً، ونجد منهم عدداً قليلاً في ليوا.

وضع لوريمر تقديراً لعدد بيوت المزاريع في ليوا، وقال إنه يصل إلى ثلاثمئة واثني عشر بيتاً، بينما يرى بكماستر أن عدد بيوتهم في هذا الوقت من عام ١٩٥٢م لا يرقى إلى هذا التقدير، إذ لا يتجاوز مئة واثنين وأربعين بيتاً، منهم مئة واثنا عشر بيتاً من البدو من أهل الإبل الذين يتبعون

دورة الرحلة ذاتها التي يسير عليها المناصير، أما الثلاثون أسرة الباقية فهي أسر مستقرة رغم أنها تقضي فترة طويلة من عامها في الغوص، وتعمل فئة قليلة منها في صيد الأسماك. ويملك بدو هذه القبيلة مجموعة من المحاضر في ليوا الغربية: موقب، والهيلة Haiyla وحمرور وطرق وخنّور والمارية الغربية حيث توجد الأغلبية من المزاريع، كما نجد أقلية منهم في مستوطنتين في قلب ليوا: هفيف (أحدَ عشرَ بيتاً) ولطير (سبعة منازل). أما المستوطنة الوحيدة التي تتكوّن تماماً من المزاريع في ليوا فهي شدق الكلب (عشرون بيتاً). أما المزاريع المستقرون فيمكن أن تجدهم في مجموعات من منزل أو اثنين أو ربما خمسة على أكثر تقدير، وذلك في جرمدا ومزيرعة والظفير وكيّة. ويملك بدو المزاريع - طبقاً لما أوردت بعض المصادر - مزارع نخيل في ليوا، وعلى ذلك يقدّر بكماستر عدد نفوس مزاريع ليوا في ذلك الوقت بنحو تسعمئة وأربعة وتسعين شخصاً على الأكثر، ولكنها قد لا تتجاوز في حقيقة الأمر أكثر من ثمانمئة شخص.

يعود بكماستر ليقول: إن عدد المزاريع الذين يسكنون خارج ليوا ليس كبيراً، منهم ٤٠-٥٠ رجلاً مع الشيخ راشد في دبي، و٥٠ شخصاً أو نحو ذلك مع الشيخ زايد في البريمي، كذلك توجد مجموعات صغيرة منهم في دبي أيضاً. وقد قدّرهم لوريمر بستين بيتاً، ولكن بكماستر يقول إنّه لم يتمكن من التحقق من ذلك.

يقضي معظم بدو المزاريع الشتاء في موقع من هذه المواقع الثلاثة، وهي: بينونة الغربية التي يمكن القول إنها تضم المنطقة الواقعة بين مرخية وعقيلة، أو في بينونة الوسطى والشرقية في المنطقة الممتدة من دعفس إلى أمديسيس، أو - وهذه هي المنطقة الثالثة - في ذلك الجزء من الطف والختم إلى الجنوب من أبو ظبي، والذي يشمل منطقة عرقان البدواع Arqan-Bidua شويبار. كذلك تزور بعض بيوت بدو المزاريع البطين أحياناً، وقد تصل حتى قطر، بينما يعمل عدد منهم في الغوص، في دلما بنحو رئيس، مدة قد تطول أو تقصر في موسم الصيد، إذ تملك العديد من محاضرهم الغربية تقريباً عدداً من القوارب يتراوح بين اثنين وستة. وكما هو الشأن لدى المناصير، فإن أهل كل مستوطنة لا يسيرون في ترحالهم في مجموعة مجتمعة واحدة، بل ينقسمون إلى جماعات عدّة تضم كل مجموعة منها بيتاً واحداً إلى ثلاثة، تسير في اتجاهها الذي اختارته. فعلى سبيل المثال، كان هناك اثنان وعشرون بيتاً في المارية الغربية، في الوقت الذي جرت فيه هذه الزيارة، ذهب ثمانية منها إلى الرعي في منطقة مرخية - عقيلة، بينما ذهب اثنان منها للعمل مع أرامكو في الظهران، ورعت أربعة منها في قطر، وذهب ثلاثة منها للعمل في الغوص في دلما، ودخل بيت منها إلى البطين في مجاورة حَمار، وظلت أربعة بيوت في المارية لم تفارقها، إلا أنها كانت تضم عامة نساءً وأطفالاً، أما الرجال فقد ذهبوا للغوص في الجزر. وهناك مثال آخر أثبته بكماستر على لسان محمد بن صياح يخص خنّور التي ذهب خمسة بيوت من مزاريعها إلى الرعي في بدع ابن عوشان إلى الجنوب من أمديسيس، وذهب خمسة آخرون إلى

قرب بدواع – شويبار، بينما توجه بيت منها إلى مرخية، وبيتان إلى الختم إلى الشمال الغربي من الموقي Muwaiqi. وذكر هذا المصدر أيضاً ستة بيوت في دلما للمزاريع تمارس الغوص، وبيتاً في قبة في مروحِ يعمل في صيد السمك، وذلك على الرغم من أن البعثة لم تصادف أحداً من المذكورين أخيراً في طوافها البحري. أما بيوت المزاريع السبعة في لطير فقد كان اثنان منها في منطقة بدواع شويبار ومثلهما في بدع خلفان ووجه الحمرة بالقرب من أمديسيس، وأسرة في أمديسيس ذاتها.

يسعى المزاريع، شأنهم في ذلك شأن المناصير، إلى تجميع إبلهم في فترة جني التمر عند آبار بعينها يقصدونها كل سنة. فالمزاريع من المارية الغربية يتركون إبلهم في مرخية والعقيلة عموماً، وكذلك عند بئر جاربوت Jarbut في الساروق Saruq، أما مزاريع ختّور فيتركون إبلهم عند آبار دعفس، ويترك مزاريع لطير إبلهم عند آبار وجه الحمرة والإبزيمي libzimi ومتيلان Mitailan. وهذه مجرد أمثلة. ويقول الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان إن الآبار التي تختارها القبائل في المنطقة عموماً لإبلها هي ذات الآبار التي ولدت عندها هذه الإبل ونشأت في مرابعها، ولذلك يمكن أن تترك لترعى تلك المرابض من دون أن تتطلب من أصحابها إلا القليل من الرعاية.

يمتاز أكثر المزاريع بولائهم الصادق للبوفلاح – كما تقول هذه المذكرة – وقال بكماستر إن كل الأشخاص الذين استجوبهم من المزاريع لم يقولوا بغير ذلك، رغم أن بعضهم ردّد – من وراء ظهر زايد – الشكوى المعتادة من الشيخ شخبوط. وعلى الرغم من ذلك، كان العديد من كبار المزاريع – كما تقول هذه المذكرة – بمن فيهم محمد بن صياح وخميس بن علي وسهيل بن خميس شيخ البوشكر، يتلقّون سنوياً مبالغ معتبرة من السعوديين. ويدّعي هؤلاء الرجال الثلاثة أنهم – بحكم مواقعهم في جماعاتهم – غير مطالبين بأداء الزكاة. وقد أفاد محمد بن صياح من دون أدنى مواربة بأنه ظلّ يتلقى في فترة هذه السنوات العشر الأخيرة ثلاثمئة ريال سنوياً من ابن سعود شخصياً، وأنه يتردد عليه دائماً، ويرسل إليه الخطابات يسأله فيها العون. وعموماً، على مدى السنتين الأخيرتين، لم يعد توزيع الأعطيات السعودية في بينونة مرتبطاً بزيارة ابن سعود. وكان محمد صياح يتحدث بإعجاب عن الكرم السعودي، ويرى أن السعوديين أقدر كثيراً من البوفلاح على حفظ الأمن، أما علي بن مسلم – وهو كبير مستوطنة موجب وقد رافق ركب زايد من تلك المنطقة إلى الرويس – فيعبّر عن رأي آخر. فهو من الذين يقبضون "الإكراميات" بانتظام، ولكنه يقول إنّه يفضّل أن يكون ولاؤه للبوفلاح، لأن السعوديين قساة غلاظ. ويضيف أنه إذا سئل لمن يبذل الولاء؟ فإنه سيشير إلى شجرات نخيله فهي وحدها الجديرة بالولاء لأنها تعينه على الحياة ولا يعنيه من أمر السعوديين أو البوفلاح شيئاً قليلاً ولا كثيراً. وهناك رأي آخر عبّر عنه دوهان بن زيد من ختّور الذي اعترف بأنه تلقّى ثلاثمئة ريال من السعوديين في هذا العام، فما ضرّ أن يأخذ المرء المال الذي يُعرض عليه؟ وأقسم الرجل في الوقت ذاته أنه لن يساند

السعوديين بأي شكل من الأشكال، ولن يكون في هذا الصدد كالمناصير الذين يرون أنفسهم رعايا سعوديين. وقد اعترف هذا الرجل صراحة بأن السعوديين لم ينجحوا أبداً في محاولاتهم لكسب ولاء المزاريع، لأن المزاريع في أغلبهم - كما يقول - موالون لزايد بن سلطان آل نهيان الذي ذاعت شهرته في أوساطهم، "بل إنهم موالون لشخبوط أيضاً، ولكن - كما قال - إذا لم تعمد أبو ظبي إلى مدّهم بالمال فإن المجاعة ستجبرهم على التطلع إلى السعوديين". ويضيف الرجل أنه لو لم تحصل زيارة زايد في هذه الفترة إلى هذه المنطقة، لكان الكثيرون قد انقلبوا إلى الاتجاه الآخر.

تشير المذكرة إلى أسماء ستة وثلاثين مزروعياً تلقّوا أموالاً من السعوديين، وكان هؤلاء يقيمون في مناطق موجب وخنّور وحمرور وطرق والمارية الغربية، وتضيف: إن هذا الرقم لا يعبّر تماماً عن حقيقة الأمر، فلربما بلغ عددهم خمسين أو زاد على ذلك، وهم من الذين يدفعون الزكاة للسعوديين. فكل مزروعي يدفع الزكاة للسعوديين - شأنه شأن المناصير - يتلقّى هدايا مالية "تلطّف من مرارة طعم أداء الزكاة". وكانت المبالغ المدفوعة في عام ١٩٥٢م للشخص الواحد من هؤلاء تتراوح بين خمسين ريالاً إلى أربعمئة، وتعدّ هذه المبالغ ضعف ما جرى دفعه العام السابق. وقال بعض المزاريع الذين يدفعون الزكاة: إنهم يؤدّونها من دون إرغام، بينما أفاد علي بن خميس بأن السعوديين اتخذوا خطّاً ليناً في السنة الماضية تجاه من لا يريدون أداء الزكاة، و لم يعمدوا إلى إرغام أي شخص على أدائها.

هنالك مؤشر آخر لسلوك المزاريع تجاه السعوديين، وهو أن عدداً ليس بالقليل من أفراد هذه القبيلة يعملون في أرامكو، ثلاثون منهم من خنّور ومضارب البدو المجاورة لها، ويلاحظ مع ذلك عدم وجود أي مزروعي من شدق الكلب يعمل في هذا النشاط، ولذلك فإن بعض نزاعات هؤلاء القوم - وهي غير كثيرة - تحال على الأحساء للحكم فيها.

الخلاصة أن أكثر من عشرين بيتاً من المزاريع يتلقّون من السعوديين الهدايا، وتدفع لهم الزكاة، ويعتبر هؤلاء أنفسهم حالياً (١٩٥٢م) أقرب إلى الأحساء منهم إلى أبو ظبي، ولكنّ ولاءهم لا تحكمه الاعتبارات التاريخية أو السياسية الأصلية، بل هو مقيّد بالمادة. ويتحدث عن زيارة زايد، فيرى أن الشيخ ببذله للهدايا "كان يأمل استعادة ولاء المناصير أكثر من محاولته تأكيد ولاء المزاريع الذي لا يزال متأرجحاً".

المحاربة

المحاربة مفردها محيربي، يتألّفون من قسمين، كما يقول الشيخ زايد، هما الفراج Al Faraj وتنطق الفراي Al Farai والهويدات Al Hawaidat. ويقول بكماستر إن للمحاربة في ليوا أربعة وأربعين بيتاً، رغم أن لوريمر كان قد قال إن لهم فيها مئة وخمسين، كما أن لهم ستين منزلاً في

أبو ظبي، ولكن عدد بيوتهم في هذه المدينة كما يقول بكماستر يبدو في عام ١٩٥٢م أقل بكثير مما كان قد قدّره لوريمر، وكان من الصعب على بكماستر تقديره تقديراً صحيحاً.

أما في ليوا، فإن للمحاربة فيها ثلاثة وعشرين بيتاً، أي أكثر من نصف العدد الكلي لبيوتهم، وهي موجودة في مزيرعة. أما ما بقي من بيوتهم فيتوزّع في أربع مجموعات تقيم في نوفير والييف وشدق الكلب وجرمدا والهيلة ولطير. ويمكن القول إن أربعة عشر بيتاً من هذه البيوت هي للبدو من المحاربة: أربعة منهم في مزيرعة، وواحد في شدق الكلب، وواحد في الييف، وثمانية ترجع إلى نوفير. وهم يقضون الشتاء في الختم، أو في الطف بالقرب من أبو ظبي، أو في البطين، أو بينونة. أما المحاربة من غير البدو، فكلهم – ما عدا تسعة بيوت منهم (ثمانية من نوفير وواحد من لطير) – كانوا يعملون في صيد الأسماك أو في الغوص في فترة جولة زايد تلك: خمسة منها من دلما، وثمانية من أبو ظبي، وثمانية من بعيّا في المجن، ويبدو أن ذلك كان يمثل نمط حياتهم المتّبع دائماً.

المحاربة كلهم موالون للبوفلاح عامة، رغم أن خمسة بيوت من بدوهم أو ربما أكثر من هذا العدد (ثلاثة من مزيرعة وواحد من نوفير وواحد من شدق الكلب) يدفعون الزكاة للسعوديين ويتلقّون منهم العطاء، كذلك عمل عدد قليل من أفرادهم من مزيرعة – أو قد لا يزال في عام ١٩٥٢ – في أرامكو، أما أعيان المحاربة – كما جاء في المذكرة – فهما اثنان: سويدان بن خليفة الذي يقضي وقته بين دلما وأبو ظبي وليوا، وفاضل بن حرب الذي يسكن في بعيّا.

الهوامل

مفردها هاملي، هم أربعة أقسام: بن حصن (Hsun)، وبن رمضان، وآل موسى، وآل غانم، وقد وصل عدد بيوتهم في ليوا هذه الفترة إلى اثنين وثمانين بيتاً، (بينما كان لوريمر قد قدّرهم سابقاً بحوالى مئة وخمسين بيتاً)، ولهم كذلك حوالى عشرين بيتاً في أبو ظبي والبريمي (بينما كان لوريمر يقدّر عدد بيوتهم في أبو ظبي بحوالى مئة، وفي جوارها بحوالى مئة وخمسين). ويمثّل الهوامل الأغلبية في سبخة وشاه وعتاب Attab والظفير، كما توجد مجموعات منهم من ثلاثة إلى أربعة بيوت في الثروانية ومشاجر وجرمدا. وتعدّ كل بيوت الهوامل – ما عدا حوالى عشرة منها – مستقرة. وكثير من محاضرهم يعمل في تربية الخراف والأغنام التي يرعونها في فصل الشتاء في مسافات لا تبعد عن محاضرهم إلا بمقدار ٦–١٠ أميال. ولا يذهب إلى الغوص من الهوامل إلا عدد قليل مقارنة بالمحاربة أو القبيسات، هذا على الرغم من أن كثيراً من المحاضر الكبيرة – ما عدا شاه – تملك عدداً من القوارب يتراوح بين ثلاثة وعشرة. ويبدو أن مركز الغوص الذي يقصدونه هو أبو ظبي لا دلما، ويبدو كذلك أن عدداً كبيراً من الهوامل يذهب إلى أبو ظبي للعمل في صيد الأسماك، أما البدو منهم فهم من الثروانية، وربما كان قسم منهم أيضاً

من مشاجر وعتاب، رغم عدم وجود شواهد في فترة هذه الرحلة تثبت ذلك. وقد صادفت هذه البعثة واحداً من بيوت بدوهم من منطقة الثروانية عند بئر الخريمة في الختم، وقد أفاد الرجل الذي سألوه بأنه اعتاد أن يقضي الشتاء هنا على نحو دائم، وأضاف: إن هناك بيتاً لأسرة هاملية واحدة أخرى فقط تقضي الشتاء في الختم أيضاً. أما من حيث الولاء، فلا مندوحة من القول: إن المحاضر المستقرة تدفع الزكاة على نخيلها بالطريقة التقليدية المعتادة لمندوب حاكم أبو ظبي. ولم يعرف أن أياً من الهوامل قد دفع الزكاة للسعوديين أو تلقّى منهم هدايا أو هبات، ولم يعرف أيضاً أن أحداً منهم عمل في المنطقة السعودية. أما كبير الهوامل فهو راشد بن جابر الذي يعيش دائماً في أبو ظبي، وهو يتمتّع باحترام واسع، وقد عيّنه الشيخ شخبوط في شوال ١٣٧١/يوليو ١٩٥٢ والياً على ليوا خلفاً للشيخ أحمد بن فاضل.

القبيسات

للقبيسات الذين هم حضر كلهم، عدّة أقسام هي:

بنو صقر (Sukr)، الهالايل، آل سيف، آل حييا، آل عمارنة، إكتلات Iktailat، آل العليم، ثعابلة، آل موي، آل نهيمان.

ويبدو أنه كان للقبيسات في هذه الفترة ثلاثة وأربعين منزلاً في ليوا (وكان لوريمر قد قدّر عدد بيوتهم هناك بحوالى مئة وخمسة وثمانين) ولهم حوالى عشرين أو خمسة وعشرين منزلاً في أبو ظبي (وكان لوريمر قد قدّر عدد بيوتهم فيها بحوالى خمسة وسبعين)، كما أنهم يملكون أيضاً ثمانية بيوت بُنيت من الحجر في دلما وعدداً قليلاً من البيوت في غاغا، وكان لهم في فترة سابقة مستقر في منطقة خور العديد، وقد هجروها في نهاية القرن التاسع عشر تقريباً. ويُعدّ القبيسات أغلبية في اثنين فقط من محاضر ليوا، وهي: قطوف التي لهم فيها عشرون منزلاً، والييف التي لهم فيها سبعة منازل، كما توجد مجموعات منهم في الهيلة ومزيرعة والمارية.

يعتبر القبيسات نسبياً أكبر قسم من أقسام بني ياس الموجودين في ليوا اشتغالاً بالغوص. ففي الوقت الذي زارت فيه البعثة دلما، وجدت هناك تسعة عشر بيتاً من بيوت القبيسات تعود إلى تلك المحاضر الخمسة المذكورة آنفاً، ما عدا بيتين منها يعودان إلى قطوف، كلها تعمل في الغوص، إضافة إلى ثمانية من البيوت المستقرة في تلك الجزيرة.

القبيسات يختلفون عن المناصير وكذلك عن قبائل بني ياس التي تعمل في الغوص في أنهم يصطحبون عوائلهم معهم عندما يذهبون إلى دلما أو غاغا، حيث يظلون في إقامة دائمة هناك فترة تمتد نصف عام، أما سكان قطوف منهم وهم غير شغوفين بالعمل في البحر، فإنهم يقضون أكثر العام في ليوا، أو قد يرعون سوائمهم في مجاورتهم، لكنهم إذا أصابوا رزقاً وافراً من ثمار نخيلهم فإنهم يقبعون العام طوله في مساكنهم لا يبرحونها أبداً. وإذا حدث أن فكر بعضهم

في الخروج من مضاربهم، فإنهم يذهبون فقط إلى العمل في صيد الأسماك أو الارتزاق من ريع أيّ مهنة أخرى في أبو ظبي فقط. وتستطرد المذكرة لتقول إنه لم يسبق أن عمل أي من أفراد القبيسات في أيّ شركة نفط في السعودية أو أيّ منطقة أخرى.

البوفلاح

البوفلاح هي العشيرة التي أنجبت العائلة الحاكمة في أبو ظبي وأقسامها هي:

آل نهيان: الأسرة الحاكمة

آل سعدون

آل محمد: بدو

آل سلطان: بدو

آل صقر: بدو

آل بن خالد: (في دبي فقط)

للبوفلاح في ليوا تسعة عشر منزلاً أغلبها في الظواهر التي يملكون فيها عشرة بيوت. وهنالك محاضر أخرى فيها للبوفلاح مجموعات تصل إلى ثلاثة بيوت، وهي: جرمدا، والييف، ولطير، وكيّة، أما ما بقي من القبيلة فهو أساساً في أبو ظبي والبريمي (ثلاثون أو أربعون رجلاً وحوالى خمسة عشر منزلاً) ولهم في دبي نحو عشرة رجال. ويعود البوفلاح من أهل ليوا إلى الأفخاذ المتبدّية من القبيلة، وهم يرعون عادة في الختم وفي بينونة الشرقية. وقد صادفت البعثة في تلك المناطق ثلاثة بيوت للبوفلاح من كيّة. ويملك البيت الفلاحي في الييف أراضي في دلما، ويقضي كبيرهم أكثر السنة هناك، أما الذين يقطنون الظواهر فيملكون ثلاثة قوارب للصيد في دلما، ويعمل رجالهم في الغوص خلال الموسم.

المرر

كان لوريمر قد أورد أن المرر قبيلة مستقلة، وأن لها حوالى مئتي منزل في الشارقة، وأربعين في أبو ظبي، وثلاثين في دبي، وأشار إلى أن لهم في ليوا حوالى سبعين أسرة من البدو، ولكن الشيخ زايد يؤكد بشدة أن المرر هم جزء أساسي مكوّن لبني ياس. يوجد المرر حالياً (١٩٥٢م) في دبي بعد أن غادروا أبو ظبي في فترة حكم الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥-١٩٠٩م). وقد كان لهم عام ١٩٥٢م مئة بيت في دبي، ونحو ١٠-١٥ بيتاً في الشارقة، و١٥-٢٠ بيتاً في أبو ظبي والبريمي، كما أن لهم سبعة بيوت في ليوا.

ينقسم المرر إلى:

ثميرات

مساعلة Masaala

مجاعدة

قد يكون للمرر أقسام أخرى. أما بيوت المرر السبعة في ليوا فتعود ستة منها إلى لطير حيث لهم نفوذ هناك والسابع إلى كيّة. وفي لطير تداخل المرر في المزاريع تداخلاً شديداً حتى أصبح - كما يقول البعض - من الصعب تمييز بعضهم عن بعض. ويبدو أن كل بيوت هذه المستوطنة كانت تقضي الشتاء في بذع شويبار في منطقة بدع ابن عوشان. ولا شك في أن ولاءهم هو لأبو ظبي رغم أن العديد من المرر من لطير اضطروا في جمادى الأولى ١٣٧٠/فبراير عام ١٩٥١م إلى أن يدفعوا زكاة إبلهم للسعوديين.

البوخيل

كان البوخيل قسم من أقسام المناصير حتى عهد الشيخ طحنون بن زايد (١٩٠٩-١٩١٢م) قبل أن ينتظموا في بني ياس. وتتمثل بيوتهم في: آل شويهين، آل مسابقة، آل سويلم، آل قطارة، هواوشة، الكلائمة (تنطق شلائما).

لا يوجد للبوخيل في ليوا سوى ثلاثة بيوت مقرّها الثروانية والقطوف. وتقضي كل العشيرة الشتاء والصيف في المنطقة الواقعة بين البريمي وأبو ظبي، أو يمكن القول تحديداً: إنها تقضي عامها عند آبار لهاما وأم بنادق، إذ وجدت بعثة زايد سبعة عشر بيتاً من بيوت هذه العشيرة في تلك الأرجاء. ولا يذهب أيّ من بيوت البوخيل غرباً إلى بدع شويبار التي يعدّونها - كما يقول البعض - منطقة خاصة بالمناصير. وقد أفاد أحد الشهود بأن البوخيل يمثّلون حوالى ستين منزلاً كلها في منطقة الختم والبريمي. ويقول الشيخ زايد: إن عدد بيوتهم يصل إلى مئة وخمسين، بينما كان لوريمر الذي عدّهم من أقسام البورحمة من المناصير يقدّر عدد بيوتهم بحوالى مئتي بيت.

إذا تجاوزنا ما يقومون به من رعي إبلهم، فإن نشاطهم - خاصة في الصيف - يمتد إلى مجال النقل. يقوم البوخيل بنقل العائلات التي تهرب من رطوبة جوّ الساحل إلى الداخل من أبو ظبي ودبي إلى منطقة البريمي، ولن تجد منهم من يعمل في الغوص أو صيد الأسماك. وللبوخيل عدد قليل من مزارع النخيل في عدّة آبار في مناطق الختم ورملة الحمرة (في منطقة آبار الجواني على سبيل المثال) كما أن لخمسة عشر رجلاً منهم سهماً في نخيل الثروانية.

قابل بكماستر اثنين من البوخيل وأنكر هؤلاء أنهم يدفعون الزكاة أو يتلقّون أعطيات أو هبات من السعوديين، ولكنّ الشيخ زايد قال إن بعض البوخيل قد ذهبوا إلى معسكر تركي العطيشان في حماسا. أما كبير البوخيل فهو عامر بن حواس الذي ينزل عادة عند بئر لهاما.

الرميثات

ذكر الشيخ زايد لبكماستر فرعيْن من الرميثات هما: ملاوتا وخراسين.

يسكن الرميثات على نحو أساسي – كما تشير المذكرة – في الجزر الواقعة إلى الشرق من ثميرية، رغم أن البعض يقول: إن هناك حوالى اثني عشر بيتاً يسكنون الساحل بين أبو ظبي ورأس الصدر. وعلى العموم، فإن للرميثات ستين بيتاً على جزر رأس غراب وبيشوم والسعديات والحيل وجزيرة الطويلة وجزيرة بوكشيشة Kashasha وسلاغا Salagha ومروح والفيّة وثميرية ودقالا، كما يوجد منهم ٥٠-٦٠ بيتاً في أبو ظبي، وقد يصل إجمالي ما للرميثات من بيوت إلى حوالى مئة بيت. وكان لوريمر قد قدّرهم بحوالى مئة وخمسين بيتاً، و لم يشر إلى أن أياً منها في الجزر.

يعتمد الرميثات على صيد الأسماك، وهو مصدر رزقهم الرئيس، ولا يذهب إلى الغوص إلا عدد محدود منهم، ولكن- كما تقول بعض المصادر – لكل بيت من بيوتهم حوالى مئة رأس من الغنم وحوالى عشرين رأساً من الإبل يرعونها في الساحل أو على الجزر المأهولة منها أو غير المأهولة. ويذهب أغلب أطفال الرميثات ونسائهم إلى البريمي لقضاء الصيف، بينما يذهب إلى هناك أيضاً أصحاب الوفرة والثراء من الرجال كذلك في هذه الفترة. ويملك بعض هؤلاء نخيلاً في منطقة البريمي، ولكن ليس لأي فرد منهم أملاك في ليوا. وما هو معروف فإن أفراد هذه العشيرة لم يتصلوا بالسعوديين، ولكن في ما يبدو أن عدداً قليلاً منهم يعمل في الدمام كما يعمل عدد قليل آخر في منطقة دخان (قطر). ويُعدّ مطر بن محمد الذي يقيم في أبو ظبي، كبير الرميثات، كبيراً للبوفلاسة والرواشد أيضاً.

البوفلاسة

لهذه العشيرة العديد من ارتباطات الزواج والمصاهرة مع الرميثات والرواشد، وهي علاقات وثيقة جداً، حتى إن من يسأل عن عدد بيوتهم يفاد بعدد بيوت هذه العشائر الثلاث مجتمعة.

أما فروع البوفلاسة فهي: الحميدات، الصبيبات، المجادعة، المجاردة، الحريزات.

ويبدو أن للبوفلاسة في جزر صالحة ومجيشط والبوكشيشة ومروح حوالى ثلاثين منزلاً، ولكنهم يعيشون – في أعمّهم – في أبو ظبي ودبي. وقد قدّر لوريمر أعداد بيوتهم في أبو ظبي بأربعين بيتاً. ويوافق هذا العدد ما قاله الشيخ زايد، كما قدّر لوريمر بيوت البوفلاسة في دبي بحوالى أربعمئة منزل، وهذا بالطبع تقدير يفوق كثيراً العدد الحقيقي. فالملاحظ أن لوريمر يبالغ كثيراً في كثير من الأحيان، ولكن الشيخ راشد بن سعيد، شيخ دبي، يقول إن البوفلاسة هم أحد أكبر الفروع الثلاثة الكبرى في إمارته، وهي المرر والسودان إضافة إلى البوفلاسة. هذا

إضافة إلى أن لوريمر يذكر عدداً من بيوت البوفلاسة في البحرين. وهناك طائفة منهم في قطر وفي جزيرة تاروت التابعة للأحساء. ويجدر بالذكر أن نمط حياة البوفلاسة التابعين لأبو ظبي متطابق مع نمط حياة الرميثات.

الرواشد

الرواشد ومفردها راشدي ذكرها لوريمر وعدّها فرعاً من فروع البوفلاسة. وعلى الرغم من أنها تعدّ في هذه الفترة من عام ١٩٥٢م بصفة عامة كياناً قائماً بذاته، لا تزال مرتبطة بالبوفلاسة ارتباطاً وثيقاً ذهب بكل تمايز بينهما. وما يجدر ذكره أن هؤلاء الرواشد ليس لهم ارتباط بتلك القبيلة السعودية التي تحمل الاسم ذاته. والرواشد، مقارنة بالرميثات أو البوفلاسة، تُعدّ من العشائر الصغيرة. ولم يستطع بكماستر أن يثبت أنهم ينقسمون إلى "حمولات" أو بيوت تحمل أسماءً أخرى. ويبدو أن لهم في الجزر حوالى ٢٠ – ٤٠ بيتاً، كما أن لهم في أبو ظبي حوالى خمسة وعشرين بيتاً أيضاً. ولبعض الرواشد مزارع نخيل في منطقة البريمي يقضي فيها العديد من رواشد أبو ظبي الصيف.

السودان

السودان مفردها سويدي قبيلة قال لوريمر عنها: إنها مستقلة بذاتها، لها صلة وثيقة بالكنود المتركزين في نزوى، والتي تدّعي النسبة إلى الأسود الكندي الذي يقال: إنه قد هاجر من اليمن على عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أكد أحد أفراد السودان لبكماستر هذه المعلومة التي قال بها الشيخ زايد والشيخ هزاع أيضاً، وأكدا أن القبيلة تمثّل فرعاً أصيلاً من قبيلة بني ياس، وذلك منذ حوالى قرنين من الزمان، وكان لهذه القبيلة قبل هذه الفترة الباكرة نشاط بحري في الساحل المتصالح. وتقدّر هذه المصادر بيوت السودان بحوالى ستمئة وخمسة وسبعين بيتاً موزعة على النحو الآتي (عام ١٩٥٢م):

أبو ظبي: مئة وخمسون بيتاً. وكان لوريمر قد قدّرها بثلاثمئة وخمسة وسبعين.

الشارقة (منطقة اللية والخان): مئتا بيت. وكان لوريمر قد قدّرها بثلاثمئة.

دبي: مئة وخمسون بيتاً. وكان لوريمر قد قدّرها بمئتين وخمسين.

عجمان: خمسة عشر بيتاً. وقدّرها لوريمر باثني عشر.

رأس الخيمة: خمسة عشر بيتاً. لم يذكرها لوريمر.

أم القيوين: عشرة بيوت. لم يذكرها لوريمر.

جزيرة بو موسى: عشرون إلى خمسة وعشرين بيتاً. وقدّرها لوريمر بعشرين.

قطر: سبعون بيتاً. قدّرها لوريمر بثمانين.
البحرين: عشرون بيتاً. قدّرها لوريمر بعشرة.
فارور وصيري والجزر المجاورة: خمسة وعشرون بيتاً. قدّرها لوريمر بثمانية بيوت فقط في صيري.

أما فروع السودان فهي

السالمين (ومن هذا الفخذ ينحدر شيوخهم)، الخلف، الجابر، السويدات، النواشر، القريشات، السابتات، النادر، الرديوات Ardaiwat، السليخات، دواغير، الغريرات، طارف Tarif.

ومّما يجدر ذكره أن كبير السودان في أبو ظبي (١٩٥٢م) هو عبد الله بن صالح الذي يعيش في تلك المدينة. وهذه القبيلة شأنها شأن كافة قبائل بني ياس، ثابتة في ولائها لبني ياس.

الظواهر

الظواهر مفردها ظاهري، قبيلة مستقلة عند لوريمر، إلا أن زايد يعدّها في أقسام بني ياس. والظواهر هم السكان الأصليون في منطقة البريمي، وقد امتد إليهم بنو ياس مع نهاية القرن التاسع عشر ودخلوا فيهم منذ ذلك التاريخ. ويسكن الظواهر في خمس من القرى الست التي يديرها البوفلاح في منطقة البريمي. فهم يعيشون في العين والجيمي والهيلي والقطارة والمعترض، وأقسامهم كثيرة متعددة. يقول الشيخ مناع بن محمد، عم الشيخ سلطان بن سرور كبير الظواهر إنهم ينقسمون إلى:

الدرامكة: وهم الأكثرون عدداً والأكثرون أهمية، ويسكنون الجيمي والقطارة والهيلي.
آل علي بن سعيد: يسكنون المعترض والجيمي
الشراشرة Sharashra: يسكنون المعترض
النواصر: يسكنون العين
النيادات: يسكنون العين
الحوازمة: يسكنون الجيمي (تعدّ الفروع الثلاثة الأخيرة أفخاذاً من قبيلة النعيم انفصلوا عنها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر)
السعد: يسكنون الجيمي والقطارة والهيلي
العنان: يسكنون القطارة والهيلي
الخماسين: يسكنون الجيمي

السواعد: يسكنون المعترض
الهوامي: يسكنون المعترض
الكفارة Al Kafara: يسكنون المعترض
الكنود: يسكنون الجيمي
العواسي: يسكنون المعترض
الراشيدات: يسكنون المعترض
آل عرار: يسكنون العين
المطاوعة: يسكنون العين
الحوادث: يسكنون العين
الجبانال Jabanal: يسكنون العين
الكويتات: يسكنون العين
الباروم: يسكنون العين
الجهاهيل: يسكنون العين
المريخات: يسكنون العين
الكخاخا Kakhakha: يسكنون القطارة والهيلي
الشرانية: يسكنون الهيلي
المطاريش: يسكنون الجيمي والقطارة
الشبيب: يسكنون الجيمي والقطارة
المخاسفة: يسكنون العين

تستطرد مذكرة بكماستر فتقول إن الظواهر يقضون الصيف في منطقة البريمي، ويرعون سوائمهم شتاءً في منطقة الختم، خاصة في المنطقة الواقعة بين البريمي وأبو ظبي ودبي. ويقدّر لوريمر عددهم بحوالى أربعة آلاف وخمسمئة، وهو رقم يراه بكماستر غير حقيقي، فهم - في تقديره - لا يزيدون على ألفين. كان الظواهر موالين للبوفلاح، ولكن تجد من يشكك في ذلك. فهم يدفعون لهم زكاة نخيلهم ومنتجات مزارعهم من الحبوب، ولكن من المعروف حالياً (١٩٥٢م) أن بعضهم قد انحاز إلى السعوديين في حماسا، وأن البعض الآخر قد يُعدّ لذلك.

القمزان

القمزان إحدى أفخاذ بني ياس الصغيرة، ولهم حوالى عشرين بيتاً في أبو ظبي وفي مجاورتها، وكذلك في البريمي، كما توجد أعداد قليلة منهم في دبي. أما أقسامهم فهي: الحم، والقمزان. ويعيش كبيرهم محمد بن عبد الله في أبو ظبي. ويقدّر لوريمر بيوتهم بحوالى مئة وخمسين بيتاً.

السبايس

السبايس مفردها سبوسي، قبيلة بدوية صغيرة وأقسامها كما يقول بكماستر هي: العيد، والمرّ، والرشيدين. وعددهم لا يتجاوز مئة نفس. وهم يسكنون الطف، ولكن لوريمر يقدّر عدد بيوتهم بأربعين، وقال إنهم يسكنون دبي، والحقيقة أن لهم وجوداً هناك، أما كبير السبايس (١٩٥٢م) فهو عبيد بن زعل.

البوحمير

يصل عدد البوحمير إلى حوالى مئتي نفس (١٩٥٢م)، منهم البدو، ومنهم الحضر. ويتحرك البدو منهم بصفة خاصة في المنطقة الواقعة بين دبي–أبو ظبي من جانب وبين البريمي من جانب آخر، أما الحضر فيعيشون في هاتين المدينتين. أما أقسامهم فلم يعرف بكماستر منها إلا القصيلات. وكان كبيرهم عبد الله بن بانك الذي يسكن البريمي.

البومهير

تُعدّ البومهير حالياً (١٩٥٢م) كما كانت على زمن لوريمر قبيلة كبيرة، لها مساكنها في أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان ورأس الخيمة التي تصل في مجموعها إلى تسعمئة وتسعين بيتاً، كما يقول لوريمر، أو من خمسمئة إلى ستمئة بيت كما يقول بكماستر في عام ١٩٥٢م. والقبيلة عدّها لوريمر من قبائل بني ياس، ويصدق عليها القول ذاته عند بكماستر. والبومهير حضر، ولكنّ فيها فرعاً صغيراً من البدو لا يزيد – في ما يبدو – في تقدير بكماستر على عشرين بيتاً يرعون الختم. أما رئيسهم مناع بن عبد الله فيعيش في أبو ظبي.

المشاغين

المشاغين الذين لم يورد لوريمر لهم ذكراً هم كما يقول الشيخ زايد فخذ من بني ياس، وكلهم من البدو ولا يزيدون على خمسين إلى ستين نفساً، يرعون سوائمهم في الختم والطف خاصة في منطقة الشمال الشرقي من أبو ظبي، قرب آبار العشوش والسويحة والبوصلف والسمينة. أما بيوتهم فهي: آل ياريو Al Yariyu، آل مبارك، آل بوأمين، المضاهية Madhahiya.

الأحباب

يرجع الأحباب – كما يقول بكماستر – إلى أصل حجازي من تثليث، وقد انتظموا في بني

ياس في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، وكلهم تقريباً من البدو يرعون في منطقة الختم والبريمي مع وجود بعض المستقرين منهم في البريمي. وهم لا يزيدون على أربعين إلى خمسين فرداً (١٩٥٢م)، أما فروعهم فهي أربعة: الغراب، وآل حثيث، والزربة، وآل شنان.

القبائل المتحالفة مع بني ياس

العوامر

العوامر، مفردها عامري، قبيلة كبيرة من القبائل الهناوية، وهي - كما يفيد هذا التقرير - قسمان: بدو، وحضر، تمتد فوق منطقة كبيرة تبدأ عند شمال تريم في وادي حضرموت إلى بينونة حتى الأحساء. وقد استقرت مجموعة من هؤلاء العوامر تقدّر بحوالى ثلاثة آلاف في الأراضي العمانية، كما يفيد التقرير الصادر عن القنصل البريطاني في مسقط في المحرم ١٣٧١/ أكتوبر ١٩٥١. ويفيد تقرير صادر عن بيرد التابع لبتروليوم كونششون بتاريخ ١٨ المحرم ١٣٦٨/١٩ نوفمبر ١٩٤٨ بأن للعوامر مستقراتهم في منطقة نزوى في عقيل والقريتين وحمدارية Hamadhriya وساليبا وحديد وشافعة وسياب وحبل وسوق الخضري وخرما، كما استقرت بعض بيوت العوامر في نزوى ذاتها وفي السيب وفي مناطق أخرى من مسقط والباطنة. وبدو العوامر تشكيل قبلي بالغ التعقيد، ويمكن تقسيم هؤلاء البدو إلى قسمين: أحدهما برئاسة سالم بن مسلم بن حم (يشار إليه في العادة بسالم بن حم أو ربما ابن حم مجرداً)، والثاني برئاسة سالم بن حمد بن ركاض (يشار إليه عادة بابن ركاض)، وهو الذي يسيطر على أكبر القسمين المذكورين كما يعتقد، رغم أن سالم بن حم - كما يشير بكماستر - يقول عكس هذا. وفي الحقيقة ليس هناك إحصاء حقيقي يسند أياً من الرأيين، ولكن العدد الكلي للقسمين كليهما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف، أو ربما أربعة آلاف شخص. يقول سالم بن حم إن فروع العوامر التالية توالي ابن ركاض: الحيو، الهبانيين، الخليلة (Al Kallaila) والحلاتة. وقد ورد ذكر الفروع الثلاثة الأولى في تقرير الوكيل السياسي لعام ١٩٣٤م. ولربما تكون هناك فروع أخرى للعوامر، لم تذكر هنا، أما الأقسام التي توالي ابن حم فهي كما جاءت على لسانه: الخميس، العامر، اليعافرة، الأسد، بيت حيثول، اللز، البدر، السالم والامباراخ ?Imbaeakh.

قد توجد فروع أخرى لم نأتِ على ذكرها، لكن من المؤكد - كما يذكر الشيخان زايد وهزاع - أن هذه الفروع المذكورة تضم كافة الأفخاذ المهمة في هذه القبيلة المنتشرة، وهذا على الرغم من أن هندرسون يضيف إليها فخذاً أخرى هي بيت اللهيفق Lahaifiq، كما يضيف ستة

عشر اسماً آخر، ولكنه يضيفهم، بنحو أو بآخر، في عداد العوامر الكبيرة، وكثير منهم - في ما يعتقد - ضمن فخذ من الأفخاذ التي ذكرناها.

تضم المنطقة التي ترعاها مجموعة سالم بن حم رمال دشاشا Dachacha والكدن والبطين ورملة الحمرة والختم والظفرة وبينونة والمجن والأحساء. ويعتبر العوامر بئر قيسورة التي في الركن الجنوبي الشرقي من رملة الحمرة ورملة الربضة، التي لهم فيها نخيل، مركزهم أو بالأحرى "ديرتهم". ويجتمع هؤلاء البدو في كل سنة تقريباً في هذه المنطقة وفي الكدن، رغم أن العديد منهم يذهب إلى محاضر ليوا أيضاً حيث يشاركون في جني التمور ويتلقّون أجورهم نوعاً، أو قد يقايض بعضهم منتجات إبلهم بالتمور. وفي الحقيقة إن قليلاً من العوامر يمتلك مزارع تمور في ليوا.

يتحرك قسم من بدو العوامر نهاية كل صيف في اتجاه الشمال عامة، ويتحرك قسم آخر منهم في اتجاه الغرب، فيصل بعضهم المجن والأحساء، بينما لا يتجاوز بعضهم منطقة البطين. إن أغلب هذه المجموعة قد اجتمعت في ربيع (١٩٥٢) في المنطقة الواقعة إلى الجنوب مباشرة من جبل حفيت جنوب البريمي، ولربما كان من المنتظر أن يصيّفوا في هذه المنطقة أيضاً لولا نزول الجراد، ما أرغمهم على العودة إلى الحمرة. ويبدو أن الآبار التالية في منطقة الختم التي تبعد حوالى خمسين ميلاً إلى الجنوب الغربي من البريمي هي التي يفضّلها بدو العوامر على ما سواها خاصة: الغنا Ghina، عقير، أبو حريبة، بوسمرة. وهذا ما أفاد به أحد العوامر من فرع الخميس، ويفضّل آخرون - كما تدل تحريات هندرسون - آبار سقاية Siquiya، وقصص بالقرب من البريمي، وكذلك موية الجبار، وبونخيله في منطقة الختم شمال العقير، وبوهفافا وفريجة بوحرم Bu Harm في الحمرة، وشليف وصويطية ودمقا Damaqa في الظفرة نفسها، وقمرة في بينونة. وفي الوقت الذي جرت فيه هذه الزيارة إلى منطقة البطين كان فيها ثمانية وثلاثون منزلاً للعوامر من آل بدر وآل عمرو وآل خميس. تحرك خمسة وثلاثون بيتاً منهم إلى منطقة قابل جنوب البريمي بعد ذلك مباشرة، كما صادفت هذه البعثة عامرين في المجن، ووجدت للعوامر في بينونة اثني عشر بيتاً، وعشرة بيوت بالقرب من بدع ابن سويد، وبيتين في مريخة. وكان أغلبهم من فرع الخميس، وهو الفرع الوحيد من العوامر الذي يقول الشيخ زايد إن أفراده يزورون الأحساء. ولم يتمكن بكماستر من معرفة دورة رحلة مجموعة ابن ركاض من العوامر، ولكنه يرى أنها تتطابق إلى حد بعيد مع دورة رحلة مجموعة ابن حم، رغم أن مقال ثسجر المنشور في المجلة الجغرافية الملكية (يناير - يونيو ١٩٤٩) يظهر أن المجموعة الأولى تقضي أكثر وقتها في المناطق السعودية أو في مناطق السلطنة.

ولاء العوامر مفرّق بين سلطان مسقط والإمامة والسعوديين والبوفلاح؛ فالحضر منهم يوالون السلطان بحسب موقع المنطقة التي يسكنونها من السلطنة أو الإمامة، أما مجموعة البدو التي

يرأسها ابن حم فهي على الجملة موالية للبوفلاح، ولكن ولاء مجموعة ابن ركاض للبوفلاح كان مشكوكاً فيه، رغم أن الشيخ زايد والشيخ هزاع كليهما يعتقد أن هذه المجموعة من البدو موالية للبوفلاح تماماً مثل مجموعة ابن حم، ويثقان أيضاً بولاء بدو العوامر أكثر من ثقتهما ببدو المناصير. ويقول زايد وهزاع: إن ميثاقاً شفهياً قد عُقد بين البوفلاح وبدو العوامر قبل سبع سنوات، تعهّد الشيخ زايد بموجبه بأن يؤدي للقبيلة مبلغاً محدداً على أن ينال دعم القبيلة في حالة وقوع حرب. وقال زايد وهزاع كلاهما: إن فرعي ابن حم وابن ركاض كليهما قد دعما أبو ظبي في الحرب التي نشبت بينها وبين دبي عام ١٩٤٦-١٩٤٧م، على الرغم من أن جهات أخرى ترى أن دعم العوامر لأبو ظبي في تلك الحرب كان انتقاماً وثأراً لهزيمتهم من دبي التي وقعت حوالى عام ١٩٤٢م، كما تشير تقارير أخرى - كما يقول بكماستر - إلى أن مجموعة ابن ركاض تنحاز على نحو أساسي إلى سلطان مسقط أو إلى السعوديين أكثر من انحيازها إلى البوفلاح. والحقيقة أن أكثر أفراد هذه القبيلة كانوا- حتى وصول تركي بن عطيشان أخيراً إلى البريمي - يمارسون شكلاً من أشكال الولاء للبوفلاح، بينما كان قسم منهم يوالي الإمام في عمان أو السعوديين. وحين وصل تركي إلى المنطقة حدث تحوّل - ربما سيكون دائماً أو ربما مؤقتاً - في ولاء مجموعة ابن ركاض الذي ذهب بكامله إلى الرياض. وفي الحقيقة كان ولاء ابن ركاض قبل هذا متأرجحاً، وحدث أن تلقّى في رمضان ١٣٧١/نهاية مايو ١٩٥٢ دعوة من سعود بن جلوي لزيارة الدمام، وكان في نيّته أن يقبل الدعوة ويذهب إلى هنالك لولا الحظر الذي فرضه وباء الدوسنتاريا على المملكة العربية السعودية. أما سالم بن حم - وهو أحد أصدقاء زايد الشخصيين والقريبين منه - فقد ظلّ على ولائه لبني ياس. وفي ما يبدو، فإن كل مجموعته تدعمه في هذا الاتجاه، رغم أن ابن حم نفسه يعترف بأن أحد بيوت الخميس يُعدّ موالياً للسعوديين. وربما كان هنالك آخرون مثلهم من الذين يتضون الشتاء عادة في الأحساء. أما آل سالم، فإنهم كانوا أسبق زمنياً في ولائهم للبوفلاح من الآخرين من رجال القبيلة الذين دخلوا في الولاء بموجب الميثاق المعقود قبل سبع سنوات، المذكور آنفاً.

يدّعي زايد أن له السلطة التي تخوّله تعيين شيوخ العوامر وتسمية كبارهم. وقد حدث أن عيّن سالم بن حم بعد الحرب التي نشبت مع دبي رئيساً لفرع العوامر الذي ظلّ صامداً، بينما هرب معظم أفراد الفرع الآخر الذي كان مع ابن ركاض إلى الكويت بعد الهزيمة. وممّا يجب ذكره أن ابن ركاض هو عم سالم. والمعروف أن مشكلات العوامر الرئيسة في ليوا تحال على شيوخ البوفلاح أو ممثّلهم في ليوا. وقد عمل هزاع في عام ١٩٥٠م على معالجة إحدى هذه القضايا الكبرى، ولكن أكثر نزاعات هذه القبيلة يترك أمر حلّها - ما أمكن - إلى كبارهم ليحكموا فيها.

عمل السعوديون في السنتين الماضيتين قبل هذه الزيارة على الحصول على زكاة إبل العوامر،

غير أن هذا الأمر توقف في هذه السنة (١٩٥٢م) كما قال عدد من الأشخاص بمن فيهم الشيخ زايد، رغم أن أحدهم قد ادّعى أنه أدّى الزكاة لهم في عامه ذاك. ولا يبدو أن أياً من العوامر يدفع أي نوع من الزكاة أو الضرائب والرسوم للبوفلاح. فمزارع تمور العوامر في ليوا معفاة من الضرائب في ما يبدو، ولا يذهب أي منهم في هذه الفترة (١٩٥٢م) للعمل في الغوص، تلك المهنة التي كان يمارسها بعضهم في وقت سابق، إلا أن بعض أفراد هذه القبيلة يعمل مع أرامكو في الظهران، بينما يعمل آخرون منهم في قطر.

يقول بكماستر: على الرغم مما يقوله زايد وهزاع عن ولاء قبيلة العوامر، فإنه من الواضح تماماً أنها مثل قبيلة المناصير تعدّ نفسها مستقلة تماماً، وأن الدعم الذي تقدمه القبيلة إلى أيّ جهة تحكمه دوافع الارتزاق ليس إلا. وعلى الرغم من أنهم يوالون البوفلاح اسمياً، يرغبون في أن يظلوا أحراراً يتحركون حيث يريدون، وينهبون كما يحلو لهم، ويمكن إذا دعت الضرورة أن يتعاملوا مباشرة مع أي من شيوخ الساحل. ولذا فإن سالم بن حم – شأنه شأن شيوخ المناصير وشيوخ بني ياس كذلك – لن يوقّع ميثاقاً مكتوباً بالولاء للبوفلاح. ويدرك زايد أنه إذا حاول أن يفرض أدنى شكل من أشكال الحظر على نشاطات هذه القبيلة، فإنه سيخسر مسانداً له إذا احتاج إليهم في حالة وقوع حرب، ولذلك تراه ينكر مسؤوليته عن إغارتهم على الساحل المهادن، ولكنه لا يرى في الوقت نفسه مانعاً قانونياً من القول: إنها قبيلة تابعة له، لكنها تمردت وخرجت عن طاعته.

المناصير

المناصير قبيلة تنتمي إلى مجموعة القبائل الهناوية وبطونها ثلاثة هي: البومنذر، البورحمة، البوشعر. وعلى الرغم من أن ولاء هذه البطون متفرق، تقوم العلاقة بينها على حسن التعامل، وإذا حدث أن سألت أي فرد من هذه البطون الثلاثة، فسيقول لك: إن القبيلة واحدة لا تمايز بين فروعها. يقول لوريمر: إن هذه القبيلة كانت في فترة سابقة توالي الوهابيين، وقد سبق لهم أن أدّوا إلى الحاكم السعودي عام ١٨٦٥م مساهمة مادية بلغت ألفي ريال. وعموماً كان المناصير في الفترة التي كتب فيها لوريمر (١٩٠٨م) مستقلين، ولكنهم كانوا يتعاملون إلى درجة ما مع مدينة أبو ظبي وشيخها. وما إن استولى ابن سعود على الأحساء عام ١٩١٣م حتى انقلب البومنذر من المناصير وقسم من البورحمة قد يصل إلى النصف وتحالفوا مع السعوديين. ويؤرخ الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان "ذهاب" بعض بيوت المناصير إلى السعوديين في عهد جده الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥–١٩٠٩م) عندما زهد ذلك الشيخ في مساندتهم ضد قبيلة العوامر. ويضيف الشيخ زايد بن سلطان: إن جده كافأ المناصير الذين ظلوا على ولائهم له بإعفائهم من دفع زكاة نخيلهم، وأن حكام أبو ظبي الذين خلفوا زايد بن خليفة من الحكام ساروا على النهج

نفسه حتى لم يبقَ في الوقت الراهن من المناصير الموالين لأبو ظبي من يؤدي الزكاة لحكامها. ويستطرد زايد فيقول: إن المناصير – على أيّ حال – ليس لهم حيازات زراعية كبيرة. فمزارع نخيلهم صغيرة لا تدرّ العشرة جرابات التي هي نصاب الزكاة.

يقول سعيد بن سالم البوهليبي، وهو أحد كبار البومنذر النافذين المطّلعين، كما يقول أيضاً صالح بن غرير كبير المطاوعة من البومنذر، إن بيوت البومنذر هي: مطاوعة، مداهمة، آل مراشيد، آل مناع، آل حويصات Hawaisat، آل سواحيت Sawahit، كعابرة، غزيلات، آل نوافي Nuwafi.

تظفر كل هذه البيوت – كما يعتقد بكماستر – بأهمية متساوية. وتختلط المنازل في المضارب المختلفة، إذ تسكن المجموعات المذكورة معاً وإن تألّفت العد من المطاوعة فقط. ويقدّر بكماستر أن العدد الكلي لبيوت البومنذر التي تذهب إلى ليوا في فترة جني التمور قد يصل إلى مئة وتسعة وسبعين بيتاً، بما في ذلك أعداد من البيوت التي لا تملك مزارع في تلك المنطقة. أما عدد البومنذر فيقدّره بكماستر بنحو ألف ومئتين وثلاث وخمسين نفساً باعتبار أن متوسط ما يضمّه كل بيت من بيوتهم يبلغ سبعة أشخاص. ويعترف بكماستر بأنه سأل عدداً من البومنذر وكان تقديرهم لأعداد نفوسهم يفوق كثيراً ما أورده.

يعود بكماستر ليقول: إذا فرضنا أن حوالى ثلاثين منزلاً من منازل البومنذر التي لا تملك مزارع تمور في ليوا تفد إلى المنطقة لتساعد الآخرين منهم في حصاد تمورهم، وإذا افترضنا أيضاً أن هناك عدداً مماثلاً من بيوت البومنذر لا تأتي إلى ليوا وتبقى طوال الصيف مع إبل القبيلة التي تترك في هذا الوقت عند آبار مرخية وأم الأشطان، وإذا أضفنا إلى الستين بيتاً المذكورة عشراً إلى عشرين أسرة لا تملك نخيلاً في ليوا ولكنهم يملكون نخيلاً في الظفرة وفي الحيازات الزراعية الصغيرة في بدع سالم التي مرت بها هذه البعثة في ٧ مارس، والتي وجدوا فيها بيتين للبومنذر يعمل أفرادها في جني التمور، وكذلك مزارع الباطنة التي تقع على بعد سبعة أميال من بئر شليف، فإن هذه الثمانين بيتاً إذا أضيفت إلى المئة والتسعة والسبعين بيتاً التي اعتمدها بكماستر لبومنذر ليوا سابقاً تصبح مئتين وتسعة وخمسين بيتاً ويصبح عدد نفوسهم – مع اعتبار سبعة نفوس عن كل بيت – ألفاً وثمانمئة وثلاثة عشر فرداً. ويعود بكماستر مرة أخرى ليقول: إن هذا التقرير الأخير لعدد البومنذر ربما كان مسرفاً بعض الشيء، فينزل به إلى حدود ألف وخمسمئة إلى ألف وستمئة فرد. ويذكر بكماستر أن وكيل المقيمية كان قد قدّر في عام ١٩٣٤م أعداد رجال البومنذر بحوالى ستمئة وثلاثين رجلاً، و لم يعمد إلى تقدير أعداد نفوس الأطفال والنساء، كما يقول: إن لوريمر قد قدّر أعداد رجالهم بمئتين وخمسة عشر فرداً.

يُعدّ قران بن مانع – الذي كان يقيم في فترة زيارة زايد للمنطقة في الأحساء – كبير البومنذر، ولكنه يعود عادة إلى صريط في موسم جني التمور. ويحتفظ البومنذر بنمط محدد من أنماط

الهجرة، فهم يقضون ثمانية إلى تسعة شهور من السنة يرعون بينونة ورملة الحمرة ويصلون إلى المجن، وقد تصل دورة رحلاتهم إلى قطر، ثم يعودون في ما بقي من السنة (يوليو - سبتمبر) إلى مضارب ليوا في فترة موسم التمور، وبصفة خاصة محاضر داهن والثروانية وصريط وحويطين والهيلة ووهيدة وواهيدة وسبخة والعد وكيّة. والجدير بالذكر أن مواطن الرعي التي تقصدها بيوت البومنذر شتاءً تختلف من سنة إلى أخرى. فهم شأنهم شأن كافة البدو من أهل الرحلة، يتنسّمون مواقع الكلأ الأوفر، إضافة إلى اختيار المراعي التي تستسيغ إبلهم علفها. فكثير من الإبل تفضّل رعي نباتات معينة تنمو في مناطق بعينها. ففي عام ١٩٥٢م نجد أن حوالى نصف عدد بيوت البومنذر من محاضر صريط ووهيدة وداهن والعد وحويطين اتجهوا مع إبلهم إلى منطقة مرخية - عجيلة في بينونة، بينما اتجه النصف الآخر إلى الأحساء. أما في العام السابق له فقد قضت ثلاثة بيوت من الهيلة وعدد مماثل من حويطين الشتاء في المجن. وقد اختار أكثر البومنذر من منطقة الثروانية في عام ١٩٥٢م أن يرعوا الرملة الحمرة في منطقة حالب Halib وآبار الشرفا Sharfa، بينما قام آخرون منهم من كيّة إلى منطقة أم الأشطان في بينونة الغربية. وأفاد سعيد بن سويلم البوشيلبي أن نحو ثلاثين أسرة من البومنذر ترعى (في عام ١٩٥٢م) الأحساء غير أن هذا الرقم - كما يلاحظ بكماستر - يستثني البدو الذين يأتون إلى داهن ووهيدة في موسم جني التمور، وهم لا يملكون فيها حيازات زراعية. ولذا فإن تقدير البيوت التي ترعى الأحساء ربما كان أربعين أو خمسين، وذلك - كما يقول بكماستر - أدعى إلى الدقة. ويقول عدد من أفراد البومنذر إن أفراداً منهم من المحاضر التي هم فيها (عدا داهن وحويطين) يذهبون للغوص، ويؤكدون أن حوالى ثلاثين أو أربعين فرداً من وهيدة كانوا يعملون في الغوص، وربما كان الرقم - كما يقول بكماستر - مبالغاً فيه، كما يدّعي البعض أن عدداً كبيراً من بومنذر ثروانية، وعدداً قليلاً من بومنذر الهيلة والعد، وعدداً يتأرجح بين الكثرة والقلة من صريط، يعملون موسمياً في الغوص.

يُعدّ ولاء البومنذر من خلال كبيرهم قران بن مانع خالصاً للسعوديين، وإن لم يمنع هذا الولاء أغلب هؤلاء المناصير من التعاون مع البوفلاح إذا وجدوا ما يحققونه من هذا التعاون. فعلى سبيل المثال، نجد أن سعيد بن سالم - من البومنذر - قد صحب ركب زايد في هذه البعثة أربعة أسابيع كاملة كان فيها متعاوناً تماماً، ووضع كافة مخزونه من المعرفة الثرة عن المنطقة في خدمة البعثة، كما لم يتورع أفراد آخرون من البومنذر عن الكشف عن طبيعة علاقاتهم بالسعوديين ومبالغ الزكاة التي يؤدونها للرياض "والإكراميات" التي يتلقّونها منها، ولم يبخلوا بتقديم أيّ معلومة تطلبها البعثة، بالرغم من أن بعض أفراد البومنذر كانوا متحفظين وربما متشككين أحياناً، فلم يكشفوا للبعثة عن الكثير. يقول بكماستر إنه سأل أحد عشر رجلاً من البومنذر عن ولائهم فقال ستة منهم من دون تردد إنهم موالون للسعوديين، لا بل هم رعايا للسعوديين،

وقال ثلاثة منهم، بشيء من التردد، إنهم موالون للبوفلاح، فيما ادّعى اثنان منهم أن البومنذر مثلهم مثل المناصير الآخرين مستقلون غير موالين لأحد. ويفيد بكماستر على لسان سعيد بن سالم أن البومنذر موالون للسعوديين منذ أن احتل ابن سعود الأحساء في عام ١٩١٣م. ففي ذلك الزمن ساعد قران السعوديين بالإبل والرقيق وأثابوه أموالاً وبنادق. ومنذ ذلك التاريخ وهو يتلقّى منهم المال بانتظام، ويبدو أنه تلقّى منهم في هذه السنة (١٩٥٢م) ألفاً ومئتي ريال، كما ظلّ يتلقّى منهم هدايا من الأسلحة والكسوات وما إلى ذلك. كذلك منحه السعوديون بعض الإبل في مناسبتين أو ثلاث. وقد تلقّت أغلب الأسر التي تملك الإبل وتدفع عنها الزكاة للسعوديين أموالاً من الخزانة السعودية تتراوح بين أربعين ريالاً وخمسمئة، وقد يُزاد لها في ذلك أحياناً. وعلى العموم، فإن الأسر التي يتصادف وجودها في فترة توزيع الأموال في الحمرا أو بينونة الشرقية، لا تتلقّى أيّ حصة من تلك الأموال. ويقدّر بكماستر حجم الأموال التي أنفقها السعوديون في هذه السنة بضعف ما أنفقوه في السنة السابقة لها... ونجد إضافة إلى البومنذر الذين يرعون الأحساء تداخلاً كبيراً بين رجال هذه القبيلة وبين السعوديين. ففي كل مستوطنة من مستوطنات البومنذر هناك من يعمل في أرامكو في الظهران أو في القطيف. وحدد بكماستر أعداد هذه الفئة، ووجد أن سبعة من البومنذر العشرة في الثروانية يعملون في السعودية، كما حدّد أعداد أمثال هؤلاء في المستقرات الأخرى حيث يتركون أسرهم ويذهبون للعمل في السعودية ويحصلون بسهولة على التابعية أو أيّ أوراق ثبوتية أخرى بعد دفع رسم قدره خمسة عشر ريالاً. وأفاد سعيد بن سالمين بكماستر بأنه في حالة نشوب حرب، فإن البومنذر سينحازون إلى السعوديين في حال زوّدوهم بالبنادق والذخيرة والإبل. وإذا "تم الاتفاق على احتساب تعويضاتهم على أساس الشريعة. ويعتقد سعيد أن السعوديين أقوياء وأثرياء وكرماء وعادلون".

البورحمة

البورحمة فرعان يتقاسمان الأهمية نفسها، يرأس أحدهما سعيد بن سالمين وهم موالون عموماً للبوفلاح، ويرأس الفرع الثاني سعيد بن سويد الذي يناصر السعوديين. و لم يورث هذا التشتت في ولاء القبيلة انقساماً خطيراً. فكلا القسمين يتقاسمان السكنى في كثير من المحاضر، منها: موصال، وحويطين، وملقطة. و لم يتمكن أي فرد من أي الفرعين ممن استجوبتهم البعثة في هذه المحاضر من أن يحدد الأفخاذ التابعة لهذا القسم أو الآخر، أو ربما لم يكن راغباً في الإفصاح عن ذلك، وما كان من أي من أولئك إلا أن قال: إن البورحمة قبيلة واحدة. ويقول سعيد بن مبارك: إن كلا فخذي البورحمة يمكن أن تشمل أفراداً من هذا الفرع أو ذاك. وقد أمدّ سعيد المذكور البعثة بأسماء أفخاذ البورحمة الآتية: السالمين، وكلهم من أتباع سعيد بن مبارك فقط. والتعايب، كلهم من أتباع سعيد بن سويد فقط.

أما الأفخاذ التي يختلط فيها الولاء في البورحمة فهي: الوبران، الطريف، الشهيمات، المخازنة، القضيغات، الريالات، العواسي.

هناك أفخاذ أخرى سبق أن أوردها لوريمر وأشار إليها وكيل المقيمية في عام ١٩٣٤م وهي: الطرارفة، الستاونة، آل جواهيريال al Jawahrial، آل مداهنال Al Madahanal، آل معاوسة، آل سليمان، آل مخارمة، آل ميثاء Al Maith.

يبدو أن العديد من هذه الأفخاذ التي ذكرها لوريمر قد ذابت في الأفخاذ التي ذكرها سعيد لبكماستر الذي قدّر عدد بيوت البورحمة التي تفد إلى ليوا بمئة وتسعة وأربعين بيتاً: تسعة وسبعون بيتاً منها تعود إلى سعيد بن مبارك، بينما تعود السبعون الأخرى إلى سعيد بن سويد، ويمكن أن يضاف إلى هذا العدد عدد آخر من البيوت لا يقل عن ثلاثين ولكنه لا يتجاوز الأربعين بحال، من الذين لا يملكون حيازات، فيرتفع بهذا عدد بيوت البورحمة إلى مئة وتسعة وثمانين بيتاً على الأكثر، تضم نحو ألف وثلاثمئة وثلاثاً وعشرين نفساً، وذلك على افتراض أن الأسرة في البيت الواحد تتكون من سبعة أفراد، ويمكن أن يصل الرقم الحقيقي إلى نحو ألف ومئتين وخمسين فرداً. وقد قدّر لوريمر في فترة سابقة أعداد الرجال المحاربين في البورحمة بمئتين وسبعين فرداً، أما وكيل المقيمية فقد قدّر المحاربين من رجالهم في فترة لاحقة بتسعمئة وأربعين فرداً. ويرى بكماستر أن التقدير الأول قليل جداً لا يدل على حقيقة الحال، وأن التقرير الثاني مسرف جداً بحيث يتجاوزه كثيراً.

لاحظت البعثة أن أغلب بيوت البورحمة التي تعدّ سعيد بن مبارك كبيرها تسكن أقصى المحاضر شرقاً في ليوا، أي في جريرة وهمايم والبوعوانة وقعيصة، أما تلك التي تعدّ سعيد بن سويد كبيرها فتسكن بنحو رئيس في المحاضر الواقعة في قلب ليوا وكذلك في غربها، أي في جرمدا وقطوف وكيّة والهيلة وحمرور وطرج والمارية الغربية وملقطة وعرادة. ولكن الملاحظ أيضاً أن هناك اختلاطاً كبيراً بين هاتين المجموعتين كما ذكر آنفاً. وتتحدّد المواقع التي يقضي كل فرع من هذين الفرعين الشتاء فيها بمواقع المنازل التي يشغلونها. وعلى العموم، فإن البورحمة يقضون الشتاء في الختم ورملة الحمرة، ويتجوّلون في المنطقة التي تضم آبار بدع شويبار، والجواني، والمشيرف، ولهاما. فهم يعدون هذه المنطقة "ديرتهم". ونجد البورحمة الذين يأتون من محاضر وسط غرب ليوا يذهبون في العادة إلى بينونة الغربية، ويحصلون على مياههم في العادة من آبار بدع ابن سويد وعقيلة ومرخية ورجيب وأم الأشطان، والقليل من هؤلاء هم الذين يفضّلون أن يذهبوا إلى منطقة بدع ابن عوشان في بينونة الشرقية. وتذهب مجموعة سعيد بن سويد إلى الأحساء أو إلى المجن إذا كان المرعى في هاتين المنطقتين وفيراً. أما في الصيف، فإن أغلب إبل هذه المجموعة الأخيرة تتجمّع في منطقة عقيلة ورجيب وأم الأشطان، كما تتجمع مجموعة سعيد بن مبارك بنحو عام في الختم، على الرغم من أن أهالي جريرة يتركون إبلهم في

منطقة الشرفا في الحمرة.

يقول سعيد بن مبارك إن البورحمة الذين يرأسهم يجتمعون سنوياً في ليوا، يقضون فيها موسم جني التمور، ولا يبقى منهم خارجها إلا عدد قليل يتركونه لرعاية الإبل. ويبدو أن مجموعة سعيد بن سويد التي تذهب أيضاً موسمياً إلى ليوا تترك وراءها عدداً أكبر من الرجال لرعاية الإبل. ولن تجد في فرعي البورحمة عدداً كبيراً من الرجال الذين يعملون في الغوص بانتظام. فالمعروفون منهم في هذا المجال فقط رجلان من عرادة وستة من ملقطة وقليل من جرمدا، وقليل من جريرة وقعيصة، ولا يذهب للغوص أيٌّ من بورحمة كيّة أو لطير، على الرغم من أن بعضهم كان يمارسه سابقاً. والجدير بالذكر أن عدداً صغيراً من مجموعة سعيد بن سويد يمتلك بساتين نخيل في قفه Qufa والظفرة، بعضها - على سبيل المثال - في أم الحزن شمال البيف، وفي حالب شمال ملقطة، وفي الفاير والخشم شمال شليف، وكذلك ثلاثة بساتين أخرى في هذه المنطقة ذاتها.

يُعدّ سعيد بن مبارك من أصدقاء زايد الحميمين، رغم أنه لا يحترم شخبوط البتة. فالولاء في هذه الحالة يقوم على ارتباط شخصي أكثر منه على ولاءٍ مغروس وثابت للبوفلاح. وإذا كان أتباع ابن مبارك من المخلصين لشخصه - وهم فعلاً كذلك كما يقول بكماستر - فإن ولاء هذه المجموعة يصبح - من الناحية النظرية - مبذولاً للبوفلاح، على الرغم من أنهم كلهم، بمن فيهم سعيد بن مبارك نفسه، يقولون إن قبيلتهم هي قبيلة مستقلة. وقد قال سعيد لبكماستر: إنه في حال وقوع حرب، فإن مجموعته تساند البوفلاح إذا طلبوا الدعم، ولكن لا يزال هناك شعور بالمرارة من حاكم أبو ظبي، لأنه لم يسمح لهم بأن يدركوا ثأرهم من دبي لتعويض الخسائر التي لحقت بهم على أيدي مجموعة من دبي كانت قد أغارت عليهم خلال الحرب التي وقعت بين دبي وأبو ظبي عام ١٩٤٦-١٩٤٧م، وذلك قبل أن ينعقد الصلح الرسمي بين الشيخين. فقد خسر البورحمة في تلك الغارة تسعة عشر قتيلاً، كما خسر البومنذر رجلين، بينما خسر البوشعر ثلاثة وعشرين، إضافة إلى أعداد كبيرة من الجرحى.

نجح سعيد بن مبارك حتى الآن (١٩٥٢م) في مقاومة إغراءات السعوديين الذين قدّموا له في العام الماضي - في ما يبدو - ألفي ريال مقابل الولاء، ولا يبدو أن أيّ فرد من مجموعته كان قد دفع الزكاة للسعوديين، أو حصل منهم على أعطيات، بالرغم من أن البعثة لم تتمكن من سماع العديد من الشهود، إذ لم تقابل إلا رجلين فقط من جريرة وقعيصة.

أما مجموعة سعيد بن سويد من البورحمة، فهي مع السعوديين، لكنها لا تنزل منهم تلك المنزلة اللصيقة التي يظفر بها البومنذر. وفي الأساس يكنّ العديد منهم، بمن فيهم سعيد بن سويد، احتراماً وافراً لزايد، ويفضّل أن يكون في صف البوفلاح الذين تعترف هذه المجموعة كلها بأنها تنتمي إليها تاريخياً. ولهذا تراهم مرتبطين بالسعوديين برباط مزدوج، قوامه الاحترام والخوف،

فهم يقدّرون أن السعوديين يمكن أن يتخذوا ضدهم إجراءات قاسية إذا حدث أن تعلّقوا بأبو ظبي، إضافة إلى أنهم لن يصيبوا من الشيخ شخبوط أيّ مبالغ تذكر. ويقارن العديد من هؤلاء بين حرارة الاحترام الذي يظفرون به عندما يفدون إلى الأحساء وبرودة عدم الاهتمام الذي يظهره تجاههم حاكم أبو ظبي وأهلها، وكثير من هؤلاء البورحمة ينفرون من شخبوط لبخله. وقد أجاب أربعة أفراد من البورحمة من دون تحفّظ، من مجموع ستة أفراد سُئلوا عن الجهة التي يولونها الولاء، بأنهم يعدّون أنفسهم رعايا سعوديين، كما أن "أعداداً كبيرة منهم"، كما جاء في أقوال الشهود، يعملون في أرامكو: ستة منهم من ملقطة، وآخرون من عرادة وكيّة. ويدفع هؤلاء البورحمة الزكاة إلى السعوديين، ويلقون منهم الإكراميات تماماً مثل البومنذر. ويعترف اثنان من الشهود بأن هذا الفرع من البورحمة يدفع زكاة الإبل منذ العشرينيات من القرن، كذلك فإن سعيد بن سويد وعدداً قليلاً من كبار رجال هذا الفرع من ذوي الاعتبار يتلقّون إكراميات من السعوديين من ذلك التاريخ أيضاً، كما يتلقى بعض أفراد هذا الفرع مبالغ تتراوح عموماً بين مئة ريال وثلاثمئة ريال. وقد شهد رجل له أملاك في كيّة بأنه تلقّى في هذا العام (١٩٥٢م) مئتين وثمانين ريالاً من السعوديين، كما تلقّى منهم في العام المنصرم مبلغ مئة وثمانين ريالاً، أما قبل ذلك فقد كان يتلقّى منهم ثمانين ريالاً فقط في العام. واعترف أحد المتعاملين في بيع الإبل، وهو من الذين ليست لهم أملاك في ليوا، بأنه تلقّى من السعوديين مئة ريال إكرامية في هذا العام (١٩٥٢م)، وأن إخوته الثلاثة قد تلقّوا منهم مبالغ ربما كانت مئة ريال أو مئة وخمسين في هذا العام أيضاً، وأضاف: إنه ظلّ يتلقّى منهم في السنتين الماضيتين.

البوشعر

يقول محمد بن خادم البوشيلبي، وهو أحد أكبر رئيسين في البوشعر، إن للبوشعر عدّة أفخاذ هي: الغوينام، الرشايد، البوثوييت، آل مساندر al Masander ويمكن أن تضاف إليهم فخذان أخريان جاء ذكرهما في مذكرة وكيل المقيمية (١٩٣٤م) وهما: المفالحة، الشدود.

يقدر بكماستر العدد الكلي لبيوت البوشعر في ليوا في ذروة موسم جني التمور بحوالى مئة وستة وثلاثين بيتاً، تضم نحو تسعمئة واثنين وخمسين شخصاً. أما بيوت البوشعر التي لا تأتي ليوا فهي خمسة فقط، كما يشير محمد بن خادم، وهذا ما يجعل مجمل بيوت البوشعر مئة وواحداً وأربعين منزلاً تضم نحو تسعمئة وسبعة وثمانين شخصاً، أما تقدير وكيل المقيمية لعدد رجال هذا الفرع فقد وصل إلى خمسمئة وستين رجلاً، بينما لم يزد تقدير لوريمر على سبعين رجلاً فقط. ومن المؤكد - كما يقول بكماستر - أن كلا التقديرين جانبهما الصواب؛ فالأول كان مُسرفاً، والثاني كان مُقلّاً.

يقضي معظم البوشعر الشتاء في رملة الحمرة في الختم، رغم أن بوشعر ليوا الغربية، أي

الوافدين من مناطق مثل عد، يذهبون في الشتاء عادة إلى بينونة في منطقة عقيلة – مرخية، وإلى مناطق البطين الغربية والظفرة (منطقة بو أم صويتية) كما حدث في عام ١٩٥١م، أو إلى الأحساء كما حدث في عام ١٩٤٩م. أما أكثر أفراد البوشعر من المستقرات الشرقية فهم مثلهم مثل البورحمة الذين يرجعون إلى المنطقة ذاتها، فيقضون الشتاء متجوّلين في منطقة شاسعة تمتد من بئر بوجواني إلى المناطق الشمالية الشرقية في اتجاه البريمي، ويصلون إلى مناطق قريبة من الساحل مثل بدواع – شويبار وشيثان إلى الغرب من أبو ظبي. ويفضّل هؤلاء القوم عادة أن يرعوا الشتاء في الختم دون غيرها، خاصة في منطقة مقيل – موزاريا Mughail –Muzaria رغم أن عدداً قليلاً من العوائل يرعون منطقة رويس، عقيلة، أم الأشطان في كل سنة تقريباً. ويترك هؤلاء في العادة إبلهم في الصيف في مجموعات في الحمرة في الشمال إلى الغرب من الجواني، أما في الصيف فإن البوشعر يسكنون المستوطنات الآتية: الخيس، العد مواصل، وادهل، جرة، نشاش، ثروانية، حويطين، عتاب، هفيف، كيّة، حمرور، ولكنهم لا يمثّلون الأغلبية إلا في المستوطنات الخمس الأولى. ولا يذهب من البوشعر إلى الغوص إلا عدد قليل لا يتجاوز عشرين إلى ثلاثين شخصاً.

يرى راشد بن خادم – وهو من الرجال الأذكياء والمتنفذين وأحد كبيرَيْن من كبار البوشعر ورئيس نشاش التقاه بكماستر عند بئر أم البنادق في الختم – أن البوشعر شأنهم شأن بطون المناصير الأخرى، يعدّون أنفسهم مستقلين، ولكنهم يساندون البوفلاح. فهم أقل غلظة من السعوديين وأذكى تعاملاً، بالرغم من أنهم يقاسمون الآخرين نفورهم من شخبوط الذي لهم ضده ثلاث شكايات رئيسة هي الشكايات ذاتها التي تقول بها مجموعة سعيد بن مبارك المذكور آنفاً من أنه يرفض أن يعطيهم حصة من عوائد امتيازات البترول، وهم يعتقدون أن لهم في ذلك حقاً مماثلاً للحق الذي يلقاه بنو قتب الذين يتلقّون حصصاً من العائدات من حاكم الشارقة، وكذلك التي تتلقاها الخواطر أيضاً من شيخ رأس الخيمة. كذلك يشتكون من أن سلوك شخبوط المتعجرف، وبخله خاصة عندما يفد إليه الضيوف، إضافة إلى عجزه عن حمايتهم من دبي في حرب عام ١٩٤٦–١٩٤٧م، ورفضه السماح لهم ليدركوا ثأرهم بأنفسهم. وعلى الرغم من ذلك، يقول هذا المصدر إنهم ينحازون في الحرب إلى أبو ظبي إذا مكّنتهم من السلاح. ويُعدّ محمد بن خادم من الموالين تماماً لزايد، ولا شك في أن محمد يمكن أن يحرك أكثر رجال قبيلته في ولائه.

على الرغم من "كراهية" البوشعر للسعوديين، يعمل العديد منهم في المملكة العربية السعودية، وخاصة لدى أرامكو: شخصان من العد، وعدد قليل منهم من نشاش، وعدد آخر من بعض المستوطنات. وقد دفع أحد أهل عد من البوشعر زكاة إبله التي بلغت خمسة وعشرين ريالاً بواقع خمسة ريالات عن كل رأس إلى ابن منصور عندما وفد إلى بينونة، كما دفع خمسة

آخرون من البوشعر الزكاة له من دون جبر، ولكنهم كانوا يدركون أنهم إذا رفضوا أداء الزكاة فإنهم سيفقدون جملاً أو جملين لعمال الزكاة بدلاً من الريالات. ويقول محمد بن خادم: إن سكان المضارب الأخرى لم يدفع أيّ منهم أيّ زكاة للسعوديين الذين لن يصلوا إليهم ما داموا يرعون في الختم، ويستطرد بكماستر ليقول: إن هذه الرواية تحتاج في رأيه إلى تمحيص، وينكر كافة الذين جرى استجوابهم من أفراد البوشعر أن يكون أيّ منهم قد تلقّى مالاً أو أيّ هدايا أخرى من السعوديين.

الزكاة

يجمع حاكم أبو ظبي زكاة التمور فقط من بني ياس في ليوا إذا بلغ النصاب عشرة جرابات. وقد حدّد "الجراب" في ليوا بمئة وثمانين رطلاً، بينما يبلغ جراب البريمي تسعين رطلاً. تُؤخذ الزكاة بمعدل جراب عن كل ما يزيد على عشرة جرابات إلى عشرين جراباً، ويؤخذ جرابان عن كل ما يزيد على عشرين جراباً. ويجمع ممثل الوالي شخصياً في ليوا، والذي يكون في هذه الفترة ثاوياً هناك، زكاة تمور ليوا. وقد قال أحمد بن فاضل، الوالي السابق لليوا من قبل الشيخ شخبوط، إن الوالي يزور عادة المحاضر والبساتين الواقعة إلى الغرب من الثروانية ويقدّر زكاتها، أما تلك الواقعة إلى الشرق منها فهي إما معفاة من الضرائب أو تنتج محصولاً يقل عن عشرة جرابات، أي أقل من النصاب، وأضاف أنه كان قد جمع في السنة المنصرمة (١٩٥١م) خمسة عشر جرابا زكاة تمور منطقة ليوا ، أما زكاة الإبل فإنها تؤخذ في بينونة حيث توجد الإبل عادة عندما يحول الحول. وشهد بعض الأهالي لبعض أعضاء بعثة زايد بأن عدداً من جباة الضرائب السعوديين قد زاروا في السنة الماضية حمرور والثروانية وسبخة وشاه وصريط وموجب وخنّور وقطوف، وقد عمل هؤلاء الجباة – ومنهم سالم بن همام الذي أنابه أمير الأحساء ابن جلوي لجمع الزكاة – على جمع الزكاة من تلك المحاضر التي ما كانوا يستقرون فيها إلا لبعض ساعات فقط، وأنهم لم يعملوا أبداً على تسوية أيّ مشكلات في المحاضر السابق ذكرها. أما بنو ياس من أهل سبخة وشاه وقطوف، فقد رفضوا أن يؤدّوا زكاة إبلهم إلى الجباة السعوديين، غير أن خمسة من الياسيين من حمرور أقرّوا بأنهم دفعوا الزكاة المقررة التي تصل إلى خمسة ريالات أو عشر ربيات عن كل بعير. وتستطرد هذه المذكرة فتقول: إن أول محاولة سعودية لجمع الزكاة من ليوا كانت عام ١٩٣٧م (راجع مذكرة هندرسون ١٩٥٢م). وعلى العموم، فإن سالم بن همام أو غيره من جامعي الزكاة السعوديين لم يتيسّر لهم جمع مبالغ كبيرة من زكاة ليوا، وكما يقول أهل ليوا: لم يحدث أن تلقّوا أبداً "إكراميات" من الأحساء، وإن الهدايا التي توزع على أهل المنطقة تصل إليهم في منطقة بينونة، و لم يحدث أن بلغت ليوا.

تسوية القضايا

تحال كل قضايا بني ياس ليوا على الوالي الذي يعيّنه حاكم أبو ظبي الذي ينظر في النزاع بنفسه أو يحيله على قاضيه. أما الجرائم الخطيرة فتحال على حاكم أبو ظبي لينظر فيها بنفسه. ويفضّل المناصير أن يحيلوا نزاعاتهم على قاضيهم الخاص، ويحسمونها بأنفسهم إذا تيسّر لهم ذلك، ولكنهم يحيلون بعض القضايا التي تنشأ في ليوا - خاصة تلك المتصلة بملكية البساتين - على حاكم أبو ظبي شخصياً أو إلى واليه في ليوا.

حقوق البوفلاح في ليوا وبينونة

يؤكد الرأي العام في المنطقة أن ليوا في هذا الوقت من بداية النصف الثاني من القرن العشرين تنتمي إلى البوفلاح، وأنها كانت دائماً وأبداً طوال التاريخ الذي تعيه الذاكرة الحية تابعة لهم، و لم يحدث أبداً أن سيطرت عليها أيّ قوة أخرى سوى قوة البوفلاح. قال بعض الذين سألهم بكماستر الرأي: إن ليوا تابعة للبوفلاح "منذ زمن الرسول" وظلت على حالها من بعده صلى الله عليه وسلم، وإن كل السكان المستقرين في ليوا وكثيراً من بدوها يعتمدون اعتماداً تاماً على أبو ظبي ودلما للحصول على ما يحتاجون إليه من الأرز ومن الملابس. وفي الحقيقة، تدل كافة الشواهد على عدم وجود أيّ حيازات في ليوا إلا لبني ياس والمناصير، على الرغم من وجود ثلاث قطع مزروعة نخيلاً، في كل قطعة حوالى ثلاثين شجرة، تعود ملكيتها إلى آل مرّة، حصلوا عليها بعد أن استقروا في تلك المناطق وتزوجوا فيها. وتقع هذه الحيازات الثلاث بالقرب من الظفير وبالقرب من حمرور وفي الثروانية، كذلك توجد حيازتان للعوامر في حمار في البطين وفي المارية الغربية. وفي الحقيقة، كان بعض أفراد آل مرّة، وأحياناً من الرواشد وعدد من العوامر ومن بدو المناصير غير المستقرين، يزورون محاضر ليوا في مواسم جني التمور، ويعملون في تلك البساتين ويتلقّون أجورهم نوعاً، كما تفد بعض تلك المجموعات إلى ليوا للبيع والشراء والمقايضة.

أما بينونة، فهي منطقة تزورها بطون المناصر من البومنذر والبورحمة والبوشعر بنحو رئيس، وكذلك المزاريع، وبعض بيوت من المحاربة يرعون المنطقة فترة طويلة من السنة لا يفارقونها إلا إلى ليوا في موسم جني التمور. كذلك يرعى المنطقة عدد قليل من العوامر وآل مرة، وقد يوجد فيها بعض الرواشد أحياناً، ولكن المناصير يعدّونها "ديرتهم". وفي الحقيقة، فإن العديد من المناصير ومن بني ياس الذين يملكون إبلاً قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أداء الزكاة إلى الجباة السعوديين عندما يكونون في بينونة، أما المناصير الذين يقضون الشتاء عادة

في الختم وأغلبهم من البوشعر فيقعون خارج النطاق الذي يغشاه الجباة السعوديون. وتعدّ زكاة الإبل الزكاة الوحيدة التي يمكن أن يؤديها الإنسان في بينونة، لعدم وجود نشاطات اقتصادية أخرى، إذ لا توجد فيها بساتين نخيل، كما لا تعرف سواحلها أي نشاط اقتصادي فيها يتصل بالغوص.

لا يجد المناصير من البومنذر وكذلك من البورحمة الذين يرأسهم سعيد بن سويد حرجاً في أداء الزكاة إلى السعوديين، ولا ينازعونهم هذا الحق في بينونة، ولكن البوشعر الذين يقضي القليل منهم فقط الشتاء في بينونة، وكذلك المزاريع، لا يؤدّون الزكاة إلى أولئك الجباة إلا مضطرين، لأنهم إذا رفضوا أن يدفعوا فإن الجباة يأخذونها نوعاً، أي إنهم قد يأخذون جملاً أو اثنين من القطيع، أما إذا أدّوا الزكاة فإنهم لا يدفعون إلا خمسة ريالات على الرأس كما هي الحال في ليوا. ويبدو أن الجباة كانوا يحصلون حتى أواخر الأربعينيات من القرن الماضي على ريال واحد فقط عن كل رأس، قبل أن ترفع الزكاة في الأربع سنوات الأخيرة إلى خمسة. وعلى العموم، كان القوم يخبّئون إبلهم حين يسمعون بظهور الجباة الذين كان ظهورهم في المنطقة نمطياً. فقد درج ابن جلوي على إرسال المدعو ابن منصور في زمن الربيع إلى آبار العقيلة أو مرخية حيث يبقى أسبوعين أو ثلاثة ليحصل على الزكاة، وكذلك لاستقبال العديد من البدو الذين يفدون إليه للحصول على الهدايا. ويقول بكماستر: إن ابن منصور قد أوفد عام ١٩٥٢م المدعو بندر ليتوغل في الشرق حتى يصل الختم عند بدع شويبار Shauaibar ليجمع الزكاة هناك. وقد قضى الرجل يومين أو ثلاثة هناك و لم يعد بالكثير.

يدفع البورحمة الذين كبيرهم هو سعيد بن سويد، والبومنذر، الزكاة للجباة السعوديين. وكان كل من يؤدي الزكاة منهم يحصل على مبالغ "إكرامية" تتراوح بين مئة (١٠٠) وألف ومئتي (١٢٠٠) ريال. ومن هذه الفئة الأخيرة سعيد بن سويد، وربما كان قران بن مانع رئيس البومنذر الذي كان في تلك الفترة يقيم في الأحساء يحصل على مبلغ مماثل، كما تحصل بعض بيوت المحاربة على "هدايا مادية" أيضاً. أما البوشعر وكذلك البورحمة الذين رئيسهم سعيد بن مبارك فينكرون أنهم يتلقّون أيّ هدايا مالية من السعوديين. وعموماً، يمكن القول - إذا استثنينا قران بن مانع وسعيد بن سويد اللذين درجا على تسلّم مبالغ نقدية من السعوديين منذ العشرينيات من القرن الماضي - إن الآخرين من غيرهما لم يحصلوا على مال سعودي إلا في السنتين أو الثلاث التي سبقت مجيء بعثة زايد عام ١٩٥٢م. ولعله من الجدير بالذكر أن هؤلاء قد تلقّوا في هذه السنة مبالغ مضاعفة عمّا تلقّوه في العام المنصرم، وأنها كانت في مجملها تزيد عادة على ما كانوا يؤدّونه من أموال الزكاة.

الجزر المأهولة دائماً في أرخبيل أبو ظبي

تقع الجزر المأهولة التابعة لأبو ظبي في مواجهة ساحلها، أما سكانها فكلهم من بني ياس. ففي شرق أبو ظبي جزيرة السعديات التي يفصلها عن البر جزيرة أبو ظبي مباشرة، وهي جزيرة مأهولة طوال العام. فسكانها يعملون في صيد السمك والغوص، وللرميثات فيها ثمانية منازل. أما جزيرة بوشعون Bishcun التي تقع إلى الجنوب من السعديات، والتي يمكن أن تُرى من ساحل أبو ظبي بالعين المجردة، فأهلها يعملون طوال السنة في صيد السمك والغوص كذلك، وفيها ستة منازل للرميثات والبوفلاسة. وتقع جزيرة رأس الغراب على مسافة قريبة من الرأس الذي يحمل الاسم نفسه على بعد حوالى خمسين ميلاً من أبو ظبي، وهي جزيرة صغيرة فيها حوالى عشرة بيوت للرميثات، وكلهم يعملون في صيد البحر. وتقع جزيرة بوحيل Hail على بعد حوالى نصف ميل من رأس الغراب، وهي قريبة جداً من الساحل، وتضم ثلاثة منازل للرميثات يعملون في صيد الأسماك. أما جزيرة الطويلة التي تقع بين خور غناصة ورأس الصدر فهي لا تبعد عن الساحل إلا نصف ميل فقط، وفيها خمسة أو ستة بيوت للرميثات، ومن المؤكد أنها مأهولة في فترة الشتاء بالعاملين في صيد البحر.

تعدّ الفطيسي Fataisi – وهي من الجزر الواقعة إلى الغرب من أبو ظبي – من الجزر المأهولة دائماً، وفيها اثنا عشر منزلاً للقمزان والهوامل الذين يقضون فيها فصل الشتاء، أما الصيف فيقضونه في أبو ظبي. ومن الجزر الواقعة إلى الغرب من أبو ظبي أيضاً جزيرة بوكشيشة التي تضم سبعة منازل للرميثات والبوفلاسة والرواشد، وهي مأهولة طوال العام. وتضم جزيرة ماوويشات Maooaishat ثلاثة منازل للرواشد والبوفلاسة، وهي أيضاً من الجزر المأهولة طوال العام، كما نجد عشرة بيوت للرميثات والبوفلاسة والرواشد في جزيرة صلاحة المأهولة طوال السنة أيضاً، ونجد في أرخبيل غرب أبو ظبي أيضاً جزيرة مروح التي يضم ساحلها الجنوبي ثلاث مستوطنات هي لافا Laffa التي نجد فيها عدداً من منازل الرميثات يتراوح بين ثلاثة وستة، ومدار التي تضم أربعة منازل قد ترجع إلى الرميثات أيضاً، وقبة التي نجد فيها عشرين بيتاً للبوفلاسة والرميثات، وثلاثة بيوت للمزاريع الذين وفدوا من حمرور في ليوا (بيتان) ومن طرق (بيت واحد)، كما تضم مستوطنة مروح أربعة منازل للرميثات، ومنزلاً للبوفلاسة. ونجد في فيا أيضاً تسعة منازل للرميثات، ولهم ستة منازل في ثميرية، وإن لم تكن مأهولة تماماً طوال العام. وفي دقالة الواقعة بين ثميرية وحمار نجد بيتين للرميثات، ومثلهما أيضاً للمزاريع. وفي جزيرة ياس بيتان أو ثلاثة للمحاربة، أما غاغا فنجد فيها عدداً من البيوت لأسر مستقرة وهي شأنها شأن دلما مملوكة للقبيسات، كذلك يأتي الجزيرة العديد من القبيسات من خارجها، من قطوف عموماً، ليعملوا في صيد البحر من لؤلؤ وأسماك. وتُعدّ جزيرة دلما الأهم بين جزر أبو

ظبي، رغم أنها ليست أكبر جزر هذا الأرخبيل، فهي المركز الرئيس لصيد اللؤلؤ، وفيها قرية تضم حوالى أربعين إلى خمسين بيتاً لأسر مستقرة استقراراً دائماً، وسكانها خليط من بطون بني ياس. وفي الوقت الذي زار فيه الشيخ زايد هذه الجزيرة (١٩٥٢م)، شهد فيها هذا الخليط القبلي المستقر، كما شاهد العديد من الياسين الوافدين إليها من ليوا والساحل الظبياني عموماً، ويمكن أن نحصي منهم:

- خمسة منازل من المزاريع، قدم اثنان من طرق وثلاثة من المارية الغربية.
- ستة منازل من المحاربة الوافدين إلى الجزيرة من مزيرعة.
- منزلان للهوامل جاءا من شاه.
- تسعة عشر منزلاً للقبيسات الذين توافدوا إليها من مزيرعة وقطوف والبيف والمارية الغربية، إضافة إلى ثمانية بيوت من بيوت القبيسات المستقرة في الجزيرة استقراراً دائماً، وهم من الذين لا يملكون مزارع تمور في ليوا، وإن كانوا يفدون إليها أحياناً في مواسم جني التمور.

جاء في إفادة لفهد بن رويشد الدوسري الذي أناط به البوفلاح إدارة دلما: أن نحو مئة منصوري من البومنذر والبورحمة والبوشعر يزورون دلما في موسم الغوص، غير أن البعثة لم تلاحظ وجود أي من المناصير في دلما، إذ لم يكن أيّ منهم قد وفد إلى الجزيرة بعد. وكان رويشد الدوسري، والد فهد، يدفع "إكراميات" للمناصير لتشجيعهم على المجيء إلى دلما، غير أن هذه الممارسة قد توقفت في الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية. وأفاد فهد أيضاً بأن للمناصير في دلما ثلاث أو ربما أربع عوائل تقضي السنة في دلما في الغالب. فهي لا تملك أيّ حيازات في ليوا، ولا يذهبون إليها إلا في موسم جني التمور.

تشهد دلما في ذروة موسم الغوص، أي الفترة من بدايات شهر يونيو حتى سبتمبر، قيام سوق (بازار) فيه حوالى أربعة عشر محلاً تجارياً. وقد أحصت البعثة إبان زيارتها الجزيرة ثمانية محال تجارية تمارس نشاطها في الجزيرة. وتمتاز دلما بوجود قدر كافٍ من المياه التي تستخرج من حفر ضحلة، وهي في ذلك تختلف عن الجزر الأخرى التي ليسَ فيها من الماء إلا ما توفره الأحواض التي هُيّئت لاستقبال مياه الأمطار وتخزينها. ويمكن دلما أن تمدّ الجزر الأخرى بالماء إذا شحّ وجوده فيها. وفي المنطقة بالقرب من دلما عدد من الجزر غير المأهولة التابعة لأبو ظبي، يستعملها العديد من الغواصين والسماكين قواعد يلجأون إليها ساعة الحاجة، كما تسرح في هذه الجزر أغنام وأباعر يُدفع بها من دلما والسواحل المجاورة إذا كان المرعى وفيراً، فترعاها طليقة من دون مراقبة.

يتواصل موسم الغوص الرئيس في الفترة التي تبدأ من منتصف إبريل حتى أوائل أكتوبر من دون انقطاع، إلا إذا صادف أن حلّ رمضان، شهر الصيام، ضمن هذه الفترة، ففيه يرتاح القوم من حدّة العمل. كذلك نجد مناطق مثل بعيّا على الساحل في المجن يجري الحصول بالخوض

في ضحضاحاتها على نوع صغير من اللؤلؤ يسمى: مجنّة .

لاحظت البعثة أن كافة المناصير الذين يأتون إلى دلما يمكثون فيها فترة لا تمتد أكثر ممّا يستغرقه الموسم، وربما مكث بعضهم فترة أقل من ذلك. فقد يعمل في الغوص فترة وجيزة ثم يعود أدراجه قبل نهاية الموسم، أما أفراد قبيلة بني ياس في دلما، فإنهم يعملون في الغوص طوال فترة الموسم، ويبقى بعضهم بعد ذلك إلى نهاية الربيع أو بداية الشتاء التالي يمارس حرفة صيد الأسماك، وقد يصادف أن يتطابق موسم جني التمور مع نشاط الصيد الذي تقوم به مثلِ هذه الجماعات في دلما، فلا غرابة أن يترك أغلب هؤلاء أسرهم في ليوا ليقوموا بهذه المهنة بدلاً منهم، وفي الغالب لا يعود إلى ليوا من أمثال هؤلاء إلا الذين يدركون أن أسرهم تعجز عن جني التمور من دون عونهم، فتجدهم يعودون إلى ليوا بعد حوالى ثلاثة شهور من انتهاء موسم الغوص. ويشيد هذا التقرير بروح الزمالة والتآلف والتعاطف بين قبائل بني ياس والمناصير الذين تعمل جماعات مشتركة منهم من هذه القبيلة أو تلك في مركب واحد. ويشير التقرير إلى أن حاكم أبو ظبي يحصل على رسوم صيد اللؤلؤ من العاملين في هذا المجال في نهاية الموسم. فعند "القفال" يجب أن يؤدي نوخذة (رئيس بحارة) كل مركب حين يعود إلى قاعدته في أبو ظبي أو دلما نصيباً يساوي الذي يتقاضاه السيب (العامل الذي يجرّ الحبل في المركب) في ذلك المركب. ويحسب هذا الرسم - كما يقول بكماستر - على النحو الآتي:

إذا كانت القيمة الكلية المقدّرة للؤلؤ الخاص بالمركب ألفي ربية على سبيل المثال، فإن مئتي ربية تقتطع من هذا المبلغ لإصلاح أعطاب المركب، وكذلك يحسم من المبلغ مئتا ربية هي العلاوة الإضافية المخصصة للغواصين. أما الألف والستمئة ربية الباقية من المبلغ فتقسم بين الغواصين والسيب بنسبة ٣:٢ أي ٩٦٠ ربية للغطاسين و ٦٤٠ ربية للسيب. وإذا افترضنا - كما يقول التقرير - أن عدد السيب في هذا المركب عشرة أشخاص - وهو رقم يمكن أن يمثّل متوسطاً مقبولاً - فإن نصيب "السيب" لا يقسم على عشرة أسهم بل على أحد عشر، ويُعدّ هذا السهم الزائد (الحادي عشر) نصيب الحاكم في رسوم الغوص المفروضة على المركب. كذلك توضع ضرائب أخرى على اللؤلؤ إذا تجاوزت قيمة المجلوب منه ألفي درهم، ولكن يجري أحياناً التغاضي عن هذه الضريبة. ونجد في تقرير لهندرسون ضريبة أخرى قال: إنها تؤدّى للحاكم في بداية الموسم، إذ على كل غطّاس وعلى كل سيب أن يؤدي لخزانة الحاكم رسماً قدره أربع ربيات، أما لوريمر فيقول: إن الرسوم التي تؤدّى لخزانة أبو ظبي هي: سهم بحار في المراكب الكبيرة والمتوسطة، وسهم غطاس في المراكب الصغيرة، كما تحصل هذه الخزينة أيضاً على "حقوق امتياز" على لؤلؤ أي من المراكب تصل قيمته إلى ألفي ربية أو تزيد. ويزور عباس بن عبد الله، مندوب الشيخ شخبوط، دلما لجمع هذه الضرائب والرسوم سنوياً. ويشير التقرير إلى أن هذا المندوب كان في تلك الفترة التي قامت فيها البعثة يؤدي مهمته. فوضع الشيخ شخبوط

المادي الصعب جعله أكثر حزماً في تحصيل هذه المبالغ.

أما صيد الأسماك، وهو نشاط دائم على امتداد العام رغم أنه يتراجع في فترة اشتداد القيظ حين ينزح كثير من السماكين إلى البريمي، فلا تؤدى عنه ضريبة مباشرة. ويقوم بهذا النشاط كل أهل جزر أبو ظبي المأهولة عدا دلما التي يتركز اهتمامها في الدرجة الأولى على الغوص، كما يسود هذا النشاط أيضاً سواحل بعض الجزر غير المأهولة. ويُدفع إيجار سنوي قدره مئة وخمسون ربية سنوياً رسوم صيد أسماك عن المنطقة التي تشمل جزر: ثميرية، وعطيش، والظنّة، وجزر شويهات، كما يُدفع مبلغ مماثل في السنة عن صيد الأسماك في المنطقة الممتدة من مرفأ إلى عطيش، وهي تشمل ست جزر. وكانت الرسوم التي تدفع في الماضي على صيد الأسماك في كل من هاتين المنطقتين مئتي ربية، ولكن الشيخ شخبوط أمر بخفضها إلى مئة وخمسين. وأفاد أحد الرميثات من دقالة Daqalla بأنه يدفع أربعين ربية سنوياً لحقوق الصيد في المنطقة الممتدة بين دقالة وجبل الظنّة، كما تدفع رسوم مخفضة عن صيد الأسماك قبالة المناطق الساحلية، وهي في مجملها تقل كثيراً عن الرسوم المفروضة على صيد الأسماك في المياه العميقة. وللملتزم الذي يؤدي الرسوم الحق في الصيد في المياه العميقة وفي السواحل كذلك، وأن يتخذ ما يشاء من أساليب الصيد، سواء المستعملة في المياه العميقة بالشباك والمراكب، أو بشد الشباك بين عواميد في البحيرات الضحلة لتعلق فيها الأسماك في فترة الجزر. ومن حق الملتزم في منطقة ما أن يسمح لصائدي أسماك آخرين بالصيد في المنطقة التي تناط به. وقد جرت العادة على أن يؤدي مثل هذا الصياد للملتزم دافع الرسوم خمس ما يظفر به من أسماك.

يباع السمك طازجاً ومجفّفاً في أسواق أبو ظبي ودلما، ولكن في العادة تجفّف أغلب الأسماك. والمشهور أن الرميثات الذين يعملون في صيد السمك وتجفيفه في دقالة يبيعونه لتجار قطر والبحرين الذين يفدون إلى تلك المنطقة لشراء هذه الأسماك. وقد يفد بعض التجار السعوديين من القطيف أو دارين إلى جزيرة مروح لشراء الأسماك المجففة. وقد شهد أحد البوفلاسة بأن السمّاكين قد يحملون بضاعتهم من جزر أبو ظبي إلى القطيف لبيعها هناك. والجدير بالذكر أن كافة صائدي الأسماك في السواحل وعلى الجزر هم من قبيلة بني ياس ومن الرميثات والبوفلاسة، يشاركهم في ذلك إخوانهم الرواشد والسودان. ولن تجد قبيلة أخرى غير بني ياس تعمل في صيد السمك الذي هو نشاط مقصور عليهم فقط، لا يشاركهم فيه المناصير ولا العوامر ولا آل مرّة ولا أيّ قبيلة أخرى من القبائل التي تعمر المنطقة أو تمر بها. ويبدو أن السمّاكين الذين يفدون من ليوا لا يدفعون رسوم صيد ولا التزاماً، ولا يؤدّون عن صيد الأسماك أيّ ضريبة مفروضة.

جدول مضارب ليوا كما وردت عند بكماستر خلال رحلته مع زايد في عام ١٩٥٢م

المنطقة	القبيلة		المضارب		عدد المنازل (2)		مجموع	بحضرة الشامسي	الولاء (3)
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيام			
الجريرة (اليريرة)		بورحمه		✓	10	7	17	الختم، كبيرهم سعيد بن مبارك بن سالمين الموالي للبوفلاح	ب
همايم		بورحمه			13	بعض الخيام	13	الختم، كبيرهم سعيد بن مبارك	ب
بو عوانه		بورحمه		✓	10	بعض الخيام	10	الختم، كبيرهم سعيد بن مبارك	ب
قعيصة		بورحمه		✓	10	10	20	الختم، كبيرهم سعيد بن مبارك	ب
الخيس		بو شعر		✓	15	5	20	الختم	ب
موصال Mausal		بورحمه		✓	9	–	9	الختم ربما كبيرهم سعيد بن مبارك (4)	س(ربما)
		بو شعر		✓	6	4	10	الختم، كبيرهم ربما كان سعيد بن مبارك	
وادهيل Wadhill		بو شعر		✓	10	5	15	الختم أو البينونة	ب

المنطقة	القبيلة		المضارب		عدد المنازل (2)		مجموع	يقضون الشتاء في	الولاء (3)
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيام			
جرة		بو شعر		✓	36	3	39	الختم أو البينونة، مقر محمد بن خادم البوشليبي كبير البوشعر	ب
		بورحمه		✓	–	2	2	الختم، كبيرهم سعيد بن مبارك	
نشاش		بوشعر		✓	22	13	35	الختم أو البينونة	ب
داهن		بومنذر		✓	10	40	50	في الأحساء بصفة رئيسة وقليل منهم في غرب بينونة كبيرهم سعيد بن مبارك	س
		بورحمه		✓	–	2	2		
الثروانية		بومنذر		✓	14	–	14	بينونة ورملة الحمرا والختم	س
		بوشعر		✓	4	–	4		ب
	هوامل			✓	4	–	4		ب
	بوخيل		✓	✓	2	–	2		ب
سبخة	هوامل			✓	17	–	17		ب
		بو منذر		✓	2	–	2	في الأحساء (ربما)	س

المنطقة	القبيلة		المضارب		عدد المنازل (2)		المجموع	فترة الشتاء في	الولاء (3)
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيم			
صريط		بو منذر		✓	25	–	25	الأغلبية تقضيه في الأحساء ربما، وبعضهم في بينونة الغربية. ويمثل ساريت مركز قران بن مانع، وكان يقضي الشتاء في الأحساء كما هي عادته	
حويطين		بو منذر		✓	15	–	15	بينونة /مجن أو الأحساء والختم	س/ب
		بورحمه		✓	10	–	10		س/ب
		بو شعر		✓	2	–	2		ب
وهيدة		بو منذر		✓	6	44	50	بينونة وفي منطقة العقيلة بنحو عام ثلاثة بيوت في الأحساء هذا العام	ب كما أفاد المصدر ولكن من المؤكد أنهم في الغالب س
		بورحمه		✓	–	1	1		
مشيجر	هوامل			✓	4	–	4	رملة الحمرا أو الختم	
		بورحمه		✓	2	–	2		ب

المنطقة	القبيلة		العساريب		عدد المنازل (2)		مجموع	يقضون الشتاء في	الولاء (3)
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيام			
شاه	هوامل		✓	✓	21	–	21	ربما في بينونة	ب
		بومنذر		✓	6	–	6		س
		بورحمه		✓	2	–	2		
عتاب	هوامل			✓	22	–	22	ربما في البحر أو في الختم أو رملة الحمرا، أما البو منذر ففي بينونة	ب
		بوشعر		✓	3	–	3		
هفيف	مزاريع (5)			✓	11	–	11	ربما في بينونة	ب
		بو شعر			1	–	1		ب
		بو رحمه		✓	1	–	1		س
جرمدا		بورحمه		✓	20	–	20	ربما في بينونة	س
	محاربة(6)			✓	3	–	3	في مجن	ب
	هوامل		✓		3	–	3		ب
	مزروعي		✓		2	–	2		ب
	بو فلاح		✓		2	–	2		ب
نوفير	محاربة			✓	8	–	8	الطف، وربما بينونة الغربية أو الأحساء	ب
		بورحمه		✓	3	–	3		س

المنطقة	القبيلة		المضارب		عدد المنازل (2)		مجموع	يقطنون الشتاء في	الولاء (3)
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيام			
الهيلة	محاربة			✓	6	–	6	4 من 6 من المحاربة يذهبون للغوص بالقرب من أبو ظبي وأحياناً على سواحل بينونة	ب
	قبيسات		✓		2	–	2		ب
		بو منذر		✓	4	–	4		س
المزيرعة	محاربة		8	15	23	–	23	5 بيوت في مجن 4 + في الختم 6 + في الغوص بالقرب من أبو ظبي	ب
	قبيسات		✓		9	–	9		
	مزاريع		✓		1	–	1		
الحميانة		بو رحمه		✓	4	–	4	ربما في بينونة الغربية أو الأحساء	س
أليف	قبيسات		3	4	7	–	7	دلما – يملكون فيها منازل	ب
	بو فلاح			✓	1	–	1		
	محاربة			✓	1	–	1	يرعون في منطقة على بعد عشرة أميال شمال مستوطنتهم	

المنطقة	القبيلة		المضارب		عدد المنازل (2)		مجموع	يقضون الشتاء في	الولاء (3)
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيام			
المارية	مزاريع		✓	✓	5	–	5	حوالى النصف يقضون الشتاء في دلما	ب
	قبيسات		✓	✓	5	–	5	حوالى النصف يقضون الشتاء في دلما (يقضي والي الشيخ شخبوط موسم جني التمور هنا)	
الظفرة	هوامل		✓		11	–	11		ب
	مزاريع		✓		1	–	1		
ظويهر	بو فلاح		✓		10	–	10		ب
	بو منذر			✓	1	1	1	الأحساء	س
لطير	مزاريع			✓	7	–	7	بينونة الغربية والختم	ب
	مرر			✓	6	–	6		
	بو فلاح		✓		1	–	1		
	محاربة		✓		1	–	1		
		بو رحمه		✓	4	–	4	بينونة	
		بو منذر		✓	1	–	1	الأحساء	س
الرويضة		بورحمه		✓	2	–	2	بينونة	

المنطقة	القبيلة		المضارب		(2) عدد المنازل		مجموع	يقضون الشتاء في	(3) الولاء
	بني ياس	مناصير	(1) دائمة	غير دائمة	بيوت	خيام			
كيّة		بومنذر		✓	6	–	6	الختم وبينونة	س
		بو شعر		✓	4	–	4		ب
		بورحمه		✓	4	–	4	غرب بينونة أو الأحساء	س
كيّة	مرر		✓		1	–	1		ب
	مزاريع		✓		1	–	1		
شدق الكلب (منصور)			✓						
	مزاريع		✓		20	–	20		ب
	محاربة		✓		2	–	20	أحياناً يرعون في الختم	
قطوف	قبيسات		✓		20	–	20		ب
	بو فلاح			✓	2	–	2		
	بو خيل			✓	1	–	1	الختم وربما بينونة الغربية	ب
		بو رحمه		✓	2	–	2		س
موجب	مزاريع			✓	15	–	15	بينونة الغربية أو الختم/يعمل بعضهم في أرامكو (5)	ب
		بو رحمة		✓	2	–	2		س

المنطقة	القبيلة		المضارب		عدد المنازل (2)		مجموع	يقضون الشتاء في	(3) الولاء
	بني ياس	مناصير	دائمة (1)	غير دائمة	بيوت	خيام			
الحيلة		بو رحمه		✓	2	–	2	بينونة والأحساء وربما يعود عدد أكبر من البورحمة إلى هذه المضارب في موسم جني التمور	س
	مزاريع			✓	1	–	1	بينونة	ب
حمرور	مزاريع			✓	20	–	20	الختم أو بينونة الشرقية والطف بيتان فهم يذهبان للغوص في جزيرة ماراوا	ب
	بو شعر			✓	1	–	1	الختم	ب
طرق (طرج)	مزاريع			✓	12	–	12	الختم وبينونة الشرقية والطف ويذهب بيت منهم للغوص في مروح	ب
		بو رحمه		✓	2	–	2	بينونة الغربية والأحساء	س
ختّور	مزاريع			✓	24	–	24	الختم وبينونة الشرقية	ب

المنطقة	القبيلة		المضارب		(2) عدد المنازل		مجموع	يقضون الشتاء في	(3) الولاء
	بني ياس	مناصير	(1) دائمة	غير دائمة	بيوت	خيام			
المارية الغربية	مزاريع			✓	22	–	22	في منطقة مرخية في بينونة الغربية وثلاثة منازل منهم في دلما	ب
		بو رحمه		✓	3	–	3	بينونة الغربية والأحساء	س
		بو شعر		✓	1	–	1	بينونة	ب
العـد		بو شعر		✓	10	–	10	بينونة الغربية	ب
		بو منذر		✓	5	20– 10 إضافية	–	بينونة الغربية وربما الأحساء	س
		بو رحمه		✓	1	–	1	بينونة	ب
ملقطة		بو رحمه		✓	10	–	10	في بينونة وأحياناً يزورون الأحساء، آخر مرة كانوا هناك قبل عشرة سنوات	ب/س
عرادة		بو رحمه		✓	3	–	3	الأحساء	س

* ملاحظات عامة

يظهر هذا الجدول أن المناصير، وأكثر المزاريع، ونحو ثلث المحاربة والبوخيل والمرر وقليل من الهوامل والبوفلاح، يقضون فترة طويلة من العام في ليوا يرعون منطقة الختم وبينونة بنحو أساسي، ولا يعودون إلى محاضرهم إلا في فترة جني التمر التي تمتد من يوليو إلى سبتمبر، أما من بقي من هذه المجموعات فتظل في ليوا أو على تخومها، أو قد يذهب بعض أفرادها لصيد اللؤلؤ في المنطقة الممتدة من دبي إلى دلما، ويشتغل بعضهم في شركات البترول في قطر أو في السعودية.

* قائمة تشمل بعض بساتين النخيل في ليوا

شملت القائمة السابقة المستوطنات المأهولة في فترة جني التمور في الفترة من يوليو حتى سبتمبر، ولكنها استثنت عدداً من المستوطنات التي لا تضم مساكن دائمة ولا مؤقتة، لكن يأتيها المواطنون من المحاضر الأخرى، ويقيمون فيها فترة وجيزة تغطي الفترة التي يتطلبها جني تمور هذه البساتين. إن مثل هذه البساتين التي تعود ملكيتها إلى محاضر أخرى في ليوا كثيرة ومتعددة، وتعذر القيام في تلك الفترة بإحصائها، ولكن لا بأس من إثبات بعض أسمائها وأسماء المحاضر التي تمتلكها.

- المشروب: ملكية نشاش.
- الهادي: (بين ثرمدا وسبخة) ملكية مشتركة لكليهما.
- نميل ونميلة: ملكية شاه.
- جرميدة وغضينة: ملكية جرمدا.
- الشاروب وأم القرين في الباطن: ملكية قطوف.
- الرديم وسمينة وبياتي: ملكية حويطين.
- سالمي: ملكية جرمدا بالاشتراك مع مزيرعة.
- البوسديم وحامين: ملكية موجب.
- حمار في الباطن: ملكية خنّور.
- أم الحصن: ملكية عرادة.

ويبدو أن هذه البساتين كانت مأهولة في فترة ما، كما يظهر عند لوريمر، والمعروف أن واحداً منها على الأقل هو المشروب قد هُجر إثر حرب أبو ظبي – دبي (١٩٤٦-١٩٤٧م).
العديد من المعلومات الخاصة بعدد النفوس استقاه بكماستر ممّا ذكره محمد بن خادم الذي

يُعدّ موسوعة في جميع ما يتعلق بمستوطنات ليوا كلها، وليست تلك المتعلقة بمجموعة البوشعر فقط. أما أعداد البورحمة فقد أثبتها بكماستر بعد أن استشار سعيد بن مبارك وسعيد بن سويد، كما استشار أيضاً محمد بن صياح وآخرون في ما يخص أعداد المزاريع.

١. كلمة دائمة تعني أنهم يقضون السواد الأعظم من السنة في ليوا أو قريباً منها.

٢. تدل الأعداد على عدد الخيام وعلى البيوت المأهولة فقط في فترة جني التمور، أما عدد الأشخاص داخل كل بيت فمختلف تماماً يتراوح بين ثلاثة أشخاص في كل بيت إلى اثني عشر، وقد يصل عدد النفوس في بعض البيوت والخيام إلى خمسة عشر، ويبدو لنا أن متوسط عدد النفوس في البيت الواحد يمكن أن يؤخذ على أنه سبعة أشخاص.

٣. ب تعني البوفلاح، س تعني السعودية.

٤. المزاريع الذين يعملون في أرامكو/الظهران هم أساساً من أهل موجب وطرق وحمرور وختّور والمارية الغربية، وقليل منهم من مزيرعة.

٥. إذا سألت المناصير بنحو عام عن ولائهم تجدهم يجيبون في الغالب بأنهم مستقلون. ويبدي البوشعر الذين على رأسهم محمد بن خادم، وقسم البورحمة الذي عليه سعيد بن مبارك، ولاءً ثابتاً نوعاً ما للبوفلاح. وليس ثمة شك في أن كل البومنذر تقريباً، وكل قسم البورحمة التابع لسعيد بن سويد يساندون السعوديين، وكثير منهم يعدّون أنفسهم من رعاياهم.

يدفع بعض المحاربة (خمس أسر) زكاة إبلهم للسعوديين، ولكنّ ولاءهم للبوفلاح يبدو ثابتاً.

يُظهر هذا الجدول عدد البيوت أو الخيام التي تبذل الولاء لحكام أبو ظبي والرياض.

	ولاء للبوفلاح	ولاء للسعوديين أتباع سعيد بن سويد
البورحمة (أتباع سعيد بن مبارك)	79	70
البوشعر	136	–
العدد الكلي	215	70
البومنذر	–	179
بني ياس (مزروعي)	122	–
بني ياس (هوامل)	22	–
بني ياس (محاربة)	44	–
بني ياس (قبيسات)	43	–
بني ياس (البوفلاح)	19	–
بني ياس (المرر)	7	–
بني ياس (البوخيل)	3	–
المجموع الكلي	**535**	**249**

ويضيف بكماستر مزاريع بني ياس وقدرهم عشرون إلى قائمة الأكثرين قرباً للسعوديين، رغم أن الجدول يضع ولاءهم في البوفلاح.

يعمل الكثير من أهل المستوطنات الياسية في شركة بترول قطر، أو في بتروليوم دفلبمنت (الساحل المهادن) في رأس الصدر قبل أن تتوقف العمليات البترولية هناك، أما المزاريع من بني ياس فيعملون بصفة شاملة في أرامكو الظهران. ويُعد المناصير رعاة إبل في الأساس، لم يعمدوا إلى العمل مع شركات البترول الذي اهتمت به فئة قليلة منهم فقط، أما القبائل الياسية فتعمل في صيد اللؤلؤ بصفة شاملة، وتملك كل مستوطنة ياسية عدداً يتراوح بين ٥-١٥ مركباً. أما المناصير فقد كانوا حتى فترة قريبة يعملون أيضاً في الغوص وكلهم زهدوا فيه أخيراً، ولبعضهم قطعان من الضأن والغنم.

أنا أحمد بن سالم بن مساعد من قبيلة البورحمة (مخازيم) من مستوطنة لطير، وأسكن الآن في بئر عقيلة في منطقة بينونة (الظفرة) العائدة للشيخ شخبوط بن سلطان، حاكم أبو ظبي وتوابعها، أقرّ وأعترف بأني قد تسلّمت مبلغاً وقدره مئة وثمانون ريالاً سعوياً كهدية إكرامية من محمد بن منصور، الموظف الذي يجمع الزكاة لحكومة المملكة العربية السعودية. وقد وقع هذا الأمر خلال زيارته للمنطقة في شهر جمادى الأولى ١٣٧٠ (مارس ١٩٥١)، كما أعترف أيضاً بأني قد تسلّمت مبلغاً آخر قدره مئتان وثمانون ريالاً سعودياً في شهر جمادى

الآخرة ١٣٧١ (فبراير ١٩٥٢).

مؤرخ في ١٨ رجب ١٣/١٣٧١ إبريل ١٩٥١ [بصمة أحمد بن سالم بن سعود]

شهد عليه: م. س. بكماستر، الضابط السياسي المساعد، الساحل المهادن، الشارقة.

أنا سالم بن هلال بن طراييش من قبيلة البورحمة من مستوطنة صريط وأسكن الآن بئر مرخية في منطقة البينونة (الظفرة) العائدة للشيخ شخبوط بن سلطان حاكم أبو ظبي وتوابعها، أقرّ وأعترف بأني قد تسلّمت مبلغ مئة ريال سعودي هدية (إكرامية) من محمد بن منصور الموظف الذي يجمع الزكاة لحكومة المملكة العربية السعودية. وقد وقع هذا الأمر خلال زيارته للمنطقة في شهر جمادى الأولى ١٣٧٠ (مارس ١٩٥١)، كما أعترف أيضاً أني قد تسلمت مبلغاً آخر قدره مئة ريال سعودي في شهر جمادى الآخرة ١٣٧١ (فبراير ١٩٥٢م).

البصمة /الشاهد

فهرس الأعلام

ب

ت

ش

ص

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

فهرس الأماكن

أ

ب

Twitter: @ketab_n

بعد طرد المسلمين من الأندلس أرسلت الدول الأوروبية تباعاً رحّالة إلى الشرق لاستكشاف دروبه التجارية وتقصّي أحواله السياسية والاجتماعية والتعرّف إلى الإسلام، وذلك تمهيداً لحركة الاستعمار.

عمل بعض هؤلاء الرحالة على بعث الفكر القومي في شبه الجزيرة العربية ليعارضوا به الرابطة الإسلامية، كما عمل بعضهم على بث التنصير السياسي والثقافة الغربية تسهيلاً للاستثمارات والامتيازات النفطية بعدئذ.

صنّف هؤلاء الرحالة الذين تخرّج معظمهم في مدارس كهنوتية أو عسكرية كتباً تناولوا فيها أخبار رحلاتهم بشكل يمازج بين الحقيقة والخيال، مصوّرين السكان شعباً متوحشاً فاسداً جنسياً، بدائيا لا يخلو من نبل همجي.

يخلص هذا الكتاب إلى أن أدب الرحلة الغربية قام على أسس صليبية استعمارية عنصرية عُنيت بتوجيه الرأي العام الغربي لتحقيق أهداف وغايات بعيدة عن مصالح المنطقة وشعوبها.

عبد العزيز عبد الغني إبراهيم باحث وأستاذ جامعي سوداني، اهتمّ بدراسة تاريخ منطقة الخليج. له سلسلة من الدراسات الوثائقية في مجال تاريخ الخليج والجزيرة العربية. صدر له عن دار الساقي «أمراء وغزاة»، «صراع الأمراء»، «نجديون وراء الحدود»، كما صدرت ترجمته العربية لكتاب «تاريخ عمان» لمؤلفه جيمس ريموند ولستد.




ISBN 978-1-85516-960-9